الكاتب الفائز بجائزة الكتاب الوطني بمالطا لعام 2019

رواية

ألفريد سانت

حقل الإسخريوطي

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

ألفريد سانت

حقل الإسخريوطي

رواية

ترجمة

عبد الرحيم يوسف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عبد الرحيم يوسف/ من مواليد الإسكندرية في 1975. تخرج من قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية جامعة الإسكندرية عام 1997. يعمل مُدرِّسًا ومترجمًا حرًا. شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة مينا من عام 2005 إلى 2009. نشر ترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية وموقع مدى مصر ويرأس تحرير موقع (ترى البحر). ترجم عددا من التقارير كمترجم حر لمنظمة هيومن رايتس ووتش واليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة للسكان. نشر سبعة دواوين بالعامية المصرية وخمسة عشر كتابا مترجما في دور نشر مختلفة، وفاز عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد ماندفيل والصادر عن دار صفصافة بجائزة الدولة التشجيعية للآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام 2016.

....

حقل الإسخريوطي
طبعة 2020

رقم الإيـــــداع: 2020/11673

الترقيم الدولي: 978-977-821-161-6

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This project is supported by Arts Council Malta- Cultural Export Fund.

"The Iscariot Field" © 2011 by Alfred Sant
Originally published by "L-Għalqa tal-Iskarjota" © 2009 Alfred Sant

CULTURAL EXPORT FUND

IL-KUNSILL MALTI GĦALL-ARTI

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

سانت، ألفريد

حقل الإسخريوطي: رواية/ ألفريد سانت، ترجمة عبد الرحيم يوسف

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠

٥٨٨ ص، ٢٢ سم

تدمك ٦-١٦١-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص المالطية

أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)

ب- العنوان

٨٩٢,٧٩٣

رقم الإيداع: ١١٦٧٣/ ٢٠٢٠

وكنا قد ابتعدنا عنه،

عندما رأيت اثنين متجمدين في ثغرة واحدة،

حتى كأن رأس أحدهما قلنسوة للآخر.

وكما يُلتهم الخبز من الجوع،

هكذا أنشب الأعلى أسنانه في الآخر،

حيث يلتقي الرأس بظهر العنق.

...

رفع الفمَ عن الطعام الخبيث ذلك الآثم،

وهو يمسحه في شعر الرأس

الذي نظرت إليه مذعورا.

"الكوميديا الإلهية"، الأنشودتان 32/33، ترجمة: حسن عثمان (بتصرف)

***

”والآن ألا ينبغي أن تبتهج وأن تصنع لنفسك لوحا تذكاريا... وتقول فيه: ‘إن آمون رع، ملك الآلهة... أرسل إليّ ون آمون... كي أجلب الأخشاب من أجل المركب العظيم والجليل لآمون رع ملك الآلهة. قطعت الخشب. وحمَّلته. وزودته بسفني وأطقم بحارتي. وجعلتهم يصلون مصر؛ كي أطلب خمسين عاما من آمون لنفسي، زيادة على قَدَري’. وسيحدث بعد زمن آخر، ربما، أن يأتي رسول من أرض مصر يعرف الكتابة، وقد يقرأ اسمك على اللوح. وسيقدمون لك الماء في الغرب، مثل الآلهة الموجودة هنا.»

من «رحلة ون آمون إلى فينيقيا». بردية تم اكتشافها في قرية الحيبة في بني سويف، محفوظة في متحف موسكو.

.1

الحادثة بأكملها، لو أن هذا ما ينبغي أن تُدعى به... لكن بالكاد يمكن للمرء أن يدعوها بهذا، لأنها لم تكن مجرد حادثة، بقدر ما كانت قصة رعب، وإذا كان ما ينبغي فعله هنا حقا وصدقا هو قول الحقيقة كاملة، فإن الحقيقة هي أنه لم يتمكن أي أحد بعد من تفسير لماذا وكيف حدث كل هذا... وحتى الآن، لم يتجاوز أحد عواقب ما حدث... على أية حال، بدأت الحادثة عندما كان برتراند كاسباه يفكر (ليس للمرة الأولى) في طريقة لإصلاح خطأ وسائله عن طريق توجيه «ضربة خيالية» – وهي الطريقة التي كان يحب أن يصف بها محاولاته لتغطية الأخطاء.

في بداية الموسم التليفزيوني، كان البرنامج الأسبوعي (كويس كوام)[1] الذي كان ينتجه هو وأصدقاؤه، يصل إلى جمهور غفير. وكانت الإعلانات تأتي إليه بمعدل يزيد على ضعف مستويات العام الأسبق. وعندما نُشرت الاستبيانات المتعلقة بعدد المشاهدين للبرامج، وتأكد مرة أخرى أن برنامج (كويس كوام) يحقق بالفعل نجاحا جامحا، بدا وكأن برتراند قد هدأ، وكأنه بدأ يفضل العمل على مشروعات أخرى والتهى بها. بدأ يتخلف عن الركب عندما يأتي وقت التجهيز للمقترحات الجديدة. بدأ يتوانى عندما يتعلق الأمر بالإصرار على المونتاج الجيد للمشاهد الفيلمية المتتابعة. صار يعتمد على الآخرين من أجل اختيار مقترحات البرنامج والذي صار يُقدَّم بأفكار من الدرجة الثانية. وفوق كل هذا، أدرك متأخرا إلى حد ما أنه مكشوف بالنسبة للحلقتين

1- Quis Quam تعني باللاتينية أي شيء أو أي أحد أو أكثر من شيء واحد.

الأخيرتين في الخطة، ولم تكن لديه أي مقترحات جدية من أجلهما. أو بالأصح، فإن الموضوعات التي كان قد اختارها مع هاردهيد، منتج كويس كوام، من أجل الحلقات الأخيرة من البرنامج جرى استباقها... وتنفيذها بامتياز... على يد برنامج منافس في التليفزيون الوطني.

إذن كانوا في حاجة الآن إلى أن يكتشفوا موضوعات جديدة في وقت أسرع مرتين، ويبحثوها، ويكتبوا السيناريوهات ويسجلوا الحلقات. ليوم أو اثنين، كانوا ضائعين... حتى قبض برتراند على مناقشة أجراها مع البروفيسور ديلينجر، العالِم والمؤرخ، ليُطلق مقترحا يمكن مطه على حلقتين، واحدة من تلك الأفكار التي يمكن تقديمها في جزئين.

كان برتراند قد قال بالفعل ما كان عليه أن يقوله لصديقه السيد مالكولم أوروري.

"هل كل شيء مهيأ للوجهة التي تقصدها؟"

"هكذا يبدو."

"لو حدث أي شيء..."

"مثل ماذا؟"

"أنت على حق."

كان هذا في افتتاح معرض عن العصر الفينيقي في البحر المتوسط. وبينما كان الوزير يلقي خطبة ترحيبية من الممكن ألا تكون لها نهاية، وجد برتراند وديلينجر نفسيهما جنبا إلى جنب. تبادلا المجاملات. قلة من النساء الجميلات أو المثيرات للاهتمام أو غير المصاحبات حضرن حفل الاستقبال الذي تلى ذلك، وكان برتراند على وشك المغادرة مبكرا. ومع ذلك، لم يكن يرغب بالتحديد في أن يقضي ربع ساعة في الصباح

التالي يقدم أعذاره لفلورا بيتا لوكا التي كانت تنظم المعرض في (دار التراث المالطي)، لصالح (المعهد الوطني للثقافة) ورئيسه مالكولم أوروري. من المؤكد أنها ستتصل به تليفونيا لتشكو من أنه اختفى سريعا أكثر من اللازم. لذلك توجه نحو البروفيسور ديلينجر، الذي كان واقفا عند البار وفي مزاج مهيأ لشرب الويسكي، مبتلعا كأسا بعد آخر. تنتاب البروفيسور ديلينجر الرغبة في الويسكي مرة أو مرتين في العام، ويقضي بقية وقته منغمسا تماما في العمل البحثي. كان يمكن للمرء رؤيته وهو ينهي كأسا، ويلتقط قطعة صغيرة من المعجنات بالبازلاء أو شطيرة جبن، ثم يلتفت من جديد ليحصل على كأس ويسكي آخر.

قبلها بقليل، كان برتراند قد شاهده في مناقشة حيوية للغاية مع الوزير، ثم مع بعض الضيوف البارزين الآخرين، ثم مع رئيس المعهد؛ مالكولم أوروري، ثم مع بعض السفراء. فهم المقدم التليفزيوني أن البروفيسور أتى إلى حفل الاستقبال لأنه، من بين أشياء أخرى، كان يأمل في تمرير رسالة ما. لذلك فقد ظل منتظرا حتى انتهى السفيران اللذان كانا يتكلمان مع ديلينجر من حديثهما. وعندما غادراه، انضم برتراند إلى البروفيسور.

وهذا ما حدث: بدأ كلاهما في مناقشة موضوعين كانا مهتمين بهما، لم يكن لأحدهما علاقة بالآخر، أو هكذا بدا عندئذ. كان برتراند عازما على الاستفادة من المعلومات التي لدى ديلينجر بالتأكيد عن مجموعة من الموضوعات الغريبة المتعلقة بمالطا، لكي يرى إن كان بمقدوره طبخ حلقة للبرنامج منها. في تلك اللحظة بالضبط، حدث وأن تساءل إن كانت الأشباح تمثل موضوعا جيدا... منذ وقت ليس بالبعيد، كان قد طلب عون ديلينجر في مسألة أخرى: من الذي بنى هيكل (هال سافليني) تحت الأرض في مدينة باولا؟ هل كانوا أهل أطلانتس، أم بناها المالطيون أنفسهم؟ لاقت الحلقة استقبالا حارا، وأمَّنت سيلا

من الإعلانات، حتى وإن كانت ضعيفة علميا. في الصباح التالي، كان ديلينجر الذي وُضع اسمه كمستشار للبرنامج يتصل غاضبا ليحتج بسبب عدم القيام بأي إشارة إلى أبحاث البروفيسور زانجر وكتابه عن أطلانتس. وأصر أنه خلال الحلقات التالية من برنامج (كويس كوام)، لا بد من وضع قائمة بكل المراجع. لكن اليوم، كان برتراند بحاجة إلى أن يجد بأي ثمن زاوية جديدة لتناول الأشباح التي ظهرت في أماكن كثيرة وفقا لما اعتاد الناس قوله حتى وقت ليس بالبعيد. وبدأ يشعر بهذه الحاجة القوية أثناء مشاهدته ديلينجر يجرع كل هذا الويسكي.

بعد التخلص التدريجي من شبكة (ريديفيوچن) وبعدها أنظمة راديو الكابلات، ومنذ ذاعت وشاعت شبكة الإنترنت وألعاب الفيديو والراديو التجاري، لم يعد المرء يسمع كثيرا عن الأشباح. ومع ذلك، ليس صحيحا أن الناس قد سمحوا لحماسهم تجاه ألعاب التومبولا المنظمة في صباحات القهوة الصاخبة حيث يحشون بطونهم بالكعك، أن يمحو افتتانهم بالقوى الخارقة للطبيعة. ولم يخبُ الاهتمام بالأشباح نتيجة التوتر الأكبر الذي تثيره مباريات كرة القدم في البطولات الإيطالية أو الإنجليزية المعروضة على شاشات مسطحة تزداد عرضا وتسطحا عاما إثر عام. ولم يتبخر الافتتان بالأشباح مع أبخرة الفودكا التي يعبُّها الشباب عند زيارة منطقة باسفيل[2]. ولا أعاقته تلك الساعات الطويلة الطويلة التي يلعب خلالها الناس دور آل كابوني ياباني، متلاعبين بعجلة ضئيلة وضاغطين على أزرار موضوعة أمام حواسيبهم. لا: لا يقتصر الأمر فقط على أن هذا الافتتان بالقوى الخارقة للطبيعة لم يتلاشَ، بل إنه يزداد قوة مازال؛ كما يمكن استنتاج هذا من الشعبية التي تتمتع بها النساء، وحاليا الرجال أيضا، اللاتي والذين يديرون مشروعا

2- منطقة Paceville في مدينة سانت جوليان تُعد مركز الحياة الليلية الرئيسي في مالطا حيث تمتلئ بالحانات والمطاعم والملاهي الليلية.

مهنيا رابحا لقراءة طالعك، والذين يطلبون رسوما أعلى عندما يأتون بك وجها لوجه أمام أحد أفراد العائلة الذي مات مؤخرا. صحيح أن هذا كله بدا تراجعا وإحياء لفكر قديم، لكن ماذا يمكن للمرء أن يفعل عندما يكون ظهره للحائط؟

بدوره، كان البروفيسور ديلينجر يفكر في... لكن كيف يمكن أن نعرف ما مر بخاطر ديلينجر في اللحظة ذاتها التي اقترب فيها برتراند منه، بينما كان واقفا إلى جوار البار الذي يقدمون عنده المشروبات في المناسبات التي يجري فيها إقامة معارض في دار التراث المالطي؟ مؤخرا في المعارض المنظمة في الدار، بدأوا يقدمون فقط النبيذ المالطي بدلا من الويسكي والمشروبات القوية الأخرى. تراجع الحضور. فبدأ المعهد الوطني للثقافة، عملاً بالنصيحة التي قدمها أصدقاؤه – ومن ضمنهم برتراند – إلى السيد أوروري، يدفع الفرق بين تكلفة النبيذ المالطي وتكلفة الويسكي زائد المشروبات الأخرى. بهذه الطريقة، تأكد استمرار الناس ذوي المكانة الرفيعة في حضور افتتاح المعارض التي ينظمها المعهد. وربما لاحقا في بعض الأحيان يكتبون أيضا عن انطباعاتهم في صحف يوم الأحد.

لكن هذا لا يفسر لماذا يكون وصف ما كان يفكر فيه ديلينجر عندما اقترب منه برتراند أمرا صعبا هكذا... لأن اهتمامات ديلينجر العلمية قد غطت مدى واسعا من الموضوعات التي بين مجالات خبرة أخرى اليوم تجعله، وفقا للويكيبيديا، واحدا من أبرز خبراء العالم في علم الباراسيكولوجي الأثري (حتى لو أن قلة في بلده نفسه يعرفون هذا). علاوة على ذلك، فإن الباراسيكولوجي ليس هو التخصص الأكاديمي الرئيسي الذي يمارسه في الجامعة، حيث يشغل منصب عميد كلية علم المعلومات؛ وبالإضافة إلى ذلك حمل ديلينجر في السنين الأخيرة على عاتقه وحده تنفيذ بعض الأبحاث الجديدة تماما عن الروابط بين الهياكل

الأقدم للغة البونيقية المكتوبة بالحروف المسمارية وبالخط اليوناني القديم المعروف بالنظام الخطي ب. للقيام بهذا البحث، وظَّف ديلينجر أحدث التقنيات الرقمية وبحث في أعمق الجذور السوسيوبيولوجية التي يربط بها الإنسان الأصوات التي يخرجها بواسطة عضلات حلقه بالانطباعات الفيزيقية التي يتلقاها من محيطه. بحقنه داخل أبحاثه أرقى المفاهيم المطورة عبر الاكتشافات المتحققة في تسعينيات القرن الماضي وبعد ذلك في علم الباراسيكولوجي الأثري، تمكن من الوصول إلى بعض الاستنتاجات الشيقة فعلا حول ما كان المهاجرون الفينيقيون على سبيل المثال، الذين تركوا مدينة صور اللبنانية منذ بضعة آلاف من السنين، يفكرون فيه بينما كانوا يتنقلون حول منطقة المتوسط، وخلال أكثر اللحظات الخاصة في حياتهم؛ مثلاً عندما كانوا يجرعون الأنبذة المُرَّة المشربة بالعسل التي كان الآخيون[3] يبيعونها لهم، أو في لحظاتهم الحميمية مع نسائهم خلال ليالي منطقة البحر المتوسط الطويلة.

يثور هذا السؤال دائما: لكن كيف يتمكن البروفيسور ديلينجر من التعامل مع جميع اهتماماته العلمية؟ والإجابة التي يتلقاها المرء دائما هي أنه لا ينام أبدا تقريبا، لكونه واحدا من هؤلاء الناس الذين نادرا ما يحتاجون للنوم. يغدو هذا أكثر غرابة في ضوء المقدار الهائل من الويسكي الذي يستهلكه ديلينجر عندما يكون في مزاج مهيأ للشراب. في الحقيقة، يصر عدد قليل للغاية من المراقبين حسني النوايا أن إلهام البروفيسور الحقيقي لا يأتي من العلم لكن من الكحول.

بالنسبة للبقية، سواء كان يفعل ذلك عن عمد أو لأن هذه هي طريقته؛ فإن ديلينجر نادرا ما يتميز عن البقية، حتى عندما يبدأ في

3- سكان جنوبي شرق اليونان في العصور القديمة.

الشرب الثقيل. هو قصير القامة. لدى النظرة الأولى، ستظنه شخصا حييا. وجهه العريض، الشاحب كما لو كان مصنوعا من الشمع، يبين أنه يقضي ساعات طويلة في مكتبه. صوته منخفض ورفيع، وأحيانا يتلجلج في الكلام. يراقب الجميع في هدوء، بعينين مطرقتين؛ لكن من الأفضل للمرء ألا يكون موجودا عندما يتبخر حياؤه الطبيعي ويظهر محله عناد قاس لن يتزحزح شبرا واحدا لكائن من كان. وحتى يحدث هذا، فإن أي شخص يقترب من البروفيسور ديلينجر قد يظن أنه واقع تحت سطوة زملائه... ربما مثلما ظن الضيوف الآخرون في حفل الاستقبال الذي نظمه المعهد الذي يديره السيد مالكولم أوروري، عندما رأوا ديلينجر وبرتراند معا.

ماذا هنالك ليقال عن مقدم برنامج (كويس كوام) الذي لم يعرفه أغلب الآخرين بالفعل حتى وقت قريب؟ يوما ما كان شخصا نحيلا إلى حد كبير، لكن مع مرور السنين، ارتخى جسده مع الطعام الجيد، وحتى مع النبيذ الأفضل – ولم يمتنع عن استهلاك مواد معينة قد لا تندرج تحت وصف الفيتامينات. أصبح وجهه ثقيلا، رغم أنه، مثلما كان وهو شاب، عازم ألا يدع أحدا يتفوق عليه، ظلت عيناه القلقتان تشعان في نظراتهما حولهما بخبث وانتباه وهي تلاحظ كل شيء. كانت شفتاه عادة منفرجتين في ابتسامة ساخرة أصبحت مع الوقت تبدو آلية... لكن ربما لم يكن ما تعكسه ابتسامته إحساسا بالسخرية بقدر ما كان تشاؤما كلبيا مرهقا.

.2

أي شخص كان حاضرا حفل الاستقبال الخاص بالمعهد الوطني للثقافة المقام للتوّ بعد افتتاح المعرض الفينيقي، وتناهى إلى سمعه الحوار بين برتراند وديلينجر، كان سيفهم على الفور أنهما كانا على طرفي نقيض تماما.

برتراند. أهلا بروف. أنا سعيد فعلا برؤيتك على الأقل في وسط الصحراء الفكرية الممتدة حولنا. كنت أريد أن أحادثك لفترة... كنت بحاجة لاستشارة منك ولا تقلق... هذه المرة أنا عازم تماما على التأكد من أن الحق سيذهب كاملا إلى أهله عند استحقاقه، وفقا لتعليماتك. خمِّن ما يثير اهتمامي الآن كفكرة لحلقة من البرنامج؟... أو حلقتين، وستكونان عظيمتين، بكل معاني الكلمة. سنعرضهما في نهاية الخطة، لننهي الموسم بنجاح كبير. الأشباح في بلدنا!... لكني أريد الحصول على شيء خاص، على طراز داريو أرجينتو[4]، هل تتذكره؟... كانوا أحيانا يعرضون أفلاما له في هذا المبنى. لقد أعدت قراءة كل المقالات التي نشرها جوزيه دياكونو[5] في الخمسينيات، لا بد وأنك تتذكرها، كانت بعنوان «هل تصدقون أن الأشباح تظهر؟»... وهي مقالات شيقة، لكني لا أريد استعادةً لأفكار قديمة، كما تفهم، أريد وجهات نظر جديدة. تلك القصص عن أشباح في بيوت وفيلاَّت قديمة، سواء هي حقيقية أم لا، هي قصص مروعة، وأنا لا أريد أن أحكم إن كان ينبغي على المرء

4- مخرج سينمائي وكاتب سيناريو ومنتج إيطالي من مواليد 1940. معروف بأعماله المميزة في أفلام الرعب وتأثيره فيها.

5- Ġużè Diacono كاتب وصحفي ومسرحي مالطي (1912 - 2002).

تصديقها أم لا... لكني أريد وجهات نظر جديدة. مثلاً، لماذا عليك دائما أن تجد الشبح، أو أيا كان، في بيوت قديمة ومهجورة؟ حتى داريو أرجينتو، لوضعه في الصورة من جديد، يصنع هذا الخطأ. هل تفهم ما أبحث عنه؟... ليس قصرا قديما حيث مازال الناس يخشون العثور فيه على أشباح... لكن على سبيل المثال امتدادا للبحر؟ إذا كان بمقدور الأشباح أن تتجمع في غرف النوم القديمة، فلماذا لا يفعلونها أيضا في خليج ما حيث قام س بإغراق ص؟ أتفهم؟... تناول جديد وصحيح للموضوع... لكن في هذه المرة، ينقصني أي تطور حقيقي، لا يوجد شيء لخلق انقلاب جديد. كما أقول دائما، تظل أمنيتي هي أن أصل بكويس كوام إلى مناطق مازالت غير مستكشفة.

بروفيسور ديلينجر. برتراند، لقد سئمت من مقابلة أشخاص مثلك لا يمنحون العلوم الإنسانية التقدير الذي تستحقه. كل شيء يبدو أنه قد أصبح مادة خام للقرابين على مذبح الميديا للإله الزائف مولوخ[6]. وكل هذا يتم نيابة عن أقسام العلاقات العامة للبنوك الكبيرة، وبروباجاندا الأحزاب السياسية، والمتفاخرين المتغطرسين من أمثالك الذين يريدون فقط أن يظهروا على شاشة التليفزيون ويكسبوا المال من ظهورهم. خذ معرض اليوم على سبيل المثال... إنه أقرب لمذبحة من كونه معرضا!... مذبحة لتراث البلاد الفينيقي، ولتراثها المتوسطي كذلك. كيف أمكنكم أن تقيموا عرضا كهذا بينما تتجاهلون الأطروحة الأساسية التي تحظى الآن بقبول كل الباحثين الكبار، أي الفرضية التي توضح كيف أن انتشار النفوذ الفينيقي لم يكن مجرد ظاهرة تجارية؟ لا، لم يكن الفينيقيون مجرد أمة من التجار! بل كانوا أيضا، وقبل كل شيء آخر أقوله، أمة

6- إله كنعاني قديم وهو إله الفينيقيين لكنه كان شائعا في ثقافات كثيرة في منطقة المتوسط، وكان مشهورا بنزعته الشريرة ولم يكن يرضى إلا بقرابين بشرية من الأطفال حيث كان يجري حرق الأطفال قرب مذبحه، وفي اللغة الإنجليزية حاليا يُستخدم للدلالة على أي شيء أو شخص يتطلب تضحيات جسيمة.

من المحاربين. في حالتهم كما في كل حالات الإمبريالية الأخرى، كانت التجارة تتبع العَلَم... وأنا لا أقصد أن الفينيقيين كانوا مدمنين لرمزية الراية. كانت لديهم رموز أخرى يجمعون تحت لوائها القبائل المختلفة التي كانت مسؤولة عن انتشار مستعمراتهم. في هذا المعرض لا تجد شيئا عن التنظيم العسكري، نعم التنظيم العسكري للفينيقيين. ولو لم يكونوا وقحين إلى هذا الحد ألم يكن يجدر بهؤلاء الأغبياء في المعهد الوطني... معهد مؤخرتي، لكن هذا ما يتظاهرون أنهم عليه... لو لم يكونوا وقحين إلى هذا الحد... أكانوا لينظموا هذا المعرض دون دعوة البروفيسور والي أحمد من جامعة الإسكندرية – وهو صديق عظيم لي – كي يحضر ونعم... لم لا؟ ليلقي محاضرة أو اثنتين أثناء فترة إقامة هذا المعرض؟ والي خبير في الاستراتيجيات الحربية والتنظيم العسكري للفينيقيين. كان مستعدا للقدوم، وأخبرتهم أنه سيغطي كل نفقاته... لكنهم قالوا إنهم فقدوا الإيميل الذي أرسلته إليهم حول الموضوع... أتعرف؟ نحن نتحدث عن أبرز خبير في العالم بكيفية قيام الفينيقيين بتوسعاتهم الإقليمية... مستخدمين وسائل كانت، حسنا، بشكل ما منقولة من الخبرة الحربية للآشوريين لكن بربك!... جرى تكييفها بمهارة عظيمة كي تأخذ في الاعتبار واقع القتال في البحر، بينما كان الآشوريون دائما مشتتين بأراضيهم الآسيوية النائية... وكانوا يعدون البحر الأبيض حدا من الحدود.

برتراند. ما أحتاجه في الحقيقة هو عنوان رئيسي صغير يمكنني تتبعه لخلق قصة إنسانية. شيء متعلق بواقعة غير معتادة ورهيبة، لم تُقَل بشأنها الكلمة الأخيرة. ذكرتُ البحر، لكن لا يتوجب أن يكون المكان هو البحر... يمكن أن يكون مكانا مفتوحا في بقعة ما... مثل حقل... حديقة، مثل (جنينة العروسة) في مدينة موستا... التي حدثت فيها بعض القصص المرعبة... هل سمعت أي شيء من هذا النوع؟ أتعرف؟

كنت أبحث عن حالات مثل تلك التي في موستا... لكني لم أذهب بعيدا. يقودك دياكونو إلى فهم أن هناك الكثير من القصص في هذا البلد التي مازالت تنتظر الاكتشاف والبحث. لكن كيف أجدها؟ أود مساعدتك...

ديلينجر. من يعرف كم من الأماكن موجودة؟... لا، ليس من يعرف: أنا أعرف عنها... أماكن شكلت خلفية لأحداث درامية كبيرة عندما قام الفينيقيون بالغزو. لأن هذه الجزر، أيا كان ما يقولونه، كانت جزءا لا يتجزأ من الاستراتيجية الفينيقية للتوسع داخل شمال إفريقيا. وهذا هو السبب في أنه بعد قرون عديدة لاحقة، احتاج الرومان في البداية إلى طرد الفينيقيين من هذه الجزر قبل أن يصلوا إلى تلك اللحظة الشهيرة... أو بالأحرى الشائنة... عندما بعثوا إلى روما الرسالة القائلة بأنه لا بد من تدمير قرطاجة... ومع ذلك، حتى نجح الفينيقيون من إحكام قبضتهم على هذه المنطقة الخاصة بنا، من يعرف أي قتال وصعوبات كان عليهم أن يتحملوها! يقولون إنه لفترة، كان الرجل الذي أرسلوه هنا لينظم وحداتهم العسكرية رجلا قريبا فيما مضى من الفرعون، حتى غير ولاءه إلى الفينيقيين وانضم إلى قواتهم... رجل يُدعى بوتو-رع من طيبة... قاس لكنه شجاع للغاية... عملاق بين رجال ذاك الزمان... وبارع في اللغات، وفي الأرقام، وفي الحرب، وفي الفلك... كل هذا طبقا للبردية رقم ثلاثة أربعة خمسة نقطة سبعة في مجموعة المخطوطات السادسة المحفوظة لدى جامعة جوتنجن... أعمال شجاعة جرى نسيانها اليوم تماما، وخيانات كانت خسيسة على نحو لا يوصف، وأفعال قسوة وحشية تم ارتكابها تجاه الرهائن من الإناث والأطفال، وأحكام بالإعدام مصحوبة بأبشع ممارسات التعذيب... كل هذا حدث عندما قام الفينيقيون بالغزو ولم يكن بالإمكان أن يتم الأمر على غير ذلك. في كثير من الآثار، وفي كثير من المواقع قبل التاريخية ومن فجر التاريخ التي من المفترض أن نقوم بالتنقيب فيها قبل أن تدمر جرافات

المطورين كل شيء، ليست الطبقات الرومانية أو العربية هي الأكثر أهمية... لكن الطبقات التحتية التي تكمن أسفلها... الآثار الفينيقية بين غيرها من الآثار... وأنا لا أشير إلى المقابر الموجودة بين مدينة رابات وغابات بوسكيتو. فهذه المقابر يرجع تاريخها إلى وقت أحدث بكثير، عندما كانت السيطرة الفينيقية تقترب من النهاية... نعم، هناك ذكريات كثيرة جدا لا نعرف شيئا عنها وهي مكدسة في البيوت والساحات... في بيوت مليئة بالأشباح المتروكة من القرن الثامن عشر أو السابع عشر، أو هكذا يقولون. لكن كل هذه القصص هي مجرد سواتر، دعني أقل لك... سواتر... تحجب الواقع وآثار الذكريات الأقدم بكثير.

.3

في الصباح التالي، عندما بدأت آثار الكحول الذي استهلكاه في التبدد، أدرك برتراند والبروفيسور ديلينجر كلاهما أنهما لم يوليا الانتباه الكافي لما كان يقول أحدهما للآخر. لكن وفقا لطبائع الأمور، كان برتراند هو من اتصل هاتفيا بديلينجر. بلا رحمة، كان يقترب اليوم الذي كان عليه فيه إما أن يبدأ في تصوير الحلقتين الأخيرتين في الخطة، أو يقبل بعرض إعادات لحلقات كان قد عرضها بالفعل. من السهل إعادة عرض أبرز الحلقات السابقة، لكن بفعل هذا يفقد المرء الكثير من عوائد الإعلانات. ومن الطبيعي أن هاردهيد لن يكون سعيدا؛ فلا أحد يحب خسارة المال، وليس هاردهيد فقط.

"آلو يا بروف، كيف حالك هذا الصباح؟ لقد كنت أفكر فيما كنا نناقشه بالأمس وأعتقد أني أود أن آتي لأتحدث معك أكثر قليلا. هل يمكنك رؤيتي هذا الصباح؟»

"بالطبع، بالطبع.." أجابه ديلينجر. بدا في مزاج طيب. "اختر الوقت الذي يناسبك."

قبل أن يغادر برتراند البيت متجها إلى الجامعة، رنَّ جرس الهاتف. صوت فلورا بيتا لوكا الأشبه بصوت عصفور زينة كسول، كان يزقزق أكثر من المعتاد: «ظننتك ستبقى لوقت أطول وتحظى بحديث مع السفيرين المصري والبلجيكي، ناهيك عني أنا نفسي. نعم، افتقدتك.»

”كنت أود أن أبقى لوقت أطول يا عزيزتي، لكن البروفيسور ديلينجر أضجرني حد الجنون بثرثرته التي لا تتوقف وكان عليّ أن أغادر. في المرة القادمة...“

”لو أنك فقط توقفت لتتحدث معي، لمنحتك قليلا من النميمة المثيرة جدا. وكنت ستتمكن من إرسال مقال سريع لمجلة صانداي تايمز.»

”ماذا تقصدين؟“ أصبح برتراند حذرا بشكل مفرط. مقابل كل نتفة خبر تلقيه في طريقك، تنتظر فلورا مقابلا فوريا؛ مثل حالة ازدهار للعلاقات العامة يمكن أن يكون مفيدا سواء للمعهد الوطني للثقافة، أو لزوجها السابق الذي يدير استوديو للفنون في بالزان، والواقع دائما تحت حصار من الفنانين الذين يفشل في دفع مقابل لوحاتهم التي يبيعها لصالحهم. «في هذه اللحظة يا عزيزتي أنا مثقل بالموضوعات التي يجب أن أكتب عنها لدرجة... لا أعرف...»

”اسمع..“ ردت فلورا، وصوتها العذب بدا الآن أشبه بزقزقة ناعمة لعصفورين، لا لعصفور واحد. ”الأمر كله يخص معرض الأمس، ولو أنك بقيت لقلت لك. في غضون خمسة أيام، سيكون معنا هنا البروفيسور والي أحمد من جامعة الإسكندرية، وسيلقي محاضرتين عن الوجود الفينيقي في قلب البحر المتوسط، وعلى وجه أدق مالطا. ربما لم تسمع عنه حتى الآن، لكن والي أحمد يُعتبر أبرز خبير... بالفعل هو الخبير في –“

”الآلة العسكرية للفينيقيين قي المرحلة الأولى من تاريخهم، عندما بدأوا في غزو البحر المتوسط.»

”كيف لك أن تعرف؟“

”ماذا تقصدين... كيف لي أن أعرف؟“

”بيني وبينك يا برتراند يا حبي، عرفت بأمر هذا الشخص منذ أسبوعين فقط!»

”آه، هذه ليست الطريقة التي نعمل بها هنا، في (كويس كوام). أنا وفريق البحث الخاص بي كما تعرفين لدينا ثقافة، بالإضافة إلى مدى عريض من الاهتمامات. وطوال السنوات القليلة الماضية كنا نتابع أبحاث البروفيسور أحمد.“

”يا سلام! أنا متأكدة أنك لم تعرف شيئا عن البروفيسور أحمد إلا مؤخرا جدا جدا، بالبحث عنه في جوجل، رغم أني لا أستطيع أن أفهم ما جعلك تحوم حوله. على أي حال والي قادم إلى مالطا! سأرسل إليك إيميلا به بعض صوره. ألا يمكنك أن تكتب مقالا عنه للمجلة ليُنشر في الأحد بعد القادم؟“

”لا، لأني بالفعل قد أرسلت إلى ساندرا نصا عن زيارة إلى مالطا في بداية القرن التاسع عشر قام بها بايرون وهوفمان.»

”ومن؟“

”هوفمان. كاتب ألماني...“

”لم أسمع به مطلقا. أين عثرت عليه؟“

”لن أصف مقدار ضخامة وهول ما كان... من بحث قمت به لأجل هذا المقال.»

”على أي حال لقد تحدثت للتوّ مع ساندرا، كمحررة لمجلة (ريكتينجل) وليس باعتبارها أفضل صديقاتي. وقالت إني لو أرسلت إليها نصا قبل هذا الخميس، يمكنها إدخاله بدلا من المقال الذي أرسلته إليها بالفعل. وستترك هذا المقال للشهر القادم.»

جاهد برتراند كي يسيطر على غضبه. كانت هذه اللحظة هي أسوأ وقت لتكدس المشاريع الجديدة. كان بحاجة للتركيز بقوة على طريقة لطرح حلقتين من برنامج كويس كوام بسرعة شديدة جدا. وكي يزيد الطين بلة، هو لم يقم بكتابة المقال عن بايرون وهوفمان – بل بوني هي من كتبته. وبمجرد أن يتناهى إلى معرفتها أنها بعد أن قضت عطلة نهاية أسبوع كاملة في كتابته من أجله، ولن يظهر المقال؛ سيُجن جنونها. ومع ذلك، لو أن فلورا وساندرا اتفقتا على مشروع ما، فليس من المجدي إثارة المشكلات. فهما تعرفان جيدا كيف تصبحان عويصتين عندما تسنح الفرصة. ومقاومتهما تكتيك سيء. ثمة مرات أثار فيها كويس كوام والبرامج التي كان يشغلها برتراند وهاردهيد سابقا قلقا واضطرابا، وفقا للمقياس الذي يقيس عدد الأشخاص الذين يشاهدون برامج التليفزيون. عندئذ كانت ساندرا مصدر عون كبير. كانت مثلا تنشر صفحات كاملة من الصور تبين كيف كان يجري تصوير الحلقات الاستقصائية، وحتى لو كان النص المصاحب ذا تأثير ضعيف على مشاهدي التليفزيون، كانت الصور تؤثر على من يحجزون الإعلانات... على الأقل، هذا ما زعمه محاسب كويس كوام.

ابتلع برتراند سخطه وقال لفلورا إنه سيفعل ما ترغب. كان يعرف أنها ستظل تتصل به غدا وبعد غد واليوم الذي يليه، حتى ينتهي من المقال الذي وعدها به للتوّ. كان واضحا أن ظهور البروفيسور والي أحمد يعادل إضافة هامة في اللحظة الأخيرة لمشروع تنظيم معرض فينيقي. وستفعل فلورا الآن كل ما بمقدورها فعله كي تشعل الدعاية في الصحافة، كجزء من جهودها المستمرة عاما بعد عام لإقناع وزير المالية بعدم تخفيض الحصة السنوية في الموازنة العامة المخصصة للمعهد الوطني للثقافة، الذي يديره السيد مالكولم أوروري، أو ربما حتى جعل الوزير يزيد الحصة.

أخيرا قال: «أخبريني ماذا تريدينني أن أكتب عن البروفيسور والي أحمد.»

لقد أربكها بطلبه ذاك. ومما بدأت تشقشق به، فهم أن معلوماتها عن البروفيسور القادم من الإسكندرية كانت محدودة للغاية. «آه... آه! دعنا نجعله واحدا من هؤلاء الأكاديميين الكهول بعض الشيء، لكنه مازال جذابا للغاية، الذين يجذبون الفتيات أو النساء متوسطات العمر... حتى لو لم يدركوا هذا قط... بما أنهم مستغرقون للغاية في دراساتهم والمجلدات الضخمة التي ينشرونها...»

على مضض، كان على برتراند أن يعجب بمهارتها في ممارسة لعبة الدعاية. «طيب، لكن أي خط من الدراسة والبحث تريدينني أن أسلكه؟»

كانت هناك فترة صمت طويلة على الطرف الآخر من الخط. «دعني أكن أمينة للغاية معك يا برتراند يا حبيبي. أنا فقط لا أعرف. طبقا لما سمعته عن والي أحمد، فهو متخصص في الفظائع التي اعتاد الفينيقيون أن يرتكبوها عندما كانوا يقومون باجتياح البحر المتوسط... أشياء من نوعية الجرائم ضد الإنسانية والإبادات الجماعية... أيا كان؟ بعد ما حدث في هذه السنوات القليلة الماضية في البلقان... لا أعرف، ميلوسيفيتش والبقية... بالتأكيد حتى هؤلاء الذين يقضون نصف أعمارهم في مراكز التجميل، لا بد أنهم قد سمعوا عن الإبادات الجماعية... شيء مثل هذا سيهم بعض الناس، ألا تعتقد هذا؟»

وعند هذه النقطة تركته. «آسفة، جاءتني مكالمة أخرى. ستتصل بي، صحيح؟ ... لكننا اتفقنا على ما يتوجب فعله.»

4.

بينما كان يقود سيارته متجها إلى الجامعة، أدرك برتراند أن البروفيسور ديلينجر قد تمكن من الحصول على ما أراده. لقد تقررت زيارة والي أحمد بالتأكيد أمس خلال حفل الاستقبال... بما أن ديلينجر لا بد وأنه قد أثار المقترح مع كل من الوزير والسفير. لقد شوهد يتحدث لفترة مع السيد مالكولم أوروري، رئيس المعهد الوطني للثقافة، قليل الحيلة كمنظم، لكنه مشهور باهتمامه بالثقافة والفنون والفلكلور. لحسن الحظ كان لديه فلورا كمساعدة له، رغم أن أوروري لم يلاحظ قط متى تستخدمه لأغراضها الخاصة... على أي حال، نال ديلينجر بالأمس ما أراد، ربما ضد رغبة فلورا.

أثناء بحثه عن مكان يصف فيه سيارته، تفكر برتراند متحيرا في مشكلة المقال الذي قامت بوني بكتابته باسمه لمجلة ريكتينجل. ستنزعج بشدة لو أخبرها أن المقال لن يُنشر بعد كل هذا. فلكي تنهيه، قررت ألا ترى خليلها الحالي خلال عطلة نهاية الأسبوع، رغم أنه تلقى الأمر بشكل بالغ السوء وأبدى تذمرا كبيرا؛ لأنها كانت قد وعدت بمساعدته في تحضير وجبة في بيته لأطفاله من زيجتيه الأولى والثانية. والآن، سيكون على برتراند أن يبلغها أن كل هذا كان بلا مقابل...

وبينما كان يسير متجها إلى مكتب ديلينجر حل المشكلة: سيخبر بوني أن تكتب أيضا المقال عن والي أحمد. وعلاوة على ذلك، سيعرض عليها أن يضع اسمها إلى جانب اسمه، حتى تتمكن فيما بعد من إظهاره

كجزء من مفاخرها المهنية.

اتبع التوجيهات التي قدمها له رجل في منتصف العمر أشيب الشعر. كان الرجل يحمل حقيبة ملأى بالكتب، وإذ تعرف فورا على برتراند – الذي خمن أنه طالب عتيق – فقد شرح له مرة بعد مرة أي الطرق يسلك. عبر برتراند ساحة صغيرة حيث كان مجموعة من الشباب يلقون الشعر وفقا لبعض الأوزان الغريبة، بينما يدقون الأرض بأقدامهم مثلما توجههم امرأة طويلة نحيلة ترتدي فستانا طويلا فاقع الألوان، تعرف عليها برتراند فورا. وبدأ يسرع في مشيه قبل أن يتمكن الشباب من التعرف عليه وملاحظة إلى أين كان ذاهبا. «ماريا المسكينة..» قال في عقله. «إذًا هذا هو المكان الذي وصلت إليه لأنها لم تستطع أن تقدم برنامجا تليفزيونيا لائقا... لا بد أن أحدا ما شعر بالأسى من أجلها ووجد لها شقا لتدريس الدراما هنا. ترى ماذا تصنع بهذا؟...»

هبط بعض الدرجات إلى قبو سمع أن مكتب البروفيسور ديلينجر ومختبره قد نُقلا إليه منذ بعض الوقت. كانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها برتراند بزيارة البروفيسور هنا. دخل ممرا صغيرا به باب في نهايته وطرق عليه. أخبره صوت ديلينجر أن يدخل.

أحس برتراند بدهشة كبيرة إزاء ما رآه حتى أنه للحظة توقف فقط وأخذ يحدق. كان مكتب ديلينجر، الكبير كمستودع، مضاءً بمصابيح النيون الأسطوانية حيث لم تكن هناك أي نافذة. وبدلا من ذلك، هناك في الأعلى، كانت هناك كوة مغطاة بالزجاج تمتد من بداية إلى نهاية الجدران. كانت كوة ضيقة للغاية حتى أن قليلا من الضوء كان يمكنه المرور عبرها. وكان المكتب مكدسا بالكتب والأسطوانات والشاشات وصناديق الحواسيب والمقاعد المحملة بملفات وأوراق عريضة مثل تلك التي تُكتب عليها نوتات الموسيقى، ومناضد تحمل كافة أنواع الأشياء

(من جمجمتين إلى ماكينة ذات أذرع تدور مثل أذرع الطاحونة، ترفع الماء وتسقطه داخل طبق شفاف) وبناء يشبه الخيمة في أحد الأركان يغطي شيئا بدا أنه حيّ لأن جوانبه كانت تتحرك طوال الوقت مع حفيف غريب، ومنضدة أخرى تعرض نموذجا لمدينة أو قرية مثل النماذج المشهدية التي تقام في وقت الكريسماس، وبندول ضخم يتأرجح بثبات في منتصف الحجرة ولا بد أنه كان موصلا بالشاشة خلفه، لأنها كانت تعرض ألوانا تتغير بنفس الإيقاع الذي للبندول...

"فلتدخل.." كرر ديلينجر.

ومع ذلك قبل أن ينهض البروفيسور من حيث كان يجلس خلف المنضدة التي تحمل نموذج المدينة أو القرية، لم يستطع برتراند أن يحدد موقعه في تلك الفوضى.

"مكتبك ضخم.." قال برتراند "لكنه أصغر مما يجب بالنسبة لك."

"لم يرده أحد، لم يرده أحد.." جاوبه ديلينجر، وقاد المقدم التليفزيوني نحو مكتب مغطى بحاسوبين، أجلسه على جانب بينما جلس هو على الجانب الآخر. "إنه قبو، لذا يفوح بالعطن، وهو بعيد عن مناطق صف السيارات. وكأني أبالي بهذه الأمور! عندما سمعت أن كارميليتو لا يعرف ماذا يفعل به، ذهبت إليه مباشرة وقلت له: انظر، اعطني إياه وستحل مشكلتي، فقد كنت تخبرني طوال تلك السنين أنك ستجد مكانا يمكنني العمل فيه، وبدلا من ذلك تركتني في حجرة صغيرة لا يكف الناس عن الدخول إليها طوال الوقت ولا يمكنني إبقاء أي شيء حيث أريد أن أضعه... صحيح أن هذا المكان رطب... لكننا حللنا هذه المشكلة أيضا الآن... استخدمنا تمويلا من الاتحاد الأوروبي لندفع ثمن أجهزة التكييف. ومع ذلك، لا يمكنني أن أقدم لك شيئا... وهذا أفضل، بما أننا سنتحدث فقط في صلب الموضوع. أراك تنظر في كل مكان

حولك وكأنك جديد على العالم...»

”اعذرني، لكني أشعر بالفضول. ماذا يفعل هذا المهد هناك؟»

”هذا ليس مهدا. إنه نموذج... مشيد في الفضاء الافتراضي، نموذج لقرطاجة في عام 700 قبل عصرنا. أنت لا ترى ورقا مقوى ملصقا بل أشعة ليزر معدلة تعطي الانطباع بأنها مصنوعة من الورق المقوى. هذا النموذج متصل بكل المشروعات المعروفة في العالم التي تبحث الآن الموضوعات الفينيقية. وبمجرد أن تدخل معلومة جديدة عن قرطاجة في عام 700 أي حاسوب مهما يكن مكانه في العالم، يجري تحميلها في النموذج الذي يقوم بتعديل ترتيبه وفقا لذلك. كان ينبغي أن يكون هذا النموذج لدى جوستاف فلوبير عندما كان يكتب روايته (سلامبو) وكان ليغدو أكثر دقة في وصفه.“

في الواقع، وبينما كانا يتحدثان، بدأت آلة إلكترونية قريبة من «المهد» تصدر أزيزا منتظما. ولدهشته الكبيرة، شاهد برتراند قطع التحصينات المطوقة للمدينة في نموذج الليزر وهي تتحرك وتتراجع. وحيث كانت التحصينات حتى لحظات قليلة مضت مصفوفة في خط مستقيم، رآها برتراند تتحول إلى منحنى.

”... عندما ترحل، سأرى ما هي الآثار التي يعنيها هذا التغير بالفعل..“ تمتم ديلينجر. ”حاليا هناك جدل هائل يدور حول إذا ما كان القرطاجيون معتادين على بناء دفاعاتهم على طول خطوط مستقيمة، أم أنهم بينما كانوا يصعدون من المستوى التأسيسي كانوا يفضلون بناء الحصون في خط منحنٍ حتى يوفروا دفاعا أفضل ضد أي هجوم يستهدف تحصيناتهم. إنه موضوع ذو أهمية قصوى.»

”وماذا تفعلان هنا؟“ تساءل برتراند وهو يشير إلى الجمجمتين.

”آه! هما تشكلان جزءا من تجربة لو نجحت ستقلب مفاهيمنا المتعلقة بالباراسيكولوجي. في الحقيقة سنقلب علم الباراسيكولوجي نفسه رأسا على عقب! وهما ليستا نموذجين، هه؟ – هما حقيقيتان. دعنا نقل إنني حصلت عليهما من قبو عظام قديم. وكلتاهما لرجلين لقيا حتفا عنيفا. ثمة نظرية أتشاركها مع بعض الآخرين، ألا وهي أنه مازال بمقدورنا اكتشاف آثار لما فكر فيه أصحاب هذه الجماجم والمشاعر التي أحسوا بها... خاصةً إذا كانوا قد مروا بمرحلة من التوتر والخوف العميقين قبل موتهم مباشرة... الآثار التي أحكي لك عنها، ينبغي أن تكون مشفرة بطريقة ما في البنية العظمية لهذه الجماجم ومازال بإمكانها التفاعل في حالة تواصلية مع الآثار الشبيهة في الجماجم المأخوذة من هياكل عظمية بشرية أخرى. وهذا أقصى ما وصلت إليه نظريتنا حتى الآن، لأن بمقدور المرء حتى أن يقترح افتراضيا أن التفاعلات المعنية تحدث أيضا مع بقايا الهياكل العظمية للحيوانات، وليس فقط الناس. لكن حاليا لا نريد أن نعقد الأمور. ومع ذلك، يثور السؤال: كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الاتصال؟ يمكنك رؤية حشيات موصلة بالجمجمتين. وهي متصلة ببرنامج خاص عن طريق مستقبلات رقمية، قادرة على اكتشاف أي نوع من الاضطراب الباراسيكولوجي نعرفه حتى الوقت الراهن، بالإضافة إلى أي اضطرابات أسميها بالاضطرابات الباراسيكولوجية الأولية. أعترف أننا لا نحقق تقدما ملفتا في هذا الاتجاه لكن بالفعل حصلنا على بعض النتائج غير المتوقعة. أحد الفرق العاملة على المشروع موجودة بجامعة سان دييجو في كاليفورنيا، وهم مصرون على تكرار التجارب التي قمت بها بالفعل من أجل تقييم إن كانت الآثار العاطفية التي حددتها منذ شهر تنبعث فعلا من الجمجمة التي أمامك. قلت لهم نعم بالطبع افعلوا ذلك، كلما زادت المراجعات والمراجعات المقابلة التي نقوم بها، كلما كان ذلك أفضل. بهذه الطريقة نضمن أن كل خطوة نتخذها للأمام هي

خطوة حقيقية، وليست زائفة. لتوضيح كل شيء، فإن الرجل الأكثر تقدما في هذا البحث هو الصديق الذي ذكرته لك بالأمس، البروفيسور والي أحمد... فهو يزعم أنه بالبرامج الحاسوبية التي صممها، يمكننا بالفعل تحويل العواطف وآثار التفاعلات إلى أصوات مادية واقعية.»

”حتى لو أن الأمر كذلك، إلى أين ستؤدي بكم مثل هذه الأبحاث؟“ تساءل برتراند الذي ثار فضوله.

”آه، إلى أين فعلا!“ هتف ديلينجر متعجبا. ”لو حققنا التقدم الذي أعتقد أننا نستطيع تحقيقه، فسيعني هذا مثلاً أنه من الجماجم التي نجدها في المواقع التاريخية وتلك التي تنتمي لما قبل التاريخ، دعنا نقل من جماجم الفراعنة، يمكننا اقتناص معلومات عن كيف عاشوا وماذا كان يفعل هؤلاء الأفراد والطبقات الاجتماعية التي كانوا ينتمون إليها. علاوة على ذلك، لو استطعنا بالفعل تحديد تلك الأرواح أو الأشباح التي بدأت تحكي لي عنها بالأمس، ولا أعلم ما الذي جعلك تفعل هذا، حسنا، يمكننا حتى تحليل خطابهم الخفيّ، أو جانبهم العاطفي... سمه ما شئت. لن يظل علم الآثار معتمدا فقط على بقايا الأشياء التي يجري العثور عليها في عمليات التنقيب، بل يمكن توسيع مجال فحصه نحو الأفكار والمشاعر، وحتى الذكريات... لِمَ لا؟ -- الخاصة بالبقايا البشرية التي يتم التنقيب عنها.»

”مثير للاهتمام..“ قالها برتراند بطريقة حيادية. فجأة، شعر مرة أخرى بالقلق من الأزمة التي يواجهها برنامج كويس كوام. ”في وقت آخر يا بروف، إذا أذنت لي، أود أن آتي هنا مرة أخرى ونتحدث بتفصيل أكبر عن كل هذا. لكن اليوم... ما أريده منك...“

”قل لي. أنا منصت لك..“ قال ديلينجر، وقد انبسطت على وجهه الشاحب نظرة صابرة راضية.

أعاد برتراند ما كان قد شرحه في حفل الاستقبال بالأمس. وهذه المرة، أنصت البروفيسور في صمت حتى انتهى.

"هل تريدني أن أخبرك بأمانة ما أعتقده حقا؟"

"بالطبع."

"لا شيء جديد فيما تقترحه. بعيدا عن الجبانات، لن تجد مسالك كثيرة إذا كنت ستبحث عن مساحات مفتوحة حيث يعتقد الناس أو كانوا يعتقدون أن الأشباح موجودة. ولا يستطيع دياكونو مساعدتك كثيرا. فقد كان متأثرا إلى حد كبير بـ إم. آر. جيمس[7] وشيريدان لي فانو[8]. قد تجد بعض الدلائل رغم ذلك في تلك الروايات القديمة الرائجة التي كانت تُنشر في حلقات أسبوعية... مثل رواية عنوانها "مقبرة المشنوقين" والتي تفتح احتمالات جيدة للقارئ الفطن..."

"لن يسمحوا لي بدخول مقبرة يُدفن فيها الأشخاص المشنوقون. لن يدعوني أفعل ما أحتاج إلى فعله لأجعل كويس كوام مثيرا للاهتمام حقا. لكن هل تقصد أن تقول لي إنك لا تعرف أي مكان مرتبط بقصة ما مخيفة ومرعبة يمكنني اقتناصها...؟ حيث يمكننا، مثلا، أن نقضي ليلة بالكاميرات مفتوحة؟ لا تجعلني أصبح يائسا لدرجة أن أضطر لاختراع شبح مزيف فقط من أجل خاطر كويس كوام...»

وجَّه إليه البروفيسور ديلينجر نظرة غريبة. أصبحت عيناه جامدتين كالفولاذ؛ لكن شيئا غريبا حدث أيضا وكان كالتالي: في استغراقه التام في مخاوفه، كما كان يحدث له كثيرا، لم يلاحظ برتراند التغير الذي

7- مونتاجيو رودس جيمس (1862-1936) مؤلف ومؤرخ وكاتب للأطفال إنجليزي، اشتهر بقصصه عن الأشباح.

8- جوزيف شيريدان لي فانو (1814-1873) كاتب آيرلندي اشتهر ككاتب للحكايات القوطية وروايات الغموض والرعب ويعد رائدا لقصص الأشباح في القرن التاسع عشر.

اعترى البروفيسور، الذي بدلا من الرد عليه، نهض فجأة واندفع نحو الجمجمتين اللتين كانتا تدوران ببطء على محورهما الرأسي، أمام كتلتين مستطيلتين معدنيتين. نسي تماما وجود برتراند، بينما كان يضع أداة تشبه كاميرا الويب بالقرب من الجمجمة الأولى، ثم الثانية، مراقبا في الوقت نفسه الخطوط الحمراء التي زحفت إلى أعلى وأسفل شاشة الحاسوب الراصدة للتجربة. وقبل أن ينتهي من هذه العملية، كان برتراند على وشك أن يفقد صبره كله.

عندما عاد إلى مكانه قرب المنضدة، بدا صوت ديلينجر أشبه بصوت شخص يحاول جاهدا أن يحتوي إثارته. قال: «كان هناك تعديل هام في اتجاه أشعة جاما المنبعثة على طول الخط العصبي بين الجمجمتين. اتجاه أشعة جاما التي تصدر من المادة الخلوية المتحجرة الموجودة في بقايا الناس والقرود يتغير بشكل منتظم إلى حد كبير. لكن أن يتغير الاتجاه بالنسبة لجمجمتين بنفس الطريقة وفي نفس الوقت فهي ظاهرة غير معتادة بشدة... كان الشباب في سان دييجو على حق في النهاية...»

خلص برتراند إلى أنه كان فقط يضيع وقته. ومع ذلك، ورغم أنه لما تبقى من لقائهما بدا ديلينجر أقل من أن يوصف بأنه منتبه، وتصرف كشخص مشتت الذهن تشغله مشكلة لا علاقة لها بما كانا يناقشانه، إلا أنه منذ هذه اللحظة كان برتراند قد انطلق في أخطر مغامرة في حياته، وآخر مغامرة. ولمزيد من إرباك المذيع التليفزيوني بشأن البداية الدقيقة للحادثة التي كان مقدرا له أن يلعب فيها دورا رئيسيا... لأنه يبدو أننا يجب أن نستمر في توظيف هذه المفردة الإشكالية: «الحادثة»... انطلق البروفيسور ديلينجر، رغم سلوكه المشتت، في مناقشة لبعض النقاط المعرفية. والآن في ذلك الصباح، لم يكن برتراند على الإطلاق في مزاج يسمح بمتابعة نظريات ديلينجر الفلسفية. مثله مثل القديس

توما الأكويني، كانت لدى البروفيسور تلك الموهبة النادرة والقدرة على التفكير والمناقشة بنشاط لثلاثة أو أربعة موضوعات معقدة في نفس الوقت.

في تلك الأثناء، كان المذيع التليفزيوني يركز على موضوع واحد فقط: كيف السبيل إلى العثور على محتوى كاف لتغطية حلقتين كاملتين من كويس كوام.

"دعني أوضح الأمر من البداية.." بدأ ديلينجر. "أنا لا أعتقد بأي شكل من الأشكال في القوى الخارقة للطبيعة. ما يندرج تحت هذا العنوان هو حاصل قوانين علمية تحكم العالم المادي ولم نكتشفها بعد. بالفعل، في كل ما أفعله، ما يرشد تفكيري يتجاوز مبدأ السببية المبتذل، حتى لو كان متصلا بهذه السببية. كل ما يحدث حولنا يترك آثارا في أعقابه... أو بقايا... مازال من الممكن اكتشافها ماديا، في حاضرنا وفي المستقبل. آثار... بقايا... يمكن أن تكون من نوع سلبي، لكن يمكن أن تكون فعالة أيضا. عليك أن تبحث عنها، هذه الآثار... وبمجرد أن تجدها، من الأفضل لك أن تحترس، لأننا مازلنا لا نعرف أي قوانين الطبيعة تخضع لها... أتفهم؟»

"تماما.." رد برتراند بنفاد صبر متزايد. "لكن هل لديك أم لا... قصة ما غير معروفة أكثر من اللازم ويمكننا في كويس كوام التحري حولها؟ – ليس فقط من وجهة نظر علماء مثلك... كباحثين، يمكنكم أن تعيشوا أحلامكم المجنونة عن طريق إنفاق الأموال التي يمدكم بها المواطنون كدافعي ضرائب... لكن في وسائل الإعلام، لا بد أن نتحرى مثل هذه القصص على مسؤوليتنا الخاصة، ونأخذ وجهة نظر الناس ككل...»

"كل شيء مادي، وأقصد به أي شيء ينشأ عن المادة، أيا ما كانت هذه المادة، يترك في أعقابه آثارا من أنشطته. وعندما أقول هذا، فأنا

أيضا أشير إلى المخاوف والعواطف وأصول الأفكار التي تنشأ في العقل وفي المادة العضوية الحية... نعم، كل هؤلاء، هم أيضا... يشكلون في نهاية الأمر تأثيرات مادية، لأنهم ينشأون من المادة... ولذلك لا بد أن يتركوا خلفهم نوعا ما من الأثر المادي.»

”ربما يمكننا عرض كل هذا في خطة العام القادم من كويس كوام. لكن الموضوع الذي تثيره كبير جدا ومعقد حتى أننا لا نملك الوقت الكافي له في الحلقتين الأخيرتين من هذه الخطة. كل ما أريده هو قصة، حادثة، مكان ما يقول الناس إن أرواحا أو أشباحا أو أيا كان تظهر فيه... شيء مازال لم يتم تقصيه بعد... وأفضل شيء على الإطلاق أن يكون مكانا مفتوحا ما، ليس بيتا قديما... لأن هذا سيكون أشبه بعمل نسخة جديدة من فيلم قديم.» كان برتراند الآن قد أصبح متوترا للغاية حتى أنه يكرر نفسه باستمرار.

”علاوة على ذلك..“ استمر ديلينجر، ”لا يمكن للمرء أن ينسى أن الظواهر التي يجري تقصيها قد لا تنتج عن أثر واحد فقط باق من الماضي، بل من أثرين أو أكثر. وهذا هو السبب في أن مجال علم الآثار الباراسيكولوجي مازال في طور طفولته. نحن لا نعرف بعد ما القوانين أو القواعد الطبيعية، المحددة وفقا للمعايير العلمية، التي تحكم الطريقة التي يُظهر بها أثر واحد أو دليل من الماضي نفسه... لذا يمكنك تخيل حيرتنا عندما تقودنا الأبحاث ليس إلى مجموعة واحدة من الآثار القادمة من الماضي، بل إلى مجموعتين أو ثلاث. وإذا تبين أنها نشطة، فستكون متراكبة ومتفاعلة إحداها مع الأخرى، وليس هناك من طريقة لاكتشاف لماذا وكيف يحدث هذا. أتفهم؟»

نظر برتراند إلى ساعته. لا بد أن بوني كانت تتصل به في البيت لترى لماذا لم يظهر في المكتب بعد...

""الق نظرة على هذه الصور.." كان ديلينجر يقول وهو يضع أسطوانة مضغوطة في أحد الحواسيب أمامه. وأدار الشاشة لتواجه برتراند. " هذه المنطقة ليست بعيدة عن (برج النيفتي) وهي قريبة أيضا إلى حد كبير من آثار العصر الحجري الحديث الكبيرة. هل تعرفت على المكان؟"

"من هذين التلَّين البعيدين...»

"هما ليسا بهذا البعد الكبير. وهما ليسا تلَّين رغم أن الجميع يظنون أنهما كذلك..» ضحك ديلينجر. «وأفضل شيء لو يستمر الناس في الاعتقاد أنهما كذلك، وإلا سيبدأون في بناء كتل من العمارات الفاخرة على كل جزء فيهما. قل لي، ماذا ترى؟»

"طيب، حقل كبير. على جانب يوجد التلان وعلى الجانب الآخر، هل أنا على حق؟... البحر؟"

كان البروفيسور يغير الصور على الشاشة ليعرض مناظر مختلفة للحقل. «خلف أشجار الخروب الكبيرة تلك، يوجد منحدر، هو ليس منحدرا كبيرا بشدة ويهبط مباشرة تقريبا إلى طريق ساحلي ووراء الطريق... يوجد البحر.»

"إذًا هذه الأشجار أشجار خروب؟"

"إنها من أقدم الأشجار التي لدينا على هذه الجزيرة. إنها موجودة هناك منذ مئات السنين، ذلك البستان بأكمله. لكن فقط لا تقل هذا في برنامجك لأنه قبل أن يمر اليوم سيكون كل من في مالطا وجوزو مندفعا لإقامة حفل شواء تحت الأشجار، وبهذه الحجة سيدمرونها.»

"أتقصد أنك تريدني أن أقدم حلقة عن ذلك الحقل؟"

”إنه يقع على تخوم زنوبر، التي كانت قرية كبيرة فيما مضى. وكل ما ستجده اليوم مزرعتان. أما حجارة البيوت التي كانت هناك قديما فقد جرى نقلها بالعربات عبر السنين لبناء بيوت جديدة في القرية الواقعة على الجانب الآخر من التلّين. ومع ذلك، مازالت توجد بها كنيسة صغيرة بها كاهن يعمل كقسيس ملحق. في السنوات الأخيرة، كانت سياسة المجلس البابوي هي أن كهنة الأبرشية ينبغي أن يقيموا حيث يعملون. وقد قرر دون تيمي أنه طالما عينوه كاهنا لأبرشية زنوبر، فسيعيش هناك. ويقضي وقت فراغه في دراسة الوثائق التي بقيت في سجلات الكنيسة. ويقوم بكتابة أوراق عديدة عما حدث وعما لم يحدث في زنوبر طوال القرون. كنت على وشك أن أخبرك أن تذهب وتتحدث معه حتى يشرح لك المزيد عن هذا الحقل. أعتقد أن هذا سيثير اهتمامك. ولقد أخبرته بالفعل عنك. هل تريدني أن أتصل به؟»

”بالطبع. لكن ماذا عن هذا الحقل؟“

كان ديلينجر بالفعل يضغط على أزرار هاتف محمول أحمر صغير. وتحدث مع شخص بدا أنه مقتصد في استخدامه للكلمات. وسرعان ما قال لبرتراند: «إذا كنت تحب يمكنك زيارة دون تيمي هذا الصباح. سيقدم لك موجزا حول حقل الإسخريوطي، هكذا يُدعى.»

دون إبطاء اتفقا على أن يتوجه برتراند إلى عنوان القس خلال ساعة. وعندما انتهى من مكالمته، شرح له البروفيسور كيف يصل إلى زنوبر، أو ما تبقى منها. لكنه مع ذلك لم يرد أن يكشف ما كان مثيرا للاهتمام إلى ذلك الحد في الحقل الذي عرضه عليه في الشاشة.

”سيقدم لك دون تيمي موجزا كاملا..“ أصر البروفيسور بابتسامة نادرة. وأحس المذيع التليفزيوني بالشك في أنه يتعرض لخدعة ما. ومع ذلك، لم يكن لديه خيار آخر غير اتباع هذا السبيل. وعندما نهض

ليرحل، قال ديلينجر: «لا تدع سلوك دون تيمي يزعجك.»

"ماذا تقصد؟"

"هو شخص شديد الغرابة، مزقته توترات عصبية هائلة. لذا ليس من المدهش أنهم عندما ضاقوا به، أرسلوه ليعيش في مكان ضائع ومنسيّ مثل زنوبر. لكن الأمر كله ليس إلا مسألة أعصاب بالنسبة له، وليس مرضا عقليا كما تخيل بعض الأشخاص. وتوتره يسببه موضوع بسيط جدا. فهو يعاني من الدودة الشريطية."

"ماذا؟"

"لديه دودة شريطية."

"يمكن علاج هذا.»

"في حالات نادرة معينة مثل حالته، لا يمكن. تظل الدودة حية مهما عالجتها وتستمر في التجدد يوما بعد يوم. يقولون إن هيرودس الأول عانى من أزمة شبيهة. وأعتقد أن هذا هو السبب في أن دون تيمي المسكين قد أصبح رجلا غريبا هكذا. لكن ما يعرفه، لا يعرفه إلا قلة من الآخرين...»

تملك الشك برتراند، كموجة ضخمة متقلبة: لا بد أن البروفيسور يصنع له مقلبا. لو أن هناك شيئا يضايقه في الحياة فهو عندما يقابل شخصا يفعل به هذا (رغم أنه كثيرا، ودون أن يترك الآخرين يعرفون ما يفعله، كان يمكن أن يقوم هو نفسه بالتهكم بشكل لطيف أو قاس، كما يقتضي الحال، على أشخاص لم يسببوا له أذى، غير أنه تصادف وأن وجدهم مملين... وعلى نفس المنوال، لا بد أن ديلينجر يجده مملا، إذا كان بالفعل يحاول أن يسخر منه...). وقبل أن يتمكن من الاحتجاج،

بدأت صفارة إنذار ذات نغمة منخفضة في الصراخ من الركن الأقصى للمكتب أو المستودع الذي يعمل به البروفيسور، وبدا أنها تشير إلى حالة طارئة.

لا بد وأن الأمر كان هكذا لأن ديلينجر اندفع كالطلقة من مقعده. جرى إلى الركن. كان يمكن سماع أزيز قوي، يشبه الصوت الذي يصدره قدر مليء بالزيت المغلي. ثم تعالت أصوات مطقطقة قوية. وانتهت بغتة بمجرد اقتراب ديلينجر. بدأ يضغط على أزرار في كل جزء من لوحة تحكم موضوعة أمام مجموعة من الشاشات التي تومض واحدة وراء الأخرى. لم ينتظر برتراند حتى ينتهي البروفيسور من عمله وغادر المكتب. في الساحة خارجا، كان طلاب الدراما قد اختفوا.

.5

بينما كان يقود سيارته عائدا إلى مكاتب كويس كوام، قرر برتراند أنها ستكون فكرة جيدة لو أخذ بوني معه لزيارة الأب تيمي. فكي يستخلصا بنجاح فكرة برنامج من هذه القصة عن الحقل، لا بد أن يعملا بسرعة فائقة. ومع ذلك، لم يستطع أن يتخلص تماما من الشك في أن البروفيسور ديلينجر كان يرسله في مهمة عبثية، ليرد له الصاع صاعين بعدما لم ينسب له ما توقعه من فضل عندما عملا معا في المرة الأخيرة.

في المكاتب، كان هناك هدوء رهيب. حتى الحجرة التي كان جيانينو عادة يقوم فيها بمونتاج الفيديو كانت مغلقة.

كانت بوني تقوم بتنظيم الأوراق والملفات على مكتبه، الذي بدا كما هو دائما وكأنه قد ضربه زلزال. «ما الأمر؟» سألت بقلق. «لبرهة بدأت أفكر أن شيئا ما لا بد وقد حدث لك.»

في الأسابيع القليلة الماضية، كان مظهر بوني قد تحول إلى «شقراء بشعر مربوط في كعكة»، وهو ما كان يليق بها. واشتمل أيضا على ثياب غير رسمية أبرزها الجينز الغامق والفانلات الفاتحة، والحد الأدنى من الماكياج فيما عدا حول العينين في وجهها البيضاوي البسام، وأحذية عالية الكعب. كانت اليوم في مزاج طيب والقلق الذي كثيرا ما تحكم فيها وخرج أحيانا عن السيطرة بدا مقدورا عليه. كانت نوبات قلقها تجبرها على إنهاء أي شيء عليها أن تفعله في وقت أسرع مما يجب مرتين، وبعد ذلك تبحث عن مزيد من العمل. استنتج المذيع التليفزيوني أن مساء الأمس قامت بوني بالتقدير الصحيح للموازنة بين الأقراص

المختلفة التي كان يعرف أنها تناولتها لكي «تهدأ» على حد قولها.

أخبرها بما فعله وأنه يريدها أن تأتي معه لزيارة دون تيمي. غادرا مكاتب كويس كوام متجهين إلى سيارته. سألها: «أين جيانينو؟»

”كان لديه اجتماع مع وكيل (آڤيد) لقد قدموا إليه بعض المقترحات الجديدة. بوريس سيأتي لاحقا.“

اتبع كلاهما ثلاثة بروتوكولات لتحديد الطريقة التي يتصرفان بها عندما يكونان معا: في حضور زملاء العمل كانت تدعوه بالريّس أو برتراند؛ ووحدهما كانت تدعوه بيرت أو راند؛ وفي اللحظات فائقة الخصوصية: كي-كي، والتي كانت نوعا من التلاعب الغشيم بالكلام والتورية على كويس كوام، حيث أنهما بدآ العمل معا في بداية السلسلة. وعندما غادرا بلدية (سليمة) أوضح لها ما كان يريده من دون تيمي. قاد بسرعة والتقطته مرتين تقريبا كاميرات الطريق الموضوعة على طول المسارات المنبسطة حيث يكون من المنطقي الانطلاق بسرعة. حذرته بوني في الوقت المناسب كي يضغط المكابح.

قبل أن يتركا مدينة باولا، كان قد بلغ نهاية قصته. أنصتت في صمت، مقطبة في مواجهة ضوء الشمس خارج نوافذ السيارة. كانت تجلس إلى جواره في السيارة، ثيابها وتسريحة شعرها ومكياجها جعلوها تبدو يقظة ورابطة الجأش وناضجة. فقرر برتراند أن تلك هي اللحظة المناسبة كي يخبرها بأمر المقال المطلوب لمجلة ريكتينجل عن والي أحمد الذي يود أن تكتبه من أجله.

”كيف سأجد الوقت له؟ ومن أين يمكنني أن أحصل على بيانات عن هذا الأخرق؟“

”سأساعدك..“ واساها. ”ديلينجر يعرفه جيدا، حسبما فهمت. وكانت

فلورا تنتظر الحصول على معلومات جديدة.“

مازالت مقطبة. «سيكون عليك أن تعطيني ثلثيّ الأجر، وليس نصفه.»

”هذا ابتزاز!“

”إما هذا أو لا شيء.“

”مضطر أن أقبل... لأنك تجدينني الآن وظهري للحائط. وكي أكون صادقا، أعرف أنك مفلسة، بما أنك تنفقين وكأنه لا يوجد شيء اسمه الغد.“

انفجرت صائحة: ”ماذا تقصد؟“

كانت العربة تسير بهما على طول الطريق الساحلي، تحت التلين اللذين يخفيان البحر عنهما – مثل رغيفين مستطيلين، مسطحان عند القمة ومغطيان بالحصى والصخور والخضرة الكثيفة لامتداد الشجيرات والعشب وسط بقع من زهر البرسيم الأصفر والأحمر. وعلى مقربة، عند القمة المسطحة لجرف صخري انتصب وحيدا تماما، وقد انحدرت حافته مباشرة في البحر – الذي مازالا غير قادرين على رؤيته – التمعت آثار العصر الحجري الحديث الضخمة في ضوء الشمس، مرتفعة بأعمدتها نحو السماء. تذكر برتراند ما قاله البروفيسور عن التلين اللذين كانا يمران أسفلهما واللذين بدوا الآن مختلفين عما كانا يبدوان عليه عادة. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يقود فيها سيارته في هذا الطريق ولم يتخيل قط أن هذين الرغيفين الصغيرين يمكن أن يكونا أي شيء آخر غير ما هما عليه، تلان مغطيان بالصخور وبعض الطين والآجام الشوكية.

عندما تركا التلين خلفهما وظهر البحر، أخبر بوني بما كان يفكر

فيه. قالت: «برج النيفتي في هذه المنطقة، صحيح؟... إنه ذلك الحصن البونيقي القديم حيث يقولون إن الفينيقيين اعتادوا أن يخزنوا بضائعهم.. إنهم دائما في سبيلهم لتنقيب الموقع ودائما يؤجلون العمل. لا يريد الاتحاد الأوروبي أن يمنح أموالا للمشروع، ولا جامعة روما.»

ضغط بقوة على الفرامل لأنه لم يلمحه إلا متأخرا للغاية، وانعطف في ذلك الممر بين جدران الركام. انفتح الممر دون سابق إنذار على الطريق الساحلي الذي كانا يتبعاه. والآن، كان التلان وراءهما على اليسار بينما أعمدة آثار العصر الحجري الحديث الضخمة على اليمين وقد بدت أبعد بكثير عما سبق، بينما كان ينبغي في الحقيقة أن تبدو أقرب. انطلقا بالسيارة في الحقول ولحسن الحظ لم يقابلا أحدا قادما من الاتجاه الآخر؛ لأن الممر بكل ما كان عليه من وعورة ومع الأشواك العالية وشجيرات الشمر المغطية لجدران الركام والمتأرجحة من الجانب، كان أيضا ضيقا بشكل مفرط. بعد فترة، اتسع الدرب قليلا، ومرا أمام حظيرة ضخمة مغلقة. ومن مكان ما في الداخل، كانت الكلاب تنبح بشراسة دون انقطاع. ثم مرا ببنايتين واطئتين، كانتا بالتأكيد مهجورتين لأن الفتحات الفاغرة كانت كلها مسودة، وكأن شخصا ما جاء مرارا ليشعل نيرانا داخلها. ومما تمكنا من رؤيته، لم تكن الحقول تُزرع وربما كانت تعمل كمرعى للماعز والخراف، إذا كانت مثل هذه الحيوانات مازال من الممكن العثور عليها في الريف المالطي. أخيرا، كانا يدخلان فتحة طويلة قليلا، أشبه بساحة، في نهايتها تقوقعت كنيسة صغيرة قديمة مع مبنى صغير إلى جانبها. لقد وصلا إلى زنوبر.

صعدا الدرجات المؤدية إلى الكنيسة الصغيرة، لكن عندما أدركا أن بابها مغلق التفا إلى المبنى المجاور لها. وهناك وجدا بابا مواربا. جذب المذيع التليفزيوني مقبضا في طرف سلك من معدن حائل معلق قرب الباب، وتردد صوت جرس كبير في الداخل.

بالتأكيد، بعد ما أخبره به البروفيسور ديلينجر عن الأب تيمي، لم يكن برتراند يتوقع رجلا على غرار القديس دون بوسكو، لكنه مع ذلك اندهش أمام الرجل الذي جاء ليفتح الباب. كان طويلا، يرتدي زي الكهنة الحديث المكون من سترة وبنطال أسود وياقة كهنوتية... نحيف، تلك النحافة التي تدهشك أكثر بطريقة ما عندما تنظر مباشرة في عينيه الواسعتين، العميقتي السواد، أسفل شعر كثيف، أسود أيضا، خشن كأشواك قنفذ بحري. بدا كما لو أن عينيه قد استولتا على كل بوصة في وجهه ناتئ العظام، رغم أن ما تركتاه مكشوفا كان مكسوا بجلد ناعم مصفر، يشبه الرِّق. للحظة، اعتقد برتراند أنه كان يرى مرة أخرى إحدى الجمجمتين الموجودتين على مكتب ديلينجر، ترتدي باروكة سوداء، ولها عينان صناعيتان تجحظان من المحجرين الكبيرين أسفل جبهتها.

«ادخلا، ادخلا..» قال الرجل. «كنت أنتظركما. اتصل بي البروفيسور ديلينجر هذا الصباح... أنا مندهش لأنكما تمكنتما من العثور على زنوبر بهذه السرعة...»

قدم برتراند نفسه وبوني، التي بدت منبهرة إلى حد كبير بدون تيمي، بينما بدا الأخير عارفا تماما من كانا يبحثان عنه؛ حيث اعترف فورا أنه متابع لكل حلقات كويس كوام تقريبا. قادهما عبر ممر له رائحة الغبار إلى ما بدت لهما حجرة مكتب وحجرة جلوس وحجرة طعام مجمعة، رغم أن الحجرة كان نصفها في الظلام، بسقفها المرفوع على أقواس تآكلت بشدة مع مرور السنين، ونوافذها الصغيرة المحفورة في الجدران شديدة السُمك، العارية حتى الحجارة والمبنية بالطين.

قادهما إلى أريكة عريضة، تفوح أيضا برائحة الغبار وإن كانت نظيفة جدا، وجلس أمامهما بينما كان يتفحصهما بعينيه الواسعتين اللتين بدتا في هذا الضوء النصفي وقد أصبحتا أوسع وأكثر سوادا.

قدم لهما الشاي: «إنه كل ما لديّ هذا الصباح، إلا إذا كنتما تفضلان الويسكي. في كلتا الحالتين، لا توجد مشكلة...»

شكره برتراند وبوني معتذرين. في جلستها بجوار المذيع التليفزيوني، ناورت كي تتمدد بظهرها في الأريكة وتدفع فخذيها إلى الأمام بحيث تبدو تفصيلة الجينز بشكل أفضل.

عندما كانا يعملان معا على برنامج، كان لديهما هذا التكنيك – كما أسمياه – والذي بمقتضاه كان يمطر هو الرجل الذي يقابلانه بالأسئلة والتعليقات، بينما تحدق هي فيه بانتباه مفتون وشفتين منفرجتين قليلا وكتفين مرفوعين بحيث أنه لو كانت بلوزتها مفتوحة، سيبدو الفلق بين النهدين بشكل أفضل... متصرفة وكأنها كانت فعلا منبهرة بالشخص الذي يصدف أن يكون ضحيتهما.

كان ذلك إجراء اعتقدا أنه ناجح غالبا. أكثر من مرة، بفضله، تمكنا من اكتشاف معلومات أو وجهات نظر غير عادية ساعدت على بقاء كويس كوام في المقدمة. كان تكنيكا فعالا خلال اللقاءات مع الرجال، ووجدا أنه كان يحقق أفضل النتائج مع السياسيين والمحامين والكهنة، تلك الفئات من المواطنين المعروفين بغرورهم. وعندما حدثت هذه القصة، كانا مازالا يطوران تكنيكا مشابها من أجل من يجريان معهن المقابلات من النساء، لكنهما كانا يحققان تقدما أبطأ. «مهلا، مهلا!» هتفت بوني في اليوم السابق عندما كانا يناقشان المشكلة. «نحن النساء نادرا ما نكون مغفلات كما يتخيلنا بعض الناس. ما نريد أن نقوله، نقوله... وكيف!... لكن أي جاذبية جنسية لن تمرر من حلقنا ما نريد أن نخفيه.» (صحيح، في هذه الظروف، كان من سوء الحظ أن ذكرت بوني هذه الكلمة: الحلق؛ لكن كيف كان يمكن لها أن تعرف؟)

ومع ذلك، لعل القس كان يملك بعضا من السمات التي كانت تعتقد

أنها تخص النساء فقط. لأنه طوال الوقت الذي تكلما فيه معه داخل حجرة المكتب أو الجلوس أو الطعام الخاصة به، سمها ما شئت، استمر يقول ما كان عليه أن يقوله، دون أن يتوقف للحظة، دون أن يلاحظ بوني على الإطلاق، بينما كانت تنقل فخذيها على الأريكة، أو تميل إلى الأمام نحوه مسجلة ملاحظات في المفكرة الصغيرة التي أخرجتها من حقيبة اليد التي تحملها، مبقية عينيها مسلطتين تماما على عينيّ دون تيمي، ومن وقت لآخر تقوم بتلويحة صغيرة بيدها اليمنى لتعيد إلى الوراء عن جبهتها أي خصل شعر نافرة (لكن شعرها كان مشدودا بإحكام شديد إلى الوراء في كعكة لدرجة أنه كان من الصعب فهم كيف يمكنه أن ينزلق بهذه الطريقة المزعجة)، باذلة بالفعل مجهودا قويا وراء الابتسامة البلاستيكية التي أبقتها على شفتيها المنفرجتين على اتساعهما، لتخفي الانزعاج الحاد الذي كانت تشعر به لمرأى رأس الموت الماثلة أمامها، والتي كانت تقدم تفسيرات واضحة وتفصيلية حول قرية زنوبر ومحيطها.

شيء آخر جعلها تشعر بالانزعاج خلال المقابلة ألا وهو الطريقة التي كان دون تيمي لا يكف عن الحركة بها: طوال الوقت كان هناك جزء ما أو آخر من جسده يتحرك... الخطوط العميقة على جبهته... من الوسط فصاعدا، نصفه العلوي، حتى لو كان محبوسا بإحكام في المقعد ذي الذراعين الذي كان يجلس عليه.. ساقاه المتأرجحتان هنا وهناك... يداه اللتان طوال الوقت تنقبضان بقوة ثم تسترخيان... كانت كلها حركات بسيطة ليس بها أي شيء ميلودرامي، لكنك كنت لتلحظها بعد قليل لأنها كانت تستمر دون انقطاع... وكانت لتثير أعصابك. هذا هو الأمر، أنها تثير أعصابك.

حتى برتراند الذي لم يكرر لبوني ما أخبره إياه ديلينجر عن الحالة الصحية لدون تيمي، شعر ببعض الانزعاج مع مرور الوقت في المقابلة...

فجأة، تذكر ما رآه ذات مرة في أحد مهرجانات الأبرشية حيث كانت تأخذه أمه عندما كان صبيا: حشد صغير تجمع حول منضدة عالية عليها دمية تتقافز باستمرار من ناحية إلى أخرى، بينما صوت غامض يخرج من داخل الدمية معلقا على الناس المتجمعين حول المنضدة وساخرا منهم. «أعتقد أني أعرفك من مكان ما، لكني لا أستطيع أن أتذكر أين..» كان قد بدأ بقول هذا.

«ربما منذ بضع سنوات سابقة... عندما كنت أرأس لجنة كنسية. كنا نراقب الصحف والكتب، وكذلك الإذاعة والتليفزيون في تلك الأيام.»

«آه نعم، تذكرت..» رد برتراند، رغم أنه كان مازال في ظلمة الحيرة.

«في تلك الأيام، لم تكن هناك كل هذه المحطات التليفزيونية وأقراص الفيديو الرقمية وما لا أعرفه غير ذلك مما نملك اليوم. لكننا كنا نقوم بعمل جيد جدا. ثم جاء يوم قررت فيه السلطات المعنية أني قد أصبحت ذا نفوذ أكبر من اللازم، وأني كنت أضع العراقيل في طريق شخص ما... رغم أني مازلت لا أعرف حتى اليوم من كان هذا الشخص... وقرروا أني بحاجة لبعض الخبرة الكهنوتية، هذا ما أخبروني به. وكأن العمل الذي كنت أقوم به لم يكن يرقى في حد ذاته وبذاته إلى أفضل ما يكون من خبرات كهنوتية! على أي حال... أرسلوني إلى هنا... كانت مازالت هناك ثلاث عائلات تعيش في زنوبر... ومنذ ذلك الوقت، فقدنا مزيدا من الناس...» بينما كان يتحدث، ظل وجهه النحيل والناتئ العظام ساكنا، لكن عينيه السوداوين العميقتين كانتا تلمعان وتشردان، بينما أطراف يديه وقدميه، أو فخذاه، أو طرف ذقنه، لم تتوقف قط عن التحرك حركات إيقاعية صغيرة.

«لكنك استمررت في العيش هنا؟»

«منذ ما قبل.. قبل وقت طويل من توجيه الأوامر إلى كهنة الأبرشيات بالعيش في أبرشياتهم...»

«ومع ذلك أنت ببساطة لا تملك عددا كافيا من أبناء الأبرشية!»

«بلا أبناء أبرشية؟ بالطبع لديّ. السكان القدامى للقرية... هم الآن في المقبرة خلف الكنيسة... نحن حتى نملك مقبرة هنا... بالنسبة لي، هم مازالوا أبناء أبرشيتي. كل صباح أتلو القداس من أجل أرواحهم.»

«أخبرك البروفيسور ديلينجر بسبب قدومنا.»

«تودان أن تعرفا عن حقل الإسخريوطي. سآخذكما لترياه.»

«نود أن نقدم حلقة في كويس كوام عنه... لو وجدنا مادة كافية، بمعنى...»

«ستجدان، لا تقلق.»

«من فضلك ساعدنا على ذلك...»

«نعم بالطبع، سأساعد... لكن الأمر يتوقف على ما تبحثان عنه.»

«الحقائق، الحقائق المثيرة للاهتمام...»

«الحقيقة..» قالت بوني.

.6

ضحك الأب تيمي من قلبه وتفحصت عيناه الواسعتان السوداوان باهتمام الزائرين القادمين إلى هذا المكان المنسيّ. وشعرا هما أنهما يتعرضان لفحص من كاميرا تسجل كل خلجة من خلجاتهما. «حسن إذًا، من الأفضل أن أصطحبكما لرؤيته دون أي مزيد من التأخير..» قال وهو ينهض عن مقعده بهزة كتفين متيبسين. «لماذا لا ننطلق الآن؟» نهضا معه. «هل تودان أن تريا الكنيسة أيضا؟... والمقبرة؟... فلنذهب من هذا الطريق...»

وبدلا من الخروج من حيث دخلا الحجرة، تبعاه إلى طرفها الآخر، عبر باب توارى خلف ستار من البروكار الدمشقي إلى حجرة مظلمة. لمس دون تيمي زرا، فأضاء مصباح من النيون. على الجانب كانت هناك مائدة طويلة من خشب قديم صلب وقد انفردت فوقها الثياب الكهنوتية الطقسية. «هذه غرفة المقدسات الخاصة بنا..» قال القس. «في هذه الخزانة نحتفظ بكل وثائق أبرشية زنوبر... يعود تاريخها إلى حوالي ستمائة عام... إن لم تأكلها الديدان. هل تريدان رؤيتها؟»

"ربما في وقت آخر إذا كنا سنزور هذا الحقل. أين هو بالضبط؟"

وبدلا من الرد، أراهما دون تيمي بابا جانبيا آخر يؤدي إلى خارج غرفة المقدسات. دخلوا الكنيسة الصغيرة. "ما رأيكما فيها؟ أبذل أقصى ما لديّ كي أعتني بها جيدا... كل يوم أتلو القداس هنا، رغم أن أبناء الأبرشية الذين يحضرونه ينتمي جميعهم إلى أزمنة أخرى.»

بينما كانت بوني تنصت إلى ما قاله القس، الذي كان ينتفض وهو يتكلم، ارتعشت. كانت الكنيسة الصغيرة مليئة بزهور الموسم وفاحت رائحتها القوية في كل مكان. وخُيل لها أن باستطاعتها أن ترى جماعة مصلين كاملة من الهياكل العظمية تحتل الكنيسة ما بين باقات الزهور الصفراء الموضوعة في كل ركن، وجميعهم في حالة تركيز على الطقس الذي يؤديه هذا القس النحيل النحيف، الذي له هو نفسه شكل هيكل عظمي.

"أين المقبرة؟" تساءل برتراند ليختصر المسألة. كان غير منتبه كثيرا لشروح الأب تيمي حول متى بُنيت الكنيسة وكيف جرى ترميمها بعد أن تعرضت للدمار من رياح قوية اكتسحت ذات مرة هذا الجانب من الجزر المالطية.

عبرا إلى الطرف الآخر من كنيسة زنوبر في أثر كاهنها الأبرشي. الباب الذي فتحه لهما كان يؤدي إلى ساحة كبيرة، لم يكن بمقدورهما رؤيتها عندما وصلا إلى هنا لأنها كانت متوارية وراء الكنيسة والبيت. كانت مقبرة، مكدسة بصلبان حجرية وتماثيل صغيرة منحوتة بأسلوب بدائي، تُظهر امرأة في ثياب راهبة ترفع يديها إلى السماء، أو مسيحا مستغرقا في تأملاته. ركع برتراند كي يقرأ النقوش المكتوبة على صليب أو اثنين قريبين، لكنها كانت محشوة أكثر من اللازم بطحالب سوداء نمت وجفت ونمت وجفت من جديد طوال فصول كثيرة؛ حتى أنه لم يعد بمقدور أحد أن يفقه شيئا مما كان ذات مرة مخربشا على الصلبان. ليس بعيدا عن المكان الذي كانوا واقفين فيه، لاحظ أن قطاعا من التربة جرى تقليبه حديثا. كان عكس بقية الساحة؛ حيث كانت التربة صلبة ومتماسكة، كأنها مصنوعة من الصلصال. خمن أن هذا هو الجزء الذي حصل منه ديلينجر على الجمجمتين اللتين كان يجري عليهما التجارب في مختبره.

”وما هذا؟“ تساءلت بوني. كانت تشير إلى صخرة هزيلة ضارب لونها إلى الرمادي تقف عند حافة شريط الأرض الذي كان المذيع التليفزيوني قد لاحظه بالفعل. وقفت الصخرة كسِنَّة مشرشرة، مغطاة بامتداد من اللبلاب المصفر.

”لقد اهتديتِ إليها وحدك..“ قال الأب تيمي وتأملها لأول مرة بنظرة اهتمام، ولا نقول احترام، وكأنه ليس إلا خبير من يستطع أن يكتشف ما لاحظته. ”ذلك الركن لا يُعتبر أرضا مكرسة... أنت تشيرين إلى قبر تُونَّا.“

”من يكون تُونَّا؟“

”كنت أنوي أن أخبركما عندما وصلنا إلى حقل الإسخريوطي..“ أجاب دون تيمي.

”فلنذهب إذًا..“ قاطعهما برتراند بصبر نافد. كان يمكنهم رؤية قبر ذلك الرجل تونَّا فيما بعد، إذا كان ذلك ضروريا. فقط كان يريد أن يرى إن كان يمكن الخروج بقصة جيدة لكويس كوام عن الحقل الذي أراه إياه ديلينجر في الصور على شاشة حاسوبه.

فعلا كما قال، ومضوا إلى الساحة الصغيرة أمام الكنيسة ودخلوا السيارة. أخبرهما القس أن عليهم أن يعودوا بالسيارة إلى حيث جاءا. فالحقل الذي سيزورونه يقع إلى جانب سلسلة التلال التي تنهض مطلة على الطريق الساحلي، تقريبا أسفل التلين اللذين يشبهان رغيفين مستطيلين. جلس في الأمام إلى جوار برتراند، وبوني في المقعد الخلفي.

”هل تعرف البروفيسور ديلينجر منذ زمن طويل؟“ تساءل برتراند.

”كنا على نفس الدكة في المدرسة لعدد من السنوات. وظللنا صديقين مقربين بعد ذلك...“

”أنا أُقدِّر كثيرا العون الذي يقدمه لنا عندما نقوم بالبحث من أجل حلقاتنا عالية الجودة لبرنامج كويس كوام، أليس كذلك يا بوني؟“

”المشكلة أن البروفيسور لا يرغب قط في الظهور أمام الكاميرا. هو خجول في هذه الأمور..“ ردت بوني، عارفةً أن برتراند مازال لم يدرك أنها لم تحقق أدنى تأثير على دون تيمي. وهو الأمر الذي أدهشها. عادةً ما يلاحظ برتراند على الفور شيئا كهذا.

”لقد كره دائما الدعاية أو الشهرة الجماهيرية. إنه شخص شديد الخصوصية.“

”إذًا هو يشبهك أيها الأب.“

”يشبهني؟ لماذا؟“

”حسنا، لقد جئت إلى هنا... دُفنت... لكنك جئت لتعيش هنا وحيدا...“

”وحيدا؟“ وعندما بدأ دون تيمي في الضحك، كانت الانتفاضات التي دائما تثور من جانب أو آخر من جسده تجتاحه كله الآن. على الأقل هذا ما كانت تتخيل بوني أنه يحدث. فقد أتت رؤيتها للاثنين الآخرين من مقعدها الخلفي في السيارة، وكان بمقدورها أن ترى ذراعين يرفرفان على جانبي المقعد الذي جلس فيه القس، بينما تتحرك رقبته وكتفاه على نفس الإيقاع، في انتفاضات لا يمكن أن يسببها فقط ضحكه المفرط. «بالنسبة لي الأمر ليس كما يبدو عليه. فأنا أشعر وكأني في واحدة من الأبرشيات الكبيرة. كل الناس الذين كانوا يعيشون في زنوبر مازالوا هنا، يجيئون ليتحدثوا معي، ليُذكروني بأمنياتهم ومخاوفهم وهمومهم

واحتياجاتهم اليومية. وأحيانا لا أستطيع الوفاء بكل شيء!»

”تقصد أنك تحب أن تتخيل أن هذا ما يفعلون..“ ضحك برتراند بتوتر. كانت واحدة من ضحكاته المصطنعة التي تكرهها بوني تماما. فجأة مع ذلك كان يستخدم لغة كريهة ومهينة تماما، وكأنه قد نسي أن هذا الشخص الراكب معه رجل دين. «خراء! لماذا قرر هؤلاء الـ *** أن يسيروا في هذا الطريق الآن...“

كانت سيارة ڤان كبيرة سوداء تقترب من المدخل الآخر للممر. ونظرا لضيق الأخير، كان من الصعوبة بمكان أن يستوعب مركبة واحدة، فما بالك باثنتين.

”لا تقلق..“ نصحه الأب تيمي. ”فقط ارجع بسيارتك إلى شجرة التين تلك، واقترب قدر ما يمكنك أسفلها، وستجد أن بإمكانك الدخول.“

”ستُخدش سيارتي من أعلاها إلى أسفلها.“

”لا..“ قال الأب تيمي. وكان على حق. لأنه رغم عدم استطاعتك أن تراها بينما تقود عابرا شجرة التين، كانت هناك فتحة في جدار الركام سمحت لهم بالانزلاق فيها، حتى مرت السيارة الـڤان المقتربة. وأفسحت غصون الشجرة طريقا بسهولة دون أن تخدش أي مكان.

توجهت السيارة الـڤان بسرعة نحوهم، وكأن سائقها كان متأكدا أنهم سيفسحون الطريق له. لكنها عندما اقتربت منهم، أبطأت الـڤان، وبينما يمرون إلى جوارهم تفحص الرجلان الجالسان في المقدمة سيارة برتراند بإمعان دون أن يلوحا بأي تحية. كانا يرتديان فانلتين بيضاوين، وكانت الشمس قد لوحت وجهيهما بشدة حتى أنه كان من الصعب رؤية عيونهما. وعندما مروا، عادت الـڤان مرة أخرى إلى سرعتها.

«كان يمكن لنظراتهما أن تقتل! ماذا فعلنا لهذين الشخصين؟ ومن يكونان بحق الجحيم؟... وكأنهما يملكان المكان..» تمتم برتراند باستياء.

«إنها أسرة تونًّا... واحدة من الأسرتين الباقيتين الآن في زنوبر... رغم أنهم نادرا ما يأتون إلى الكنيسة. يعيشون في المزرعة التي يمكنك أن تراها عند حافة مستوى الأرض، خلف المقبرة.»

لم يكن برتراند قد لاحظ المزرعة، على عكس بوني. «لا يبدو وكأنهم يديرونها جيدا..» لاحظت. «لا بد أن الكلاب على سطح البناية صائمة منذ فترة...»

«ليس من السهل التعامل مع أولاد تونًّا..» قال دون تيمي. «المرة الوحيدة التي جاءت فيها الشرطة إلى زنوبر كانت بسببهم. كان ذلك قبل وصولي. اكتشفت إدارة الصحة العامة أنهم يربون جرذانا في مزرعتهم ليطعموا بها الخنازير. وتم القبض عليهم لأنهم كانوا يجمعون الزبالة من القرى في الجوار، حتى يتمكنوا من إطعام جرذانهم بأرخص الطرق. وكاد أن ينتهي بهم الأمر في السجن.»

«وأين كانوا يحتفظون بالجرذان؟»

«في أقفاص كبيرة. وكان نظامهم أن يُسمنوا الجرذان الصغيرة بسرعة وبعد ذلك يلقون بها في ماء مغلي حتى يتمكنوا من...»

«لا بأس أيها الأب، لقد قلت ما فيه الكفاية، توقف وإلا ستجعلني...» وبالفعل كانت بوني تشعر حقا بالغثيان، لأسباب ليس أقلها أن دون تيمي خلال شروحه استمر في الانتفاض في مقعده، كدمية ميكانيكية ممسوكة بإحكام لكنها تتشنج.

لتغيير الموضوع قال برتراند: «هناك شيء واحد مازلنا لم نسألك عنه. هل لديك أي اعتراض لو أحضرنا كاميراتنا ورجالنا لتصوير زنوبر والكنيسة، بالإضافة إلى لقاء معك؟ كل اللقطات ستعرض في الحلقة الأخيرة من الخطة الحالية لكويس كوام.»

«لو كان البروفيسور جزءا منه، ليس لديّ اعتراضات. وفيما يتعلق بحقل الإسخريوطي...؟»

«عندما نصل هناك، سنرى ما سوف نجد..» أجابه المذيع التليفزيوني. كانوا قد وصلوا نهاية الممر ودخلوا الطريق الساحلي.

«ومع ذلك، هناك شيء لم أفهمه بعد...» قال دون تيمي. «ما العلاقة بين البروفيسور والي أحمد وكويس كوام؟»

«اعذرني...؟»

الآن وبما أن الجرذان لم تعد موضوعا للنقاش، أصبحت بوني كلها آذانا صاغية.

«ذكره البروفيسور منذ بعض الوقت وسأل إن كان يمكنه أن يجعله على اتصال بي... قلت لم لا؟ وهذا الصباح تلقيت إيميلا من والي أحمد نفسه، وبدا أنه مهتم بنفس الموضوعات التي تهمك. وقال إنه سيزور مالطا ويود أن يأتي ليرى زنوبر.»

«البروفيسور والي أحمد من بين أبرز خبراء العالم المختصين بالإمبراطورية الفينيقية في البحر المتوسط وكذلك بمهارتهم الحربية.»

«لذلك يريد أن يزور زنوبر. قد لا يكون لهذا أي أهمية بالنسبة لك، لكن القرية كانت بالتأكيد واحدة من أوائل المستوطنات الفينيقية هنا، إن لم تكن المستوطنة الأولى. وأصبحت مركزا حضريا هاما للفينيقيين

خلال قرون كاملة، وبالتأكيد حتى بدأ زمن التفوق القرطاجي يؤكد وجوده في المنطقة. لا نعرف ما حدث بعد ذلك. ومع ذلك مازال بإمكان المرء أن يميز أن أسماء الكثير من المواقع حول زنوبر قد بقيت من تلك الأيام... أما سبب اندهاشي من أحمد فكان لأنه سألني إن كنت على معرفة بقصة وِن-آمون.»

«من يكون هذا؟»

«وِن-آمون كان مسؤولا مصريا رفيعا سافر إلى صيدا وصور، المدينتين الفينيقيتين الرئيسيتين، لكي يشتري خشب الأرز من أجل إله طيبة. لكن مؤخرا، شك الباحثون أن ون-آمون كان في الحقيقة في مهمة سرية لإنشاء تحالف جديد بين الفينيقيين وبعض الملوك المصريين في ذلك الزمن... حيث كانت مصر... أو كيميت... وقتذاك منقسمة بين عدد من الزعماء يريدون كلهم أن يصبحوا الفرعون.»

«وما علاقة هذا بزنوبر؟»

«سافر ون-آمون مع قائد عسكري مصري شهير... بوتو-رع... الذي خان ون-آمون وفقا لوثائق كُشف عنها مؤخرا. اشتراه الفينيقيون مقابل ثلاثين جرة من المرمر الفاخر. ومن وراء ظهر ون-آمون، سرب للفينيقيين كل أسرار مصر... التي كانت في حال شديدة السوء في ذلك الوقت. ثم خدم كجندي للثروة... قائدا عسكريا مع الفينيقيين. القصة معقدة للغاية... لكن يبدو أن والي أحمد يتتبع بعض المسالك الجديدة. من يعلم ما قد تكون!... ها نحن ذا... هذا هو!»

.7

وفقا لتوجيهات دون تيمي، دخلوا عبر فتحة في جدار الركام إلى اليمين. وأمامهم كان يوجد امتداد كبير من القفار الجاف يحتل الزاوية التي صنعها الطريق عند هذه النقطة وصعد في انحدار بسيط نحو قمة سلسلة تلال منها يمكن للمرء بالتأكيد أن يطل على البحر. لكن للوصول إلى قمة الانحدار، كان على المرء أولا أن يعبر بستانا صغيرا من الأشجار كثيفة الخضرة، والتي كانت تتعلق بإحكام بجانب التل المنخفض، دافعة غصونها السميكة نحو السماء.

«هذا هو حقل الإسخريوطي..» قال الأب تيمي. تعرف عليه برتراند من الصور التي عرضها عليه البروفيسور في شاشة حاسوبه. وعلى البُعد بينما كانوا يسيرون صاعدين الحقل، خلف الحافة التي كان ينتهي عندها ويهبط فوق الطريق الساحلي، كان بإمكانهم رؤية التلين مثل رغيفين مستطيلين ومسطحين قليلا – لكنهما لم يبدوا شديدي البعد.

اقتربوا من البستان، بين بقع من العشب والآجام الشوكية المصفرة. أشجار خروب، هذا ما كانته الأشجار كما قال القس. أحاط بهم صمت جسيم. كانت أشعة الشمس لينة. وساعد نسيم لطيف على تأكيد الجمال الناعم للموقع كله. متشنجا ومنتفضا مع كل انعطافة بينما كانوا يسيرون صاعدين الحقل، كان دون تيمي يريهما الريف الذي جاؤوا للتوّ بالسيارة عبره، إلى جانب كنيسة زنوبر الصغيرة. بدت الأخيرة قريبة إلى حد كبير، وهو ما أدهش بوني. أوضح لهما أن الطريق الذي سلكاه

كان طويلا، لكن يوجد ممر سير يخترق المنطقة ويأتي بالمرء إلى هنا في وقت أسرع بكثير مما يمكن للسيارة أن تفعله.

وصلوا إلى الأشجار. بعضها كان منحنيا وذابلا مع الشيخوخة، وبعضها جديد ومحمل بالأوراق، وبدت جذوع بعضها الآخر وكأنها تزحف على الأرض، بينما كان بعضها سميكا وقويا، منتصبا نحو السماء. داخل بستان الخروب، كان هناك جيب صغير على مستوى الأرض، بارد وظليل، ومختفٍ تماما وراء غصون الشجر.

«والآن أيها الأب..» قال برتراند بضحكة أخرى من ضحكاته المصطنعة، «من فضلك أرحنا من هذا التوتر واشرح لنا ما هو الشيء المميز جدا في هذا الحقل.»

«تذكر..» تدخلت بوني. «لقد حصلنا بالفعل على قصص كثيرة هذا الصباح. أولا كانت هناك قصة زنوبر، ثم تلك القصة عن ويني مون والآن...»

«ون-آمون..» صحح لها الأب تيمي، بأقصى صبر ممكن. «يمكن أن تُحكى القصة بكلمات قليلة. كي أكون صريحا، أنا لست متأكدا كم يمكن أن تناسب برنامجك تماما. هي قصة يرجع تاريخها إلى أكثر من مائة وثلاثين عاما... عندما كان هناك عدد لا بأس به من الناس مازال يعيش في قرية زنوبر. وبالرغم من ذلك، كان عدد سكانها يتقلص بالفعل في تلك الأيام... من أجل يوم الجمعة العظيمة، بدأ كاهن الأبرشية الذي كان اسمه يُذكر باعتباره من المحتمل أن يكون المطران التالي لمالطا، في تنظيم احتفالات خاصة. أحد هذه الاحتفالات، الذي يقام عشية الجمعة العظيمة، كان تقديم (آلام المسيح) في فناء الكنيسة. حاليا تقيمه أبرشيات كثيرة، لكنه كان شيئا جديدا إلى حد كبير وقتئذ. كاهن الأبرشية واتته فكرة جعل أهل القرية أنفسهم يمثلون

في المسرحية... مثلما يحدث في بلدة أوبرامرجو الألمانية. فعلها لأول مرة ومضى الأمر بشكل جيد جدا، لذلك وفي العام التالي أراد أن يكون الاحتفال أعظم حتى من العام السابق، مع وجبة عيد الفصح، وقضاء أمسية العيد في حديقة (جثيسماني) وبعد ذلك جَلد المسيح... على أي حال، أن تؤدى الأعمال كلها كما حدثت في الحياة الحقيقية. لكن ظهرت مشكلة تتعلق بدور يهوذا. لم يستطع كاهن الأبرشية أن يجد أحدا يلعب الدور. وأخيرا، كي يحل المسألة، أصر أن يلعب الابن الأوسط لعائلة تونًّا الدور...» لاحظ دون تيمي النظرة الفضولية على وجه برتراند. «نعم..» أكمل «الرجلان اللذان رأيناهما في الـڤان بينما كنا قادمين إلى هنا، ينتميان إلى نفس العائلة... الناس الذين أتكلم عنهم كانوا أسلافهما... على أي حال، المسرحية... أو العرض، أيا كان، حقق نجاحا كبيرا... بالابن الأوسط لعائلة تونًّا... والذي كان اسمه الحقيقي بالفعل يهوذا أيضا... الذي لعب دوره بطريقة تصل إلى الكمال. كان وكأنه قد انسحر بالدور. أدوا العرض يوم خميس العهد، قبل الظلام. ثم اختفى يهوذا. وفي الصباح التالي وجده أحدهم مشنوقا ميتا على ذلك الغصن... إنه مازال موجودا... الغصن الذي فوق رأسك يا آنسة.»

فوجئت بوني بشدة حتى أنها صرخت بحدة وتراجعت خطوتين.

«كيف لك أن تعرف أنه مازال نفس الغصن؟»

«توجد طرق للتأكد من هذه الأمور، اسأل البروفيسور ديلينجر. على أي حال، منذ ذلك الوقت، هذا الحقل الذي كان يُدعى حقل المشنوقين أصبح يُسمى بحقل الإسخريوطي. و...»

«قل لنا...»

«أهل زنوبر لا يحتفظون فقط بذكريات سيئة عنه. بل علاوة على

ذلك، استمرت الشائعات بأن الحقل ملعون. لأنه قبل أن تقع هذه الحادثة، كان الرعاة والفلاحون من الجوار بالفعل يحرصون على البقاء بعيدا عنه قدر استطاعتهم.»

«من كان يمتلكه؟»

«أبرشية زنوبر لكن...»

«هل كانت هناك أي تقارير عنه... قبل.. أو بعد حادثة يهوذا تونًّا؟»

«الوثائق والروايات غامضة جدا. الكلمات التي كانت تُستخدم دائما في الوثائق التي لدينا... منذ ما قبل الحادثة التي ذكرتها للتوّ... تقول إنه حقل حلت عليه لعنة ما... وهو ما يعني أي شيء ولا شيء...»

«لكن من أين جاء الاسم الأقدم؟»

«لا نعرف. وفقا لـ... كنت سأقول... لكن لا يمكنك حقيقةً أن تأخذه بقيمته الاسمية... هنا قام الفينيقيون ببناء مجمع يضم بعضا من أقوى تحصيناتهم ومستودعاتهم. صحيح أيضا أنه حتى الآن، كما قلت لكما... في المنطقة بأسرها... من هذين التلين وراءنا إلى البحر، إلى الحقل الذي نقف فيه، إلى آثار العصر الحجري الحديث في برج النيفتي، تظل كثير من أسماء الأماكن هي نفسها التي كانت مستخدمة من قِبل الفينيقيين.»

«لكن هل يوجد أي شيء باق ليوضح لماذا في الماضي اعتقدوا بالفعل أن الحقل به لعنة ملتصقة به؟»

«فعليا لا شيء. لكن ألا تعتقد أنه لا بد كان هناك سبب ما وراء مجيء يهوذا تونًّا هنا ليشنق نفسه؟»

تساءلت بوني: «وهذا القبر الذي رأيناه في الجبانة... الوحيد تماما...

هل هو قبره؟»

«بالضبط. باعتبارها حالة انتحار لشخص شنق نفسه، لم يستطيعوا أن يدفنوه في أرض مكرسة. في تلك الأيام، كانت الكنيسة أكثر صرامة فيما يتعلق بهذه المسائل مما هي عليه اليوم. ولم يستطع كاهن الأبرشية بالتأكيد أن يُظهر نفسه ليناً في هذه النقطة، خاصة وأنه مع الفضيحة التي تفجرت فقد كل فرص اعتباره مرشحا لمنصب المطران. وانتهت عروض الجمعة العظيمة نهاية مفاجئة، في زنوبر وغيرها من القرى التي مال فيها الناس لأداء نفس العروض.»

«إذًا فقد كانت فضيحة كبيرة، هه؟» قال برتراند. كان مازال متشككا للغاية حول ما إذا كان ما سمعاه للتوّ يمكن أن يعطيهما مادة مثيرة كافية لكويس كوام. كان الوقت هو المشكلة – وكان يضغط عليهم بالفعل... «ماذا سنفعل يا بوني؟ ربما من الأفضل أن نعود إلى المكتب ونقابل فريقنا لنرى ما يمكننا فعله. هل تمانع أيها الأب لو استمررنا في إزعاجك؟... مثل، لا أعرف، لكن مثل الاتصال بك أو حتى المجيء لمقابلتك مرة أخرى...»

دارت بوني حول البستان. تبعها الاثنان الآخران إلى النهاية العالية لسلسلة التلال. امتد البحر الآن أمامهم بينما على اليمين، في نطاق خط الساحل بشكل لا بأس به، كان التلان المتخذان شكل رغيفين مستطيلين يلتمعان في ضوء الشمس. كانت بوني مفتونة ومنبهرة، لا تعرف لماذا، بأشجار الخروب العتيقة تلك القائمة كتاج على قمة الحقل. كان برتراند يزداد ضيقا. كان الريف، أي ريف، يضجره تماما. مهما كان المكان الذي يجد فيه نفسه، يمكن تلخيص توقعاته في التالي: هل يوجد أي شيء جديد هنا، أو حتى قديم، يمكن استخدامه بشكل مفيد لكويس كوام؟ كان يركز بقوة كبيرة على مطاردة الأفكار التي قد تكون ذات

فائدة لاحقا، للعرض في البرنامج، حتى أنه أصبح معتادا على تحديد ما هو مفيد وما هو غير مفيد على الفور. ومع ذلك كانت بوني تشعر بالقلق؛ كانت تشعر أنه يندفع بسرعة، بسرعة أكثر من اللازم، ويفشل في إدراك أنه في هذا المكان ثمة تطورات غير معتادة فعلا قد تكون حادثة، والتي يمكن أن يغفل عنها المرء في البداية. ساروا عائدين هابطين الحقل إلى حيث جاؤوا.

.8

قام المذيع التليفزيوني وبوني بتوصيل دون تيمي بالسيارة إلى زنوبر. هذه المرة لم يقابلوا أحدا في الطريق. ومع ذلك، عندما دخلوا الساحة الصغيرة القريبة من الكنيسة الصغيرة، كان هناك رجل أسمر البشرة يرتدي فانلة تحت قميص وعلى رأسه كاب، نهض عن درجتيّ السلم في فناء الكنيسة حيث كان يجلس. وما إن غادر دون تيمي السيارة، مضى الرجل ليتحدث إليه.

قاد برتراند السيارة خارجا على أمل ألا يقابل أحدا قادما من الاتجاه الآخر، وهو ما حدث. وبمجرد أن أصبحا على الطريق الساحلي، قال: «اتصلي ببوريس وجيانينو وهاردهيد. أخبريهم أننا سنلتقي في خلال نصف ساعة لاجتماع إنتاج حول الحلقتين الأخيرتين من كويس كوام.»

«هل سيتمكنون من الوصول خلال نصف ساعة؟»

«سيتوجب عليهم.»

اتبعت تعليماته.

«أتعرفين فيمَ أفكر؟ لماذا لا نطلب من بروفيسور ديلينجر أن يحضر الاجتماع؟ ربما يتمكن من القدوم... لكن من الأفضل أن أتحدث إليه بنفسي.»

ضغطت الأرقام التي أملاها عليها في هاتفها المحمول، ثم أوصلته بالبروفيسور. وبينما كان يتحدث إلى ديلينجر، ضغط برتراند على

دواسة الوقود بدلا من أن يهدئ السرعة. ولأنها مازالت ذاهلة من انطباعاتها حول حقل الإسخريوطي، لم تُبد بوني أي اعتراض...

«سيبذل ديلينجر أقصى جهده ليجيء إلى اجتماعنا... سيصل متأخرا..» قال برتراند، وكأنه مندهش من إعلانه ذلك. «هذا لا يهم كثيرا... طالما أنه معنا.»

... هكذا اجتمعوا هم الخمسة في غرفة اجتماعات كويس كوام. طلب برتراند من السكرتيرة أن تمنع كل الاتصالات، إلا إذا اتصل ديلينجر. وسمح لجيانينو، الذي دائما ما يشعر بجوع فظيع، أن يجلب معه شطائر كان قد اشتراها من أجل وجبته لمنتصف النهار. فلو لم يجد وقتا لأكلها، سيكون غير قادر على العمل.

بالنسبة للآخرين، سترتبط ذكرى الاجتماع فيما بعد بروائح السلامي المنبعثة من الشطائر المحشوة التي التهمها جيانينو، والذي كان طوال الوقت يُسقط الفتات على كرشه المستدير البارز والمختبئ في قميص قطني أسود، بينما كان يفتح ويفرغ كيسا بلاستيكيا في أثر الآخر عند زاوية المائدة التي جلس عندها. لم يعرض أبدا على الزملاء مشاركته غداءه. ولم يتوقع أحد منه أن يفعل هذا. راقبوا وجهه المتورد وهو يتأرجح صعودا وهبوطا مع كل قضمة، وشفته العليا مزينة بخيط شارب يتجعد حول شحنة الطعام وهي تدخل فمه.

كانوا جميعا معتادين على شهيته الهائلة. أول شيء قاله لبوني بمجرد أن دخلت حجرة الاجتماعات حيث كان ينتظر أن يبدأ الاجتماع كان: «أنا جائع للغاية حتى أنه بمقدوري الآن أن ألتهمك وأظل جائعا بما يكفي لأن آكل شخصا آخر مثلك بعد ذلك.» تجاهلته، وهي الطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها المرء مع جيانينو: كن مستعدا لمسامحته على أي شيء؛ لأنه رغم كونه يعد نفسه لموت مبكر بكل الطعام الذي يأكله

بلا هوادة، إلا أن أحدا لم يكن ليتفوق عليه عندما يتعلق الأمر بتقنيات الكاميرا والميكروفون. كانت الساعة الثانية بعد الظهر تقريبا وأثناء انتظار أن يدعو برتراند لبدء الاجتماع، كان قد أصبح صائما. ورغم أن الجوع كان يعذبه، إلا أنه كبح جماح نفسه. مثله مثل كل الباقين، كان يعرف أن كويس كوام قريب من أزمة وأنه في القريب العاجل ستتم الدعوة لاجتماع إنتاجي. وها هو ذا.

مثلهم مثل جيانينو، كان بوريس وبوني وهاردهيد يعتبرون أنفسهم في المقام الأول وقبل كل شيء محترفي إعلام. تخصص كل منهم في ذلك القسم أو ذاك مع اعترافهم بعدم كفائتهم الكلية في بقية المجالات. لكن عندما يتعلق الأمر بإنتاج برنامج تليفزيوني، أو إنتاج برنامج للإذاعة أو اليوتيوب... لم لا؟، كانوا يعتبرون أنفسهم الأفضل. بهذه الروح انتظروا ليروا ما سيقوله برتراند. كان احتمال أن ينهار كويس كوام في الحلقتين الأخيرتين من خطة الموسم يقلقهم فعلا. في أعماق قلوبهم، رغم أنهم لم يكونوا ليصرحوا بهذا علانية؛ كانوا يلومون برتراند لأنه أصبح كسولا أكثر من اللازم في الأسابيع الماضية. وكانوا يعرفون أنه يشاركهم رأيهم. لذا كانوا يتوقعون منه الآن أن يبذل جهدا استثنائيا ليعوضهم هم والمشاهدين. في هذا الموضوع كانت بوني تتفق تماما مع زملائها، وعندما تختلي ببرتراند كانت تخبره بهذا وأكثر.

«نعلم ماهية التحدي..» هكذا بدأ المذيع التليفزيوني حديثه. «واليوم سنناقش كيف نواجهه. والمقترح هو كما يلي: بالنسبة للحلقتين الأخيرتين في خطة كويس كوام، سنقوم ببحث استقصائي عميق فيما حدث منذ مائة عام أو نحو ذلك في حقل الإسخريوطي؛ عند تخوم قرية زنوبر. بهذه الطريقة، سننفذ أخيرا ما كنا نحاول فعله لفترة طويلة، أي نوعية مختلفة من البرامج؛ جديدة في الأسلوب وليست حكيا معادا عن الأشباح، عن الأرواح والخرافات المالطية، من منطلق وجهة نظر ما بعد

حداثية...» وباختصار شرح لهم ما فعله هو وبوني ذلك الصباح.

تحدث بوريس نيابة عن الآخرين وكان صريحا: «هذا لا يمنحنا ما يكفي للتأمل.» هذا الشاب معروف بحماسه وفظاظته – فهو يبوح مباشرة بما يعتمل في ذهنه. بأنفه البارزة إلى الأمام، وعينيه اللتين تسجلان كل ما يحدث حوله، ولحيته الخفيفة التي تكاد دائما أن تغطي وجنتيه؛ يبدو مفعما تماما بالحيوية حتى أن زملاءه كثيرا ما يعجزون عن مواكبته. ورغم أن برتراند لا يجعل هذا الشاب يدرك ذلك، إلا أنه سعيد جدا لأنه تمكن من ضمه إلى فريق كويس كوام؛ لأنه لم يكن لديهم قط من قبل باحث بارع مثله.

قال عندئذ: «بدلا من إهدار أفكار جديدة لم لا نفكر في بدائل؟ لقد بدأت بالفعل في بحث موضوعين آخرين؟»

رد عليه بوريس: «أولا تكاليف المعيشة. تقريبا كل مؤشرات الأسعار للطعام والملابس وكل ما تشتريه الأسرة... ترتفع. ويبدو كأنها ستستمر في ذلك... باستثناء، وهذا غريب إلى حد كبير... بعض من علف الحيوانات... الدواجن غالبا... أسعار العلف في حالتها قد انخفضت، ويبدو وكأن الأمور ستبقى على هذا الحال. لقد حصلت على كل الأرقام وما قاله القادة النقابيون والوزراء في الشهور الماضية... ويمكننا بسهولة أن نجهز سريعا بعض المقاطع الفيلمية عن هذا...»

«ستكون حكايات معادة. علاوة على ذلك سنزعج وزير الاقتصاد... فهو يجادل حاليا بأن كل شيء بخير. ولا يمكننا فقط أن نحك أنف هذا الرجل. قريبا ستكون هناك حملة إعلانية كبيرة عن سندات حكومية وعائدات ضريبة الدخل. ولا نريدهم أن يتجاوزونا في هذا!... كان عليك أيضا أن تبحث في موضوع سباق الخيل.»

«لدينا بعض المادة الجيدة هناك لكنها لن تكفينا لعمل حلقة واحدة ناهيك عن اثنتين. ثم تذكَّر، هذا الموسم قدمنا بالفعل حلقتين عن الرياضة؛ واحدة عن التنس، والأخرى عن ألعاب الصابيوتو[9]...»

قال هاردهيد: «ليس لدينا وقت كافٍ لعمل قصص معقدة. ماذا يجول بذهنك يا برتراند حول هذه الفكرة الخاصة بحقل الإسخريوطي؟»

«لا بد أن نكون مبدعين...»

«وكيف ذلك؟!» تدخل بوريس مرة أخرى. «أنا لا أرى لحما كافيا في القصة!»

«لا تتسرع..» قالت بوني. «لا بد أن أعترف عندما كنا واقفين تحت أشجار الخروب تلك، شعرت وكأن الأمور ليست بهذا التسطيح...»

«هذا صحيح، هه؟» تساءل برتراند، متطلعا باهتمام وأمل متجدد، رغم أنه من ناحيته لم يشعر بشيء... وفي عقله تساءل إن كانت بوني قد تناولت منذ عودتهما من زنوبر دواء أو اثنين مما كانت تعتمد عليه لكي «تبقى هادئة». كانت تبذل قصارى جهدها، كما يعرف، لكي لا تلمس هذه الأدوية على الإطلاق خلال ساعات العمل، لكنها لم تتمكن دائما.

أما بوريس فكان مصرا أن يرى كل شيء غارقا في السواد. «ما الذي كان خارقا للعادة؟ أرأيتِ شبحا مختبئا خلف شجرة؟»

«لا..» قالت بوني. في النهاية هي ليست متاكدة فعلا أنها شعرت بأي شيء غير عادي بينما كانوا واقفين أسفل شجر الخروب. لقد تدخلت

9- مجموعة من ألعاب الطاولة التي تحاكي الرياضات الجماعية مثل كرة القدم الجماعية والكريكيت وإن ارتبطت أكثر بلعبة كرة القدم.

الآن كي تعطي برتراند بعض الدعم، لأنه هو نفسه لم يبدُ مقنعا تماما فيما يخبرهم به. لكنها بينما كانت تتكلم، بدا وكأن ذكرى القلق الذي شعرت به عندما تطلعت إلى الغصن الذي شنق يهوذا تونًّا نفسه عليه تغدو أقوى. «سواء أردت أم لا، تشعر وكأنه مازالت هناك ذكريات قوية أسفل تلك الأشجار... أكثر من مجرد ذكريات... أطياف حية حاضرة.»

«وكيف نعرضها على الشاشة؟ عن طريق استدعاء طارد أرواح شريرة ليخبرنا بكيفية ترويض الشياطين؟ لو أننا فقط سنقدم حلقة نقاشية، فلا توجد مشكلة.... بالتأكيد لا مشكلة بالنسبة لي، فهذا يجعل عملي سهلا... لكن لدينا عدد كبير للغاية من هذه النوعية مؤخرا.» حقيقة أن هاردهيد كان يتكلم بهذه الطريقة بينت كم كان الإحساس العام بأزمتهم سيئا؛ لأنه عادةً كان قلَّما يتكلم خلال اجتماعاتهم. كانت إشارته حول تقديمهم مناقشات أكثر من اللازم في كويس كوام مسألة دقيقة. كما يعلم برتراند، بعض أصدقائه يرون أنه يسعد سعادة بالغة في المناقشات حيث يكون محط الأنظار ويثرثر ويلعب دور المحاور البغيض... مخاطرا دائما بخسران مشاركة الجمهور في المحطة الوطنية، حيث جاءتهم الفكرة منذ بضعة أسابيع، في عرض برنامج فودفيل كوميدي بالتزامن مع كويس كوام، برنامج جرى إطلاقه لتحقيق نجاح كبير في الخطة القادمة.

«سنأتي بهذه الأطياف أمام الكاميرا... بأن نكون مبدعين، كما قلت للتوّ. لا تنسوا من اقترح قصة حقل الإسخريوطي عليّ... البروفيسور ديلينجر... وديلينجر لم يقدنا أبدا إلى شيء ضعيف. قرية زنوبر... كانت قرية منذ زمن طويل، لكنها لم تعد قرية الآن... هذه قصة في حد ذاتها... وكذلك دون تيمي. أنت بحاجة لعمل بعض الأبحاث السريعة حول كل هذا يا بوريس.»

«بينما أنصت إليك كنت أفكر أننا ربما نملك بالفعل ملفا عن تيمي.» نهض بوريس واتجه إلى حاسوب على مكتب جانبي صغير. ضغط عدة مفاتيح وبدأ يقرأ مما دخل عليه: «قل لي، هل هو دون تيمي أم الأب تيموتيو؟»

«الآن فهمت! إنه هو!» هتف برتراند بانفعال. «باسم الأب تيموتيو كان يرأس لجنة خاصة بالإيمان والاتصالات. وكان ذا شهرة بالفعل بين الجيل الذي يسبق جيلنا، والذي اعتاد أن يستمع إلى الراديو ويشاهد التليفزيون البدائي في تلك الفترة.»

«هل هو بالفعل نفس الشخص؟» كانت بوني ميالة للشك. «... لكن الأب تيموتيو لم يكن نحيفا وهزيلا مثل... وكان... رجلا جذابا جنسيا.» وابتسمت.

«نعم، حتى تعارك الأب تيموثيو مع المطران كان معروفا جيدا كمذيع له شعبية...» أكمل بوريس، وهو يتصفح الشاشة أمامه ويقرأ منها. كان باحثا لا يُقهر، إن لم يكن كذلك ككاتب لسيناريوهات تليفزيونية (مهما كان ما يعتقده). «كان الأب يقدم نصائح خبير حول مسائل الزواج في برامج الإذاعة... ونال سمعة كبيرة كرجل مولع بالسيدات، لكن الناس الذين حسدوا شهرته ربما كانوا يتكلمون عنه بالسوء. ومن الواضح بعد ذلك أنه استمر مصرا على القراءة في الإذاعة وبطريقته الخاصة تعاليم الكنيسة عن الطقوس اللاتينية القديمة... وأرسلوه ليعمل في أبرشية. ذلك هو أقصى ما يصل إليه هذا الملف...»

«منذ ذلك الوقت، إذا كنت أفهم الأمر على نحو صحيح، التزم تماما بالأبرشية التي أُرسل إليها... زنوبر... وهناك أصبح نحيلا هكذا..» قاطعه برتراند. «انظر ما يمكننا أيضا أن نحصل عليه عنه. وبينما تقوم بذلك ابحث بالمرة في جوجل عن البروفيسور والي أحمد.»

«من يكون هذا؟»

قدم برتراند موجزا لزملائه عن دور والي أحمد. لكنه لم يفلح إلا في زيادة حيرتهم عندما ذكر كم سيكون مفيدا لهم أن يعرفوا كل شيء عن الحقائق العجيبة التي ظهرت منذ أن بدأ يتابع القصة. لم يكن من المعتاد بالنسبة لكويس كوام أن يتأرجح إلى هذا الحد في سياق انجراف الأحداث. عادةً كانوا هم المتولون لزمام الأحداث. وكان من الطبيعي أن يجدوا أنفسهم في حالة قلق. في النهاية كان رزقهم... أو جزء كبير منه... يعتمد على نجاح البرنامج؛ وحتى الآن لم تكن لديهم أي شكوى من رواتبهم، على العكس.

«لماذا لا تقول لنا فقط ما يدور في ذهنك؟» مرة أخرى هاردهيد: بنظرة واحدة إليه ستفهم على الفور من أين جاء لقبه.[10] فرأسه الحليقة كانت أشبه بدانة مدفع كروية، ووجهه الأسمر المستدير ناعم تماما تقريبا، وعيناه الصغيرتان جاحظتان قليلا، وأذناه مسطحتان – وكل هذه الملامح كانت موضوعة فوق كتفين عريضتين لرجل لا بد أنه كان في الماضي حريصا على الرياضة أو نشاط ما كان يحتاج من أجله لاستخدام كل العضلات الموجودة في جسده... لكن سيكون من الخطأ الاعتقاد أنه نال لقبه ذاك لهذا السبب. لقد اكتسبه منذ سنين طوال، عندما كان مازال لديه شعر طويل، وهي موضة نقلها عن مغني البوب الأمريكان في الثمانينيات. في ذلك الوقت بالفعل، أدرك أصدقاؤه كيف سينفذ بحماس قاتل وتصميم هائل أي مشروع يدخل فيه – حرفيا كان يناطح برأسه مندفعا إلى الأمام ومنجزا الأمر بكفاءة جبارة. لم يكن هناك أحد أقدر منه على جمع المعدات والناس والأموال اللازمة لعمل برنامج، ولهذا قُيد له أن يكون منتج كويس كوام. كان مسؤولا عن

10- Hardhead الرأس الصلبة أو أبو راس ناشفة.

القيام بمجهود لاكتشاف الرعاة الممولين. وكان يفعل ما هو ضروري حتى تجري الأمور بسلاسة، متوقعا في نفس الوقت كل الصعوبات التي يمكن أن تظهر. طوال السنوات الماضية، ربما أصبح وجهه وكتفاه مترهلين قليلا، مع نعومة كانت مختلفة إلى حد كبير عن نعومة جيانينو البدين، الذي لم ينطق بكلمة حتى الآن، بينما كان يطحن الشطائر التي أحضرها معه إلى الاجتماع، والتي كانت مازالت تنشر حوله الروائح المالحة للحم الخنزير المقدد الإيطالي. على العكس، ظل هاردهيد رجلا صلبا ونشطا، قويا وعفيا. وكان المقدم التليفزيوني يعرف جيدا أن هناك شيئا واحدا فقط يجب وضعه في الذهن عند العمل مع هاردهيد: لا تدعه يعيد التفكير فيما كان يفعله، وإلا فإنه سيخاطر بفقد كل حيويته.

«ستدعوها تحايلا، وماذا في ذلك؟ لكن دعنا نستكشف هذا الحضور الشبحي... أو أطياف الحضور، أو الذكريات التراجيدية من الماضي... الأطياف التي شعرت بوني بوجودها هناك... هي قالت ذلك وليس أنا. دعنا نقدم استكشافنا كجزء من مشروع لكويس كويم. غدا سأقضي الليلة نائما تحت أشجار الخروب في حقل الإسخريوطي وأريد من فريقنا أن يصور نومي كله. من هنا سنبدأ.»

انفجر الأربعة الآخرون في فوضى من الاحتجاجات والهتافات المتعجبة المجنونة. ولأول مرة، فتح جيانينو فمه ليقول شيئا: «لكن كيف سنصورك ليلا ونحصل على صورة من نوعية جيدة.»

«ألم نشتر للتوّ كاميرا يمكنها التصوير في الظلام دون الحاجة لأضواء؟ إذًا فسنجعلها فقط تصور الليلة بأكملها. أريد أن أكون وحيدا تحت أشجار الخروب تلك. ألم تخبرني أن هذه الكاميرا الجديدة يمكنها اقتناص صورة من على بُعد نصف كيلومتر في الظلام؟ سننصب محطة تقنية صغيرة فوق قمة الحقل ونضع فنيا يسجل منها.»

«لكن... لكن...» فجأة فقد جيانينو شهيته لما تبقى من شطائر السلامي أمامه. «ألم نتفق على بدء استخدام الكاميرا مع خطة البرنامج الجديدة؟ وكيف يتأتي لي أن أجهز كل شيء قبل الغد... مساءً...؟»

«قل لي، وأنا أقول هذا لأني كنت أفكر من خلال هذا السؤال مرة أخرى... قل لي، أليس من السخف بالنسبة لنا أن نمتلك هذه الكاميرا... لقد وصلت، صحيح؟.. ونتركها راقدة دون استخدام لبضعة شهور؟ دعنا نبدأ العمل بها الآن حالا! ما رأيك يا هارد؟»

من الواضح أن بوريس وهاردهيد لم يتوقعا هذا الاقتراح وكانا معجبين به؛ لأنه على الأقل كان يزود كويس كوام بحس جديد بالهدف وبتحدٍ جديد.

ومع ذلك، ظلت بوني هادئة. بدت عيناها تعكسان مشاعر غامضة وغريبة برعب متصاعد. لكنها لم تعرف من أين جاءت هذه المشاعر أو كيف. «يا ريّس..» قالت بصوت هادئ أثر على الآخرين بشكل أكبر مما لو انغمست في أداء مسرحي والكثير من الضوضاء. «لا تفعل هذا. أقول لك، هناك لعنة حلت على أشجار الخروب تلك.»

ما قالته بوني كان له تأثير عكس ما كانت ترغبه: فقد أقنعتهم أنهم وجدوا فعلا موضوعا يمكن أن يستحق العناء، لأنه يقدم زاوية مختلفة عن الزوايا الأخرى.

«لقد وصل البروفيسور ديلينجر توًّا.» أعلنت السكرتيرة من خارج الغرفة.

.9

رحب برتراند بديلينجر وكأنه صديق قديم لم يره منذ سنوات طوال... «أنا في غاية السعادة لوجودك معنا يا بروفيسور... هل قدمت لك السكرتيرة القهوة، أو أي مشروب؟» وحتى بعد أن انتهى الاجتماع بوقت لا بأس به، ظل برتراند يتساءل متعجبا لماذا كان ديلينجر يأخذ حلقة كويس كوام على هذا المحمل من الجد لدرجة أن يترك مكتبه أو مختبره استجابة لهذا الاتصال القصير، بينما لا أحد يعرف ما كان يمكن أن يحدث في هذه الأثناء لتجاربه العديدة هناك. ومع ذلك، فإن التطورات الجديدة وغير المتوقعة التي بدأت في الحدوث لم تدع للمذيع التليفزيوني أي وقت ليفكر مليا في هذه النقطة الغريبة بعض الشيء.

كان بقية أعضاء فريق الإنتاج يعرفون ديلينجر بشكل أو آخر. وأوضحوا له أين يقفون الآن.

على عكس ما تخيله برتراند، اتفق البروفيسور فورا مع فكرة أن يقضي ليلة في حقل الإسخريوطي وكان بالفعل متحمسا للمقترح. «سيمنحنا هذا فرصة لاختبار بعض الافتراضات في مجال علم الآثار الباراسيكولوجي التي نقوم نحن ببحثها منذ زمن لا أعلم متى كانت بدايته.»

ابتهج برتراند لسببين. فقد أصبح من المؤكد الآن أن البروفيسور سيمنحهم دعمه الكامل. وثاني الأسباب أن كلا من بوريس وهاردهيد وبمجرد أن أدركا كم كان البروفيسور متحمسا تصاعد التزامهما

بالمشروع.

الغريب أن العكس حدث مع بوني. لم تستطع أن تتجاوز الانزعاج الذي أحست به منذ فترة وبدلا من ذلك تنامى رعبها. «أي افتراضات؟» تساءلت مقطبة. «ويا بروف، من تقصد عندما تقول ’نحن‘؟»

«والي أحمد وأنا. عندما طلب مني برتراند أن أجد له موقعا يمكنه منه أن يصنع تقريرا حول قصة غير معتادة، ولا تكون حكيا معادا... ذكرت له هذا المكان الواعد جدا. ينبغي أن تعلموا أن والي أحمد قد قبل الدعوة لزيارة المعرض الفينيقي الذي ينظمه المعهد الوطني للثقافة. سيصل غدا، رغم أنه سيكون قد فاته الوقت للأسف كي يتمكن من رؤية ما ستفعلونه في الحقل.»

«لكن لماذا يكون البروفيسور أحمد مهتما على الإطلاق بحقل الإسخريوطي؟ إنه خبير في تاريخ الفينيقيين، صحيح؟ ويهوذا تونًّا شنق نفسه في القرن التاسع عشر...» وتصلبت نظرة الشك على وجه بوني.

لم يرد البروفيسور، وبدلا من ذلك كان يقول: «بما أنكم ستشرعون في هذه المغامرة، فدعوني أقدم اقتراحا إضافيا... يمكنه أن يقوي نكهة خبرتكم الإجمالية. هذا الصباح أبلغني ابن الوزير أن عقد (دروسيلا)... الذي سيغطي إدخال الضوابط الأمنية في كل طرقنا عن طريق أجهزة استشعار رقمية، تم التصديق عليه. وسيذهب إلى تحالف الشركات الذي ترأسه شركة بوكُّو، وأنتم تعلمون من يكونون: مقاولو البناء الكبار. لكن كل ما يفعلونه في بوكُّو هو أن يضخوا الأموال التي راكموها من الأشغال العامة التي لا ينتهون منها قط في موعدها، بالإضافة إلى العقود من الباطن. العقل المحرك وراء النظام كله، بما في ذلك النمذجة المحوسبة ذات الصلة وفقا لخوارزميات جينير-لونسديل من معهد ماساتشوتس

للتقنية، دعوني أقل بكل تواضع: هو أنا الذي أحكي لكم كل هذا... حسنا، أنا وخمسة من طلابي. وكنا ننوي تشغيل أول نموذج مبدئي من هذا النظام في الشوارع المحيطة بالقصر الرئاسي في سان أنطون. لكن الآن، أفكر كم ستكون فكرة أفضل لوضعه حول حقل الإسخريوطي.»

«لا تقل لي إن جوني ديب طالب من طلابك؟» تساءل بوريس.

ضحك ديلينجر. «تقصد... لماذا؟ أتعرفه؟ نعم، هو واحد من فريقنا... فتى شديد الألمعية...»

«كنا في المدرسة معا. لذلك جاء ليعرض عليّ مكانا في مجموعة بحثية جديدة تعمل على الأمن الرقمي في طرقنا مقابل أجر يبلغ ضعف ما أحصل عليه الآن.»

«ماذا سيفعل مشروع دروسيلا؟» نفر برتراند بشدة من هذه القصة المتصلة بكيف كان شخص ما يحاول أن يسرق عاملين من كويس كوام.

«إنه مشروع يجري تنفيذه في كافة أنحاء أوروبا لحماية الأمن الشخصي للمواطنين..» أوضح ديلينجر. «في البداية سنطبقه في الشوارع الرئيسية للقرى والمدن، ثم سيتم توسيعه ليشمل كل الشوارع: سيتم تركيب أجهزة استشعار لتسجل في حاسوب مركزي كل التحركات المكشوفة على الأرض... كل خطوة، كل عجلة سيارة وهي تدور، وكل كلب أو قطة وهما يجريان في الشوارع. من الآثار التي يتركها الناس وهم يمشون، أو أي شيء آخر يتحرك، يمكننا معرفة من مر للتوّ. وفيما بعد، سنتمكن من اكتشاف ما قد تفكر فيه أنت كأحد المارَّة في السياسة، الاقتصاد... الإرهاب... بهذه الطريقة، ستجري حماية الأمن الشخصي للمواطنين وحقوقهم الإنسانية كما لم يحدث من قبل. سيقوم الحاسوب المركزي بتخزين هذه المعلومات، مصنفا إياها ومحتفظا

بها في ذاكرته للاستخدام النهائي. سنكون قد منحنا أخيرا حضارتنا الأوروبية والمسيحية النظم الحمائية التي تستحقها. النموذج المبدئي الأول سيرينا كيف من الممكن أن يعمل النظام أو يفشل في العمل في السياق المالطي. وبدلا من إقامته حول القصر الرئاسي في سان أنطون، سوف... ولمَ لا؟... نقيمه حول حقل الإسخريوطي. لا يتطرق العقد بالتفصيل إلى المكان الذي ينبغي أن يقام فيه النموذج المبدئي... وعلى أي حال، مهما حدث، ستتمكن شركة بوكُّو من ضبط الأمور. هم دائما يجعلون الأمور تتم بطريقتهم... نعم، يمكننا إقامة النموذج المبدئي للنظام حول الطرق المؤدية إلى الحقل وعلى جدرانه الركامية. أيا كان من يقترب من المكان... ليس عليه أن يقول شيئا، لكن يتحرك فقط... وسيبقى لدينا مع ذلك أثر جيد له أو لها.»

كل الحاضرين في الاجتماع كانوا في غاية التأثر من توضيح ديلينجر، باستثناء بوني التي شعرت وكأنها تجاهد ضد قوى غريبة وغامضة، لا تعرف من أين تأتي، وفي نفس الوقت لم يكن باستطاعتها أيضا أن تفهم فعلا لماذا كانت مثل هذه الأفكار تمر بعقلها.

...هنا، كل ما حدث بحاجة إلى وصفه بوضوح: كان بروفيسور ديلينجر يتصرف ويتكلم بطريقة لطيفة بما يفوق الخيال، كما يفعل دائما في النهاية، لكنه أكثر لطفا اليوم. عادةً يظل هادئا ومستغرقا فيما يقوله حتى عندما يكون معقدا بشدة. كان واضحا أنه يفكر ويقيّم أكثر الطرق منطقية وقانونية التي يمكنه بها دفع مشروعاته ومشروعاتهم قُدُما. أن تبدأ في الارتياب بأن ديلينجر كان مصاص دماء أو روحا شريرة تتهيأ لمص دمائهم أو حرقهم أحياء، كما بدأت تتخيل لبضع لحظات، فهو أمر ببساطة مثير للغثيان. تساءلت: «لكن كيف لهذا النموذج الأولي أن يساعدنا في كويس كوام؟ ما سنفعله – هل أنا على صواب يا ريّس؟ – هو استحضار ذكرى يهوذا توًّا وما حدث له منذ مائة وثلاثين عاما.

لا يمكنك أن تسمع الأطياف تسير أو تسجل حركاتها.»

«مازلنا بحاجة للبحث في هذا..» رد ديلينجر. «صحيح كما تقولين أن هذا لم يحدث بعد، أو من الأفضل، دعيني أصيغها بهذه الطريقة: لم يحدث قط تحت شروط صارمة من البحث الاستقصائي العلمي. لكن... يمكنني أن أقول لكم هذا... ولست بحاجة لإخفاء أي شيء عنكم: في النموذج الذي نستخدمه من أجل مشروع دروسيلا، أدخلت خوارزميتين مصممتين بالفعل لالتقاط الآثار الناتجة عن التحركات الباراسيكولوجية. أما إن كنا سنحقق أي نجاح في هذه النقطة، فهذا ما سنراه.»

«وهل قبلت السلطات أن تدخل هذه الخوارزميات التي بالتأكيد لم تكن في الطلب الأصلي للمناقصات؟»

هز البروفيسور كتفيه. «هم لا يهتمون في الحقيقة بمثل هذه الأمور، طالما أننا نعطيهم ما هو مطلوب بواسطة نموذج عموم أوروبا من أجل عقد مشروع دروسيلا. وبعيدا عن هذا، لا أحد بالتأكيد سوف يتهمنا بخرق حقوق الأشباح في ظل قوانين الخصوصية، ما رأيك؟... أم هم الأطياف كما أسميتيهم يا آنسة؟»

«اسمي بوني. ومع ذلك لا يمكنني أن أخبرك يا بروفيسور إن كانت الأطياف مشمولة بالقوانين التي ذكرتها.»

للمرة الثانية خلال الاجتماع، فتح جيانينو فمه ليس بغرض الأكل؛ فقد أنهى شطائره وتغطى كرشه المقبب بطبقة من الفتات. «أنا قلق من شيء واحد..» قال. «هذا النظام الذي تريد أن تضعه حول المنطقة التي سنسجل فيها... هل سيؤثر على معدات الصوت الخاصة بنا... والكاميرات...؟»

«أنت على حق في سؤالك..» رد البروفيسور. «ما سنفعله لن يؤثر

إطلاقا على هذا النوع من المعدات، أؤكد لك. نموذجنا بسيط للغاية في مفهومه، لذلك فزنا بالعطاء في المناقصة؛ ليس فقط لأن بوكُّو كانت في فريقنا. كل ما علينا فعله هو أن نضع سلك توصيل إليكتروني حول الحقل وسينقل المعلومات إلى حاسوب مركزي. سيكون أفضل ترتيب أن تذهب أنت أو أحدكم... أيا كان... غدا بعد الظهر... ستعملون هناك في المساء، صحيح؟... وتتحدث مع جوني ديب، الذي سيكون مسؤولا عن نظم المسارات الرقمية في الشهور القادمة.»

«لدينا تفاصيل صغيرة كثيرة للغاية وعلينا أن نتبعها..» قال هاردهيد. «لا بد أن نتأكد من تتبع خطة عمل واضحة. وإلا سنتباطأ ولن ننجز الأمور.»

لم يكن برتراند راغبا في أن يفقد السيطرة على الاجتماع، لذا قال بسرعة: «بوريس، أنت تعرف ما يجب أن تفعله اليوم وغدا... عمل بحثي كامل حول كل النقاط التي ذكرناها... وركز على تلك الموضوعات الأخرى التي لن نستخدمها الآن... تكلفة المعيشة، صحيح؟... ومشهد سباق الخيول... حتى يستمر الآخرون في الاعتقاد أننا سنقدم هذين الموضوعين في الحلقتين الأخيرتين من الخطة. هاردهيد... عليك بالأحرى أن تجهز على الفور خطة العمل تلك. اتصل بالوكالات مرة أخرى: أخبرهم أننا سيكون لدينا حلقة متميزة بالفعل وأنه من الأفضل لهم أن يزيدوا من إعلاناتهم... لكن نصيحتي هي أن تبدأ أولا بزنوبر وترى كيف يمكننا العمل هناك. وجيانينو، من الأفضل أن تبدأ الآن وتجهز كل الطاقم التقني الذي سنحتاج إليه... وكن مستعدا لاستخدام كل الحيل التقنية المتاحة. أنتم جميعا تنتقدونني قائلين إني ببساطة مهتم بإظهار وجهي من داخل الأستوديو، وأنا أقول لكم هذه المرة لن يكون هناك الكثير من الأستوديوهات في العرض... سيكون العرض من الموقع... نحن بحاجة لخلق حالة مرعبة مثيرة. سيبدأ المشروع كله في

الانكشاف ليلة الغد في حقل الإسخريوطي. بوني أنت مسؤولة عن باقي التفاصيل واللمسات الصغيرة، ليس أقلها السيناريو. ابقوني على علم بما وصلنا إليه. خلال الأيام القادمة، سنتقابل هنا كل يوم عند الظهر لنراجع تقدمنا في العمل.»

ما قاله برتراند أشار إلى نهاية اجتماع امتد لوقت أطول من المعتاد. وبينما كان برتراند وديلينجر وهاردهيد وبوني يصطفون خارجين من حجرة الاجتماعات، قالت بوني: «هناك شيء واحد لم تضعه في اعتبارك يا ريّس.»

«وما هو؟» كان قد أحس بالانزعاج من اعتراضات بوني خلال الاجتماع.

«ماذا سترتدي ليلة الغد؟... هل من المحتمل أن ترتدي بيجامة؟»

بوغت برتراند وأدرك على الفور أنها في هذه النقطة كانت على حق. بالتأكيد لا يمكنه أن يجعل منظره يبدو سخيفا بينما هو نائم تحت أشجار الخروب تلك. «كانت فكرتي أن أرقد في كيس نوم... لكن...»

«من الأفضل أن نفكر في هذه المسألة جيدا..» قالت متمسكة برأيها، بعد أن أجرت نفس الحسابات التي كان يجريها الآن.

«انظري..» أكمل. «ماذا يحدث لك؟ لا يبدو أنك موافقة على المشروع...»

«أليس بمقدورك أن ترى ما أراه...؟ لا يبدو أنهم يقولون لنا القصة كاملة؟»

«من؟»

«دون تيمي... البروفيسور ديلينجر...»

«هل قابلت أحدا من قبل أخبرك بالقصة الكاملة؟» رد برتراند، ضاحكا بابتهاج.

.10

«اتصل شخص... الاسم دون تيمي..» قالت السكرتيرة. «قال إن الأمر عاجل...»

«ولماذا لم توصليني به؟»

«أنت قلت فقط أن أوصل بروفيسور ديلينجر.»

في مكتبه، تحدث برتراند إلى قس زنوبر: «هل حدث شيء مهم؟»

«جاء آل تونًّا لزيارتي. وهم ثائرون جدا.»

«لماذا؟»

«كاميرات التليفزيون التي تقوم بإرسالها إلى القرية... وإلى الحقل الذي ذهبنا إليه هذا الصباح. لا يعجبهم هذا على الإطلاق...»

«هذا ليس من شأنهم. هل يملكون المكان؟»

«آل تونًّا هم تقريبا آخر أبناء الأبرشية الباقين في زنوبر ولا أحد يود أن يجعلهم إممم.. ثائرين...» بدا دون تيمي قلقا للغاية. «منذ أن شنق يهوذا تونًّا نفسه في حقل الإسخريوطي، جعلته أسرة تونًّا ملكا لها.»

«لكن هل يملكونه أم لا؟»

«لا، هو يخص الأبرشية، أو الكنيسة، أو الحكومة الآن... رغم أن شيئا لم يتغير حياله طوال السنين. كان قفرا وظل على هذا الحال... مثل كل

الأراضي تقريبا التي تحيط بالربوتين.»

«ماذا... الربوتين؟»

«قصدت التلَّين... هذان التلان الصغيران اللذان يمكنك أن تراهما على مقربة من الحقل بعيدا عن الطريق الساحلي..» رد الأب تيمي. حتى لو كان منزعجا، فقد بدا أشبه بشخص أدرك أنه قال شيئا لم يكن ينبغي أن يقوله ويحاول أن يداريه. ثم أصبح صوته مرة أخرى ممتلئا بالقلق. «ماذا سنفعل بشأن آل تونًّا؟»

«لكن إذا لم يكونوا حتى يمتلكون الأرض أو الحقل؟»

«ليست فكرة جيدة أن نتعارك معهم.»

«انظر، بعد قليل سيكون هناك بعض من رجالنا هناك. علينا أن نزور زنوبر على أي حال، لعمل الترتيبات الخاصة بالتصوير غدا. اليوم بالتأكيد، سيقومون بزيارتك.»

عندما وضع السماعة، لاحظ أن ديلينجر –الذي كان قد دخل المكتب مع الآخرين– يراقبه بإمعان. «آل تونًّا ذهبوا إلى الأب ليشتكوا..» أعلن ذلك ووضح لهاردهيد وبوريس من هؤلاء الذين كان يتكلم عنهم. وبدا أن ديلينجر يعرف بالفعل شيئا عن جيران دون تيمي. «من الأفضل أن نذهب ونواجههم. على أي حال يا هارد، كنت سأقترح عليك أن تسرع إلى زنوبر حالا وترتب كيف وأين سنبدأ التصوير غدا. نحتاج كثيرا من المقاطع التي تبين القرية والكنيسة والمقبرة والريف من حولهم، والحقل كذلك... ونحتاج إلى رؤية كيف نحدد موقع المعدات في الحقل. عندما تصل إلى هناك، يمكنك أن تذهب وتزور آل تونًّا، وترى ما يريدون. يبدو أنهم مشاكسون حقيقيون.»

أومأ ديلينجر برأسه مرتين، بطريقة خفيفة، كما لو أنه يتفق مع هذا الحكم لكنه ظل صامتا.

غادر هاردهيد المكتب فورا، وبوني معه. كانت قد قررت أنه من الأفضل لها أن تشارك في تجهيزات البرنامج منذ البداية لتسمح للمذيع التليفزيوني بالتركيز على الطريقة التي سيعرضون بها المحتوى. كانت بوني تشعر بالقلق حيال هذا الجانب مما كانوا يفعلون، مثلما كان يقلق برتراند، حتى لو كان يخفي قلقه. كان السؤال الذي يزعجهم هو: إلى أين سيأخذنا هذا؟ بحكم الخبرة، كان كلاهما يعرف أنهم إذا لم يضعوا أهدافا دقيقة لعروضهم، فإن برامجهم غالبا ما تحقق تأثيرا هزيلا، بحيث أنه في الصباح التالي، في المكاتب أو المحلات أو المصانع أو أيا كان المكان الذي يتجمع فيه الناس؛ سيكون الرأي العام: كان برنامج كويس كوام مملا جدا بالأمس... في منتصفه حولت إلى محطة إيطالية... (أو الأسوأ: يمكن أن يحولوا إلى محطة مالطية!)

«شكرا جزيلا لمساعدتك يا بروف..» قال برتراند. «تلك القصة عن يهوذا تونًّا واعدة للغاية... لو لديك أي شيء تحكيه لنا عنها... بالإضافة إلى ما يعرفه الأب تيمي... من فضلك قله لنا الآن، لأن الوقت يضغطنا... وما هما الربوتان؟»

لو كانت بوني معهم الآن، للاحظت أن البروفيسور لم يرد على هذا التساؤل الأخير. «دعني أذكرك بنقطة واحدة فقط يا برتراند..» رد ديلينجر. «ذكرتُ بالأمس أنه في مجال علم الآثار الباراسيكولوجي، نحتاج إلى التركيز على الطبقات المختلفة من البقايا النفسية التي تتخلف من الماضي والتي تتفاعل مع بعضها البعض... بحيث أن الآثار التي قد تعتقد أنها تخص طبقة ما من البقايا المتخلفة من فترة معينة من الماضي، يمكن في الواقع أن تنتمي إلى عصر آخر... حتى عندما

تجد أن الاثنين لهما تأثير متبادل أحدهما على الآخر.»

«لكن ما علاقة هذا بقصتنا؟» تساءل برتراند الذي فشل مرة أخرى في فهم ما كان يقصده البروفيسور.

«ألم يخبرك الأب تيمي أنه يوجد ما يشبه ذكرى قديمة حول الحقل الذي في القرية...؟ كيف كان يبدو أن كل القرويين يتجنبون ذلك الحقل، منذ أزمنة قديمة، حتى قبل أن يذهب يهوذا تونًّا ليشنق نفسه هناك؟»

«نعم، الآن وأنت تذكرها، أتذكرها. لكن الناس الذين عاشوا قبل ذاك في زنوبر جميعهم موتى... ومنذ فترة طويلة...»

«بالنسبة لنا نحن العاملين في مجال الباراسيكولوجي ضمن مجالات أخرى، لا يعني الموت نهاية كل شيء. البقايا التي تتركها خلفك، سواء مادية أو نفسية، تحتفظ بوجودها. لكني لا أريد استخدام كلمة ‘مجال’ لهذه الدراسة..» قال البروفيسور بتواضع. «دعني أدعوه بدلا من ذلك بمنظور الباراسيكولوجي...»

«فهمت ما تقصده..» رد برتراند. «تريدنا أن نسأل: ما الذي جعل يهوذا تونًّا يشنق نفسه في هذا الحقل وليس في حقل آخر؟»

«أنت تختار أي الأسئلة التي تُطرح.»

«إذًا يا بوريس: لدينا مساحة أخرى عليك أن تستخرج فيها مادة بسرعة كبيرة..» توجه برتراند بالكلام إلى الشاب الذي كان ينصت بانتباه وبأقصى احترام إلى ما كان ديلينجر يقوله. لم يستطع المذيع التليفزيوني إلا أن يتذكر ببعض المرارة كيف حاول فريق ديلينجر العامل على مشروع دروسيلا أن يسرق بوريس.

«كنت أفكر بالفعل يا ريّس، أنها ستكون فكرة جيدة لو قمت

ببعض البحث في أوراق منتصف القرن الثامن عشر... يوجد الآن موقع إليكتروني يقوم بمسحها كاملة، لا أعرف من ينشره. سيكون منطقيا لو دخلت إلى: *إل ريسورجيمنتو*، *إل بورتافوليو مالتيز*، *إلوردين*، *مالطا تايمز*، *وإل ميديترانيو*. سأرى إن كان لديهم أي شيء يمكن أن يكون متصلا بقضية حقل الإسخريوطي.»

«أود أن أنصحك أيضا أن تبحث في جرائد أخرى انقرضت أسرع من الجرائد التي ذكرتها..» تدخل ديلينجر. «مثل *لوسيرڤاتور مالتيز* *ومجلة ميديتيرنيان وإل لامبيوني*.»

«عظيم..» رد بوريس، مع ما بدا كموجة متزايدة من الاحترام تجاه ديلينجر.

«والآن يا بروف..» أكمل برتراند «عليك أن تفسر شيئا لنا. ما هو دور البروفيسور والي أحمد في كل هذا؟»

«سنرى يا برتراند، سنرى. دعني أوضح مرة أخرى أني أعتبر مشاركتي فيما تفعل جزءا من جهد بحثي واسع قيد التنفيذ الآن في مجال علمي له أهمية كبيرة، وهو أمر له أهمية عظيمة بالنسبة لي، مجال علم الآثار الباراسيكولوجي. وهذا مع الإشارة إلى الوجود الفينيقي في مركز البحر المتوسط. وأنا سعيد فعلا لأن الحكومة قبلت أخيرا أن تدعو والي أحمد إلى مالطا وأعتقد أنني معه سأتمكن من التحقق من بعض النتائج الكبرى في مساحات يهتم هو بها، بقدر ما أهتم أنا أيضا بها. في نفس الوقت، ستقوم أنت بالعمل على حلقات كويس كوام، التي قبلت أنا العمل بها كمستشار. ستقوم بتصوير مناطق لديها علاقة باهتماماتي وكذلك باهتمامات والي. أما كيف سيسير بنا الحال بعد هذه النقطة، فهذا ما لا أعرفه شخصيا.»

رغم أن برتراند بذل أقصى جهده لجذب ديلينجر كي يتكلم بشكل أوضح، إلا أنه لم ينجح في ذلك. وكل ما أراد الآخر أن يقوله كان: سنرى، سنرى. بدأوا بـ «سنرى» وانتهوا بها.

«لكن ماذا سأطلب من بوريس أن يبحث بعيدا عن القصص التي قد نكتشفها حول حقل الإسخريوطي؟ كيف يدخل ون-آمون في الصورة؟ لماذا اتصل والي أحمد بالأب تيمي ليتحدث معه عن ون-آمون وحقل الإسخريوطي؟ هل ينبغي أن أطلب من بوريس أن يحاول ويعثر على ما يمكنه العثور عليه عن ون-آمون هذا؟»

«لم لا؟ وبوتو-رع بالمرة... والطرق الحربية التي كان يستخدمها الفينيقيون في عام 1000 قبل عصرنا... صحيح أن بمقدوري إعطاؤه الكثير من المعلومات أنا نفسي، لكنه سيجدها عسيرة الهضم... مشحونة أكثر من اللازم بالمراجع والخطابات العلمية المتخصصة. حسنا، ابحث عن كل هذه الموضوعات يا بوريس، وإذا واجهتك مشكلة لا تقلق، فقط اتصل بي.»

التمعت عينا الشاب. كان دائما يتخذ هذه النظرة عندما يواجهه تحدٍ بحثي جديد. وبينما كانا يغادران مكتب المقدم التليفزيوني، كان البروفيسور يزود بوريس بعدد من العناوين يمكنه جمع معلومات منها قد تكون مفيدة لكويس كوام.

.11

أخيرا وحده لأول مرة اليوم، تساءل برتراند إن كان ينبغي أن يتصل... أم من الأفضل أن يفعل ذلك لاحقا؟ كان يشعر بإرهاق كبير وقرر أن يقوم بالاتصال في وقت لاحق الليلة. في انتظاره كومة من الخطابات وسلسلة من الإيميلات كان ينبغي أن يرد عليها بالأمس، وبدأ في التعامل معها. كان يعي أنه بحاجة للتفكير بجدية في كيفية المضيّ قُدُما في هذا المشروع الأخير لكويس كوام. صحيح أنه تمكن من حقن روح جديدة في الفريق، لكن إذا بدأ زملاؤه يرتابون أنهم لا يفعلون إلا نفخ الفقاقيع في الهواء، من الممكن أن تتبخر حماستهم تلك فجأة، مع ما يستتبعه هذا من عواقب كارثية.

سلمته السكرتيرة قائمة بالأشخاص الذين اتصلوا اليوم وأمس متأخرا. أمرها أن تتصل بهم بينما يقوم هو بتنظيف بريده الإلكتروني. كان برتراند يعتقد بقوة أنه حتى عندما يفشل في مواكبة مراسلاته، لا يمكنه أن يتجاهل هؤلاء الذين يتصلون به. واحدا بعد واحد، نجحت السكرتيرة في الاتصال بأغلب هؤلاء الذين رغبوا في الاتصال به. ورغم أنها بذلت أقصى جهدها، إلا أن العمل استغرق وقتا، حتى أنه بالفعل خارج نوافذ المكتب كان وقت الأصيل قد تحول إلى المساء.

«السيدة فلورا بيتا لوكا على الخط..» أعلنت له السكرتيرة. «إنها مكالمتها الأولى. هي ليست من بين هؤلاء الذين اتصلوا سابقا.»

«أوصليني بها..» قال وهو مندهش من اتصال فلورا به مرة أخرى.

«كيف حالك؟» سألها.

«كنت أحاول الوصول إليك لفترة لا أعلم كم طالت، منذ هذا الصباح..» ردت وكأنها مقطوعة الأنفاس.

«أخبرتني السكرتيرة أنك اتصلت للتوّ.»

«... كنت أحاول الوصول إليك عن طريق هاتفك المحمول...»

«لم أكن أرد عليه. هناك مهمة عمل كبيرة أتعامل معها...»

«إذًا أنت في موقفي بالضبط يا برتراند يا حبيبي. آه! أنا فقط لا أعرف أين أقف. هذا البروفيسور الذي ذكرته لك هذا الصباح... والي أحمد... حسنا، هو ليس قادما في خلال عشرة أيام، لكن غدا في وقت متأخر من المساء.»

«فعلا؟» لم ير سببا كي يخبرها أن هذا ليس خبرا جديدا بالنسبة له.

«فقط لا أعرف ماذا أفعل... من أطلب منه النصيحة... لقد تُركت وحيدة هنا، وحيدة تماما... السيد أوروري في أجازة، يالأعصاب هذا الرجل! دائما يأخذ أجازة ثلاثة أيام عندما ننتهي للتوّ من افتتاح أي معرض... ثم هناك ذلك الفاكس الطويل الذي وصلني للتوّ... طويل جدا حتى ليبدو بلا نهاية... أرسله البروفيسور أحمد من الإسكندرية... لم أكن أعرف أن هناك أشخاصا مازالوا يستخدمون الفاكس"... رغم أن فلورا كانت تشعر بالقلق فعلا، إلا أن صوتها كان أعذب مما بدا بالفعل هذا الصباح. وسرعان ما بدا وكأن ثلاثة عصافير زينة تزقزق بعلوّ صوتها.

«أخبريني فقط يا عزيزتي، كيف يمكنني أن أساعدك؟» تساءل.

«ببساطة لا أستطيع فهم شيء مما كتبه بروفيسور والي في فاكسه... وفكرت بما أننا اتفقنا أن تكتب مقالا جيدا عنه، فلعلي كذلك

أرى ما يمكنك أن تفعله به... لكن الوقت تأخر الآن ولا يمكنني أن أطلب منك القدوم إلى مكتبك أو أن أجعلك تأتي إلى هنا في مكتبي... إنه حظي! كنت أتطلع إلى أمسية هادئة الليلة... ستقوم ماما برعاية التوأم حتى يمر موعد نومهما... ستأخذهما لتناول البرجر وبعد ذلك مشاهدة التليفزيون معها بينما أستغل أنا الوقت مسترخية في ردائي الكيمونو وأستمر في كتابة روايتي... والآن هذا! لا أعرف ماذا أفعل...»

«ماذا يقول أحمد في فاكسه؟»

«يريد أن يعرف إن كان مازال بإمكاننا أن نضع في المعرض بعض نماذج البساتين المقدسة التي يبدو أن الفينيقيين كانوا يبتهجون بها. إن كنا نريده أن يأتي بنموذج معه من الإسكندرية؟ والآن... وكأني أبالي قيد أنملة، كي أكون صادقة! هو يسأل... على أي حال، قائمة كاملة من الأسئلة! ثم أنه ما يقلقني هو هذه الفكرة، أنه قادم هكذا، غدا، هابطا من السحاب... متى ستتمكن من كتابة مقالك لجريدة الأحد؟... ليست تلك هي الطريقة التي ينبغي أن تتم بها الأمور!» بدت السيدة بيتا لوكا مخنوقة للغاية.

«أتعرفين من ينبغي أن تتحدثي إليه؟»

«أعرف ما ستقول، بروفيسور ديلينجر. لا يا عزيزي، ليس مع هذا الرجل بالتأكيد. فأنا أجده كريها تماما... وهو يثير أعصابي تماما... أنا مقتنعة أنه واحد من هؤلاء الرجال الذين يكرهون النساء. بماذا تسميهم؟ مينوتورات[11]؟»

«كارهو النساء.»

11- مينوتور في الميثولوجيا الإغريقية هو مخلوق نصفه رجل ونصفه ثور.

«أتعرف فيم أشك؟ والي أحمد هذا هو ديلينجر آخر... لكن ماذا ستفعل هذا المساء؟ كنت سأسألك إن كان يمكنك القدوم إلى بيتي، لا توجد طريقة أخرى، والمكاتب هنا مغلقة... ووداعا للرواية الليلة... لكن تعال إلى شقتي أرجوك، حتى أتمكن من أن أريك هذا الفاكس الملغَّم ويمكنك أن تنصحني كيف لا أكون عدائية تجاه والي أحمد.»

أدار برتراند في عقله قائمة بالبرامج الإعلانية التي من المحتمل أن تنخرط فيها فلورا خلال الشهور القادمة. وأدرك على الفور أنه سيحسن الميزة التنافسية التي يتمتع بها كوبس كوام بالفعل في تقديرها بموافقته على المساعدة. اتفقا أن يزور شقتها في (سليمة) خلال ساعة.

وسرعان ما أنهى العمل الورقي والإيميلات التي بقيت وترك بوريس والسكرتيرة يغلقان مكاتب كويس كوام. كالمجنون كان الشاب يتصفح كل مواقع الإنترنت التي أمكنه اكتشافها والتي عرضت المائة ألف موضوع التي لا بد أن ديلينجر قد جذب انتباهه إليها.

بعد حوالي ساعة وربع من مكالمة فلورا الهاتفية، كان المذيع التليفزيوني يرن الجرس الإلكتروني لشقتها، الموجود مع ستة آخرين في بناية تقع في وسط (سليمة) حيث تحولت البيوت القديمة التي كانت تزين المنطقة منذ بضع سنوات إلى أبراج رابضة وقبيحة، مكدسة على نحو غبي (كما تتراءى للعين من الخارج على الأقل) بشقق فاخرة. أما ما يوجد في الداخل فيعتمد على أذواق المالكين الأفراد. وكان برتراند يشعر بفضول كبير تجاه معرفة الكيفية التي يستخدم السكان الجدد بها المساحة التي استولوا عليها من (سليمة) القديمة. وبينما كان يصعد إلى الطابق الذي تعيش فيه السيدة بيتا لوكا، في مصعد حديث يحمل بالفعل علامات واضحة لكثرة الاستعمال، قلَّب في ذهنه الطرق التي يمكن أن تكون السيدة قد فرشت بها مساحتها الخاصة.

أدهشته فلورا بترحيبها. بدت وكأنها تقابل صديقا عزيزا جدا فقدته منذ زمن. «شكرا لله أنك هنا. تعال، تعال..» قالت له وهي تقوده إلى حجرة جلوس جانبية. كانت مضاءة على نحو ساطع بمصابيح تدلت من حائط، والتي كانت مع ذلك تسمح لغبش خفيف بالانتشار في المكان، وكانت الحجرة تغص بالمقاعد الكبيرة والمناضد الصغيرة والدواليب الزجاجية والتماثيل الصغيرة والتحف المصنوعة من الكريستال والخزف والفخار والبورسلين موضوعة في كل مكان.

أجلسته على أريكة في طرف الحجرة. وكان عليه أن يحترس كي لا يصدم بركبتيه مائدة صغيرة قرب الأريكة عليها تماثيل صغيرة من البورسلين الأزرق والبُنيّ. صبت له كأسا كبيرا من الويسكي ولم تسمح له بقول لا أو هذا كثير جدا، وناولته أيضا لفة صغيرة من الورق. «هذا فاكس والي أحمد. هل تستطيع تفسير رأسه من ذيله...؟» تساءلت.

كانت أريكة ناعمة للغاية. أحس برتراند وكأنه يغوص فيها. كان يبذل جهدا كي يبقى طافيا على سطحها عندما بدأ يقرأ اللفة الطويلة من الورق التي أعطتها له، بعد أن وضع كأس الويسكي في مساحة مقيدة جدا في زاوية المائدة، ما بين تماثيل البورسلين الصغيرة التي تمثل رعاة يرقصون متخشبين. واستمرت فلورا في الزقزقة، لذلك وبينما كانت تتكلم اكتسب المؤثر الصوتي لعصافير الزينة في الخلفية صدى مجسما في أذنيه. «وكان لا بد أن يحدث كل هذا اليوم!... كنت أتطلع كثيرا لأمسية هادئة... بينما الولدان عند أمي... وكنت سأكتب روايتي، التي تقدمت فيها جيدا الآن... أنت تذكر يا برتراند، لقد حكيت لك عنها... (كان قد نسي ولم يقل شيئا.) ثم يأتي أولا خبر وصول والي أحمد غدا بدلا من الأسبوع القادم... ثم هذا الفاكس... بينما طوال الوقت، وهذا رائع... يمرح السيد أوروري مع زوجته في مدينة تاورمينا... لا، لا، لا، الحياة غير عادلة...»

أثناء قراءته لفاكس والي أحمد، أدرك برتراند أن البروفيسور القادم من الإسكندرية كان يعتبر المعرض الفينيقي المقام بواسطة المعهد الوطني للثقافة حدثا له أهمية قصوى للبحر المتوسط وتاريخه. كان قد أرسل رسالة إلكترونية منسوخة إلى حوالي ألف من مراسليه الأكاديميين ليبلغهم أنه سيزور مالطا ليشارك في المعرض ونسخ كل عناوينهم في الفاكس. وأعلن أنه يتوقع بشكل وشيك اكتشافات جديدة ومذهلة في معرفتنا حول الحضارة الفينيقية؛ بما أنه وفقا للافتراضات التي تراكمت في السنوات الأخيرة، كانت مالطا محورا رئيسيا في توسع القوة العسكرية الفينيقية التي حدثت نحو العام 1000 قبل عصرنا. وزعم أن هناك خطوة شديدة الأهمية في الدراسات التي من اللازم إجراؤها لبحث هذه المسألة، ألا وهي تحديد المناطق الموجودة في مالطا التي يمكن فيها اكتشاف تلال الآثار وبقايا البساتين المقدسة. وكان افتراضه أنه في المنطقة المجاورة للتلال والبساتين المقدسة، سيتم الكشف عن رفات بشرية ذات أهمية قصوى، تضم رفات المحاربين الذين كان يتم قتلهم كقرابين طقسية للإله بعل قبل أن يبدأ بناء التلال الأثرية، ومن فترات لاحقة، رفات الرُضَّع الذين كان يجري التضحية بهم عند ولادتهم كجزء من عبادة مستمرة تمركزت حول تل وبستان. وأنهى البروفيسور والي أحمد رسالته بشكر عميق للمعهد الوطني للثقافة على تقديمه لشخصه كل المساعدة الضرورية – والتي كان البروفيسور ديلينجر قد وعد بها – خاصةً فيما يتعلق بالبحث عن التلال والبساتين المقدسة.

«ما رأيك؟» تساءلت فلورا بقلق.

«صدقيني، أنا لا أفهم كثيرا مما يقول... أنا حتى لا أعرف ما هو التل الأثري! وأين سنجد بستانا مقدسا لهذا الشخص؟ هل تعتقدين أنه

سيرضى بـ (بستان كينيدي)[12]؟»

لم يبدُ على فلورا أنها معجبة بالنكتة وازدادت نظرتها القلقة حدة. ناولته لفة أخرى من الورق. «لقد أرسل والي أحمد إلينا اسكتشات مختلفة للطريقة التي كان الفينيقيون ينسقون بها بساتينهم المقدسة. وبقدر ما يمكنني أن أرى، فإنها جميعا بنفس الطراز.»

فتح برتراند لفة الورق حريصا ألا يجعلها تنزلق لتسقط على تماثيل البورسلين الصغيرة الموضوعة على المائدة أمامه. ونجح بمجهود بطولي، وإلا كانت ستحدث كارثة.

الحقيقة أنه صُدم وارتبك بمجرد أن رأى الاسكتشات داخل لفة الورق. كانت فلورا على حق، فقد وجد اختلافات قليلة بين الاسكتشات حيث كانت البساتين المقدسة التي يهتم بها البروفيسور والي أحمد كلها متشابهة جدا... وكانت تشبه البقعة التي زارها هذا الصباح مع بوني ودون تيمي، تحت أشجار الخروب بحقل الإسخريوطي حيث شنق يهوذا تونًّا نفسه منذ أكثر من قرن من الزمان.

لم يكن صعبا على برتراند أن يخفي صدمته وارتباكه عن بيتا لوكا لأنها ظلت تثرثر حول كم كانت تشعر بالحيرة مما يحدث. بشكل عام، بمجرد افتتاح أي معرض، كان كل شيء يسير بسلاسة، مثل الساعة... كان السيد أوروري يوضح كل شيء مسبقا... ولم تكن هناك أي من هذه التعقيدات التي لا بد بالتأكيد أن توضع أمام باب بروفيسور ديلينجر. ومهما قال الآخرون عنه، كان ديلينجر في الحقيقة يريد شيئا واحدا؛ أن يستولي على السلطة من السيد أوروري كرئيس للمعهد الوطني للثقافة. لقد حذرت أوروري ألا يسمع لديلينجر، لكن كل هذا ذهب سدى؛ لأن

12- متنزه صغير في مالطا.

أوروري كان رجلا ألطف من اللازم، ولم يكن بمقدوره قط أن يصدق بأن الآخرين لديهم نوايا شريرة... وهلم جرا وهكذا دواليك. وبينما كانت تناقش أمر ديلينجر ومؤامراته، إن كانت توجد حقا، كان هديل عصافير الزينة الذي غالبا ما يميز صوت فلورا قد احتد وامتد ليغدو فحيحا عدوانيا...

وهي مازالت تثرثر، تذكرت فلورا أن تنهض وتملأ مرة أخرى كأس برتراند بالويسكي وفي هذه الأثناء لم يملك هو إلا أن يُعجب بقوامها. الآن، خلال مناقشتهما كان برتراند قد بذل أقصى جهده ليلتزم بالعمل أمامه على أساس مهني تماما. ومع ذلك، لم يستطع أن يتجنب ملاحظة أن فلورا بدت نضرة للغاية، رغم أنها كانت قد قضت يومها في العمل. قبل وصوله، كانت قد أخذت حمَّاما جيدا، ووضعت طبقة جديدة من الماكياج، وتأنقت برشة عطر لم يكن (ديور) لكنه ماركة أعلى بكثير. ثم ارتدت ما بدا أشبه برداء للنوم، لونه برتقالي فاقع، طويل لكن به فتحة عميقة. مع كل حركة تقوم بها، كان الثوب ينفتح وينغلق في أعلاه، وكان لهذا أعجب الأثر على الفتحة ما بين الشكلين السخيين لنهديها. وبلغ التأثير ذروته عندما اقتربت من أريكته لتريه الاسكتش النهائي الذي أرسله والي أحمد في فاكسه. جاء الرسم أقرب من الآخرين الذين رآهم بالفعل إلى الصورة التي كانت مازالت في ذهن المذيع التليفزيوني للفتحة في حقل الإسخريوطي، تحت أشجار الخروب. لكن برتراند كان الآن مشتت الذهن أكثر من أي وقت آخر بسبب فتحة أخرى.

«هل يمكنك أن تقولي لي ماذا تلبسين؟»

رغم مشاعر القلق، ضحكت فلورا بابتهاج وكأنها كانت تتوقع هذا السؤال. «كيمونو. أرتديه من أجل الإلهام. أخبرتك، الليلة كان ينبغي أن أستمر في كتابة روايتي... لكن ظهرت هذه المشكلة. لو كنت في حالة

مزاجية جيدة، لقرأت لك مقطعا.»

«تتأنقين في ملبسك على شرف الرواية! عمَّ تدور؟»

«طيب، هي تعالج التحديات التي تواجه المرأة التي تريد أن تكون امرأة حديثة في عالم اليوم. أرى روايتي واقفة في مفترق طرق بين توماس هاردي وجين برونتي وجانيت وينترسون. لا بد أنك تعرفهم.»

« في تجسدي الأول، عندما كنت أقوم بالتدريس في (النموذج السادس)[13] كنت أعطي محاضرات كثيرة عنهم. الاثنان الأوليان على الأقل... لكن الواضح أن لديه مزايا كثيرة.»

«العمل الروائي؟»

«الكيمونو.» كان من الصعب ألا يرى ذلك، مهما حاول أن يفعل؛ لأنها كانت الآن تجلس قريبا منه جدا على الأريكة، التي كانت ناعمة لدرجة أن المرء عرضة لأن تشفطه داخلها، أو هكذا بدا.

«قدمه لي معجب ذات مرة كهدية، حقيقي!... لا أقول هذا على سبيل التفاخر يا برتراند، كما تفهم! (ضحكت، ضحكا معا) لكني أحببته كثيرا لدرجة أني منذ اللحظة الأولى شعرت أنه يمكن أن يلهمني. وكلما احتجت إلى كتابة شيء، أرتديه.»

كان العطر الفواح الصادر عن فلورا قويا. منع برتراند نفسه من الشم بأن مد يده نحو الويسكي ونجح بالكاد في قلب تمثال واحد فقط من تماثيل البورسلين الصغيرة على المائدة.

13- في أنظمة التعليم في إنجلترا وأيرلندا الشمالية وويلز وبعض دول الكومنولث، يمثل النموذج السادس عامين من التعليم الأكاديمي لما بعد شهادة الثانوية العامة، حيث يستعد الطلاب لامتحانات المستوى المتقدم.

«لا بأس..» واسته فلورا بابتسامة عريضة.

«ماذا سنفعل بشأن كل هذا؟» سألها وهو يجمع لفائف ورق الفاكس من حوله.

«أود أن تخبرني أنت. أحتاج إلى مساعدتك يا برتراند..» ردت عليه باستعطاف مثير للشفقة في عينيها.

وربما كما توقعت، أوضح لها ما كان عليهما فعله، بدلا من إخبارها فقط. في اللحظة التالية، كانا يتبادلان القبلات بقوة في أعماق الأريكة التي بدت بنعومتها وكأنها قد انفتحت وابتلعتهما. كان برتراند يعرف منذ زمن أنه ليس هناك إلا القليل مما يمكن انتقاده في فلورا حتى لو كان بعض الأصدقاء يتهامسون حول كيف يمكن اعتبار ركبتيها نقطة ضعيف كبيرة؛ بما أنهما كانتا تبدوان أغلظ مما يجب وغير متناسبتين مع قدميها وفخذيها، وهي الأجزاء التي كانت في حد ذاتها مثيرة للإعجاب جدا. بالنسبة لذوقه ربما كان من الأفضل لو كانت أنحف قليلا، لكنه في النهاية لم يكن واحدا من هؤلاء الرجال الذين يفضلون النساء الشبيهات بالأقلام الرصاص.

عندما استعادا نفسيهما بطريقة ما من التقبيل والعناق، وهما مازالا مشتبكين أحدهما بالآخر، صعد الاثنان مرة أخرى إلى العالم الحقيقي من الخندق الذي كانا قد صنعاه في الأريكة. لفترة، ناقشا المفاجآت التي يمكن أن يجلبها بروفيسور والي أحمد معه. نهضت فلورا من الأريكة وقالت: «اسمع، نحن أشبه بالمهاويس، لقد تحدثنا أكثر من اللازم. برتراند قبل أن نتابع، هل يمكن أن أعرض عليك...؟ ولن تتعرض لفضيحة بالتأكيد... لكن بم تدعوه؟ خط، هه؟...»

للحظة شعر بالإغراء، لكنه رفض. كان مازال لديه أمور أخرى يجب

أن يتعامل معها الليلة. ابتسمت مندهشة، واستأذنت، وغادرت الحجرة، وكان بمقدوره سماعها تدخل الحمَّام في أقصى الشقة. كان هناك صوت صنبور يُفتح، ودفقة ماء في المرحاض، ثم مرة أخرى صوت دش يدار بسرعة. وبعد فترة قصيرة عادت مبتسمة وهي تمسح أنفها بنعومة. وجلست قريبة منه.

قرآ بالتفصيل مقتطفا من الفاكس الذي أرسله أحمد، حيث كتب أن دليلا واضحا يلوح الآن بأن الفينيقيين قد استخدموا الجزر المالطية كقاعدة لتوسعاتهم نحو شمال أفريقيا، قبل وقت لا بأس به من بناء قرطاجة. وكي يقوموا بهذا، استخدموا خلال فترة معينة جنودا وتقنيات مكتسبة من مصر. بسبب الاضطراب الذي ساد في تلك المملكة، هاجر منها محاربون كثيرون وحرفيون مهرة إلى مدينتي صور وصيدا. ومن المؤكد، كما كتب والي أحمد، أن يتم العثور على آثار ضخمة في الجزر المالطية للتقدم الفينيقي القوي نحو مركز البحر المتوسط، حتى لو أنها مازالت غير مميزة بالنسبة لما كانت عليه. كل هذا ذكَّر برتراند بإشارات ديلينجر غير الواضحة للافتراضات وما قد يمكن لك... ومع ذلك لم يحط فلورا علما بهذا الجانب؛ لأنه قد يحيرها حتى أكثر مما كانت بالفعل نتيجة تفسيرات والي أحمد المشوشة بعض الشيء. في الحقيقة، كان لديه أسلوب فريد في الكتابة، وفي نفس الفاكس استخدم على نحو عشوائي كلمات عربية وفرنسية وإنجليزية، بالإضافة إلى بعض المفردات الأخرى الغريبة ربما جاءت من اللغة الفينيقية، وكل هذا جاء مغلفا ببنية نحوية عجيبة جدا وتحول إلى جمل بلا نهاية.

مع نهاية هذا الفاصل، عاد برتراند وفلورا إلى وضع الاشتباك، وبينما كانا يتعانقان، أفسحت الأريكة طريقا لهما من جديد. هذه المرة شرع المذيع التليفزيوني في فك الكيمونو. تظاهرت هي بمقاومة استكشافاته الناجحة، رغم أنها في الحقيقة كانت تقدم له بعض العون. في نضالهما،

اصطدما بالمائدة المنخفضة إلى جوار الأريكة وسقط تمثالان صغيران على الأرض. ولدى الضجة الثقيلة التي أثاراها، همَّ برتراند بالتخلي عن حضن الأريكة ليتحرى مقدار التلف، لكنها أعادته مستبقية إياه.

«لقد انكسرا..» قال متشكيا.

«لا يهم...» ردت عليه وهي مازالت منقطعة الأنفاس بعينين لامعتين. «اشتريتها من السوق المفتوح في مدينة كاتانيا. ولدي نسخ أخرى.»

كان الكيمونو الآن مفتوحا من أعلاه إلى أسفله. أخبرها أنها تذكره بالنساء الجميلات اللاتي رسمهن يوردانس[14]، وحتى لو كان يبالغ، بدا هذا مثيرا لشهيتها نحو ما كانا يفعلانه. «دعنا نذهب إلى حجرة النوم..» قالت.

«هناك مشكلة واحدة فقط..» قال برتراند. «لقد كنت أعمل طوال اليوم وينبغي أن آخذ دشا أولا.» مع تقدمه في السن، غدا شديد الحساسية على نحو متزايد.

«حبيبي لا تكن مجنونا، هكذا أريدك!» قالت له فلورا. «أعشق رائحة العرق القديم الجاف على أجساد الرجال.»

«ليس لديّ الكثير من العرق الجاف وليس قديما إلى هذا الحد..» رد عليها شاعرا بقليل من الإهانة.

ساعد أحدهما الآخر على النهوض من أعماق الأريكة وخطا الاثنان فوق التمثالين المكسورين. أمسكت بيده وقادته خارجا، ممسكة الكيمونو بيدها الأخرى حتى لا ينزلق عنها تماما.

14- ياكوب يوردانس (1593-1678) رسام ومصور ومصمم نسيج فلمنكي اشتهر بلوحاته التاريخية وتصويره للحياة اليومية وبورتريهاته.

مثلها مثل حجرة الجلوس، كانت حجرة النوم التي أخذته إليها مضاءة بمصابيح جانبية مثبتة في الجدران ما بين خزانات ملابس عالية. كانت حجرة كبيرة جدا لكنها بدت صغيرة بسبب السرير الضخم المستدير، المغطى ببطانيات ناعمة محشوة بالريش، ووسائد كبيرة مستديرة، وملاءات لامعة، كلها بلون أبيض فخم، وشغل السرير أغلب الحجرة. ألقت بنفسها أمامه في هذه الدائرة البيضاء، وفي الوقت القليل الذي استغرقه ليخلع ملابسه وينضم إليها، كانت قد ألقت بالوسائد أرضا. رؤيتها تفعل هذا ساعدت على زيادة الإثارة التي كان يشعر بها المذيع التليفزيوني. لأول مرة اليوم، نسي تماما كل شيء عن كويس كوام وغيره من الشجون. وبمجرد أن انضم إليها، اكتشف أنه إذا كانت الأريكة التي جلسا عليها من قبل ناعمة، فإن هذا السرير من الوضح أنه مصنوع من قطن نسجته العناكب. لأنه بدا كما لو أنه وفلورا، بينما كانا مشتبكين معا في المنتصف، قد سقطا في قاع تجويف واسع منخفض كقعر الكأس، محاط في أعلاه بحلقة من البطاطين، أشبه بحافة فوهة بركانية. فيما تلى ذلك، تدحرجا عدة مرات نحو حافة هذه الفوهة، لكن سرعان ما كانت الشبكة القطنية العنكبوتية التي صُنع منها الفراش تجذبهما مرة أخرى إلى قاع الكأس، وكأنه رد فعل على جهودهما. ولو لم يكونا ملتفين أحدهما في الآخر، فلعل هذا التقلب بين حواف الفراش والقاع العريض للفوهة كان سيصيبهما بدوار البحر بنفس الطريقة التي يشعر بها امرء محبوس في مركب صغير وسط بحر متلاطم الأمواج.

.12

عندما انتهى الاثنان من فعل كل ما كان في بالهما فعله، نظرت فلورا إليه مبتسمة، وعيناها أكثر إشراقا مما كانتا من قبل. لعقت شفتيها، مثل واحدة استمتعت بالمقبلات كثيرا جدا لدرجة أنها مالت لأن تطلبها مرة أخرى، بدلا من الوجبة الرئيسية التي كانت قد اختارتها بالفعل. ولم يكن برتراند أقل رضاء منها، باستثناء مشكلة واحدة: في لحظات النشوة، كما حدث للتوّ، تنفجر فلورا في صرخات كثيرة عن الحب الأبدي والعاطفة، وهو ما يعتبره شيئا مصطنعا وخارجا عن السياق. حسنا، في هذا العالم لا يوجد شيء كامل، حيث واتته فرصة أخرى لتأكيد هذا: فبينما كانا مسترخيين لاحقا، عرضت فلورا أن تقرأ مقطعا من الرواية التي كانت تكتبها.

«نعم بالطبع..» قال، آملا أن حماسته لم تبدُ مخنوقة.

على الفور، وبقفزة رياضية أدهشته، تمكنت من النهوض من الطرف العميق للفراش الذي كانا راقدين فيه، ومغادرة الحجرة والعودة بعد لحظة حاملة كومة من الورق. حدث هذا بسرعة لكن كان مازال أمامه وقت كاف كي يفهم أن النقد القاسي الذي سمعه... حول كيف كانت ركبتاها تشبهان كثيرا للغاية عقدة جذع شجرة... لم يكن شائعة مضللة تماما. ومع ذلك، كي نوضح المغزى من جديد... في العالم الحقيقي، يكتشف المرء أنه لا يوجد شيء كامل.

اقتربت منه، والأوراق تحك الشق ما بين نهديها، المتحررين الآن

من كل القيود التي كان يفرضها عليهما الكيمونو. «أتريدني فعلا أن أقرأ لك...؟ حبيبي من فضلك افهم أن هذه مازالت هي المسودة الأولى تماما... لا تكن شديد القسوة...» لم تستطع أن تخفي قلقها.

«بالطبع، أذناي مفتوحتان على اتساعهما. وأعرف أني لا يجب أن أكون شديد الانتقاد..» أجابها، رغم أنه للصراحة كان أكثر اهتماما بالوجبة الرئيسية... أو ربما بتكرار المقبلات التي استمتعا بها للتوّ، أكثر من رواية فلورا.

«لوسي تزور عمتها إيميليا، في بيردنبريدج، وهي قرية في مقاطعة (سِري) الإنجليزية وتذهب معها إلى جبانة القرية حيث دُفن زوج عمتها الأول، كارلو أو تشارلز، طبيب مالطي ذهب للعمل في إنجلترا ولبث فيها. هو يوم جميل جدا، وكل القبور تبدو وكأنها تحظى بعناية جيدة. في هذا المشهد، أبدأ في تطوير إحساس بالتنافس بين لوسي وعمتها إيميلي... لكن كل شيء يحدث بإيقاع هادئ، لذا يستغرق القارئ بعض الوقت لفهم ما يحدث فعلا بين هاتين المرأتين وهذا الرجل في منتصف العمر المعتاد على الأمر والنهي. بينما تقتربان من قبر زوج إيميلي، أو إيميليا، تقابلان عمدة بيردنبريدج، وهو أيضا مالك الشركة التي تدير أعمال الدفن في القرية... أتفهم؟» سألته بتردد جديد في صوتها.

«دعيني أقلها مرة أخرى... كلي آذان صاغية!»

«... لوسي..» قالت العمة إيميلي، «دعيني أقدمك للسيد ويتل.»

كانتا الآن وجها لوجه أمام الرجل الذي ميزته لوسي من بعيد، بينما كان يتفحص القبور ويدون ملاحظات في كراسة صغيرة يحملها في يده اليسرى. كان رجلا ذا بنية غليظة التكوين لكن وجهه ويديه كان لهم شكل لطيف. كانت عيناه قاسيتين وصافيتين، وشفتاه رفيعتان

لكنهما ممتلئتان أيضا، وكأنهما تشيران إلى لعبة تدور دوما في داخله، ما بين العاطفة والحسابات.

«السيد ويتل هو عمدتنا في بيردنبريدج، واحد من القلائل الذين يترشحون في الانتخابات مستقلين عن أي حزب في إنجلترا.»

تصافحا. «ما يهمني..» قال السيد ويتل بصوت قوي لكنه بدا لطيفا مع ذلك: «هو أن نوفر في مقاطعتنا الأم بيردنبريدج أفضل الخدمات لسكاننا. فهذا هو ما يستحقونه.» ونظر إلى لوسي بعينين وديعتين، لكنها مع ذلك لاحظت فيهما فضولا يتحرك، وهو الشيء الذي أعجبها على الفور. «لا مجال للشك..» أكمل «أن الجبانات من بين الأماكن التي نحتاج إلى صيانتها طبقا لأفضل المعايير التي كان يحرص عليها أجدادنا دائما. يتشارك شعبنا الإنجليزي في سمة لدى الصينيين قلة من يعرفونها – أننا نولي أعظم تكريم لأسلافنا، لهؤلاء الذين جاؤوا قبلنا. وفي الحقيقة لديّ أسباب مهنية لتأكيد هذا...»

«نعم..» تدخلت العمة إيميلي. «فخدمات الجنازة التي تنظمها، كما أعلم من خبرتي الشخصية مع زوجيّ اللذين ماتا في سن صغيرة، هي خدمات استثنائية. وتكاد تواسيك في الخسارة التي مُنيت بها للتوّ.»

«أنا ممتن لما تقولينه يا مدام، لأني أيضا مُنيت بخسارات كبيرة وقبل أوانها في عائلتي.» أثناء حديثه، كان السيد ويتل ينظر بهدوء ورقة إلى لوسي.

«رأيناك ونحن ندخل الجبانة، تسير وتتفحص القبور..» قالت إيميلي. عندما دخلتا، لم تقل العمة شيئا عن هذا؛ حتى أن لوسي اعتقدت أنها فقط من لاحظت أنهما ليستا وحدهما في المكان. وكان السيد ويتل ممددا ووجهه على الأرض في ركن من الجبانة ما بين قبرين، يتفحص

التربة بين القبور.

استقرت نظرة وقورة جادة على وجه عمدة بيردنبريدج. «أنا قلق جدا..» اعترف قائلا. «معكما يمكنني أن أتحدث بصراحة لكني أتوسل إليكما أن تكونا كتومتين تماما حول ما أقوله. يبدو أنه في (سِري) تمر الجرذان بمرحلة تحفر فيها أسفل مقابرنا وتأكل... نعم، تقرض وتأكل... ما تجد من رفات أحبائنا.»

«لكن هل يحدث بالفعل أن تأكل الجرذان أجساد الناس المدفونين؟» تساءلت لوسي بحياء وكانت تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها منذ اجتمع ثلاثتهم.

مرة أخرى حول السيد ويتل نظرته المحدقة كلها إليها. «نعم يا آنسة، يحدث. من يعرف كم من أشخاص يذهبون كي يضعوا الزهور على قبور أحبائهم دون أن يعرفوا أن هؤلاء الموتى الأعزاء أنفسهم قد.. يا إلهي! انتهى بهم الأمر كعلف للجرذان التي تحفر تحت الأرض كي تقيم وليمة عليهم بأكثر الطرق بشاعة. في القرية المجاورة لنا، هاستينجسبليس، اكتشفوا للتوّ أن جبانتهم محفورة بالكامل عن طريق الجرذان التي أكلت حتى عظام الموتى الأعزاء.»

«لا تقل لي إن الأمر نفسه يحدث في بيردنبريدج..» هتفت إيميلي خائفة. «لا تقل لي إن زوجي تشارلز... هنا... قد انتهى به الحال، إيه...»

«لهذا تجدينني هنا يا مدام..» أجابها السيد ويتل. «أريد أن أتأكد أن هذه المشكلة لم تصل بعد إلينا كي...»

كان صوت هاتف محمول يرن في مكان ما في حجرة النوم. توقفت فلورا عن القراءة فورا. «لا بد أنها ماما..» قالت وقفزت برشاقة بالغة إلى الطرف الآخر من السرير. تطايرت الأوراق من حولها. تنفس برتراند

الصعداء. فلم يكن في حالة ذهنية تسمح له بالاستماع إلى حكاية عن جرذان لديها شهية للجثث، لكنه كان يريد ببساطة أن...

كانت فلورا تجري مناقشة ساخنة جدا. «نعم يا ماما... لكن ما الأمر؟ ما الأمر؟ طيب، ساندر وخريستو؟ تعاركا؟ لا يريدان أن يظلا عندك؟ لكن كيف يمكنك إعادتهما إليّ هكذا... الآن؟ الآن فورا؟!... لا، هذا لا يمكن... لا يمكنك أن تفعلي هذا بي...! آه نعم، كانا صعبيّ المراس... طفح بك الكيل! لا يريدان أن يظلا عندك؟ دعيني أتحدث إليهما!!... ما هذا؟ لا يريدان أن يتحدثا إليّ... ماذا تقولين؟ أنتم بالفعل في الطريق... آلو! آلو!... انقطع الخط...! هذا ما يحدث دائما عندما يمرون بالسيارة بقلعة (تاقلعي)...!»

للحظة، نظر أحدهما إلى الآخر في صمت.

«برتراند حبيبي، عليك أن ترحل فورا..» قالت له. «بعد قليل ستكون ماما هنا مع الولدين. تعارك ساندر وخريستو معها عراكا كبيرا ويريدان العودة...»

«ظننت أننا سوف...»

«ستحضرهما الآن حالا!» ردت فلورا وهي ترتدي الكيمونو الخاص بها.

تشبث برتراند بالبطانيات لينهض من التجويف الذي كان راقدا فيه وقفز خارجا من السرير. «اسمعي، كنت آمل قبل أن أغادر أن أتمكن من أخذ دش!»

لم تكن حتى تنصت إليه على الإطلاق، لكنها جمعت صفحات الرواية من الأرض حيث سقطت وبدأت تحثه على الإسراع بينما كان يرتدي

ملابسه ليرحل. كانت عازمة للغاية على التخلص منه بسرعة لدرجة أنها نسيت حتى أن تسأل عن رأيه في المقطع الذي قرأته من الرواية. وكان هذا من حسن الحظ: لأنها لو سألت، لأخبرها مباشرة بما اعتقده بالفعل في النص. للحظة كان برتراند غاضبا جدا مما يحدث، حتى أنه كان لينسى أنه ليس من مصلحته أن يتعارك معها.

هكذا حدث في لمح البصر أن وجد نفسه يهبط في المصعد الحديث والبالي في العمارة التي تسكنها فلورا. في مدخل البيت، كانت امرأة نحيلة ذات شعر أشيب تدخل مع ولدين بدينين. كان الثلاثة يتعاركون وتجاهلوه تماما بينما يركبون المصعد دون حتى انتظار أن يخرج، وهم مازالوا يحتجون ويتعاركون.

«ساندر! خريستو! هذا أكثر من اللازم الآن!» صرخت المرأة بالإنجليزية. «ساندر! خريستو! إذا لم تتوقفا، لن نخرج معا قط مرة أخرى!»

وانغلقت أبواب المصعد على مشهد ضجة كبيرة.

وبينما كان يقترب من السيارة، كان بإمكانه سماع الهاتف المحمول يرن من داخلها. وعندما دخل السيارة كان الهاتف مازال يرن. كانت بوني.

«أين أنت؟» تساءلت بصوت مرتاب ومرهق ومنزعج تماما. «كنت أتصل بك منذ زمن.»

«كنت مشغولا طوال الوقت وتركت الهاتف في سيارتي..» أجابها. «والآن أنا في طريقي إلى البيت. كيف سارت معك الأمور؟»

منحته تقريرا تفصيليا عن بعثتها الثانية إلى زنوبر، في صحبة هاردهيد هذه المرة.

.13

... في طريقهما بالسيارة نحو القرية، أوضح هاردهيد كم كان قلقا. «نحن بالفعل متأخرون في هذا المشروع. ومازال أمامنا الكثير لنفعله كي نجعله يتخذ شكلا... لكن كل ما لدينا يومان!»

ناقشا قائمة بالأشياء الواجب فعلها – المواقع التي كانوا بحاجة لاستكشافها بشكل صحيح لكي يعرفوا لاحقا أين وكيف يقوموا بالتصوير – نقاط الاتفاق الواجب تغطيتها مع دون تيمي فيما يتعلق بالأسئلة التي ينبغي أن يطرحوها عليه خلال المقابلة غدا أو بعد غد. «من سيحاوره، أنتِ أم برتراند؟»

«مازلنا بحاجة لأن نقرر.»

هز هاردهيد كتفيه، منزعجا للغاية لأنهم متأخرون جدا في عملهم. ينبغي أن يكونوا ممتنين لوجوده في كويس كوام، لأنه بينما ينال برتراند النصيب الأكبر من المجد لأنه، فعلا، كان يأتي بأفضل الأفكار؛ فإن هاردهيد كان يعمل كمنظم يخطط كل شيء بعناية مسبقا، وهو ما كان صحيحا بالنسبة لأي شيء يشترك فيه. وكانت لديه أيضا أفكاره الخاصة التي تعلم برتراند وبوني أن يقدراها ويستخدماها مع مرور الشهور والسنوات الآن. وبينما كان يقود السيارة، كان الارتفاع الثابت والصلب لكتفيه يشير إلى أنه لإنجاز أهدافه، كان هاردهيد يعرف أين يذهب وماذا يفعل، رغم أنه للوهلة الأولى قد يظن بعض الأشخاص أنه مسطول. حتى وهو يشكو متذمرا، كان عزمه على تنفيذ ما يحتاجون لفعله الآن يساعد بوني كي تتغلب على شكوكها المزعجة حول إذا ما

كان بمقدورهم الانتهاء في الوقت المناسب من هذا المشروع. كما كان يساعدها كي تتغلب على ذلك الهاجس الغريب الآخر الذي كانت تشعر به دون حتى معرفة كيف ثار داخلها؛ حول ما إذا كان بمقدورها أن تساهم مساهمة كاملة في الإنتاج. القلق الذي سيطر عليها خلال اجتماع فريق كويس كوام كان قد تبلد بعد أن أخذت بسرعة حبتين في مكتبها قبل أن تغادره مع هاردهيد، لكنها مازالت تشعر بالخوف.

عندما وصلا الطريق الساحلي ومرا أسفل التلين اللذين يشبهان رغيفين اكتسيا الآن بظلال الأصيل، أرشدته بوني إلى مدخل زنوبر.

«أعرف هذا المسار..» قال هاردهيد. «منذ زمن طويل، عندما كنت مازلت صغيرا، كنت أجيء مع رفاقي لنقابل بعض الأشخاص الآخرين... وكنا نذهب إلى كوخ مهجور وننظم مصارعة ديكة في أطلاله. كسبت مالا كثيرا من المراهنة... لم أكن لأكسبه اليوم... كانت الديكة تمزق بعضها البعض قطعا، وأحيانا يفعل ذلك بعضنا؛ عندما تندلع معركة بين أصحاب الديكة.»

«وأنا التي كنت أظن أنك تحب الحيوانات...»

«كان ذلك في زمن مختلف. إيه! كنت واحدا من هؤلاء المجانين... الميالين دائما للعراك... لكن الحقيقة أنه بالمال الذي كسبته من المراهنة على الديوك، تمكنت من فتح محلي الأول.»

«وماذا كنت تبيع؟ أغذية أطفال؟»

«بدأت أولاً بالكتب والصحف وكتب التدريبات وما إلى ذلك... لكن لا يمكنك كسب المال بهذه الطريقة. ثم بدأت أؤجر وأبيع شرائط الفيديو... كنت أجلب أفضل النسخ... ومن أفضل الأفلام التي لم تكن في تلك الأيام قد وصلت مالطا بعد. لكني حققت أفضل فائدة من نسخ

أفلام البورنو، حتى قام شخص من جماعة (العمل الكاثوليكي) بتنبيه الشرطة. كنت أكسب مالا جيدا، ثم بدأوا منافستنا كالمجانين في أسواق (مونتي) المفتوحة...»

لم يقابلا أحدا في الممر المؤدي إلى الكنيسة. كانت الشمس تغرب في البحر. ولا بد أن الأب تيمي قد رآهما من نافذة ما وهما يقتربان؛ لأنهما وجداه منتظرا أمام بيته. ضحك هاردهيد عندما قدمته بوني. «لكننا التقينا بالفعل...»

فيما بين تأرجح كتفيه بل وفكه الآن من وقت لآخر، حدق دون تيمي في هاردهيد دون أن يتعرف عليه.

«آه نعم أيها الأب، دعني أخبرك... وستتذكر... كنت تجيء إلى ملهاي الليلي... سمه حانة... في قرية ليجا... كنت أبقي المكان مفتوحا حتى الثانية صباحا... وكنت تجيء مع...»

«حقا! تذكرتك الآن. كان هذا في زمن آخر، لقد مر وقت طويل. كرئيس للجنة الإيمان والاتصالات كنت أجري لقاءات كثيرة... سرية...»

بدا كاهن أبرشية زنوبر متوترا. شكت بوني أن هذا لم يكن ببساطة يرجع لحقيقة أنه كان طوال الوقت في حاجة للتحكم في تشنجات عضو أو آخر من جسده. «لن نعطلك كثيرا يا أبانا..» قالت. «نحن بالفعل نعمل بسرعة على المشروع الذي حدثناك عنه هذا الصباح، وجئنا لكي نتمكن بعد إذنك من زيارة المواقع التي سنذهب إليها بالكاميرات غدا. هل هذا مناسب لك؟»

«اتصلت بالسيد برتراند لأخبره أن آل تونًّا قد جاؤوا...»

«ما إن نصل إلى هنا، سنذهب ونزورهم أيضا..» تدخل هاردهيد. «لم

لا نبدأ بإلقاء نظرة حولنا وتقرير ماذا نصور وأين؟»

فعلوا هذا. أخرجت بوني كراسة صغيرة وشخبطت فيها بينما استخدم هاردهيد جهازا صغيرا كان يحمله معه دائما ليتحدث فيه ويسجل ما كان بحاجة لفعله لاحقا. دخلا بيت قس الأبرشية واتفقا بعد إذنه على التصوير في بعض الحجرات حيث كان يعيش؛ وأيضا حول كيف وأين يمكنهم إجراء مقابلة معه حول زنوبر وماذا سيكون محتوى المقابلة، وفقا للحالة التي يمكن منها لبرتراند، لو أراد، أن يقدم مادة بصرية إضافية بينما يتحدث الأب. واتفقا أن يركز السيناريو على ماضي زنوبر وبعد ذلك على قصة يهوذا تونًّا ذات الصلة بحقل الإسخريوطي. وأينما ذهبوا، كان هاردهيد يُقدِّر ما ستكون عليه متطلبات الإضاءة والصوت، حتى يتمكن لاحقا من الترتيب مع جيانينو فيما يتعلق بالمعدات التي سيحتاجون لإحضارها إلى هنا. كثيرا ما كان يطلب نصيحة بوني وكانت هي كريمة في تقديم آرائها. بعد ذلك دخلوا الكنيسة ولم يكن لدون تيمي أي اعتراض على قيامهم بالتصوير في الداخل، لكن هاردهيد أحس بالقلق من أنهم سيحتاجون معدات إضاءة أكثر مما توقع. في الخارج كان الظلام قد حل، دخلوا المقبرة، حيث لم يكن بمقدورهم أن يروا الكثير، في غبشة المساء الكثيفة التي أحاطت بهم. اقتربوا من الشاهد الحجري على قبر يهوذا تونًّا. «ليس لدى هذا الشخص صليب، بل عمود مسطح..» قال هاردهيد.

«في تلك الأيام، لم يكونوا يسمحون بوضع الصلبان على قبور المنتحرين.. ما أقاموه من أجل يهوذا تونًّا كان لوحا تذكاريا... بالشكل الذي يمكن رؤيته على القبور الفينيقية. لا أعرف كيف ولماذا حدث هذا... غير أنه ربما منذ العصور القديمة كان لزنوبر علاقة ما بالفينيقيين.» الاقتضاب الفظ الذي تكلم به بدا وكأنه لإظهار أنه قال كل ما كان عليه أن يقوله في هذا الصدد.

هز هاردهيد كتفيه وخطا الثلاثة داخلين الساحة المواجهة للكنيسة.

«كان من المفترض أن تتحدثوا إلى آل تونًّا..» ذكَّرهما دون تيمي.

«نعم, أيمكنك أن تدلنا على الطريق يا أبانا؟ من الأفضل أن نسرع لأننا مازلنا بحاجة إلى الذهاب إلى الحقل لنرى ما يمكننا فعله هناك.»

«في هذا الظلام؟»

«وماذا في هذا يا بون؟ ألن نعمل غدا أيضا هناك في الظلام؟»

«غدا؟» تساءل دون تيمي. «لكن بعد قليل سيظهر القمر...»

أوضحا له كيف أنهم ينوون كجزء من المشروع أن يصوروا برتراند نائما طوال الليل في حقل الإسخريوطي. أنصت القس في صمت. ولسبب ما، وبينما كانت تشاهد جسده يرتج في الظلام بارتعاشات عصبية لم تتوقف قط، أدركت بوني أن ما سمعه لم يعجبه على الإطلاق.

«سؤال أخير يا أبانا، قبل أن نغادرك لزيارة آل تونًّا..» قال هاردهيد. «عن موت يهوذا... وجنازته... هل لديك أي شهادات؟... وثائق؟»

«لقد جرى الحفاظ على سجلات أبرشية زنوبر بشكل لا تشوبه شائبة حتى الآن. وهي محفوظة في غرفة المقدسات... توجد شهادتا ميلاده ووفاته... تلك الخاصة بدفنه... وثمة تقرير آخر كذلك... جمعتها معا بعد فترة قصيرة من مجيئي إلى هنا ومعرفتي بالقصة.»

«هل يمكننا تصوير بعضها؟»

غادروا بمجرد أن رد القس قائلا إنه ليس لديه اعتراض. قادهما عبر طريق أضيق بكثير من الممر الذي يؤدي إلى القرية. كان يبدأ من جانب المقبرة، ويمتد داخل الريف المحيط بها. ومن أفق بعيد، كان قمر فضي

يصعد الآن مخففا من الظلام المطبق، محولا إياه إلى ظلال على كل شكل، ممتزجة بسلسلة كاملة من الألوان الكابية تمتد من الرمادي إلى الأسود الفاحم. أمامهم وعلى مسافة ليست بالبعيدة، عند نهاية الطريق، ارتفعت بناية مسطحة أعلى جانب الجدران الحجرية. وعندما سأل هاردهيد عنها أوضح له دون تيمي أنها مزرعة تونًّا. كيف إذًا يصدرون محاصيلهم... أم أنهم يربون مواشي؟ محاصيل في الأغلب... لكنهم يربون أيضا بعض الحيوانات، كما أجاب القس. كان يلتقط أنفاسه وكأنه متوتر من تلك النزهة الليلية. ورغم أن الأرض كانت وعرة وغارقة في الظلام، إلا أن بوني وهاردهيد كانا يهرولان نافدي الصبر. عند الطرف الآخر من المزرعة، أكمل القس حديثه، يوجد طريق للخروج مع ممر أوسع قليلا يتجه مباشرة إلى الطريق المؤدي إلى مدينة زريق. أعتقد أن هذا هو الطريق الذي يستخدمونه...

14.

عندما وصلوا إلى نهاية الدرب، وجدوا أنفسهم أمام بوابة متضعضعة. وانتشرت في المكان رائحة غريبة، حامضة تقريبا، لم تبلغ بعد درجة النتانة لكنها...

«هل تشم ما أشمه؟» همست بوني.

«طبعا!» أجابها هاردهيد، رافعا صوته عن عمد. «من أين تأتي هذه الرائحة الكريهة يا دون؟»

أجابه القس: «لا أعرف..»

«وكأنه كان هناك نتن كبير هنا... ليس من وقت طويل... وهذا ما تبقى منه...» همست بوني.

«يا مَن هنا! ناردو! يا من بالداخل، نارد! لقد جئت بالناس إلى هنا!» صاح القس، ربما ليقطع هذا الحديث.

تناهى إلى أسماعهم صوت باب ينفتح في مكان ما في الظلام. وفجأة أضيء الجزء الأدنى من البيت الذي كان في مواجهتهم من نوافذ وأبواب مفتوحة على مصاريعها، والتي لم يروها في الظلام وبدت الآن مكسوة بالبياض على الجدار الخارجي. اقترب رجل يمسك عصاة طويلة في يد ويرتدي غطاء رأس رياضي. أما عن بقيته فكل ما كان بمقدورهم رؤيته هو عرض كتفيه الغارقين في ظل أكثر سوادا من الظلمة التي بزغ منها، وبعد ذلك بياض عينيه عندما وصل إلى البوابة التي بدأ يدفعها في صمت لتنفتح. «اتبعوني..» قال.

عبروا امتدادا مظلما من التربة الجافة القاسية نحو باب مضاء بالنيون. كانت الرائحة التي هاجمتهم عندما اقتربوا من المكان تغدو أشد قوة الآن. رائحة سيئة مزعجة إذا كان مازال من الممكن تحملها، رغم أنها الآن أكثر لذوعة بكثير مما كانت أمام البوابة. نبش هاردهيد ذاكرته ليرى إن كانت تُذكره بشيء، لكنه لم يستطع أن يحدد ماهيتها.

دخلوا حجرة واسعة عالية السقف، تشبه حظيرة، حيث تكومت في جانب منها أجولة واحدا فوق الآخر في كومة هائلة، وتشبه أيضا مطبخا، حيث في جانب آخر كانت هناك دكة محملة بمواقد الغاز وأسطوانات صفراء تحتها، ومائدة حولها ثلاثة مقاعد، تحمل آنية الطبخ وأطباقا وزجاجات قذرة، بعضها فارغ وبعضها ممتلئ بنبيذ أحمر. في الناحية الأخرى للحجرة من حيث دخلوا، تمددت على الأرض ثلاثة كلاب مربوطة بالسلاسل، وأخذت تراقب بانتباه القادمين الثلاثة وهي تزوم وتزمجر وتكشف أنيابا صفراء كبيرة.

«هذا هو ناردو تونًّا..» أوضح دون تيمي. «لقد أتيت بهم إلى هنا يا نارد. هؤلاء هم الأشخاص الذين يديرون البرنامج التليفزيوني الذي تحدثنا عنه. أين يهوذا؟»

لم يرد عليه الرجل وأخذ يتفحص بوني وهاردهيد بتحديقة ثابتة عابسة. كان يرتدي الفانلة الداخلية التي كانت عليه ذلك الصباح، عندما رأته بوني وبرتراند يقود السيارة في الممر المؤدي إلى زنوبر. وكان بنطاله الجينز ممزقا وقذرا، وحذاؤه متسخ. ولم يكن الرجل قد حلق ذقنه منذ وقت طويل، لكن نسيلة من شاربه تجعدت هابطة من أسفل أنفه إلى ذقنه، ملقية ظلا أعمق على وجهه الذي لوحته الشمس. «نعم..» قال أخيرا، وهو ينقل العصا الطويلة التي كان يمسكها من يد إلى يد. «ليس من الصحيح أن تأتوا إلى قريتنا وتتجاوزوا الحد بهذه الطريقة. ليس

من الصحيح أن تحاولوا إثارة المتاعب والقلق للناس، بهذه الطريقة. كل ما نريده هنا أن نعيش حياتنا في سلم وهدوء.»

قدَّم هاردهيد نفسه وأوضح من تكون بوني. كانت نبرته رسمية جدا، وكأنه يقدم رئيس مجلس الأمم المتحدة. «لقد أتينا إلى هنا لنعد حلقة من برنامج كويس كوام ستدور حول حقل الإسخريوطي وقرية زنوبر. وليس لدينا أي مصلحة في إزعاج راحة بال أي شخص...» تحدث هاردهيد ببطء ليتأكد من أنه مفهوم. ولاحظت بوني أن زميلها ضغط زرا في جهاز صغير احتفظ به في جيب سترته، وأنه يسجل المحادثة.

«هذه القرية ليست بحاجة إلى فضوليين يدسون أنوفهم في شؤوننا. إنها قريتنا... وأي شخص يريد أن يأتي هنا لا بد أن يتعامل معنا أولا..» رد ناردو بينما كان ينقل بعصبية العصا من يد إلى يد. جفلت بوني عندما أدركت أن العصا كانت في الحقيقة بندقية، وهو ما تبينه هاردهيد منذ البداية مباشرة.

«أكرر، كل ما نتمناه هو أن نصور الكنيسة الأبرشية والمقبرة والطرق المحيطة... وكذلك حقل الإسخريوطي..» قال هاردهيد، ولم يكن من الممكن لصوته أن يغدو أكثر لطفا. «نؤكد لك أننا لا ننوي بأي طريقة مضايقتكم أو إزعاجكم في عملكم.»

«طيب إذًا! ابتعدوا فقط! لم يدعكم أحد للمجيء. حقل الإسخريوطي في أيدي عائلتنا. ولا تملكون إذنا بالاقتراب منه.»

«كل شيء... كل الأبحاث التي قمنا بها... تبين أن الموقف مختلف..» رد عليه هاردهيد، وكان صوته هادئا جدا جدا.

على النقيض، كان ناردو يغدو أكثر غضبا وبدأ الآن يؤرجح البندقية من جانب إلى آخر. «إنه ملكنا...! وكذلك الأرض بالكنيسة والمقبرة!»

«دعني أكرر مرة أخرى أن أبحاثنا لا تبين هذا. ولم نفهم أنها كذلك مما أخبرنا به القس.»

«يا دون، أخبرهما...! أخبرهما بما أخبرتنا به...!»

التفتوا جميعا إلى الأب تيمي. كانت التشنجات العصبية لكتفيه ووسطه قد ازدادت الآن، وكأنه يجد صعوبة في تخليص نفسه من الورطة التي هو فيها.

«في الحقل كان جدنا يهوذا هو من شنق نفسه! كل شخص... كلهم يقولون صغارا وكبارا... أنه مات في أرضنا... نحن لا نختلق قصصا! والمقبرة أيضا، منذ زمن طويل أعطينا هذه الأرض لأبرشية زنوبر.» كانت البندقية تهتز صعودا وهبوطا بينما ناردو يتكلم، حتى صار يحملها كأنه في وضع استعداد، عبر صدره. «أخبرهم يا دون، تلك هي الحقيقة!»

لكن قس الأبرشية ظل صامتا.

«نحن لا نرغب في إزعاج حياتكم بأي طريقة..» استمر هاردهيد وظل صوته عاقلا تماما. «لو توضح لنا كيف ومتى سنسبب لكم تكاليف أو أضرارا، دعنا نرى ماذا تكون وما هي الفواتير، ونعدك – في كويس كوام لدينا سمعتنا الطيبة التي نخشى عليها... سنقدم لكم التعويض.... كما هو طبيعي... لكن، يمكنني التحدث بوضوح... لا يبدو أن ما ننوي فعله يمكن أن يسبب أي ضرر لكم...»

ما قاله جعل ناردو أكثر غضبا. اقترب من هاردهيد وهو يهز البندقية أمامه، بينما قفزت الكلاب ناهضة على قوائمها وبدأت تزمجر وتنبح كما لو جن جنونها. أصيبت بوني بالرعب، وظل دون تيمي جانبا يتأرجح بعض الشيء على إيقاع التشنجات العصبية التي لم تغادره قط.

«يا صاحبي، أبعد هذه البندقية عن وجهي..» قال هاردهيد وهو مازال هادئا للغاية.

«هذا بيتي، أفعل ما أريده فيه..» صاح ناردو مطلقا وابلا من التجديفات. خطا خطوة إلى الأمام، وتأرجحت البندقية في يديه في اتجاه كل أركان الحظيرة حتى انتهى بها الأمر مصوبة إلى هاردهيد. نبحت الكلاب بهياج أكبر، وأخذت تشد السلاسل التي كانت تربطها إلى الحائط. ازدادت بوني ذعرا، وبدت الأنياب السوداء والصفراء للكلاب أكبر وأكثر قبحا من قبل. لم يكن ناردو غاضبا فقط، بل سكرانا أيضا. بدا أنه يفقد سيطرته على نفسه تماما بينما يتعالى النباح. كانت الكلاب الهائجة تزيد من سعار غضبه بالفعل.

ربما كان دون تيمي في قبضة نوبة ارتعاش، لكن تشنجه اقتصر على كتفيه. أما بالنسبة لبقية جسده، فقد وقف متصلبا، وبدا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه أشبه بـ... لا توجد كلمة أخرى مناسبة غير: شبح.

قام هاردهيد بحركة صغيرة وعندما انتهت، كانت البندقية في يده اليسرى وذراع ناردو في قبضته اليمنى. كان الذراع الذي لوح به ناردو ممسكا بندقيته، لكنه الآن كان مثنيا وكأنه في قبضة من فولاذ. التمعت عينا هاردهيد بقسوة. وهدأ ناردو.

«هذه البندقية محشوة..»

«نعم يا صاحبي، رأيت ذلك. لو انطلقت في الثلاثين ثانية الأخيرة، لأصابتك. كنت متأكدا من هذا.»

حاول ناردو أن يحرر ذراعه من قبضة هاردهيد ولم يستطع. وأدرك أنه لو ركله، ستكون هناك عواقب...

«لا تجذب أكثر من اللازم..» نصحه هاردهيد. «وإلا ستكسر المفصل عند الكوع.»

كانت الكلاب قد صمتت، وخفت نباحها وعواؤها. رقدت على الأرض من جديد خائفة، تنظر حولها في شراسة بينما تزوم ويعض أحدها الآخر.

أطلق هاردهيد سراح ناردو لكنه احتفظ بالبندقية. تراجع الفلاح وهو يحك ذراعه. وأخذت بوني أنفاسا طويلة لتهدئ الذعر الذي قبض عليها خلال هذا المشهد الميلودرامي أو القوطي بعض الشيء (اختر الوصف الذي تفضله عزيزي القارئ) الذي فتر فجأة. ورغم ذلك استمرت في التنفس بتثاقل، لأن ناردو كان يحمل ما هو أكثر من مجرد أثر للرائحة التي انتشرت في البيت الريفي والحقول المحيطة. فلو تعرضت مرة لهذه الرائحة، ستصبح الحاجة للتنفس بعمق حاجة ملحة بعد قليل.

راقب دون تيمي المشهد في صمت. وبدا وجهه الناتئ العظام، الجاف كوجه هيكل عظمي، وكأنه انسحب في عينيه.

«والآن، إذا كنت تود، أخبرني ما تتوقعه مني..» تابع هاردهيد، وهو مازال هادئا كما كان من قبل. «كل ما نبغي أن نفعله هو برنامج.»

«فقط لا تتطفلوا على عملنا، لا تربكوننا..» تمتم ناردو.

«لقد قلت بالفعل إننا لا نريد أن نفعل هذا على الإطلاق. لكن ما العمل الذي سنربكه لكم؟ كل ما سنفعله هو أن نأتي ببعض الكاميرات لفترة، هذا هو كل شيء...»

عبس ناردو في صمت ناظرا إلى هاردهيد.

«إذا كانت هذه هي لعبتك يا صاحبي فالعبها..» استمر هاردهيد.

«لن أتدخل. لكن الآن، عليك أن تستمع إلى ما نقوله لك. كل ما نريد فعله هو تصوير برنامج. ما تفعلونه في هذه المزرعة هو عملكم وشأنكم، وليس هناك من سبب بالنسبة لنا كي نسبب لكم فوضى من أي نوع. ومع ذلك، لا تتصور أن بإمكانك الاستيلاء على ملكية عامة. الكنيسة في زنوبر وحقل الإسخريوطي ليسا ملككم. أتفهم؟ وسنصور هناك، طالما أن دون تيمي سيسمح لنا بالقيام بهذا، وكذلك السلطة المسؤولة، التي لا أعرف من يمكن أن تكون، هل هي المجلس المحلي يا أبانا؟»

هز تيمي كتفيه، ربما ليبين أنه لا يعرف من المسؤول عن هذه الأمور، لكن بما أنه كان دائما يهتز من كتفيه إلى أسفل، كان من الصعب معرفة إن كان يرد أم لا على سؤال هاردهيد.

«علاوة على ذلك، دعني أخبرك بشيء آخر..» قال هاردهيد، وبدا أنه يستمتع بكون صوته مسموعا. بينما ظلت الكلاب صامتة تماما، كان ناردو يراقبه أيضا في صمت، عيناه أشبه بجمرتين مشتعلتين، لكن بهما نظرة هزيمة. «لو حاول شخص ما أن يقوم بأي تحايل علينا، سيدفع الثمن غاليا. لو أصيب إطار واحد لأي من سياراتنا بشق، سآتي لأبحث عنك. وسأكون قاسيا. كما ترى... لو كنت لطيفا معي، سأكون لطيفا معك. لكن إن أردت أن تكون وقحا، فأنا أعرف كيف أكون أكثر وقاحة.» وبحركة سريعة، أفرغ هاردهيد البندقية من الخراطيش وألقى بها جانبا. «إذا لزم الأمر، يمكننا أن نأتي إلى هنا بفريق كبير من الأشخاص لحمايتنا أو لنلعبها عينا بعين. ومن بينهم، كل فتوات باسفيل. لكننا لسنا بحاجة إلى الذهاب إلى هذا الحد. يصدف أن نائب مفوض الشرطة هو ابن عمي وإذا كنت لا تريدهم أن يجيئوا كلهم إلى هنا... حشد كامل من رجال الشرطة من فلوريانا، هه! هل تسمع؟... هناك شيء واحد فقط عليك أن تفعله: لا تثر مشاكل!»

بعد هذه الخطبة، التي جاءت أطول مما رغب هاردهيد، كان هناك القليل مما يمكن إضافته. بدا أن ناردو قد هدأ. ومضى ليلتقط بندقيته من الأرض بينما فهم الأب تيمي على ما يبدو أنه بحاجة الآن لأخذ المبادرة كي يستعيد السلام في أبرشيته، دون أن يعرف مع ذلك من أين يبدأ.

«علينا أن نذهب..» أكمل هاردهيد. «... لكن ربما يا أبانا، يمكنك أن تشرح لهذا السيد المهذب بالضبط ما يجول بذهننا كي نفعله في زنوبر، حتى يدرك أنه ليس لديه ما يقلق بشأنه فيما يتعلق بما نحن مهتمون به حتى الآن.»

عاد هاردهيد وبوني عبر الدرب الضيق نحو الساحة الصغيرة أمام الكنيسة. قهقهت بوني، بطريقة هيستيرية بعض الشيء. «من أين سقط هذا الشخص؟ للحظة ظننت أننا في قصة كتبتها إنيد بليتون[15]...»

«نعم، وكان لدينا كلاب أيضا، كل العناصر اللازمة. لا أعلم إن كانت هناك روائح خاصة حيث كان المغامرون الخمسة يحبون أن يتجولوا... لكن يا لها من رائحة نتنة تلك التي كانت هناك!»

قهقهت بوني بطريقة أقوى. «كيف يتأتى أنك من بين كل الناس تعرف المغامرين الخمسة؟»

«منذ يومين كنت أقرأ بصوت عال واحدا من كتبهم، لابنة ابنتي...»

«كم عمرها الآن؟»

«ست سنوات... ولا تدعني في سلام قبل أن أقرأ لها شيئا...»

15- إنيد بليتون (1897-1968) كاتبة أطفال إنجليزية كانت مؤلفاتها من بين الكتب الأكثر مبيعا في العالم منذ 1930، وبيعت أكثر من 600 مليون نسخة. كتب بليتون لا تزال تحظى بشعبية هائلة، وترجمت إلى ما يقرب من 90 لغة، وأشهرها سلسلة Famous Five أو المغامرون الخمسة.

«وكيف تعلمت الجودو؟ لم تخبرنا قط!»

«هذا لم يكن جودو. هذا كان كاراتيه بورمي.»

«لا تقل لي إنك ذهبت إلى بورما كي تتعلمه!»

«بالطبع لا! رجل إنجليزي عاش في رانجون وأصبح خبيرا في الكاراتيه الذي يمارسونه هناك، أقام بيتا في مالطا. في تلك الأيام، كنا مانزال نعاني من تلك الشجارات السياسية. وكنت مازلت أعمل كواحد من الحراس الشخصيين لفلوريندو، بسترات زرقاء وكل شيء. قدمني فلوريندو لذلك الرجل الإنجليزي، وهو من عرفني بالكاراتيه.»

كان عليهما أن يحترسا لخطوهما بينما يسيران في الدرب لأن الأرض كانت وعرة جدا، وكانت سحابة كبيرة تخفي القمر الذي كان قد ارتفع عاليا في السماء. وأخيرا وصلا السيارة ودخلا فيها.

«هل سنذهب إلى الحقل؟» تساءلت بوني.

«ألن يكون هذا أفضل؟ لقد رأيتيه هذا الصباح لكني مازلت لا أعرف شكل الأرض هناك. وغدا ليلا، يخطط هذا المجنون للنوم فيه رغم أنه ترك كل شيء آخر معلقا في الهواء. إذا لم أخبر البقية في الصباح بما يفعلونه بالضبط، ستعم الفوضى في كل مكان.»

وافقته وغادرا. عاود القمر الظهور من خلف السحابة.

«وهل صحيح أن نائب مفوض الشرطة ابن عمك؟»

«ابن ابن عمي. ولا تسأليني أيهم، فهناك عدد لا بأس به منهم... ليس أبناء ابن عمي، أقصد النواب المفوضين.»

أبقت بوني فمها مغلقا، لكنها تذكرت كيف قدم كويس كوام العام

الماضي حلقة عن استخدام الكوكايين والمخدرات الأخرى في حفلات تقيمها الطبقة العليا. كما عرضوا لقطات مصورة سرًا خلال هذه المناسبات. أثار الموضوع ضجة هائلة واضطر رجال الشرطة إلى الدفاع عن أنفسهم بشأن سبب فشلهم في اتخاذ إجراءات فيما يتعلق بـ... ثم هدأ كل شيء. في ذلك الوقت، شوهد هاردهيد أكثر من مرة، داخلا وخارجا من مقر الشرطة العام.

15.

«لقد جئت إلى هنا مرة واحدة فقط... وكان هذا في الصباح..» كررت بوني بينما كان هاردهيد يقود السيارة إلى المدخل الذي يؤدي عبر الجدار الحجري على جانب الطريق إلى داخل حقل الإسخريوطي.

«لا يهم..» أجابها. «سنفعل أقصى ما يمكننا. على الأقل هناك بعض الإضاءة الجيدة من القمر.» ومد يده نحو التابلوه الذي كان يكاد يلمس ركبتيها حيث جلست في المقعد الأمامي، وفتحه، وأخرج مصباحين يدويين أعطاها واحدا منهما. «سنرى ما يمكننا فعله بهذين.»

«نبدو الآن أقرب ما يكون للمغامرين الخمسة..» قهقهت بوني.

في الظلام الفضي الممتد أمامهما، ربض حقل الإسخريوطي صامتا، وكأنه ينتظر، صاعدا برفق نحو خط أسود على البُعد كان جزءا من السماء. كانت هناك ريح ناعمة، نسيم صامت، يهب فوق الصخور والحشائش نحو القمة الواطئة للحقل، حيث انتصبت أشجار الخروب في كتلة دائرية متراصة. سارا ببطء نحو قمة الحقل، وتفحص هاردهيد الأرض من حولهما باهتمام كبير موجها مصباحه اليدوي في كل اتجاه بينما كانا يسيران.

«ماذا سيفعل ديلينجر بالضبط مع مشروع دروسيلا؟» تساءل. «إذا كان سيضع أشعة إلكترونية حول محيط الحقل ليحتفظ بتسجيل لكل ما يدخل أو يخرج، فهذا عمله، لكنني لا أعرف ما فائدة ذلك لنا؟»

«غدا سيكون بوريس هنا مع شخص من فريق ديلينجر ليفحصا ما يجب فعله.»

«ربما يكون هذا مضيعة خالصة للوقت..» قال هاردهيد متذمرا. «برتراند يدع ديلينجر يفعل به ما يريد.»

بما أن هذا أيضا ما تظنه بوني، فقد التزمت الصمت.

بلغا قمة الحقل وأصبحا داخل المنطقة المسطحة المستديرة المغطاة بأشجار الخروب. «هذا هو المكان الذي شنق فيه يهوذا تونًّا نفسه..» أوضحت بوني وأدارت مصباحها نحو الغصن الكبير، الأشبه بعارضة فوقهما، حيث -وفقا للأب تيمي- يوما ما ومنذ زمن بعيد تدلى المنتحر.

«إذًا سيكون برتراند نائما هنا في المنتصف، تحت هذا الغصن.»

«هذه هي الفكرة، لو كنت قد فهمتها على نحو صحيح.»

كان هاردهيد مهتما فقط بأفضل طريقة لتنظيم التصوير الذي سيقدمه كويس كوام من هذا المكان. دار حول الموقع، مصوبا ضوء المصباح على كل ركن ومسجلا ملاحظات في ذهنه حول النقاط التي ستكون هامة غدا لضمان أن اللقطات التي سيأخذونها لبرتراند نائما في الليل تحت هذه الأشجار ستتم بشكل جيد... كان واحدا من أكثر المشروعات جنونا التي شرع كويس كوام في القيام بها: هذا كان رأي هاردهيد عن العمل الوشيك. استكشفا البستان ووصلا إلى حافة الحقل، مطرقين نحو الأرض التي كانت تهبط برفق إلى البحر مع الطريق الساحلي تحتهما تماما، بينما على اليمين وقف التلان المتخذان شكل رغيفين، أقرب لعملاقين متوسطي الحجم يحرسان حقل الإسخريوطي من بعيد – أو هذا ما تصورت بوني الآن أنهما يفعلانه. من وقت لآخر،

كان القمر يتوارى وراء سحب تمضي عبر السماء بسرعة بدت تتزايد مع تقدم الليل. في الريف أسفلهما، كان التناقض يزداد قوة بين بقع فضية تتخذ كل الأشكال وبقع الغبش. من خلفهما، ثار صوت حفيف جديد بين غصون أشجار الخروب، بينما تتحرك جيئة وذهابا مع النسيم المتزايد.

أدركت بوني أن هاردهيد يراقب محيطهما بانتباه أكبر، بحدة أكبر. ثم حدق في التلين. وبينما كان ينظر، اختبأ القمر وراء سحابة وبسرعة مدهشة تقدم الظلام من كل مكان حولهما نحو التلين.

«انظري هناك، عند التلين..» قال هاردهيد بصوت غريب.

«أين؟»

«هناك شيء ما في هذين التلين..» قال هاردهيد مرة أخرى.

«لكن ماذا؟» تساءلت بوني. رغم أنها لوت عنقها لتنظر عميقا في الاتجاه الذي أشار إليه، فإنها لم تستطع أن تكتشف شيئا.

«شعرت وكأن... كان هناك شيء ما قادما من هذين التلين... قوة ما...» أجابها وهز رأسه قليلا، وكأنه أدرك أنه لا يتكلم هكذا عادةً بهذه الطريقة. لكن الشعور الغريب بأن «قوة» ما كانت تقترب منه قادمة من التلين أصبح قويا لدرجة أن الأمر بدا وكأن كل المهارات التي طورها عبر السنين ليعلم أين يليق به أن يضع كل شيء، وكيف يدير المشاريع بأكبر كفاءة وفعالية، وكيف لا يدع الأشياء تحدث إلا إذا اتبعت أفضل الخطط الموضوعة... بدا وكأن كل هذه المهارات قد هجرته كليةً.

حين عادت إلى بيتها ذلك المساء، عندما فكرت فيما حدث خلال رحلتها إلى زنوبر مع هاردهيد، كانت هذه أكثر لحظة تذكرتها بوني. لم تتذكرها برعب، لكن بانزعاج غامض لم تستطع أن تفسره تقريبا،

بالضبط مثلما لم يستطع هاردهيد أن يفسر لنفسه لاحقا لماذا كان يحدق لوقت طويل جدا في منظر التلين أمامه. ولمزيد من تعقيد الأمور، كان الأغرب أنهما فيما بعد انزعجا من هذه التأملات أكثر قليلا من الذروة الميلودرامية فعلا لرحلتهما، والتي كانت مازالت في الطريق...

مرة أخرى، انفرجت صفوف السحب المخفية للقمر لتغمر المكان بالظلال الفضية.

عادا إلى أشجار الخروب. في صمت، أعاد هاردهيد فحص المنطقة المسطحة في منتصف البستان، كأنه يشعر بالخزي مما أحس به للتوّ. وتحدث في الجهاز الذي يحمله معه ليسجل ملاحظات عن كيفية ترتيب الأمور غدا. ناقشا مرة أخرى كيف وأين يضعان الكاميرات وأين سينام برتراند، واتفقا أن تُنصب خيمة صغيرة لتأوي التقني الذي سيشغل المعدات، في مكان ما بعيدا عن الأشجار، عند جانب الحقل. «والآن من الأفضل أن نذهب لنرى أين بالضبط ينبغي أن نضع المعدات..» قال هاردهيد.

وافقت بوني.

في هذه اللحظة بالضبط، تجمد كل شيء حولهما. غصون وأوراق أشجار الخروب التي كانت تتأرجح وتخشخش فوق رأسيهما فجأة سكنت. وحل صمت رهيب على البستان والحقل. انكشف القمر، الذي كان بدرا مكتملا تقريبا، وسطعت فوقهما أشعة فضية انسكبت عليهما، وعلى البستان وبقية الحقل. وعندما نظرا إلى أعلى، أمكنهما بوضوح رؤية الأوراق وقد أصبحت كالحجارة، لا تصدر صوتا ولا حركة. نظر أحدهما إلى الآخر، مندهشين، وخائفين أيضا... لكن الغريب أنهما لم يقولا شيئا، وظلا هادئين كما لو أنهما أصبحا جزءا من الصمت الذي غزا الحقل. ولا تحركا، بل ظلا أيضا واقفين، متصلبين، ناظرين إلى كل

شيء حولهما... بينما كان بمقدورهما أن يخرجا من بستان الخروب ليريا ما كان يحدث بالفعل.

لا يمكن قول أنهما ارتابا في أن شخصا ما قد انضم إليهما، أو أن في الحقل شخصا ما أو روحا شريرة تسببت في هذا التغير في المشهد لتجعل حضورها محسوسا. لا إطلاقا. في الحقيقة، كانا متأكدين أنهما واقفان وحدهما في منتصف ذلك الصمت الرهيب، ذلك التوقف الكلي لكل شيء يجعل الحياة تتنفس. أحست بوني أن قلبها وعروق جبهتها تنبض بالخوف – لكنها كانت تعرف أيضا أنها في الواقع لم تكن تصدر صوتا.

لم يعرف كلاهما بأي طريقة كم ظلا على هذه الحال، متجمدين مع بقية الحقل المحيط بهما تحت الضوء الفضي. بعد ذلك، اكتشفا أن ساعتيهما قد تأخرتا ما بين خمس إلى عشر دقائق...

مرة أخرى، غطت السحب القمر وانقطع الضوء. على الفور، عادت الأشجار إلى الحياة... تأرجحت الأغصان في النسيم الرقيق الذي كان يحوم حولهما. وخشخشت الأوراق المحيطة بثمرة الخروب الطويلة في اندفاعة صوت متعجل. بعد كل هذا الصمت، كان بمقدورهما تمييز الحركة القادمة من أسفل الحقل لحيوان صغير ما: خلد أو جرذ أو قنفذ يعبره.

كان يمكنهما التظاهر أن شيئا لم يحدث، لكن بوني لم تكن بالشخص الذي يتجاهل الأمور. «ما كان هذا؟» تساءلت منقطعة الأنفاس.

عبس هاردهيد. «ليس لديّ أدنى فكرة..» أجاب بصوت خفيض.

«برتراند على حق إذًا. لهذا الحقل قصة.»

«إذا كان الحال كذلك، لا أعرف كيف يمكن أن تكون هذه القصة مفيدة لكويس كوام...» أجابها هاردهيد، بصوت أكثر انخفاضا.

أحسا أن النسيم الذي كان يدور في البستان قد أصبح أقوى بكثير. جاشت الغصون والأوراق بإيقاع قوي. وبدا أن الاوراق الجافة والأفرع الخفيفة ترتفع عن الأرض محمولة بواسطة النسيم المتزايد.

وبينما كانا يغادران البستان، ناقشا كيفية تنظيم مهام الغد. وطوال الوقت الذي ظلا فيه في الحقل، وأيضا عندما أفسح الظلام طريقا لضوء القمر مع المزيد من حركة السحاب، كانا يسمعان أشجار الخروب تخشخش، كما لو أن الأشجار كانت تدفع إحداها الأخرى، وتتعارك.

سارت بوني وراء هاردهيد هابطين إلى جانب الحقل، الذي كان مسدودا بأطلال الجدار الحجري. أبقى ضوء المصباح اليدوي على الأرض بينما كانا يخطوان على طول امتداد الجدار المتداعي. «هنا سنضع الخيمة للتقنيين..» قال، مشيرا إلى مكان متوار إلى جانب الجدار. هنا كان يتسع الطريق الذي يشبه الحزام مطوقا الحقل بالجدار.

«أظن أنهم سيمررون الوصلات الرقمية من أجل مشروع دروسيلا من هنا..» قالت بوني.

«يمكنهم وضعها أينما شاؤوا، هذا شأنهم..» نخر هاردهيد. كان يتعافى من إحساسه بالخوف الذي اعتراه وهو في بستان الخروب. «هنا سنضع جيانينو.»

وهكذا وصلا إلى نهاية رحلتهما الاستكشافية. وأكملا طريقهما صامتين عبر الحقل إلى المكان الذي كانا قد تركا فيه سيارتهما.

.16

... جالسا في سيارته ومنصتا في صمت إلى تقرير بوني، علم برتراند أنها كانت تعطيه الضروريات، تاركة النقاط الأخرى التي تركت أثرا عليها إلى وقت لاحق؛ عندما يمكنهما مناقشتها وجها لوجه. ومع ذلك، أدرك أنها قلقة جدا. وفي النهاية قالت: «بيرت، حبيبي، هذه القصة ليست من النوع المعتاد للقصص... من الأحرى بنا أن نكون حذرين.»

ضحك. «بالطبع، سنكون حذرين. لا بد أن أخبر هاردهيد ألا ينسى القيام بدَفعة جديدة من أجل الإعلانات...»

«أمازلت تنوي أن تنام ليلة الغد تحت شجرة الخروب التي شنق عندها يهوذا نفسه؟»

«بالطبع.»

«ألن نكون...؟»

«نعم، ماذا؟»

لم ترد.

«وقد قررت ماذا سأرتدي..» أعلن لها. «لقد حصلت على ذلك القميص والبنطال بالنقشة المموهة، على طراز الجيش. القماش خفيف ولا يجعل المرء يبدو سخيفا. وفوق هذا الزي الرسمي، لأنه سيبدو كذلك، سأضع كيمونو.»

«كيمونو؟ من أين أتيت بهذه الفكرة؟!» احتجت بوني رغم أنها أدركت أن المسألة حُسمت بالفعل.

وقبل أن ينهيا المكالمة، اتفقا أن يجهزا في الصباح بمكتب كويس كوام خطة تفصيلية بمواقيت ظهور برتراند في حلقة حقل الإسخريوطي.

الآن، يمكن في الواقع اتهام برتراند بذنوب كثيرة، إلا واحدا – الكسل. فبمجرد انطلاق أي مشروع، لم يكن ليترك حجرا دون أن يقلبه بحثا عن أفضل النتائج. ورغم أنه كان متعبا بعد هذا اليوم المزدحم بالمناورات والاجتماعات والمغامرات الأخرى، ظل في سيارته بعد أن أنهت بوني المكالمة وقلَّب في ذهنه ما أخبرته به للتوّ. أحس أنهم في طريقهم لقصة قوية جدا، لكن لا هو ولا زملاؤه قد أدركوا بعد الاتجاه الذي يمكن أن تسلكه، أو مما تتألف بالضبط. ثمة تفاصيل واحتمالات كثيرة تشير إلى اتجاهات مختلفة. لم يكن الجميع يقولون الحقيقة... في الحقيقة، لم يكن هناك أحد يقول الحقيقة، أو على الأقل، الحقيقة كاملة. كانوا بحاجة إلى الحصول على معلومات أكثر مما لديهم بالفعل، عما كان يحدث وإلى أين هم متجهون.

اتصل ببوريس واستاء عندما وجد أن باحث كويس كوام قد أغلق هاتفه المحمول. تسللت إلى ذهنه ظنون قبيحة حول كيف يمكن أن يخونهم بوريس بقبول عرض العمل لصالح ديلينجر وجوني ديب والباقين، أن يترك كويس كوام وينضم إلى مشروع دروسيلا. بعد ذلك أرسل رسالة نصية إلى بوريس طالبا منه أن يقوم ببحث مكثف قبل صباح الغد حول الموضوعات التالية: بساتين الفينيقيين المقدسة، تلال البقايا الأثرية، أحدث التطورات في الباراسيكولوجي، كتب وكتابات والي أحمد المنشورة، مسيرة الأب تيمي المهنية كرئيس للجنة الكنيسة للإيمان والاتصالات، بالإضافة إلى دستة من الموضوعات الأخرى. كان

عليه أن يرسل هذه الرسالة النصية مقسمة لثلاثة أجزاء. وكان برتراند يعلم أنه يكرر الكثير من التوجيهات التي أعطاها بالفعل للشاب، لكنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها التأكد من أنه سيهتم بكل شيء.

بعد أن انتهى من هذا، قضى المذيع التليفزيوني مزيدا من الوقت في السيارة، وهو مازال يفكر في الأمر. غدًا في مثل هذا الوقت سيكون مازال يحاول النوم تحت أشجار الخروب في حقل الإسخريوطي. لم يذهب إلى هناك إلا مرة واحدة، عندما كان ضوء الشمس يغمر المكان كله. قرر أن يزور الحقل ويتفحصه في ظلام الليل، مثلما فعلت بوني وهاردهيد معها للتوّ. على الفور، قاد برتراند سيارته بسرعة كبيرة إلى الحقل، مخاطرا باحتمال تعرضه لمجموعة هائلة من المخالفات المرورية. وبينما كان منطلقا بالسيارة، أدرك أنه ليس متعبا فقط، بل جائع أيضا. والآن لم يكن أمامه الكثير ليفعله، حيث لن يجد شيئا يؤكل في حقل الإسخريوطي، وعند عودته، أين سيجد مكانا يأكل فيه؟

في الطريق الساحلي المتاخم للحقل وعندما اقترب من الممر المؤدي إلى زنوبر، ظن أنه رأى أمامه على مبعدة ما يمكن أن يكون الأضواء الأمامية لشاحنة، ربما اثنتين. بدا وكأنهما قد توقفتا قليلا وراء النتوء الصخري الذي ينتهي عنده الحقل. ثم بدأت الشاحنتان، إن كانتا كذلك، السير ببطء في الاتجاه الذي كان يسير فيه، لكنهما تجاوزتا الحقل بمسافة، مقتربتين من التلين المتخذين شكل رغيفين، وتوقفتا أسفلهما. أوقف برتراند سيارته بالقرب من مدخل حقل الإسخريوطي، تقريبا حيث توقفت الشاحنتان عندما رآهما أولا. قرر ألا يقود السيارة داخل الفتحة المؤدية إلى الحقل. فهو لن يتمكن في الظلام من رؤية أين يسير جيدا وهو بالتأكيد لا يريد أن يجد نفسه وقد تقطعت به السبل هنا بإطار منفجر. وعندما أوقف السيارة، سمع صوت محركات تدور مسرعة. كانت الشاحنتان اللتان توقفتا على مبعدة أمامه في الطريق،

واللتان لم يعد باستطاعته رؤيتهما بسبب الجدار الملتوي العالي الذي يحيط بالحقل، قد انطلقتا مبتعدتين عن التلين. جرى برتراند على طول انحناءة الطريق ليرى ما كان يحدث. كانت الشاحنتان قد اختفتا.

من الغريب... لكنه ما حدث بالفعل: في هذه اللحظة فقط لاحظ برتراند لأول مرة رائحة النتن الحادة المحيطة بالمكان. استنشق بقوة، في محاولة لتنفس هواء نظيف. زاد هذا من سوء الأمر لأن رائحة النتن بدت وكأنها تتصاعد من الأرض، وتتقطر من الجدار الحجري على جانب الطريق. نظر إلى أسفل، متشككا في أنه قد داس على كومة من الروث. كانت الأرض جافة.

التفت مجفلا. خلفه في الفتحة المؤدية إلى الحقل كان هناك ظل رجل. أضاء القمر جانب وجهه والإطار الخارجي لرأسه، بينما ظل وجهه لطخة من السواد. تحرك هيكل رجل ضخم منتفخ نحوه كأنه تمثال، برأس بارز كأنه ديك رومي يختال متقدما ليستكشف محيطه. حدق الرجلان أحدهما في الآخر.

«برتراند! ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟»

«ينبغي أن أسألك هذا السؤال يا جيانينو! لقد أفزعتني كما لم أفزع في حياتي من قبل!»

«تماما كما فعلت بي! لم أعرف ماذا أتخيل!»

«إذًا ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

«ظننت أنه من الأفضل أن آتي لأرى أين سنعمل غدا ليلا، إذا كان لنا أن نتجنب المفاجآت...»

رغم أنه كان مازال يرتعد خوفا، إلا أن برتراند أحس بموجة من

الفخر: فلديه بالفعل فريق قوي من المحترفين الحقيقيين يعملون معه. ولم يكونوا ليدخروا جهدا لإنتاج أفضل عرض ممكن. «وأين تركت سيارتك؟»

«إلى الوراء بمسافة على الطريق. لم أكن أعرف أنه يوجد مدخل عبر هذه الفتحة. كنت قد وصلت للتوّ...»

«وهاتان الشاحنتان اللتان كانتا تنتظران هناك؟»

«عندما وصلت هنا سمعت أصواتا لكني لم أر الشاحنتين. كانتا تنتظران بالفعل في الظلام. ثم رأيت الرجال يحملون ويشحنون صناديق عليهما.»

«صناديق؟»

«صندوقان كبيران كالتوابيت. لم يتمكنوا من رؤيتي وظللت في الخلف حتى شحنوهما. كانوا يتعاركون مع واحد منهم. قال إنه حاليا لا يمكنه إعطاؤهم المزيد.»

«المزيد ممَ؟»

«لم أتمكن من فهم شيء. أظن أنهم كانوا قد شحنوا بالفعل صناديق أخرى. ثم ركبوا الشاحنتين وانطلقوا مبتعدين ببطء... رائحة النتن هنا لا تطاق! هل ستكون هذه الروائح هنا غدًا معنا؟»

كان برتراند قلقا أيضا من هذا. لم تثر بوني أي شكوى حول هذه المسألة عندما وصفت له زيارتها. قال: «بما أننا هنا، دعنا نذهب إلى قمة الحقل..».

وهو ما فعلاه، ووجداه نشاطا أسهل مما توقعاه، غالبا لأنهما أينما ذهبا كان ضوء القمر يرشدهما في الطريق. «اتصل بي هاردهيد وأبلغني

أننا سنخيم في مكان ما هنا..» قال جيانينو بينما كان يسير إلى جانب الحقل، ووراءه برتراند الذي تركه يستكشف ويتفحص المنطقة. تساءل ماذا كان يفعل هؤلاء الرجال. لا بد أن أحدهم كان من آل تونًّا.

حيث وقفا الآن، كان النسيم قد اشتد وخفتت رائحة النتن عند مدخل الحقل. بدا أن الرجال قد حملوها معهم بعيدا. أنهى جيانينو فحصه وهو يتنفس بصعوبة. ثم صعدا إلى أشجار الخروب التي تتوج الحقل. «مما أراه، لن تقابلنا مشكلات تقنية..» قال المهندس «أنوي أن أُحضر أقل ما يمكنني من معدات بالمناسبة، لكن نحن بحاجة للتأكد أن جودة الصورة والصوت مثالية.»

«أريد أفضل جودة للصوت من أجلي وأنا أشخر.» أصر برتراند وكأنه يمحو آثار التوتر السخيف الذي انتابهما عندما التقيا منذ قليل.

«طلبك مجاب..» وعده جيانينو الذي كان قد استعاد لياقته. وعندما دخلا بستان الخروب، جرى من ناحية إلى أخرى، ليقرر أفضل زوايا الكاميرات ومواقع الميكروفونات، وفقا للتوجيهات التي تلقاها من هاردهيد. وظل ينخر بقوة متزايدة كلما درس الموقف أكثر.

«ما الأمر؟»

«اسمع.»

التزما الهدوء: كانت أغصان وأوراق الخروب تهتز وتخشخش محتكة ببعضها البعض دون توقف، وكانت تفعل هذا برتابة إيقاعية لم تكن تتغير إلا استجابة للنسيم، الذي كان يتجمع ويشتد.

«لا نملك من أمرنا شيئا في هذا، إنها بقعة في مهب الريح..» قال برتراند. «آمل أن نجدها أهدأ قليلا في الغد. على أي حال، لن تكون

هناك مناقشة. سأنام هنا فقط.»

«وكيف سنعرض جودة شخيرك مع كل هذه الخشخشة؟» تساءل جيانينو، ليس على سبيل المزاح تماما.

«حسنا، سأكون مزودا بميكروفون، أليس كذلك؟»

«لن يكفي هذا. بالتأكيد سنحتاج ميكروفونا آخر. المشكلة أن هذه الخشخشة لا يبدو أنها آتية من الريح وحدها.»

«ماذا تقصد؟»

«اسمع! لقد تلاشت من جديد...» أكمل جيانينو هامسا: «وكأن الأشجار تخشخش لأنها تريد أن تفعل هذا، وليس لأن الريح تجعلها تتأرجح.»

«انظر، هل كنت تتحدث مع بوني أو هاردهيد؟»

«بوني؟ لا. لكني تكلمت مع هاردهيد وناقشنا أين سنضعك أنت والخيمة الخاصة بالتقنيين... هل كان ينبغي أن يخبراني بأمر هذه الأصوات؟... انصت إليها... وكأن هناك يدا كبيرة تهز الغصون ببطء جيئة وذهابا...»

«خيالك جامح..» رد عليه برتراند، مترددا في السخرية من زميله أم لا.

بقيا هناك لفترة، يفحصان المكان، في الأغلب كان جيانينو من يقوم بذلك، بينما حافظت الأشجار على خلفية صوتية قوية من الخشخشة المتواصلة. ثم بدآ طريقهما هابطين إلى مدخل الحقل. «سيكون هذا كل ما في الأمر اليوم..» أعلن برتراند. «أنا جائع كذئب، لكن لا بد أن كل الأماكن قد أغلقت الآن.» ثم توقف والتفت ناظرا إلى البستان الذي غادراه

للتوّ. وكذلك فعل جيانينو.

حدق أحدهما في الآخر، عاجزين عن النطق. كانت خشخشة واهتزاز الأوراق والغصون قد توقفا تماما. أول ما خطر ببال برتراند هو العودة إلى البستان، ثم هز كتفيه والتفت من جديد إلى أسفل الحقل. «توقفت الرياح..» قال بعناد.

سار جيانينو خلفه، معيدا ترتيب شعره الذي كان قد تبعثر على جبهته الكبيرة العريضة بفعل النسيم تحت أشجار الخروب.

«السكون يخيم على المكان كله..» قال برتراند، عازما ألا يدع أي وهم يخيفه. «أنا جائع لدرجة أني يمكن أن آكل الريح. ماذا سنفعل؟ هل تعرف مكانا ما؟»

كان يأمل في إلهاء جيانينو وقد نجح. «ربما ڤينتشي السفاح مازال مفتوحا...»

«ومن هذا السفاح؟»

«إنه بار يقدمون فيه الطعام. ليس لديه شيء مميز، لكن عندما يطهو الأرانب تكون لطيفة جدا، ودجاجه المشوي لا بأس به ومن المعتاد لديه أن يترك قطعة من لحم الخيل في الثلاجة.»

«في هذا الوقت من اليوم؟»

«لماذا لا تتبعني؟»

.17

كان متجر النبيذ الذي توقفا عنده في شارع مظلم على تخوم (زريق) نصف مضاء وخاليا تقريبا. ثمة رجل منكس رأسه على البار أمام كأس من الويسكي، ورجل آخر جالس في ركن يتابع برنامجا تليفزيونيا رغم أن الصوت مغلق. أما الرجل الثالث الذي نهض من خلف البار عندما دخلا فكان يعرف جيانينو ومن الواضح أنه تعرف على برتراند لأنه نظر إليه بفضول لم يكلف نفسه عناء إخفائه.

«أمازلت تعمل يا ڤينتشي؟» تساءل جيانينو. «هل بقي أي طعام؟»

«طبعا موجود..» أجابه الرجل من وراء البار، وهو يدعك عينيه ووجها طويلا مغطى بشعيرات قصيرة حادة لم تُحلق منذ يومين. وربما غلبه النعاس أيضا قبل أن يدخلا.

«ماذا لديك؟ بيض؟ سجق؟»

«ولحم إن كنت جائعا... يوجد بعض وراك الفراخ باقية... ومازالت ممتازة...»

هز برتراند كتفيه موافقا على كل اقتراحات جيانينو. أتى ڤينتشي بزجاجة بيرة لكل واحد منهما وذهب خلف الستار الذي قام وراء البار. وبعد قليل بلغتهما أصوات وشيش مقلاة. الزبون الذي كان مستغرقا في مشاهدة التليفزيون كان الآن يحدق في جيانينو وبرتراند. وهذا الأخير كان قد اكتشف للتوّ أن عددا من الرسائل النصية قد وصلته دون أن

ينتبه. كان هذا مدهشا لأنه منذ كان يقود سيارته إلى حقل الإسخريوطي، كان متأكدا أن شيئا لم يصله. كانت كل الرسائل من بوريس، تطلب منه أن يتصل به بشكل عاجل. «ما الأمر الآن؟» تمتم لنفسه.

وقبل أن يتمكن من الاتصال ببوريس، جاءته مكالمة: وكان الشاب نفسه. «كنت أحاول الوصول إليك لا أعرف منذ متى..» بدأ كلامه وهو يلتقط أنفاسه.

قاطعه برتراند بسرعة. «وأنا أيضا. لماذا أبقيت هاتفك مغلقا؟ أرسلت إليك ثلاث رسائل. هل وصلتك؟»

«نعم وصلت. لكني كنت مستغرقا في العمل على ما ناقشناه هذه الظهيرة ويمكنني أن أقول لك إن لدينا مادة جديدة جيدة بالفعل. كنت أعمل بدأب على موضوع تكلفة المعيشة...»

«ماذا تقول بحق الجحيم... تكلفة المعيشة؟ ألم يكن علينا أن نحصل على مادة عن حقل الإسخريوطي؟»

«آه نعم، نعم، وجدت الكثير عن ذلك أيضا..» أكمل بوريس، وهو مازال يلهث. «لكن ألا تذكر؟ أنت أخبرتني أن أستمر في البحث عن مادة حول تكلفة المعيشة وما إلى ذلك كي يكون لدينا شيء آخر جاهز للطبخ؟ طيب لن تصدقني لو قلت لك... لكني نجحت في اختراق...»

«ما الهراء الذي تفعله بالحديث عن أشياء كهذه؟ اخرس!»

«لكنك لن تصدقني عندما أخبرك... لقد اخترقت حواسيب الحكومة و...»

«أنت يا أحمق! ليس على الهاتف!»

«إيه! طيب. ماذا سنفعل؟»

«أين أنت؟»

«في البيت.»

«لمَ لا تأتي إلى شقتي، وأنت تعرف أين أقيم... في خلال ساعة... سننتهي من الأكل وسأكون هناك قبل ذلك...»

رغم استثارته، نخر بوريس احتجاجا. «هل تعرف ما الساعة الآن يا ريّس؟ الحادية عشر والربع... وغدا لدينا اجتماع مبكر جدا...»

«من اتصل بالآخر؟ أنت. هل ستأتي أم لا؟ واجلب معك كل ما استخرجته عن حقل الإسخريوطي، حتى الآن. حاليا هذا هو ما يهمني.» وأنهى المكالمة.

««سيكون لدينا يوم طويل آخر غدا..» شكا جيانينو وهو يمسح على كرشه. «لا أعرف لماذا نقوم بهذا العمل...»

«سهلة. نقوم به من أجل المال.»

«ليس المال كل شيء في الحياة..» أكمل جيانينو. بدا أنه في مزاج مهيأ لبعض الفلسفة. «تخيل لو أنك الكونت دي مونت كريستو، محمَّل بكل هذا الذهب والمجوهرات والأموال لكنك محصور وحدك على جزيرة مهجورة دون شيء تأكله. ودون أسرة وزوجة وأصدقاء...»

«يمكنك تخيل أي شيء تريده بامتداد هذا الخط. لكن هناك شيئا واحدا أكيدا: يمكن أن يكون لديك كل ما ذكرته... أسرة وزوجة وأصدقاء وطعام... لكن إذا لم يكن لديك مال، لن تستمتع بها طويلا.»

«تأمل حالتي... حسنا، أنا لم أخبرك بأي شيء بعد... لكن من الأفضل أن تعرف يا برتراند، لأني أشعر بارتباك كبير نتيجة ما يحدث لي حتى أني لست واثقا إن كنت سأستطيع العمل كما ينبغي...»

«مهلا، ماذا يحدث؟» تساءل برتراند، منزعجا من الهيئة الكئيبة التي ارتسمت فجأة على وجه جيانينيو الكبير المسطح. «اسمع، لا تثر مشاكل جديدة لنا، هه؟... أهذا ما ينقصنا الآن؟»

«أنا أواجه أزمة شخصية... ابق هذا سرا...! لكن زوجتي وأنا...»

«ماذا يحدث؟ قل لي.»

«أعتقد أنها ستتركني.»

«ماذا؟ ماذا تقصد؟ لكنكما مخلوقان أحدكما للآخر!»

«لكن هذا ما سيحدث...»

«هل وجدت شخصا آخر؟»

«لو كان هذا هو السبب! كل امرء يجد شخصا آخر هذه الأيام، لذا لم يكن الأمر ليغدو عصيا على المواجهة. لكن لا! ليست تلك هي المشكلة!» ظل جيانينو صامتا، وتجرع مرة أو مرتين من بيرته، محدقا حوله ككلب مضروب.

«لماذا لا تخبرني بما حدث؟» تساءل برتراند بنفاد صبر. كان يعتبر جيانينو وزوجته دونًّا زوجين نموذجيين، حيث كانا منسجمين في كل شيء، بما في ذلك ما يحتاجه كل منهما من حيز من الفراغ ليشغله في هذا العالم؛ لأنه لو كان ممكنا هذا كانت دونًّا تحب الأكل حتى أكثر مما يحبه جيانينو.

«دونًّا تريد أن تتبع حمية غذائية.»

«تلك فكرة طيبة.»

«تريدنا نحن الاثنين أن نتبع حمية غذائية.»

«وتلك حتى فكرة أطيب.»

«أتقول هذا؟... أنا لا أريد. أرى نفسي جيدا كما أنا.»

«اسمع يا جيانينو. حاليا، هؤلاء الذين يفضلون الصوم لهم اليد العليا. وهم لا يفعلون هذا كشكل من الكفارة الدينية كما في الأيام الخوالي، هم أبعد ما يكونون عن ذلك، بل هم يصومون من أجل قوامهم. لماذا لا تكون كالآخرين؟»

«لأني أفضل أن أكون كما أنا. وهناك طرق كثيرة تعتني عن طريقها بقوامك. يمكنك إبقاؤه في خط رأسي أو في منحنى مقعر، أو يمكنك أن تجعله منحنيا من الخارج. أفضل قوامي محدبا.»

«وهل أصبحت هذه مشكلة... بينك وبين دونًّا؟ أنا آسف...»

تهدل كتفا جيانينو. وظل صامتا لفترة، بينما تحدرت دمعتان أسفل أنفه. «لا أعرف كيف أتعامل مع هذا. لذلك أخبرك...»

«تأكد أننا جميعا في كويس كوام... وأنا في المقدمة... سنكون خلفك جميعا بدعمنا وتضامننا يا جيانينو أيا كان ما سيحدث..» قال برتراند، ممررا إصبعا بين عينيه ليمسح أول آثار الدمع المترقرق منهما. كان قد تأثر كثيرا بكآبة المهندس؛ لأنه كان دائما يشعر أنه مرتبط بوشائج التعاطف مع جيانينو الذي بالإضافة لكونه مهندسا ذا كفاءة استثنائية، كان يتلقى أجرا من كويس كوام أقل بكثير مما يمكنه أن يكسبه لو عمل في مكان آخر، وهي نقطة لم يبدُ قط أن جيانينو نفسه يدركها.

أخيرا، وصل صاحب متجر النبيذ يحمل طبقا به زبد وقطع من الخبز المالطي، وأطباقا أخرى (فارغة) ومناديل مائدة وسكاكين وشوكات وكذلك كأسيّ نبيذ. كان الرجلان الآخران الحاضران – الرجل لدى البار

والآخر المحدق في شاشة التليفزيون – قد غادرا. عاد صاحب المكان وراء الستار وظهر مرة أخرى حاملا طبقين كبيرين مليئين بأوراك فراخ مقرمشة وقطع من صدور الفراخ ورقائق البطاطس مع بصل وبسلة مقليين وكذلك سلطة طازجة. فاح اللحم ورقائق البطاطس برائحة القلي. انكب برتراند وجيانينو على الطعام كالمفجوعين. وعندما رفعا عيونهما عن أطباقهما، كان الرجل وراء البار يأتي بزجاجة نبيذ أبيض، رغم أنهما لم يطلباها. كانت الزجاجة باردة، مغطاة بطبقة من الندى.

راقبهما الرجل وهما يأكلان في صمت.

«هل الطعام جيد؟»

«أهنئك..» قالها برتراند بمجرد ان ابتلع ما كان يملأ فمه. «لقد مر زمن طويل منذ أكلت فراخا مقلية طيبة كهذه.»

«أنت الشخص الذي يظهر في التليفزيون، صحيح؟» تساءل الرجل. «والآن في أي برنامج؟... تويت توات.»

«كويس كوام..» صححها له برتراند، دون أن ينتظر كي يبلع قطعة ورك الفراخ التي كان يمضغها. «هل يعجبك؟»

«أنا السفاح..» قال الرجل. مد يده ورغم أن برتراند كان مشغولا بالتهام الفراخ، كان عليه أن يحذو حذو الرجل، فتوقف عن الأكل وصافحه.

«مازلت لم تقل إن كان يعجبك البرنامج.»

«عندما لا يكون عن السياسة وتعرضون رجالا ونساء يحملون على بعضهم البعض، أقصد الجنس كما تعلم، أو شيئا عن المصارعة، حسنٌ إذًا! غير ذلك أحول التليفزيون إلى القنوات الإيطالية.»

«نحن دائما نفعل ما بوسعنا كي نحافظ على خليط جيد في الموضوعات التي نختارها.»

«لا بد أنهم حكوا لك عني..» قال صاحب متجر النبيذ. «ينبغي أن تقدم حلقة عني في يوم من الأيام.»

«نعم طبعا، طبعا. هل ظهرت من قبل في أي برنامج...؟ لأنه... لا بد أن تعرف أننا نتأكد من تقديم مادة جديدة، كما تفهم، مادة لم يعرضها أحد بعد، لا مجال لحكايات مكررة، أنت تفهم.»

«هذا ما يقوله كل أصدقائي هنا... ينبغي أن أظهر في التليفزيون.»

في صمت كان جيانينو مستمرا في الأكل بكل عزم. مذهولا، ادرك برتراند أن زميله كان يزدرد الطعام من طبقه، بينما الدموع تملأ عينيه وتسقط دمعة بعد دمعة سائلة على وجنتيه. لم يلاحظ السفاح أي شيء من هذا، ومن منطلق مراعاة موقف زميله الصعب، أحس المذيع التليفزيوني أنه ينبغي أن يستمر في إلهاء صاحب البار.

«أظن أن كثيرا من الناس يأتون هنا؛ لأن الطعام جيد فعلا.»

«أنا الطاهي. عندما كنت في الداخل، أرسلوني إلى المطبخ وهناك تعلمت كيف أطهو.»

«لقد تعلمت جيدا فعلا..» قال برتراند رغم أنه لم يفهم تقريبا أين ذهب الرجل كي يتعلم الطهي.

«ومما يمكنني أن أراه، أنت معجب به فعلا..» قال السفاح، كما لو أن مزاجه مهيأ للحديث.

«لقد مر وقت طويل منذ أن تناولت فراخا جيدة هكذا.»

«مؤخرا، يأتون لي بدجاج من مزارع في الجوار. ولديهم المزيد ليبيعوه، ويمكنني أن أقول لك، لقد تحسن الطعم، ولا أعرف ماذا يفعلون... بينما يبدو أن السعر قد انخفض. لا أطهو غير الدجاج هذه الأيام، فهذا ما يطلبه الجميع... هل أحضر لكما بعض الفاكهة أو الآيس كريم؟»

«ليس لي، لا شكرا.»

«لو لديك آيس كريم الشيكولاتة بالقشدة، فسآخذ بعضه..» قال جيانينو بينما كان يمسح طبقه من الطعام، ووجهه مبتل بالدموع التي سفحها.

«نعم لديّ. سآتي لك بكوبين.»

«اجعلهما ثلاثة.»

مع قيام برتراند ببذل أقصى جهده للانتهاء من زجاجة النبيذ –ومن الأفضل قول الحق عن النبيذ أيضا؛ فقد كان طعمه يشبه الخل بعض الشيء– كان جيانينو يلتهم الآيس كريم، بينما وقف صاحب البار إلى جوارهما يشرح كيف يتوقف السياح أحيانا هنا كزبائن بعد أن يزوروا (برج النيفتي) ويطلبون أيضا فراخا مقلية، مثلما يفعل المالطيون. وبمجرد أن انتهى جيانينو من الآيس كريم، نهض برتراند عن المائدة ليدفع الحساب ويغادرا المكان.

«لا تنسَ أنك وعدت بتقديم حلقة عني..» قال السفاح وهو يبدأ في تنظيف المائدة.

«لن أنسى..» قال برتراند ضاحكا. غادرا متجر النبيذ وغاصا في الظلام خارجا.

«خرج بشيء طيب من إقامته في السجن..» تمتم جيانينو وهو يجفف الدموع من عينيه بمنديل ورقي. «تعلم كيف يطهو الدجاج.»

«هه، إذًا هذا هو المكان الذي...»

«ألم تتعرف عليه؟ لهذا بدأت في البكاء الآن... أنا آسف... لكني لم أستطع التوقف عن التفكير... دونًا وأنا... السفاح وزوجته...»

«ماذا حدث لهما؟»

«لا تقل لي إنك نسيت! وجدها في الفراش مع شخص آخر فقتلهما معا.»

«لكنك أخبرتني أن دونًّا لا تخـ..»

«لا! لكن عندما تتحدث عن الأزواج، فالإزعاج هو نفس الإزعاج!»

«وما علاقة هذا بمأساة السفاح؟»

«عجبا! سأقول لك: من حظه أن من دافع عنه كان فلوريندو... هذا المحامي جعل الأمر يبدو وكأن صاحبنا جُن من الغيرة... وأنه لم يلاحظ أن بندقية الصيد التي هددهما بها كانت مشحونة. ولا يهم أنه وفقا لبعض الروايات كان السفاح على علاقة بثلاث نساء أخريات كان يتردد عليهن كثيرا. لكن فلوريندو... آه! لا أحد يفوقه في هذه الأمور! لديه موهبة الإقناع، فعلا، ويجعل أقسى القتلة يبدو يمامة. لا تجد محامين مثله هذه الأيام. تخيلني... إذا اضطررت لأن أفعل بدونًّا نفس الشيء الذي فعله السفاح... من يمكنني أن أجده ليدافع عني في المحكمة بهذه الكفاءة؟»

«دعني أقل لك شيئا واحدا يا جيانينو... أنا خلفك تماما، بالمؤازرة وكل شيء... لكن فيما يتعلق بمسألة ما تأكل، دونًّا على صواب...»

«أوه، بربك! كيف يمكنك أن تعيش حياة طيبة إذا كنت تصوم ولا تستمتع بطعامك؟ واسمح لي أن أقول لك إني لم أرك تكف نفسك عن أوراك الفراخ تلك التي طهاها السفاح!»

وبهذا الحوار، ترك أحدهما الآخر، بعد أن قام برتراند بتنبيه جيانينو كي يأخذ قسطا جيدا من الراحة؛ لأن أمامهم في الغد يوما طويلا.

18.

وجد بوريس منتظرا عند الباب الأمامي. كان الشاب يجلس مسترخيا على الدرجة الأولى من الطابق الأوسط حيث كان برتراند قد ذهب ليعيش في الشهور القليلة الماضية، حتى يتمكن من تأمين تصاريح البناء للفيلا الواسعة التي كان قد اشتراها في (فوَّارة) بالقرب من قرية سقيوي، والتي كانت قد بُنيت بطريقة غير قانونية، دون تصاريح على الإطلاق.

«تفضل، تفضل يا بوريس. هل أبقيتك منتظرا؟ تفضل كأسا من الويسكي. كيف سار البحث؟ وعمَّ تدور تلك المعلومات الجديدة التي اكتشفتها؟» لاحظ أن الشاب يبدو متصلبا، متوترا؛ وهذا كان دأبه دائما في العمل عندما يقترب مما يعتبره اكتشافا كبيرا. المشكلة، كما يعلم برتراند، هي أن بوريس يغدو مستغرقا أكثر من اللازم في البحث الذي يجريه أيا كان وينتهي به الأمر مفتونا بالمسارات غير المتوقعة التي يكتشفها. فالمواد الجديدة والمدهشة التي يتمكن من العثور عليها، يمكنها أن تُفقده البصر بما بدأ في البحث عنه أصلا. والآن، كان يحتفظ بكأس الويسكي في يده اليمنى بينما باليسرى كان يجذب خصلات طويلة من شعره والتي شردت من ذيل الحصان القصير وسقطت على كتفيه. كان وجهه الرفيع المدبب يشبه وجه القنفذ، وعيناه تفيضان بالإثارة.

«هل لديك حاسوب في هذا المكان؟ هل يمكننا تشغيله؟»

«ماذا تقصد... هل أملك حاسوبا هنا؟ من تظن نفسك؟» زمجر برتراند بينما يقوده إلى منضدة صغيرة في جانب حجرة الجلوس. «شغله... ماذا تريد أن تفعل؟»

«دعني أريك شيئا..» قال بوريس وهو يفتح الحاسوب.

«كان عليك أن تأتي لي بكل المعلومات التي وجدتها حول ما ناقشناه اليوم.»

«هنا..» رد عليه الشاب وأخرج قضيبا صغيرا من جيبه أدخله في حاسوب برتراند. «كل شيء على هذه الفلاشة... لكن قبل أن نبدأ، أريدك أن ترى ما قمت بتنزيله.»

«هل كان عليك أن تتحدث عن الاختراق في الهاتف؟ هل جننت؟»

«هل تعلم ما دخلت إليه...؟ كنت أتتبع ما أخبرتني به، ذلك الموضوع المتعلق بتكلفة المعيشة... لا أعرف ما إذا كنا سنستخدمه أم لا، لكنك أخبرتني أن أتابعه... وهو ما فعلته. ونجحت في الدخول إلى حواسيب الوفد المالطي في بروكسل.»

«تهانيّ. وماذا في ذلك؟»

«لديهم أفضل جدران حماية في النظام الرقمي للحكومة بأكمله.»

«إذا كنت ستأتي بالشرطة إلى مقرنا –وهذا ما ينقصنا الآن!– سأشنقك أنا شخصيا فوق عمود نور.»

دون تأثر من هذا التهديد، استمر بوريس في مداعبة مفاتيح الحاسوب. «الق نظرة على ما قمت بتنزيله، هناك المزيد...»

«المزيد؟»

«لا أعرف لماذا يثيرون كل هذه الضجة حول البرامج التي يستخدمونها لحماية شفراتهم... بمجرد أن دخلت إليها، كان من السهل تنزيل كل ما فيها...»

لم يفهم برتراند كثيرا مما كان يتمتم به الشاب، لكنه في نفس الوقت كان يحدق في العرض الموجود على الشاشة أمامه. كانت وثيقة رسمية ما، تحمل تاريخ الأمس، أو الأصح تاريخ اليوم السابق على الأمس بما أن الوقت الآن قد تجاوز منتصف الليل بكثير. أعلى تلك الوثيقة، التمعت كلمتان مكتوبتان بحروف كبيرة وباللون الأحمر: **سري للغاية.**

وبدأ برتراند في القراءة:

«استقبلني الرئيس بترحيب كبير وعرض عليّ تناول القهوة، لكني طلبت شايا بالليمون. فأمر بنفس المشروب له. وبينما كانوا يقدمونه لنا، دخل مفوضا الزراعة والتجارة الخارجية إلى المكتب. قال الرئيس: 'يا صاحب السعادة، ظننت أنه من الأفضل أن يكونا معنا في هذا الاجتماع'.

«لم أقل شيئا رغم أني كنت مندهشا. بدا أنهما كانا يتناقشان بالفعل مع الرئيس قبل وصولي؛ لأنهما أحضرا معهما الفنجانين اللذين كانا يشربان فيهما القهوة.

«دخلنا على الفور في الموضوع ولم يكن هناك شك كبير في أنهم وصلوا إلى اتفاق مسبق فيما يتعلق بما سيقولونه لي. بدأ مفوض الزراعة بقول إن إداراته تمكنت مع الوقت من تحسين نوعية تقاريرها الإدارية. وهناك انزعاج عميق يتزايد بين طاقم عامليه بسبب المعلومات الإحصائية الواردة بانتظام حول الإنتاج الزراعي المالطي.

«بينت هذه البيانات أن إنتاج اللحم في مالطا، أي لحم الخنزير واللحم البقري والدواجن، لكن بالأخص الدجاج، قد تزايد بشكل حاد؛

ضد كل التوقعات التي أمكن وضعها حتى وقت ليس بالبعيد. لكن المفوض أخبرني أن هذه الزيادة ليست هي ما يقلقهم بقدر حقيقة أنه بينما يتزايد إنتاج اللحم، خاصةً -وهو ما أصر عليه- لحم الدواجن، إلا أن إنتاج علف الحيوانات في مالطا قد قل بشكل كبير، كما أن استيراد العلف في حالة منتهية. كيف إذًا يمكن أن يرتفع إنتاج الدواجن بهذه الطريقة؟ واستمر يشرح كيف تقصت إدارته احتمال التهريب لكنها استبعدت ذلك تماما... فيما يتعلق بهذا الموضوع، قالها بابتسامة ذات مغزى، وليس فيما يتعلق بالقطاعات الأخرى.

«في ردِّي، قلت إني لا أستطيع فهم لماذا ينبغي لهذا الموضوع الذي أثاره (والذي كنت أعلم به لأول مرة) أن يسبب لهم كل هذا القلق. ففي المقام الأول كان بلدنا يحقق تطورات هائلة في الإنتاجية والكفاءة. لذلك، فإن الزيادة في إنتاج اللحم الذي أشار إليه هو مثال آخر للتطورات التي تتحقق. وثانيا فإن إنتاج بلدنا من اللحم ضئيل جدا مقارنةً بإنتاج البلاد الأخرى، وأن هذه ‹المعجزة› -وهي الكلمة التي استخدمها هو- لن يكون لها أي تأثير بأي شكل على أي أحد، بسبب قاعدة ‹الحد الأدنى› وما إلى ذلك.

«عند هذه النقطة بالتحديد تدخل الرئيس: أخبرني أننا بحاجة لضمان أن نحافظ على الترابط المنطقي فيما نفعله، وإلا فإن شركاءنا التجاريين الذين يصدف أيضا أن يكونوا منافسينا (كان يشير إلى الأمريكان واليابانيين) سيستغلون نقاط عدم اتساقنا كي يدفعوا بجهودهم الدبلوماسية وحججهم. ولوضع كل الأوراق على المائدة، فإن الإدارات التابعة لمفوض الزراعة لم تكتشف بعد -على حد علمه- أي مؤشر على حدوث انتهاكات صارخة في الأراضي المالطية. لكن مفاوضات التجارة العالمية قد أصبحت حساسة جدا لدرجة أنه يوجد ترابط كلي بين كل النقاط ذات الصلة.

«وهنا تدخل مفوض التجارة الخارجية. أكد أنه بعد مؤتمر الدوحة، فإن الموضوع الذي كانوا يثيرونه معي قد اكتسب، بوضوح، أقصى أهمية. ومن المؤكد أن الأسئلة ستثور في الجلسة العامة وكذلك في اجتماعات اللجان المتخصصة لمنظمة التجارة العالمية حول كيف استطاعت مالطا إنتاج كميات أكبر من اللحم مع مدخلات أقل من العلف.

«أنهى الرئيس الاجتماع بإبلاغي أنهم يعتبرون الموضوع خطيرا، وأنهم يتوقعون الحصول على مذكرة تفسيرية من جانبنا في أسرع وقت ممكن. وإذا لم يحدث هذا قريبا، سيضطرون إلى إجراء التحقيق معنا بموجب المادتين 99.08ب و101.33ج (iii) من معاهدة كورنث. رددت بأني سأبلغ سلطاتي فورا.

«ثم أثرت المسألة التي كنت أريد مناقشتها في المقام الأول، أي الهجرة غير الشرعية، لكن الرئيس والمفوضين الحاضرين معه أكدوا أنهم مضغوطون من ناحية الوقت؛ أن لديهم اجتماعات أخرى يجب حضورها ومن الأفضل مناقشة الموضوع في اجتماع آخر. وأكدوا ضرورة أن نقدم لهم ردا مقنعا حول المسألة التي أثاروها... أي إنتاج اصناف الدواجن... في أسرع وقت ممكن.

«وبالتالي فمن المُلح أن يراجع المجلس هذه المشكلة الخطيرة المتعلقة بكيف يمكننا إنتاج كميات أكبر من اللحوم بينما نستخدم كميات منخفضة من العلف، حتى نتمكن من توضيح موقفنا أمام زملائنا الأوروبيين. سأكون في انتظار التعليمات في أقرب وقت.» (نهاية الوثيقة، نهاية الشفرة).

«ما رأيك؟» قال بوريس متلهفا. كان يشعر أنه سعيد حقا بغنيمته وقد انهمك في شرب كأس آخر من الويسكي.

لكن برتراند كان حذرا جدا تجاه الطريقة التي يرد بها. لم يكن هناك شك في أن الشاب قد حصل على معلومات ذات أهمية قصوى، يمكن للمرء منها أن يؤلف ألف قصة، تشعل اهتماما هائلا لدى الجمهور ككل... هذا لو كان المرء يدير إعلام المعارضة. لكن بالتأكيد كانت مهمة كويس كوام مهمة مختلفة، ولم يكونوا بحاجة للمخاطرة بإيرادات الإعلانات القادمة من الحكومة والشركات الكبيرة. ولكسب الوقت، سأله: «كيف حصلت على هذه المادة؟»

لم يستطع بوريس أن يخفي إحساسه بالفخر بما فعله. «طيب، يمكنك قول إني قد ابتكرت تكنيكا جديدا أخترق به... هل يمكنني استخدام الكلمة؟»

«وجها لوجه، نعم. عندما تكون على الهاتف، لا.»

«على نحو مباغت تماما، ولا أعرف كيف جاء لي، فقط هكذا... هذا التكنيك: لاستخدام نفس برنامج التخزين بالإضافة إلى السيرفر الخادم وكأنهما ثلاثة نظم تشغيل مختلفة، بالطبع بعد القيام بتجزئة ذاكرة التخزين... ولجعل النظم الافتراضية الثلاثة -لأنها لا توجد بالفعل، أتفهم؟- في وضع يبدأون منه إرسال نفس الرسالة إلى أحدها الآخر بينما يدورون حول محورهم الخاص، ويتحسسون شفرة النظام الذي يهاجمونه. لم يكن ينبغي أن أترك أي آثار لإظهار كيف اخترقت النظام، لكن حتى لو تركت أي شيء، لن يتمكنوا من تمييز أثر من الآخر. وفي نفس الوقت، بينما كانوا يدورون حول محورهم ويتحسسون الشفرة، كانت هذه النظم الافتراضية تدمر لغة التشغيل التي اخترقتها... كما ترى، كانت في الحقيقة تقرأها وتنقلها في واحدة من مقصورات برنامج التخزين الأصلي الذي قمت بتوصيله إلى حاسوب دفتري مستقل، كان يسجل الرسائل الواردة مباشرةً.»

«جيد جدا. فلتبقِ فمك مغلقا حول هذه المغامرة بأكملها..» أجابه برتراند المرتبك تماما. «وأريدك أن تعدني أنك لن تعود طوال هذا الأسبوع إلى ذلك الموقع. أوقف كل شيء فورا.»

«ماذا؟ كيف يمكنني؟» كان بوريس غاضبا ومحبطا للغاية حتى أنه بدا على وشك الانصهار. «في النهاية أنا أفعل هذا في وقتي الخاص...»

«أنت تعمل لصالح كويس كوام، لذا فإن ما تفعله سيكون له تأثير علينا جميعا. وأنا لا أريد أن ينتهي بنا الحال جميعا في السجن بسببك، بالتأكيد.»

.19

تجادلا لفترة لكن برتراند كان مُصرًا. وكان على الشاب أن يقبل بإملاءات المذيع التليفزيوني. فعل ذلك على الرغم منه، وظل مقطبا بينما ينصت إلى ما كان على برتراند أن يقوله.

«نحن نواجه الآن في كويس كوام مشكلة خطيرة جدا، أو ينبغي أن أقول مشكلتين. إن قصة حقل الإسخريوطي قد تصبح طائرا حول عنقنا، قد ينتهي بها الحال إلى شيء يضجر بقية العالم... إلا إذا أضفنا إليها الكثير من البهارات. تذكَّر، كثيرا ما يحدث أننا إذا لم نتعامل مع موضوع يبين كيف يحمل الرجال والنساء على بعضهم البعض، الجنس كما تعرف أو المصارعة، نخسر. سرعان ما يتحول الناس إلى قناة إيطالية ما. ثم على أي حال، هذه المعلومات عن الدواجن وما قمت به لا يساوي أي شيء لنا حاليا... أقصد لكويس كوام... إذا كنا سنركز على حقل الإسخريوطي.»

«أي مناقشة حول تكاليف المعيشة الآن، لديها مزاياها... إذا كنا قد أصبحنا أكثر كفاءة في إنتاج اللحوم، فلماذا تستمر الأسعار في الزيادة؟»

«لقد قيل العكس، لقد كان هناك انخفاض قوي في أسعار الدجاج المجلوب من المزارع.»

«أمي تشكو طوال الوقت من تكاليف المعيشة.»

«إذًا اذهب واسألها عن سعر الدواجن! أين وصلنا في المسائل الأخرى؟»

«لديك شحنة من المعلومات عن التلال الأثرية وبساتين الفينيقيين المقدسة وبوتو-رع. فيما يتعلق بالأخير، فقد تمت اكتشافات كثيرة مؤخرا. لقد خان ون-آمون؛ المبعوث المصري الذي أرسله الفرعون لزيارة مدن صور وجبيل وصيدا. لقد غير بوتو-رع جنسيته، هكذا يمكننا وصف ما حدث بلغة اليوم، وأصبح فينيقيًا. في البداية، كرَّمه الفينيقيون كثيرا على قيامه بهذا. لقد تم العثور على نقش يحتفل بذكرى اختيار بوتو-رع لقيادة بعثة فينيقية ضخمة متجهة إلى وسط البحر المتوسط. لو فهمت على نحو صحيح المقالات المنشورة في نشرات جامعة ويسكونسن، فقد اكتُشف الآن أيضا، ومن مصادر أخرى، أنه لاحقا قام بالخيانة من جديد... خان الفينيقيين... هذه المرة مع الإتروسكانيين، أو هؤلاء الذين كانوا يعيشون في منطقة وسط البحر المتوسط حيث نعرف الآن أن الإتروسكانيين عاشوا هناك.»

«لكن لماذا أصبح إتروسكانيا؟»

«لا يعرفون، أو لم أتمكن من معرفة السبب. أيا كان السبب، لم يتركه الفينيقيون يفلت بفعلته. هناك نقش آخر على لوح تذكاري عُثر عليه في طرابلس، لو أني أذكر على نحو صحيح، منذ مائة عام تقريبا، لكن عندما عُثر عليه، لم يفهم أحد دلالته. وهو محفوظ حاليا في جامعة سان دييجو بكاليفورنيا، حيث كان قد أتى به مليونير جامع للتحف. ثمة نسخة جديدة من هذا النقش... في الحقيقة هي ترقى لأن تكون ترجمة جديدة... تذكر بوتو-رع. وتصف كيف تم اكتشاف خيانته. وكيف أعدمه الفينيقيون طبقا للطقوس المعمول بها لمعاقبة الخونة... ومن الواضح أنها كانت ميتة مرعبة... قتلوه هو ومئات من الجنود

الذين عبروا معه إلى الإتروسكانيين. في البستان المقدس الذي كانوا يعدمون فيه هؤلاء الأشخاص، استمروا في دفن موتاهم وهؤلاء الذين يتم إعدامهم... على الأقل وفقا لترجمة اللوح التذكاري المحفوظ في سان دييجو... بهذه الطريقة، أرادوا أن يشم بوت-رع إلى الأبد الروائح الكريهة للموت الأبدي. هذا ما يقوله اللوح.»

«هذه القصة أكثر إثارة بكثير من تلك التي عن لحوم الدجاج..» قال برتراند مفكرا بعمق. «وإن كنت مازلت لا أفهم كيف يمكننا ربطها بحلقتنا في كويس كوام.»

«افترض أن حقل الإسخريوطي كان هو المكان الذي أُعدم فيه بوتو-رع...؟»

«افترض ما تريد أن تفترضه... هل تعتقد أن هؤلاء الذين اعتادوا أن يتابعوا برنامجنا بدلا من الانتقال إلى القنوات الإيطالية ليروا رجالا ونساء يحملون على بعضهم البعض... قل لي، هل تعتقد أنهم سيفهمون أي شيء من كل هذا؟»

«خمِّن من تمكن من فك شفرة النقش على لوح سان دييجو وقام بالترجمة التي أخبرتك بها للتوّ؟»

«البروفيسور والي أحمد.»

«كيف عرفت؟» سأله بوريس متضاءلا. فرغم أنه كان بالغ الذكاء، إلا أن هذا الشاب كثيرا ما وقع في خطأ الاعتقاد أنه الوحيد الذي يمكنه معرفة حاصل جمع اثنين زائد اثنين.

«لكن ماذا عن قصة يهوذا تونًّا؟»

«لديك معلومات عن هذا أيضا في الفلاشة. كان بروفيسور ديلينجر

على حق. بعد أن شنق يهوذا تونًّا نفسه، كانت هناك رائحة نتن هائلة. الأوراق التي ذكرها هذا الصباح قدمت القصة في نتف متناثرة. لم يرغب سكان زنوبر في دفن يهوذا في أرض غير مكرسة. وأصر المطران الذي كان مسؤولا وقتها على أن تلك هي الطريقة التي ينبغي أن يتم بها الأمر، بما انه قام بالانتحار. ووجد قس الأبرشية نفسه في مأزق بين الاثنين... أخيرا، وجدوا حلا وسطا دُفن بواسطته الرجل في ركن من مقبرة الأبرشية...»

«ذهبنا إلى هناك ورأيناه.»

«»... ركن لم يكن مكرسا كما هو مفترض. قال بعض الناس إنها في الحقيقة كانت مازالت أرضا مكرسة... واستمر قس الأبرشية المسكين في تحمل اللوم! على أي حال، هؤلاء الذين كانوا متفقين مع المطران هبوا معترضين. وكي تزيد الأمور سوءا، بدأت شائعة غريبة على ما يبدو في الانتشار في كل أنحاء الجزيرة بأن يهوذا تونًّا لم يمت شنقا، كما قيل، بل قام الشيطان بذبحه. وجرى تنظيم قافلتيّ حج... أو كانتا على وشك التنظيم... واحدة عن طريق هؤلاء الذين زعموا أن المقبرة تتعرض للتدنيس... والثانية بواسطة هؤلاء الذين كانوا يريدون إبراء يهوذا...»

«لماذا تقول إنهما كانتا على وشك التنظيم؟ ألم تحدثا؟»

«في اليوم الذي كان من المفترض حدوثهما، كلتيهما.... وفي يومين منفصلين، هه؟... من زريق أو من مكان قريب... أمطرت السماء وأمطرت... وغرق الريف... واضطروا لإلغاء الحجَّين. عندئذ كتب كاهن في جريدة أوبزرفاتور مالتيز عن كيف كانت هذه إشارة من السماء كي تنتهي الضجة وتُنسى. وهو ما حدث.»

«والآن هذه مرة أخرى كما ترى قصة مثيرة. يمكننا قضاء ما يقرب من عشر دقائق إن لم يكن أكثر ونحن نثرثر عنها.»

«ستجد المعلومات المتصلة في الفلاشة.»

«سأنظر في كل هذا. أي شيء آخر؟»

«سأعود إلى البيت. لقد تركت الحاسوب يتصفح وحده. لقد جعلت برنامجا جديدا يعمل لأرى إن كان بمقدورنا...»

«هذا يكفي يا بوريس. لقد أرهقتني. وتذكَّر تحذيري! هل تريد كأسا آخر من الويسكي؟ لا؟ إذًا تصبح على خير... سأراك غدا... بعد أن أقرأ ما جلبته لي.»

وبينما كان الشاب يتأهب للرحيل، كان إحباطه ظاهرا. من الواضح أنه كان مازال يعتقد أن القصة الأولى التي أثارها تستحق اهتماما أكبر مما منحه إياها المذيع التليفزيوني.

«لحظة واحدة..» قال برتراند. «ماذا عن مشروع دروسيلا؟ ماذا يحدث فيه؟»

«لا يوجد الكثير. لقد رتبت لمقابلة جوني ديب مبكرا هذا الصباح، والذهاب إلى حقل الإسخريوطي ورؤية كيف سيضع أجهزة الاستشعار الرقمية. بالنسبة للبقية، فإن المعلومات التي حصلت عليها من الإنترنت عن دروسيلا قليلة بما لا يجدي شيئا. فعلت كل ما استطعت. حتى أني دخلت بعض البرامج التي يديرها الناتو ووزارة الدفاع الأمريكية والتي قد تشبه دروسيلا... لكني لم أصل إلى الكثير. يبدو أنهم جميعا يضعون إجراءات أمنية محكمة حول المشروع.»

«كيف ستعرف مكان الحقل غدا؟»

«»سهلة. قمت بتنزيل صورة بالقمر الصناعي. إنها واضحة جدا كما تعلم، بكل التفاصيل عن موقعه... ووضعتها في نظام تحديد المواقع بهاتفي.»

.20

وحيدا أخيرا، أخرج برتراند الهاتف الأسود واتصل. كان عليه أن ينتظر لبرهة.

«هل أيقظتك؟... لم أستطع الاتصال قبل هذا. هل أنت بخير؟»

«نعم.»

«هل وصلا إليك؟»

«نلتقي غدا.»

«إذًا سأتصل بك غدا... لا سيكون اليوم... في المساء.»

أنهى المكالمة. والآن، كان بحاجة لأن يقرر إن كان سيقرأ المادة التي أتى بها بوريس قبل أن يأوي إلى الفراش، أم ينبغي أن ينتظر إلى الصباح. في سالف الأيام، كان القرار سهلا. كان يأخذ إلى الفراش الملفات التي يحتاج إلى النظر فيها ويبدأ في مطالعتها فورا، حتى لو سقطت من الفراش في فوضى مربكة على الأرض إذا غلبه النوم. لكن قراءة الملفات من اللابتوب في الفراش كان إجراء خلق مشكلات من نوع آخر. فلو نام، يمكن أن تحدث مأساة – كما حدث ذات مرة، عندما انزلق الحاسوب من الفراش وصحا على صوت الزجاج المتكسر ورائحة دخان خفيفة تنبعث من شاشة اللابتوب المكسورة، وهو ما كان خسارة كاملة. قرر أن يقوم بالجهد الكبير اللازم ليجلس مشدودا إلى مكتبه في حجرة الجلوس وقراءة المختصرات التي أعدها بوريس إلى النهاية.

كان الشاب قد عمل بجد فعلا، واضعا علامات على التقارير والبيانات التي تبين أنها ذات أهمية قصوى... واكتشف موادا جديدة تماما عن يهوذا تونًّا لم يشر إليها أحد بعد. وكانت هناك أيضا بيانات موجزة غريبة ليس فقط عن الانتحار منذ أكثر من مائة عام، بل أيضا عن بوتو-رع، المرتزق المصري الذي خان ون-آمون لينضم إلى الفينيقيين...

ذهب المذيع التليفزيوني إلى الفراش مثقل الرأس. كان مرهقا بشدة وسقط نائما على الفور...

ورأى حلما بشعا.

... رأى نفسه على مركب كبير قديم يشق عباب الأمواج، يدفعه مجدفون على جانبيّ المركب. كان يسير على طول ممر بين صفيّ الرجال. وكان هناك شخص معه، إلى جانبه... رجل متوسط القامة يتموج جسده بعضلات برونزية اللون، يرتدي سترة قصيرة بلا أكمام، ليكشف عن جذع لا بد أنه كان مصنوعا من الجرانيت، مصطبغا أيضا بالبرونز. كان هذا الرجل يمسك في يده بسوط جلدي هائل، ووجهه الذي كان محفورا بخطوط عميقة تمتد من أسفل منخريه وعينيه إلى ذقنه، يتخذ سمتا شرسا.

... معا كانا يخطوان عبر المركب في مشية بدت بلا نهاية، كما لو كان المركب طويلا حتى أنه يصل إلى الأفق، وفي نفس الوقت، مع القوة التي يمده بها المجدفون، كان ينطلق في ذلك الاتجاه بسرعة هائلة. لم يكن برتراند بحاجة إلى بروفيسور ليخبره من كان هذا الرجل البرونزي. بدا أشبه بقاتل مخيف، قائد قاس وجشع للرجال، حتى لو لم يصل إلى كتف برتراند طولاً... لكن طاقة الحياة لدى وحش بري كانت تسري في كل خلجة من عضلاته...

... ثم أنه وبينما كان يسير إلى جانب هذا القرصان، ألقى برتراند نظرة على المجدفين... ولم يكونوا بشرا، أو بالأحرى لم يعودوا بشرا... فرغم أنهم كانوا مازالوا يدفعون مجاديفهم بقوة هائلة، إلا أنهم كانوا هياكل عظمية، أو تحول الجزء الأكبر من أجسادهم إلى رماد وبمقدورك أن ترى عظامهم تحت الأسمال التي كانوا يرتدونها. كانت رؤوسهم نصف خالية من اللحم حتى العظم، وعيونهم محاجر خاوية.

... أحس برتراند بخوف شلَّه بينما كان يخطو مع القبطان عبر الممر الذي كان يقطع سطح المركب الضيق: ومن مكان ما، كان يمكن سماع صوت هاتف محمول أسود يرن ويرن. كان يعلم أنه ينبغي عليه أن يذهب ويرد عليه لكنه ظل حيث كان، كتفا إلى كتف مع هذا القرصان الذي احتفظ بابتسامة قاسية وحازمة على وجهه.

... من خلفهما الآن اقتربت خطوات، شخص ما كان يتبعهما... لم يكن برتراند قد سمع صوت الخطوات من قبل، ربما لأنها كانت مسرعة، ليست ثقيلة ولا قوية مثل خطوات قبطان السفينة. عرف لمن كانت تلك الخطوات، خطوات امرأة. التفت. «بوني، ماذا تفعلين هنا؟»

... التمعت عيناها بالرعب لكنها لم تستطع أن تتحدث إليه لأن نصف جسدها، مثلها في ذلك مثل المجدفين، كان قد تعفن؛ وجهها من أنفها إلى أسفل كان مجرد عظام، انكشفت أسنانها فوق العظام البيضاء المحيطة بالذقن، وانفغرت هوة كبيرة تحت فكها عندما فتحت فمها لتقول شيئا. وهنا دوَّت في أذنيه الضحكة القوية التي ضحكها القبطان، بالإضافة إلى صرخة الخوف المنفلت التي صرخها هو عندما رأى بوني.

هكذا انتهى الحلم، ولو كانت هناك أحلام أخرى حلم بها لاحقا، لم يستطع أن يتذكرها، مثلما لم يتذكر الحلم الأول الذي حلمه، مع بوني على المركب بينما كان الهاتف الأسود يرن ويرن... حيث انطرح في

فراشه حتى مر وقت لا بأس به بعد الفجر. وعندما نهض، أحس أنه متعب أكثر مما كان عندما أوى إلى الفراش. ثم تذكر أنه من المفترض به أن يقضي الليلة التالية نائما في حقل الإسخريوطي.

جعلته هذه الفكرة يضحك. لأنه لمرة واحدة، يمكنه أن يتطلع إلى ليلة طويلة من الراحة، حتى لو كانت كلها في خدمة كويس كوام.

21.

كانت المكاتب تعج بالنشاط. كل هؤلاء المشاركين بطريقة ما في البرنامج كانوا مشغولين بالتحضير لليلة واليوم التالي. كانت بوني تكتب أجزاء من السيناريو مستعينة بالملاحظات والملفات التي كان بوريس قد زودها هي وبرتراند بها. ويمكن للمرء أن يرى جيانينو ومساعدَيه يهبطون إلى المخازن ويصعدون مرة أخرى، ليفحصوا المعدات التي سيستخدمونها، ويخططون كيف سينقلون الكاميرات ويضعونها في مواقع التصوير. للحظة، كادت تصيبهم نوبة قلبية عندما اكتشفوا دون سابق إنذار أعطالا في صندوقين إلكترونيين كان ينبغي أن يضمنا أفضل جودة للصورة أثناء البث المباشر إلى أستديوهات كويس كوام من الكاميرات الموضوعة في حقل الإسخريوطي. بعد ساعة كانوا فيها على حافة الأزمة، تمكنوا من حل المشكلة.

وكان هاردهيد يتصل تليفونيا دون توقف بالمعلنين والمتعهدين الذين يوفرون المعدات والأثاث واللوازم الأخرى لاستخدامها خلال البرنامج. في الوقت نفسه، كان هو وبوني يقرران في مسودة ترتيب التشغيل للمواد البصرية التي ستقدَّم، وكانا يريدان على نحو عاجل مناقشة هذه المسألة مع برتراند. ومع ذلك، لم يكن لديه وقت لهما. هناك مازالت ألف مسألة وتفصيلة كان بحاجة أولا لتسويتها في ذهنه: ماذا يُفترض بالحلقة التي سيطلقونها أن تركز عليه بالضبط؟ يهوذا تونًّا؟ حقل الإسخريوطي وما يخبئه أيا كان...؟ كان متأكدا أن هناك شيئا هاما يتم إخفاؤه؛ أو بصيغة أدق، كان يشعر أنه لتقديم حلقة من

كويس كوام مقنعة ومثيرة عن موضوع حقل الإسخريوطي، فهو بحاجة لأن يُظهر أنه شخصيا مقتنع جدا أن لغزا كبيرا ما يرقد مخفيا هناك.

ومع ذلك، لم يكن بوريس قد ظهر بعد. أثار برتراند ضجة، شاكيا من أنه قد اختفى عندما كانوا في أشد الحاجة إليه... حتى ذكَّره الآخرون أن الشاب كان في حقل الإسخريوطي مع جوني ديب ليعرف أين وكيف ستوضع المعدات الخاصة بمشروع دروسيلا لتسجيل كل التحركات في الطرق والدروب المحيطة. وكان بوريس قد اتصل بالفعل ليعلن أنه سيصل قريبا.

وسط كل هذا الصخب، رتبوا لعقد اجتماع البرنامج قبل الظهر، حتى يقوم جيانينو وهاردهيد وبوني بعد ذلك بالذهاب إلى زنوبر من أجل التصوير المقرر بالإضافة إلى مقابلة طويلة مع دون تيمي. اتصلوا بقس الأبرشية واتفقوا معه على هذا. أما بالنسبة لليلة، فسيضع جيانينو ومساعداه المعدات التقنية تحت أشجار الخروب وفي جانب الحقل. وهناك، سيقيمان أيضا خيمة صغيرة تؤوي الفني المشرف على الكاميرات التي ستصور برتراند وهو نائم، وكذلك الجهاز الذي سيقوم بالبث المباشر لأستوديو كويس كوام ناقلا نسخة كاملة مما يجري تصويره في الحقل.

رغم أنه بدا أن كلهم يناقشون ويتحركون في سديم من الارتباك، إلا أن المشروع كان يحقق تقدما طيبا. تساءل برتراند إن كان ينبغي أن يأتي بالبروفيسور ديلينجر إلى هنا حاليا، ثم قرر أنه من الأفضل دعوته للنصف الثاني من الاجتماع.

ومع ذلك حدث تطوران ليُعقدا الأمور.

اتصلت فلورا.

«برتراند، برتراند! كيف حالك؟ أتعرف؟ سيكون الأمر كما أخبرتك!» صوتها المندفع ونبرتها حذرا برتراند أن عصفوريّ الزينة المزقزقين كانا منفعلين. منزعجا تساءل ماذا يكون قد حدث. لكن تبين أن فلورا كانت قلقة فقط بشأن عملها في المعهد. «لقد رد السيد أوروري أخيرا. لم تكن لديه حتى اللياقة كي يتصل بي، إطلاقا. أرسل إليّ رسالة نصية. هل تعرف ماذا قال؟»

رغم أنه كان خائفا أن تبدأ بالثرثرة حول ما حدث بالأمس، إلا أنه أحس تقريبا بالإهانة عندما لم تفعل هذا. «كيف حالك؟ وكيف حال ساندر وخريستو؟» تساءل.

«هما بخير، أفضل حالا مني. لكن تخيل فقط ما أخبرني به السيد أوروري: دعني أقرأ لك رسالته: اقتناعا مني بأنك الأقدر على التعامل مع البروفيسور والي، استخدمي الأموال المتبقية في ميزانيات الضيافة والنقل.»

«هو يثق بكِ. أليس هذا طيبا؟»

«لكن كيف أتحمل هذه المسؤولية الكبرى...؟ كان ينبغي أن يعود من صقلية فورا، بمجرد أن عرف بهذا الأمر. ماذا سأفعل مع بروفيسور والي؟ ماذا سأخبره؟ أين آخذه؟ هذه الأمور لم تكن أبدا من مهامي... والآن يبقى السيد أوروري في تاورمينا يستمتع بحياته مع زوجته! هذا ليس حقا! ليس عدلا!»

«لا داعي للذعر يا فلورا! والي أحمد لن يأكلك... من يعرف إن...» توقف قليلا بعد أن دخلت بوني المكتب. كانت ترتدي اليوم فانلة وبنطالا مائلين للون البني ومصنوعين من نسيج مخملي، مع جاكت قصير – طقم كانت تختاره عند مواجهة يوم عمل طويل، يتضمن بعض

التصوير. كانت تجده مريحا عندما تحتاج إلى التعامل مع مواقف مختلفة كثيرة خلال فترة قصيرة كما أنه يجعلها تبدو في مظهر طيب، خاصةً في مرحلتها الحالية التي تُبقي فيها شعرها مشدودا إلى الوراء... «في النهاية، سيضع أموال الضيافة والنقل تحت أمرك... ماذا تحتاجين أكثر من ذلك؟»

«هذا الرجل يخدعني!» نخرت فلورا، عازمة على أن تبين أنها تتعرض لاستغلال سيء. «الأموال المتاحة مستنزفة فعليا، ولا أعرف ماذا أفعل أيضا حيال هذه النقطة. ما بقي من أموال جرى إهدارها على يد أوروري نفسه؛ عندما دعا إلى العشاء السوبرانو تيجيلا ريناودي وزوجها أو عشيقها ومدير أعمالها والسكرتير ولا أعرف من غيرهم، ومن ضمنهم الوزير... وبالنسبة لي، وجد عذرا ليقصيني. في تلك المناسبة، أكلوا فيما بينهم حمولة مركب من الجمبري الملوكي وابتلعوا براميل من نبيذ بوردو الأعلى جودة. من يظن أنه يخدع، السيد مالكولم أوروري، أنا؟... لكن هذا ليس كل شيء يا برتراند...» عند تلك المرحلة وكنص ضمني لتفسيرات فلورا المثيرة للشفقة، انضم صوت عصفور ثالث إلى الشقشقات اليائسة للعصفورين الأولين لضمان وضوح رسالتها بشكل وافٍ. «ماذا سأفعل عندما يصل البروفيسور...؟ أنا وحدي تماما في المعهد! تركوني وحدي! ستصل الطائرة في حوالي العاشرة ليلا! كيف يمكن أن أذهب وأقابله... وحدي؟ ماذا سأخبره؟ أحتاج إلى أن يأتي معي شخص ما... اسمع، لمَ لا تأتي؟... على أي حال ستكتب هذا المقال عنه، ستعرف ما تقوله له...»

«آسف يا حبي لكن...» أمسك المذيع التليفزيوني لسانه لأن بوني الواقفة إلى جواره ممسكة بأوراق مستعدة لمناقشة مشكلة ما ثارت، ألقت الآن بنظرة فظيعة الآن في اتجاهه. «الليلة لا يمكنني بالتأكيد القدوم إلى المطار لأني سأصور في هذا الوقت.»

«الليلة؟ تصور؟» متناسية مخاوفها، ضحكت فلورا وضحكت معها العصافير الثلاثة المزقزقة كخلفية لصوتها.

«نعم، نحن نعمل على مشروع مهم جدا. لكن لا تقلقي، سأرى كيف يمكنني مساعدتك في التعامل مع مشكلة الليلة. لكن بما أننا تطرقنا إلى هذا الموضوع، أمازلتِ بحاجة إلى هذا المقال عن والي أحمد من أجل المجلة؟ فهو الآن سيظهر بعد أن يكون البروفيسور قد غادر بالفعل، إذا كنت أفهم الموقف على نحو صحيح.»

«بالطبع أريده. في الحقيقة ومن وجهة النظر تلك، سيكون الأمر أفضل على هذا النحو... لأن الناس سيكونون قد سمعوا بالفعل عن والي أحمد. وسيحصل المعهد الوطني للثقافة على ضعف الدعاية من زيارته. لكن عن الليلة، ماذا سنفعل؟»

أيقن برتراند أن السيدة بيتا لوكا كانت قلقة بالفعل ولا تستخدم حيلة ما –كما هيأ له تقريبا غروره القليل لوهلة– لتجتذبه مرة أخرى نحو فوهة ذلك البركان في منتصف سريرها حيث قضيا بعض اللحظات الممتعة معا بالأمس. وبينما كانت بوني تنظر إليه بارتياب، بذل أقصى جهده ليهدئ فلورا بوعده لها أنه سيضمن ألا تكون وحيدة عند وصول والي أحمد.

«ممَ تشكو هذه الحرباء؟» تساءلت بوني.

شرح لها الأمر، وعندما كانت بوني على وشك الانطلاق في وصلة نقد هدام لفلورا، حذرها برتراند بأقصى ما يستطيع من نبرة منطقية أنهم بحاجة لمساعدتها في اجتذاب المزيد من الإعلانات لكويس كوام. غيَّر الموضوع للمشكلات التي جاءت بوني لمناقشتها، ووافقها على كل مقترحاتها، باستثناء الكيمونو. متجاوزا احتجاجاتها، أصر على أنه في

تصوير الليلة – والموضوع: نومه الليلة في حقل الإسخريوطي: نعم، سيرتديه!

وقبل أن يتمكن من الدعوة لاجتماع فريق العمل بكويس كوام، تلقى برتراند زيارة.

«السيد لورينتي مانيسكالكو..» أعلنت السكرتيرة. هذا الصباح، قامت بمعجزة صغيرة؛ حيث كانت تتعامل مع الصخب في المكتب من حولها ومع المكالمات الهاتفية الواردة في نفس الوقت.

«من؟»

اقتربت من مكتبه لتريه بطاقة من هذا الرجل الذي وصل دون موعد وطلب مقابلته على نحو عاجل.

«أخبريه أن يدخل..» قال برتراند عندما قرأ البطاقة والرسالة القصيرة المكتوبة عليها في عجالة كأنها وصفة طبيب.

22.

كان السيد لورينتي مانيسكالكو طويلا، رجل طويل ونحيل جدا، له بشرة فاتحة وشعر أشيب ملتصق بسلاسة على رأسه الصغير، كما تميز أيضا بشارب أشيب فوق شفتين كبيرتين رفيعتين. وكان يرتدي بدلة سوداء فاخرة، بدت وكأنها فُصلت بقماش وتصميم مأخوذ من إعلانات البدل في أفضل مجلات الموضة الإيطالية للرجال، إن لم تكن أيضا من موديلات أزياء الرجال المصممة في سافيل رو[16]. عندما ابتسم، بينما كان يصافح برتراند، كشف عن صفين من أسنان بيضاء مدببة، أو هكذا بدت، وجعلت المرء يحس أنه في مواجهة ثعلب أليف. لاحظ برتراند كيف ظلت عينا الرجل الزرقاوان زرقة فاتحة والمرهقتان قليلا مركزتين على وجهه، بينما كان يقوده إلى الأريكة ويسأله إن كان يفضل القهوة أم شيئا آخر.

رُفض عرض القهوة أو شيء آخر. «هل يمكن من فضلك أن تعيد لي البطاقة التي أرسلتها مع السكرتيرة؟»

«لماذا؟» سأل برتراند، الذي كان يشعر بانزعاج كبير، مندهشا. لبى طلب الرجل الطويل النحيل، الذي أخذ البطاقة، وقطعها ووضعها في جيبه.

«عندما أعود إلى المكتب، سأمزقها إربا..» أوضح. «أنت تفهم

16- Saville Row شارع في مايفير، وسط لندن. يشتهر أساسًا بتصميماته التقليدية المخصصة للرجال.

السبب...»

لم يرد برتراند. في البداية كان متأكدا أنه لم يقابل السيد مانيسكالكو من قبل، لكنه الآن كان يراجع أفكاره: ألم يلاحظه ربما في حفل استقبال أو مناسبة أخرى أقامها سفير ما؟ أو لعله كان واقفا في خلفية عشاء دولة أقيم تكريما لرئيس أجنبي ما في رحلة رسمية لمدة ست ساعات ونصف إلى مالطا؟

انتظر الزائر لوهلة كي يقول المذيع التليفزيوني شيئا، لكن عندما ظل الأخير صامتا، قال: «أظن أنك مندهش من قدومي لمقابلتك. أنا لن أطيل عليك. كما يمكنك أن تتصور... أنا متأكد أنك على وعي بكيف تجري هذه المسائل... أحد المهام التي ينفذها مكتبنا باجتهاد، هي مراقبة حركة سير رسائل معينة في الإنترنت. منذ مساء الأمس وحتى الصباح الباكر اليوم، كشفت أجهزة مراقبتنا تدفقات حركة جديدة وقوية صادرة عن عنوان مجهول، لكنها لم تستطع تحديد هذا العنوان لنا. إنها ماكينات قديمة بعض الشيء، تعمل منذ ثلاث سنوات وأصابها التعب...»

كان برتراند منزعجا فعلا الآن، رغم أنه بالتأكيد كانت هناك أسباب أخرى مفترض بها أن تجعله يشعر بالارتياح: لقد أخطأ بوريس وورطهم في متاعب لا حاجة لهم بها. لكنه ظل مبتسما كرجل مندهش مما يسمع لكنه مازال يتابع بتركيز.

«على أي حال..» أكمل السيد مانيسكالكو. «كانت هذه الحركة القوية الجديدة تتدفق نحو حواسيب السفارة المالطية في بروكسل. بلغة بسيطة، كانت عملية اختراق كبيرة تحدث. وأكثر ما أدهشنا... وأنا هنا أشير إلى زميليّ وإليّ؛ لأننا لا نملك تمويلا كافيا لضم المزيد من الأشخاص الأكفاء وشراء أحدث التكنولوجيا... لكني أكرر، أكثر ما أدهشنا كان هذا: أظهرت كل الإشارات أن الاختراق كان ناجحا. لم يكن

لدينا أي شيء يبين كيف ولماذا كانت تتم هذه العملية، لكنها تمت.»

«ولماذا جئت لتقول لي هذا؟» سأله برتراند بفم جاف.

«نُفذ الهجوم على حواسيب السفارة ببراعة، لا توجد كلمة اخرى لوصفه، لدرجة أنك لا تستطيع تتبعه لمعرفة من أين جاء، أو متابعته لمعرفة إلى أين كان يتدفق. لا يمكنني أن أقول لك كم كنا سعداء برؤية هذا يحدث.»

«سعداء؟»

«على عكس كل الإجراءات المعمول بها، لم يكن مسموحا لنا نحن أنفسنا بالدخول ومراقبة هذه الحواسيب. وكأنها تشكل قطاعا مستقلا لنظام الدولة... في الحقيقة الأمر أكبر من هذا، كأنهم مستقلون عن الدولة. لا توجد طريقة يمكن بها لخدمة ذات دور خطير كإدارتنا أن تعمل بشكل مناسب في ظل هذه الظروف. إما أن نحمي أمن الدولة، أو لا. لكن نظام بروكسل كان مسموحا له بالحرية الكاملة لفعل ما يريد. وقد حاولنا لزمن طويل اختراق حواسيبهم. لكن كما قلت، مواردنا محدودة لسوء الحظ... والآن، نحن نستبعد تماما أن تكون عملية الأمس تمت عن طريق مصادر أجنبية. لا، لا، لقد تم الاختراق عن طريق مصدر مالطي. ونتصور أن هناك ثلاث مؤسسات، اثنان بشكل فعلي... لأن واحدة من الثلاثة عتيقة وعفا عليها الزمن، لكن فلنقل ثلاثة، في مالطا كلها، يمكن أن تمتلك... القدرة التقنية... الخيال... لتنفيذ مثل هذه العملية الخاطفة التي وقعت ليلة الأمس. مكتبكم هنا في كويس كوام واحد من الثلاثة. لا يمكننا معرفة من المسؤول من بين هؤلاء الثلاثة... لهذا أزورها هذا الصباح، الثلاثة كلها...»

«يجب أن تكون على وعي... قبل أن تكمل، دعني أخبرك يا سيد...

إمم، سيد مانيسكالكو، يجب أن تكون واعيا بأن ما تشير إليه هي عمليات تُعتبر جرائم جنائية خطيرة. وأنا بالتأكيد لن أورط نفسي في شيء كهذا... وهو ما يصل إلى علمي لأول مرة، والآن فقط.»

«مقترحنا، وهو ما نقدمه لك وبنفس الطريقة يُقدَّم للاثنين الآخرين، هو أنه بشرط السرية الأقصى، تتشاركون معنا المعلومات الصادرة عن بروكسل، بينما نعتبركم بمثابة متعهدينا. يمكنكم أن تفعلوا ما تريدون بالمعلومات التي تحصلون عليها، ونتمكن نحن من تنفيذ مسؤولياتنا القانونية فيما يتعلق بالمعلومات التي تصبح متاحة.»

«لكن... أنت تقول لنا.... أقصد، لهؤلاء الذين يقومون باختراق حواسيب السفارة... أنت تقول لهم أن يستمروا... في التجسس...»

«ليس من المقبول أن تبقى وكالتنا جاهلة بما يفعله أي فرع مهم من فروع السلطة التنفيذية... لأنه لو كان الحال كذلك، كيف يمكننا أن نكفل الأمن؟ كان هذا أول شيء علموني إياه في (لانجلي)، حيث -واسمح لي أن أقول لك- حضرت دورة تمهيدية لمدة ستة شهور تغطي أحدث الإجراءات والتقنيات.» بينما كان يقول هذا، وقد ضم أطرافه في جلسته بركن الأريكة، وبتعبير جليل على وجهه الثعلبي؛ لمس السيد مانيسكالكو عقدة ربطة عنقه ذات اللون الأزرق الفاتح. كان عليها، كما لاحظ برتراند، تصميم رمزي صغير، لم يستطع تمييزه. «أنا لا أتوقع ردا فوريا منك. لكن من فضلك فكر فيما قلناه، وعندما وإذا فهمت أن هناك سببا لتعاوننا في هذا الموضوع... اتصل بي.»

«أين؟»

«على الرقم الموجود في البطاقة التي قدمتها لك.»

«لقد قطعتها للتوّ.»

«أتقصد أنك لا تتذكرها؟ طيب لا بأس، اكتبها.» أجابه الموظف العمومي في صبر.

طاف برتراند بالفوضى الشاملة في مكتبه، بحثا عن قلم وورقة؛ وعندما كان على وشك الاستسلام، اكتشف قلما رصاصا وتقويما باهتا في ركن مليء بكتالوجات الأجهزة الرقمية. وإلى أن وجد بغيته، حاول تصيد معلومات قد تكون ذات نفع. «أتعرف؟ عندما دخلت إلى هذا المكتب، ظننت أنك ستثير مسألة أخرى... مشروع دروسيلا...»

قدم الزائر إلى برتراند رقم الهاتف الذي وعده به، ووقف ونظر إليه من علٍ بعينين مرهقتين. «في الحقيقة..» قال. «كان يمكن أن نناقش هذا الموضوع أيضا... لكن في لانجلي، علمونا أن نركز فقط على موضوع واحد فقط في أي مرة... وما ناقشته معك هذا الصباح له أهمية حيوية. ربمكا يمكننا مناقشة مشروع دروسيلا... في وقت آخر. أتصور أنك تعرف عنه من صديقك بروفيسور ديلينجر...» وامتدت ابتسمته الثعلبية على وجهه وهو يتحدث، كاشفة كل أسنانه المدببة.

«بالنسبة لما ذكرته، لست حاليا في وضع يسمح بتأكيد أي شيء على الإطلاق... كنت أسمع ما أخبرتني به لأول مرة. ويمكنني أن أؤكد لك أنه في سياق مبادراتنا هنا، حرصنا دائما في كويس كوام ألا نفعل أقل شيء يمكن اعتباره غير قانوني.»

«لا تقلق، لقد لاحظت بالفعل هذه النقاط..» رد عليه المسؤول بينما تزداد الابتسامة الثعلبية على وجهه اتساعا. «لكني سأنتظر أن أسمع منك...»

ودع أحدهما الآخر، بعيون مبتسمة وحذرة.

.23

لم يكن لدى المذيع التليفزيوني وقت كثير للتفكير مرتين في هذا اللقاء مع ذلك الموظف الحكومي. فقد اصطف على الفور الزملاء بوني وجيانينو وهاردهيد والآن بوريس أيضا الذي كان قد وصل للتوّ، لرؤيته... بدأ اجتماع مديري ومنظمي كويس كوام متأخرا بعض الشيء. ومنعهم برتراند جميعا من الانخراط في خطب طويلة. مضت المناقشة قُدُما أسرع من المعتاد، حتى لو أن بعض الحاضرين، ومن بينهم هاردهيد، لم يكونوا راضين تماما. ففي رأيهم، لم يكونوا يولون العمل القادم ما يكفي من تفكير جاد. في النهاية، عندما تساءل بوريس إن كان يمكن السماح لجوني ديب بحضور الاجتماع، احتد برتراند بشدة: «وماذا لدى هذا الشخص ليفعله معنا؟ أين هو؟»

أوضح بوريس أن جوني كان في حجرة الانتظار. ظن بوريس أنهم سيقررون معا كيف سيضع معدات مشروع دروسيلا حول حقل الإسخريوطي الليلة.

«قل له أن يأتي..» رد برتراند نافد الصبر. «دعنا نتخلص منه بأسرع ما يمكن. الوقت ينفد.»

ما إن ظهر، حتى اتضح السبب وراء إطلاق اسم جوني ديب عليه. فعلى وجهه، وفي بنية كتفيه ووسطه، وفي المشية المتأنية التي دخل بها الحجرة كما لو أنه معتاد فقط على السير فوق مراكب شراعية تمخر باستمرار عباب المحيط، بدا وكأنه خارج من فيلم من أفلام القراصنة...

صنع هذا تناقضا غريبا للغاية مع الطريقة التي كان يتحدث بها؛ حيث كان لدى جوني ديب ذلك الصوت الرتيب المنخفض لطالب هادئ وموسوس.

حثهم برتراند على الوصول إلى قرار بسرعة. كان عليه أن يذهب في صحبة بوريس وجوني ديب إلى حقل الإسخريوطي بعد الظهر. وسيوضح الاثنان لجيانينو أين يضع جوني ديب أجهزة الاستشعار الرقمية في الممرات المحيطة. وبعد أن ينتهي من وضع أجهزته، سيعتمد على جيانينو في التأكد أنه خلال الليل لن يزعجها أحد. وفي الصباح يمكن لجوني أن يجمع أجهزة الاستشعار ويفعل بها ما يشاء. وهكذا أوصلا جوني إلى الباب.

بنفس السرعة، دفعهم برتراند إلى الاتفاق على أنه بمجرد انتهاء الاجتماع ستنتقل بوني في صحبة هاردهيد وجيانينو إلى زنوبر مع الفريق التقني ويقومون بالتصوير. ومن هناك، يمضي التقنيون لوضع المعدات الضرورية للتصوير الليلي، وفقا للترتيبات التي اتفق عليها هاردهيد وجيانينو. وقبل الغروب بساعة، ستكون أجهزة الإضاءة والصوت وغيرها من المعدات جاهزة. تساءل أحدهم عن تصاريح الشرطة والمجلس المحلي، وتمكن برتراند من تشتيت النقاش حتى نسوا جميعا أمر هذه النقطة. ثارت المشاكل عندما أصر المذيع التليفزيوني على أنه بعد الغروب بساعة لن يبقى أحد في حقل الإسخريوطي غيره هو والتقنيين، وبعد ذلك يغادر هؤلاء الأخيرون ما عدا جيانينو. أحست بوني باستياء بالغ، كانت قد تصورت وجود مخيم لكويس كوام من نوع ما عند أسفل الحقل، لمراقبة الموقف.

«إطلاقا!» هتف برتراند. «لن نخدع مشاهدينا. أريد بالفعل أن أنام تحت أشجار الخروب وحدي تماما... فيما عدا جيانينو...»

«ليست هذه طريقة القيام بالأمور!» ظلت بوني تكرر.

«لا يمكن بالتأكيد أن تكوني هناك!» قال لها. «الليلة سيصل بروفيسور والي أحمد ولن يكون من المنطقي أن نتركه وحده مع بروفيسور ديلينجر وفلورا، تلك اللعوب الساذجة. من الأفضل أن تكوني هناك لتمثلي كويس كوام... وتري كيف يمكننا الاستفادة منه...»

لم تؤد اعتراضات بوني بها إلى أي شيء. حتى عندما تدخل هاردهيد لدعمها. كان برتراند مُصرًا؛ حتى ينتهي التقنيون من تجهيزاتهم يمكنها البقاء لمساعدته في الماكياج الخفيف الذي كان بحاجة إليه من أجل الكاميرات، لكن بعد ذلك عليها أن تتأكد من وصولها إلى المطار في الوقت المناسب قبل وصول والي أحمد.

وعندما ظهر ديلينجر، بالضبط في اللحظة التي حددها له المذيع التليفزيوني، كان كل شيء قد تقرر عمليا. وافق البروفيسور فورا على كل المقترحات التي قُدمت حول كيفية ترتيب البرنامج. لكنه طرح سؤالا بدا غريبا لبوني: «غدا صباحا ستقومون بفحص الفيلم المصور خلال الليل، هل أفهم الأمر على نحو صحيح؟»

«هل تعتقد أن هذا سيكون ضروريا؟»

«سيتوجب على أحد ما أن يلقي نظرة على ما سيحدث.»

«أعتقد أننا سنترك فيلم نومي الليلي إلى الحلقة الثانية.»

«ولو... افترض أن شيئا ما ظهر فجأة...»

«مثل ماذا؟ لن أعرف، سيكون الأمر وكأني لست موجودا، أقصد أني سأكون نائما... أتمنى هذا. وجيانينو... لكن لا بأس، غدا صباحا سنكلف أحدا... لم لا تكون أنت يا جيانينيو؟... بمشاهدة الفيلم كله.»

«هل هناك مشكلة لو أرسلتم لي نسخة منه، حتى أتمكن من رؤيته؟»

كانت تلك أول مرة اليوم يشعر فيها برتراند بالارتباك. «إيه، إيه؟ لا، لا... بالطبع، سنفعل هذا... ستهتم بهذا يا جيان؟»

تبادلت بوني وهاردهيد النظرات، وفي عيونهما نفس التساؤل.

ثم اتفقوا أيضا على القيام بمقابلات قصيرة مع الجمهور غدا صباحا لسؤال الناس إن كانوا يؤمنون بوجود الأشباح، وإن كانوا يعتقدون أن الموتى لديهم تأثير على حيواتنا جميعا نحن الذين مازلنا بين الأحياء، وأسئلة أخرى سيعدها بوريس. واتفقوا أن يوكلوا هذا العمل بموجب عقد إلى استوديو صغير توهم أصحابه يوما ما أن بإمكانهم منافسة كويس كوام، لكنهم فهموا سريعا أن أحدا لا يمكنه منافسته بنجاح. لذا فإن أصحاب هذا الاستوديو الآن سعداء بالعيش على فتات مائدة كويس كوام. بهذه الطريقة، ستكون لديهم مادة كافية يغطون بها حلقتين ويتمكنون من بدء تسجيل الحلقة الأولى بعد غد.

فجأة أدركوا جميعا أن الوقت قد أزف... وعندما أعلن برتراند أخيرا عزمه على إنتاج الحلقة الأولى كاملة من داخل حقل الإسخريوطي، لم يعترض أحد، ولا حتى هاردهيد وجيانينو؛ الذي سيضطر الآن إلى الكدح كالعبيد، لأنهم فيما بينهم سيتحملون معظم عبء العمل. كان واضحا أنهم جميعا عازمون على إنجاز هاتين الحلقتين الأخيرتين من برنامج كويس كوام في أسرع وقت ممكن وجعلهما تحققان نجاحا كبيرا، مهما كان ما يقدمونه فيهما. هكذا كان ينتفع برتراند من إيمان الآخرين به: فعندما تثور أزمة، كان يعرف ماذا يفعل وكيف يفعله. وبمجرد أن يظهر وجهه في الكاميرا، كان يمكنه تحويل أضعف وأكثر المعلومات هراء إلى مادة تثير اهتمام الجمهور بشكل كبير.

بعد ذلك بقليل، ومع انتهاء الاجتماع، اندفعوا جميعا كلٌ في طريق، خاصة ديلينجر؛ الذي أوضح كيف أن وصول والي أحمد سيخلق فوضى في برنامجه البحثي لهذا الشهر...

«أنا بحاجة للحديث معك الآن حالا..» قال برتراند لبوريس. أدخله مكتبه وأخبره كيف أن أنشطته في الليلة السابقة جذبت الانتباه.

«حسنا، لم أتوقع غير هذا..» قال الشاب دون أي أثر لذعر أو قلق. «لكن هل عرفوا من أين جاء الاختراق....؟ أو في أي اتجاه كانت المعلومات تتجه؟ لأن هذا هو صلب الموضوع.» ومع ذلك، كان يبدو مستثارا، غير راض عن شيء ما، كما لاحظ برتراند حتى قبل أن يبدأ اجتماع الإنتاج.

«لا، فهمت أنهم لا يملكون دليلا على أي شيء... لا شيء حول المكان الذي تمت منه العملية، فقط شكوك عمن يمكن أن تكون لديه القدرة للقيام بالأمر.»

«هل أخبرك من يمكن أن يفعل هذا، غيرنا؟ لكن هذا ليس كافيا بالنسبة لهم كي يتخذوا خطوات...»

«انظر، هل لديك أي مشكلة اليوم؟ أنت منحرف المزاج.»

هز بوريس كتفيه وقطب جبينه. «بعد أن أنهينا مناقشتنا ليلة الأمس، استمر الحاسوب في تنزيل المعلومات... لا أعرف إن كنت ذكرت لك هذا من قبل، لكن خطيبتي مارلين، خطر لها أن تذهب للعمل في سفارتنا ببروكسل... فتحت الملفات الخاصة بطلبها ووجدت أنهم سيرفضونها. وهناك ملحوظة تقول من الأفضل عدم إرسال المزيد من الموظفات العموميات الإناث، حيث يوجد منهن ما يكفي بالفعل. هذا ليس صحيحا!»

أظهر المذيع التليفزيوني كل التعاطف الممكن لكنه شجع بوريس

على مباشرة عمله، وطلب منه أن يظل حذرا فيما يخبر به جوني ديب حول أنشطتهم.

وعندما أصبح وحده، فتح برتراند الملف الذي أعده بوريس وقرأ وأعاد قراءة ما وجده الباحث الشاب عن بوتو-رع. كان عليه أن يعترف لنفسه بأنه يحس بالقلق. كان الأمر وكأن شيئا ما يحدث ليزعجه، ومع ذلك لم يعرف ما هو وكيف ولماذا. أسوأ ما في الأمر أنهم لم يتأخروا هكذا أبدا قبل هذه المرة في تسجيل حلقة والانتهاء منها. ولم يخفف عنه كونه يتحمل اللوم كله... لكن لا: لم تكن تلك هي المشكلة الأكبر: كان يشعر بالشكوك تأكله حول إن كانوا قد اتخذوا المنهج الصحيح، إن كان هذا المشروع ينطلق كما ينبغي له، بلا خطر على الإطلاق... خطر؟ لماذا خطرت بباله هذه الكلمة؟ أي خطر؟

كان يشعر بتوتر كبير، لم يكن بمقدوره إخفاء ذلك عن نفسه. اتصل ببوني لكن هاتفها كان مغلقا. اتصل بهاردهيد الذي اندهش من اتصاله.

«كيف يسير بنا الحال؟»

«طيب. لحظة واحدة...» ومرت فترة من الصمت. «تركت الحجرة لأن بوني تجري المقابلة مع القس.»

«هل صورتم اللقطات الأخرى؟»

«ليس كلها. لكن لا تقلق، سننتهي منها. لدينا أكثر مما نحتاج. والأب تيمي يجري مقابلة جيدة جدا. ومن الأفضل أن تعرف... الإعلانات تنهال...»

هكذا لم تكن هناك أي مشكلة في جانب زنوبر. لماذا إذًا كان يأكله القلق بهذا الشكل السيء؟ خطر له أنها ستكون فكرة طيبة لو غادر

المكتب مبكرا. يمكنه الذهاب إلى البيت، وإحضار كيس النوم، وتغيير ثيابه استعدادا لليلة التي سيقضيها في حقل الإسخريوطي، وقبل التحرك لزنوبر سيعود إلى هنا ليرى اللقطات التي صوروها اليوم. وبينما كان يستعد للرحيل، جاءته مكالمة هاتفية من ديلينجر.

«اسمع يا برتراند، كنت أفكر... فيما نقوم به. ثمة سؤال واحد مازلت بحاجة لطرحه عليك. كيف جاءتك هذه الفكرة بأن تقضي ليلة في بستان الخروب؟ أنت لم تخبرني قط بها...»

«هه! كانت إلهاما رقيقا هبط عليّ من السماء... هكذا فقط!» قال برتراند ساخرا.

لم يضحك ديلينجر في المقابل. «ربما سيكون من الأفضل أن نغير الخطط المتعلقة بهذا.»

«ولماذا؟»

«لم تكن هناك تجهيزات كافية لمثل هذه التجربة...»

«هل تمزح؟»

«في هذا الحقل، توجد قوى من الذكريات وتهديدات لا يمكن تجاهلها... أي لا يمكننا تجاهلها.» بدا صوت البروفيسور قلقا للغاية. «قبل أن نواجه هذه القوى، يجب أن نستعد جيدا.»

ضحك برتراند بقوة أكبر، حتى لو كان هناك توتر ما في ضحكه. «ماذا يدور بخلدك يا بروف؟ هل تريدني فعلا أن أترك حيلة كهذه... بينما خلال يومين سنسجل كويس كوام؟ لا تقل لي إنك اعتنقت المذهب الشيطاني؟ وما هذه... القوى ذات التهديدات؟»

«ربما يكون صحيحا..» قال ديلينجر بنبرة صوت لم يسمعها برتراند

منه من قبل. «لكن من الأفضل أن تعرف... هناك مؤشرات جديدة تظهر من التجارب التي أجريها و...»

«هل تقصد التجربة على تلك الجمجمة التي لديك...؟» أكمل برتراند ضاحكا.

كان ديلينجر مازال جادا للغاية. علاوة على ذلك، كان من الممكن سماعه يلهث تقريبا في الجانب الآخر من الهاتف. «ألا تفهم...؟»

«هل تخبرني بأن ألغي النوم الذي جهزت له في حقل الإسخريوطي بسبب بعض الأصداء التي سمعتها تصدر من تلك الجمجمة الخاصة بك؟»

كانت هناك فترة توقف طويلة، ثم قال ديلينجر: «لا، أنا أطلب منك هذا. التزامي بقضية العلم لا يسمح لي بالتمادي إلى هذا الحد.»

«العلم؟ لكن ما علاقة العلم بالموضوع؟ هذا مجرد برنامج تليفزيوني نقدمه وأكسب منه أنا وأصدقائي لقمة عيش طيبة، أتفهم؟... لأن عددا لا بأس به من الناس ليس لديهم أي شيء ليفعلوه بأمسياتهم أفضل من مشاهدتنا نفعل ونقول أشياء سخيفة. وإذا لم يرونا شيقين بما يكفي، لأننا لا نعرض ما يكفي من رجال ونساء يحملون على بعضهم البعض، كأن يمارسون الجنس، هه؟ - أو لا نعرض بعض المصارعة الجيدة، حسنا، سيحولون إلى القنوات التليفزيونية الإيطالية، هذا هو كل شيء. لا أكثر ولا أقل! أعتقد أنك قد تكون بحاجة لبعض الراحة يا بروفيسور. أنت تعمل أكثر من اللازم.»

«نعم، نعم. ربما تكون على حق وأنا أثير الجدل وأغدو مفرط العصبية..» رد ديلينجر. هذا التغير في مزاجه جعل برتراند أكثر قلقا. كان يبدو أشبه بشخص فعل ما يجب عليه أن يفعله ويمكنه الآن أن

يغسل يديه بسعادة من عواقب المستقبل... لكن ترى ماذا يمكن أن تكون هذه العواقب؟

«والآن خذ نصيحتي، الليلة عندما يصل بروفيسور والي أحمد إلى المطار، كلاكما... كأستاذين جامعيين كما أنتما، ومحملان بدراساتكما وكتبكما وحواسيبكما ومعرفتكما الفريدة التي لا تشبه أحدا، نعم أنتما، محشوان كما أنتما بمعرفة أكبر مما كانت لدى سليمان... لمرة وحيدة تناسيا دراساتكما وأبحاثكما وما لا أعرف من أشياء أخرى تفعلونها... واخرجا للعشاء مع فلورا بيتا لوكا التي ستكون في المطار لاستقبال صديقك البروفيسور المصري، وبوني التي ستكون هناك نيابة عني. عاملوهما معاملة طيبة... أين يمكنكما أن تجدا امرأتين مثلهما، قل لي؟... افعلا كما أقول لك، امنحاهما نزهة طيبة، أنتما الاثنان –هل عليّ فعلا أن أنصحك؟– فقط انس تجاربك وعلمك وأي شيء آخر. استرخ.»

«سأتبع نصيحتك يا برتراند، نعم سأفعل..» قال ديلينجر بإذعان. «لكنك لا تعرف والي أحمد. لن ينزعج كثيرا من اقتراحك اللطيف. بالتأكيد هو حاليا واحد من أفضل الباحثين في العالم فيما يتعلق بالفينيقيين... لكن لا تذهب بك الظنون بعيدا بأن والي واحد من (آباء الكنيسة)...»

تمالك نفسه بينما كان يتكلم مع ديلينجر. لكن وهو يقود سيارته عائدا إلى البيت، تساءل برتراند لماذا كلف البروفيسور نفسه عناء الاتصال به، وكأنه يريد تحذيره. ما الذي كان بحاجة لأن يحذره منه؟

صحيح أن كل هؤلاء المشاركين في هذه القصة لا يبدو أنهم يقولون الحقيقة كاملة، أو القصة الكاملة حول نواياهم، لكن من أين كان يأتي القلق؟... نعم، القلق كانت هي الكلمة الصحيحة: كان القلق يعتمل داخل البروفيسور، بالضبط مثلما يشعر به هو يرتفع ببطء داخله. وبمجرد أن

أدرك أنه قد أصبح نكدا أكثر من اللازم، سرعان ما وجد برتراند لنفسه طريقة ليبتهج: قال لنفسه ببساطة أن تتوقف عن القلق، لأن كل شيء كان يتقدم بطريقة مرضية في ظل هذه الظروف. لا بد أن يكف عن القلق...

أول شيء فعله عند الوصول إلى البيت كان القيام بمكالمة بالهاتف المحمول الأسود: «هذه المرة لم أقطع نومك.»

«لا، نحن نستمتع بوجبة فاخرة من الإسباجيتي بالمحار.»

«أخبرني لاحقا عن قائمة الطعام. هل تحدثت إليهما؟»

«نعم، لهذا نتناول الغداء متأخرا هكذا.»

«هل كل شيء على ما يرام؟»

«كل شيء يسير كما أخبرتني بالضبط.»

عندما عاد إلى المكتب من البيت –حيث قام من بين المهام المنزلية الأخرى باختيار ما يحتاجه دون مشاكل كبيرة لقضاء الليلة تحت النجوم– وجد هاردهيد وبوني في الاستوديو. بعد عودتهما من بعثتهما إلى زنوبر، كانا يُشغلان اللقطات التي أحضراها من هناك. مكث ليراها. كانت مقابلة بوني مع دون تيمي تُعرض على ثلاث شاشات.

كان قس أبرشية زنوبر قد اهتم بحلاقة ذقنه جيدا وارتدى ملابس أفضل مما يتذكر برتراند أنه رآها بها في زيارة الأمس. بدا وجهه الناتئ العظام أقرب من أي وقت لرأس الموت، لكنه اكتسى بسمت لطيف، إيروتيكي تقريبا مع التأثير الإضافي للماكياج الذي وضعته بوني عليه. كان دون تيمي مازال يتذكر كيف يتحدث بطلاقة أمام الكاميرا منذ أيام

رئاسته للجنة الكِريا[17] لكذا وكذا. من الطبيعي أن التقنيات قد تغيرت منذ الوقت الذي كان يظهر فيه أمام الجمهور في ذلك الدور، لكن إذا تعودت مرة على الكاميرا، فسيدوم هذا مدى الحياة. ورغم التشنج الذي كان يحدث دائما أسفل كتفيه وفي جانبيّ جسده، بينما كان يجاهد ضد الديدان الشريطية الشيطانية التي كانت تشق طريقها في أحشائه، إلا أنه عندما تركز الكاميرا على وجهه وحده، كان دون تيمي مازال يعرف كيف يقدم عرضا طيبا جدا.

تحدث عن زنوبر، عن الكنيسة وأبناء أبرشيته، عن حقل الإسخريوطي وما حدث هناك في القرن التاسع عشر، عن رحلتيّ الحج اللتين كانتا ستقاما بعد انتحار يهوذا تونًّا، عن الإشاعات التي انتشرت قبل وبعد موت يهوذا عن هذا الحقل الملعون (كما كان يدعوه أهل القرية)، عن الحياة اليوم في القرية حيث كانت الكِريا قد أرسلته ليقوم بمهمته الكهنوتية. تحدث بطريقة معقولة، لكن في نقاط كثيرة كانت كلماته تحمل معنى خفيا ما. أدرك المذيع التليفزيوني أن دون تيمي كان يستخدم كويس كوام لتحقيق بعض الأهداف الشخصية، لكن هذا لم يزعجه. فأهم نقطة بالنسبة له كانت أن يحصلوا على أداء جيد من القس.

ومع هذا، تسرب قلق غريب. تابع عن قرب ما كان يقوله القس، وظل هادئا عندما اقترحت بوني أن يعيدا تشغيل المقابلة ووافق هاردهيد (لم يكونا قد لاحظا بعد أن برتراند قد انضم إليهما في الاستوديو). وبينما كان يتابع مرة أخرى شرح دون تيمي، تزايد قلقه... كان هناك شيء غير معتاد... أو بالأحرى، شيء مفقود... فيما كان يقوله القس. ترى ماذا يمكن أن يكون؟ وبعد أن فشل في الإجابة على هذا السؤال، برز لديه انطباع آخر: كان دون تومي خائفا من شيء ما. ليس فقط أنه لم

17- Curia: هيئة رسمية تحكم كنيسة معيّنة في الكنيسة الكاثوليكية.

يكن يقول الحقيقة كاملة (ومرة أخرى: من على الأرض يمكنه أن يفعل هذا أصلا؟)، لكنه كان أيضا مرعوبا من شيء ما... مرعوب بشدة. لكن مرة أخرى: ماذا يمكن أن يكون؟ بالتأكيد لم يكن خوفا من أن يقوم رجال الكِريا بتغريمه على ما سيقوله في كويس كوام. فبما أن قراره كان أن يتحدث بالطريقة التي تحدث بها، لا بد أنه فكر وقرر ما سيقوله بالضبط. لا، كان دون تيمي مرعوبا لسبب آخر. وفي الوقت نفسه، ربما كان برتراند وحده من يتخيل تعقيدات ليست موجودة في الواقع. في النهاية، قامت بوني وهاردهيد بتصوير هذه اللقطات وبالتالي يعرفان جيدا ما حدث. وكانا راضيين للغاية عما عادا به. وعندما ذكر دون تيمي رحلتيّ الحج بعد انتحار يهوذا توًّا في بستان الخروب، قالت بوني لهاردهيد: «هل تعلم أن بوريس تمكن من العثور على صورة قديمة لاجتماع ناقشوا فيه كيف ينظمون رحلات الحج هذه؟»

«هل سنستخدمها؟» سألها هاردهيد.

«ما رأيك؟» قالت ساخرة.

لكنهما فزعا عندما قال برتراند بصوت عال: «لدينا ما يكفي من المادة للعمل عليها بعد غد. هل قبل ديلينجر إجراء مقابلة شخصية؟»

«لم يرد بعد..» قالت بوني. «هل تحدثت معه؟»

«من الأفضل ألا أذكر الموضوع له بنفسي. افعلي أنت هذا... دعيني أخبرك متى: الليلة، عندما يصل والي أحمد...»

«اسمعني إذًا..» نخرت بوني. «أنا لن أذهب إلى المطار. دع فلورا بيتا تذهب واترك مؤخرتي! لن أذهب. وبدلا من ذلك، سأكون في أجازة، طالما أنك لا تريدني أن أكون في الحقل الليلة.»

«توقفي عن الغباء. عليك ليس فقط أن تذهبي، بل لا بد أن تلتصقي بالبروفيسور أحمد حتى يقبل أن يجري معنا مقابلة... بحيث تكون معنا في الحلقة الثانية. أنت ستجرين معه المقابلة. أدخلي في القصة ون-آمون وبوتو-رع وكل هذه الحكايات عن الفينيقيين وما يعن لك. علينا أن نبدأ خلطها في سرديتنا، وإلا ستكون مهمة شاقة أن نملأ حلقتين بيهوذا تونًّا فقط... هل تفهمين؟»

أخيرا، باستخدام بعض البلاغة الرقيقة، تمكن من إقناعها.

.24

معا غادرا إلى حقل الإسخريوطي. ركب جيانينو في سيارة برتراند.

«أنا لم أسأل من قبل، لكن الآن ونحن وحدنا: هل تريد أن يكون أحد معك الليلة أم لا؟» قال المذيع التليفزيوني.

«أنا بخير وحدي. لسنا بحاجة لمزيد من الناس.» بدا جيانينو متعبا، وعندما أخبره المذيع التليفزيوني بذلك، قال له: «أنا لست متعبا في الحقيقة، أنا قلق فقط. وفي مشكلة كبيرة. افتعلت دونًّا شجارا كبيرا آخر ليلة أمس بعد أن تركتك. تريدني أن أبدأ في إنقاص وزني بأي ثمن، كما تفعل. إنها هبة من الله أن هذا البلد ليس به طلاق وإلا لكانت قد رفعت عليّ دعوى بالفعل. وإنها لهبة أخرى من الله أن الأساقفة لم يسمحوا بالطلاق؛ لأنه لولا ذلك لحدثت كوارث في عائلاتنا.»

«افعل ما تقوله لك. سيفيدك هذا. من أجل صحتك، وكذلك من أجل مظهرك.»

«لقد أصبح التمييز ضد من في وضعي فظيعا. هذا ليس عدلا. والآن بسبب هذا، نرى أيضا زيجات جيدة تنهار.»

«كم كنت مخطئا حينما اعتبرتكما دائما أنت ودونًّا مثل باباجينو وباباجينا[18].»

18- شخصيتان في أوبرا الناي السحري لموتسارت يتزوجان في نهايتها.

«لا تذكر الطعام الإيطالي أمام دونًّا الآن!»

وجدا كل الآخرين متجمعين في الحقل. وعندما حل الغسق، كان قد جرى ضبط نظم الإضاءة والصوت للمرة الأخيرة. أوقف بوريس المذيع التليفزيوني وهو في طريقه إلى قمة الحقل، حيث تقف أشجار الخروب. كان جوني ديب معه، أو هو من ظنه برتراند الشاب الآخر، حيث كان ضوء النهار ضعيفا جدا بالفعل.

«هل أجهزة الاستشعار الخاصة بمشروع دروسيلا في مكانها؟» تساءل.

«لا تقلق يا ريّس..» قال بوريس. «لكن انظر هنا، دعني أريك ما وجدته...»

سار برتراند وراء الشاب؛ كانا قد صعدا حوالي ثلاثة أرباع الطريق إلى أشجار الخروب وسارا الآن إلى الجانب نحو الجدار الصخري حيث كان جيانينو قد وضع معداته. انضم إليهما هاردهيد شاعرا بالفضول. انحنى بوريس ليرفع غطاء كبيرا من الأرض. كان مصنوعا من الخشب والحديد، ومحاطا بشجيرات العليق. تحته كانت هناك حفرة مظلمة مستديرة. «واو! إنها فتحة بئر..» هتف المذيع التليفزيوني. «ستجد حقولا كثيرة بها هذا النوع من الفتحات فوق الآبار. يكون الأمر فظيعا عندما يتركونها مكشوفة ويحدث أن يسقط طفل ما في الفتحة. لقد حدث هذا عدة مرات في إيطاليا وقدموا برامج إعلامية مدهشة عن مثل هذه الحالات... إنها من بين المشروعات التي تجتذب إعلانات كثيرة...»

أضاء هاردهيد المصباح اليدوي الذي يحمله معه، وجثا على ركبتيه وأدار الشعاع داخل الحفرة. بدت عميقة جدا. «لا أرى أي ماء..» قال. «وهناك رائحة غريبة تنبعث منها... لقد شممت هذه الرائحة بالفعل في

مكان آخر...»

«لم يسقط مطر كثير هذا العام. مع الجفاف، تغدو روائح الريف لاذعة جدا. من الأفضل أن نكمل عملنا، لأن بوني تدعونا.»

فعلوا ذلك. وتحت أشجار الخروب، كانت الأضواء قد أنيرت بالفعل. وكان كيس النوم الذي نوى برتراند أن يقضي فيه الليلة مفرودا في منتصف قطعة الأرض المكشوفة. كان أول شيء فعله هو فحص أين وضعوا كيس النوم، لكنه ترك كل شيء كما وجده.

«على الأقل سأنام مبكرا الليلة..» قال لبوني التي كانت تتأكد أن ما اتفقوا عليه كان يتم. «وفي هذه الأثناء، ستكونين في حالة استرخاء وتستمتعين مع والي أحمد. متى سيأتي هذا الرجل؟»

«في موعده..» أجابته بفظاظة.

كان المساء يتحول سريعا إلى ليل، وثمة نسيم عليل نشر روائح الريف الخفيفة اللطيفة في كل مكان. ولم يكن هناك أي أثر للرائحة التي قابلها جيانينو والمذيع التليفزيوني ليلة الأمس. وأعلى رؤوسهم، كانت الأغصان وأوراق الخروب توشوش بإيقاعات تهويدة، بدت أهون بكثير من الضجة التي كانت ترجها في الليلة السابقة.

رفعت بوني عينيها، مقطبة أكثر بكثير مما كانت من قبل. «هل تعلم أنك ستكون مباشرة تحت فرع الشجرة الذي شنق يهوذا نفسه عليه؟» تساءلت.

«أليس هذا ما أردناه؟»

«لمَ لا نضع كيس النوم إلى الجانب قليلا؟ لن يلاحظ أحد.»

ضحك من مخاوفها وأصر على عدم تغيير أي شيء. وُضع مقعد

أسفل مصباح. وببضع لمسات ماهرة، وضعت بوني الماكياج على وجه برتراند. «إنها أول مرة في حياتي أنام فيها والبودرة تلطخ وجهي.» قال متبرما.

رفعت حاجبيها وهزت كتفيها غير مصدقة.

حل الظلام تماما. أخيرا، كان القمر يرتفع بين السحب. تأكد هاردهيد مع جيانينو والتقنيين الآخرين أن كل المعدات حيث ينبغي لها أن تكون. أجروا اختبارا آخر على الميكروفونات، والكاميرات، والشاشات التي سيستخدمونها، خاصةً الجهاز الذي سيبقى قريبا من المكان الذي سينام فيه المذيع التليفزيوني؛ حتى يتمكن إن أراد من مراقبة الصور التي تلتقطها الكاميرات. مضى برتراند تحت أشجار الخروب، حيث خلع ملابسه وارتدي الزي المموه وفوقه الكيمونو الذي اشتراه منذ سنين عديدة ولم يرتده أبدا. ضحكت بوني وهاردهيد كالمجانين عندما شاهداه. تجاهلهما تماما ودخل بوقار مثالي كيس النوم وتمدد على الأرض. وكانت هذه إشارة لهم جميعا كي يخلوا الحقل.

وسرعان ما كان برتراند وحده تحت غصن شجرة الخروب الضخم االذي شنق يهوذا تونًّا نفسه عليه منذ سنين عديدة. في مكان ما في الظلام المحيط، كان جيانينو والتقني الذي استبقاه معه قد بدآ يصورانه. وخلال وقت قصير، كان التقني سيغادر المكان. تأرجحت غصون وأوراق البستان وخشخشت فوق رأسه. والطبقة الرفيعة من السحب التي كانت تخفي القمر حتى الآن انزاحت نحو الأفق. أدركته أشعة الضوء الفضي متسللة من بين الأوراق. كانت الكاميرات التي ستصوره نائما يعاد ضبطها لآخر مرة للتأكد من أنها ستلتقط بشكل صحيح صورة مقربة له، حتى في الظلام.

سمع صوت محركات سيارات تهدر. كانت بوني وبقية الفريق

يسرعون مبتعدين عن المنطقة. بدا كيس النوم الذي احتواه مريحا فعلا؛ وبدت الأرض ناعمة الملمس في أغلبها. توقع أن يكون تحت رحمة البعوض، وتزوَّد في الحقيبة إلى جواره بأنبوبة كريم واق ضد لدغاته. لكن رغم أن الليلة كانت معتدلة الجو، إلا أنه يبدو أنه لم يحل بعد موسم البعوض. سمع محرك سيارة أخرى يهدر مبتعدا؛ لا بد أن جيانينو قد صرف التقني الأخير بالفعل. وبدلا من أن يكون مصدر إزعاج له، كان الحفيف المستمر فوق رأسه مهدئا في الحقيقة. ذكَّره بأيام كانت أمه تغني فيها من أجله تهويدة قديمة.

بطريقة أوتوماتيكية تقريبا، بدأ يراجع في ذهنه أحداث اليومين الماضيين. كان الرجل الذي تجلى أغلب الوقت في هذه المراجعة هو دون تيمي، وما قاله وما لم يقله في مقابلته مع بوني. *كان هناك شيء من الخوف تجلى في عينيه وهما تدوران وتحدقان بينما كان يتحدث...* وكان هناك أيضا ما قاله بالفعل: رغم أن برتراند لم يستطع أن يفهم ما أزعجه في تصريحات القس: لقد ناقش تاريخ الكنيسة التي كان مسؤولا عنها... وتاريخ زنوبر... وتاريخ يهوذا تونًّا... زنوبر واحدة من قرانا التي سمحنا لها بالانقراض... والآن كل ما لدينا هنا من سكان دائمين هم سبعة أشخاص، فيما عداي... هناك آل تونًّا، والزوجان توباه... وهما شخصان عجوزان يعيشان وحدهما... ثم هناك أرملتان عجوزتان ترفضان أن تغادرا الكوخين اللذين عاشتا فيهما دوما... لكن هؤلاء الذين كانوا يعيشون في الماضي في زنوبر مازالوا يذكرون ومازالوا يحافظون على اسم هذه القرية التي كانت في شبابها تشغل موقعا مجيدا... ليس هناك شيء غريب في تفسيرات دون تيمي: لماذا إذًا انتابه ذلك الإحساس بأن شيئا فيها كان غير صحيح؟

في النهاية، كان الليل مازال في أوله. نهض برتراند جالسا، وفتح الحقيبة التي أحضرها معه (والموضوعة بطريقة استراتيجية في

الجانب البعيد عن الكاميرا) وأخرج كتابا وزجاجة نبيذ بارولو 2004، مع كأس جاهز للاستخدام الفوري. ستكون فكرة جيدة أن يقضي بعض الوقت في قراءة جزء من الرواية الأخيرة لنورمان ميلر... سيتصفح سريعا الفصول الثلاثة الأولى ليتمكن من إثارة الموضوع خلال حفلات الكوكتيل في الأسبوع القادم بينما يعطي لهم الانطباع أنه قرأها كلها. من بعيد، تناهى إليه صوت كلب ينبح... بعيد جدا حتى أنه يمكن أن يكون قريبا من كنيسة دون تيمي. تساءل ترى ماذا يفعل جيانينو هناك في أسفل حقل الإسخريوطي، في الخيمة الصغيرة التي نصبها... ربما يلتهم الطعام الذي أحضره معه، ومن يعرف إن كان قد جعل دونًّا تلاحظ ما حمله إلى هنا ليسكت عضات الجوع الذي كان من المؤكد أن يحس به مرة أو مرتين خلال الليل. كان كلب آخر قد بدأ في النباح، وكان نباحا أقرب إلى الأنين، وهذه المرة من مسافة قريبة إلى حد ما... الغريب، أنه بدا كما لو كان من تحت الأرض. ثم توقف النباح.

كان ضوء القمر مازال في كل مكان، والغصون فوق رأسه مازالت تخشخش برقة. شرب كأسين من بارولو وكانا كأسين من الجنة؛ كان محصول العنب الذي صنع منه هذا النبيذ، في موسم 2004، محصولا عظيما. كان يمكن سماع أصوات شاحنة أو سيارة ڤان، أو شاحنات وسيارات ڤان، تسير على طول الطريق الساحلي أسفل الحقل. وعندما قرأ برتراند ما يكفي من رواية نورمان ميلر (التي لم تعجبه) شعر... وهذه ليست مزحة!... بالنعاس. عبَّ نصف كأس آخر من نبيذ بارولو، ثم أعاد الكتاب والزجاجة والكأس في الحقيبة من جديد وتأهب للنوم. كان يعرف أن لقطاته وهو يشرب ويقرأ سوف تُحذف من الشريط الرئيسي.

عندما تمدد راقدا، ظلت أوراق الخروب فوقه وحوله تخشخش... وغطت ظلال فضية البستان المقدس كنقوش في سجادة. سقط برتراند في نوم عميق. ونهض بعد الفجر مباشرة. كان المكان رطبا وروائح

الندى تحيط به من كل جانب. لقد مضى زمن طويل منذ نام نوما طيبا كهذا. وعندما نظر أعلاه مباشرة، تركز بصره على الغصن الذي شنق يهوذا تونَّ نفسه عليه. وعلى الفور، غفا مرة أخرى.

25.

... إن كان برتراند نام طويلا وبراحة تامة خلال تلك الليلة، فمن الصعوبة أن يقال نفس الكلام عن بوني وفلورا. فقد قضيتا وقتا أكبر مما توقعتا في صحبة بروفيسور والي أحمد، في مباراة بلا قواعد أو حدود حول من منهما ستحقق أفضل النتائج معه.

في البداية، تطورت المؤامرة على طول الخطوط التي توقعتها كلتاهما. لم تكن فلورا سعيدة بأن برتراند أوفد بوني لتأتي وترحب بالبروفيسور بدلا منه في المطار. ربما تخيلت أنهما بعد أن يتخلصا من والي أحمد، سيجدا وقتا للذهاب إلى شقتها، حيث كانت تتمنى الاستمرار في قراءة مقتطفات من روايتها، التي كانت قد دخلت مرحلة دقيقة من التأليف وكانت في حاجة حقيقية لنصيحة صادقة من صديق. وصادف أن أمها غدت على وفاق من جديد مع ساندر وخريستو، وأخذتهما ليناما في بيتها الليلة. ومع ذلك، بما أن برتراند أصر على أن يقوم بالتصوير طوال الليل، لم يكن هناك شيء بمقدورها أن تفعله حيال هذا، رغم أنها كانت مازالت غير مقتنعة بأمر التصوير. على الأقل حقيقة أنه أرسل بوني لتحل محله يمكن أن تشير إلى أن التصوير الليلي لم يكن عذرا لأمسية رومانسية ما مع بوني، التي كانت فلورا متأكدة أنها ليست مجرد نائبة لبرتراند، لكنها كانت تقوم كثيرا بأدوار أخرى. وعندما وجدت بوني منتظرة بالفعل في صالة المطار حيث يهبط المسافرون القادمون، تفحصتها من أعلاها إلى أسفلها بابتسامة انتشرت كالثلج على وجهها كله. اعترفت بأن بوني جاءت إلى هنا في ثياب أنيقة عصرية، لا شك في

ذلك، لكنها بالتأكيد كانت مازالت في ثياب العمل.

رحبت بوني بفلورا مبتسمة ابتسامات طافحة بالبهجة الزائفة عند التقائهما، وهي تتفحصها أثناء ذلك بنفس الدقة الانتقادية التي استعملتها الثانية في نظرتها لها (استنتجت أن فلورا جاءت إلى هنا مباشرة من البيت وبدت أكثر انتعاشا منها بكثير). كان لديها اهتمام قليل بقضاء الوقت مع فلورا، واهتمام أقل بهذا الوالي أحمد. كانت صالة المطار فارغة تقريبا إلا من بعض ممثلي وكالات السفر ينتظرون وصول الطائرة. كان أحمد قادما في رحلة طيران مباشرة من الإسكندرية.

«رحلات الطيران الإسلامية منخفضة التكلفة ليست ناجحة..» قالت فلورا، لخاطر أن تقول شيئا.

«ستصل الطائرة في موعدها على الأقل، وفقا للشاشة..» ردت بوني.

بدأتا تتناقشان حول إيجابيات وسلبيات شركات الطيران التي تزعم أنها تأخذك إلى وجهتك بسعر رخيص. «رحلات الطيران منخفضة التكلفة من الإسكندرية مع شركة آربيان آير تجد القليل من الزبائن..» أعلنت فلورا، لأنه لم يكن لديها شيء آخر تقوله. ثم لحسن الحظ بدأ هاتفها المحمول في الرنين وأمكنها أن تبتعد عن بوني، رغم أنها كانت تخشى أن تكون... وكانت على حق: أرادت أمها ان تسألها بعض الأسئلة عن أفضل طريقة لإلباس ساندر وخريستو في صباح الغد، وما هو أفضل شيء للإفطار قبل أن تأخذهما إلى المدرسة. انتهزت بوني الفرصة لتتصل بزميليها، هاردهيد وجيانينو، وتطمئن على العملية في حقل الإسخريوطي. رغما عنها كانت تشعر بالقلق، دون أن تعرف السبب حقيقةً.

عندما وصل بروفيسور ديلينجر... مهرولا لأنه كان متأخرا... وجد

الاثنتين تتحدثان في هاتفيهما. لم يكن هناك أي إعلان بعد عن وصول الطائرة القادمة من الإسكندرية. عند رؤية البروفيسور، تجمدت المرأتان خوفا من أن يستتبع ذلك الآن محادثة طويلة معه عن مفاهيم علمية لا تهمهما على الإطلاق، خاصةً في هذا الوقت من اليوم. ومع ذلك، بعد تحيته لهما، بدأ بروفيسور ديلينجر يجري مكالمات على هاتفه، حيث أخذ يتعارك مع شخص ما كان عليه أن يمده بمحولات إلكترونية ذات موديل معين، لكنه فشل في إيصالها. أصبحوا مثلثا من أشخاص لا يتحدث أحدهم إلى الآخر، بل إلى الجهاز الملصق إلى آذانهم، مجتذبين إلى حيث وقفوا آخرين من بين الحشد المنتظر كانوا بحاجة أيضا للتحدث في الهاتف. وسرعان ما تجمعت هناك مجموعة كبيرة من الرجال والنساء الذين كانوا يثرثرون في هواتف ملصقة بآذانهم مع أشخاص موجودين في أغلب أجزاء البلد وما وراءها.

ومع ذلك جاء وقت كان فيه على هذه الثرثرة أن تنتهي. وجدت فلورا وبوني وبروفيسور ديلينجر أنفسهم منتظرين معا طائرة ستصل قريبا وعليهم أن يقولوا شيئا لبعضهم البعض.

لحسن الحظ، جاء إعلان بأن رحلة آربيان آير من الإسكندرية قد هبطت. وبدا أنه أطلق ألسنتهم.

«لقد أرسل السيد مالكولم أوروري أطيب أمنياته لبروفيسور والي أحمد..» قالت فلورا. «وهو يأسف لعدم تمكنه من المجيء لمقابلته، لكنه لم يستطع في هذا الوقت القصير إلغاء زيارة عمل يقوم بها في صقلية. ومع ذلك، لقد حجزنا حجرة للبروفيسور في الفندق البونيقي خارج فاليتا. ستعجبه.»

«باسم كهذا لا بد أن تعجبه بالتأكيد..» ضحك ديلينجر. لكنه بدا قلقا من شيء ما. «هل بدأتم هناك؟» وجه سؤاله إلى بوني.

«كنت هناك قبل أن آتي إلى هنا..» ردت بوني. «وكان برتراند على وشك الذهاب للنوم.»

انتبهت فلورا وأصاخت السمع.

«آمل أن يكون كل شيء بخير..» قال، وظنت بوني أنه يبدو مغلوبا على أمره على غير العادة ويفتقر الحماس الهادئ الذي كان يحمله معه دوما.

«ما المشكلة التي يمكن أن تحدث؟»

هز كتفيه ولم يرد.

«ماذا يحدث إذًا؟» تساءلت فلورا وقد غلبها فضولها.

«نحن نصور برتراند نائما ليلة في حقل معروف بكونه مسكونا بالأشباح.»

«هذا وصف مشكوك فيه لحقل الإسخريوطي..» احتج ديلينجر.

فقدت فلورا قدرتها على التركيز ولم يكن فضولها ليسمح لها طبعا بأي سلام، لولا أن ركاب آربيان آير بدأوا في الخروج.

«ها هو والي..» قال ديلينجر.

لو كانت المرأتان خائفتين من أنهما على وشك قضاء بضع ساعات من الملل، فقد تأكد اعتقادهما بمجرد أن رأتا الرجل السمين المائل للقصر المرتدي صديريا رماديا فوق قميص طويل أبيض وذا اللحية الطويلة البيضاء أيضا والنظارات الكبيرة السوداء والعمامة على رأسه، الذي كان يدخل صالة الوصول. للحظة، نسيتا النفور الذي تتقاسمه إحداهما تجاه الأخرى وتبادلتا النظرات بحواجب مرفوعة عاليا. ثم تبعتا

ديلينجر الذي خطا سريعا عبر الصالة بابتسامة كبيرة على وجهه. وصل إلى الرجل السمين المائل للقصر المرتدي صديريا رماديا وعمامة، الذي ابتسم له، وبدلا من الترحيب به، أكمل طريقه إلى المسافر التالي القادم خلف الرجل، وصافحه. توقفت المرأتان واتسعت عيونهما.

كان الشخص الذي يحيي ديلينجر طويلا، بالغ الأناقة، بوجه شاب لوحته الشمس قليلا، لكنه مع ذلك يحمل خطوط الخبرة والنضج. كان لديه شعر طويل أسود، وكتفان عريضان، وبالفعل مظهر رجل يمتلك ثقة تامة في نفسه وسلطة طبيعية، تبدت في الابتسامة القوية على شفتيه وفي عينيه السوداوين الضاحكتين. تحدث بلكنة أمريكية مع ديلينجر الذي التفت ليقدمه إلى بوني وفلورا.

«شكرا لقدومكما لاستقبالي..» قال وقد أحاطت ابتسامة صادقة واسعة بأسنانه الجميلة التي التمعت كما لو في إعلان لمعجون أسنان. «ولقدومكما في هذا الوقت من اليوم...»

ردت فلورا: «يشرفني الترحيب بك في بلدنا يا بروفيسور، نيابة عن المعهد الوطني للثقافة وعن رئيسنا دكتور مالكولم أوروري.» وكانت ابتسامتها واسعة كابتسامته.

«واسمح لي..» تدخلت بوني. «أن أرحب بك نيابة عن... إمم، برنامج كويس كوام الوطني ومخرجنا المحترم برتراند الذي كان يود أن يأتي ويحييك شخصيا، لكن منعته من ذلك واجبات مهنية هائلة يقوم بها الآن حالا.»

«كل شكري لك يا سيدة بيتا لوكا وللبروفيسور أوروري..» قال والي الذي بدا أن لديه قدرة كلية فورية على تذكر الأسماء التي تقال في حضوره. وحوَّل نفس الابتسامة التي منحها لفلورا نحو بوني. «كل

شكري لك أيضا مدام بوني. أنا أعرف بعض الأشياء عن التجارب في الطبقة التحتية الفينيقية التي يجريها حاليا بشجاعة فائقة برتراند صاحب السعادة.»

ألقت فلورا على الثلاثة الآخرين نظرة باردة. فقد أدركت أنهم يعرفون شيئا تجهله تماما...

«هل أحضرت معك المعدات يا والي؟» تساءل ديلينجر، نافد الصبر قليلا. «كان من المفترض إبلاغ رجال الجمارك بكل شيء وبالتالي ينبغي ألا تحدث أي مشكلات. أحيانا بسبب الشنجن، يكون هناك ارتباك فظيع.»

«لا تقلق يا صديقي، قمت باللازم، نعم نعم. أرسلوا لي هذه الرسالة من (صندوق أبحاث دبي): لديك السلطة الكاملة للقيام بما تعتقد أنه الأفضل وسندفع نحن... نحن نثق بك في كل شيء! وشركة الطيران تلك منخفضة التكاليف... سيفعلون كل شيء من أجلك لو دفعت لهم ما يطلبون... انظر...» قال والي، ملتفتا ليشير إلى فنيين من شركة آربيان آير يرتديان زيا موحدا مكونا من سترة سوداء على بنطال رمادي وقبعة خدمة تحمل شعار شركة الطيران: نسر بثلاثة مناقير. بينما كان والي يتكلم، كان الرجلان قادمين مع آخر الركاب، دافعين عربة حملت حقيبة جلدية ضخمة. «كل شيء موجود هنا!»

«أحسنت، تهانيّ! معي شخص ينتظر في الخارج، لذا فإن كل ما نحتاجه هو أن نشحن المعدات ونأخذها إلى المختبر.»

«سأترك الترتيبات لك.»

خطا الأربعة خارجين من صالة الوصول، مع الفنيين اللذين كانا يدفعان العربة أمامهم. بدا أنهما يبذلان الكثير من الجهد لأنها كانت

شحنة ثقيلة جدا. لم تلاحظ بوني ولا فلورا هذه المشكلة ولم يكن من الممكن أن تهتما بها أدنى اهتمام؛ لأنهما كانتا تركزان على والي أحمد الذي كان انتباهه مركزا كلية في اتجاههما.

«إذًا كيف يسير المعرض عن الحضارة الفينيقية؟» وجه أحمد سؤاله إلى فلورا. «يجب أن أقول إني معجب بكم كثيرا بسبب المبادرة التي قمتم بها... حتى الآن، لم يقم أحد إلا مدينة فينيسيا بمحاولة إقامة معرض يقترب من أهدافكم الطموحة... لكن التراث الفينيقي لفينيسيا تافه مقارنة بتراث مالطا... نعم، ضئيل، ناهيك عن أنهم يظلون محكومين أكثر من اللازم بنفوذ بروفيسور موسكاتي... رغم أنه في هذه النقطة، يا مدام، لا أريد أن يساء فهمي، لأن لديه مزايا هائلة في حد ذاته... حتى لو كان اليوم يُنظر إليه باعتباره... كيف أقولها...»

هزت فلورا رأسها مرتين برقة وعذوبة لتبين كم تتفق مع ما يقوله والي.

وتوجه إلى بوني: «سوف أتابع عن قرب نتائج التجارب الشجاعة التي تقومون بها. إن القرار الذي اتخذتموه بإطلاق المجموعة كاملة في قالب برنامج تليفزيوني جماهيري يركز على بستان مقدس، حركة بارعة. مرة أخرى، وفي إطار قالب اتصالي حديث، تنفخون الحياة في تراث بُني على قوة الاستحضار، التي ترعرعت في المدن الفينيقية المكرسة لعبادة بعل، في تجسده باعتباره الحامي الجبار للأمة الفينيقية. بمجرد أن سمعت بنواياكم، أخبرت صديقي العزيز ديلينجر: الآن ليس من سبيل آخر، يجب أن آتي إلى مالطا. تهانيّ!»

تمتمت بوني بشيء ما عن كيف كان برنامج كويس كوام يقدم دائما أفضل خدمة يمكنه أن يقدمها للمشاهدين من أهل مالطا وجوزو.

بالتأكيد لم تفهم فلورا ولا بوني حقيقةً كثيرا مما كان يقوله البروفيسور، لكنهما أحستا بالفخر لأنه يخاطبهما بهذه الطريقة. بالفخر والسعادة. فقد جعلهما تشعران بأنهما قد أصبحتا جزءا من برنامج عمل كبير كان يثير اهتماما ضخما على جانبيّ البحر المتوسط وفيما وراءه. وبالنظر إلى ما كان يقوله والي، خمنتا أنهما الآن وكيلتان رائدتان في مشروع يخلق أمواجا متسعة من الإشادة الدولية. وفوق كل هذا، كانتا سعيدتين بالحصافة والاحترام اللذين احتفظ بهما البروفيسور القادم من الإسكندرية في نظرته الملاطفة بينما يتحدث إليهما.

كانوا قد وصلوا الآن إلى الشرفة المسقوفة خارج المطار. اقتربت منهم سيارة مستأجرة وساعد البروفيسوران في نقل الحقيبة الضخمة إليها، الحقيبة التي كان الفنيان من شركة آربيان آير مازالا واقفين يحرسانها. انطلقت السيارة مبتعدة عن المطار بسرعة هائلة، على ما يبدو في اتجاه مختبر ديلينجر في الجامعة. وغادرت سيارة ألفا روميو سوداء المكان الذي كانت واقفة فيه وأسرعت أيضا خارجة من المطار. لم يلاحظ والي أحمد وفلورا وبوني شيئا. لكن ديلينجر التفت وتابع بنظرة حادة السيارة الألفا روميو التي بدا أنها تلاحق السيارة التي استأجرها الليلة لنقل المعدات الثقيلة في حقيبة أحمد الجلدية...

«والآن سنأخذك بعد قليل إلى فندقك..» قالت فلورا. لو كان برتراند يستمع للاحظ أنه ليس اثنين ولا ثلاثة، بل أربعة عصافير زينة كانت تغرد في صوتها. «لن نريد أن نبقيك... لأنك متعب بالتأكيد، أتصور هذا.»

«على العكس..» ضحك والي أحمد. «نادرا ما شعرت بهذه اللياقة الطيبة. طالما أني لا أسيء استغلال لطفكم... لكني أود أن أدعوكما... نعم من فضلكما، تعاليا للعشاء معنا، إذا كان هذا ممكنا. نحن الشرقيون...

وصدقاني، أنا لا أستخدم هذا التعبير بالمعنى الذي سلط عليه إدوارد سعيد الضوء... (نطق كلمة oriental بلكنة أمريكية منحتها طعما حادا لذيذا)... نحن معتادون على تناول وجبتنا الكبيرة بينما نستمتع بالحياة مع أصدقائنا... خلال الساعات الأخيرة من اليوم التي تكون دائما تقريبا في شرق البحر الأبيض دافئة بشكل خانق...»

ليس على المرء أن يثقل هذا السرد بتفاصيل أكثر من اللازم عما حدث في الساعات التالية. بمجرد وصولهم إلى الفندق البونيقي، صعد والي أحمد إلى غرفته ليضع فيها متاعه الذي أحضره معه، وبعد ذلك نزل فورا مرة أخرى ودعاهم إلى مطعم الفندق لتناول لقمة. وأكلوا جيدا للغاية.

بدأوا بالمقبلات، التي طلبها والي أحمد مرة أخرى بينما كان يصف لهم كيف أن بعضها كان يُطبخ في زمن الفينيقيين واستمر يتطور أكثر على مر القرون بواسطة الرومان والنورمانديين والبربر الذين أضافوا جميعا مكونات جديدة. كانت فلورا مفتونة للغاية حتى أنها نسيت تماما أن تسأل عما إذا كان المعهد الوطني للثقافة هو من سيدفع الفاتورة. طلبت المرأتان جمبري ملوكي وبتشجيع من والي أحمد طلبا طبقا ثانيا. وقنع ديلينجر بسلطة كرنب بينما طلب والي أحمد استاكوزا. وشربوا ثلاث زجاجات شمبانيا دوم برينيون.

مع وصول الزجاجة الثانية، شعرت فلورا فعلا بشعور طيب؛ استأذنت وغادرت المائدة، ثم عادت وكل ما فيها يبتسم، وهي تحك أنفها برقة. كانوا سعداء للغاية بصحبة أحدهم الآخر، حتى أنه عندما انتهى العشاء، اعتبروا اقتراح البروفيسور المصري عليهم بالذهاب إلى الملهى الليلي بالفندق (إن كان مازال مفتوحا) فكرة رائعة. هذه المرة، كانت بوني هي من استأذنت لكي تتأكد من عدة أمور، من بينها أن الماكياج الذي تضعه

لم يفسد كليةً، لكنها أيضا لم تنس أن تبتلع ثلاثة أقراص من احتياطيها المضاد للقلق، قاصدة به هذه المرة التنشيط، وليس التهدئة. على أي حال كانوا يستمتعون بوقتهم كثيرا.

لكن ديلينجر، الذي ظل طوال العشاء يرسل عددا من الرسائل النصية، أعلن أنه بحاجة لزيارة مختبره الليلة؛ ولفترة ظل يناقش مع زميله كيف سيلتقيان ويعملان معا في الصباح التالي، ثم غادر.

عندما دخل الثلاثي الباقي إلى الملهى الليلي، اكتشفوا وجود مطرب متعَب يقلد إيروس راماتسوتّي[19]. كان فعليا وحده تماما وفزع عندما رأى ثلاثة زبائن جدد يدخلون متأخرا هكذا، لذا وبمجرد أن أنهى الغناء عن كيف يخطط للزواج من إحداهن، أعلن أنه أنهى برنامجه. وجرى تشغيل موسيقى راقصة كي تحل محله. تبين أنه بالإضافة إلى كونه خبيرا في العالم الفينيقي، كان والي أحمد مطلعا أيضا على أشكال الرقص من كافة الأنواع. كانوا يديرون موسيقى كوبية راقصة بصوت عال، وهو ما لم تستسغه بوني إطلاقا. لكنها جعلت فلورا تشعر بنشوة عالية. وخطف أحمد أنفاسها أثناء التواءاتهما في الرقص. ثم تحولت الموسيقى إلى تشا-تشا-تشا، التي كان لدى فلورا أسباب لكراهيتها؛ بينما منذ الوقت الذي كانت بوني تأخذ فيه دروسا في الرقص لم ترقص على هذا الإيقاع بهذه الروح.

وعندما قرر الشخص الذي يشغل ملفات الموسيقى على الحاسوب أيا كان أن ينتقل إلى موسيقى الرقص المعاصر، على طراز موسيقى التكنو-العاطفية، نجح والي أحمد بالفعل في إقناع المرأتين – كلتيهما معا، بالقدوم والرقص معه. بينما كان الأزواج الأربعة نصف النائمين

19- مطرب إيطالي من مواليد 1963، أحد أنجح المطربين في الموسيقى الإيطالية والبوب اللاتينية على المستوى العالمي في النصف الأول من الثمانينات وبداية الألفية الثالثة.

الباقون في الملهى يتفرجون ويبتسمون. خلا المكان تماما من الناس إلا ثلاثتهم. ومع ذلك كان البروفيسور يدعوهما لمزيد من الشراب: فودكا لبوني، براندي آرمانياك لفلورا، بينما استمر والي في شرب الشمبانيا. كانت بوني تعلم أنها تفرط: فغدا، أو بالأحرى هذا الصباح، كان عليها أن تذهب إلى حقل الإسخريوطي مبكرا لتشهد نهاية مغامرة برتراند هناك، لكن حاليا، بدا برتراند شخصية بعيدة وغائمة، وهو جزاؤه العادل! فقد كان دائما يخلط الأمور بالطريقة التي تناسبه، وبعد ذلك يتوقع من بقية الناس أن تجري وراءه، تلم القطع وتقوم بالإصلاحات المطلوبة لما أسقطه أو كسره أو أفسده. فلورا أيضا كانت تعرف أن أمامها غدا، أو بالأحرى اليوم، يوما طويلا في المكتب؛ نظرا لأن السيد أوروري قد قرر أن يذهب إلى تاورمينا لبضعة أيام ليسترخي... علاوة على ذلك، كانت بحاجة أيضا إلى أن تجد وقتا كي تزور المدرسة التي تنوي أن تلحق ساندر وخريستو بها، بعد أن طُردا للتوّ من المدرسة التي التحقا بها طوال الشهور الستة الماضية. لكن بدأت تخايلها فكرة أنها ربما يمكنها أن تطلب من بروفيسور والي أحمد نصيحة نافعة فيما يتعلق بروايتها، التي ربما كما قيل بالفعل، كانت الآن في مرحلة دقيقة من تطور الثيمة تسبب لها مشكلات عديدة.

جاءت الفتاة المسؤولة عن البار لتنظف مائدتهم وكان مقصودا من نظرتها الحادة أن تبث رسالة واضحة. لم تكن تعرف المالطية أو الإنجليزية. عندئذ انفجر والي أحمد ضاحكا كما كان يفعل كثيرا وبدأ يتحدث إلى الفتاة بالروسية. فجأة امتلأ وجهها بالابتسامات وأخذت تثرثر معه. ووافقت وهي مازالت مبتسمة على أن تحضر لهم شرابا أخيرا قبل أن يرحلوا.

«هل تعرف الروسية؟» سألته فلورا.

«إنها الأوكرانية.»

وبينما كانوا يرتشفون من مشروباتهم التي أحضرتها لهم الفتاة المسؤولة، والتي مازالت مبتسمة، أوضح لهما البروفيسور كيف قضى بعض الوقت مقيما في كييف حيث كانت تجري عمليات تنقيب في موقع اعتُقد لبعض الوقت أنه كان قاعدة تجارية فينيقية.

«هل سافر الفينيقيون بعيدا هكذا عبر أوروبا؟» تساءلت بوني، وهي تناضل كي تتذكر ما كتبه بوريس في ملاحظاته البحثية الطويلة اللانهائية التي أعدها من أجل كويس كوام.

«وفقا لإحدى النظريات السائدة، نعم. وكانت عمليات التنقيب التي شاركت فيها تستهدف التلال الأثرية والبساتين المقدسة التي كان يجري الكشف عنها في أوكرانيا. من بناها بالفعل؟ ماذا كانت تضم؟ التلال الفينيقية من أهم الآثار الباقية التي تحدد الفارق بين ما قبل التاريخ والتاريخ. في داخلها، لا تجدين ببساطة بقايا الفخار وأساسات البيوت التي عاش فيها الناس منذ آلاف السنين... البقايا التي تتراكم في طبقات، ومع مرور القرون، ينتهي بها الحال لأن تبدو أشبه بتلال طبيعية... ولهذا تُدعى بالتلال... لكن أحيانا في جوارها، كان يتم العثور على بساتين مقدسة، وإلى جوارها أيضا... كانوا يبنون أضرحة ضخمة، حيث كانوا يدفنون من بين ما يدفنون أشهر محاربيهم... علاوة على ذلك، وهذه نقطة أخرى... بساتينهم المقدسة تلك يمكن اعتبارها اليوم أماكن مرعبة. ففيها كانوا يحتفلون بأقسى الأضحيات، ويمارسون أقوى أنواع السحر... سواء المقدس أو الأسود. وكان مدهشا العثور على تلال وبساتين مقدسة في أوكرانيا أيضا... لكن لم يتم العثور على أي أضرحة. هنا في مالطا، على العكس، وهذا ما آمنت به دائما... يمكن العثور على مثل هذه البقايا... وسنجد بعضها في الأيام القادمة، أنا

واثق من هذا... لكن في أوكرانيا، كانت مسألة أخرى!...»

كان هذا هو الوقت الوحيد في صحبة والي أحمد، الذي أوشكت فيه فلورا وبوني على الشعور بالضجر. صحيح أن المرأتين كانتا الآن تشعران بآثار يوم العمل والكحول الذي شربتاه والرقص والطعام وغير ذلك من أشياء استهلكتاها أيا كانت؛ لكن حتى لحظات قليلة مضت، بدا عليهما أنهما غافلتان عن هذه الآثار. فجأة، فقد والي أحمد جانبه الساحر كباحث عن المتعة لكنه يظل يحترمك كامرأة (وهي الاستراتيجية الأعلى للفتية اللعوبين المتحققين، كما ترى فلورا) واتخذ سمت العالم المستغرق في مشكلات بحثية لا يفهمها ولا يهتم بها غيره. ومع ذلك سرعان ما أدرك البروفيسور أن تفسيراته جاءت أشبه برمال رطبة أُلقيت على جمرات متوهجة، وغيَّر الموضوع. وبنفس السرعة، اشتعل من جديد الإعجاب الذي كانت تحس به بوني وفلورا.

في بهو الفندق، ودعت المرأتان والي أحمد، وهما تتسابقان لرؤية من ستكون آخر من تُقبِّل وجنتيه، وهي المسابقة التي فازت بها بوني. حتى النهاية، أبدى نحوهما لطفا مدعوما بأسلوب من السلوك حكما عليه بأنه على أعلى مستوى؛ بالفعل، منذ صحبتاه لم تستطيعا التوقف عن الضحك على نكاته. وأثناء القيادة عائدتين إلى البيت، كان على كلتيهما أن تحترسا في قيادتهما. اكتشفتا أنه لسبب غريب ما، أصبحت الشوارع ضيقة بينما غدت تقاطعات الطرق والممرات الدائرية أوسع. عندما يكون من الصعب أن ترى بوضوح وتنظر أمامك مباشرة، تغدو القيادة صعبة قليلا.

.26

... رجوعا الآن إلى حقل الإسخريوطي عند الشروق... لكن «رجوعا» ليست هي الكلمة المناسبة في الحقيقة، فهذا تقدم سريع. عندما كانت فلورا وبوني تغادران الفندق، كان مازال أمام طلوع الفجر ثلاث ساعات أو أكثر قليلا... «رجوعا» لذلك بمعنى أننا كنا بالفعل في المكان المذكور في الوقت المذكور، وأن الساعة تأخرت «رجوعا» كي نتمكن من تغطية وصول بروفيسور أحمد من الإسكندرية.

على أي حال: بالنسبة للمذيع التليفزيوني، كان هذا اليوم الذي ستكون له عواقب دراماتيكية شديدة، قد بدأ بهدوء وبهجة شديدين (ها نحن نفعلها مرة أخرى: النص كما هو مكتوب يستبق حركة الوقت القادمة، ومن المنطقي هنا أن نضغط على زر المحو في لوحة المفاتيح. والجملة التي تم حفظها في ملف الوورد ينبغي أن تُقرأ كما يلي:) بالنسبة للمذيع التليفزيوني، بدأ اليوم بهدوء وبهجة شديدين. بعد أن غفا عند الشروق، نام لساعة أخرى نوما هنيئا للغاية، ثم استيقظ. كانت أوراق شجر الخروب مازالت تهمس دون توقف. لقد أصبح معتادا على رتابة صوتها المنتظم حتى أنه غدا معجبا به كثيرا. نهض واقفا، ملقيا عنه الكيمونو الذي ساعد كغطاء إضافي فوق كيس النوم. فتح الحقيبة. دون أن يخبر أحدا، كان قد وضع بها أيضا بالإضافة إلى نبيذ بارولو، ترموس مليئا بالحليب والقهوة؛ رغم أن مثل هذا النوع من الترموس أصبح من الأنتيكات، إلا أن برتراند كان مازال يستخدمه. عندما كان

صغيرا، كان والداه يأخذان الأسرة في تمشيات لا تنتهي في ريف جوزو الذي كان مازال موجودا في ذلك الوقت.

صب القهوة في كوب بلاستيكي واستمتع بالمنظر. كان الحقل ينحدر برقة نحو الطريق الساحلي، والشجيرات التي يضمها ترتعش في النسيم الخفيف الحاضر دائما. تساءل مبتسما مَن مِن فريق كويس كوام سيصل أولا. من المفترض أن جيانينو مازال متمركزا في الخيمة التي نصبوها له عند جانب الحقل. ربما سقط نائما. هل سيكون هاردهيد هو أول من يصل؟ أم بوريس ليتحرى مع جوني ديب التقدم الذي حدث في مشروع دروسيلا خلال الليل؟ ربما بوني، وتخيل كم كانت بالتأكيد ضجرة ليلة الأمس، في صحبة فلورا بيتا لوكا وبروفيسور والي أحمد العجوز. جعلته هذه الفكرة يضحك تقريبا، وحدس أن بوني ستجعل من الوقت الفظيع الذي قضته بالأمس حجة للوصول متأخرة هذا الصباح وتعاقبه بذلك على قيامه بإرسالها إلى المطار.

صب لنفسه كوبا آخر من القهوة وتجول حول بستان الخروب. بدا التلان المنخفضان على الجانب الآخر من الطريق الساحلي المار أسفل الحقل وكأنهما ملتصقان بالبحر خلفهما. أخذ يفكر في العمل الذي مازال من الضروري إنجازه. بعد هذه الليلة، التي لم ينتج عنها أي حادث يستحق الذكر، أدرك أنه لا بد أن يخترع شيئا جديدا لكي يثير ويحافظ على اهتمام حقيقي بين مشاهدي كويس كوام. كان بحاجة لخلق جو من اللايقين والشك والخوف تقريبا من اللاشيء، بحيث أنه وعلى أساس الحقائق الصبيانية بالفعل، يمكن للمشاهدين وحدهم تماما أن يبدأوا في تخيل قصص رعب، قائمة على كوابيسهم الشخصية والمألوفة. سيكون هذا تحديه كمقدم برامج تليفزيونية. وصحيح أنهم سيصورون الحلقة الأولى خلال يومين هنا... لكن الأمور كانت قد اختلطت عليه: ليس خلال يومين، بل ليلة الغد. لن يواجه جيانينو وهاردهيد صعوبة

كبيرة في وضع المعدات، حتى خلال هذا الوقت القصير... هل ينبغي أن يحضرا خيمة كبيرة...؟ أم ينبغي عليهم أن يظلوا في الخلاء، لأن الجو كان بالفعل أشبه بالصيف...؟ لكن ماذا لو أمطرت أو هبت عاصفة؟ فليضعوا خيمة كبيرة.

ثمة سؤال آخر من المؤكد أن يثور خلال اجتماع كويس كوام هذا الصباح، ألا وهو إن كان ينبغي عليهم أن يجلبوا جمهورا في الحلقة الأولى. وجود جمهور يساعد في خلق الجو المناسب، ويملأ الوقت أيضا. كلنا نستمتع بمشاهدة جارنا أو شخص يشبهه بشدة، يقدم تصريحات سخيفة على الملأ. عندما يقوم أحد بتنظيم برنامج وتنفد منه الخيارات، فإن مثل هذه المشاركات تكون أشياء لا تُقدَر بثمن.

كان لديهم ما يكفي من الوقت كي يجمعوا جمهورا صغيرا. من المدهش كم يوجد عدد كبير من الناس المستعدين في لمح البصر لأن يغضوا البصر أيضا عن أي شيء كانوا يخططون له، ويقوموا بأي تضحية، لخاطر الظهور في كويس كوام ويُظهروا للبلد... لأنه لا شك الآن أن كويس كوام كان يعتبر مؤسسة وطنية... بالطبع ليس على نفس مستوى البرلمان أو الرئاسة، لكنه قريب إلى حد ما من هذه المكانة مع ذلك في أذهان كثير من الناس... نعم، ليُظهروا للبلد كم هم ماهرون في القيام بإشارات ذكية. كان برتراند مستغرقا للغاية في هذه التأملات حتى أنه أحكم قبضته على كوب القهوة إلى أن تشقق.

حدق في منظر التلين أمامه. بديا جميلين حقا وسط الضباب الرقيق المتصاعد من البحر. مرت بذهنه أفكار غير متوقعة: لماذا بدا فجأة وكأن قوة غريبة ما تمتد من هذين التلين لتقبض عليه؟ كان الأمر وكأنه ينظر إلى مكان ما مألوف بشدة... هل كان هذا انطباعا لحظيا؟ لماذا كان يجب أن تغزوه فجأة هذه الأفكار الغريبة في هذه اللحظة؟ بجهد

كبير، أشاح بوجهه مبتعدا عن هذين التلين ليستمر في المشي حول البستان.

مفاجأة أخرى كانت في انتظاره بمجرد أن نظر مرة أخرى إلى الحقل. كانت خيمة جيانينو مازالت مغلقة وهادئة، لكن في منتصف الحقل، كانت هيئة رجل يخرج من الأرض. بدا الرجل مدفونا من وسطه إلى أسفل في حفرة وحتى صدره في الشجيرات. وعندما نظر إليه برتراند، كان الرجل يُجذب إلى أعلى أو يصعد طالعا من الحفرة. تعرف برتراند فيه على هاردهيد واندفع نحوه.

«ماذا تظن أنك فاعل؟» صاح. وعندما صار أقرب: «ظننت أن نخلة جديدة قد طرحت خلال الليل...»

خرج هاردهيد من الحفرة واستوى واقفا قبل أن يرد بصوت أجش: «كنتُ على حق بالأمس... تلك هي الحفرة التي أرانا إياها بوريس... إنها ليست فتحة بئر!»

«ماذا إذًا؟»

«هناك ما يشبه السلم محفور في الصخر... ويؤدي إلى تقاطع في الأسفل بين نفقين.»

«نفقان؟ من أين جئت بهذا؟»

سمعا خطوات تهرول نحوهما عبر الشجيرات المحيطة. كان جيانينو قد غادر خيمته حاملا كيسا من كعك الجبن. كان قد أدفأها على موقد كهربي من النوع المستخدم في النزهات الخلوية، والآن كان يعرض عليهما المشاركة دون حماس. رفض هاردهيد شاكرا. بينما سأله برتراند وهو يتناول كعكتين: «كيف سارت ليلتك؟»

«بلا مشاكل على الإطلاق. لكن عند لحظة ما، سقطت نائما...»

أشار هاردهيد إلى الحفرة: «هناك نفقان بالأسفل، هذا ليس بئرا..» كرر. «رغم أنه يفوح برائحة الرطوبة والملح، مثلما تجد في الآبار المحفورة قريبا من البحر. لكني ميزت روائح أخرى كذلك.»

«أي روائح؟» تساءل المذيع التليفزيوني. غالبا ما يأتي التفاني والاجتهاد اللذين يظهرهما هاردهيد في كل التفاتة ليسببا له صداعا خفيفا.

«ألا تذكر؟... لا أنت لم تكن معي، بل كانت بوني... في مزرعة آل تونًّا... كانت رائحة غريبة... سيئة جدا، ولو كانت أقوى قليلا، لكانت...»

من بعيد، تناهى إليهم طنين سيارتين تقتربان على الطريق الساحلي. بالتأكيد، بعض من أفراد كويس كوام...

وبينما كان يأكل الكعك، انحنى جيانينو فوق الحفرة ليلقي نظرة أقرب. وعلى الفور رفع ظهره من جديد. «شيء مقرف، يالها من رائحة! إنها سيئة جدا لدرجة أنها يمكن أن تفسد شهية المرء لو لم يكن حذرا.»

«وهل دخلت هذين النفقين؟»

«لا. لكني لم أستطع ليلة الأمس التوقف عن التساؤل حول هذه الحفرة وجئت إلى هنا مباشرة كي ألقي نظرة.»

كان برتراند يتساءل بالفعل كيف يمكنهم استخدام هذا الاكتشاف الذي قام به بوريس وهاردهيد لإشعال خيال المشاهدين. طلب من جيانينو كعكتين أخريين، أعطاهما له صاحبنا بحماس أقل من قبل، بينما كان يسرع ليزدرد ما تبقى. كانوا مازالوا يناقشون ما يمكن أن يكون موجودا في النفقين وإلى أين كانا يؤديان عندما وصل بوريس

وجوني ديب. بدا الاثنان منزعجين إلى حد كبير.

أعلن بوريس: «تعرض مشروع دروسيلا لكارثة الليلة الماضية، الأجهزة التي وضعوها أمس تعطلت.»

«ألم تتأكدوا أنها كانت تعمل جيدا قبل أن تغادروا؟» تساءل هاردهيد. «بالطبع..» أجاب جوني ديب. «كانت تعمل على نحو طيب عندما غادرنا وبقينا معها لساعة كاملة قبل هذا. المشكلة أنه حتى طوال الساعة التي تابعناها فيها، كنا هنا... لم يُسجل شيء في الذاكرة. لكننا عندما كنا هنا، كان مسجل الذاكرة يعمل. من الواضح أنه بسبب العطل، حتى ما جرى تسجيله عندما كنا هنا انمحى.»

«وما السبب؟»

«سيتوجب أن يبحث هذا بروفيسور ديلينجر.»

كان جيانينو يتحدث في هاتفه. بدأ يصيح فيه، وللحظة نسي كل شيء عن الكعكات التي كان مازال يمسك بها.

التفت هاردهيد مرة أخرى ليتفحص الحفرة في منتصف الحقل. «كيف يمكن أن نقدم حلقة كويس كوام من هنا ونترك شيئا كهذا؟»

«أنت على حق..» قال برتراند، الذي كان مشتتا بعض الشيء من صياح جيانينو؛ لم يكن معتادا من هذا التقني أن يفقد أعصابه مبكرا هكذا في الصباح.

«بوريس، هل أنت مشغول هذا الصباح؟ لمَ لا تبقى معي لفترة وسننزل؟ لديّ في السيارة مصابيح يدوية. يمكن أن تكون كافية للظلام هناك في الأسفل.»

«ممتاز..» وافق بوريس. «طالما لا يوجد أي من هذه الغازات الخطيرة

التي تتكون في فتحات الآبار...»

«سآتي معكما..» قال جوني ديب.

كانت هناك لحظة من التردد. تبادل برتراند وهاردهيد النظرات، حيث لم يكن كلاهما متأكدا تماما من ثقته في جوني ديب... لكن في النهاية، لم يكن الأمر يمثل مشكلة كبيرة إن نزل أيضا في الفتحة... فثلاثة رقم أفضل من اثنين. وافق هاردهيد.

غاضبا محتقنا، وقف جيانينو في مواجهتهم، معتصرا كيس كعكات الجبن الورقي في يده اليسرى وهو يلوّح بالهاتف المحمول في قبضته الأخرى كالسوط: «لن تصدقوا ما حدث! ولا في مائة عام كنت لأتخيل شيئا كهذا يمكن أن يحدث! الفيلم الذي كنا ننقله من هنا مباشرة إلى القاعدة في أستوديوهاتنا... لا شيء منه سُجل في ملفات الذاكرة.»

«كيف يمكن هذا!» انفجر هاردهيد. «ألم تراجعوا ما كنت تفعلونه؟»

«بالطبع راجعنا مرة ومرتين، طوال الوقت. وكل شاشاتي هنا كذلك... أظهرت أن إشارات البث كانت تسير بلا مشاكل.»

«إذًا كيف يمكن أن تتوقف سجلات الذاكرة؟»

«لا بد أن أذهب إلى هناك حالا لأرى ما كان يحدث.»

«لا تقل لي إن النومة الصعبة التي كان عليّ أن أنامها ليلة الأمس ضاعت سدى!» ولول برتراند.

«لا..» قال جيانينو. «مازال ينبغي أن يكون لديّ نسخة من الفيلم في الخيمة. لكنها من نوعية أدنى بكثير من الفيلم الذي أرسلناه إلى الاستوديو.»

كانت بوني تقترب ببطء من أسفل الحقل.

«ظننا أنك نسيت أن عليك المجيء إلى هنا هذا الصباح.» قال هاردهيد.

رغم أنها كانت اليوم أكثر حرصا بكثير في وسوستها المعتادة بماكياجها، إلا أن وجهها كان مازال يكشف كم كانت متعبة. كان برتراند يعرف أنه عندما يكون ماكياج بوني متقنا، فهو يعمل إما على إخفاء أنها في حالة سيئة، أو للتأثير على رجل ما لفت انتباهها، أو لأنها استهلكت من أقراصها أكثر مما ينبغي لها أن تفعل، أو بسبب مزيج من الأسباب الثلاثة السابقة. «كيف سار الأمر مع بروفيسور والي أحمد؟» سألها عندما لم تسأله السؤال الذي توقعه منها.

«أوه، ممتاز في الحقيقة. لقد مر وقت طويل منذ رقصت التشا-تشا-تشا في الثانية والنصف صباحا.»

«ظننت أنك كنت مع ديلينجر ووالي أحمد وفلورا.»

«غادر بروفيسور ديلينجر مبكرا. كان ينبغي أن تنبهني لكون والي أحمد فتى لعوبا جذابا جدا.»

«فتى لعوب!» قطب برتراند.

«لقد مر بالفعل وقت طويل منذ أن استمتعت إلى هذا القدر. أوه فعلا! إنه نوعي المفضل من الرجال! كل من رأيتهم حولي مؤخرا شكاؤون وضرَّاطون.»

«شكرا جزيلا..» تدخل هاردهيد بينما ظل برتراند مقطبا في صمت. «لم أحظ بمثل هذه المجاملة الكريمة منذ زمن لا أعلم مداه.»

«بأمانة، والي أحمد هو رجل من النوع الذي تحلم كل امرأة بلقائه يوما ما! سيأتي إلى اجتماعنا في كويس كوام هذا الصباح، أليس كذلك؟»

«لم أستشر ديلينجر في هذا بعد. كيف سارت الأمور بينك وبين فلورا؟»

«أفضل من المعتاد. هي أيضا كانت مندهشة بسرور مع البروفيسور... رغم أني أشك إن كانت قد تركت انطباعا كبيرا عنده... أتعرف؟ ظللنا نشرب ونرقص حتى الساعة الثالثة إن لم يكن بعد ذلك... دون وجود أحد غيرنا في البار باستثناء النادلة. لكن كيف تسير الأمور هنا؟ كيف قضيت الليلة؟»

«ممتاز. لقد مر وقت طويل منذ أن نمت بهذا العمق.»

«لم يظهر أي شبح؟»

«ولا أصغر عفريت!»

لم تكن بوني واثقة إن كان ينبغي أن تضحك أم تقلق؛ فلزمت الصمت.

«أتعرفون ما يضايقني؟» هتف جيانينو فجأة. كان قد تأمل كيس كعك الجبن المسحوق لفترة وقرر أنه لم يعد جائعا. «أخشى أن الفيلم الذي لدينا في الخيمة يمكن أيضا أن يكون قد تلف!»

شرحوا لبوني المشكلات التي واجهها مشروع دروسيلا وكيف ضاع فيلم الليلة الماضية الذي بثه جيانينو لمكاتب كويس كوام. «إذًا فقد حدثت في الأمور أمور..» قالت، متيقنة الآن أنها ينبغي أن تقلق. وبينما كانوا يتحدثون، عاودها مزاجها بالأمس؛ أحست بقلق غامض حيال ما يفعلونه في هذا الحقل. وبالفعل بدت النزهة مع والي أحمد كمتعة جرت منذ سنوات عديدة.

«دعونا ندخل الخيمة ونرى ما الأمر..» قال هاردهيد وتبعه الجميع.

«سأذهب لأغير ملابسي..» أخبرهم برتراند. كان مازال يرتدي الزي

المموه الذي كان منامته طوال الليل. «ثم سأترككم إلى البيت، حيث أغتسل وأتناول بعض القهوة المضبوطة.» توقع أن تأتي بوني معه لكنها ذهبت مع الآخرين إلى خيمة جيانينو.

بلغ المذيع التليفزيوني قطعة الأرض الخلاء في منتصف بستان الخروب، حيث كان قد ترك بالأمس ملابسه معلقة على شماعة مثبتة في غصن بين الأشجار. رفع يده لينزل شماعة الملابس واتسعت عيناه. كانت بدلته مشقوقة وممزقة من أعلاها إلى أسفلها. وكأن مخالب وحش بري قد قبضت على النسيج ومزقته إربا... وما تبقى من السترة والبنطال تدلى في شرائط. وسقطت أجزاء من السترة على الأرض. انحنى فوقها ورأى ما بدا أشبه بآثار أسنان غريبة في شرائط النسيج. بدا وكأن الوحش الذي مزق الملابس حاول أكلها بعد ذلك.

بعد قليل كان الآخرون يصعدون قادمين إلى البستان. نظرة سريعة أقنعت جيانينو أن الفيلم الذي صُوِّر خلال الليل كان مازال آمنا وسليما. كان قد أصبح قلقا بالفعل من أن شيئا خاطئا ما قد جرى وهو نائم وفشل في ملاحظته. «من الأفضل أن أذهب مع الفيلم إلى المكتب وأشاهد كل شيء هناك في سلام..» قال. وعلى الفور بدأ في فك الخيمة...

أتى بوريس وهاردهيد وبوني وجوني ديب ليجدوا برتراند مازال واقفا يحدق في بدلته الممزقة. وبدورهم وقفوا يحدقون مذهولين فيها عاجزين عن النطق.

ثم دوت صرخة رهيبة في أرجاء البستان.

.27

التفتوا جميعا معا نحو بوني، التي وقفت وكأنها متجمدة حيث أمضى برتراند ليلته، ممسكة بالكيمونو من حاشيته بيد واحدة، وهي تحدق مطرقة في كيس النوم، والرعب ملء عينيها... صرخت مرة أخرى، فجروا إليها.

كانت بقعة كبيرة، رطبة وغامقة قد انتشرت فوق الكيمونو وكيس النوم. كان الدم ثخينا ومتجلطا، وكأنه انفجر منذ وقت ليس ببعيد من شريان مقطوع. وكانت بوني ترتعد من الصدمة.

«من أين جاء هذا الدم؟» تساءل هاردهيد.

هز برتراند رأسه، غير مصدق. «عندما استيقظت لم يكن موجودا بالتأكيد.»

«كيف لك أن تعرف؟»

«لم أره.»

«من وضع الكيمونو على كيس النوم؟»

«استخدمته كغطاء. وعندما استيقظت، رميته فوق كيس النوم، حيث لا بد أن بوني قد وجدته. صحيح أنك وجدته هناك يا بون؟»

أومأت ببطء، وعيناها مفتوحتان على اتساعهما.

«لعل الدم قد تجمع في الليل، وأنت لم تلاحظه... ولا حتى عندما رميت الكيمونو فوقه.» كان هاردهيد يبذل أقصى جهده ليركز على الحقائق. أما الآخرون فتركوه يطرح الأسئلة ويضع النقاط دون تدخل. بدا أنهم اعتقدوا أنهم بحاجة لشخص ما قادر على إبقائهم آمنين داخل حدود المنطق الطبيعي.

أخيرا صاحت بوني: «قلت لك! قلت لك ألا تضع كيس النوم أسفل الغصن...» وأشارت إلى أعلى. «هذا هو الغصن الذي شنق يهوذا توًّا نفسه عليه.»

تراجعوا جميعا خطوة مبتعدين عن الغصن.

في هذه اللحظة، وصل البروفيسوران ديلينجر ووالي أحمد. كان الأخير قد أصر على زيارة حقل الإسخريوطي قبل الذهاب إلى المعهد الوطني للثقافة ورضخ ديلينجر لطلبه. لو لم تكن بوني في تلك الحالة الهيستيرية، للاحظت بمجرد انضمام البروفيسورين إليهم ذلك التغير الكبير في أداء والي أحمد. لم يعد ذلك الفتى اللعوب الرقيق الذي قابلته بالأمس، أو بدقة أكبر هذا الصباح؛ بل صار رجل علم، بنظرة تشع ذكاء باردا ونشطا. كان ديلينجر أيضا منتبها بشدة لكل ما يدور حوله، بنظرات حادة في كل مكان لتتأكد من اقتناص كل تفصيلة.

بحضورهما فقط، وبشكل طبيعي ودون تكلف أو ادعاء، شكَّل الاثنان فريقا جبارا؛ قادرا على توظيف الفكر والمعرفة المكثفين وفي نفس الوقت يشع بهالة من الكفاءة الهائلة. ومع ذلك صار واضحا أنه مهما كان ديلينجر بارعا كباحث وعالم، كان والي أحمد يفوقه في قوة العقل ومثَّل له صندوق المعرفة المتاح تحت تصرفه. ولم يكن هذا مصدرا للإزعاج بالنسبة لديلينجر، الذي تقبل في الحقيقة الموقف بسهولة – فما كان يعتبره مهما هو أن يتمكن من الاستمتاع بكل فرصة متاحة للمشاركة

الكاملة، كما تمنى دوما، في العمل البحثي المستمر وفي تطور المعرفة. على كلٍّ، ترك البروفيسوران لدى الحاضرين انطباعا قويا بفريق عمل ثنائي يمتلك قوة ذهنية لا تبارى، بالإضافة إلى العزم. لا بد أن الاثنين يمتلكان أيضا قدرة كبيرة على فهم هذه التطورات الغريبة التي ظهرت فجأة. شرح لهما هاردهيد ما جرى.

أشار والي أحمد إلى ديلينجر الذي أومأ موافقا على الفور. «نحتاج إلى أخذ عينات دم للتحليل الفوري..» قال والي.

التفت ديلينجر إلى بوريس. «هل لديك قطن طبي أو بعض القطع من القماش... بالإضافة إلى برطمانات زجاجية أو بلاستيكية؟»

أومأ بوريس برأسه، وأسرع ليجد جيانينو ويحصل على الإمدادات المطلوبة.

عندما انتهى والي أحمد من فحصه للدم الذي كان يغدو أغلظ وأغمق تدريجيا قال: «لقد سقط مباشرة من مكان عال...»

«هذا هو الغصن الذي شنق يهوذا تونًّا نفسه عليه...!» همهمت بوني. كان لديها شعور سيء بالفعل وأحست بحاجة ملحة لفتح حقيبة يدها وإخراج علبة أقراصها...

أرشدوا والي أحمد لمكان الغصن. كان من الواضح أنه يعرف بالفعل كل ما يجب أن يعرفه عن قصة يهوذا تونًّا.

«لو أن رجلا عُلق من المكان الذي تشيرون لي عليه، وحلقه مذبوح..» أشار. «لجرى الدم ساقطا بنفس هذه الطريقة.»

«يهوذا تونًّا شنق نفسه. لم يقطع أحد حلقه.» قال برتراند.

«أحد الطرق التي كان يستخدمها الفينيقيون لإعدام أي مجرم مدان

كانت الشنق. ولمنحه فرصة أخيرة كي يأخذه الإله بعل في حضنه ويمنحه حياة أخرى بعد الموت... كانوا معتادين في الغرب على منح الرجل المدان سكينا كبيرا. كان عليه أن يمسك به في يده وكان متوقعا منه بعد ذلك أن يذبح حلقه بنفسه بينما هو مشنوق ومختنق حتى الموت. وإذا لم يفعل هذا، كان الجلاد مستعدا لذبح حلقه في اللحظة الأخيرة من حياته، حتى يضمن أن يكون الشخص ملعونا إلى الأبد في أفران الإله بعل. ولن يتمكن أبدا من أن يقترب من الآلهة الذين يشربون ماء الحياة في الغرب.»

بينما كانوا ينصتون لشروح والي أحمد، ران صمت عميق.

«وما علاقة هذا بيهوذا تونًّا الذي شنق نفسه منذ حوالي مائة وثلاثين عاما؟ وهو لم يكن فينيقيًا!» احتج برتراند نافد الصبر بامتعاض. كان يدرك أنه لو لم يكن حريصا للغاية، يمكن أن تخرج العملية كلها عن السيطرة، سيطرته، وسيطرتهم، وسيطرة كويس كوام، ولم يكن بمقدوره أن يفهم لماذا وكيف يحدث هذا... في يومين، نجح في تنشيط البرنامج بعد أن تأخروا بطريقة غير مسؤولة في الوفاء بالتزاماتهم، وكانت الغلطة غلطته – لكن لم يعد أحد يلقي باللوم عليه... والآن لم يكن بالتأكيد ليدع أحدا آخر يقوض التقدم الذي كانوا يحققونه.

نظر الآخرون إلى برتراند، ثم إلى والي أحمد وديلينجر، ثم إلى برتراند من جديد.

كان صباحا جميلا للغاية ولا غيمة واحدة في السماء، ولم يكن ضوء الشمس فوقهم دافئا أكثر من اللازم. أشجار الخروب التي أحاطت بمساحة الخلاء كانت تخشخش بحفيف مُوقَّع وكأنها تباركهم وتحميهم من النسيم العليل الذي يهب مُدوِّما من أسفل الحقل. كان بمقدورهم سماع صرير سيارة جيانينو من بعيد وهو يغادر متجها إلى مكاتب

كويس كوام، لكن هذا الصوت أيضا بدا جزءا من الخليط المهدئ المكون من الراحة والهدوء اللذين غطيا المكان كله... باستثناء تلك البقعة القذرة من الدم المتخثر، ناهيك عن بدلة برتراند الممزقة المعلقة خلفهم على شجرة خروب في جانب البستان.

عاد بوريس بالأشياء التي طلبها ديلينجر. ركع البروفيسور إلى جوار بقعة الدم الكبيرة ومسحها مترفقا بقطعة القماش أو القطن الطبي؛ ووضع كل عينة في أسطوانة بلاستيكية. ومع ذلك كانت عيون كل المتجمعين في هذه الحلقة الصغيرة مازالت ملتفتة إلى والي أحمد وبرتراند، اللذين كان يقيس أحدهما الآخر كمتبارزين. لوهلة، لم تستطع بوني التمييز بينهما. كانت تزداد توقا للحبتين اللتين تأخذهما عندما تكون أزماتها العصبية على وشك التحول إلى نوبة هيستيرية. بالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا هو والي أحمد الذي رقصت معه ليلة الأمس؛ لأن وجهه الآن اكتسى بنظرة هادئة وحادة بينما كانت عيناه تجوبان أرجاء المكان. وبالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا هو برتراند الذي عملت معه وعاشت لحظات أخرى؛ لأنه بدا باردا وشرسا للغاية، يبتسم بصرامة وازدراء وتحدٍ. ربما كانت أفكار شبيهة تمر بأذهان الآخرين المتجمعين في ذلك الحشد الصغير تحت أشجار الخروب، حيث ظلوا صامتين. ورغم أن حفيف الأوراق كان مستمرا مع النسيم، كان يمكنهم تمييز حتى الصوت الصادر عن القطن الطبي الذي كانت تمسك به أصابع ديلينجر بثبات وهو يغمسه في الدم المتخثر.

بصوت رزين، قال والي أحمد: «لقد وصلت للتوّ إلى هذا الحقل وتحت هذه الأشجار. ومع ذلك لا شك لديّ بأي حال من الأحوال أننا هنا نقف في منتصف بستان مقدس زرعه الفينيقيون. وبالنسبة إليهم، هو مازال مقدسا حتى اليوم.»

وبينما كان ديلينجر مستمرا في أخذ عينات من الدم المتخثر، أومأ برأسه متفقا كليا مع والي أحمد.

«وماذا يعني كل هذا؟» تدخل برتراند، وصوته مشدود بالتحدي. «لقد انتهى أمر الفينيقيين منذ مئات السنين. ماذا يهم لو كان لهم بستان مقدس هنا أو أيا كان هذا؟ ما يهمنا هو قصة يهوذا تونًّا...»

«لقد رأيت الكثير من البساتين الفينيقية..» أكمل والي أحمد بهدوء، وكأنه لا يجد أي مشكلة في التجاهل التام لاستفزازات برتراند. «صديقي بروفيسور ديلينجر كان على حق. بالنظر إلى طريقة تصميمه وكيف تتجمع الأشجار سويا، لا بد أن هذا واحد من أقدمها. وبالنسبة للفينيقيين، كلما كان البستان أقدم، كلما اعتُبر مقدسا. ولا يمكن أن يكون هناك أي شك في أن هذا البستان والمجمع الملحق له قد تعرضا للتدنيس بحدة خلال القرون الماضية. وبشكل خاص في الآونة الأخيرة...»

«ماذا تعني بـ... المجمع الملحق به؟» سأله هاردهيد، وكالعادة هبط بهم اهتمامه بالحقائق إلى أرض الواقع.

«كل بستان كان يشكل جزءا... كان يتم العثور عليه لاحقا بالفعل... في قمة مجمع كامل، موجود تحته أو حوله أو قريبا منه... كانت توجد أضرحة كبيرة وصغيرة تُشيد في تل، مخازن تُحفظ فيها قرابين المعبد، وكذلك ثياب الآلهة وبقايا الأضحيات المقدسة. وكلما كان البستان المقدس أقدم، كلما زاد اتساع المجمع الملحق به، مراكما التحف والآثار.»

«أكرر..» قال برتراند. «نحن هنا لنسجل قبل مساء الغد حلقة أخرى مصورة لبرنامج كويس كوام. نحن لسنا قسم الآثار في جامعة أو أخرى.»

«وهذه التلال الأثرية التي تذكرها...؟» تابع هاردهيد الذي بدا مهتما بشدة.

«وفقا لما قيل لي..» أجابه والي، «يوجد تلان في الجوار يمكن أن يكونا تلين أثريين...»

«هذا صحيح..» قال ديلينجر. كان قد انتهى من جمع عينات الدم ووقف. «يمكننا زيارتهما حالا.»

تحركوا مبتعدين وعبروا إلى أشجار الخروب عند جانب الحقل. توقف ديلينجر أمام الشماعة التي تعلقت عليها البدلة الممزقة. «ما هذا؟» هتف مذهولا.

فورا كان والي أحمد إلى جانبه يتفحص الثياب الممزقة باهتمام عميق. وانحنى فوق مزق النسيج على الأرض وتفحصها عن قرب. شرحت بوني مرة أخرى ما تعرض له برتراند خلال الليل. «أتذكر..» قال والي وهو ينظر إلى المذيع التليفزيوني نظرة غريبة. «إذًا فقد كنت خاضعا لهذه التجربة...»

«أي تجربة لعينة! كانت حيلة! احتجنا شيئا مثل هذا لنطلق البرنامج!»

«كانت تجربة غريبة وخطيرة...»

«لماذا خطيرة؟» تساءل بوريس.

«لأن أحد الطرق التي كان الفينيقيون ينشدون بها الانتقام بسبب تدنيس بساتينهم المقدسة كانت تمزيق وتقطيع ثياب هؤلاء المحكوم عليهم بالموت قطعا قبل إعدامهم.»

شحب وجه برتراند الذي كان حتى الآن محتفظا بسيماء التبجح.

«ولم تر أحدا خلال الليل؟ لم تسمع شيئا؟» تساءل ديلينجر.

«نمت كطفل رضيع أُعطي زجاجة رضعته للتوّ.» في الحقيقة، كان قد أنهى زجاجة البارولو فعليا...

لم يعد لدى البروفيسورين شيء يقال أكثر من هذا، وغادروا معا أغصان الخروب كي يصلوا إلى نهاية الحقل وراء الأشجار. أمامهم، في الضوء الرائق للصباح الذي لم يكن من الممكن أن يغدو أجمل من هذا، امتد الريف المحيط بالتلين المنخفضين المتخذين شكل رغيفين. ظل والي وديلينجر صامتين، وبدا الأول عازما على التأكد من تسجيله كل تفصيلة في المشهد.

كسر هاردهيد الصمت: «هل تقصد أن تقول إن هناك رابطا ما بين التلين هناك وهذا الحقل؟» كان يتذكر عندئذ تلك القوة الغامضة التي أحس بها قبل أمس عندما جاء مع بوني إلى هذا المكان لترتيب تصوير الأمس. كان الأمر أشبه بانجذاب غريب يسحب جبهته ومحاجر عينيه جاعلا إياه يحدق في التلين اللذين كانا وقتها متسربلين بغسق المساء الفضي.

هز أحمد كتفيه. كان على وشك أن يقول شيئا عندما رن هاتف، مقاطعا الصمت الذي كانوا منغمسين فيه. في عجالة، أخرج ديلينجر هاتفه وتحدث فيه: «نحن قادمان، قادمان يا مدام، لا تقلقي...» أنهى المكالمة وقال لزميله: «السيدة بيتا لوكا اتصلت من المعهد الوطني للثقافة... إنهم في انتظارنا...»

«نعم، يجب أن نذهب... لكن قبل هذا، لمَ لا نلقي نظرة أقرب على هذين التلين؟»

.28

فجأة، بدا أنهم عادوا جميعا إلى الحياة. كان الأمر كما لو أنهم قد تحولوا خلال الدقائق القليلة الماضية إلى تماثيل من ملح، سقطت عليهم تعويذة أبقتهم محدقين بدهشة في بعضهم البعض وفيما كان يحدث حولهم كأنه فيلم بالحركة البطيئة.

وافق البروفيسوران على أنهما بعد زيارتهما للمعهد الوطني للثقافة، سيحضران جزءا من اجتماع كويس كوام هذا الصباح للتحضير من أجل مساء الغد. وفي تلك الأثناء ربما سينتهي تحليل الدم الذي وُجد على كيس النوم. وعندما علم ديلينجر بأمر الفشل التام لمشروع دروسيلا خلال الليل، زم شفتيه. «قدم لي موجزا حول هذا..» قال ناصحا جوني ديب، الذي ظل خلال كل هذه التطورات في الخلفية أو قريبا من بوريس، مراقبا الأحداث بحرص.

قرر برتراند أن يغادر فورا إلى البيت ليغير ملابسه وبعد ذلك يذهب إلى المكتب. لم تعجبه كثيرا فكرة عبور الطريق مرتديا هذه المنامة الزائفة، كجندي أمريكي عائد من العراق، لكن لم تكن هناك طريقة أخرى.

رافقته بوني إلى سيارته. «لا أشعر بالارتياح..» أسرَّت إليه. «هناك شيء ما يدور وهو ليس مثلما انتوينا. مازال هناك وقت كي...»

«لم يبق أي وقت. لا بد أن نستمر في العمل على البرنامج وفق

الخطوط التي قررناها..» أجابها، وفي صوته ارتعاشة غضب. «لا يمكن أن ينتهي بنا الأمر خاويي الوفاض في اللحظة الأخيرة.»

«مازال بإمكاننا تحويل البرنامج إلى موضوع تكاليف المعيشة!»

«نعم، يا للعظمة! ونضيع الإعلانات التي تمكن هاردهيد بالفعل من حجزها...» لاحظ أنه بينما كانا يتحدثان، كانت هي تراقب قمة الحقل، التي كان يهبط منها الآخرون. «لماذا لا تذهبين إلى المكتب وتنتظرينني هناك...؟»

كان ديلينجر ووالي أحمد يقتربان، وهما يتحدثان بوجهين جامدين.

«سأذهب..» قالت. «لكن أولا عليّ أن ألقي نظرة على ما سيفعله هذان الاثنان عند التلين.»

بصبر نافد، التفت برتراند إلى سيارته. «أراكِ في المكتب..» لم تكن القصة تسير على النحو الذي خطط له. على عكس الآخرين، الذين بدوا مذعنين ومهتزين أمام الوقائع الغريبة التي تحدث، كان يشعر بغيظ عظيم. كان كل شيء في الأسابيع الماضية قد سار كما خطط منذ زمن طويل... وإذ فجأة، بدأت في الظهور صعوبات لم يكن بمقدوره قطعا التنبؤ بها. قاد سيارته مبتعدا عن مدخل الحقل كما لو أنه ينطلق في مطاردة سيارة ما.

اقترب هاردهيد من بوريس. «لا تقل شيئا عن ذلك النفق.. سننتظر حتى يرحلوا جميعا. ثم نذهب ونرى... واحترس من جوني ديب. قل له ألا يثرثر بالكلام.» وأطاعه بوريس.

«هل يمكن أن آتي معكما إلى التلين؟» تساءلت بوني.

«طبعا..» أجابها ديلينجر وعرض عليها أن يصطحباها في سيارتهما.

لكنها قالت إنها تفضل لو تبعتهما في سيارتها.

في حقيبة يدها الجلدية الصغيرة، وجدت بوني علبة أسطوانية اصطفت داخلها حباتها في ثلاثة ألوان وحجمين. تفحصتها بعين خبيرة، وانتقت أفضل ما يناسب الحالة. وعلى مرة واحدة ابتلعت أربع حبات. ولا بد أنها قامت بالاختيار الصحيح. فلبقية ذلك الصباح، لم تشعر بوني بالتعب على الإطلاق، ولا الخوف من أن تنفجر في البكاء كما كان يحدث عادة عندما يعتريها إعياء من نوع ما.

أثناء هبوطهم إلى سياراتهم، توقف والي أحمد والتفت إلى تاج أشجار الخروب على رأس الحقل الذي هبطوا منه. كان مازال يبدو هادئا جدا، جادا جدا؛ وللحظة طالت وطالت، تفحص البستان المقدس المنحوت في الامتداد الأخضر الجاف من الحقل، وفي خلفية المشهد كله كانت السماء الزرقاء والجدار الحجري المطوق للحقل. من نقطة مراقبته أيضا بدت أغصان الخروب تتأرجح بخفة، متلاعبة مع النسيم. بدا كل شيء هادئا، جميلا، نظيفا، في استعراض للربيع كما نحلم به كثيرا دون أن نراه يحدث فعلا.

عندما تحركت سيارة البروفيسورين متبوعة بسيارة بوني، التقط هاردهيد والشابان المصابيح اليدوية وفتحوا الغطاء الذي كان فوق فتحة البئر.

كان حقل الإسخريوطي خاليا الآن إلا من حفيف أوراق الخروب الذي لم يتوقف قط. للحظة، اشتد النسيم إلى درجة غير محسوسة. وتخلل كل أرجاء البستان. تأرجحت بدلة برتراند الممزقة من فوق الغصن الذي كانت معلقة عليه وسقطت على الأرض. ومع سقوطها، تمزقت شرائطها وطفت في دوائر حلزونية معقدة. اشتد هبوب النسيم أكثر، وأصبح عاصفة تقريبا. والبدلة التي تقاذفها النسيم استمرت في التفكك. انشقت

شرائح من النسيج وحملها الهواء بعيدا عن البستان... وفي خلال فترة قصيرة، كان البستان قد خلا من كل آثار القماش والخيط المتبقية من البدلة.

29.

أوقف بروفيسور ديلينجر سيارته عند جانب الطريق الساحلي، وبوني وراءه. هنا، كان الجدار الحجري قد تداعى سامحا لهم بدخول أرض قفر منبسطة تؤدي مباشرة إلى سفح التل الأول. أدركت بوني أنها أخطأت بقدومها إلى هنا مرتدية حذاء بكعب عال. بصعوبة كانت تستطيع الحركة عبر أكوام الركام. لكن كل واحد من البروفيسورين قدم لها ذراعا حتى تمكنت من أن تخطو فوق تربة طينية.

في صمت، صعدوا جانب أحد التلين المتخذين شكل الرغيفين. لاحظت بوني كيف ظل رفيقاها ينظران حولهما، مسجلين كل شيء. وأدركت أنهما قبل المجيء إلى هنا كانا قد ناقشا ما سيفعلان. ولم يكن هناك أدنى تكلف في سلوكهما، ولا إشارة على الإطلاق إلى أنهما يلعبان لعبة ما للتأثير عليها. في الحقيقة لم يوليانها انتباها كبيرا وكأنها غير موجودة. كانا عازمين على ملاحظة كل ما يمكنهما رؤيته حولهما للتحقق مما إذا كان هذا يؤكد أو ينفي شيئا ما كانا قد فكرا فيه... تأملاه بعمق... قرراه... توقعاه. وبينما كانت تسير معهما نحو قمة التل، تساءلت بوني لماذا على عكس حقل الإسخريوطي بدا أنه لا يوجد أي نسيم هنا؛ حيث يفترض المرء به أن يكون أقوى بما أن البحر كان أقرب...

بالفعل أسفلهم، كان امتداد البحر يتسع مع كل خطوة يقومون بها. وعندما وصلوا إلى قمة التل، بدا كما لو أنهم معزولون على لسان من أرض عالية محاطة بالماء. أشار والي أحمد إلى قمة التل الثاني: «هل

سنذهب إلى هناك؟»

«من الأفضل..» أجاب ديلينجر.

هبطا من الجانب الذي كان يصنع جسرا إلى التل الثاني، الأكبر من التل الذي كانوا عليه. «بُني الصغير قبل الآخر..» قال والي أحمد.

«أعتقد هذا أيضا..» رد عليه ديلينجر.

«لكن هذين التلين لم يصنعهما الناس. إنها تكوينات طبيعية..» احتجت بوني.

«نعم، هذا ما يبدوان عليه..» قال ديلينجر. «لكن تخيلي فقط... جماعة من الناس... مائة، مائتان، ألف... تجمعوا هنا منذ زمن طويل... ويبدأون في العيش في الجوار... ينشئون معابد جديدة ومقابر... ومقالب قمامة... يبنون بيوتا على أطلال بيوت أقدم... تغرق العواصف الممطرة المكان، وكل شيء يغدوا مختلطا في عجينة صلبة... ثم تأتي شمس الصيف التي تحمص عبر القرون الطين والمخلفات التي تراكمت... ويصبح كل شيء كوما محمصا متناميا... ويستمر في النمو... يصبح كتلة ضخمة بها طبقة فوق طبقة من الآثار الباقية عبر السنين، أو القرون، وبعد ذلك يصبح تلا، جبلا، من الصعب تمييزه عن بقية التلال التي نعتبرها طبيعية... لأنه مع الرياح والأمطار والشمس التي مرت عليه طوال القرون، ثمة القليل مما تبقى لتمييزه عن التلال الطبيعية...»

«هذا ما حدث لمدينة أور، المدينة التي رحل منها النبي إبراهيم إلى فلسطين..» قال والي أحمد. «وهذا ما حدث هنا.»

وصلوا إلى قمة التل الثاني. كانت تشبه سجادة مستطيلة كبيرة

مفروشة على ارتفاع كبير، متجردة من كل خضرة. وهبطت جوانب التل في طيات عريضة، امتزجت أجزاء منها مع جانب التل الأقصر الذي جاؤوا منه. وهكذا، كان بمقدورهم أن يروا أسفلهم التل الأول وخلفه بمسافة... لكن ليست بمسافة بعيدة للغاية... حقل الإسخريوطي ممتلئا إلى حافته بأشجار الخروب... ومن حولهم في كل مكان منظر البحر. تذكرت بوني مشهدا من فيلم قديم: *2001، أوديسا الفضاء*؛ حيث يمكنك أن ترى صورة لكوكب ملتقطة من كوكب آخر، بينما تشرق الشمس من خلفهما؛ هكذا نظرا إليها، بينما التل الذي كانوا واقفين عليه ينفتح بمنظور يطل على التل الأصغر الذي صعدا منه، والذي كان بدوره يوجه العين إلى حقل الإسخريوطي الذي تركوه للتوّ...

«لكن هل تقولان إنه تحت هذا التل توجد بقايا أناس عاشوا هنا، مدفونة في طبقات...؟»

«تحته وتحت التل الآخر أيضا..» قال ديلينجر.

«وهل لهذين التلين علاقة ما بحقل الإسخريوطي؟»

«هما جزء من نفس المجمع.»

«وكيف يُعقل أن أحدا لم يقل شيئا عن هذا من قبل؟»

«وماذا كان هناك ليقال؟ ومن كان ليولي الأمر أي انتباه؟ من كان ليهتم؟ كان هناك... ومازال... أشخاص كثيرون جدا متلهفون على البناء في هذه المنطقة، على تطويرها، أليست هذه هي الكلمة الصحيحة؟ إنها عملية لم تبدأ اليوم، مثلما لم يبدأ تكوين هذه التلال الآن...»

دون أن ينطق بكلمة، وبينما كان ينظر إلى الريف الجميل أسفلهم، كان والي أحمد قد قيَّم نظرياته عن التلال والحقل في صمت. وكانت

مازالت منطقية. «الآن بعد أن رأيت كل هذا... ولم أكن أتوقع ذلك... على أي حال... أعتقد أننا وصلنا إلى الاستنتاجات الصحيحة..» قال هامسا لديلينجر. لم يتحدث بصوت منخفض كي يمنع بوني من سماعه، لكن لأنه كان مهزوزا تماما بالفعل مما ميزه في المنظر من حوله.

«لم يكن لديّ شك..» قال ديلينجر. «المعلومات الأحدث التي ظلت ترِد في الأيام القليلة الماضية... والتجارب على الجماجم من مقبرة زنوبر... كلها أكدت نفس الاتجاه التحليلي.»

«وهل توافق على أنه يوجد تقارب تام مع أحدث المكتشفات حول المخطوط الموجود في جامعة هامبورج فيما يتعلق بما حدث فعلا لحملة ون-آمون؟»

«لا يمكنني أن أجد تفسيرا أفضل لكل المعلومات التي جمعناها حتى الآن والتي مازالت ترِد. في الحقيقة هي ليست قصة ون-آمون بقدر ما هي قصة صاحبك المصري الآخر: بوتو-رع.»

ضحك والي أحمد بهدوء. «أنت على حق. أحيانا أظن أن هذا هو السبب في أني أصبحت متحمسا جدا لتعلم ما حدث بالضبط لبوتو-رع. كنت أجد هذه القصة أكثر إثارة للاهتمام من قصة الفينيقيين...»

حتى لو كانت بوني مصغية بكل انتباهها، لم تكن لتفهم الكثير مما كان يقال. وكي تزيد الطين بلة، كانت مشتتة إلى حد كبير من المنظر – الذي لم تتوقع قط أن يكون بكل هذا الجمال، حتى ليكاد يترك المرء عاجزا عن النطق. أما السبب الآخر وراء شعورها بالضياع فكان أن البروفيسورين يناقشان أمورا كانت غريبة تماما عن الحياة التي عاشتها حتى الآن وعما يثير اهتمامها فعلا. إلى حد ما، كانت تركز دوما على كيفية الاستمتاع بالحياة، كيف تحافظ على وظيفة شيقة، كيف

تلتقي أشخاصا يعرفون ما يعنيه طيب العيش. ومع ذلك لم تستطع أن تبقي فمها مغلقا وهتفت بصبر نافد: «هل يمكنكما أن تخبراني عما تتحدثان؟» وعلى الفور ندمت لأنها تكلمت، خشية أن يقوم الاثنان الآخران بتوبيخها أولا، ثم يغلقان فميهما ولا ينطقان.

لكن هذا لم يحدث. بصوت ناعم، وكأنه كان يتذكر حلما رآه منذ زمن بعيد، قال والي أحمد: «عندما ترك ون-آمون أرض كيميت ليتفاوض على شراء أشجار الأرز من أجل الفرعون مع المدن الفينيقية صور وصيدا وجبيل، أخذ معه القائد المدعو بوتو-رع. والآن نعرف أن المشكلات التي ثارت في المفاوضات التي أجراها ون-آمون مع الفينيقيين تسبب فيها بوتو-رع نفسه الذي اصطحبه معه كأميرال للأسطول وقائد للجنود من كيميت... وكان مقاتلا من الدرجة الأولى، شرس وماكر، على استعداد لأن يفعل أي شيء ضروري من أجل الانتصار. نحن نشك أن بوتو-رع كان قد عومل باحتقار من حكام كيميت وثأر لنفسه بخيانة ون-آمون لصالح الفينيقيين. اضطر ون-آمون لأن يعود إلى مصر خاوي اليدين، حتى لو أن أفضل الروايات المعروفة عن أسفاره تقدم قصة أخرى. واليوم نعرف أن الفينيقيين عينوا بوتو-رع أميرالا لأسطولهم وأرسلوه ليكتشف أين يمكنهم إقامة قاعدة يؤسسون انطلاقا منها مستعمرات جديدة في وسط البحر المتوسط. بعد ذلك ولوقت طويل جدا، لم نستطع تحديد ما حدث لبعثة بوتو-رع. النقوش الباقية من الإتروسكانيين، أو القبيلة التي سبقتهم... وحكمت هذه المنطقة في الوقت الذي نتحدث عنه، تذكر قائدا غريبا، قويا كشيطان، أرسله الفينيقيون ليؤدب الإتروسكانيين. تقول هذه النقوش... أو يبدو أنها تقول... إن هذا المبعوث بنى حصنا قويا على حَلَبَة صغيرة في البحر... هذا ما يصفه النقش... وبعد ذلك، بدلا من التقدم لضرب الإتروسكانيين، أكل الشهد معهم. هذا هو التعبير الذي يستخدمونه، أو كيف يمكننا فهم

ما يقوله النقش حتى الآن. نحن...»

«من نحن؟» قاطعته بوني بأفضل أسلوب استقصائي عُرفت به في كويس كوام.

«بروفيسور والي أحمد وأنا..» أجابها ديلينجر.

«استنتجنا أن بوتو-رع جاء إلى هذه الجزيرة، ليبني قاعدة عسكرية للفينيقيين. لكنه خانهم مع الإتروسكانيين، بالضبط مثلما خان ون-آمون مع الفينيقيين. واليوم يمكننا إثبات هذه النظرية بشكل كبير.»

«اليوم؟»

«مما أمكننا رؤيته هذا الصباح، فمن الواضح أن هذا ما حدث. لم يدع الفينيقيون بوتو-رع يفلت بخيانته وكأن شيئا لم يحدث. جاؤوا إلى هنا بجيش عرمرم، وقبضوا على الأميرال الذي خانهم، وأعدموه. شنقوه وقطعوا حلقه.»

«لكن هل يمكنك أن تقول لي لماذا اليوم...؟»

رن هاتف ديلينجر. وقبل أن يخرجه، قال لأحمد: «ربما ينبغي أن نظل حذرين حتى النهاية. ربما ينبغي أن ننتظر نتيجة اختبارات الدي إن إيه على العينات التي جمعناها. سنقوم بها بمجرد عودتنا إلى الجامعة. ورغم ذلك، الأرجح أن...»

كانت فلورا بيتا لوكا مرة أخرى على الخط تسأل بإلحاح أكبر لماذا لم يصل بروفيسور والي أحمد إلى مكتبها بعد. بذل ديلينجر أقصى جهده ليهدئها. وبدأوا رحلة هبوطهم عائدين إلى السيارتين.

«على أي حال..» قال والي أحمد بصوت مازال ناعما: «فرضيتنا... دعينا ندعوها فرضية... تصبح أقوى مع كل معلومة ترد. بعد أن عرف الفينيقيون بخيانة بوتو-رع، جاؤوا إلى هنا، على هذه الحلبة

الصغيرة... قتلوه، مع كل الجنود الذين وقفوا معه... وأطلقوا حملتهم لإقامة مستعمرات في شمال أفريقيا... في قرطاجة وغيرها. وهنا، حيث نحن اليوم، بنوا أول بساتينهم المقدسة... وبدأوا أول تلالهم الأثرية... أعتقد أن بوتو-رع وهؤلاء الذين كانوا معه...ومن بعدهم من يعلم كم من الجنود الآخرين... دُفنوا تحت هذه التلال...»

وصلوا إلى السيارات في صمت، وتوادعوا وانطلق البروفيسوران في سيارتهما إلى فاليتا.

أخذت بوني وقتها. لم تكن آثار الكحول الذي شربته ليلة الأمس قد غادرتها بعد. ثم إنه بوضع الحبات التي ابتلعتها منذ قليل في الاعتبار، كانت فكرة جيدة أن تأخذ الأمور على مهل، حتى لو لفترة. علاوة على ذلك، أرادت أن تفكر فيما قيل لها توًا... كما أن الرعب الذي اجتاحها عندما اكتشفت بركة الدم على كيس نوم برتراند كان مازال معها. وكان الآن يمتزج بمخاوف غامضة، أطلقتها التفسيرات الخيالية التي سمعتها منذ قليل. غطت أشعة الشمس الدافئة كل هذا الجانب من التلال، دونما ظل في أي مكان. وبينما كانت تدخل سيارتها، رأت ما بدا مثل حزام أسود طويل ينزلق على الأرض تحت شجيرات العوسج والعشب الطويل الجاف. تراجعت خطوة للوراء. التف الحزام وشبَّ على أحد طرفيه بينما اهتزت شجيرات العوسج القريبة منه. وانطلقت صرخة رفيعة حادة. نهض الحزام الأسود أكثر، وانبثقت من العشب رأس ثعبان، تتلوى وتتصارع مع عصفور يحاول الفرار من عضة الحزام أو الثعبان الذي يمده فمه ليضرب عنقه. لم يدم الصراع أكثر من ثوان قليلة، قام خلالها العصفور بمحاولات يائسة لتحرير نفسه من قبضة الثعبان. وعندما نجح، انطلق متأرجحا وطار على ارتفاع منخفض جدا فوق العشب، مزقزقا بانفعال، في ذعر مما مر به للتوّ. واختبأ الثعبان في شجيرات العوسج من جديد.

.30

بينما كان البروفيسوران يقومان بفحصهما للتلين، ظل هاردهيد مشغولا. نزل مع الشابين إلى فتحة البئر مستخدمين نفس الحبل الذي استخدموه في المرة الأولى. وأثناء النزول، أوشكت قبضة جوني ديب أن تفلت الحبل، لكنه تشبث بعُقد الحبل وبالأوتاد المدقوقة في جدار فتحة البئر كالسلم، وتمكن من الوصول بأمان إلى القاع. نظر الثلاثة حولهم، منتظرين إلى أن اعتادت عيونهم الظلام. كان الهواء جافا ودافئا. وكانت الرائحة الغريبة التي لاحظوها أعلى فتحة البئر أقوى هنا، لكنها لم تزعجهم إلى هذا الحد، ولا واجهتهم أي مشكلة في التنفس.

«ماذا سنفعل الآن؟» تساءل بوريس، متعجبا في نفسه من حديثه بصوت منخفض.

«اتبعاني إلى حيث ينقسم النفق إلى ممرين وسنرى ما نفعله هناك.» كانوا قد هبطوا داخل ما بدا أشبه بقُمع، عنقه ينفتح على الحقل. وكان ثمة ممر ضيق يكاد يصل ارتفاعه إلى ارتفاع قامة رجل، يخرج منه إلى الظلام. أضاؤوا المصابيح الثلاثة التي أحضروها معهم وتبعوا هاردهيد إلى داخل الظلام. قبل دخول الممر، ألقى بوريس نظرة أخيرة إلى أعلى نحو السماء الزرقاء حيث لاحت من الحفرة المفتوحة داخل حقل الإسخريوطي.

كان النفق واسعا بما يكفي للسماح لرجلين أن يسيرا جنبا إلى جنب. وسرعان ما بدأ يهبط برفق. والهواء الذي بدا الغبار القديم عالقا فيه، ظل

جافا. وبينما كانوا يسيرون قُدُما، أصبحوا واعين كم لا بد أن يكون هذا المكان عتيقا. كانت الأرض التي يخطون عليها مصنوعة في أماكن منها من بلاطات طينية مكسورة، وفي أماكن أخرى من حجر جيري مقطوع من الصخر بضربات غليظة. كانت الجدران أيضا منحوتة في الصخر. ومع تآكل القرون، كان سطحها مليئا بالغبار. رفع بوريس القلِق عينيه ناظرا إلى سقف النفق. تمكن بالكاد من رؤية مما كان يتكون، لكنه بدا كما لو كان أيضا منحوتا في الصخر وتآكل بشكل أكبر حتى من الجدران. عندئذ، اصطدم جوني ديب به. توقف هاردهيد وجوني معه... رفع هاردهيد مصباحه، مظهرا لهما أنهم وصلوا إلى المفترق الذي وصفه من قبل. ثمة نفق كان يتجه يمينا، وآخر إلى اليسار.

وجَّه هاردهيد ضوء مصباحه إلى أعلى وحول المساحة المفتوحة الصغيرة التي كانوا قد وصلوا إليها... السقف والجدران والأرض... أشار إلى بقع سوداء أسفل قدميه وقال: «لقد مر حيوان كبير هنا منذ وقت ليس ببعيد..» كانت الرائحة اللاذعة التي صاحبتهم منذ أن نزلوا الحفرة قد تزايدت، وأدركوا أنهم سيشمونها طوال الوقت الذي سيمكثونه في النفق. «دعونا نذهب في هذا الاتجاه..» قرر هاردهيد ومضى في النفق الأيسر، الذي بدا أكثر ظلمة من ذلك الذي على اليمين.

«لا بد أن الهواء يدخل من مكان ما..» قال جوني ديب.

«هذا ما كنت أفكر فيه أيضا..» قال هاردهيد، الذي كان قد أبطأ الخطو. كان النفق يضيق قليلا، منحدرا مازال. توقف هاردهيد ورفع مصباحه إلى أحد الجوانب. «هذا المكان يجري استخدامه..» أعلن هذا وأشار إلى مصباح زيتي قديم مثبت في الجدار... وأخرين على شاكلته بامتداد النفق. وقال: «عندما تضاء كلها، يكون هناك ضوء كاف إلى حد كبير.» ثم أراهما كيف أن السطح الصخري تحت أقدامهم قد أصبح ترابا

أسود مع الزمن، لكنه حمل خدوشا كبيرة بدت جديدة، كما لو أن ثمة عربات دُفعت حديثا فوقه. كان مازال بالإمكان رؤية بقع ترابية في كل مكان، لكن بدا أيضا أن محاولة جرت مؤخرا لغسل الأرض. كانت جوانب الجدران مخططة بالبياض، أو الملح، الذي تخلف عن الماء أو أيا كان ما استُخدم في محاولة لغسل الأرض. وبينما كانوا يسيرون، حريصين في كل خطوة يتخذونها، أشار هاردهيد في صمت إلى ما ظن أنه يمكن أن يكون مثيرا. كان يعرف أن الشابين الواقفين إلى جواره ليسا طفلين ساذجين، ويمكنهما الوصول إلى استنتاجاتهما الخاصة عما يشاهداه.

رن الهاتف الذي كان يحتفظ به هاردهيد في الجيب العلوي لسترته. كان جيانينو، منفعلا للغاية.

«هل برتراند معك؟»

«لا.»

«أتعرف أين هو؟ أحتاج إليه على نحو عاجل!»

«كان عليه أن يعود إلى البيت.»

«أتصل به هناك وما من مجيب.»

«أين أنت؟ في المكتب؟»

«نعم، لكني حاولت الوصول إليه في كل مكان.»

«قال إنه سيذهب إلى كويس كوام بعد البيت.»

«لا يمكنني الوصول إليه في أي مكان، والأمر عاجل.»

«سآتي لأراك بمجرد أن أنتهي من هنا...»

كان بوريس قد توقف أمام الجدار الأيمن وأخذ يتفحص ما بدا مثل خدوش كبيرة في تراب الصخور. «انظرا إلى ما يوجد هنا..» قال.

«إنها أشبه بجرافيتي قديم..» قال جوني ديب.

«إنها أكثر من هذا...» قال بوريس وهو يمرر أصابعه فوق الرسومات، إن كانت رسومات، المنقوشة على الجدار. «تبدو مثل كتابة بونيقية.»

«لا تقل لي إنك تستطيع قراءتها؟» تساءل هاردهيد.

«لا، لكن خلال اليومين الماضيين... وبعد كل الأبحاث التي جعلني برتراند أقوم بها... يمكنني تمييز الكتابة البونيقية...» قال بوريس، مخرجا هاتفه المحمول. «امنحاني المزيد من الضوء.» وبينما كان هاردهيد يقرب مصباحه أكثر، التقط بوريس صورتين للنقوش، إن كانت نقوشا.

فكر جوني ديب في القيام بالمثل لكن هاردهيد أبعد مصباحه بسرعة. «من الأفضل أن نسرع. الوقت يتأخر.»

في يده، كان هاردهيد ممسكا ببوصلة صغيرة. «هذا النفق يهبط إلى أسفل، لكنه يأخذنا أيضا في دائرة واسعة.» كانت الرائحة التي تخللت كل ركن في النفق تزداد قوة ببطء.

توقفوا أمام باب حديدي على اليمين. كان صدئا للغاية وأكثر قذارة بكثير من الأرض التي مشوا عليها حتى الآن. ومع ذلك، كان واضحا أنه استُخدم مؤخرا. حاولوا فتحه ووجدوه موصدا. اقترب جوني ديب منه مدققا ليرى إن كان به ثقب ما. وجد واحدا صغيرا جدا وحاول أن ينظر من خلاله لكنه لم ير إلا الظلام، رغم أنه ظن أن بإمكانه تمييز أشكال بدت مثل صناديق كبيرة مخزنة بالداخل. فعل هاردهيد مثله واتفق

معه؛ حيث بدت له في الظلام صفوف كبيرة من ظلمة أعمق.

وضع بوريس أذنه على الباب. «هل يمكنكما سماع ما أسمعه؟» قال. «وكأن هناك الكثير من الحركة بالداخل... الكثير من الصرخات الخافتة...»

فعل الاثنان الآخران كما قال. نعم، هناك أصوات غريبة ضعيفة صادرة من وراء الباب. لكن لا هاردهيد ولا جوني ديب اعتقدا أنها تشبه أصوات حركة أو صراخ... إنها أشبه بصوت طيور تزقزق في الليل كما قال هاردهيد... أو أشبه بماء يتقاطر على حجر كما قال جوني ديب.

بعد قليل، وجدوا نقشا بونيقيا آخر (وفقا لبوريس) وبعده باب حديدي آخر، في نفس وضع الباب الأول لكنه أكبر، ومع نفس المجموعة من الأصوات المنخفضة قادمة من خلفه، ربما أعلى قليلا. كانت كل نظرة من هاردهيد قد تحولت إلى علامة استفهام، وبلغت حيرته مبلغها، بينما كانت الرائحة اللاذعة تشتد.

مرة أخرى، وبعد بضع خطوات إلى الأمام، أتوا إلى باب حديدي آخر، لكنه هذه المرة على الجانب الأيسر. كانت بوابة مصنوعة من قضبان طويلة صدئة. وخلفها كانت هناك مساحة مفتوحة صغيرة، ثم درجات تهبط في الظلام. ومع ذلك، لا بد أن أحدا ما كان يدخل ويخرج من البوابة؛ لأن مصباحا زيتيا كان موضوعا في كوة بالجدار حيث كان يبدأ الدرَج. دفعوا بأيديهم البوابة، لكنها كانت موصدة.

أخرج هاردهيد عملة من فئة الخمسين سنتا وألقى بها في الظلام. كان بمقدورهم سماع العملة تتدحرج نازلة الدرجات ثم تسقط على عمق كبير؛ لأن ما أحدثته من دويّ حيثما اصطدمت بالصخر تردد على نحو متكرر. ألقى عملة أخرى وارتدت إليهم أصداؤها على نحو شبيه.

«يبدو أن هناك أقبية كبيرة بالأسفل..» قال جوني ديب.

«أو سراديب لحفظ جثث الموتى..» أجابه هاردهيد متجهما.

أشار جوني ديب إلى نقش على الحائط خلف البوابة، أكبر من النقوش التي رأوها حتى الآن. «هذا ليس بالبونيقية..» قال بوريس. «ويبدو أنه نُقش بعد زمن أطول بكثير من النقوش التي رأيناها من قبل. إنه باللاتينية...»

«أراهن أنك تستطيع قراءته..» قالها هاردهيد ساخرا.

«ثمة أجزاء منه يمكن بالكاد رؤيتها..» أجابه الشاب، لكنه بعد ذلك بدأ يقرأ مغمضا عينيه نصف إغماضة: «عظام العدو الذي جاء عبر البحر، ولتتنزل عليه اللعنة، حرقناها وألقينا بها عند بوابة الجحيم... تقول الكتابة شيئا كهذا.»

«أترى؟ كنت محقا عندما قلت يوجد مكان لحفظ الجثث..» قال هاردهيد وهو مندهش من معرفة بوريس، لكنه فضل ألا يُظهر هذا.«بوابة الجحيم؟» قال جوني ديب الذي كان على وشك التقاط صورة للنقش، لكنه تراجع.

ما كاد بوريس ينتهي من التقاط صورة بهاتفه حتى جاءته رسالة نصية من جيانينو: «بور، لم أستطع الوصول إليك؟ أين أنت؟ هل برتراند موجود؟ أحتاجه بشدة.»

«أهذا جيانينو مرة أخرى؟» كان هاردهيد مندهشا. لا بد أن شيئا خطيرا قد حدث. «دعنا لا نبقى هنا طويلا.»

لم تكن الرائحة اللاذعة فقط قد غدت أقوى، بل بدا أن الهواء أيضا صار أغلظ، وكأنه أُثقل بعفن رطب. ورغم ذلك كان المكان هنا أيضا

جيد التهوية بطريقة ما. وثمة مصابيح زيتية أضيئت مؤخرا مثبتة في الجدران... غدا النفق مستويا ولم يعد هابطا. وأكدت بوصلة هاردهيد أنهم يتبعون ببطء دائرة واسعة.

هذه المرة، سمعوا بالتأكيد صرخات قادمة من مكان قريب. نظروا إلى بعضهم البعض، غير متيقنين مما ينبغي أن يفعلوه. كانت الصرخات أشبه ببكاء طفل متعب للغاية. إلى اليمين كان هناك باب آخر من حديد صلب، ومن ورائه أتى نوعان من الصرخات أو أصوات الحركة أو الصفير أو تساقط ماء... نفس الأصوات التي سمعوها صادرة من وراء الأبواب الأخرى، بالإضافة إلى صراخ مستمر من مكان قريب للغاية. رفع هاردهيد مصباحه ليرى إن كان هذا الصراخ الرفيع الجديد يأتي من علٍ، لكن جوني ديب أشار إلى دعامة الباب.

كان جرذ أسود ضخم عالقا بين الباب والحائط حيث حشر نفسه لسبب ما. لا بد أنه كان متلهفا حقا على الهروب من وراء الباب، وتمكن من إخراج نصف جسده، لكن بقية جسده انحشرت بعد ذلك ولم يعد بمقدوره الحركة، عالقا بين الحديد ودعامة الباب. كان في ألم هائل، وعيناه جاحظتان من الخوف والعذاب، وقد مط جسده خارجا باستمرار، صارخا تلك الصرخات الرفيعة التي سمعوها عندما اقتربوا. شاعرين بالصدمة والقرف شاهد الرجال الثلاثة ذلك الحيوان يجاهد لإخراج جسده من حافة الباب الحديدي. والآن صار مرعوبا أيضا من وصولهم غير المتوقع، الذي قاطع نوبة عذابه، وازدادت عيناه حمرة. رفع هاردهيد قدمه وهبط بها بما في استطاعته من قوة على رأس الجرذ وخطا راجعا حتى لا يلتقط أي براغيث. وقال: «هكذا أفضل..»

بقدر ما تكشفت مغامرة هذا الصباح، كان الشابان بوريس وجوني ديب قد بدآ يشعران بالقلق؛ وجاءت الحادثة الأخيرة لتزيد من حدة

توترهما. إجمالا، هم لم يستكشفوا النفق لمدة تزيد عن خمس عشرة دقيقة، لكنهما شعرا كما لو أن ساعات مرت. بموت الجرذ الذي سحقه هاردهيد، فإن أصوات الحركة المستمرة (أو الزقزقة، أو الصراخ الخافت، أو تساقط الماء) التي كان يمكن سماعها قادمة من وراء الباب الحديدي، أصبحت أكثر وضوحا. بدا وكأن خلف الباب، حيث تكدست في الظلام كتل من صناديق سوداء أو أيا كانت، آلافا من الأقدام أو الأجنحة أو مخالب السلطعونات أو براثن القطط تدق وتدق دون توقف...

وكي تزيد الأمور سوءا، أصبح سقف النفق في هذا الجزء منخفضا. وكي يتقدموا كان عليهم أن يمضوا منحنين. شعر بوريس بأول دفقة من رهاب الأماكن المغلقة... وقال لنفسه ألا يبالغ، فلا حاجة هناك للذعر. كان انحدار الممر في البداية إلى أسفل، لكنه الآن صار إلى أعلى. وباستثناء الرائحة التي أصبحت أكثر حدة مع كل خطوة يخطونها، كان بإمكان المرء مازال أن يتنفس بسهولة.

المصباح الذي رفعه هاردهيد عاليا أظهر على يسارهم بوابة حديدية أخرى. خلفها، لم يكن هناك إلا الظلام. قبض هاردهيد على أحد القضبان الحديدية وهزه. حذا جوني ديب حذوه. ارتج المعدن بقوة، لكن البوابة ظلت متماسكة. ثم رأى بوريس جوالا، موضوعا إلى جوار البوابة ويبلغ ارتفاعه ركبة الإنسان.

انحنى ليفحصه. كان مليئا بالتراب. هزه برفق، وسقطت نصف جثة بين أرجلهم... رأسها وشعرها وشفتاها وكتفاها وضلوعها يضمها جسد نحيل جاف، لونه يتراوح بين البني الفاتح والرمادي.

هذه المرة ارتج ثلاثتهم بشدة حتى أنهم حدقوا في بعضهم البعض لفترة. وبدا أن الرجل الميت لدى أقدامهم، الذي سقط نصفه من الجوال، كان يحدق فيهم أيضا بمحجري عينيه الخاويين. كان وجهه بعظام

وجنتيه البارزتين مشقوقا بجرح أسود جاف امتد من أسفل حلقه وفكه إلى جبهته.

«لقد قُتل هذا الرجل.» قال جوني ديب.

في البداية، لم يرد أحد. ثم ركع هاردهيد إلى جوار الرجل الميت وقرَّب مصباحه. «نعم، لقد قُتل. لكنك لست بحاجة لاستدعاء مفوض الشرطة. فقد مات هذا الشخص المسكين منذ زمن طويل.»

ما قاله شجع بوريس أيضا على أن يركع إلى جوار الجثة، متخذا حذره جيدا كي لا ينظر أقرب من اللازم إلى التحديقة الثابتة التي أعطت غالبا الانطباع بأن الرجل الميت كان يضحك. ولم ينظر بقوة إلى الصدع الأسود الناتج عن الجرح الفظيع الذي شق وجه الرجل وجمجمته. «لا أعرف من يكون..» قال بوريس. «لكنه كما قلت، ميت منذ زمن طويل. يبدو كمومياء قديمة... ومع ذلك، لا يبدو أنه مر بعملية تحنيط.»

«لقد تلقى هذا الجرح في معركة كبيرة..» أكد هاردهيد، الذي مر به وقت شارك هو نفسه خلاله في معارك عديدة. «أو أنهم قتلوه بشق حلقه على اتساعه...»

«لكن كيف أتى إلى هنا؟» تساءل جوني ديب.

«أنا واثق أنه لم يمش كل هذه المسافة..» رد هاردهيد. وبقدمه أزاح الجوال من حول الجثة. «كنت على حق. هذا نصف جسده فقط، لقد تم فصله نصفين ووُضع في هذا الجوال. أحضره شخص ما إلى هنا وبعد ذلك نسوا كل شيء عنه.»

في توتر، توقفوا قليلا ليفكروا فيما قيل للتوّ. في الصمت، كان يمكن بوضوح أكبر سماع صوت الصراخ الخافت الذي أتى من الحجرات،

إن كانت حجرات، خلف الأبواب الحديدية. وكانت الرائحة اللاذعة قد أصبحت من القوة بحيث بدت تزيد من حدة الصراخ، الذي كان يصدر عن مائة ألف حلق... إن كان بالفعل ما يسمعونه هو صراخ.

كان هاردهيد أول من أدرك أن خطوات ما تقترب من بعيد أمامهم... أو ربما لأن النفق كان ينحني في دائرة واسعة سُمعت الخطوات وكأنها من هذا البُعد. ثم هدأ صوت الخطوات. ربما من كان يقترب، أيا كان، انتابه الشك... وأدرك وجود أشخاص في النفق. مرة أخرى أمكن سماع الخطوات، تتراجع. انطلق هاردهيد يعدو. وبدأ صاحب الخطوات، أيا كان في العدو أيضا. هنا، كان النفق ينحني بشكل أكثر حدة مما كان حتى الآن، لذا لم ير هاردهيد من كان يعدو أمامه. وبينما كان يجري، سمع ما بدا صوت بوابة حديدية تغلق بارتجاج هائل، وأصوات سلاسل تُسحب بسرعة. وعندما انعطف عند الزاوية، رأى أمامه بابًا حديديا يفصله عن بقية النفق. لكنه ظن أنه لمح أيضا ظلا خلف الباب تلاشى في اللحظة التي رآه فيها. وعندما وصل إلى البوابة، وجد أن الهارب أيا كان قد تمكن من إغلاقها بقفل ضخم وسلاسل.

اندفع بوريس وجوني ديب بطريقة خرقاء خلف هاردهيد. كانا قد أصبحا معتادين على أنه ينير الطريق أمامها. مبهوري الأنفاس، انضما إليه بينما كان واقفا أمام البوابة التي تسد الطريق المؤدي لبقية النفق. كانت الرائحة النتنة اللاذعة هنا طاغية حتى أنها جعلت التنفس صعبا. رفع هاردهيد مصباحه عاليا كي يرى بشكل أفضل ما وراء البوابة. لسبب غريب ما لم يتمكن هو نفسه من فهمه، شعر بالغضب. ربما امتزج بهذا الغضب خوف ما. لكن الشابين الواقفين بجانبه كانا مرعوبين.

انحنى النفق أمامهم عبر قوس حاد. وعلى الجانبين، تكومت الأجولة. لم يكن بمقدورهم رؤية ما تضمه. أعطى هاردهيد مصباحه إلى جوني

ديب وبدأ يدفع بكل قوته قضبان البوابة الحديدية. أزاحت جهوده شيئا ما كان موضوعا عاليا في أحد جوانب النفق، فبدأ ينزلق هابطا، وبدوره أزاح شيئا آخر بدأ يتحرك، وبغتة سقط ظل أسود بصوت مكتوم على البوابة. تراجعوا إلى الخلف صارخين.

انزلقت على البوابة ثلاث جيف بمحاجر عيون فارغة وتكشيرة متجمدة على وجوهها المدبوغة وسط سحابة صغيرة من الغبار. أصبحت وجوهها الثلاثة محشورة بين قضبان البوابة وبدا أنها تضحك عليهم. لم يدم أثرها إلا لحظة قصيرة، لأن جوني ديب المرعوب بشدة أسقط المصباحين اللذين كان يمسكهما. انكسر أحدهما. في الظلام الذي تكاثف حولهم، انتابهم إحساس رهيب بأن الجثث الثلاث تعود إلى الحياة. وازداد خوفهم عندما بدا أن واحدة أو اثنتين منهم تضرب رأسها في القضبان الحديدية. في تلك اللحظة، لم يكن بمقدور الرجال الثلاثة التفكير في أن هذا لا يمكن أن يكون الحال بالتأكيد.

بذل هاردهيد مجهودا كبيرا كي يلتقط المصباح الذي كان مازال يعمل. بدت الجثث الثلاث العالقة في القضبان وكأنها تضحك في صمت وابتهاج عليهم وهي متدلية من البوابة. كانت الجثث الثلاث كلها بها جرح شق كبير من تحت الفك إلى ما وراء الأذنين إلى قمة الجمجمة. تأرجحت اثنتان منهم بزاوية مستحيلة أمام قضبان البوابة، مصطدمة بها مثل بندول الساعة، أو مثل رجال مشنوقين يتدلون من مشنقة.

.31

تأكد برتراند من إغلاق هاتفه المحمول. كان يريد ساعة أو ساعتين مع نفسه. بمجرد أن وصل البيت، أخذ دشا باردا وصنع بعض القهوة القوية. وجاءت المكالمة التي كان يتوقعها.

«كيف يسير بنا الحال؟... اعتاد ونستون تشرشل أيضا أن يوصي بهذا المكان... هل استقبلك أصدقاؤنا استقبالا طيبا؟... مبروك... هذا ما أود أن أسمعه... طيب... إما سأتلقى منك خبرا... أو ستتلقى مني خبرا... تحياتي.»

بينما كان يتكلم، أحس بالدهشة مما كان يحدث. كان يمسك فنجان القهوة بيد، وبالأخرى الهاتف الأسود: ثم انكسر مقبض الفنجان وانسكبت القهوة الساخنة كلها على فخذيه. بالتأكيد كان الفنجان تالفا ولم يلاحظ هو من قبل. بمجرد أن انتهت المكالمة، نهض لينظف الفوضى.

كان الآن بحاجة إلى بعض الوقت ليفكر في ما ينبغي أن يقدمه خلال تسجيل كويس كوام مساء الغد في حقل الإسخريوطي؛ وكان بحاجة للتفكير في هذه الفكرة كلها الخاصة ببرنامج عن الأشباح... الفكرة التي أطلقها ليحول دون انطفاء وهج كويس كوام، بعد أن قضى أسابيع بعد أسابيع متعاملا مع الأمر بتراخٍ... لأنه في النهاية، كان برتراند يعشق كويس كوام. مرت فترة طويلًة، قبل أن يدرك أن بمقدوره أن يعمل ما هو أفضل لنفسه بأن يلعبها بطريقة مختلفة، عندما كان كويس

كوام هو هم حياته. هكذا يحدث الأمر: تأتي فترات يدور فيها كل شيء حول مشروع يبدو شديد الأهمية، شديد الفائدة، شديد الجمال؛ وبعد ذلك -مع الوقت-تهدأ، أو العكس: يهدأ تأثير المشروع عليك، أو يحدث كلا التطورين في نفس الوقت. وما بدا جميلا على نحو خيالي منذ وقت ليس بالبعيد، يصبح رتيبا ومملا. لذا عليك أن تغير السرعة دون أن تجعل أحدا يلاحظ. أحيانا تعمل مع هذا الشخص أو ذاك وتفعل مثلما يفعل... لأن هذا يناسبك، لا لأن هذا يناسبه، وبعد ذلك في وقت آخر تكون مع ذاك الشخص الآخر؛ لأن هذا يناسبك، وليس لأنه يناسبه.

شعر بالعطش فعلا وكانت القهوة تجعله يشعر بمزيد من العطش. ذهب ليصب كوبا من الماء. وما إن وضعه على شفتيه، حتى تحطم الزجاج في يده. ماذا يحدث؟ بدا أنه أمسكه بقوة أكبر من اللازم بين أصابعه.

لكي يفكر في كل هذه الأشياء، كما هو في حاجة لأن يفعل، لم يكن بمقدوره تحمل هاردهيد وهو يجادل في كل شيء من حوله. فلكونه مفرط النشاط، لا يفهم هاردهيد أنه كي تتخذ قرارات جيدة في الحياة، عليك أن تعلم كيف ترجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين، وتدع الأحداث تتخذ شكلا. ولا كان بحاجة لبوني في هذه الفترة القصيرة التي يقضيها مع نفسه. كانت تساوي وزنها ذهبا، صحيح، لا توجد طريقة أخرى لوصفها، سواء في العمل الذي تنجزه أو عندما يتعلق الأمر بالاستمتاع معها بالحياة في لحظات أخرى... عندئذ كانت خيالاتها المزعجة تفتنه ببساطة. لكنها يمكن أن تغدو قلقة أكثر من اللازم، ومعتمدة أكثر من اللازم على الأقراص التي تأخذها بين يوم وآخر، كي تحتفظ بأي متعة في حياتها، ورغم أنها كانت متحمسة في العمل مثلها مثل هاردهيد، فإنها كانت أيضا راغبة في معرفة كل شيء: تخيل هذا!

جلس متكأ بظهره على الأريكة، حريصا الآن في الطريقة التي يمسك بها كوب الماء الثاني في يده. أيا كان ما قاله لنفسه وللآخرين، كانت أحداث هذا الصباح، أو بالأحرى ليلة الأمس، قد هزته قليلا... ربما كثيرا. كان متأكدا أنه بعد أن شرب زجاجة البارولو، تمتع بنوم طويل غير منقطع. نام نوما هنيئا حتى أنه عندما استيقظ بعد فترة قصيرة من الفجر، قرر أن يعود إلى النوم! ومع ذلك، كان الدم على كيس النوم حقيقيا، لا شك في ذلك. وبعد أن اكتشفته بوني، بدأ الدم في التخثر بسرعة شديدة. إذًا من أين جاء؟

كان الآن متشككا جدا في الفكرة... التي مرت بذهنه في البداية... أن شخصا ما لعب عليه في مقلب فعلي. من يمكن أن يفعل هذا؟ هاردهيد؟ أم جيانينو؟ الاثنان ليسا من هذه النوعية من الأشخاص. بوني نفسها... كان قد رآها تتصرف بغرابة شديدة هذا الصباح... لكن هذا كان بسبب أنها سهرت لوقت متأخر تعب الشراب مع البروفيسور والي أحمد، أو هذا ما قالته. هل يمكن أن يكون الأمر أنها أرادت أن تعاقبه على عدم السماح لها بالبقاء في الحقل لقضاء الليلة؟ لا يبدو هذا ممكنا. تذكر أن معها ومع والي أحمد، كانت توجد فلورا أيضا... في المرة التالية التي سيتكلم فيها مع الأخيرة، سيجعلها تحكي له ما حدث، ويتأكد إن كانت ستعطيه نفس الرواية التي حكتها له بوني. لكن يظل السؤال: من أين جاء الدم؟ وماذا يعني كل هذا؟ ثم كانت هناك تلك الأعطال التقنية الغامضة... موت أجهزة مشروع دروسيلا خلال الليل... ملفات الفيلم التي أرسلها جيانينو إلى أستوديوهات كويس كوام تصبح خالية... هل لدى ديلينجر –نعم أم لا؟– أسباب معقولة لتحذيره كي يحترس، عندما قرر العمل على زنوبر وحقل الإسخريوطي كموضوعات لكويس كوام؟ لكنه كان ديلينجر نفسه من اقترح القصة أولاً. ربما في التحليل الأخير، كانت المشاكل تثور لأنهم تورطوا في هذيانات رجل قضى من حياته

وقتا أكثر مما يجب في مشاريع علمية جعلته مجنونا في النهاية...

حان الوقت لأن يغادر إلى اجتماع عمل كويس كوام الصباحي في المكتب. وما إن فتح هاتفه، حتى رنَّ.

«آلو يا ريّس. كنت أبحث عنك. أين كنت؟»

«سأكون في المكتب بعد قليل يا جيانينو. هل أنت هناك؟ ماذا حدث؟»

«من الأفضل أن تأتي بأسرع ما يمكنك. لقد شاهدنا فيلم ليلة الأمس...»

«لا تقل لي إنه فارغ...؟»

«لا، لا، إنه... جيد. لكن من الأفضل أن تأتي لترى ما يوجد فيه، لهذا كنت أبحث عنك.»

«أنا أشخر فيه كله، أليس كذلك؟ اسمع إذا أذعت ولو قليلا من شخيري في الفيلم، سأقتلك.»

«برتراند، تعال وشاهده! أنا لا أتحدث عن شخيرك.» بدت كلمات جيانينو أشبه بأمر، وتوتر صوته بطريقة لم تكن معتادة بالنسبة له.

فجأة تحدث برتراند برزانة: «سأكون هناك حالا.»

ثم اتصلت فلورا. «برتراند، كيف حالك؟ هل يمكنك أن تقول لي أين أجد بروفيسور والي أحمد؟ أنا أتصل به طوال الصباح، وبروفيسور ديلينجر يقول لي طوال الوقت: نحن قادمان، نحن قادمان، نحن قادمان، ولم يظهرا بعد! ليس جيدا أن يتهربا منا بهذه الطريقة. في النهاية كان المعهد الوطني للثقافة هو من أتى به إلى هنا! هذا الصباح

أردت شخصيا أن أريه معرضنا عن الفينيقيين، عندما لا يكون هناك زائرون... لكن الآن الوقت يتأخر. هل تعرف ماذا يحدث؟... أم ترى أنك العقل المدبر الذي قرر ألا يدع البروفيسور يخرج ويقابل الناس؟!»

استمع إليها في صبر؛ هذه المرة كان صوتها قد أسقط عنه خلفية شقشقته من عصافير الزينة الحلوة. «فلورا حبيبتي، لا أعرف أين هما. أعرف أنه كان عليهما أن يأتيا ويقابلاكِ في المعهد لكن بالنسبة لــ...»

«أين رأيتهما؟ هل حدث أن كانا مع فتاتك بأي نوع من المصادفة؟»

«فتاتي؟ أي واحدة؟»

لم تختف العصافير فقط من صوت فلورا، بل يمكنك أيضا تخيل أن حل محلها زعيق صقر غاضب وهو يسنُّ منقاره قبل عملية قتل. «تلك الفتاة التي أرسلتها أمس... كي تتفاخر... بوني التي كان من المفترض أنها تمثلك... لا تقل لي إنها ظلت تشمشم حولهما هذا الصباح؟»

«لا أتمنى هذا. كان لديها الكثير من الأشياء الأخرى كي تفعلها من أجل هذا البرنامج البالغ الأهمية الذي نسجله هذا الأسبوع. قولي لي، كيف كان الأمر أمس مع بروفيسور والي أحمد؟»

«أوه، مضى كل شيء على خير حال، على الأقل هذا ما ظننته. بمَ أخبرتك بوني؟ إنه شخص مثقف للغاية، بارع أكاديميًا ورجل ذو حساسية عالية التحضر، بالضبط من نوعية الرجال التي أعشقها. على أي حال، آمل ألا تكون بوني قد أضجرته حتى الموت. أحيانا، يكون هناك ذلك الشيء فينا نحن النساء المالطيات... نعتقد أسرع من اللازم أن الرجال الأجانب يصبحون ولهانين بمجرد أن يروننا نشاغلهم بعيوننا، وأي عيون إذًا...! عيون من لوز مذاب، ألا تعتقد هذا؟ أعتقد أن الأمور ينبغي أن تظل على أعلى مستوى احترافي...»

«قالت بوني إنكم سهرتم جميعا إلى وقت متأخر جدا تشربون في ملهى الفندق البونيقي.»

«كان لدينا تفاصيل كثيرة نناقشها حول كيف يود المعهد التعريف بالثقافة الفينيقية بشكل أفضل في بلدنا كنتيجة لمعرضنا... لكني أخشى أن أقول إن بوني كانت مهتمة أكثر بجوانب أخرى... لكني لا أعرف ماذا أفعل إن لم يأت ديلينجر وبروفيسور أحمد هذا الصباح...»

«وماذا عن الرئيس؟ ماذا حدث له؟» سألها برتراند بخبث.

«آه! لقد أرسل السيد أوروري رسالة أخرى ليبلغني أنه مازال أمامه يومان آخران في الأجازة ويسأل كيف تسير بنا الأحوال. رددت عليه أنه ليس بحاجة لأن يقلق... سأهتم بأمر البروفيسور وكل شيء يمضي بخير... لحظة، يبدو أنهما وصلا توًا إلى مكاتبنا، نعم! نعم! إنهما قادمان، إنهما يدخلان...! ولم يكن لديّ حتى الوقت لألقي نظرة سريعة في الـ... لا بد أن أذهب، باي، باي!»

قبل أن يتمكن من المغادرة، كانت هناك مكالمتان أخريان. لكنه ترك الهاتف يرن. وبينما كان يغادر البيت، جاءت مكالمة أخرى تركها أيضا دون رد، خاصةً عندما اكتشف أنه دون أن يعي ما كان يفعله، لوى مفتاحا للباب كان يمسك به بين أصابعه... حتى أصبح يشبه سنارة صيد.

.32

اجتمع ثلاثتهم في استوديو المونتاج، شاعرين بالانزعاج. كان جيانينو –الذي عادة ما يتجاهل برتراند وبوني تقلباته المزاجية– قد نجح في جعلهم متوترين. كان هاردهيد وبوريس مازالا غائبين... لا أحد يعرف أين ذهبا بالضبط. قبل أن يبدأ عرضه، قام جيانينو بالتخلص من التقنيين العاملين في الاستوديو. كانوا قد حققوا تقدما طيبا في مونتاج مقاطع الفيلم الذي من المفترض أن يُعرض مساء الغد عندما يتم تسجيل الحلقة الأولى من كويس كوام في حقل الإسخريوطي.

«هل يمكنك أن تخبرني لمَ كل هذا الهراء؟» تساءل برتراند بصبر نافد. «هل تعلمين ما يرمي إليه؟»

هزت بوني رأسها نافية.

بعد أن أغلق باب الأستوديو بحرص كبير، ذهب جيانينو إلى وحدة التحكم في المونتاج، وفتح ملفا يضم تصوير الكاميرات لليلة الماضية. بعد قليل، كان يعرض على إحدى الشاشات مشاهد مأخوذة من الحقل، تبعتها سلسلة لقطات تم تصويرها في مساحة الخلاء تحت أشجار الخروب. كان يمكن رؤية برتراند، ومعه أعضاء الفريق الآخرون، يتأكدون من أن كل شيء مجهز بشكل جيد كي يتمكن المذيع التليفزيوني من الذهاب للنوم. كانت جودة الصور عالية. بدأت تظهر لقطات تركز على المكان المحدد لنوم برتراند. وظهر وهو يدخل كيس نومه، ويتمدد. استمر هذا لبضع دقائق. ثم حدث قطع. «مازلنا بحاجة لمونتاج هذا

الجزء، إذا كنا ننوي استخدامه.» أوضح جيانينو. ولم يستطع تجنب إبداء ملاحظة أخرى: «قطعنا هذا الجزء كما تعلم... كلنا لدينا ما نعترف به من خطايا. البعض يأكل أكثر من اللازم، والبعض يشم الكوكايين أكثر من اللازم، والبعض يشرب أكثر من اللازم... هذا هو الجزء الذي كنت تشرب فيه نبيذك. أنا متأكد أنك لا بد كنت جائعا... كان ينبغي أن تُحضر معك شيئا لتأكله، وليس النبيذ فقط...»

قضوا وقتا آخر يشاهدون تصوير برتراند وهو يتمدد مرة أخرى، استعدادا للنوم. انغلقت عيناه. تقلب مرة، أو مرتين، ونام. أو هكذا بدا. في هذه المرحلة، كان برتراند يتوقع أن تمزح بوني ساخرة منه. لكنها ظلت صامتة. مرت دقائق أخرى بهذه الطريقة. وبشكل منتظم، وفقا لخطة مبرمجة بالكومبيوتر، كانت الكاميرا تقرب الصورة من المذيع التليفزيوني النائم وتُظهر وجهه بتفصيل كبير، وبعد ذلك تعود إلى التصوير من بعيد بحيث تقدمه الصورة راقدا في كيس النوم محاطا بالمشهد الطبيعي. «هل أحضرتنا هنا لنشاهد هذا الشيء الممل؟» زمجر برتراند. مال جيانينو على وحدة التحكم ووضع الفيلم على سرعة التقديم المضاعفة، ثم الثلاثية، ثم إلى ست عشرة مرة ضعف السرعة العادية. وأعاد الفيلم إلى السرعة العادية عند علامة ما كان قد وضعها من قبل.

هنا كانت الكاميرا في وضع الصورة المقربة على المذيع التليفزيوني، الذي كان نائما على ظهره. في الزاوية اليمنى الأدنى من الشاشة، ثمة ساعة إلكترونية تبين الوقت الذي مر منذ بدأت الكاميرا في التصوير.. كانت جودة الصورة ممتازة؛ والكاميرا التي اشتروها للتصوير الليلي تقوم بعمل جيد، أفضل بكثير من المتوقع. وفجأة، بدأ برتراند يشخر، أولاً في نغمات مطولة صغيرة، وبعد ذلك باندفاعة قوية مباغتة. بدت كل نخرة قادمة من أعماق جوفه. استمر على هذا الحال دقيقة كاملة أو أكثر.

نهض المذيع التليفزيوني، صائحا بغضب، رغم أنه كان يشعر أيضا بالارتياح لمجرد أن أدرك أن جيانينو يلعب لعبة. كان يخشى أن يكون شيئا خطيرا، حتى لو لم تكن لديه أي فكرة عما قد يكون هذا الشيء... «كنت تحاول الإيقاع بنا اليوم يا جيان! هذا يكفي! فقط تأكد من حذف هذا الجزء وإلا سأقتلك!»

نقلت بوني نظرها من واحد إلى الآخر، بنصف ابتسامة على شفتيها، وكأنها أيضا تخففت من خوف ما كان يعتريها، لكنها مازالت غير واثقة تماما من أنه لا شيء هناك لتقلق منه.

من جانبه، ظل جيانينو هادئا وبلا تعبيرات. رفع يدا ليوقف احتجاجات برتراند. «تفرج فقط..» قالها بطريقة عنيفة تقريبا.

ببطء أصبح شخير النائم عميقا وناعما. والآن لم يعد هناك صوت تنفس على الإطلاق. كانت الكاميرا تنسحب إلى الخلف وصار بمقدورهم رؤية برتراند بطوله كاملا في كيس نومه. دخل شيء أسود إحدى زوايا الصورة، قام بحركة دائرية، ثم ظهر بوضوح في الشاشة. اقترب من النائم. ورغم أن الكاميرا كانت في وضع التصوير من بعيد، إلا أنهم تمكنوا من تمييز جرذ أسود كبير، أو لعلها الكاميرا التي أظهرته أسود اللون. ثم ظهر جرذ آخر على الشاشة، أكبر من الجرذ الأول. بلغ الاثنان النائم، وتشمماه، وقرضا قليلا في كيس النوم، واحتكا بوجهه. تسلق أحدهما صدره. كان الجرذان يتقدمان بحركات متوترة لكنها مصممة.

حدق برتراند في الصور الظاهرة على الشاشة متجمدا. وبينما كان يتفرج، أحس بقرف كامل من الاعتيادية التي دخل بها الجرذان المساحة التي كان ينام فيها، وتفحصاه وعايناه، واحتكا به. بدا وكأنهما قضيا وقتا طويلا جدا يفعلان هذه الأشياء. اقتربت الكاميرا مرة أخرى، لتركز على وجهه وكتفيه، وبالمثل التقطت من مسافة شديدة القرب

وجه الجرذ الكبير وهو يتحرك قرب وجه النائم. متصلبةً في مقعدها، وضعت بوني يديها على عينيها شاعرة بالغثيان، وشاهدت الصورة من بين أصابعها.

أخيرا، رحل الجرذان. أوقف جيانينو الفيلم.

نهض برتراند. «هل كنتَ نائما خلال هذا كله؟» تساءل.

«مثلك وربما أكثر.»

«من الأفضل أن أذهب لآخذ حقنة ما... ما الأفضل في رأيكما؟ تيتانوس؟»

كانت بوني قد أبعدت يديها عن وجهها. وبدت قلقة. «ولم تشعر بشيء قط؟»

«إنها أول مرة يأتي فيها أحد ليداعبني وأنا نائم ولا ألاحظ..» ضحك بوجه كان متصلبا من القلق أكثر حتى من وجه بوني. «على الأقل نعرف الآن ما يحدث عندما تذهب للتخييم. لهذا أفضل دائما الفنادق ذات الخمس نجوم.»

«يا ريّس..» قاطعه جيانينو بصوت غريب عندما أدرك أن برتراند على وشك أن يغادر الأستوديو. «لم نر كل شيء بعد. اللحظة الكبيرة لم تأت حتى الآن.»

جلس برتراند في أول مقعد وجده متاحا.

كانت الشاشة تُظهر برتراند مرة أخرى من مسافة قريبة جدا. وكان الشخير قد بدأ من جديد. بدا هذه المرة أقوى وأكثر إلحاحا. كان غريبا أن ثلاثتهم لم يضحكوا أو يبتسموا على هذا، حتى لو كان المذيع التليفزيوني يحس الآن بحرج بالغ. مرة أو مرتين، اقتربت الكاميرا من

النائم وبعد ذلك ابتعدت. وكان برتراند على وشك أن يحتج بأن جيانينو يمط العرض أطول من اللازم، لكنه ظل هادئا بشكل غريب. كان قد أخذ من منضدة قريبة أداة صغيرة تُستخدم لإصلاح الحواسيب، لعلها كانت مثقابا أو مخرزا، وأخذ يلهو بها في عصبية بين أصابعه.

توقف الشخير. كانوا في مرحلة يتم التصوير فيها من بعيد، لذلك ظهر برتراند على الشاشة بكامل طوله، محشورا داخل كيس نومه. بدأت الصورة تظلم. على الأقل، ذلك ما ظنه برتراند وبوني اللذان كانا يشاهدان الفيلم لأول مرة – أن الكاميرا تتعطل. ثم أدركا أن هناك ما يشبه الظل ينتشر فوق الشاشة من الزاوية اليسرى السفلى، ويرتفع ببطء إلى الزاوية اليمنى العليا، ظل يلوّح مثلما تلوّح راية، أو ستار أسود يُجذب بوصة بوصة فوق الشاشة... ببطء، ببطء شديد حتى أنه عندما بدأت الكاميرا تعود للتصوير عن قرب، على وجه النائم، كانت سرعة الزووم أكبر من المعدل الذي ينتشر به الظل على الشاشة. وعندما ركزت الكاميرا من جديد على وجه النائم، كان الظل الأسود المتموج قد امتد فوق الشاشة كلها، مغطيا كل ركن.

«هذه الكاميرا حدث بها عطل..» قالت بوني.

«مازالت تعمل بشكل طيب..» رد عليها جيانينو.

لفترة، بدت كالأبد، راقبوا الظل الأسود وهو يتمايل عبر الشاشة، مخفيا النائم. لم يكونوا قد أولوا انتباها كبيرا، لكن منذ البداية كانت الكاميرا تلتقط أصوات حفيف أوراق وأغصان الخروب؛ والآن، عندما أصبحت الصورة في ظلام تام، أمكنهم سماع تلك الأصوات وكأنها لأول مرة... حفيف رتيب ومصمم.

وعندما كان يتوجب على الكاميرا أن تبتعد في تركيزها باللقطة

المكبرة الكاملة على وجه النائم لتُظهره بطوله الكامل، بدأ الظل المتموج يتحرك... بدأ يكشف الزاوية اليسرى السفلى من الصورة وينسحب إلى الزاوية اليمنى العليا... ومرة أخرى، ظهر المشهد الليلي تحت أشجار الخروب، والكاميرا تُظهر كيس النوم من بعيد. كان جيانينو مازال يشاهد الصور بانتباه، وهي تنتقل مرة أخرى إلى لقطة مقربة جدا على النائم. كان كل شيء كما كان من قبل... وقد اختفى الظل تماما من الشاشة. وببطءـ ركزت الكاميرا على وجه النائم.

نخر أحدهم في الاستوديو بخوف... كان الصوت أشبه بالنشيج... ولم تكن بوني تصرخ، لأنها في الحقيقة استمرت في التحديق إلى الشاشة، متصلبة، مراقبة كل تفصيلة... بينما استمر الحفيف بين أشجار الخروب...

كان وجه النائم قد غدا متلويا وارتسمت عليه تجاعيد حادة، هبطت من العينين المغلقتين وانتشرت حول فمه. لم تكن تجاعيد التقدم في العمر، لكنها لوجه كان يتحول إلى ضراوة وحشية وقوية لرجل محنك ويائس يعرف كيف... وقادر على... أن يخوض حربا ويقتل، أن يقود ويخون، أن يعيش كرائد أو شيطان. كان وجه النائم يمر بتغيرات غير عادية، مشدودا بالغضب والدوافع المخيفة، كوجه رجل يفكر بعمق في مشاريع كراهية وانتقام... بدا الوجه وقد أصبح لوحة مزدحمة بتصميمات واسكتشات فنان مجنون، بينما تحولت ملامحه وتعبيراته، وكأنها تعكس ذكريات عنيفة تتصاعد متلاطمة من ماضي أفعال دموية ورهيبة... لأنه طوال الوقت الذي ظلت فيه الكاميرا على وضع الصورة المقربة... وهذه المرة بدا وكأنها ستستمر على هذا الوضع إلى الأبد... كانت اللعبة الشيطانية تدور على وجه النائم الراقد تحت أشجار الخروب وحفيفها.

نهض برتراند الآن واقفا. «هذا ليس أنا!» صاح بصوت أجش.

حدق الاثنان الآخران في الشاشة.

ببطء كانت الكاميرا تبتعد عن وجه النائم لتغطي المشهد بأكمله. انتظروا لحظات طويلة حتى أنهم شعروا وكأنها أبدية أخرى، حتى بدأت الكاميرا مرة أخرى تركز على وجه النائم في تلك المراوحة المبرمجة التي اتبعتها طوال الليل دون أي فاصل. انتظروا متوترين حتى يظهر الوجه في اللقطة المقربة على الشاشة، رغم أن جيانينو كان يعلم بالفعل ماذا سيحدث. لكنه للحظة طويلة، أصبح مرتبكا تماما وخائفا من أن ما رآه بالفعل يمكن أن يتغير. ظهر الآن وجه برتراند بوضوح وهو نائم. بدا وكأنه خرج للتوّ من حلم سيء جدا... وعندما أظهرت الكاميرا وجه النائم كاملا، كان قد أصبح ساكنا جدا، تائها في طمأنينة تناقضت بقوة مع الوجه المعذَّب الذي ظهر على الشاشة منذ فترة قصيرة.

«هل هذا كل شيء؟» تساءل برتراند. «هل رأينا كل ما يجب أن نراه؟» قالها مقطبا، حيث أدرك أن المثقاب أو المخرز الذي كان يداعبه بعصبية وهو يشاهد الشاشة، كان الآن ملتويا كسنارة صيد. من أين اكتسبت أصابعه هذه القوة العصبية؟

«هذا هو كل شيء..» قال جيانينو.

.33

من استوديو المونتاج مضى المذيع التليفزيوني مباشرة إلى مكتبه. كان مهزوزا وأدرك أنه سيواجه صعوبة في إخفاء هذا عن الآخرين. كان الوقت قد حان لاجتماع فريق كويس كوام وهو بحاجة إلى أن يكون في كامل لياقته من أجل هذا اللقاء. لكن كيف يمكنه هذا بعد ما رآه حالا؟ لقد تعرف على الوجه الذي كان له لكنه تغير ليصبح وجه شخص آخر؛ أو الأدق أنه رآه منذ زمن ليس بالبعيد. تذكر أين: كان وجه الأميرال قائد المركب الشراعي الذي كان يخطر بخيلاء على الممر بين الرجال الجالسين إلى مجاديفهم، يدفعون السفين قُدُما وهم يجدفون. لقد رأى ذلك الرجل في الحلم الغريب الذي رآه بعد قراءة تقارير بوريس في وقت متأخر من الليل.

بين وقت وآخر، يحدث أنه عندما يكون بعض أو كل أعضاء جماعة ما من الناس في قلق من مشكلة ما، أن يحاولوا تفاديها بالانتقال إلى موضوع آخر يشبه الموضوع الذي يؤرقهم، دون أن يكون على نفس القدر من التهديد. لعل هذا ما حدث عندما التقت بوني وجيانينو وهاردهيد وبوريس في غرفة الاجتماعات بينما كانوا ينتظرون المذيع التليفزيوني، الذي كان مازال في مكتبه مغلقا عليه بابه.

«هل وجدت برتراند؟» تساءل هاردهيد.

«نعم، أخيرا..» أجابه جيانينو. «استغرق الأمر مني وقتا طويلا.»

كان هاردهيد وبوريس مازالا مذهولين نوعا ما من مغامرتهما مع جوني ديب في الأنفاق تحت حقل الإسخريوطي. بعد الرعب الذي أصابهم أمام البوابة الموصدة بالقفل، ساروا عائدين في صمت تام تقريبا عبر النفق المؤدي إلى فتحة البئر في الحقل. وهناك، حذر هاردهيد الشابين الآخرين طالبا منهما أن يبقيا فميهما مغلقين على ما مروا به، على الأقل حاليا. كان ضروريا ألا يحدث أي شيء يمكن أن يعرقل الجهد المستمر لإنتاج حلقتين من كويس كوام. بعد ذلك، سيرون ما ينبغي أن يكون...

... ما رأوه في الاستوديو ترك بوني مرتبكة ومروعة مثلها مثل جيانينو. ومع ذلك، كان لدى جيانينو أشياء أخرى مقلقة. لقد أصدرت له دونًّا التي تحدث معها للتوّ إنذارا أخيرا: إما أن ينضم إليها في برنامج حمية وتدريبات مشترك لإنقاص وزنهما، أو ستذهب للعيش مع أمها خلال الشهور القادمة. وعلى سبيل المواساة، أحضر جيانينو معه إلى حجرة الاجتماعات ما كان قد أعده من أرغفة صغيرة وكعك الجبن من أجل وجبة الظهر وبدأ في التهامها. كانت المُرتديلا القادمة من مدينة ريدجو كلابريا الإيطالية والتي اختار أن يزين بها شطائره تفوح بروائحها في أرجاء الحجرة.

حدث أيضا أن بوني، حتى لو أنها لم تستطع هي نفسها أن تفهم السبب، بدأت في وصف تفصيلي جدا لما رأته عندما كانت تهم بدخول سيارتها بعد أن تركت البروفيسورين ديلينجر وأحمد عند سفح التلين. حكت للآخرين كيف هجم ثعبان على عصفور، وكيف تمكن هذا العصفور من الهرب من بين أنياب الثعبان – وأفاضت مرة بعد مرة في تفاصيل ذلك الصراع بين الحياة والموت. يبدو أنه من بين كل ما حدث اليوم، كانت هذه الحادثة هي التي تركت أبلغ الأثر على ذاكرتها. كان الاهتمام الذي أبداه الآخرون بقصتها بليدا، ما عدا بوريس الذي أخذ الموضوع فعلا بحماس كبير. قال إنها ذكرته بنص مهم وغادر حجرة

الاجتماعات ليحضر كتابا سمينا من مكتبه – كما كان يدعو الركن الذي يشغله في مؤخرة الاستوديو، حيث كدس في فوضى هائلة كومة كبيرة من الأقراص المدمجة وأقراص الفيديو الرقمية والكتب ومجلات تكنولوجيا المعلومات وقطع وأجزاء من معدات الحاسوب. مرة أخرى أنصت إلى بوني وهي تكرر قصتها عن الثعبان والعصفور، وكأنها تفعل هذا لأول مرة.

فتح بوريس الكتاب الذي أحضره. «والآن استمعي إلى هذا...» قال وبدأ يقرأ:

«... نسر ضرب السماوات بجناحين عظيمين
وقد أنشب مخالبه في أفعوان دامٍ هائل الحجم
يتلوى وهو مازال حيا،
حتى لدغ الطائر، الذي تلقى الجرح في حلقه
ومن شدة الألم جُنَّ، وأفلت الفريسة القاتلة
وشق بجناحيه طريقه الأليم في دوائر شاهقة
يطفو على الرياح، ويمزق السماء بصرخاته،
ووسط الحشد تمدد الأفعوان الساقط
وهم، شاحبين من الرعب، ميزوا تموجات جسده وقد انبسطت
والنسر ينظر بقلب نابض.»

«من أين جئت بهذا؟» تساءل هاردهيد وهو يدعك عينيه، تائها تماما.

«إنه من الكتاب الثاني عشر للإلياذة. كان الصراع بين النسر والثعبان

إشارة أخرى أرسلها زيوس ليقول إن الطرواديين سيخسرون الحرب ضد الإغريق.»

«اعذرني..» قاطعته بوني. «ما قرأته للتوّ مختلف تماما عما رأيته. في ذلك المقطع يهاجم الطائر الثعبان. ما رأيته كان العكس!» كانت تحس بحنق غريب تجاه الطريقة التي كان بوريس يحاول بها دائما أن يقارن ما يحدث حوله بشيء أو آخر قرأ عنه أو قابله في أبحاثه.

دخل برتراند حجرة الاجتماعات. توقفوا عما كانوا يفعلون، بمن فيهم جيانينو الذي كان قد بدأ في أكل أول كعكة بالجبن، بعد أن أنهى الأرغفة المحشوة بالمرتديلا. وعلى الفور بدأ الاجتماع. كانوا يعرفون جميعا أنه فعليا سيكون هذا آخر اجتماع تنظيمي للتحضير من أجل تسجيل كويس كوام مساء الغد. وعلى الأرجح سيكون اجتماع الغد الصباحي إجراء شكليا بما أنهم سيقومون فيه فقط بالتأكد من أن كل شيء تقرر اليوم يمضي وفقا للخطة.

نوقشت مواضيع هامة. ورغم أن المشروع كان قد بدأ العمل عليه منذ أقل من ثلاثة أيام، إلا أنه جرت تغطية مساحة كبيرة. فبالإضافة إلى التصوير الذي تمكن جيانينو وبوني وهاردهيد من إنهائه في زنوبر، كانت هناك أيضا سلسلة من الملفات الفيلمية، من الأرشيف ومن العمل الذي أنجزه الأستوديو المتعاقد من الباطن، وهو ما سيكون أكثر من كاف للحلقة الأولى. بل كان لديهم كذلك تسجيل لمقابلات مع الناس، بالكاد له صلة بالموضوع المطروح، تسألهم إن كانوا يحبون الذهاب في تمشيات في الريف وما هو أكثر ما يخشونه عندما يفعلون هذا. رأت بوني أن من المنطقي استخدامها، بينما كان لدى هاردهيد وبوريس شكوكهما. وانتظروا من برتراند أن يحسم الأمر. وعدهم أن يرى بعد الظهر كل ما كانوا يقترحون تضمينه. لم يكن بمقدوره فعلا أن يشكو.

كان العمل يتقدم على نحو طيب.

تسلسل المدخلات الفيلمية زائد الاقتراحات للسيناريو المقدم صيغت بالفعل كمسودة نص. وحرص بوريس على الاتصال بثلاثة ممن يُدعون بالخبراء ليشاركوا في المناقشة الزائفة التي سيديرها برتراند كالعادة خلال النصف الثاني من البرنامج: موظف حكومي سابق تخصص منذ تقاعده في الشجيرات المالطية المتوطنة، ورجل أعمال أفلس من فرط المضاربة في العقارات، وخبير هاوٍ في ما قبل تاريخ مالطا. كانوا دائما يقبلون التصوير في البرنامج، طالما أنهم يحصلون على قسائم وجبات مجانية في مطعم بمدينة سانت جوليانز. اتفقوا على تسجيل هذه المناقشة في الأستديو الخاص بهم بعد عرض ما تم تصويره في حقل الإسخريوطي، وإدخالها في البرنامج حسب المتطلبات.

ثم ناقش الاجتماع الإنتاج بتفصيل أكبر. اتفقوا على وجود جمهور... وكان هذا يعني عملا إضافيا بالنسبة لهاردهيد الذي كان عليه أن يجمع وينظم الأشخاص الحاضرين. وقد اندهش عندما أصر برتراند على أن يأتوا بجمهور كبير وبالتالي سيكون عليه أن يقضي جزءا كبيرا من هذا المساء وصباح الغد يتصل بالأشخاص الذين يستمتعون بالظهور في البرامج، والذين سيثيرون وسط مشاهدي كويس كوام اهتماما يتغذى جزئيا على السخرية. من بينهم سيكون هناك رجال في منتصف أعمارهم كانوا يتمنون دائما أن يقفوا كمرشحين في الانتخابات المحلية، ومنعتهم زوجاتهم من هذا، ولذلك كانوا بحاجة لإظهار كم كانوا سيُبلون بلاء حسنا كخطباء أمام الجمهور؛ ورجال أعمال على نطاق صغير عازمون على التعبير عن شكواهم الألف من سوء إدارة سلطات تخطيط الأراضي والانهيار المالي الأخير في وول ستريت؛ وربات منازل متغطرسات همهن الوحيد هو تكاليف المعيشة وكيف يعبرن عن رأيهن فيها، دون أن يدركن أن كل ما يقلنه يغص بالتناقضات؛ وأزواج متقدمون في السن

ضجروا من حياتهم معا؛ وسكارى تائبون يبحثون عن جمهور أوسع كي يستمع إلى الترهات التي يفوهون بها كل يوم في حانات النبيذ التي مازالوا يترددون عليها، حتى لو كانوا لا يشربون الآن غير القهوة؛ وشباب خجلون وبلا أصدقاء يجدون سلواهم في الظهور في كويس كوام ليجعلوا أشكالهم معروفة، لأنه بغير ذلك لن يكون هناك أحد آخر يستمع لما كان عليهم أن يقولوه... وهكذا. لأخذهم إلى حقل الإسخريوطي، كان على هاردهيد –الذي يحتفظ بقائمة مصنفة بالأشخاص الذين يمكنه الاتصال بهم كي يظهروا في البرنامج خلال أربعة وعشرين ساعة من إشعارهم بذلك– أن يوفر وسيلة النقل. بالنسبة لبقية الأمور، ثمة مقاول صديق قريب منهم جدا كان قد وافق على الذهاب إلى الحقل صباح الغد وإقامة سرادق كبير هناك. وكان جيانينو مستعدا مع طاقمه التقني في هذه الأثناء لتثبيت الكاميرات والإضاءة المطلوبة.

كان هناك سؤال واحد يسيطر على أذهانهم جميعا، بمن فيهم هاردهيد وبوريس اللذان لم يريا بعد فيلم برتراند وهو نائم، ألا وهو: ماذا سيفعلون بالفيلم؟ بالدم على كيس النوم، بالبدلة المقطوعة والممزقة... هل سيستخدمونها؟

أثار برتراند الموضوع في نهاية الاجتماع. «غدا سأقول إني نمت هناك... في الحقل... وأننا سنعرض الفيلم في الحلقة الثانية. سأقول أيضا إننا في الحلقة الثانية سنبدأ بهذه اللقطات الفيلمية... سيمنحنا هذا دعامة طيبة نعلق عليها حلقة الأسبوع المقبل.»

بدا أنه فكر كثيرا في هذه الزاوية واتفقوا جميعا معه فورا. ومع ذلك، نظرت إليه بوني نظرة ساخرة... فقد كانت تعتقد أنهما ناقشا بالفعل كيفية استخدام الفيلم الذي يصوره نائما في حقل الإسخريوطي... وكان القرار مختلفا.

أشار هاردهيد إلى بوريس كي يبقي فمه مغلقا؛ فقد كان هو أيضا مترددا إن كان يجب أن يذكر الاكتشافات التي وجدها هذا الصباح مع بوريس وجوني ديب. لم يكن يريد أن يزعج برتراند؛ عالما كم يغدو متوترا خلال اليومين السابقين على أي إنتاج. وما رأوه في الأنفاق أسفل حقل الإسخريوطي كان يوفر مادة كافية لملء أكثر من مجرد حلقتين. ولو تسربت القصة من بين أصابعهم، سيسرقها شخص آخر بالتأكيد. لكنه قرر أن يقبل المجازفة وأن يبقي فمه مغلقا حاليا.

لاحقا، وعندما انتهت الواقعة بأكملها، اتفق هو وبوريس على أن هذا كان أسوأ خطأ يمكن أن يرتكبه...

.34

بالضبط في الوقت الذي اتفقت بوني معهما عليه، وصل البروفيسوران ديلينجر وأحمد إلى مكاتب كويس كوام.

«كيف سارت الأمور في المعهد الوطني للثقافة؟» تساءل برتراند بفضول.

«على خير ما يرام..» أجابه ديلينجر وهو يتخذ مجلسه إلى مائدة الاجتماعات بجوار والي أحمد. «تجولوا بنا لرؤية المعرض الفينيقي. وأشار لهم والي على بعض الأخطاء في الطريقة التي وضعوا بها بعض المعروضات والشروحات المتعلقة بها. بصراحة كنت قد لاحظت بالفعل هذه المشكلات لكنني فضلت أن أسكت. أنت تعرف كم يأخذ الناس هنا الأمر كإهانة بمجرد أن تقول شيئا منطقيا لكنهم يعتبرونه انتقادا لقدراتهم. لكن لو أثار أجنبي الأمر، فلا بأس عندئذ. وبروفيسور أحمد لم يتوانَ... وقد أخذوا اقتراحاته على محمل طيب.»

«القيّمة امرأة لطيفة جدا.» قال أحمد وهو يبتسم ابتسامة مضيئة.

«لقد حصلت على هذه الوظيفة لأنه تصادف أنها ابنة أخت وزير الزراعة والعدل السابق..» قالت بوني عابسة. «معرفتها بما قبل التاريخ محدودة جدا.»

«لقد تقبلت بروح طيبة جدا الملاحظات التي وجهناها لها..» أكمل والي أحمد. «بل عرضت أن تنفذ بنفسها كل التغييرات التي أوصينا

بها. وستسهر الليلة بطولها تقوم بها لو استلزم الأمر. وهذا يبين تفانيا وعزيمة لا بد أن أقول إنهما مثيران للإعجاب جدا.»

لم تستطع بوني إلا بالكاد التوقف عن العبوس. للحظة عندما دخل البروفيسوران حجرة الاجتماعات، أحست بالانجذاب لأحمد بنفس القدر الذي أحست به تجاهه بالأمس أو هذا الصباح بالفعل، حتى لو كانت في ذلك الصباح واقعة في قبضة آثار السكرة. ومع ذلك، فإن كلماته الآن قد بددت تماما أي إعجاب أحست به نحوه.... إذا كان قد سمح لامرأة مثل فلورا أن تخدعه بهذه الطريقة، فمن المحتمل أن البروفيسور ابن الإسكندرية أقل إثارة للإعجاب مما حسبته.

«ما زاد الأمور تعقيدا، أننا وصلنا متأخرين، متأخرين جدا، إلى مكتب مدام بيتا لوكا..» قال ديلينجر.

«كانت تتصل بالجزيرة كلها لتعرف أين كنتما مختفيين..» أوضح المذيع التليفزيوني. «اتصلت بي طويلا بعد أن غادرنا الحقل...»

«نعم، كان علينا أولا أن نذهب مع مدام بوني لزيارة التلين..» قال والي أحمد. «ثم كان علينا أن نزور مكتب بروفيسور ديلينجر في جامعة مالطا.»

«لم يكن باستطاعتي أن أترك تلك العينات من الدم تدور متسكعة معنا. ذهبنا إلى مختبري ووضعناها... في مجموعات مختلفة... عبر برنامج حاسوبي يحلل دي إن إيه الدم... وكذلك الخط الجيني المتصل بأصله العائلي... هذا لو كان هذا دما.»

«ماذا تقصد بـــ... لو كان هذا دما؟» قال هاردهيد، المتململ منذ دخل البروفيسوران.

«نعم، نحن بحاجة للتأكد فعلا من أنه دم..» قال ديلينجر. «من فضلك افهم أننا رجال علم، ولسنا مشعوذين. علينا أن ندرس بجدية شديدة، دون أخذ أي شيء كأمر مسلم به، الظواهر التي نراها حولنا أو نسمعها أو نحس بها. يجب أن نبدأ بوجهة نظر متشككة... لكنها وجهة نظر تقبل الدليل الموثوق الموجود أمامها، بعد أن تتثبت منه بالشكل الواجب. لذلك لا بد أن نبدأ من احتمالية أن ذلك الدم لم يكن دما على الإطلاق... بل مزحة ما، لعبة ما... من مهرج مجهول... أو يجب علينا أيضا أن نتصور إمكانية أن هذا كان دما، نعم، لكنه وُضع هناك... كيف أقولها؟ بواسطة شخص أراد أن يخدعكم... أن يخدعنا جميعا. في هذه المسألة، لا يمكننا استبعاد أي احتمالية... مثلا أن شخصا ما... ألقى بدم أرنب... أو جرذ... بينما كان يمر، دون أن يراه أحد منكم. (أومأ والي أحمد بقوة مؤمِّنا على تفسيرات ديلينجر) إذا كان هذا ما حدث، ستبينه بالتأكيد اختبارات الدي إن إيه الجارية في حواسيب مختبري. أما لو تأكدت سيناريوهات أخرى... وتكشف أن هذا الدم دم حقيقي... ويرجع أصله لمصادر لم أذكرها بعد، في هذه الحالة أيضا، سنحتاج إلى أن نرى تفاصيل تحليل الحاسوب...»

«ومتى ستعرف؟» سأله هاردهيد بارتياب. كان ينزعج دائما عندما يسمع أشخاصا يقدمون مثل هذه التفسيرات... هذا من ناحية... ومن ناحية أخرى... كثيرا ما سمع في حياته تفسيرات شبيهة يطنطن بها المحامون وأساتذة الجامعة الذين قبل أن يقرروا أين من الأفضل أن يقفزوا باستنتاجاتهم، يحسبون كثيرا ليس ما هو صحيح وما هو خطأ في موضوع ما، بل أين يناسبهم هم شخصيا أن يقفزوا.

«البرنامج الذي أستخدمه عتيق بعض الشيء حسب رأي زميلي البروفيسور أحمد. (وهنا، هز والي كتفيه وأومأ قليلا نحو ديلينجر الذي بادله التحية أيضا بهز كتفيه وإحناء رأسه قليلا في اتجاه العالم

السكندري – وهي الإشارات التي زادت من حنق هاردهيد حيث أكدت شكوكه) صحيح أن هذا البرنامج تم تطويره منذ أكثر من عشرة شهور، لكني أعتقد أنه... مازال... أقوى اختبار يمكنك العثور عليك. وأنا واثق أنه قبل الآن بالفعل، انتهى التحليل الأبترومتري وأن التحليل الجيني AK4 قد بدأ. وهذا هو التحليل المصمم على نموذج عشوائي يعتمد على أكبر مخزون من المواد الجينية يوجد في العالم الآن، كما تعرفون، وهو الموجود في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. إن كان ما رأيناه هذا الصباح لونًا، فمن المؤكد أننا سنعرف، وإن كان دم وحش أو بشر، سنعرف نوع الدم، وأي نوع من الوحوش أو البشر جاء منه، وإن كان حيا عندما سال الدم حيث وجدناه. وإذا لم يكن، سنعرف متى مات هذا الوحش أو الشخص. إنها مسألة بضع ساعات قبل أن نحصل على هذه المعلومات، لا شك في ذلك.»

«ماذا تقصد بأنه... مات؟ ومنذ كم من الوقت هو ميت؟» تساءل جيانينو. وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي فتح فيها فمه في حضور البروفيسورين.

«نظرا لكمية الدم... إذا كان دما... التي رأيناها... فلا بد أن الكائن الذي فقد هذا القدر من الدم كان يموت... مات.»

الصمت الذي حل على حجرة الاجتماعات كان ثقيلا، وصلبا تقريبا. أغلق جيانينو الكيس الورقي الذي يضم كعك الجبن وأزاحه بعيدا.

بناء على طلب برتراند، أوضحت بوني للبروفيسورين إلى أين وصلوا بتجهيزات كويس كوام وماذا سيفعلون حتى مساء الغد، عندما سيجري تسجيل الحلقة الأولى في حقل الإسخريوطي.

«كل هذا يبدو لي ممتازا فيما يتعلق بالإعداد..» قال ديلينجر. «ولا

شيء لديّ لأقترحه أكثر مما تم بالفعل ويتم.»

«أنا سعيد بسماعك تقول هذا..» رد برتراند. «والآن هل لديك أنت وبروفيسور أحمد أي شيء تضيفاه لما قلتاه لنا بالفعل عن العلاقة بين ما نفعله والمعلومات التي تعملان عليها؟»

«نعم. هل تريدني أن أتحدث هنا أم...؟»

«طبعا، قل ما يجب عليك أن تقوله هنا. نحن فريق واحد...»

«حسن إذًا، دعني أبدأ. وربما تكون لدى بروفيسور والي أحمد بعض النقاط الأخرى ليثيرها لاحقا. لقد أخبرته بمناقشاتنا خلال الأيام القليلة الماضية. في هذه الأثناء، استمررت في تجاربي. وقد ظهرت بعض البيانات الجيدة عن المباني الفينيقية. في الوقت نفسه، كنت أقوم بتحديث النموذج الليزري الذي يقدم نماذج افتراضية لهذه الأبنية. وكما بينت لك، يعمل النموذج أربعا وعشرين ساعة في اليوم. المثير للغاية هو المعلومات التي وصلت من أبحاث تجري في إسرائيل عن بناء التلال الفينيقية الأولية. هذه المعلومات كانت مهمة بشكل خاص لأنه كما تعرف، لدى بروفيسور أحمد فرضية –أتفق معها مائة في المائة– أن التلين القريبين من حقل الإسخريوطي يشكلان في الحقيقة بقايا تلال أثرية، وأنه في الريف المحيط ربما تكون هناك منظومة من الأنفاق التي تقود إلى مخازن وربما أماكن لحفظ الجثث، حيث كانوا يدفنون أكبر أفراد القبائل البونيقية عمرا ممن كانوا يعيشون هنا، بالإضافة إلى آثار أخرى. ربما كانوا في البداية يحنطون الجثث قبل وضعها في مثل هذه التلال، لأن بعض الفينيقيين كانوا يتبعون الممارسات المصرية القديمة فيما يتعلق بموتاهم. ونموذجي الافتراضي الذي يستخدم أشعة الليزر لوصف التحصينات والتلال يجري تعديله وفقا للمعلومات التي يرد أغلبها حاليا من إسرائيل.»

«مما يبعث على الأسى حقيقة أنه مصدر صهيوني، لا شك في ذلك..» قال بروفيسور أحمد. «ومع ذلك، مهما كان المكان الذي تأتي منه، فإن الحقيقة العلمية حقيقة علمية.»

وبينما كان ديلينجر يباشر تفسيره، وجه هاردهيد نظرة حادة أخرى لبوريس، محذرا إياه مرة أخرى كي يبقي فمه مغلقا.

أكمل ديلينجر: «بالنسبة لنا السؤال الكبير هو هذا... ستعتبرونها تفصيلة أكاديمية... لكنه هكذا: كحقيقة، نحن نعرف أن أبحاثا هامة تتقدم في جامعة بكين حول نفس الموضوع. نعرف أنهم متقدمون على نحو طيب، لكننا لا نعرف أين وصلوا بالفعل... دعني الآن أصل إلى التجارب التي أقوم شخصيا بإجرائها. برتراند، عرضت عليك العمليات المحوسبة التي أدرس من خلالها التواصلات الباراسيكولوجية، التي مازال من الممكن رصدها، والتي مازالت مستمرة... بين البقايا البشرية من الماضي... وعرضت عليك الجماجم التي أستخدمها كوسطاء لالتقاط وإعادة إرسال هذا التدفق للاتصال الباراسيكولوجي. عندما أتيت لزيارتي لم أشرح لك الأمر بوضوح: لكن الجماجم التي أستخدمها هي في الأصل من مقبرة زنوبر والمنطقة المحيطة، حيث ينحدر السكان من الفينيقيين القدامى، وفقا للتحليل الجيني الذي أجريته. إحدى الجماجم التي أستخدمها هي في الحقيقة جمجمة يهوذا تونًّا. إن التدفق الباراسيكولوجي الناشئ عن تلك الجمجمة على ترددات عصبية معينة كان قويا للغاية منذ البداية. وقد ازداد قوة خلال الأسابيع القليلة الماضية... حتى اليوم. في البداية، كانت مشكلتي هي كيفية فك شفرة الرسائل التي تُبث. لم أكن أفهم شيئا تقريبا من الخطاب... وأنا أدعوه بالخطاب؛ لكنه أشبه بالطريقة التي يحول بها الحاسوب إلى أصوات يمكننا تمييزها، ذلك التدفق التواصلي الحادث بين الجماجم والبقايا الأخرى لنفس النظام، تلك هي البقايا، حيث يمكننا كشف البُنى

البيولوجية والثقافية المتشابهة في العظام المحيطة بالمخ. مؤخرا، وبمساعدة بروفيسور والي أحمد، بدأت في فهم أفضل للخطاب الذي كنت أسجله... في أصوات تشبه اللغة البونيقية البدائية... مختلطة أحيانا بلهجة من كيميت يعود تاريخها إلى حوالي ثلاثة آلاف عام مضت، كما كانوا يتحدثون بها في مدينة طيبة. مازلنا بحاجة لمزيد من الوقت كي نتمكن من فك الشفرة على نحو صحيح لكل الرسائل الباراسيكولوجية المبثوثة، وفي الوقت نفسه، تحويلها إلى كلام يمكننا فهمه... حتى لو ظللنا لاحقا في حاجة لتحويلها إلى لغة حديثة. لكن مع كل ساعة تمر، نحقق تقدما جيدا.»

تدخل بوريس في الحديث: «ما الخوارزميات التي تستخدمونها؟ هل هي X.packer / triple point.zzz؟»

«لا..» رد ديلينجر وقد أفقده سؤال الشاب توازنه للحظة، ذلك السؤال الذي لم يكن قد توقعه. «بصراحة، مازلت لا أعرف كيف أستخدم كما ينبغي هذه الخوارزمية، ولا حتى .xxx. The double point.sbt.»

«لقد اكتُشف أن هذا يسبب انحرافا جانبيا عندما تحاول الإبقاء على سهم توجيه الزمن أفقيا على الإشارات التي تلتقطها.»

«صحيح. وهذه واحدة من مشكلاتنا. أحاول حلها عن طريق تجريب الملف الذي يُحمّل الإشارات إلى خوارزمية القاعدة 4.»

«أحيانا يمكنك حلها بهذه الطريقة. ومع ذلك فأنت تجازف بفقد التزامن المتعامد.»

«هذا أيضا صحيح. إذا كان عليّ أن أكون أمينا تماما، فإن X.packer / triple point.zzz مازالت مكلفة أكثر من اللازم. لم يتمكن كارميليتو من إيجاد التمويل الكافي، رغم أنه ربما الآن بالمال الذي ينبغي أن يأتي

من أوروبا، لعله سيتمكن من ترتيب شيء لي.»

«وماذا عن ناقل الحركة؟ هل هو مربع أم مسرَّع؟»

«مسرَّع.»

«عندما يكون مسرَّعا، تكون هناك احتمالية أن يمنع الساكن الإليكتروني إشارة سهم التوجيه من الاقتراب والتسجيل دون مراوغة. من الأفضل لناقل الحركة أن يكون مربعا على B سالب جاما.»

«أتفق معك. وهنا مرة أخرى تظهر مشكلة التكلفة. وهنا أيضا يكون كارميليتو مستعدا للمساعدة. لكن بالنسبة للعمل الذي أقوم به الآن، يؤدي التسريع إلى نتائج. لا تقل لي إنكم تعملون بالفعل بهذه النظم هنا؟ فهي شديدة التكلفة إذا اشتريتها من الشركات التي تنتجها...» كان البروفيسوران، وديلينجر بالأخص، يوجهان إليهم نظرات مرتابة.

«صدقني، لا أعرف. أنا فقط لم أفهم أي شيء مما كنت تقوله..» أكد له برتراند. «نحن ندع بوريس يجري أبحاثه ولا أحد هنا يتدخل فيما يفعل...»

«إذا كانت لديكم نسخ من هذه الخوارزميات والبرامج فأود بالتأكيد رؤيتها...»

«لا، أنا متأكد أننا لا نملكها..» قال برتراند وهو مازال يبتسم، بينما كان يرسل بنظرة جانبية صارمة نحو بوريس لمنعه من الثرثرة، حيث بدا على وشك أن يفعلها مرة أخرى.

«نعم، كنت أشير إلى أنه...» أكمل ديلينجر بعد وقفة قصيرة «في التدفق الباراسيكولوجي الذي نقوم باعتراضه، يبدو أنه يوجد غضب هائل يتطور إلى ما كان يحدث... ثمة أضرحة كاملة حيث تم دفن

الفينيقيين والأشخاص الآخرين الذين ماتوا معهم في البساتين المقدسة، يجري تدنيسها. هذا هو ما بدأنا بفهمه. لم يكن هناك شيء أكثر أهمية للقدماء في الأراضي السامية أو كيميت من تأمين الراحة الأبدية، التي كانت تعادل بالنسبة لهم الحياة الأبدية. عندما تتبعنا هذا التدفق الذي كان مكونا من رسائل شديدة الغضب، بدأنا في فهم أنها تنبعث من نفس المنطقة... منطقتنا. بستان زنوبر المقدس.»

«لكن بأي شكل يزعج كويس كوام هؤلاء الموتى؟ لأنهم هكذا يكونون، موتي، صحيح؟» تساءلت بوني. بينما كانت تستمع إلى تفسيرات ديلينجر، كادت تنفجر في الضحك. فجأة، كان التوتر والخوف اللذان شعرت بهما يتراكمان بداخلها خلال تلك الساعات القليلة الماضية، يبدوان الآن سخيفين للغاية. «هم ليسوا موتى فقط!... لكنهم ماتوا لآلاف السنين...!»

«حوالي ثلاثة آلاف سنة وأكثر..» قال والي أحمد. «نحن نعتقد أن البستان المقدس في زنوبر والتلين اللذين يحيطان به، يجري تدنيسهم. ولا نعرف كيف يحدث هذا.»

«أكرر، بالنسبة لما يُسمى بالإنسان البدائي، فإن الدفن... وبالنسبة للمصريين: التحنيط... كانا، ومازالا، مهمين للغاية. فقد كانا يقدمان ضمانة بأن الحياة بعد الموت، مهما كان المكان الذي حدث الموت فيه، ستحمي سلامة الشخص المتوفي. وإذا لم يتم الدفن وفق الطقوس المنصوص عليها... أو إذا جرى تدمير أو تدنيس الأرض التي دُفن فيها الموتى... فإن الأرواح... إن كانت تلك هي الكلمة التي ينبغي أن ندعوها بها... أرواح الموتى... بقاياهم... لن تظل هادئة...»

لدهشتهم جميعا، تدخل بوريس مرة أخرى. «أنت تتحدث عن قصة قديمة. وقد كانت معروفة منذ ما قبل العصر البرونزي. وقد

ذكر هوميروس العظيم نفسه الموضوع في مناسبات عديدة. وربما كان بالفعل يكرر قصائد كان معروفا بالفعل أنها قديمة جدا عندما كان حيا.» وأخرج بوريس الكتاب الذي رجع إليه بالفعل قبل وصول البروفيسور، وقلب الصفحات بلمسة خبيرة وبدأ يقرأ:

«وينام أخيل؟ (هكذا تحدث الشبح:)

ينام صاحبي أخيل، وصاحبه باتروكلوس ميت؟

كنت أبدو وأنا حي الأعز لديه، والأولى بالرعاية

لكنه الآن نسي، وأنا أطوف في الهواء.

فلتجعل جثتي الشاحبة تعرف معنى طقوس الدفن

وارشدني لمدخل العوالم السفلية،

حتى ذلك الوقت لن تجد الروح مكانا للراحة

لكن هنا وهناك تطارد الأشباح الأثيرية

الموتى التائهين المقيمين حول الظلام،

ممنوعين من عبور النهر الذي لا عودة بعده.

أعطني الآن يدك؛ لأننا عندما نعبر مرة

إلى الشاطئ الآخر، لا تعود الروح مرة أخرى...»

«هذا صوت بارتوكلوس الميت..» قال والي أحمد ببرود. «من الكتاب الثالث والعشرين في الإلياذة. كان اليونانيون أيضا مثلهم مثل الفينيقيين والإتروسكانيين والمصريين في تلك العصور... مثلهم مثل كل شعوب المتوسط، كانوا يؤمنون أنه إذا لم تتم طقوس الدفن على نحو صحيح،

وإذا لم يولى الشخص الميت الاحترام الواجب، فإن الروح ستظل غير راضية.»

«هكذا آمن الناس في الماضي..» أكمل ديلينجر. «ومازال ذلك الإيمان يحمل عواقبه... في عالمنا المادي اليوم. أما كيف تتجلى هذه العواقب، فهذا ما لا نعرفه بعد.»

«شكرا جزيلا على تفسيراتكما. ومع ذلك أنا متأكد أننا خلال الجزء الأول من كويس كوام عن زنوبر، ولكل الأسباب والغايات العملية، لن نشير تقريبا إلى هذه الموضوعات. سنركز في الأغلب على قصة يهوذا تونًّا... ربما خلال الجزء الثاني...»

«إذًا دعنا ننتقل إلى النقطة الأخيرة التي أردنا إثارتها من جانبنا. يمكن لبروفيسور والي أحمد أن يقدم لكم توضيحات أكثر عن بوتو-رع.»

«آه نعم، بوتو-رع..» قال برتراند، وهو يحاول أن يداري الابتسامة المتكلفة التي ملأت وجهه. «كنا على وشك أن ننسى هذا السيد النبيل.»

إما أن والي أحمد فشل في ملاحظة سخرية المذيع التليفزيوني أو أنه فضل أن يتجاهلها. «آسف لو أني سأكرر بعض النقاط التي أثرتها بالفعل في مناسبة سابقة... ينبغي أن تعرفوا أنه وفقا للفرضية التي نعمل عليها، لم يكن بوتو-رع مجرد شخصية تاريخية شاركت في بعثة ون-آمون إلى صور وغيرها من المدن الفينيقية... بل كان أيضا رجلا ذكيا، ذا قوة جسمانية شديدة جدا، رجل عنيد، كأنه يوليوس قيصر، لكن دون أي هواجس أو تردد على الإطلاق. في الحقيقة، يوليوس قيصر مقارنة به يمكن أن يعتبر طفلا رضيعا... ملاكا... كان بوتو-رع مرتزقا مستعدا لفعل أي شيء من أجل المال. هو لم ينقلب على ون-آمون

فقط، وينضم إلى الفينيقيين ويقودهم إلى مركز البحر المتوسط. بل خان الفينيقيين كذلك مع الإتروسكانيين. وأخيرا، عندما قبض عليه الفينيقيون، لم يسامحوه. شنقوه وشقوا حلقه وهو مشنوق... لأنه رفض أن يقطع حلقه بنفسه. لكن القاعدة العسكرية التي بناها بوتو-رع... والتي سلمها إلى الإتروسكانيين... كما نعرف الآن... كانت على هذه الجزيرة. كانت في حقل الإسخريوطي. أنا مقتنع بهذا؛ أن الفينيقيين أعدموه... مع الجنود الذين كانوا معه... عندما بنوا بستانهم المقدس هناك.»

إذا كان بقية أعضاء فريق كويس كوام، مثلهم في ذلك مثل برتراند وبوني أيضا، ميالين للابتسام عندما بدأ والي أحمد شرحه، فإنهم قبل أن ينتهي كانوا جميعا ينصتون بكل انتباه وصمت. وكان وجه والي أحمد، كمل لو أنه منحوت من صخرة قديمة، قد اكتسب صبغة قاسية، ولمعت عيناه السوداوان وهو يحدق فيهم. جاءهم انطباع أنه وهو يتحدث، كان والي أحمد راغبا في أن يحذرهم من أنه يثير نقطة هامة جدا وموضوعا خطيرا، وأنهم سيرتكبون خطأ جسيما لو أنهم تجاهلوه.

«هناك شيء واحد مازلت لا أفهمه حول هذا...» كان هاردهيد سيقول «الهراء» لكنه أمسك لسانه في الوقت المناسب، مغيرا إياها إلى: «... هذا التفسير. إذا كان البستان المقدس تعرض للتدنيس بطريقة ما، والأرواح التي يحميها ثارت رافعة السلاح، فكيف يمكن إعادته إلى ما كان عليه.»

أومأ ديلينجر برأسه عددا من المرات، وكأن السؤال أثار حيرته. ربما توقع والي أحمد من زميله أن يرد. لكن عندما لم يحدث هذا، قال أحمد، ومرة أخرى كان وجهه قاسيا: «هذا سؤال جيد جدا. من الوثائق والنقوش التي لدينا من مستعمرات فينيقية مختلفة، ليس من السهل فهم ما كان معتادا فعله للتعويض عن تدنيس بستان مقدس. بالإضافة إلى إزالة أيا

كان ما سبَّب التدنيس في المقام الأول... وهو أمر مفهوم... يبدو أنه في حالات معينة، كانوا يقدمون قرابين بشرية على سبيل التطهر. شباب أو أطفال أو امرأة في قمة عنفوانها، يتم قتلهم كدليل على التوبة والندم.»

«قتلهم؟ كيف يُقتلون؟»

«إما أن يُدفنوا أحياء، أو يلقى بهم إلى الوحوش المفترسة لتمزقهم قطعا، وتأكلهم أحياء. أو... ويبدو أن هذه كانت الممارسة الشائعة – يُشنقون وتُشق حلوقهم وهم يموتون. ومع ذلك، لم تكن هذه الممارسة هي نفسها في كل مكان.»

«هؤلاء الفينيقيون... كانوا أشخاصا لطيفين جدا..» أشار هاردهيد.

وهكذا انتهى الاجتماع. نهضوا جميعا من حول المائدة مدركين أن أمامهم عملا كثيرا ومن الأفضل أن يشرعوا فيه.

.35

باهتمام اقترب بروفيسور ديلينجر من بوريس، بعد أن أدرك كم كان هذا الشاب عليما بمساحات متقدمة من تكنولوجيا المعلومات لها أهمية عظيمة بالنسبة للبروفيسور. ومن طرف خفي أخذ هاردهيد القلِق يراقبهما؛ فلم يكن يريد أن يبدأ بوريس في الثرثرة حول الأنفاق التي عادوا للتوّ من استكشافها. وبينما كان يتحدث مع بوني أثناء خروجهما من الحجرة، كانت عينا برتراند أيضا على بوريس؛ لكن لسبب آخر. فقد كان خوفه دائما من أن منافسا ما سيسرق... إذا كانت هذه هي الكلمة الصحيحة... المواهب التي كان طوال الوقت يجتذبها لكويس كوام. إذا لم تكن لديك موهبة، فلا يهم كم لديك من الأصدقاء لمساعدتك على تسويق بضاعتك (وكان لبرتراند الكثير من مثل هؤلاء الأصدقاء)، قد تكسب مالا طيبا لفترة، لكنك لن تستمر في كسبه دائما: كان يؤمن بهذا قطعا. والآن، كان برتراند يريد أن يستمر في كسب المال دائما...

كانت بوني تسأله: «هل ستخبر البروفيسورين؟»

«عمَّ؟»

«عن الفيلم الذي شاهدناه منذ قليل؟»

«ما رأيك؟ هل ينبغي عليّ؟» ونظر في عينيها مباشرة.

«لا أعرف.»

كانا يتكلمان بسرعة كبيرة حتى أنهما فعليا كانا يقطمان الكلمات. قال: «اعرضيه عليهما.»

«ألن يكون من الأفضل...»

«لا، لا أريد أن أبدو في المشهد. فقط أخبريهما أن يحتفظا بكل شيء سرا، وألا يذهبا ويفشيا السر مع أمثال بيتا لوكا. ثم أخبريني برأيهما.»

أومأت برأسها رغم أنها بدت غير مقتنعة.

مضى بروفيسور والي أحمد إلى رأس مائدة الاجتماعات وتوقف حيث كان برتراند يجلس. خلال الاجتماع، كان قد لاحظ كيف كان برتراند أثناء ترأسه له، يلهو باستمرار وبطريقة عصبية بشيء مخفي تحت الملفات الورقية أمامه، وهو يحرك كوعه متشنجا. وجد أحمد حوالي من خمسة إلى سبعة أقلام جاف (بيك) مكسورة إلى جزئين ثم إلى أربع قطع على المائدة حيث كان يجلس مدير الاجتماع.

مرة أخرى في مكتبه، أدرك برتراند أنه في حاجة لمزيد من التأمل فيما يحدث. أحس وكأن هناك ثمة تغير فيزيقي غريب يسري بداخله... كان إحساسا عجيبا... ولم يكن يعرف من أين يأتي. أيا كان ما قد يقوله المرء، دم أم غير دم، فقد تمتع بنوم ليلي مثالي أسفل أشجار الخروب في قمة حقل الإسخريوطي. لذا فإن هذا القلق الزريّ الذي كان يستعر بداخله بدا غريبا: من أين كان يأتي؟ بالتأكيد ليس من ذلك المشروع الآخر، الذي كان الآن يسير في مساره بشكل طيب وينبغي ألا يثير مزيدا من أسباب القلق... أحس بانقباض داخله نتيجة شد عصبي ما، مثل فولاذ مشدود على نحو مفرط... كانت تلك هي الطريقة الوحيد لوصف الدافع المتراكم في داخله بقوة زائدة كي يشق ويكسر ويدمر أي شيء يصدف أن يأتي قريبا من يديه.

كان قد خطط لأغلب ما يحدث الآن. ومع ذلك... صحيح أنهم كانوا في أدق مرحلة، اليومان الأكثر أهمية في العملية كلها... لكن قصة زنوبر بدأت تنسل من بين أصابعه. كان ينبغي عليه أن يدرك إمكانية حدوث هذا. بمجرد أن بدأ ديلينجر في الاهتمام إلى هذا الحد بالعملية، كان هناك شيء ما فيها فشل هو وزملاؤه في فهم أهميته. والآن كان يشعر بندم عميق لأنه في غمرة حماسه لابتكار فكرة بأسرع ما يمكن لتقديم حلقة أو اثنتين من كويس كوام، لجأ إلى ديلينجر.

طلب من سكرتيرته أن توصله بفلورا. «لكن لديك شخصا آخر على الخط..» أبلغته بذلك. «ذلك الشخص الذي جاء بالأمس. السيد مانيسكالكو.»

تجمد برتراند شاعرا بالخطر، وهو ما كان غير معتاد بالنسبة له. كان قد غدا معتادا مع السنين أن يأخذ الأمور كما تجيء. ومع تقدمه في العمر، اكتسب سلوكه صلابة نابعة من لامبالاة ماكرة.

«كيف حالك؟ اعذرني على إزعاجك مرة أخرى... بعد وقت قليل للغاية من لقاء الأمس...» بدأ السيد مانيسكالكو حديثه على الطرف الآخر من الخط. «أتصور ألا شيء لديك بالفعل كي تخبرني به...؟»

«أخشى أنه لا شيء.»

«من فضلك كن صبورا معي. أود أن أراك بشكل عاجل. سأرسل إليك سيارة ومعها سائق... ينبغي أن تكون هناك، أنت في المكتب، صحيح؟... خلال خمس عشرة دقيقة. لم تعجبني فكرة القدوم لرؤيتك بنفسي هذه المرة، لأنها ستلفت الانتباه. سيأتي بك السائق إلى مقرنا ويعيدك بعدها. هل هذا جيد؟ لسنا بحاجة لوقت أطول من اللازم..» كان صوت مانيسكالكو قويا، واصلا إلى الدرجة التي لا يُسمح عندها

بقول لا.

ضحك برتراند. «لقد اتصلت بي في منتصف يوم عصيب جدا، لكن إذا كان الأمر عاجلا... وإذا كان للصالح القومي...»

«هو كذلك.»

«سأكون حاضرا.»

بما أنه كان هناك ربع ساعة قبل أن يصل السائق، فقد كان مازال بمقدوره الاتصال بفلورا. مرة أخرى، كانت عصافير الزينة قد تسللت عائدة إلى صوتها. أخبرته أن لقاءها مع البروفيسورين سار بالفعل على نحو طيب. وكان بروفيسور والي أحمد احترافيا للغاية، ويؤدي عمله على نحو طيب للغاية، وكان ودودا للغاية؛ حتى أنه وضح لها كيف كان المعرض الفينيقي المقام بواسطة المعهد الوطني للثقافة غير صحيح في ثلاث نقاط، قاصدا أنه يقدم سردية لا تتطابق مع أحدث مكتشفات البحث العلمي. وكان لطيفا للغاية حتى أنه عرض المساعدة في فك صناديق العرض ووضع بعض المعروضات في نقاط أخرى من العرض، حيث سيتغير المنظور الذي تعطيه عن الفينيقيين وبالتالي أهميتها نفسها في علاقتها بالموضوع. وكان هذا يعني أنهم بحاجة أيضا لتغيير بعض البطاقات المرفقة بالصناديق، لتقديم إيضاحات أصح، أو على الأقل، أقرب إلى الحقائق كما هي مفهومة اليوم. لكنها شعرت بالحرج من تكليفه بمثل هذا العمل الروتيني، وأخبرته أنها ستعتني بهذا الموضوع بنفسها، كما كانت تفعل، حتى لو بدا أنه سيستغرق وقتا. ستنتهي منه بالكاد قبل وقت إعادة فتح المعرض في المساء، لكن ما يجب فعله، لا بد من فعله. ومن ناحية أخرى، لم يرسل السيد مالكولم أوروري أدنى إشارة إلى وجوده، وبدا كما لو أنه فُقد في صقلية، بل إنه لم يرسل لها حتى رسالة نصية، وهي هنا تنظف وتعيد ترتيب صناديق

العرض، مثل لوسي عندما ذهبت للمرة الثانية مع عمتها لزيارة عمدة بيردنبريدج ووجدتاه يُلمّع منمنمات زوجته الأولى، التي كان يملك خمسا منها (ليس زوجات، بل منمنات يا سخيف!) على خوان كبير في حجرة الجلوس، حتى أن لوسي أشفقت عليه وعرضت أن تساعده في مساعيه النوستالجية. ومع ذلك، كانا كلاهما، أي فلورا وبرتراند، مازالا بحاجة لقضاء وقت معا ولتقرأ له هذا المقطع... ستفعل هذا في المرة القادمة... وعلى عكس السيد أوروري، كان والي أحمد يأخذ زيارته إلى هنا بأقصى جدية، أكملت، إلى حد أنه الليلة سيعمل مع بروفيسور ديلينجر في مختبره. عرضت أن تدعوهما إلى عشاء آخر، مدفوع ثمنه من المعهد بالطبع... وفي ضحكتها الصغيرة، كانت كل عصافير الزينة تصدح في سعادة مستمتعة بالحياة... لكن والي أحمد جعلها على الفور تفهم كيف أنه لهذا السبب الذي ذكرته للتوّ مضطر هذه المرة لرفض دعوتها. على أي حال، ستحظى بفرصة أخرى لدعوة والي على الطعام، حيث وافق الآن على إلقاء محاضرة قصيرة عن الحضارة الفينيقية في القاعة الرئيسية للمعرض في وقت مبكر من الأسبوع التالي. كان يمكنها أن تستمر في الثرثرة إلى ما لا نهاية، لكن برتراند اخترع عذرا ليسكتها وينهي المكالمة.

.36

كانت السيارة الألفا روميو، المصفوفة في الشارع قرب مكاتب كويس كويم، واقفة تنتظر. «من فضلك اجلس في الخلف..» قال السائق عندما رأى أن برتراند كان سيحتل المقعد المجاور له. أطاعه برتراند. من الخارج، لم تبدُ نوافذ السيارة مختلفة على الإطلاق عن نوافذ بقية السيارات، لكن من الداخل أدرك برتراند أن الناس في الخارج لا يمكنهم رؤية ما في داخل السيارة. كانت ذات موديل فاخر، مصممة بعناية بما يتماشى مع الطريقة الإيطالية، التي كان برتراند يعجب بها دائما.

«لديكم سيارة جميلة..»

«تم شراؤها بتمويل من البروتوكول الإيطالي. حصلنا على اتفاق جيد جدا... من الواضح أننا أنفقنا آخر التمويلات الموجودة..» قال السائق موضحا.

«أين سنذهب؟»

«سترى.»

«أعرفك من مكان ما!» هتف برتراند فجأة.

ضاحكا، التفت السائق نحوه. «أراك في التليفزيون. وأنت رأيتني منذ يومين.»

«السفاح!»

«إذًا فقد تعرفت عليّ! اسمع. اسمي ڤينتشي... على الأقل عندما أكون في العمل. وأنت وعدت أن تقدم حلقة عني، أتذكر؟»

«أنا دائما أفي بوعودي.»

«لو كان الكل مثلك..»

«لم أكن أعرف أنك تعمل لدى الحكومة. وكيف حال المطعم؟»

«هل تعتقد أن المرء بإمكانه تلبية كافة احتياجاته من دخل المطعم فقط؟ تكسب ذلك الشيء الإضافي، صحيح، أنت تعرف كيف هو الأمر... آه نعم! بالأمس اشتريت دفعة أخرى من الدجاج. ستندهش، كل شيء يغلو ثمنه كالجحيم، لكن على الأقل انخفض سعر الدواجن مرة أخرى. ثم تجد الناس مازالوا يشكون! ما حصلت عليه تلك الليلة في مطرحي، كان جيدا، أليس كذلك؟»

«إذا كنت تسألني عن رأيي فقد أعجبني كثيرا جدا. وسآتي مرة أخرى قريبا بما أنك تخبرني الآن أن لديك المزيد من هذا الصنف. لكني لا أعرف كيف يمكنك تدبر الأمر. فالسياح يذهبون إلى برج النيفتي قرب الظهر. ولا بد أن يأتوا إليك كي يأكلوا في ذلك الوقت...»

«آه اسمعني يا سيدي، أنا أتدبر حالي لو تعلم. في النهاية أنا فعلت ما عليّ وفعلته جيدا، وهذا عندما كانت الأحوال صعبة، ليست كاليوم! كان عليهم أن يمتنوا لما فعلته! لا أريد الشكوى، لا تفهمني على نحو خاطئ، لكن يجب علينا جميعا أن نساعد بعضا البعض، ألا تتفق معي في هذا؟ إنها مصادفة غير معتادة أن تجدني أعمل اليوم في هذه الساعة... عادة يكون هناك شخص آخر يقود. هم يطلبونني غالبا عندما تكون هناك مهمة ما مزعجة نحتاج لتخليصها... هكذا كان الأمر دائما معي. كما أنه حاليا لا يوجد الكثير من السائحين الجائلين... مازال الموسم في أوله.»

أثناء كلامه، كان السفاح يقود بأعلى سرعة، مخلفا وراءه سيارات كانت تقود بالفعل بسرعة كبيرة، ومقتحما كل فتحة بين المركبات السائرة يمكن أن تسمح له بتجاوز كل من تصادف أن كان على يمينه أو يساره. استمر برتراند في الإعجاب بتصميم السيارة الداخلي الأنيق. من لوحة جانبية انتزع طبقا معدنيا صغيرا كان مقصودا به أن يكون مطفأة سجائر. وفي لمح البصر، كان قد هرسه بين أصابعه. دون ضجة، أعاد في صمت الطبق المهروس إلى اللوحة. «أين سنذهب؟» تساءل مندهشا. «أليس هذا تل مِديونة؟»

«منذ بضعة شهور، قرر الرجل العجوز أن ينقل مكتبه إلى هنا..» رد السفاح.

في أي وقت آخر، كانت هذه المعلومة ستترك برتراند عاجزا عن الكلام من الدهشة وعدم التصديق. كانت منطقة تل مديونة (أو باسمها الإنجليزي الذي صارت معروفة أكثر به: **Thick Dane Garden Estates**/*عقارات الحديقة الدانمركية الكثيفة*) مخططة منذ البداية لتكون مشروع بناء على برزخ كبير محاط بالبحر، معروف باسم (تل مديونة)، يزهو بماضٍ تاريخي، ويمتلئ بالصخور والأبنية المهجورة. تلك هي البقعة التي مات فيها بالفعل الباشا التركي مِديونو منذ سنوات عديدة خلال إحدى الهجمات التي كان القراصنة المسلمون يبتهجون بإطلاقها على الأراضي المالطية. هنا الآن، كان يجري بناء شقق فاخرة. ومن بين المشترين المحتملين سيتقدم بالتأكيد كل شيخ عربي، وكل ملياردير روسي، وكل عبقري من عباقرة وول ستريت مازال يتعافى من انهيار سوق الأسهم الأخير. ومع ذلك، وبغض النظر عن أي اسم معلن لها، لم تكن هناك أبدا أي نية في وجود حدائق بأي مكان في مشروع (عقارات الحديقة الدانمركية الكثيفة)، ماعدا في المواد الدعائية التي كانت تُظهر كيف يجري بناء الشقق وسط متنزه أخضر رائع الجمال.

للأسف تبين أن المشروع واحد من تلك المشاريع التي تظل دائما عملا جاريا. بدأت عمارات ضخمة تمتد لتطاول السماء في منافسة حول أيها سيصل أولا. كما تنافست أيضا حول أي عمارة يمكن أن تقدم أفضل عرض للقبح بدرجات مختلفة من الخرسانة، وأيها سيتكدس أكثر بشقق في حجم أقفاص العصافير للبيع مقابل مئات الآلاف من اليوروهات، حتى لو أن الشيوخ العرب والملياردديرات الروسيين وسحرة التمويل الأمريكيين قد تراجعوا قليلا عن تمويل صفقاتهم. كان اللغز هو كيف مازال الشخص الذي يمول عقارات الحديقة الدانمركية الكثيفة أيا كان... وهو مشروع نما ليغدو في حجم مدينة ونصف... قادرا على إنفاق أموال كثيرة كهذه دون الحصول على أي شيء في المقابل؛ لأنه حتى بعد مرور كل هذه السنين، مازالت المنطقة تشبه موقع بناء عديم الشكل حيث وجد عدد كبير من الكلاب والقطط الضالة -من بين أشياء أخرى- فيه المأوى.

أثناء قيادته السيارة عبر شوارع المشروع غير المكتملة، اضطر السفاح لتهدئة سرعته. كان بحاجة إلى التركيز على القيادة بين بقع سطح الشارع المحفور، وأكوام الحجارة والتراب التي انتشرت حوله. كان مدهشا ملاحظة كيف أن كل مبنى نصف مكتمل كان مرصعا بفجوات خالية ويحمل لوحات كبيرة تعلن بتوكيد كبير ان هذا الجانب أو ذاك من المبنى قد بيع.

ببطء، قاد السفاح السيارة نحو ذلك الجزء من (الحدائق) الذي بدا أقرب إلى الانتهاء من البقية؛ كانا في شارع صغير امتد موازيا لشارع آخر يواجه البحر. توقف إلى جوار مبنى ذي أبواب زجاجية عريضة تنفتح بين عمودين من الرخام الصناعي. «سأنتظرك هنا..» قال السفاح. «المصعد يعمل اليوم. اتجه إلى الطابق الثامن، من السهل أن تجده، فلا يوجد فيه غير مكتبنا، فلم يُفتح الباقي بعد. عندما تعود، تأكد من أن

المصعد سيهبط بك حتى هنا؛ لأنه غالبا يتوقف أعلى بطابقين، وينفتح على الشارع الخلفي.»

شكره برتراند ودخل المبنى. صعد كما نصحه السفاح بالمصعد وقابل سكرتيرة كانت تنتظره. ربما كان السفاح قد نبهها إلى وصولهما من الطابق السفلي. على الفور قادته عبر المكتب الخارجي المكسو بخشب البلوط وعبر ممر مدهون بالرمادي، ومزين بلوحات لمراكب شراعية كبيرة، إلى داخل مكتب السيد مانيسكالكو. كان المكتب غارقا في عتمة خفيفة، حيث سُحبت الستائر في الناحية الأخرى وأتى الضوء فقط من مصباحيّ مكتب، وُضع أحدهما على المائدة التي جلس إليها المدير، والثاني أعلى أريكتين في جانب الحجرة.

نهض السيد مانيسكالكو بسرعة ليحيي برتراند. «لا تؤاخذني، لا تؤاخذني لأني جعلتك تأتي إلى هنا بهذه الطريقة..» قال وهو يومض بابتسامته الثعلبية. «لكن لم تكن هناك طريقة أخرى... لم يكن باستطاعتي زيارة مكتبك مرة ثانية... كان هذا سيلاحَظ بالتأكيد...»

هز برتراند رأسه كإشارة ألا ضرورة للاعتذار.

«أظن أنك اندهشت لأننا أتينا بك إلى هنا... مازال... لا أحد تقريبا يعرف أن مكاتبنا موجودة في هذه المنطقة. كان أصحاب المشروع في غاية الامتنان لأنه صار بمقدورهم أخيرا قول كيف أن مكتبا قد فُتح هنا. نحن موجودون هنا تحت غطاء شركة لخدمات التمويل... وهم يدعوننا نستخدم هذه الشقة بسعر رخيص. هم سعداء، ونحن سعداء... خاصة أن لدينا مطلًا رائعا...» ضحك السيد مانيسكالكو ودعا برتراند كي يتبعه ليلقي نظرة من نافذة المكتب الواسعة، خلف الستارة الداكنة. ومعا، تطلعا إلى المنظر أمامهما، حيث كانت سطوح عالية تتنافس مع بعضها البعض كي تحجب السماء عن أي شخص صادف وأن عاش أسفلها أو

خلفها. لكن لو نظر المرء بتركيز في الفجوات ما بين المباني العالية، فمن المحتمل أن يميز قطاعات عرضية من البحر، إن كان هذا بحرا؛ لأنها يمكن أيضا أن تكون قطاعات من السماء. «لم يكذب أحد عندما وعدونا بمطل رقيق على البحر..» قال الموظف العمومي. «يمكنني أن أرى البحر، وأنت أيضا، أليس كذلك؟ لكني لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من اللازم...»

جلسا على الأريكتين. واعتذر برتراند عن شرب القهوة. «دعنا ندخل في الموضوع مباشرة..» قال مانيسكالكو. «هل كان لديك ما يكفي من الوقت للتفكير فيما ناقشناه بالأمس؟ نحن مازلنا مهتمين جدا بالوصول إلى الطريقة التي اكتشف بها أحدهم كيفية اختراق الرسائل الصادرة والواردة بين بروكسل وأماكن أخرى. هل يمكنك مساعدتنا أم لا؟»

«لقد فكرت كثيرا فيما ناقشناه، لكني مازلت غير قادر على فهم كيف نفعل نحن في كويس كوام ما تقول أنه تم. وكما ترى، لقد استجوبت كل أعضاء فريقي وكانت الإجابة واضحة. لا أحد منهم متورط في هذا بأي شكل من الأشكال.»

«أتمنى أن نفهم جميعا مقدار أهمية هذا الأمر. ليلة الأمس مرة أخرى، أنا متأكد أن أحدهم... ولا بد أنه نفس الشخص من الليلة السابقة عليها... كان يخترق ملفات نفس المؤسسة.»

«كيف؟»

«من الواضح أن باستطاعته فعل هذا بسهولة بالغة... رغم حقيقة أن تشفير جدار الحماية يتغير كل أربع وعشرين ساعة... أمازلت لا تستطيع مساعدتنا؟»

«أنا آسف، لكن ما أخبرتك به أمس مازال كما هو.»

«يجب أن أقول إنه منذ الأمس، ظهرت أمور جديدة أثارت اهتماما أكبر بما تفعلونه في كويس كوام.»

«فعلا؟ وماذا يمكن أن تكون؟»

«في المقام الأول، نحن نتحرى في هذا المكتب حول تطورات غريبة معينة تبين أن الأسعار تنخفض في قطاعات معينة. أرسلوا إلينا من أعلى سلطة أن هذا الموضوع يزعج بشدة السلطات في بروكسل، وأصدروا إلينا توجيهات بأن نعطي الأمر الأولوية القصوى في أنشطتنا. والآن قل لي، متى حدث من قبل أبدا أن دسسنا أنوفنا في أسعار العلف والزبد؟! أظن أن أصدقائي في لانجلي لن يصدقوا آذانهم عندما يتناهى إلى علمهم هذا. لكن الأوامر هي الأوامر وهذا هو ما نفعله.»

«وما علاقتنا نحن بهذا؟»

«يبدو أنكم أيضا كنتم تتحرون حول تغيرات الأسعار...»

«نحن أيضا؟ آه نعم... بوريس...»

«بوريس؟»

«هو موظف معنا يعمل كباحث. دائما ما يكون لدينا موضوع أو اثنان احتياطيا للاستخدام في البرنامج... وكثيرا ما لا نستخدم أي شيء مما لدينا من مخزون من هذه الموضوعات، لكن يمكننا العودة إليها لو كانت هناك مشكلة وينتهي بنا الأمر بلا شيء في أيدينا. لفترة كنا نتتبع تكاليف المعيشة بهذه الطريقة لكننا لم نجد قط فرصة للاستمرار في الموضوع. إنه موضوع معقد...»

«معقد جدا.» كان السيد مانيسكالكو يبتسم بقسوة شديدة حتى أن شفتيه أصبحتا خطين رفيعين. «مغزى الحكاية هو الآتي: شخص من

فريقك، أتصور أنه لا بد وأنه هذا الباحث، ماذا قلت اسمه؟... بوريس؟... اتصل مبكرا هذا الصباح بواحد من المسؤولين الكبار في مكتب الإحصاء ليسأل عن أمور... من أعلى سلطة، أتفهم؟... بل سأتمادى إلى حد قول إنه حتى من السلطات في بروكسل... تم إحالتها إلينا للتحري حول ما يحدث. هذا الباحث من فريقك يبدو أنه على علم فعلا بوجود مشكلة كبيرة قادمة...»

«أي مشكلة؟»

«يبدو أن هناك إنتاجا مفرطا للحم الدجاج... أكبر بكثير مما يمكن تبريره بكمية العلف المستهلكة في البلد.»

«أنا لا أعرف شيئا عن كل هذا. إذا كان بوريس أو أيا كان من أثار البحث، يعمل على مؤشرات لم أرها قط... أو في الحقيقة، لم يكن ينبغي أن تظهر أمامي، لأني لست مضطرا للاهتمام بالوسائل التي يتم بها البحث... ما أهتم به هو ناتج البحث، إذا كنت في مرحلة يمكنني استخدامه فيها.»

«لكن يمكنك أن تحكي لي عن بروفيسور والي أحمد. هو يعمل في شراكة معكم...»

«قدمنا له بروفيسور ديلينجر. لكني لا أستطيع أن أفهم ماذا يمكن أن يهمكم في هذا. جاء والي أحمد إلى مالطا بدعوة أرسلت إليه من المعهد الوطني للثقافة في أمر مرتبط بالمعرض الفينيقي الذي يقيمونه.»

«نعم، وألا تجد من المثير للاستغراب قليلا أن رئيس هذا المعهد، السيد مالكولم أوروري، يغادر البلاد في نفس الوقت الذي يقام فيه هذا المعرض؟ وفي الوقت الذي من المفترض أن يدعو فيه بروفيسور أحمد هذا؟ هل تعرف السيد أوروري؟»

«أعرفه. أعرفه على المستوى المهنى وأحيانا على المستوى الاجتماعي. نحن لسنا على صلة وثيقة للغاية. أعرفه كرجل لطيف جدا. أما بالنسبة لمسألة إن كان قد غادر البلاد إلى صقلية في وقت...»

«أوه، هل تلك هي الوجهة التي ذهب إليها؟»

«نعم، ألم تكن تعرف؟»

«لا.»

«أيا كان... ليس من شأني إن كان أوروري سافر في أجازة في الوقت الصحيح أم لا. أنا لا أتدخل في مثل هذه الأمور.»

«لكن إذًا هذا الموضوع... الخاص بالبروفيسورين اللذين يعملان بشكل وثيق للغاية معك، لأن هذا هو ما يفعلانه، هل أفهم على نحو صحيح...؟»

وهنا، أوضح برتراند بالضبط ودون الكثير من اللف والدوران كيف كان ديلينجر وأحمد يقدمان لكويس كوام استشارة حول التاريخ الفينيقي من أجل حلقة من البرنامج ستُعرض قريبا. «ويمكنك التأكد من كل هذا من بروفيسور ديلينجر. أنت تعرفه. أظن أنه يعمل معك حول مشروع دروسيلا؟»

رفَّت أذنا مانيسكالكو وانتصبتا، وكأنه كان لديه بالفعل دم ثعلب في عروقه. وأصبح أكثر انتباها لما يقوله برتراند. «مشروع دروسيلا؟ ما هي علاقتك بدروسيلا؟ وبروفيسور ديلينجر...»

«انظر من يتحدث! ليس لديّ علاقة بالمشروع. أعتقد أنك الشخص الذي لا بد أنه يعرف كل شيء عن مثل هذه الأمور... وبروفيسور ديلينجر الذي يقود الجانب العلمي من المشروع، إذا كنت أفهم جيدا

ما قاله، طلب منا أن نقوم باختبار خلال واحد من أنشطتنا، اختبار حول كيف سيشتغل المشروع. للأسف، كما تعرف بالتأكيد، يبدو أن المشروع حقق فشلا ذريعا بما أن لا شيء مما كنتم تتوقعون تسجيله قد حُفظ في الذاكرة. أنت وراء مشروع دروسيلا... أقصد مكتبك... هل أنا على حق أم لا؟»

تبع ذلك صمت طويل. ثم نهض السيد مانيسكالكو ببطء من فوق الأريكة واقترب من النافذة العريضة. الخطوات التي خطاها، والطريقة التي بدا عليها، منحته على نحو متزايد سيماء ثعلب مروض يحتفظ الآن بهدوئه، لكن يمكنه فجأة أن يصبح خطيرا جدا. لكن هذا لم يؤثر على برتراند أو يجعله متوترا. في أعماقه كان قد بدأ يجد مانيسكالكو سخيفا بعض الشيء، رغم أنه كان يعرف جيدا ماذا يمكن أن يكون الهدف النهائي وراء تحريات هذا المسؤول.

«في لانجلي..» كان الأخير يقول بصوت ناعم. «علمونا أنه لا شيء أسوأ من إبقاء عمل إدارات المخابرات السري في الظلام... أو من جعل اثنين أو ثلاثة منها تنفذ مهامها بالتوازي... أنا لا أقول إن هذا يحدث حاليا، لأني لو فعلت فأنا أكشف أسرار الدولة. لكن يمكنني أن أقول لك: لا، لا علاقة لإدارتي ولي بمشروع دروسيلا. تم اتخاذ القرار من أعلى سلطة، وأنا آسف لقول هذا، بتكليف إدارة أخرى بالعمل على هذا المشروع.»

«هذا غريب. وأنا الذي كنت أعتقد أن جوني ديب يعمل لصالحك.»

كان السيد مانيسكالكو يتطلع من النافذة وظهره إلى برتراند، لكنه التفت الآن ببطء إليه: «جوني ديب؟ من هذا؟»

قدم برتراند له التوضيح الواجب، وفي نهايته قال: «يشكو جوني

دائما أنه يتلقى أجرا ضعيفا... ربما لهذا ظننت...» لم يعرف لمَ اخترع هذه التفصيلة. ربما كان يشبع رغبة خفية بخلق مشكلات للبروفيسور ديلينجر.

«دعني أوضح شيئا واحدا، في هذا المكان نحن نكفل لعملائنا الحصول على مقابل جيد... وأنا أشير بالتحديد إلى عملائنا، وليس إلى سكرتيراتنا وسائقينا، حيث نعم، يخلق الحمقى في الماليات دائما التعقيدات...» للحظة، كان يمكن للمرء أن يشعر أن السيد مانيسكالكو يشعر بإهانة فادحة. لكنه سرعان ما تغلب على سخطه وعاد مرة أخرى يبتسم بكل ما فيه. «... أنت توحي لي بفكرة. إذا كان هذا الجوني ديب لديه مشكلة مالية، ربما أمكننا أن نكون مفيدين له... لأنه، من فضلك... تعال إلى هنا... فقط كي...» أطاعه برتراند. «تلقي نظرة على المنظر من هذه النافذة. بمَ يخبرك؟»

«أنه كان ليغدو جميلا للغاية، لو لم يكن بكل هذا القبح.»

«أكثر من هذا، أكثر من هذا...»

«لو كانت لديّ السلطة، لأوقفت هذا المشروع إيقافا تاما. لأزلت كل ما بُني بالفعل وجعلت كل شيء يعود كما كان من قبل.» قال برتراند. وتخيل أنها بمجرد أن تفهم ما كان يقترحه، فإن هذه المباني العالية القبيحة بخرسانتها التي تبقيها مكانها تئن تحت جهودها لمطاولة السماء، وفتحاتها الفاغرة كأفواه فقدت أسنانها... تخيل أنها ستهب احتجاجا، وتصفر في اتجاهه وهي تلوّح بلافتات تحمل كلمة (بيعت). كان هذا المشروع يستحق في مرحلة ما حلقة لاذعة من كويس كوام، لكن مثل هذا العمل كان سيسبب للبرنامج خسارة، ربما للأبد، لحزمة كبيرة من الإعلانات...

«لا، لا... هناك ما هو أكثر من هذا..» اعترض السيد مانيسكالكو. مرر أصابعه فوق شفتيه، كما لو أنه كان يرغب في أن يخفي تماما أسنان الثعلب التي تكشفها كل ابتسامة يبتسمها. «بالنسبة لي، ينقل هذا المنظر رسالة لها أهمية قصوى، شيء عظيم عنا جميعا. يخبرنا أننا كشعب نعيش بالاستدانة. اعتدنا العيش بالاستدانة، ومازلنا نفعل هذا وسنستمر في العيش بالاستدانة. منذ زمن طويل، كنا نستدين الملاليم وسمنًّا من فضلات الجنود والبحارة... لا أتوقع منك أن تتذكر تلك الأيام... ولا أنا، لأكون صادقا، لكن جدي صنع ثروة من الفضلات، هذا ما أعرفه. حتى لو أنه بعد ذلك فقد كل ما كسبه في القمار. واليوم نستدين لأننا نأخذ مقابل عدم العمل، أو بسبب أننا نبخس حق أي شخص يدفع لنا مالا جيدا مقابل ما نبيعه له، أو نفعل ذلك ببناء شقق فوق شقق أخرى من الصعب إيجاد مشترٍ لها، حتى ونحن نتفاخر حول كيف يرتفع سعر بيعها دائما، أو نفعل ذلك بمحاولة اصطياد عقد من أوروبا لتمويل بناء طريق سيتم بشكل سيء. أليس هذا أفضل؟... الاستدانة بالملايين حيث كانت تجري قبل ذلك بالبنسات. إنه التقدم، ألا تظن ذلك؟»

هذه المرة، ظل برتراند صامتا. كان مقتنعا أن المدير في رحلة صيد. وكان هو قد منح مانيسكالكو خيوطا كافية، ولم يكن بحاجة لمنحه المزيد. ساد الصمت لفترة قصيرة أدرك مدير المخابرات خلالها ما كان المذيع التليفزيوني قد قرره. ابتسم وقال: «لكن كفانا من هذه الفلسفة اليوم... أعتقد أننا قلنا كل ما كان علينا أن نقوله. كان أحد الدروس التي تعلمتها من لانجلي هو: لا تمط الاجتماعات لوقت أطول مما يمكنها تحمله... وإلا فإنك بدلا من النجاح في التواصل، ينتهي بك الحال إلى الارتباك. تحدثنا عن مجموعة واسعة من الموضوعات بالفعل، ألا تعتقد هذا...؟ زيارة السيد أوروري إلى تاورمينا، ذلك هو المكان الذي يوجد فيه، صحيح...؟ اختراق سفارتنا في بروكسل... الذي استمر ليلة

أمس أيضا... وصول البروفيسور والي أحمد، الذي يوجد الكثير ليقال عنه... مشروع دروسيلا... جوني ديب... لا بد أن أشكرك على تعاونك. سامحني على إحضارك إلى هنا، لكن لم تكن هناك طريقة أخرى... وإذا أمكنك أن تتذكر... أو إذا وجدت... شيئا ترى أنه من الممكن أن يكون مفيدا لنا، في عملنا الصعب... من فضلك اتصل بي... انظر، هذه بطاقتي، وهي البطاقة الأكثر سرية... الآن بما أن علاقتنا القائمة على صداقة طيبة قد تطورت أكثر، يمكنني إعطاؤها لك، لكن من فضلك، من فضلك، ابقها لنفسك. تذكَّر، هنا نحن نفهم جيدا أن التعاون الجيد يتطلب خذ وهات... نحن لسنا الشتازي[20] لكننا نفهم أنك ترد المعروف الذي يقدمه أحدهم لك بمعروف آخر، ومقابل أي معلومة مفيدة تهتم بأن تعطيها لي، سنرى كيف يمكننا أن نقدم العون...»

مبتسما، ترك برتراند السيد مانيسكالكو يقوده عبر العتمة الخفيفة في المكتب إلى الباب، وبعد أن تصافحا («السائق سيكون في انتظارك بالطابق السفلي..» قال المدير ناصحا)، استقل المصعد.

سعيدا بنفسه وبما عرفه خلال اللقاء، شرع المدير فورا في محاولة الاتصال بجوني ديب... لكنه لاحظ رقعة ظليلة أكثر عتمة من بقية الحجرة على منضدة القهوة الصغيرة قرب الأريكة التي كان المذيع التليفزيوني جالسا عليها. لم يستطع تمييز ماهيتها وانحنى ليتفحصها. عادةً كانت هناك ثلاث صوانٍ معدنية صغيرة، مطلية بالفضة، حيث يمكن للزوار وهم يتناولون القهوة أن يضعوا الفناجين والأطباق الصغيرة عليها. اثنتان من هذه الصواني كانتا مهروستين ومعووجتين معا فيما بدا أشبه بسنارة صيد.

20- وزارة أمن الدولة في ألمانيا الشرقية سابقا.

أسرع برتراند خارجا من المبنى ليبحث عن سيارة السفاح الألفا روميو. انغلق الباب الزجاجي وراءه بعنف. أمامه كان الشارع الضيق مليئا بالأكوام ومواد البناء. لم يكن قد دخل المبنى من هذا الجانب؛ تذكر بعد فوات الأوان ما كان قد أخبره به السائق عن المصعد واستدار ليدخل مرة أخرى ويهبط الطابقين الآخرين، لكن الباب كان الآن موصدا. لم يكن هناك شيء أمامه ليفعله، وكان عليه أن يدور حول المبنى حتى يصل إلى الباب الآخر حيث أنزله السفاح.

كان الشارع نصف مكتمل، وأمامه حيث وقف وإلى جانبه أيضا كانت المباني مازالت تصعد، بعضها جاهز فقط حتى ثلاثة أو أربعة طوابق. بعضها الآخر كان مكتملا فعليا، وقد أغلقت نوافذها بمصاريع حديدية أو من الألومنيوم. جانب من الطريق كان مسدودا جزئيا بمعدات وقفت أمام واجهة كاملة. ناهيك عن كونه غير مستو، كان سطح الشارع ملطخا بالزفت والزيوت المتخلفة عن المحركات القديمة المستخدمة في مواقع البناء. انطلق برتراند إلى يمينه ليصل إلى الشارع الذي وصل منه إلى مكتب السيد مانيسكالكو رغم أنه لم يكن متأكدا أنه يسلك الاتجاه الصحيح.

فجأة، قفز أمامه من مكان ما قطان كبيران أسودان، يعولان ويهرَّان في وجهه. اعتقد في البداية أنهما يتعاركان، لكن الاثنين توقفا أمامه، مقوسين ظهريهما وهما يبخان رذاذهما بغضب متزايد. كان مندهشا إلى حد كبير. طوال حياته لم يبدِ قَطّ مودة قوية تجاه القطط، لكنه بالتأكيد لم يعتبرها أعداء أبدا، وهذان القطان، من يدري من أين جاءا... بدا عليهما أنهما غاضبان بالفعل منه، وكانا يستثيران أحدهما الآخر كي يصبحا أكثر غضبا. ما المشكلة؟ خطا نحوهما فصارا أشد شراسة، متراجعين إلى الوراء بينما هو يخطو للأمام، وقد تشعث فراؤهما كأنهما يواجهان أكبر أعدائهما.

تناهى إلى مسمعه مزيد من عويل القطط. كانت قطط أخرى تنضم إلى القطين الأولين، وعيونها تفيض بالكراهية بينما تحدق فيه. هل من الممكن أن تكون جائعة للغاية حتى أنها مستعدة للهجوم على أي عابر وحيد؟

نقل عينيه بين نصف دستة... إلى دستة قطط كانت تحيط به الآن، وأصابه رعب أكبر: خلف القطط، كانت زمرة من الكلاب قد تجمعت في حلقة، كلاب كبيرة الحجم وقد تراوحت ألوانها بين الأسود والأبيض القذر جدا والبني... ما أدهشه كانت تلك النظرات الشرسة وفي نفس الوقت المرعوبة التي كانت الحيوانات ترمقه بها. كانت تكشف عن أنيابها، وتنبح، وتعول، وتمط فكوكها في اتجاهه. مراقبةً إياه بانتباه، بدأت الكلاب الشرسة تتحرك ببطء إلى الأمام، بينما بدأت القطط، التي استمرت في بخ رذاذها نحوه وهي تولول وتقوس ظهورها، تفسح لها الطريق. من حوله، كان الشارع المهوش وغير المكتمل خاليا إلا من اللوحات الإعلانية المتدلية من الفتحات الفاغرة لتعلن أنها (بيعت).

كان برتراند متحيرا. لسبب ما لم يكن بمقدوره فهمه كان حضوره يجعل هذه الحيوانات المتجمعة تُجنّ بالرعب، وتحرض بعضها البعض بضراوة تامة على القصاص منه على شيء ما. ماذا كان هذا الشيء؟ لا يعرف. في تلك اللحظة، عاودته ذكرى غريبة، من أيام كان مازال محبا للأدب. رغم أنه على عكس بوريس لم يكن قد قرأ الإلياذة كاملة من بدايتها إلى نهايتها بعد، إلا أنه يتذكر مقطعا من *جارجانتوا*[21] حيث قام الشرير بانورج – ليقتص من امرأة رفضته – بتقطيع الأعضاء التناسلية لكلبة هائجة إلى قطع صغيرة وألقاها على ثوب المرأة بينما

21- جارجانتوا وبانتاجرويل خماسية روائية كتبها الكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه في القرن السادس عشر، وتروي مغامرات اثنين من العمالقة: جارجانتوا وابنه بانتاجرويل.

تغادر الكنيسة. في جنون احتشدت كل كلاب المدينة حول المرأة وهي عائدة إلى البيت مع زوجها. لم يكن لدى برتراند ما يكفي من الوقت كي يتأمل كما يجب في هذا المقطع الأدبي؛ لأن الكلاب كانت تقترب الآن منه خطوة خطوة. لم يعد هناك نباح، بل بدت تزوم نحوه من أعماق جوفها، مستعدة للهجوم. ببطء، بدأ في عبور الشارع، حريصا على ألا يتعثر في الحفر بينما كان يقترب من شارع ضيق جدا تمكن من رؤيته على الناحية الأخرى. هناك على الأقل، لن تتمكن هذه الحيوانات الشرسة من الهجوم عليه من كل الاتجاهات، وهو ما كان مقتنعا أنها تنوي فعله. بمرور الوقت، بدا أن عزمها يزداد قوة. كان يسيطر عليها ذعر متنام غاضب وتبعت خطواته دون اندفاع، مقتربة أكثر مع كل خطوة. وعندما وصل فتحة الشارع الضيق وبدأ يدخله، اندفع كلب أسود ضخم ينبح ويزوم منضما إلى الزمرة التي كانت تضغط متقدمة إلى الأمام، دافعا الآخرين ليقتربوا أكثر. سار برتراند بظهره داخلا الشارع حيث حدس أن الكلاب لن تتمكن من مهاجمته من خلفه، ولا جميعها معا من الأمام. اصطدم يده بشيء صلب: كان قضيبا حديديا مغروسا في عمود خرساني نصف مكتمل. أمسك بالقضيب وكسره...

بعد أقل من خمس دقائق، خرج برتراند من الشارع الضيق، ينفض بنطاله، وألقى القضيب خلفه. على اليسار أمامه، كان الباب الذي خرج منه بعد مقابلته مع السيد مانيسكالكو مازال موصدا والشارع مازال خاليا، إلا من اللافتات التي تعلن أي الشقق بيعت. انعطفت سيارة حول الناصية واتجهت نحوه. كان السفاح.

«ها أنت ذا..» قال. «قلت إنك لا بد خرجت من الناحية الخطأ عندما اتصلت بهم فوق وأخبروني أنك غادرت منذ فترة ليست بالقليلة. لا تقل لي إنك تهت؟»

«بما أنك تمكنت من العثور عليّ، لا. لم أته..» أجابه برتراند، وهو يدخل السيارة.

قاد السفاح السيارة خارجا من عقارات الحديقة الدانمركية الكثيفة، ثم تحرك بسرعة هائلة إلى مكاتب كويس كوام.

في الصباح التالي... لأن الوقت كان يقترب بالفعل من المساء عندما غادر الاثنان الحديقة الدانمركية... وفي شارع ضيق مازال يتم بناؤه في المشروع العقاري، تم العثور على جثث حوالي اثني عشر كلبا ونفس العدد تقريبا من القطط، كلها مهشمة تماما. شخص ما هاجمها بوحشية وضربها بقضيب حديدي. لكن الغريب أن الحيوانات بدا أنها ذهبت إلى المكان بإرادتها. بالطبع أثار الموضوع لغطا كبيرا بين عدد من المواطنين المحبين للحيوانات. بل إنه ذُكر حتى في الاجتماع العام السنوي التالي للجمعية المسؤولة عن حماية الحيوان... لكن ما قيل هناك لا حاجة بالفعل لتقديمه في هذه القصة.

.37

كانت كل التقارير التي قدمها الزملاء لبرتراند حول العمل المنجَز من أجل حلقة كويس كوام في الغد تقارير ممتازة. كان العمل يتقدم بإيقاع سريع، حتى لو كان مازال هناك الكثير معلقا. قرر هاردهيد زيارة الحقل في زنوبر صباح الغد ليتأكد شخصيا أن المقاول الذي يقيم عادة الصوان الخارجي يقوم بعمله كما يجب. بعد ذلك على الفور سينهي كل الترتيبات لنقل الجمهور الذي سيحضر تصوير البرنامج. «بمجرد أن أنتهي من هذه المهمة، سيكون عملي قد انتهى. سآخذ بعد الظهر أجازة..» أعلن للآخرين. أصابتهم الدهشة: هل يأخذ هاردهيد أجازات أبدا؟ «لن تروني حتى في الموقع خلال التسجيل... سأكون نائما، وهو ما أحتاجه.» قبل أن تحل الليلة، سيكون عمله في تأمين الإعلانات قد انتهى أيضا؛ وكان يشعر فعلا بالرضا عن نفسه.

ومع ذلك، فإن الشخص الذي بدا الأكثر رضاءً عن مجريات الأمور، كان جيانينو. فهو لم يعد قلقا حيال تصوير الليلة؛ بما أن هذه المشكلة قد أُلقي بها في حِجر شخص آخر. لكنه كان مازال مندهشا ويتساءل كيف فُقد تماما البث المرسَل إلى الأستديو من حقل الإسخريوطي. على أي حال، لقد أفلتوا من الكارثة، حيث أمكن العمل بالتسجيل الذي تم في الحقل لإنجاز البرنامج. صحيح أنه كان مازال يفكر في المشكلة التي ثارت مع دونًّا؛ لكن استغراقه في العمل على الأقل ساعده كي ينسى. عند النظر إلى الأمور كلها، فإن خطة عرض البرنامج من حقل الإسخريوطي

كانت هي الطريقة التي يجب أن تتم الأمور بها: فتنفيذها ليس أسهل من اللازم، ولا أصعب من اللازم. كان جيانينو يحس بسعادة حقيقية في العمل. ثمة مشكلة واحدة فقط: فعندما يكون سعيدا في العمل، لا تكون هناك أي طريقة يمكنه بها كبح آلام الجوع التي تبدأ في نهشه.

كانت بوني أيضا تتحرك بأقصى سرعة. وكانت قد تركت بالفعل مع السكرتيرة ملاحظات لبرتراند تُفصِّل ما هو متوقع منه أن يقوله أثناء تصوير البرنامج، وتضم مجموعة من اللقطات المصورة والمعلومات التي يمكنه الاختيار منها كي يملأ الوقت. والآن كان عليه أن يقوم بالاختيارات النهائية. هنا كانت المشكلة على عكس ما خشى برتراند أن يحدث: فرغم أن التجهيزات لما ينبغي أن يعرضوه ويقولوه قد بدأت متأخرة جدا، إلا أنه كانت في حوزتهم بالفعل مادة أكثر من اللازم.

سألها عما قاله البروفيسوران فيما يتعلق بفيلم الليلة الماضية.

«شاهدا الأجزاء ذات الصلة..» قالت. «أعطيناهما النسخة الكاملة من الفيلم... لا بأس من هذا؟» بدت غير واثقة من نفسها. «... لكنهما أصرا على أن هذا سيكون أفضل حيث يمكنهما فحص الأمر كله بنفسيهما...»

تردد للحظة، ثم هز كتفيه. «ماذا يمكنهما فعله به؟ إذاعته على اليوتيوب للسخرية مني؟»

ضحك كلاهما دون حماسة كبيرة. «سيتصلان بي ليخبراني بما يعتقدان أننا ينبغي أن نفعله...»

«ابقيني على اطلاع..» أجابها ولم تكن ابتسامته مطمئنة.

مع بوريس كان بحاجة لمراجعة موضوعات أكثر إزعاجا.

«ها أنت ذا..» قال له. «يجب أن نتكلم.»

تبعه الشاب إلى داخل المكتب، نصف باسم، نصف عابس. كان قد حدس بالتأكيد ما أراد المذيع التليفزيوني قوله وربما رغب في إلهائه، لذا قال: «أنا أيضا يجب أن أقول لك شيئا... عن ذلك الجرذ.»

«أي جرذ؟»

«الجرذ الذي احتك بك ليلة الأمس.»

«كيف عرفت؟... ثم إنه لم يحتك بي.»

«الكل يعرف.»

«ماذا يعرفون...؟» ومع ذلك، تقبل المذيع التليفزيوني على الفور حقيقة أن قصة ما جرى تصويره ليلة الأمس، ستكون قد بلغت بالفعل الآن أسماع كل طاقم العاملين في مكاتب كويس كوام، وسرعان ما ستنتشر خارجها. كيف يمكنك أصلا أن تبقي شيئا مخفيا في هذا البلد؟ لذا حاول أن يكتشف ماذا بالضبط، من بين الأحداث الموجودة في الفيلم، كان معروفا للـ «الكل».

«رأيت ذلك الجرذ... وبعد ذلك الجرذ الآخر الذي ظهر معه في نفس اللقطة. وأردت أن أخبرك شيئا: كلاهما... أكبر بكثير من حجم الجرذ الذي تجده عادة من نوعهما.»

«لعلهما شرهين كبيرين.»

«هما ينتميان للنوع البني من الجرذان، نورڤيجيكوس، رغم أنهما يبدوان أسودين. المفروض أن متوسط طولهما 25 سم. لكن بمجرد أن رأيتهما، قلت لنفسي هذان أكبر. قستهما على الشاشة. وأقول لك إنهما أطول من 35 سم. هذان الجرذان عملاقان. من يدري إن كانا من نوع خاص أم إن كان هناك تغير جيني ما يحدث في الجرذان التي تعيش

حول حقل الإسخريوطي.»

«بوريس، سأتركك تجري الأبحاث التي تعتقد أنها تعطي معنى لهذا الموضوع. لست مهتما إطلاقا بمعرفة ماذا ستكون اكتشافاتك.»

«ولم يكونا ببساطة خائفين منك. على العكس، بدا وكأنهما معتادان على صحبة الناس...»

«صحيح، ألم تر أنهما أحباني بالفعل؟... اسمع، لن تتلاعب بي. أنت تعرف لماذا جئت بك إلى هنا. بالأمس أخبرتك أن تتوقف عن اختراق حواسيب سفارتنا في بروكسل. وليلة الأمس فعلتها مرة أخرى.»

«من أخبرك؟»

«ليس من شأنك من أخبرني. أنا أعرف فقط. آخر ما نحتاجه في هذه اللحظة أن تأتي الشرطة وتقبض علينا جميعا لأننا نخترق حواسيب حكومية. هل تفهمني؟ أقولها واضحة إني لن أحميك إذا تحرك الموضوع بالكامل.»

«لم أستطع مقاومة الإغراء..» قال الشاب نادما أو مدعيا الندم (والأخيرة وفقا لبرتراند...) «ولا أعرف كيف لاحظوا، لأن شيئا لم يتغير عن الليلة السابقة. لو عرف أحد، لأبلغهم... ولاتخذوا بعض الاحتياطات... حتى الأولية منها... لا أعرف، كان يمكنهم وضع برنامج نيف-نيف حول الخادم أو كان يمكنهم تغيير الخادم مباشرةً...»

«لا أريد ان أعرف ما كان بإمكانهم فعله أو ما كان بإمكانهم تغييره. ليس لديّ أدنى اهتمام! إنهم يستغفلونك؛ ربما تركوا النظام دون حماية حتى تعود وتدخله ثم يصلوا إليك!»

«لم يكونوا ليقدروا!.... لكن على أي حال، لم أستطع مقاومة الإغراء.

وقد قمت باكتشافات جديدة... وهي مثيرة فعلا... تلك القصة التي عرضتها عليك... عن علف الحيوانات... هل تعلم أنها استفحلت أكثر؟... هل تريد أن أريك ما حمَّلته؟»

الحقيقة أن برتراند لم يكن ليحفل قيد أنملة بنشاطات بوريس الإجرامية على الحاسوب. إذا كان يحب هذا، لمَ لا؟ لولا أنه في هذه اللحظة الثمينة من الزمن لم يكن يرغب بالتأكيد في أن تركز السلطات أو أشخاص مثل لورينتي مانيسكالكو على كويس كوام، لأشاح بناظريه بعيدا وترك الأمور تمضي. بحماسته، أثار الشاب فضوله، وبعد برهة تركه يوصل الحاسوب الموجود في مكتبه بالحاسوب الذي كان لدى بوريس في ركن الأستوديو المكدس بالأوراق والكتب والمعدات والأدوات من عالم المعلوماتية.

على الشاشة، حمَّل بوريس تقريرا رسميا، مثل التقرير الذي شاهداه من قبل، مختوما بكلمتيّ (سري للغاية) أعلى الصفحة:

«هذا الصباح اتصل رئيس ديوان السيد الرئيس وذكَّرني بالمناقشة التي أجريتها أمس مع الرئيس ومفوضيّ الزراعة والتجارة الخارجية. قلت له إني أبلغت سلطاتي بكل شيء قيل لي، وأكدوا لي أنهم أحيطوا علما على الفور بالمشكلة، معترفين أنها مشكلة خطيرة، حتى في ضوء الاعتبارات المرعية في معاهدة كورنث، وأنهم اتخذوا بالفعل إجراء حتى نتمكن معا من التحرك نحو حل للمشكلة. وأكدت له أنه في الأيام القادمة، سيستمر التعامل مع الموضوع على نحو عاجل.

«كرر رئيس الديوان مرة أخرى نفس الحجج التي أثيرت بالأمس على يد المفوضين. قلت له إني فهمتها بالفعل على نحو كاف؛ في النهاية، ما لدينا من كفاءة سياسية واحترافية في جانبنا، هي بنفس الجودة التي يمكن للمفوضين الحاليين حشدها. ومع ذلك أخبرني أن ثمة ضغوط

من أطراف لم يرغب في تحديدها، لاستخدام الإجراءات 99.08ب ضدنا. فهمت أنه يشير إلى نفس البلدان التي أرادت الأسبوع الماضي أن نصوت في اتجاه معين، وكالعادة كي لا نخلق أعداء، امتنعنا عن التصويت (ومع ذلك انتهى الأمر بنا على خلاف معهم). وقد تأثر عندما أخبرته أن توجيها يجري إصداره للجيش والشرطة كي يكونوا في حالة تأهب فيما يتعلق بأي تحركات غامضة لتسليم العلف، سواء برخصة أو لا، في الطرق المحيطة بالموانئ وما حولها، وما إلى ذلك. وكيف إذا دعت الحاجة سيتم اتخاذ إجراء عنيف وفقا لخطة الطوارئ 7.5، المعروفة باسم الخطة سبعة. وقد أعطيته تفاصيل حول كيف ستوضع هذه الخطة موضع التنفيذ، بالطبع طالما أن طائرات الهليكوبتر والشاحنات والمركبات الأخرى الخاصة بقوات أمننا لن يصدف أن تكون في حاجة للصيانة. قال لي إن كل هذا يوضح النية الحسنة من طرف سلطاتنا، لكنهم سيستمرون في طلب جهود أكبر للوفاء بالتضامن الذي ينبغي أن يكون موجودا بيننا.

«وافقته وذكَّرته بطلبنا القديم لاجتماع عاجل مع الرئيس ومعاونيه فيما يتعلق بالهجرة غير الشرعية. فأكد لي أن هذا الطلب يحظى بعميق الاهتمام من الرئيس، وبالتأكيد في اللحظة المناسبة، حتى لو كان مشغولا جدا حاليا، سيرسل لي بالتأكيد. وطلب مني أن أبقيه مطلعا على الجهود التي نقوم بها لمراقبة إمدادات أعلاف الحيوانات التي تدخل السوق، وأنهى المكالمة.»

«كن صبورا معي..» قال برتراند. «لكن العلف الحيواني حاليا هو من أقل اهتماماتي. وهل يمكنك أن تقول لي ماذا دهاك كي تسأل مكتب الإحصاء عن تفسير للتباينات بين ما ننتجه من دواجن، وما يُستهلك من علف؟»

«هل أخبروك أني فعلت هذا؟»

«بوريس، كان ينبغي أن تعرف قبل الآن أنه لا يفوتني شيء.»

«إذًا انظر ما رأيك في هذا التقرير..» قال الشاب وأشار إلى الكومبيوتر.

ظهرت على الشاشة الآن وثيقة أخرى مختومة هذه المرة بكلمة (سري):

«اتصل السكرتير العام للمجلس كي يبلغني أن مشروع دروسيلا يواجه مشكلة ضخمة. فالشبكات المحوسبة المستخدمة من قِبل المشروع كلها مترابطة. ثمة تجربة كانت تُجرى على تصميم لعموم أوروبا وكان مستهدفا لها أن تستمر ليلة واحدة. (أي تجربة كانت تلك؟ في النهاية، لم يخبرنا أحد بأي شيء عنها!) وتبين أن نظاما واحدا تحطم وأسقط معه فعليا كل الأنظمة الباقية. من التحريات الجارية، تأكد أن أول تحطم جرى في الموقع الخاص بالتجربة المالطية. أخبرته أني لم أكن على إطلاع إطلاقا بهذا الموضوع. وأنا أطالب بإرسال معلومات كاملة لي كي أتمكن من الحوار بتعقل مع السكرتير العام للمجلس. فهو شخص نافذ جدا، لكن لو اعتقد أنك تحاول اللف والدوران معه، سيتأكد من وضع كل عقبة ممكنة في طريقك. وبالإضافة إلى ذلك، ستكون خسارة للطرفين عندما أظهر أنا وموظفيّ بمظهر الحمقى، لمجرد أننا فقط لا نعرف ما يجري.

«انتهزت الفرصة، عندما وجدت أنه اتصل بي، كي أذكّره بالطلب المعلق الذي يرجع إلى وقت طويل سابق، كي نتقابل ونناقش مسألة الهجرة غير الشرعية. وبأكثر ما لديه من أسلوب نبيل، قال لمَ لا، وأنه يفكر منذ وقت طويل حول كيفية إيجاد بعض الوقت كي نلتقي حول هذا.»

هز برتراند كتفيه. «لا تقل لي إنك حمَّلت هذه الرسالة على حواسيب كويس كوام؟ لقد أُرسلت منذ ساعة بالكاد.»

«بالطبع لا. الوقت الذي تراه هنا وقت مزور عن قصد. لقد كان هذا منذ أربع ساعات... وكنت قد ذهبت إلى بيت أمي منذ بعض الوقت كي أفعل مثل جيانينو... أتناول لقمة... وجدتها هناك وحمَّلتها.»

«أشفق على أمك المسكينة لو انتهى بها الأمر في السجن بسببك، دون أن تعرف كيف ولماذا... لكن قل لي، هل أنت في وضع يسمح لك بتلقي كل تدفقات الرسائل الصادرة عن بروكسل على حاسوبك؟»

«تقريبا.»

«أقولها لك مرة أخرى: احترس، لا تورط كويس كوام في هذا الهراء. إذا كنت تود الذهاب إلى السجن، فهذا شأنك، لكني سأتأكد من ذهابك إلى هناك وحدك، فيما عدا أمك. وإذا وددت، سنأتي لاحقا لنصور حلقة عن خبراتك هناك، لكن فيما عدا ذلك، لا شيء.»

«لا دخل لكويس كوام في الأمر إطلاقا. كمواطن، من حقي تماما أن أثأر. فهم لا يريدون لفتاتي أن تعمل معهم في الوقت الذي تمتلك فيه كل المؤهلات الضرورية... ولا يوجد سبب يفسر رفضهم لطلبها، غير حقيقة أن هناك أغبياء تصادف أن لديهم أقارب في مناصب عليا، لذلك يريدون أن يعطوهم الأولوية عن أي شخص آخر. هذا ليس عدلا. وكذلك أنا، كمواطن عادي، كي أقتص منهم لديّ كل الحق في اختراق المراسلات الإلكترونية للسفارة.»

«بوريس، لك كامل احترامي كباحث في الإلياذة وفي المعلوماتية، لكنك لا تفهم أي شيء في قوانين هذا البلد وسينتهي بك الأمر على نحو سيء. لا أعرف من أين جئت بفكرة أنه لكونهم، وفقا لك، يعاملون فتاتك

معاملة سيئة فهذا يعني أن بإمكانك أن تثأر من شخص ما... وبهذه الطريقة... لا يمكنك حتى أن تبرر هذا على أساس القانون الطبيعي، ويمكنك أن تراجع قدر ما تحب ما قاله القديس توما الأكويني؛ لأنه لا هو ولا أي مطران آخر سيدعمك. ومع ذلك... إنها حياتك...»

«هل تريد أن أريك الوثيقة الأخيرة التي جاءت؟» تساءل بوريس، مبتسما بغموض.

رغما عنه، كان برتراند مستمتعا؛ كان بوريس أشبه بصبي خبيث يبذل أقصى ما لديه ليُظهر كم يمكن أن يكون شقيا. «أريني –لكن سيكون الأمر وكأني لم أرَ شيئا– وبعد ذلك عُد إلى عملك.»

مرة أخرى كان هناك بعض النقر على لوحة مفاتيح الحاسوب وظهرت رسالة قصيرة بحروف سوداء كبيرة:

«*سري للغاية، مصنف أ +++.*

«*صديقنا من الناحية الأخرى للبحيرة، المسؤول عن السلام في مشروعات السُحُب، جاء للزيارة. مكث أقل من خمس دقائق ورفض القهوة التي عرضتها عليه. وفقا للمعلومات التي توصل إليها زملاؤه، خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، وصل شخص ما ذو منصب عال في التسلسل القيادي للقاعدة إلى القارة الحلوة. ولم يصل متخفيا باسم مستعار لأنه يتمتع بمنصب له احترامه الكبير. لا بد من التعامل مع هذه المعلومة بأقصى عناية وسرية. وهو ما يعني أنه من الأفضل عدم نسخها بأي شكل ونقلها إلى المخابرات طالما أن هذه السفينة مازالت تحت قيادة قبطانها الحالي. لا بد أن نوظف وسائل جديدة، وإلا سينتهي بنا الأمر بلا مصداقية. أود أن أظل على اطلاع بهذا الموضوع أيضا.*»

حدق المذيع التليفزيوني والشاب أحدهما في الآخر، وكأنهما يتأملان

في الاحتمالات التي لم يتصوراها بعد. «لا يمكن أن يكون البروفيسور والي أحمد...» قال بوريس.

«كل شيء ممكن، لكن في هذه الحالة أميل للاتفاق معك. بل وأكثر من ذلك إذا كان بروفيسور أحمد يلعب لعبة من نوع ما والفينيقيون مجرد غطاء لها، فإن بروفيسور ديلينجر لا بد أن يكون أيضا جزءا من اللعبة. والآن يقول الجميع إن ديلينجر في تعاون وثيق مع الموساد وليس مع القاعدة. إلا إذا كان عميلا مزدوجا.»

«هل أقوم باختراق حواسيب بروفيسور ديلينجر لأرى ماذا يجري؟»

«لماذا لا تخرس فقط! عد إلى مكتبك وتأكد فقط أن كل ما يلزم فعله من أجل الغد يتم. أنا ببساطة لا أبالي بالباقي.»

عند هذه الملحوظة افترقا. ومع ذلك ظل برتراند يقلب في ذهنه ما سمعه وما مر به اليوم. طلب من السكرتيرة أن تأتي له بفنجان من القهوة. كان شيء ما يمضي على نحو خاطئ، خاطئ جدا. لكن بالنسبة للمشروع الذي كان يمكن أن يخرج فعلا عن مساره، بدا كل شيء يجري بسلاسة... من الأفضل أن يتصل بفلورا ليتقصى عن بعض المعلومات الإضافية. كان مزعجا أيضا ذلك الشك في أن من حوله لم يكونوا يمررون كل ما لديهم من معلومات. بوني؟ هاردهيد؟

طلب من السكرتيرة أن توصله بهاردهيد، الذي كان بعيدا عن المكتب، على الخط. «كيف الأحوال؟»

«بالنسبة للغد؟... أنا سعيد. الإعلانات ملء الكيس، ولا توجد أي مشكلة على الإطلاق بالنسبة للجمهور الصوري الذي تريده. كل البلهاء المعتادين سيكونون معنا. هم متحمسون جدا ويتوقعون بعض المفاجآت الكبيرة، وسنريهم بعضها! اسمع، هذه الخدعة الخاصة بترك

كل شيء حتى اللحظة الأخيرة حققت نجاحا أفضل بكثير مما توقعت. سنفعلها مرة أخرى!»

كان من الصعب تحديد إن كان هاردهيد يسخر أم يتكلم بجدية. «أين أنت الآن؟»

«في مخبز (الفيل السمين) في مدينة الربَط. هم يعرضون تزويدنا بشطائر ومأكولات أخرى من أجل هؤلاء الحمقى... لا تخبر جيانينو وإلا سيطلب صينية كاملة لنفسه. هه! وهل تتصور هذا؟ هم يقدمون لنا إعلانا آخر، طالما عرضنا منصتهم مرة عندما تدور الكاميرا. قلت لهم نعم، هذا ضد القواعد، لكن هيئة الإذاعة لن تلاحظ.»

«الأمر إليك. لكن توقف عن تسميتهم بالحمقى، هؤلاء المساكين... هم أتباعنا المخلصون، مُريدونا...»

قبل أن يتمكن من الاتصال بفلورا، اتصلت هي به. وكانت منفعلة جدا. «برتراند، فعلتها! سيكون بروفيسور والي أحمد سعيدا جدا! تمكنت من تغيير كل ما قال إنه غير صحيح في معرضنا ويجب أن أقول إنه كان على حق. ليست فكرة جيدة أن تساعد على انتشار مفاهيم خاطئة عن حقائق ما قبل التاريخ، ألا تعتقد هذا؟»

«أتفق معك مائة في المائة... أو معه. لكن كم شخصا سيلاحظ؟»

«آه، لا يمكنك القول. هذا الصباح كان لدينا اثنا عشر زائرا، أربعة مالطيين-أستراليين، وستة سائحين كبار السن من بريكستون أرادوا أن يأخذوا استراحة أثناء قيامهم بجولة على المحلات في فاليتا، والباقي جميعهم طلبة في الجامعة. ومن الاستبيان الذي أجريناه عليهم كانوا جميعا إما راضين أو راضين جدا جدا عن المعرض. لكن قل لي، ماذا حدث لك؟ لقد مضى وقت طويل منذ ظهرت لآخر مرة، أم أنك استوليت

على بروفيسور والي أحمد ولا تريدنا أن نراه؟»

«أنا؟ أحمد؟ بالطبع لا. ربما بوني...»

«وما علاقة بوني ببروفيسور أحمد؟»

«ألن يكون من الأفضل أن تسأليها بنفسك؟»

كانت العصافير التي عملت حتى الآن كخلفية لصوت فلورا، قد تلاشت تماما. وبدلا منها، لكن قد يكون هذا خيال برتراند، أمكن سماع ما بدا أشبه بنعيق غراب غاضب. «أين هي؟ مع البروفيسور؟»

«هي هنا، تعمل في المكتب على مشروع كبير نجهز له من أجل الغد. لكن يبدو كأن والي أحمد قد ترك انطباعا جيدا بالفعل على كليكما. من الأفضل أن نغير الموضوع... أخبريني، كيف تسير الرواية؟»

«هل تعتقد أني أجد الوقت كي أفكر فيها...؟ ناهيك عن بعض الكتابة...» شكت فلورا.

«وهل مازلت تعملين على ذلك المشهد حيث كانتا تزوران المقبرة؟ كان من المؤسف أن ساندر وخريستو اختلفا مع والدتك، لأني بقيت شاعرا بالفضول لمعرفة كيف انتهى الأمر كله. في وقت ما ينبغي أن تكملي القراءة لي. كان أسلوب الكتابة شجيا حقا.»

«هكذا أثر عليك، هه؟ وأنا أيضا، يعجبني كثيرا... وليس من المفترض بي أن أقول هذا، لأنه في النهاية أنا المؤلفة... لكن لا... لقد تقدمت صفحتين أخريين. تذهب لوسي مع إيميليا إلى الميدان الرئيسي في بيردنبريدج وتقابل مرة أخرى السيد ويتل، العمدة. يتحدثان بإسهاب عن كيفية طهو الحمام. لا أعتقد أنه يوجد في هذا المشهد ما يقترب في الأسلوب من جورج إليوت أكثر من اللازم، فقد حاولت جاهدة أن أصيغه

على طراز جراتسيا ديليدا[22].»

«تهانيّ! هل تعلمين من سيستمتع فعلا بهذا النوع من التناول؟ السيد مالكولم أوروري. فهو يحب سردينيا كثيرا جدا. عندما يعود من صقلية، أخبريه فقط بشأن هذا.»

«أتعرف أنه لم يتصل منذ الظهر؟ يبدو أنه يستمتع بوقته كثيرا جدا. لكن انتظر لحظة... هناك شخص ما قادم لزيارتي خلال وقت قصير... قال إنه يريد أن يتحدث معي عنه... أنت تعرفه، هو قال...»

«من هو؟» تحدث برتراند بحذر شديد.

«شخص اسمه... مانيبالاو... لا، مانيسكالكو، هه!... لورينتي شيء ما، وقد ذكر اسمك...»

«وهو قادم لزيارتك؟»

«خلال ربع ساعة.»

«متى اتصل بك؟»

«منذ وقت ليس بالطويل. طلب السيد أوروري... ثم تحدث معي. قال إنه مسؤول حكومي رفيع، لكني لم أسمع به من قبل. وذكرك...»

«فلورا، أنا شخصية شهيرة. يذكرني الجميع.»

«من هذا الشخص...؟ لديه صوت جذاب، لا بد ان أقول. وذكر أيضا بروفيسور والي...»

22- Grazia Deledda (1871 - 1936) أديبة إيطالية من مواليد جزيرة سردينيا. هاجرت إلى روما في أوائل القرن العشرين وحصلت على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1926.

«لا تقولي هذا..»

«نعم!»

عندما أنهت فلورا المكالمة، قضى برتراند بعض الوقت جالسا إلى مكتبه، متأملا في صمت. ربما غادر الجميع مكاتب كويس كوام. منذ بعض الوقت، كانت السكرتيرة قد اتصلت لتسأل إن كان بحاجة لشيء وقال لها إنها يمكنها الذهاب. وهناك بقي، وحيدا مع أفكاره. وعلى المكتب، تنامت مجموعة من الأقلام الجاف والرصاص، كلها مكسورة نصفين ومتشظية. لم تعد هذه القوة التي أحس بها في أصابعه تزعجه – حتى لو لم يعرف من أين جاءته. كان يحاول تذكر ما كان يفكر فيه قبل قليل من سقوطه في النوم ليلة الأمس، بينما كان متمددا في كيس النوم أسفل أشجار الخروب في حقل الإسخريوطي. ولم يستطع التذكر.

.38

عندما غادر مكتبه، كان مكتب بوني مازال مضاء. طرق الباب ودخل. «إذًا مازلتِ هنا؟» تساءل.

«لم أستطع المغادرة قبل أن أخبرك بما كان على البروفيسورين أن يقولاه. وكنت بحاجة لمراجعة السيناريو لنهاية الحلقة الأولى. أمازلت مصرا على ألا تضيف أي شيء في هذه المرحلة عن الليلة التي قضيتها في الحقل؟»

«ستكون هناك إشارة قصيرة قرب النهاية، ولا مزيد... لكن لا تضعي سيناريو لأي شيء، سأرتجل الأمر.» وتظاهر بالتقليب في الأوراق التي ناولتها إياه لكنه كان في الحقيقة يتفحصها من طرف خفي. كان متأكدا أنها قد تناولت حبتين للتوّ لتهدئتها وحبة أخرى لتبقيها حية ومنتبهة لما كان يجري. «ماذا كان على ديلينجر وأحمد أن يقولا؟»

«هما يقترحان أن تذهب صباح الغد إلى مختبر ديلينجر حيث سيضعونك تحت جهاز ليزر ما.»

«أيها؟ أهو ذلك الجهاز الذي يعرض ديلينجر جماجمه فيه؟»

«هو ذاك.»

أطلق برتراند شخرة حادة، أكبر بكثير من أقوى شخراته التي أصدرها وهو نائم تحت أشجار الخروب. «هل هما مجنونان...؟ وهل

قالا رأيهما فيما كان يحدث في الفيلم؟»

«إذا كنت قد فهمت على نحو صحيح، فهما يعتقدان أن تأثيرات البقايا الفينيقية التي يمكن العثور عليها في تلك المنطقة، ربما تكون قد دخلت فيك بينما كنت نائما، وأصبحت جزءا منك، جزءا من عقلك. ولذلك هما يرغبان في تقصي إن كان ممكنا لهما أن يسمعا ما يجب أن تقوله هذه القوى... في شكل... لا أعرف ما هو بالضبط، ربما لم أفهم جيدا... أصداء أو بقايا أصوات، التي يصدف الآن أن تكون بداخلك والتي يمكنهما اعتراضها، بذلك الجهاز الذي لديهما، لا أعرف ما هو، هل رأيته من قبل؟»

«أراني ديلينجر إياه. وقال إنه بواسطته يمكنه تتبع كيف تستمر بقايا العظام في الحفاظ على ذكريات ما مرت به منذ قرون بعيدة، عندما كان العضو الذي تنتمي إليه مازال حيا. على أي حال، هي خدعة ضخمة الأبعاد. والآن يريد أن يجرب هذا التكنيك عليّ؟ ألم يكن يمزح معك بأي حال من الأحوال؟»

«لا أعتقد هذا..» انحنت بوني على جانب مكتبها، وفتحت درجا أخرجت منه زجاجة ويسكي. وأشارت إلى رف يحمل أكوابا، خلف ظهره. كان هناك قلق، وغالبا إعياء في نظرتها لم يره من قبل. ترى هل قالت كل ما كان عليها أن تقوله...؟

«إذًا ما اقتراحك؟ أن أفعل ما يقولاه؟ وإلى متى ستستمر هذه الكوميديا؟»

«ساعة أو أقل قليلا. ولن يكون عليك أن تتعرض للتخدير أو ما شابه...»

«التخدير هو ما أحتاجه بالتأكيد!»

«يمكنك أن تستمر في القراءة أو الكتابة إذا أردت بينما أنت جالس في المكان الذي يضعون فيه رأس الموت... الجمجمة...»

«إنها ستتحول إلى مهزلة!»

«اسمع يا برتراند. حدث شيء ما ليلة الأمس عندما كنت تلعب تلك المهزلة الأخرى، نائما تحت أشجار الخروب في ضوء القمر الفضي. لا أعرف ماذا حدث خلال الليل عندما أصبحت متحولا على هذا... النحو الذي لا يصدق، لا أجد كلمات أخرى لوصفه، بعد أن مر فوقك ذلك الظل. وأنت أيضا لا تعرف، لا أحد منا يعرف. هما... البروفيسوران... يبدو أن لديهما مفتاحا للغز... إما أن ننسى الأمر برمته، ونحرق الفيلم، ونوقف برنامج كويس كوام بأكمله...»

«لا، ليس هذا، لن نفعل هذا. بأي ثمن، من أجل الحلقة القادمة من كويس كوام، لا بد أن نستمر في قصة يهوذا تونًا، الملقب بالإسخريوطي...»

«في هذه الحالة يلزمنا أن نفعل كل ما يجب فعله لمعرفة ماذا يجري بالضبط.»

«إذًا أنت لست مقتنعة بأننا سنصل إلى أي وجهة بهذا الاقتراح المجنون من ديلينجر؟»

«بالطبع لا، لكن هل لدينا أي اقتراحات أخرى...؟»

«يمكننا فقط أن نستمر في عملنا بالبرنامج وفق الخطة دون أن نبالي قيد أنملة بكل ما حدث أو لم يحدث.»

لم ترد.

«ألا توافقين؟»

«أنا خائفة...! ذلك الظل الذي مر فوقك... وجهك، الطريقة التي تغير بها... هذان الجرذان وهما يحتكان بك... ثم ذلك الدم المتناثر حيث كنت تنام بالضبط... لا شيء من كل هذا يُعد أمرا معتادا... لا يمكنني تصديق أنها مجرد مزحة بائسة. إذًا ما هذا؟»

«أقول دعينا نستمر فيما نفعله.»

نظرت في عينيه مباشرة. وكانت عيناها تحملان تحديا غاضبا. «حسن جدا. ديلينجر ووالي أحمد ينتظران ردك فيما يتعلق بما سنفعله غدا. أهو نعم أم لا؟ يجب عليّ أن أتصل بهما. هل أقول لهما لا؟»

كانت قد نجحت في أن تجعله واقفا وظهره إلى الحائط. أصابته الحيرة، ثم هز كتفيه. «قولي لهما نعم. في النهاية، ممَ ينبغي أن نخاف؟ لقد تمت عمليا التجهيزات لكويس كوام. إذا أضعنا ساعتين صباح الغد... ما المشكلة؟»

لاحظت بوني كيف قال «إذا أضعنا»... على الفور اتصلت على هاتف ديلينجر المحمول. «بروفيسور، معك بوني. آسفة للاتصال بك في وقت متأخر كهذا، لكني وعدتك بردّ. نعم، سنكون في مختبرك صباح الغد... في العاشرة صباحا، هل هذا مناسب؟ وهل أنت متأكد أن ساعة ونصف ستكون كافية...؟»

أفرغ المذيع التليفزيوني كأسه من الويسكي. «دعيني أتحدث معه..» قال لها. ناولته الهاتف. «اسمع يا بروفيسور..» قال. «هل تعتقد أننا سنصل إلى أي شيء بهذه الألاعيب؟»

«اسمع يا برتراند، عندما تتبع نداء العلم، لا تعرف أبدا بشكل مؤكد إلى أين أنت ذاهب. أو إن كنت ستصل إلى أي مكان. ما نفعله أنا وأحمد بعد أن رأينا اللقطات الفيليمة والدليل غير العادي الذي منحته لنا...»

«غير العادي؟»

«سأكون أول من يعترف بهذا... أنا لم أر قط شيئا كهذا... ولم أتوقعه أبدا... صحيح أن ما يظهر مرتبط بالمعلومات التي تصلنا من مصادر أخرى... لكن لا أنا ولا والي توقعنا هذه التطورات. كيف سنتقدم أبعد من هذا، لا نعرف فعلا... يجب أن نجرب مع ما نراه يحدث. ليست هناك من طريقة أخرى. إذا كنت تحب أن تدعو ما نقترحه ألعوبة، فهذا شأنك... لكننا نرى الأمر هكذا... الأكيد أننا لا نستطيع أن نفرض تقييمنا عليك.»

«لمَ لا نقوم بهذه... التجربة... حالا؟.... لمَ لا ننتهي منها الليلة؟»

«لأنه من الأفضل ألا نفعل هذا.»

«لماذا؟»

«لأنه لا بد من التخطيط لها جيدا. ولأن بروفيسور والي أحمد لديه ارتباطات أخرى هذا المساء وأنا أريده أن يكون معي ونحن نجري التجربة.»

«نعم، أخبروني في المعهد الوطني للثقافة أن لديكما مشروعا آخر على الخط.»

«حسن جدا. سأكون صادقا معك تماما. لا يستطيع بروفيسور أحمد الظهور الليلة لأن لديه موعدا ما مع شابة من أوكرانيا قابلها في الفندق البونيقي. وبالنسبة لي، أفضل أن أقوم بالتجربة غدا لسبب بسيط جدا. ألا وهو: التأثيرات، القوى التي قد تكون بداخلك... سيكون لديها مزيد من الوقت كي تظهر... كي تؤكد نفسها... ولذلك، إذا كان ما نقدمه كافتراض صحيح، ففي صباح الغد سيمكن التقاط الإشارات فوق الصوتية التي تبثها بشكل أفضل بكثير.»

كان برتراند على وشك أن يجادل ديلينجر -ماذا تعني هذه «التأثيرات... التي قد تكون بداخلك»؟- لكنه فجأة غير رأيه. «سنفعل كما تقول..» قال وتمنى له ليلة طيبة. في صمت كان هو وبوني ينظران أحدهما إلى الآخر. «ربما نكون حمقى، لكن ديلينجر وصديقه لا بد أنهما مجنونان..» قال ضاحكا.

«هذا كل ما لدينا الليلة..» قالت.

أطفآ الأنوار وغادرا مكاتب كويس كوام.

«هل ستذهب إلى البيت؟» سألته.

«لا، كنت أعصر عقلي مفكرا فقط فيما يجري. وأنا مقتنع أنه لا أحد يقول كل ما يعرف... ربما أنت أيضا في الأخير. لكن الأب تيمي بالتأكيد يحتفظ ببعض العناصر الهامة في قصة يهوذا تونًّا. لا تسأليني ما هي لأني لا أعرف. وسأذهب إلى زنوبر لأخبره بهذا.» دخلا المصعد وعندما بدأ في الهبوط، أكمل: «يمكنك أن تأتي معي، إذا كنت ترغبين.»

«حسن جدا..» ردت فورا.

انطلقا بالسيارة عبر الشوارع المهجورة بالفعل والمؤدية من المدينة إلى الطريق الذي يتلوى أحيانا، ويمضى مستقيما أحيانا، عبر الحقول المظلمة نحو البحر وزنوبر. مرة أخرى كان القمر يمتطي صهوة السماء الخالية من السحب التي بدت الليلة وكأنها قد ارتحلت بعيدا، بعيدا جدا. وأينما انطلقا مسرعين، كان بساط من الضوء منقوش بالفضة يريهما الطريق بفعالية أكبر من مصابيح الطريق الكهربية التي كانت ترمي بضوء برتقالي خشن. تحدثا وتحدثا، عن سيناريو كويس كوام، عما حدث في الأربع والعشرين ساعة الماضية، عن بوريس وكيف سيتحول إلى نجم إعلامي، عن هاردهيد الذي قال إنه سيأخذ أجازة في الغد، بما

أن عمله سيكون قد تم، وكيف... عن عدد من الموضوعات الأخرى التي تثور عادة عندما يدير المرء مشروعا يتضمن الكثير من الناس.

ومع ذلك، كانت بوني تحس بعدم الارتياح. كان الأمر وكأنهما لا يقولان شيئا، لكنهما منغمسان فقط في تبادل آلي، يقولان ما ينبغي عليهما أن يقولاه. أحست أنها مصابة بشك قوي لم تستطع أن تكتفي بتنحيته جانبا. لم يكن برتراند معها في السيارة، لم يعد هو على الإطلاق... كان المذيع التليفزيوني يتصرف كما كان يفعل دائما عندما يكون معها أو مع الآخرين... يثرثر، ويتململ وهو يقود السيارة، ويومئ... وهي تعرفه أفضل بكثير مما يعرفه الآخرون. لم يكن في سلوكه شيء يمكن أن يختلف عن سلوك الرجل الذي تعرفه، لكنها كانت تحس بأن كل شيء ليس كما كان... في الحقيقة، لا شيء كان كما كان. كيف تمكن ديلينجر ووالي أحمد من إرباكها إلى هذا الحد...؟

في تلك الأثناء، استمر برتراند في الثرثرة إلى حد أنها لم تعد تستطيع مسايرته. بدا أن هذه الغزوة قد منحته حماسا جديدا للحياة. بل إنه بدأ يسخر منها لأن فلورا بيتا لوكا تمكنت من هزيمتها في مباراة الاستحواذ على والي أحمد. في هذه النقطة الأخيرة تركته يضحك كما يشاء...

كانا الآن قد وصلا الطريق الساحلي. وعلى مسافة ليست بالبعيدة، كان يمكن بالفعل رؤية التلين المتخذي شكل رغيفين، أو التلين الأثريين كما يقول البروفيسوران ديلينجر وأحمد. في مكان ما على اليمين، سيلوح قريبا النتوء الصخري الذي يتدلى منه حقل الإسخريوطي. قبل أن يصلاه، سيعبرا إلى جوار ممر ضيق يؤدي إلى زنوبر. ظل نور القمر معهما. حكى لها برتراند كيف قابل جيانينو عندما جاء إلى هنا في المرة الأخيرة في هذا الوقت من الليل، وكيف شاهدا شاحنة يقودها شخص لم يستطيعا تمييزه، ينطلق بسرعة من تحت حافة الحقل، حيث ينتهي

بستان الخروب. إذا أتيحت له فرصة واحدة كي يخمن لمن كانت هذه الشاحنة ومن كان يقودها، لذكر الأخوين تونًّا. حكت له ما حدث عندما زارت مع هاردهيد بيت مزرعة آل تونًّا. أنصت برتراند في صمت؛ لم يكن يعرف جيدا كل تفاصيل هذه الرحلة، ولم يعلق عندما أنهت قصتها.

وصلا إلى الفتحة المؤدية إلى الطريق الضيق الذي يلتف عبر الحقول نحو زنوبر. هنا، كان ضوء القمر غير قادر على توضيح إلى أين كانت تقودهما السيارة. في البداية، بدا الطريق أشبه بجدول أسود. قاد برتراند السيارة بحذر. إذا تصادف أن جاء شخص ما من الاتجاه الآخر في هذه العتمة، ستحدث مشكلة. لم يظهر أحد. وبينما كانا يقتربان من القرية، أصبح نور القمر مرة أخرى أكثر سطوعا وانتشر في كل مكان. وحفت الشجيرات الشوكية النامية على طول الجدران الصخرية العالية بجوانب السيارة.

لم يعد الصمت بينهما مجرد استمرار للهدوء الغريب الذي زحف داخل السيارة وهما يقتربان من هذا الممر قادمين من الطريق الساحلي. وأمامهما قامت الأشكال السوداء لكنيسة زنوبر والبيت المجاور لها والأسوار التي كانت تبدأ عند المقبرة اختفت في أطلال البيوت الريفية، بدت كل هذه الأشكال مؤطرة بنور القمر... بذل كلاهما جهدا كي يميزا ماهية كل شيء، وبينما يفعلان هذا بدا أن الهدوء داخل السيارة كان يشكل جزءا من صمت أوسع، يمتد عبر الريف كله. ثم أدرك كلاهما في اللحظة ذاتها فعليا أن الكنيسة كانت مفتوحة والضوء ينساب خارجا منها.

الآن، لم يعودا يقودان عبر الصمت. عند المنحنى الأخير الذي كان ينفتح على الساحة الصغيرة المحيطة بالكنيسة، تناهى إلى أسماعهما ما بدا أشبه بغناء كثير من الناس.

قاد برتراند السيارة إلى داخل الساحة وتوقف عند أحد أطرافها، بعيدا عن الكنيسة، في مقابل الناحية التي كان هاردهيد قد أوقف سيارته فيها منذ يومين. كان ثمة احتفال ديني يجري في الكنيسة، ولدهشتهما كان هناك أناس كثيرون مشاركين على ما يبدو. من اين جاؤوا؟ سارا نحو باب الكنيسة الذي كان مفتوحا على اتساعه.

«لم أكن أعرف أن دون تيمي متورط في المذهب الشيطاني..» همس برتراند.

كبتت بوني على الفور نوبة ضحك عصبية مجنونة.

توقفا عند عتبة الكنيسة ونظرا من الفناء إلى الداخل. ازدادت دهشتهما. فرغم أنه كان يمكن سماع الإنشاد الكنسي بقوة كبيرة وأن الكنيسة كانت مضاءة كلها، إلا أن المكان كان خاليا. أو على نحو أكثر دقة، كانت كل الدكك والممرات بينها والممرات المجاورة لجدران الكنيسة... خالية. لكن عند المذبح، كان الأب تيمي يرتدي الرداء الكهنوتي الطقسي الملائم مقيما القداس وموليا انتباهه، بتركيز هائل، إلى المهمة التي في يده. بصوت واضح جدا، كان يتلو ابتهالا وعبر كل أنحاء الكنيسة كان يتردد الجواب عليه.

لم يندهشا فقط من حقيقة أن هذه الكنيسة الخالية كانت تردد صلوات القس، لكن شيئا آخر بدا غريبا فيما كان يحدث. فجأة فهموا السبب. كان القداس مقاما طبقا للطقس اللاتيني القديم. كان القس يتحدث باللاتينية، وكانت الردود تأتي بنفس اللغة. ثم أدركوا أن الكنيسة كانت مضبوطة على نظام صوتي مسبق التسجيل... بواسطته كانت المدخلات الاستجابية للقداس تتوالى واحدة بعد واحدة في أثر القس. عندما فهما ما كان يجري -أو اعتقدا أنهما فهما- أضاء وجهاهما بالابتسامات. كانا واعيين تماما أن دون تيمي رجل غريب، أو أصبح

هكذا بعد منفاه إلى زنوبر؛ لكنهما لم يتخيلا أبدا أنه يمكن أن يصل إلى حد إقامة مثل هذا العرض لنفسه فقط...

ومع ذلك وبمجرد أن دخلا الكنيسة قرب الصف الأول من الدكك الخالية في المؤخرة، وجدا نفسيهما في قبضة إحساس غريب جدا... لو كان الأب تيمي لاحظ أنهما دخلا الكنيسة، فإنه لم يبدِ أي أمارة على هذا واستمر في اتباع إيقاعات الطقس، دون أن يعتري انتباهه أدنى ضعف. وفي كافة أرجاء الكنيسة كان يمكن سماع ترديد المصلين. ومع مُضُيّ برتراند وبوني قُدُما، انتابهما على نحو متزايد انطباع أنه ليس صحيحا أن الكنيسة خالية. على العكس، كانت محتشدة بالناس. لم يكن بمقدورهما رؤية أحد، ومع ذلك كان بمقدورهما الإحساس بالأنفاس الجماعية لحشد حاضر. لم يكن هناك أحد يحتك المرء به وهو داخل، لكن بدلا من التقدم في الكنيسة كما بدآ يفعلان... والجلوس على واحدة من الدكك الخالية... وكانت كل الدكك خالية... وهو ما كانت تنتويه بوني في البداية، لتتأمل فيما كانت تراه... انتهى بهما الأمر ماكثين هناك في الخلف، بالقرب من الباب الخارجي، كما لو كان جمع المصلين هائلا لدرجة أنه من المستحيل التقدم إلى الداخل أبعد من ذلك... والدكك مزدحمة للغاية بأناس يصلون ويتابعون بانتباه القداس وليس هناك موضع للجلوس. فجأة صارا جزءا من جماعة مصلين هائلة. والترديدات القادمة من أسطوانة مدمجة خفية لم تعد صوتا مبرمجا، بل ترديدات حية لجمهور مرئي، متكدس داخل الكنيسة. في وقفتها المتصلبة إلى جوار برتراند الذي بدا متجمدا أيضا، قالت بوني لنفسها مرة بعد مرة إنها بالتأكيد، بالتأكيد تتخيل الخطوط الخارجية المضببة التي بدت قريبة منها... أشخاص عجائز مرضى، منحنو الظهر وكأنهم لا يستطيعون تحمل ثقل أجسادهم من الوسط فصاعدا... فلاحون سُمر نحيلون... نساء سمينات متسربلات بملابس سوداء غريبة، لعلها تشبه

الجونيلات[23] التي كانت تظهر في الصور الفوتوغرافية القديمة التي يستخدمونها أحيانا في كويس كوام عند مناقشة الماضي... جنود شباب، طفوليون ومختالون بأنفسهم، متأنقون في أزيائهم العسكرية القديمة... صبيان حفاة في سراويل قصيرة تمسك بها حبال مربوطة حول الوسط... فتيات يرتدين تنورات طويلة مصنوعة من قطع قماش قديمة، باقية موضعها بأربطة وسط بالية... كان الويسكي الذي شربته قبل أن يغادرا المكتب إلى زنوبر يفعل أفاعيله، لذلك ظلت في عقلها تملأ المساحة الفارغة حولهما بأناس لا يمكن أن يكونوا موجودين؛ لأنهم لا بد ماتوا منذ قرن أو اثنين من الزمان، أو حتى أكثر... لو كانوا وُجدوا في أي مكان، باستثناء خيالها، المشتعل الآن كما هو بالكحول... رغم ذلك، كان يمكن الشعور بضغط الحشد أقوى مما كان أبدا. بدا كما لو أن كل السكان القدامى لزنوبر قد تجمعوا داخل كنيستهم القديمة لحضور قداس المساء...

أثناء ذلك، كان دون تيمي مازال يقود الصلوات بأقصى تفان وإخلاص. كان يدير ظهره لهما، مرتديا رداء كهنوتيا أخضر جعله يبدو أقصر مما كان بالفعل، لكنه كان يملأ هيكل جسده. مرة بعد مرة، كان يشب بكتفيه ويرتعش... كما لو أنه يناضل ضد شيء مثير ينهش أحشاءه – وهو الأثر الذي لم يكن من الممكن إخفاؤه بالرداء الكهنوتي الأخضر المزين بخيوط ذهبية، في أطرافه وفي حواف الصليب المطرز المخيط من طرف الرداء إلى طرفه الآخر. في الحقيقة كان الرداء الكهنوتي يبرز الارتعاشات المتشنجة لجسده. كان صوته المترددة أصداؤه في أرجاء الكنيسة صوتا حيا، وليس مسجلا، وإلى النهاية ظل يؤكد كل درجة من درجات الاختلاف في الصلوات والابتهالات التي يتلوها.

23- كان الجونيلا، والذي يشار إليه أحيانًا باسم «فلديتا»، شكلًا من أشكال لباس النساء للرأس والشال، أو عباءة مغطاة الرأس، وتميزت بها جزر مالطا وجوزو.

مؤخرا، كانت بوني قد انقطعت عن التردد على الكنيسة. للأمانة المطلقة، عندما كانت تذهب، كانت تفعل هذا لأسباب اجتماعية أكثر من أي شيء آخر... لأنها اكتشفت أن كل أصدقائها كانوا يذهبون إلى الكنيسة يوما أو آخر... أو غير ذلك كانت تفعل هذا لأسباب عائلية... حتى لا تزعج أمها وأباها عند زيارتهما... لكنها الآن وقد وجدت نفسها وسط هذا الحشد المنتبه والورع، كانت تركع عندما يشير الطقس بأنه ينبغي للمرء أن يركع، وتصلي عنددما يتطلب من المرء أن يصلي، رغم أنها لا تفعل هذا باللاتينية؛ لأنها لم تكن معتادة إطلاقا على الطقس الذي كان دون تيمي يتبعه وهو يتلو قداسه.

انتهى القداس. «إتي ميسا إيست»[24] رتلها القس ودخل غرفة المقدسات في الجانب. وخلال وقت قصير، أصبحت الكنيسة الخالية خالية فعلا. أمكن لبوني وبرتراند أن يشعرا بحركة الناس قُدُمًا خارجين متثاقلين في تيار مضغوط من الأنفاس النتنة وروائح العرق والأعشاب العطرية.

كانا الآن وحدهما في الكنيسة. وران حولهما صمت كامل.

«لقد مر زمن طويل منذ أن حضرت قداسا باللاتينية..» علق برتراند.

«لم أذهب قط إلى قداس كهذا..» قالت بوني. «أعتقد أنهم لا بد ألغوه قبل حتى أن أولد.»

تناهى إلى أسماعهما صوت خطوات تقترب. كان صداها يتردد فوق حجارة الفسيفساء القديمة التي غطت معظم أرضية الكنيسة. دون ردائه الكهنوتي، بدا دون تيمي طويلا كبرج كنيسة، وبالنسبة لبوني برز شعره الأسود كباروكة بدت أكثر سوادا بكثير مما يمكنها تذكره.

24- Ite missa est العبارة اللاتينية التي ينتهي بها القداس والتي تعني اذهبوا يمكنكم الانصراف.

وكان الأمر نفسه بالنسبة لعينيه، اللتين بدتا أشبه بشق أسود في وجهه النحيل، الذي يذكرها بالجمجمة. كان قد ارتدى زيه الكهنوتي العادي الأسود. كان ضخما أكثر من اللازم عند الكتفين، وواسعا أكثر من اللازم عند الفخذين.

«لو أخبرتماني بأنكما قادمان..»

«لقد مر زمن طويل منذ أن حضرت قداسا باللاتينية...» كرر برتراند.

«لم أذهب قط إلى قداس كهذا. أعتقد أنهم لا بد ألغوه قبل حتى أن أولد.» (كانت تلك بوني من جديد).

.39

احتفظ الأب تيمي على وجهه بتلك النظرة المحدقة الجامدة الباسمة التي حياهما بها. لو كان لديهما الوقت لتأمل كيف كان يبدو، لأحسا بالقلق لأن وجهه بدا وقد تحول إلى لون أصفر ليموني وزاغت عيناه كشخص يرغب في إخفاء شعوره المفاجئ بالخوف الشديد. لعلها الإضاءة القوية داخل الكنيسة، التي بدت مع ذلك صادرة عن ألف شمعة تحترق في كل ركن، وليست من مصابيح كهربية حديثة، والتي رغم كونها مكلفة، إلا أنها قادرة على أن تجعل الأماكن تبدو مريحة... نعم، قد تكون الإضاءة هي ما منعت المذيع التليفزيوني وبوني من ملاحظة التوتر الذي أحس به القس. بالتأكيد، لم يتوقع وصولهما هنا في هذه الساعة...

دعاهما إلى الانضمام إليه في غرفة المقدسات، ومضى ليغلق باب الكنيسة ويطفئ الأنوار. مرة أخرى تغير مظهر الكنيسة. أصبحت مثل قلب خيمة مظلمة. تبعاه إلى غرفة المقدسات ومنها إلى حجرة الجلوس التي التقياه فيها عندما جاءا أول مرة إلى هذا البيت منذ يومين. بدا الأمر بالفعل وكأن سنوات طويلة مرت. «بما أنكما هنا في هذه الساعة من الليل، فلا بد أن تتناولا بعض البراندي..» قال، بالضبط ككاهن أبرشية انتهى للتوّ كالعادة من عمله الديني المسائي.

أجلسهما في نفس المقعدين الكبيرين اللذين جلسا فيهما المرة الأولى. ولم يتمكن برتراند من تجنب التعليق: «ظننت أن الطقس

اللاتيني لم يعد شائعا.»

«ليس فقط أنه لم يعد شائعا، لكن المفروض أنه ممنوع... رغم أنه الآن، لو كنت أفهم على نحو صحيح، تغيرت الأمور... أو ستتغير. لكن إذا كانوا قد أرسلوني إلى هذه الأبرشية حيث أهم مواطنيها وغيرهم لا يعرفون إلا الطقس اللاتيني حتى لو كانوا لا يفقهون قط كلمة واحدة منه... قل لي، ماذا ينبغي أن أفعل؟ أينبغي عليّ ألا أقيم القداس الذي عرفوه دوما؟» كان يبتسم ابتسامة خفيفة وهو يتكلم، متأملا كأس البراندي الذي كان يحمله. تمنت بوني لو تناولت الويسكي بدلا من ذلك الشراب القاسي الذي أصر على صبه لهما. «لكن أليس من الأفضل أن تقولا لي ما أتى بكما هنا في هذا الوقت من الليل؟ بحسب علمي سارت التجهيزات لبرنامج الغد بشكل جيد جدا.»

«من قال لك؟»

«بروفيسور ديلينجر بالطبع. لم أكن أعرف أنه قريب منكم لهذه الدرجة.»

«اسمع أيها الأب، لا نريد أن نأخذ من وقتك الكثير لأني أعلم أن لديك الكثير لتفعله... منذ بدأنا العمل على هذا البرنامج وكنت أنت واحدا من هؤلاء الذين كانوا لنا خير عون، ونحن ممتنون جدا لذلك... حسن، هناك عدة حوادث وقعت والتي... دون شك حولها، لا يمكن اعتبارها معتادة في العمل. والآن دعني أخبرك، أنا واحد من هؤلاء الذين لا يؤمنون بالغيبيات... حتى بعد ما شهدناه للتوّ... (عند هذه النقطة، ارتفع حاجبا دون تومي وهز كتفيه هزة ليس لها علاقة كبيرة بالارتعاشات التي كانت تعذبه للأبد) ولقد فكرت كثيرا في الأمر برمته ووصلت إلى استنتاج واحد.»

«نعم، وما هو؟» تساءل دون تيمي ليقطع ذلك السكوت المحمل بالتوقعات الذي التزم به برتراند لوقت أطول من اللازم.

«الأشخاص الذين نتحدث معهم لا يخبروننا بالحقيقة، أو على نحو أدق لا يخبروننا بالحقيقة كاملة.»

«بمن في ذلك بروفيسور ديلينجر؟»

«وأنت معه...»

«لقد اعتقدت أن ما أخبرتكم به كان مرضيا لكم.»

«ونحن عملنا به واستفدنا منه. لكن كما أوضحت للتوّ... ثمة شيء في كل ما رأيناه وفعلناه ليس على ما يرام. وأعتقد أنك واحد من هؤلاء الذين يعرفون لماذا يحدث هذا.»

«لا، لا أعرف.»

«أو على الأقل أنت واحد من هؤلاء الذين لم يخبرونا بكل شيء.»

«في الحياة الواقعية، لا أحد يقول كل شيء لكل شخص. نجد في الإنجيل أمثلة كثيرة حول كيف يحدث هذا لحماية صالح خلق الله.»

«نعم... في الإنجيل، يوما ما سنناقش هذا الموضوع لأني أجده مثيرا للاهتمام. لكن في هذه الحالة؟»

تبع ذلك فترة صمت أخرى طويلة.

«حكيت لنا قصة يهوذا تونًّا، الذي شنق نفسه في حقل الإسخريوطي... حكيت لنا عن هذا الحقل... حكيت لنا عن قرية زنوبر وكيف بقي فيها الآن سبعة أشخاص فقط... وتتبعنا هذه الخيوط وستكون لدينا حلقة مثيرة جدا من كويس كوام. لكن ماذا هناك فيما أخبرتنا به وفاتنا، والذي

لا تستطيع هذه العقد أن تربطه...؟ إن كان هذا هو التعبير الصحيح، لا أعرف، أشك في ذلك...»

ظلت عينا كاهن الأبرشية السوداوان المظلمتان مركزتين على برتراند وبوني. لاحتا كبيرتين، ثابتتين، كعيني صقر يشعر بأنه يقاد إلى فخ. وأخيرا قال: «لا أذكر إن كنت أخبرتكم بهذا... لكني أتصور أنكم عثرتم على هذه النقطة في جرائد هذه الفترة؟ أو ربما أخبركم ديلينجر؟» تحدث ببطء، وكأنه يريد انتقاء كلماته بعناية تامة، أو كأنه (كما تخيلت بوني) كان يستكشف كيف يحول انتباههما بعيدا عن شيء ما. «في الأسابيع التي تلت انتحار يهوذا، كان هناك هياج في البلد بشكل عام. وبدأ بعض الأشخاص في تنظيم رحلات حج...»

«نعم، كانت رحلتا حج أو ثلاث ستقام حتى تغير الطقس ليغدو ممطرا وعاصفا. لذلك اضطروا إلى إلغاء رحلات الحج التي كانت ستُنظَّم.» وجدت بوني إحساسا جديدا بالإثارة يعتريها، رغم أنها كانت تشعر بشكوك عميقة تجاه الكاهن. كانت نظرته مازالت تشملهما بتركيز حيوان يحاول الخروج من فخ أخطأ بالدخول فيه. «اكتشف بوريس هذه المعلومات في صحف تلك الأعوام، واستخدمنا المادة في السيناريو الذي أعددناه من أجل الغد... أنت قرأته؟» سألت برتراند.

«قرأته وسأستخدمه. ومع ذلك، هل لهذا علاقة بما نقوله؟»

«صحيح أن تونًّا انتحر..» أكملت بوني. «لكن مآسي مثل هذه ستحدث دائما. لماذا كان عليهم أن ينظموا رحلات الحج تلك؟ سألت بوريس عن هذا... ولم يستطع فهم هذا أيضا... وعندما وصلت لنقطة كتابتها في السيناريو، أشرت إلى هذه المشكلة بشكل عام جدا... والآن عليك أن تقرر ما ستقوله... لكن مازال هناك شيء ما مفقود...»

«بالضبط..» قاطعهما دون تيمي، وهو يرتشف من كأس البراندي في يده، بابتسامة غامضة. «لطالما حيرني هذا السؤال... منذ جئت إلى هنا وعرفت بحقائق القضية. لماذا انطلقوا لإقامة رحلات الحج تلك؟»

«أنت تعرف. لماذا؟» منذ دخلا حجرة الجلوس تلك، كان ارتياب برتراند في دون تيمي يتزايد، وكذلك شكوكه حول إن كان الكاهن يتصرف فعلا بنية حسنة.

فهم القس ما كان يفكر فيه الآخر. كانت عيناه اليقظتان تبتسمان الآن لبرتراند. «بعد موت يهوذا، وخلال الجدل الذي ثار حول أين سيُدفن، ثارت شائعات قبيحة حول كيف مات في الحقيقة. أرسلت الشرطة محققا إنجليزيا ليتحرى حول ما كان يقال بالضبط لكنه لم يكن مهتما بالأمر كثيرا وتغاضى عنه. ويبدو أنه بعد قليل، تحدث المطران إلى المحافظ. واتفق كلاهما أنه من الأفضل التغاضي عن الأمر. لكن الناس استمروا في شائعاتهم.»

«شائعات؟ أي شائعات؟»

مرة أخرى تدخلت بوني. «وفقا لبوريس، كان من الممكن... قالت الشائعات إن هناك... لم أضع هذا في سيناريو البرنامج... كان هناك الشيطان، أو شيء ما شيطاني... وهو ما تورط بطريقة ما في موت يهوذا... لكن لم يكن هناك بالقطع أي شيء لإحكام هذا الخط واستنتجت أنه لا فائدة من وضعه في السيناريو...» كانت تتحدث بسرعة، كأنها تلتقط أنفاسها.

«صحيح..» رد دون تيمي. «نعم... هذا ما قالته الشائعات... إن موت يهوذا تونًّا لم يحدث كما ذُكر في التقارير. وجد شخصان جثته متدلية من شجرة الخروب... الشجرة التي نمتَ تحتها، هل أنا على حق؟...

أخوه... وحافظ غرفة مقدسات الأبرشية الذي تصادف أن كان الذراع اليمنى للقس. نعم، في تلك الأيام كان لديهم حافظ لغرفة المقدسات... أما اليوم فأنا أقوم أيضا بهذا الدور... يبدو أن يهوذا لم يمت من الشنق بالضرورة...»

«ماذا تقصد؟ إذا كان عُثر عليه مشنوقا...؟»

«كنت أقول نفس الكلام. وعندما سألت حافظ غرفة المقدسات... وكاتب عدل القرية... لم يرغبا في التعليق بأي شكل...»

حدق المذيع التليفزيوني وبوني في كاهن الأبرشية. «لحظة واحدة..» قال برتراند أخيرا. «أنت الآن تشتتني. لأي حافظ غرفة مقدسات... وكاتب عدل... تشير؟»

«حافظ غرفة المقدسات الذي وجد يهوذا مشنوقا... وكاتب العدل الذي كان يمارس عمله هنا... هما مازالا يحضران القداس الذي أتلوه في المساء... كانا هنا الليلة، ألم ترياهما؟ لكنهما لم يوافقا قط على الكلام، لم يريدا قط أن يكشفا شيئا. يكتفيان فقط بالنظر إليّ، وتلاوة الصلوات مع الحاضرين الآخرين... وبعد ذلك يرحلان دون أن يتفوها بكلمة. وكلما أصررت على هذا الموضوع معهما، يشيحان بوجهيهما بعيدا ويستمران في طريقهما خارجين.»

الآن كان برتراند وبوني يحدقان أحدهما في الآخر. شرب المذيع التليفزيوني كأسه من البراندي دفعة واحدة. ثم سمعوا طقطقة بدت كانفجار صغير. كان الكوب الذي أمسك به في يده على هيئة كأس زهرة صغير فوق ساق صغيرة: كان قد كسر الزجاج وهشم الكأس قطعا، وكاد يجرح أصابعه على شظايا الزجاج المكسور. بحرص وضع كسر الزجاج على المائدة الصغيرة إلى جواره، متوقعا أن يهرع دون

تيمي لالتقاط قطع الزجاج المكسور. إطلاقا. فلم يكن كاهن الأبرشية قد لاحظ أي شيء، حيث نهض من مكانه وذهب إلى جانب الحجرة، ليفتح خزانة كبيرة مصنوعة من خشب مدهون بلون بني غامق، قامت عالية إلى جوار جدار. جعلهما صوت الخشخشة يتصوران أنه يفتح أوراقا وملفات مكدسة بالوثائق. وعاد حاملا كومة من الأوراق في ملف.

«أحد الأشياء التي فعلتها عندما جئت إلى هنا..» أوضح الأب تيمي، بصوت محايد، وكأنه يلخص محاضرة لمجموعة من طلبة الطب المتلهفين على معرفة التشخيص لأعراض غير معتادة. «كان هو أن أُجمّع ببعض النظام كل الوثائق الخاصة بزنوبر التي تركها أسلافي خلفهم. كانت متناثرة في كل مكان بالبيت، وحتى في غرفة المقدسات. إشهارات زواج، شهادات تعميد، تقارير عن تصديقات كنسية واحتفالات الاجتماع الأول لتلقي القربان المقدس... سندات توثيق تتعلق بهدايا يقدمها فلاحون من زنوبر لأبرشيتهم... حمل ثقيل بالفعل... قضيت عامين أفحصها واحدة واحدة، وأصنفها. وهل كان لديّ أي شيء أفضل كي أفعله بعد أن قرروا نفيي... هكذا لكي... كما ظنوا... يدمروني؟ كم كانوا مخطئين...! لكن لا يهم، ليس هذا موضوعنا.» كان دون تيمي وهو ينتفض بعصبية في مقعده ذي الذراعين، ويفتح الملف الذي أمسك به أمامه، ويومئ بجسده وهو يتكلم، قد أفرغ كأسه أيضا. ذهب ليأتي بزجاجة البراندي وكأس جديد – وهو ما أوضح أنه قد لاحظ أن الكأس الذي كان يمسك به برتراند قد تحطم، وأن هذا لا يمكن أن يزعجه. صب البراندي لهما ولنفسه، وأخذ جرعة كبيرة وأكمل: «ذات مرة، وجدت هذه الوثائق مخبأة في ركن بغرفة المقدسات...» أخرج من الملف خمس ورقات اصفرت من الزمن، مكتوب عليها بحبر أسود مازال واضحا جدا. «قمت بترجمة لهذا البيان، الذي وقَّعه كاهن الأبرشية وكاتب العدل كنوع من الإقرار الكتابي... أرادا أن تكون لديهما مذكرة مكتوبة عما حدث وما

تم اكتشافه في حقل الإسخريوطي. في الوثيقة الأصلية... وهي هذه!... هناك أيضا صليب ملطخ بالحبر، كتوقيع لشقيق يهوذا، الذي لم يكن يعرف الكتابة. لم يكن مقصودا من هذا البيان النشر إطلاقا، لكن قُصد به أن يظل مخبأ هنا، في بيت كاهن الأبرشية... لا أعرف ما حدث له، لأنه بعد عام من موت يهوذا، أبعدوه عن زنوبر وأرسلوه إلى مكان آخر.»

«جعلوه القس الملحق بمستشفى الحجر الصحي..» قالت بوني. «ومات هناك من الكوليرا.»

نظر إليها دون تيمي نظرة إعجاب. «لم أكن أعرف.»

«لم أكن أنا من اكتشفت هذه الحقيقة. فعلها بوريس..» قالت له بالتواضع الواجب، وهي مرتابة تماما في أنه يكذب.

بدأ برتراند يفقد صبره. «مازلت لا أفهم شيئا..» قال، محترسا في نفس الوقت كي لا يكسر كأسه مرة أخرى. «ماذا يحتوي هذا الإقرار الكتابي؟»

«فيه يقوم كاهن الأبرشية وكاتب العدل، الذي كان هو نفسه واحدا من الشخصيات البارزة في زنوبر، بوصف ما حدث خلال الليلة التي قتل فيها يهوذا نفسه... الطقوس في الأبرشية، عرض الآلام، كيف اختفى يهوذا توًّا عندما انتهى العرض... ولم يعد إلى البيت، كيف خرج إخوته ليبحثوا عنه ووجدوه في اليوم التالي عند الفجر يتدلى من شجرة الخروب. ما لم يصبح معروفا قط هو كيف وجدوا الرجل المشنوق غارقا في الدم. وعندما وصل كاهن الأبرشية وكاتب العدل... لأنه لم يكن هناك أي طبيب في القرية... وأنزلاه من فوق الشجرة... وجدا أن حلقه تم شقه.»

«إذًا لم يكن انتحارا بل جريمة قتل.»

«عندما أنزلاه، كان الرجل الميت يقبض في يده بإحكام على سكين كبير ملطخ كله بالدم. وكان رأيهما أن... من المرعب قول هذا... لكنهما قالاه: شنق يهوذا نفسه وبينما كان يختنق في ألم، قطع حلقه بالسكين.»

«ولماذا يفعل شيئا كهذا؟» تساءلت بوني وقد قررت أنها اكتفت من البراندي.

«لم يكن بمقدورهما أن يجدا تفسيرا آخر لعثورهما عليه بهذا الشكل.»

«لكن هل يمكن أن يحدث شيء كهذا؟»

«توجد حالات موثقة، من كافة أنحاء العالم... ومنذ العصور القديمة... لأشخاص انتحروا بهذا الأسلوب. لا بد أن تكون يائسا فعلا ومستعدا لاستخدام كل قوتك لتنفيذ فعل كهذا، والذي يشبه تقريبا محاولة أن تقتل نفسك مرتين. وكانت هناك أيضا طقوس يتم بها إعدام أشخاص بارزين... بينما كان يجري تقديم قرابين معينة بهذه الطريقة... في العصور القديمة...»

«لكن كيف وصل يهوذا تونًّا لهذه الدرجة من اليأس؟ لمجرد أنه لعب دور يهوذا الإسخريوطي؟ بربك! شيء كهذا فقط ليس منطقيا.» تحدث برتراند ببطء، ليتأكد من أنه لا يبدو متوترا أو منفعلا مما يسمعه.

«لا يناقش الإقرار الكتابي هذا الجانب. لكنه يذكر حقيقة غريبة جدا... والتي أرعبت الرجلين، كاهن الأبرشية وكاتب العدل... وربما أيضا شقيق الرجل الميت الذي كان معهما عندما أنزلا يهوذا من الشجرة. كان وجهه في حالة لا يمكن التعرف عليه فيها. فقد تمدد وفي نفس الوقت أصبح ملتويا في تجعدات عميقة. لم تكن تجعدات الشيخوخة، لكنها من نوع التجعدات التي تظهر على وجه تعرض للشمس كثيرا أو لطقس سيء...

وجه قاسٍ، عابس في غضب، كوجه جندي شرس فظ، معتاد جيدا على المعارك. بعد ذلك ببطء، وبعد أن أنزلوه من الشجرة، عاد وجه الرجل الميت كما كان مرة أخرى، تلاشت التجاعيد، وعادت شفتاه مفرودتين ورفيعتين كما كانتا وهو حي، رغم أنها منذ قليل، في وسط ذلك الوجه المتغضن، كانت شفتاه سميكتين وقويتين... تظهر هذه التفاصيل في الإقرار الكتابي، فعليا بنفس الكلمات التي أستخدمها الآن.»

أبقت بوني عينها على برتراند فيما كان ينصت في صمت. كان الوجه الذي وصفه الكاهن هو نفس الوجه الذي ظهر في فيلم الليلة، بعد أن مر الظل على برتراند وهو نائم. لم يكن دون تيمي يعرف شيئا عن الفيلم، فهو لم يره، وبالتالي لا يمكنه أن يخترع قصة مبنية حول أحداث الليلة السابقة.

كان المذيع التليفزيوني يجري نفس الحسابات، مع هذا الاختلاف: أنه لم يكن يثق بأحد. قد يكون ديلينجر تحدث بالفعل مع دون تيمي عن الفيلم، وربما عرضه عليه... قد تكون بوني هاتفت الكاهن قبل أن يأتيا إلى هنا. هاردهيد أو جيانينو أو بوريس أو أي شخص غيرهم... قد يكونوا تحدثوا إليه.

من ناحية أخرى، الوثائق التي كان كاهن الأبرشية يعرضها عليهما الآن كُتبت منذ زمن بعيد... ولم يكن لديه وقت كافٍ كي يلفقها منذ ليلة الأمس... إلا إذا كانت القصة كلها من البداية إلى النهاية مجرد تمثيلية ضخمة... تجربة تتركز عليه، هو الذي كان يعتقد أنه يدير هذه القصة لأسبابه الخاصة، لكنه بدلا من هذا ينتهي به الأمر ضحية لمؤامرة مبهمة وهائلة، جرى فيها تخطيط كل التفاصيل بدقة تامة مسبقا. لكن لو كان الأمر كذلك، فما المقابل؟ من سيستفيد من هذا؟

علاوة على ذلك، بقي لغزان آخران. الحلم الذي وجد نفسه فيه على

مركب بحري قديم يشق الأمواج في صحبة قبطان بحر قوي... له وجه يتطابق مع الوجه الذي ذُكر للتوّ مرة أخرى... لقد حلم بهذا الحلم، ولا يمكن أن يكون أحد قد أقحمه في نومه، ولم يذكره لأحد. إلا إذا افترض المرء أنه أُعطي دواء ليجعله يحلم بهذه الطريقة؛ وهذا هراء! والنقطة الثانية: من أين كان يأتي هذا التوتر العصبي الذي كان يجعله، غير واع بما يفعله، يقبض بقوة على الأشياء التي يصدف أن تكون في متناول يده ويحطمها، وكأنه غير قادر على التحكم في قوته هو نفسه...؟

لم يظهر شيء من هذا على وجه برتراند. حتى أن بوني اعتقدت أنه ينصت لقصة كاهن الأبرشية بهدوء تام.

«لو كنتَ قد ذكرت هذه الجوانب من قبل..» قال. «فربما أخذت حلقة كويس كوام غدا مسارا مختلفا، ألا ترين ذلك يا بون؟»

لم تفهم ما كان يرمي إليه، لكنها أومأت برأسها موافقة.

«يبدو من الطريقة التي كُتب بها الإقرار الكتابي أن النية كانت مبيتة لإبقاء كل شيء حدث أو تكشف سرًا.»

«ماذا يعني هذا؟» أصر برتراند.

«أُجبر كاهن الأبرشية وكاتب العدل من السلطات... لكن أي سلطات كانت تلك بالفعل؟... على إسكات كل الشائعات الدائرة عن القصة، والتي باحوا بها سرا في الإقرار الكتابي.» أثناء حديثه، جلس الأب تيمي متصلبا ومنفعلا في مقعده، منتفضا في غموض. بدا أن اضطرابه، كقلق إسحق، كان جزءا من صراع ضد شكوك ميتافيزيقية، بينما في الحقيقة كما كان المذيع التليفزيوني يعرف جيدا، كان الرجل يحاول احتواء التطفل الناخر لدودة شريرة استمرت في نهش أحشائه، متحدية كل الأدوية المستخدمة لتدميرها... لكنه ظل واضحا ومركزا في حججه،

غير مهتم على ما يبدو بوجود برتراند وبوني. كما أدرك منذ البداية نفسها، جاء الاثنان إلى هنا كي يتصيدا معلومات... «كان هذا ليعني أن يهوذا تونًّا سيتم تصويره كمنتحر بينما ثمة شيء أكثر تعقيدا قد حدث في الليلة التي شُنق فيها. وكان هذا يعني أيضا أن على عائلة تونًّا أن تقبل في مستقبل الأعوام أن تحمل وصمة العار الناتجة عن انتحار واحد من أبنائها. لا بد أن هذا هو السبب في إدخالهم شقيق يهوذا معهم في الإقرار الكتابي. أعتقد أنهم فعلوا هذا لكي يَرشوا بطريقة ما الأسرة كي توافق على ما يُطلب منها فعله.»

«لكن هل لديك أي دليل على هذا؟»

«... لعلهما أخبراه بأن القصة الحقيقية لن تضيع إلى الأبد، بما أن هذه الرواية المكتوبة ستبقى لتكشف الحقيقة كاملة.» كان الأب تيمي يتجاهل المذيع التليفزيوني تماما. وكانت عيناه مثبتتين على البراندي في الكأس على حِجره، عازما على أن يشرح قدر ما يمكنه من الوضوح ما كان يعتقده عن هذه الحادثة التي بدا أنها تزعجه منذ زمن طويل... وأكمل كلامه: «من الغريب أيضا أن حافظ غرفة المقدسات لا يظهر في الإقرار الكتابي، وكأنهم رأوا أنه من الممكن تجاهله تماما. أو... وهذا ما أعتقده... ربما كان ساذجا قليلا... أو من المحتمل كذلك... أنه صُدم بشدة مما رآه في حقل الإسخريوطي، لدرجة أنه فقد عقله. في الحقيقة، بعد قليل، مات. ربما لهذا يظل صامتا هكذا كلما جاء إلى القداس...

على أي حال: كانت هناك أيضا تلك التسوية المتعلقة بالمكان الذي سيُدفن فيه يهوذا. ليس في أرض مكرسة... لكن بالقرب منها، كما عرضت عليكما. في هذا البلد، حتى اليوم، من الصعب للغاية أن تحتفظ بسر... والثرثرة... الشائعات... عما حدث بالفعل... ازدهرت... وهكذا بدأت تنبت فكرة رحلات الحج... وقد بذلوا أقصى ما لديهم لمنعها...

ونجحوا غالبا لأن ذلك الربيع صادف أن كان مطيرا جدا...»

مال برتراند ليرفع الملف بما فيه من الوثائق التي وصفها دون تيمي. وبينما كان يفحصها، تساءلت بوني: «وكاتب العدل... لم يكشف قط أي شيء آخر؟»

«بعد قليل من الحادثة، اختفى.»

«اختفى؟ كيف؟»

«غادر بيته مبكرا ذات صباح، أتصور أنه ذهب للصيد، ولم يعد أبدا. بحثوا عنه في كل مكان.»

«هرب؟»

«لم يكن بحاجة للهرب. بعد أن اختفى، لم يستطيعوا أن يجدوا ولو خطأ صغيرا في عمله ككاتب عدل. أشك أنه سقط داخل حفرة ما... بئر مخفي... وفقا لبروفيسور ديلينجر، هناك احتمال كبير بوجود الكثير من المقابر القديمة حول زنوبر... والتي لا يعرف أحد بأمرها... فتحات آبار قديمة كانوا يستخدمونها لدفن الناس وتخزين المعدات والبضائع التي كان الموتى يراكمونها في حياتهم... مات بالتأكيد في مكان ما في المنطقة المحيطة بزنوبر... لهذا لا أندهش من ظهوره في قداس المساء.»

كان برتراند يبذل جهدا خارقا مع نفسه كي يمسك بطريقة صحيحة الملف الذي مرره له القس – كانت عضلات يديه وذراعيه متوترة، وكأنها متلهفة على كرمشة وطحن الوثائق، وتدميرها... ولم يكن باستطاعته فهم كيف ثارت فيه هذه الرغبة. كان التوتر بداخله قد جعله يتصبب عرقا. ناول الأوراق لبوني. «لمَ لا ترى إن كان هناك شيء في الموضوع

يمكن أن يكون مفيدا..» قال بابتسامة مشدودة. من حسن الحظ أن بوني أخذت الأوراق وفتحتها دون النظر إليه؛ لأنها كانت ستلاحظ أن هناك شيئا ما خطأ. نظر المذيع التليفزيوني مباشرة في عينيّ كاهن الأبرشية الكبيرتين السوداوين. في الوقت الذي ظل فيه وجه القس وكتفاه في حالة اهتزاز لا تنقطع وانتفاض عصبي امتد إلى فخذيه، بدا دون تيمي مدركا فعلا لما كان يزعج برتراند. ربما لهذا قام القس بمناولته الوثائق؛ كي يرى كيف سيكون رد فعله...

«هناك تفسير آخر لما حدث عندما شنق يهوذا تونًّا نفسه..» قال الكاهن. «لكنه شديد الفانتازية حتى أني أذكره لأول مرة معك.»

«هه؟ وما هو؟» كان صوت المذيع التليفزيوني قد غدا أجش للغاية.

«طوال القرون، كان لدى زنوبر ومحيطها سمعة بأنهما تحت سيطرة أرواح من عصور قديمة، أرواح شريرة، أرواح غاضبة.»

«ظلت هذه الشائعات حية على الأقل منذ زمن الأنجويين[25] بحسب أبحاث بوريس..» قالت بوني، والتفتت إلى برتراند: «يمكنك أن تجدها في السيناريو الذي أعطيناك إياه.»

«بالطبع، وسنضمنه في الحلقة الأولى، حلقة الغد. لكن..» وتوجه بسؤاله إلى دون تيمي: «كيف يرتبط هذا بما كنا نناقشه؟»

«من الممكن... لا أعرف... أن عائلة تونًّا فعلت شيئا أزعج بشدة هذه الأرواح الشريرة التي تحرس حقل الإسخريوطي...»

«تحرس...؟» كان صوت المذيع التليفزيوني قد أصبح أكثر شراسة

25- اسم يطلق على سلالتين قروسطيتين مميزتين تنحدران من الكابيتيين ملوك فرنسا، و أخذوا اسمهم من أنجو المقاطعة الغربية في فرنسا. نجحت هذه السلالات بمختلف فروعها لاحقا في حكم عدة بلدان في أوروبا، بما في ذلك بروفنسا، اللورين، بولندا، المجر، و كذلك مملكتا نابولي وصقلية.

وخشونة.

«... أو إذا شئت، تتحكم ذكرياتها في المنطقة المحيطة بزنوبر...»

«وماذا يمكن أن يكون آل تونًّا فعلوه ليثيروا سخط هذه الأرواح التي تذكرها؟»

بمجرد أن فهم من نبرة صوته أن المذيع التليفزيوني كان يسخر منه، عبس كاهن الأبرشية. وتحول وجهه النحيل إلى غضون حول الثقبين الجافين اللذين كانا يمثلان عينيه. كانا قد أصبحا كشقين منهما كان يمكن لجمجمة أبقت عينيها حيتين ومتوهجتين، أن تراقب ما كان يحدث في العالم اليومي. «هل أقدم لكما كأسا آخر من البراندي؟» تساءل.

اعتذرت بوني. لم تجد ذلك الملف الذي أعطاه لهما واعدا إلى هذا الحد في النهاية، بإقراره الكتابي المدون بواسطة كاهن أبرشية وكاتب عدل وفلاح ماتوا جميعا منذ زمن بعيد: أربع أوراق قديمة يميل لونها للبُنيّ بالإضافة إلى عدة أوراق بيضاء أخرى مطبوعة من حاسوب وتمثل نسخة دون تيمي من الإقرار...

قبل برتراند العرض. «لكني سأكون شخصا شرها وسأشربه سريعا قبل أن نغادر..» قال. «حان وقت الرحيل.»

أثناء صبه الشراب في كأس آخر، تساءل دون تيمي: «هل أنتما راضيان الآن بحصولكما على القصة كاملة؟»

كما وعد، شرب برتراند البراندي في جرعة واحدة. «راضيان، ربما نعم. مقتنعان، لا. مازالت هناك أشياء مفقودة. لا أعرف إن كانت من طرفك... أم من طرف آخر.»

«لقد أخبرتكما الآن بكل ما أعرفه عن قضية يهوذا تونًّا. عندما ذكرت

التخمينات والتنبؤات والنظريات التي دارت حولها، أوضحت أنها كذلك..» أصر دون تيمي على موقفه بينما كان يقودهما إلى الباب الخارجي، قرب الفناء. «يمكننا أن نترك النظريات لبروفيسور ديلينجر... ومع ذلك، إذا كنت أفهم على نحو صحيح، ورغم أنك أردت... أو تقول إنك أردت... الحقيقة عن يهوذا، فإنك لن تستخدمها كلها من أجل كويس كوام.»

ضحك برتراند من قلبه. كان التوتر الذي أحس به منذ قليل قد تلاشى تماما.

ضحكت بوني أيضا وقالت: «كي تناقش بشكل جيد موضوعا تعرضه في التليفزيون، حتى لو كنت لا تنوي أن تعرض كل ما هو موجود للعرض... لا بد أن تعرف قدر ما يمكنك كل ما هو موجود لتعرفه.»

استمر الاثنان الآخران في الضحك معها، أو ربما كانا يضحكان عليها. وقف ثلاثتهم عند عتبة بيت دون تيمي الصغير – بوني وبرتراند مكسوان بضياء كثيف من القمر في الفناء – ودون تيمي، طويل وبارز العظام لكنه ثقيل عند وسطه وينتفض باستمرار من كتفيه إلى جانبيه، وقف داخل العتبة، تحت ضوء مصباح كهربي قديم خلفه. أبرز هذا الضوء الخطوط الخارجية لرأسه وكتفيه، تاركا بقية جسده في الظلام، من الوجه إلى أسفل. «طابت ليلتكما..» بدأ كاهن الأبرشية جملته.

«نعم..» قاطعه برتراند بفظاظة، وكأنه تذكر شيئا ما: «أردت أن أسألك أيها الأب وكنت سأنسى... أنا مصاب ببعض الحيرة: كم عدد الناس... أقصد الناس الموجودين حاليا... الذين يعيشون بالفعل في زنوبر؟ رأيت مرة أخرى فيلم مقابلتك وقلت إنه مع آل تونا والزوجين من العجائز، فيما عداك، سيكون العدد دون شك سبعة أشخاص... بالتأكيد كنت تريد أن تقول ستة...»

رغم أنهما كانا قادرين فقط على رؤية الظل الأسود الذي صنعه دون تيمي في مقابل الضوء الساقط من المصباح الكهربي بالداخل، كان واضحا أنه أصبح متوترا جدا عندما سمع سؤال برتراند. وأجاب بخشونة: «لا، لا. سبعة.»

«الأخوان تونًّا، والأزواج العجائز الأربعة، يصبح المجموع ستة..» كان المذيع يقول بهدوء. «لذلك لا أفهم.»

«هناك ثلاثة إخوة في آل تونًّا: يهوذا، ناردو، ستيف. ومنذ وصولكم إلى هنا، لم أر ستيف إطلاقا. أجد الأمر غريبا بعض الشيء لأن هؤلاء الثلاثة دائما معا. سألت عن ستيف، لكنهما تجاهلا سؤالي.»

«أنت لا تقصد أن تقول إن هذا... ستيف... قد اختفى... مثل كاتب العدل؟»

«أتصور أنه ثمل ومازال يتعافى من أثر السكرة. لكن لا حاجة لأن تندهش مما يمكن أن يكون قد فعله. لطالما كان آل تونا أشخاصا غريبين جدا...» بهذه الكلمات، ودعهما كاهن الأبرشية وعاد إلى داخل بيته.

.40

سارا عبر الساحة الصغيرة إلى السيارة. «أتعرفين فيمَ أفكر؟» قال برتراند. «دعينا نذهب... بما أننا هنا... لزيارة أصدقائنا آل تونَّا!»

«هل أنت خبير في الكاراتيه البورمي؟»

نظر إليها مندهشا، فشرحت له القصة. دخلا الدرب الضيق المؤدي إلى بيت آل تونا الريفي. كان القمر حاضرا ليهديهما في الطريق، كما فعل عندما خطت بوني في هذا الدرب مع الأب تيمي وهاردهيد. هذه المرة أيضا كان المبنى الجاثم الذي يخص آل تونَّا غارقا في الظلام... لكن مع اقترابهما، أدركا أنه ليس مظلما تماما؛ كان هناك شق عريض من ضوء مصباح قادم من مكان ما. وبدأت تصل إليهما الرائحة اللاذعة الغريبة المحيطة بالبيت.

«لن تكون هذه الرائحة النتنة جيدة لو استُخدمت بعد الحلاقة..» علق المذيع التليفزيوني.

وجدا البوابة الخارجية مواربة. دفعها برتراند ليفتحها، ثم دخلا وسارا نحو المبنى. كان الضوء خارجا من الباب الذي دخلت منه بوني مع دون تيمي وهاردهيد إلى البيت. «مرحبا! هل يوجد أحد؟» صاح برتراند. ورغم أنه لم يتلق ردا، استمر في التقدم صائحا حتى وصلا الباب المفتوح قليلا. «هل يوجد أحد هنا في الدار؟» على سبيل الرد، تصاعدت صرخة خائفة لحيوان ما. طرق برتراند على الباب، لكن مرة

أخرى لم يسمعا إلا ذلك النشيج. دفع الباب ليفتحه ودخلا الحظيرة. كان الكلبان اللذان رأتهما بوني في زيارتها الأولى مازالا مربوطين في نفس الركن. لكنهما اليوم لم ينهضا غاضبين ليواجهاهما، مثلما فعلا في المرة السابقة. وبدلا من ذلك، تراجعا ببطء، بل كادا يدفعان جسديهما دفعا داخل الحائط خلفهما، زاحفين بعيدا قدر استطاعتهما عن القادمين الجديدين، وهما ينشجان ويعولان.

«ماذا حدث للكلاب؟» تساءلت بوني.

«هل هناك أحد؟» كرر برتراند، صائحا بأعلى صوته.

لم يتغير شيء تقريبا في الحظيرة منذ الزيارة الأخيرة لفريق كويس كوام، حتى لو كان هناك مصباح كهربي واحد فقط مضاء في جانب المكان، حل محل أسطوانة النيون التي كانت مضاءة وقتها. كانت الأطباق وبقايا الوجبات السابقة موجودة مثل المرة الأخيرة، أو ربما ازدادت الأكوام التي تصنعها حجما، وهو ما ينطبق أيضا على الأجولة الموجودة في الجوانب، المملوءة بحمولات من مادة لا يعلم أحد ماهيتها. وبدت حدة الرائحة المخيمة على البيت أكثر قوة.

«يبدو وكأن لا أحد هنا..» قال برتراند. «هيا ندخل...»

«لن يعجبهم أن ندخل بيتهم دون إذنهم وهم ليسوا هنا..» ردت بوني. «ولا ألومهم.» كانت متحيرة من الرعب الذي بدا قد أصاب الكلبين. أزعجها أكثر بكثير من غضبهما في زيارتها السابقة.

«بما أننا هنا الآن، فلنستمر...»

تبعت المذيع التليفزيوني إلى باب على اليسار. وجداه نصف مفتوح ودخلا ما يشبه ممرا واطئا، مضاء بمصباح معلق على الجدار. «هل يوجد

أحد في الدار؟» تساءل برتراند مرة أخرى، صائحا بأقوى ما يستطيع من صوت. وكل ما سمعاه من صوت كان ذلك النشيج المخنوق للكلبين اللذين تركاهما وراءهما في الحظيرة. أمام المصباح المعلق، كانت هناك مساحة أخرى مفتوحة تؤدي إلى سلالم تهبط إلى أسفل. «يوجد قبو ما هنا..» قال. «هل لاحظت أن رائحة النتن يبدو وكأنها خفتت قليلا؟»

«هناك تيار هواء قادم من مكان ما..» ردت بوني.

«إذًا هو ليس قبوا..» قرر وبدأ النزول ببطء على السلم، دون أن يصيح مرة أخرى متسائلا إن كان يوجد أحد. لم يعد باستطاعتهما سماع عويل الكلبين. هنا أيضا تدلى مصباحان من الحائط الجيري المتقشر. هبطت بوني وراء المذيع التليفزيوني. «لم يخبرنا الأب بأن هناك متاهة تحت بيت آل تونًّا..» تمتم برتراند. بدا هو أيضا منفعلا، لكن بفتور؛ وكأنه كان يعرف ما يبحث عنه...

عندما وصلا إلى نهاية السلم، وجدا نفسيهما عند فتحة نفق يتجه يسارا ويمينا. عادت الرائحة اللاذعة قوية من جديد. وكان بمقدورهما التمييز بين مجموعتين من الأصوات لم يسمعاها من قبل، لكن لم يكن بمقدورهما تحديد أي جانب من النفق كانت تأتي منه. كان هناك نوع من الأصوات قادم من بعيد بدا منتشرا في المكان، كأنه صرير هامس، له نغمة مركزة لكنه مع ذلك خفيف جدا حتى أنه يمكن للمرء تصور أنه صادر عن مئات المبارد، أو آلاف وآلاف من الأدوات التي تحتك بسطح معدني. وبعد ذلك هناك صوت شيء يدق على حائط أو باب... دقتان ثم وقفة طويلة بعض الشيء، ثم دقتان إلى ثلاث دقات، أقوى، ووقفة، أقصر من الوقفة السابقة، زائد دقتان أخريتان، في إيقاع بدا وكأنه بلا نموذج، عشوائي. توترت بوني. وكذلك برتراند، الذي ربما كان أكثر توترا منها بسبب مجموعتيّ الأصوات، التي امتزجت وزادت من تأثير رائحة

النتن اللاذعة الثقيلة التي انتشرت في مكان في الفتحة الضيقة للممر المظلم - مظلم حتى لو كان مضاء بالمصابيح المثبتة في الحائط، بنفس الطريقة في اتجاهيّ النفق. فجأة شعر كلاهما بالرغبة في إنهاء هذه المغامرة الجديدة التي تعثرا بها في أسرع وقت ممكن، حتى لو كان لا بد لهما من الوصول إلى استنتاج ما... رغم أن بوني لم تكن تملك خيطا يؤدي إلى معرفة ماهية هذا الاستنتاج. لو خطر لها وهما واقفان بين ذراعيّ النفق المرحبين، لذكرت إنيد بليتون هنا، كما فعلت عندما جاءت مع هاردهيد إلى هذا البيت الريفي، لكنها نسيت أن تشير إلى هذه النقطة.

«هيا نذهب من هذا الطريق..» قال برتراند. كان متوترا مثله مثل بوني، لكنه لم يكن يتصرف مثلها. كانت تأسف بقوة على قرارهما بالقدوم إلى هنا. وكانت أكبر أمنياتها الآن أن تعود سائرة عبر الطريق المؤدي إلى ساحة زنوبر... أما عن برتراند، فكان التوتر الذي يشعر به قد جعله أقوى عزما على أن يجد بوضوح وتحديد ما أراد أن يجده.

توقف أمام باب حديدي. كان النور يتدفق من الشقوق أسفله وعلى جوانبه. ثمة مصباح كهربي كان مضاء بالداخل. وكان الدق قادما من وراء الباب... دقتان، ثم وقفة طويلة، ثم دقتان، ثلاث دقات، أقوى من السابق، ووقفة أخرى، ودقتان أخريتان، كلها عشوائية على ما يبدو... ورغم أنهما لم يقطعا إلا خطوات قليلة، كانت رائحة النتن قد صارت أقوى... وكذلك كانت ضجة آلاف وآلاف الأصوات، مائة ألف مبرد... تصرخ هامسة بصريرها...

فجأة، أحست بوني بالرعب من برتراند قدر ما كانت منزعجة مما كانا يكتشفانه في هذا المكان الذي أحضرها إليه... وربما أكثر. كان مظهره... شيطانيا... كان ذلك هو الوصف الذي دار في عقلها... ماذا

يحدث؟

طرق المذيع التليفزيوني الباب بقوة مرتين. «هل يوجد أحد هنا؟» سأل مرة بعد مرة. وكان الرد الوحيد الذي تلقاه هو الدق غير المنتظم على الباب... دقتان، ثم وقفة...

«افتح الباب! افتحه!» حثته بوني بصوت خشن أجش.

أطاعها. انفتح الباب نحوه. ووجد نفسه تحت رجل مشنوق الرقبة، معلق في مكان ما بالأعلى. في شبه العتمة التي خيمت على كل مكان، بالرغم من الضوء المنبعث من الحجرة الضيقة وراء الرجل المشنوق، كان بمقدورهما أن يريا جيدا جدا الجرح الأسود الذي امتد من تحت فكه إلى أذنيه. مع انفتاح الباب، تأرجح الرجل المشنوق أسرع رغم أن النقر توقف فجأة بما أن الباب المغلق لم يعد قائما أمام قدميّ الرجل الميت. صرخت بوني صرخة مدوية، بينما خلص برتراند إلى أن الرجل ميت بالتأكيد منذ يوم أو اثنين.

«إذًا عرفنا الآن أين كان يختبئ ستيف تونًا..» قالها بشراسة، مبتسما كنمر. والتفت ليُري بوني كيف أنه بينما كان الرجل يشنق نفسه، أو يُشنق، شق حلقه، أو شقه أحدهم له.

بصراخ هيستيري انطلقت بوني تعدو عائدة من حيث جاءا، صاعدة السلالم. وبطريقة غريبة، كانت أصوات الصرير المنخفض أو الاحتكاك التي سمعاها وهما ينزلان إلى هذا القبو... بفرض أنه قبو... بدت وكأنها أصبحت أقوى مع صراخها. أغلق برتراند الباب على الجثة المعلقة. وعلى الفور بدأ النقر من جديد.... دقتان على الباب،، ثم دقتان، ثم ثلاث دقات أقوى من سابقاتها، ثم وقفة أخرى... جرى وراء بوني، قافزا السلالم درجتين وثلاث في كل مرة، بقوة لم يكن يعرف أنها لديه. انعطفت بوني

يسارا نحو الحظيرة، مقطوعة الأنفاس لكنها مازالت تصرخ. وصلا الحظيرة. أمسك بها وهزها بقوة.

«أرأيته؟ أرأيته؟» لم تستطع التوقف عن الصراخ.

«رأيته.»

«من قتله؟ كيف قتلوه؟»

«ربما قتل نفسه.»

«ولماذا هو هنا؟»

«لا أعرف! كيف لي أن أعرف؟»

«لقد قُتل اليوم! من، من، من فعلها؟»

«لا أحد هنا... لا أعرف من قتله!... وهو ميت منذ يومين أو أكثر!»

«برتراند! ماذا يحدث هنا؟ ماذا يحدث؟»

«أنا مثلك... وربما أقل... لا خيط لديّ...»

أحاطت كتفيه بذراعيها وهي تنشج، واحتضنها هو. من فوق كتفها، لمح الكلبين ينظران إليه مرعوبين ويزحفان عائدين أبعد ما يمكنهما إلى الحائط وراءهما. لم تلاحظ الكلبين، ربما لأن عقلها احترق مما شاهدته للتوّ.

«الشرطة...» قالت.

«إيه؟ هل أنت مجنونة؟» سألها غاضبا.

«ماذا تقصد؟ ماذا تقصد؟ أنت رأيته...! أنت رأيته أيضا!»

«بالطبع رأيته. بل وجدته. لكننا لن نذهب إلى الشرطة! ألا تفهمين...!»

«ما هذا؟ هل سنكتفي بتجاهل الأمر، وكأن شيئا لم يحدث؟»

«نعم، هذا ما سنفعله. لا أحد هنا... أو لو كان يوجد أحد، كانوا سيبلغون. يجب أن نفكر في كويس كوام... غدا لا بد أن نسجل البرنامج... لو جاءت الشرطة الآن... انسي أمر البرنامج...»

«هل تعلم ما تقول؟ هل تعلم ما تقول؟» وفي نوبة من الغضب الهيستيري، بدأت تلكمه في صدره. احتضنها بقوة ليمنعها. كانت نهنهاتها المرعوبة تبدو وكأنها صادرة من عمق جوفها. هزها مرة، مرتين، ثلاث مرات حتى خفت نشيجها. وبينما كان يحتضنها، راقب برتراند الكلبين اللذين كانا مازالا يحدقان بثبات نحوه. توهجت عيونهما الحمراء برعب هائل، وظلا يحكان ظهريهما بالحائط من ورائهما. ببطء، قاد بوني خارج الحظيرة... نحو نور القمر الفضي. لم يكن بحاجة إلى أي قوة، لأنها كانت تفعل كما يأمرها. وعندما غادرا، جذب الباب وأغلقه.

خلفهما في الحظيرة، كان الصمت هائلا. زحف الكلبان مبتعدين عن الحائط وبدآ أخيرا في النشيج، تقريبا مثلما كانت بوني تفعل منذ قليل.

تحرك شيء ما تحت كومة من الأجولة المعبأة. نهض رجل كان راقدا تحتها جالسا. وجاء جرذ أسود كان ناعسا عند قدميه واقترب من فخذيه، كأنه يحاول تذكيره بشيء ما. تمطى يهوذا تونًّا – كان هو الرجل – ودعك عينيه الحمراوين الدامعتين. وبينما كان يتحرك لينهض من تحت الأجولة، تدحرجت على الأرض زجاجة نبيذ فارغة كانت بجواره. رفع الجرذ أنفه نحو ركبة يهوذا، وكأنه انزعج من الضجة التي أثارتها الزجاجة. «أنت تريد أن تأكل مرة أخرى أيها الوغد!» قال يهوذا بابتسامة ملتوية. «ولا يبدو أنك صمت مع أبناء عمومتك...!» لطالما كان يهوذا

على ارتباط ناجح بالحيوانات. وكانت الجرذان، حتى تلك التي تبلغ من التوحش أقصاه عندما تجوع، تعرفه وتحترمه. وقف وتمطى مرة أخرى. خلال اليومين الماضيين كان قد شرب نبيذا أكثر من اللازم... وإلا كيف كان سيستطيع التعامل مع ما كان يحدث؟ نهض الجرذ الأسود على قائمتيه، وتسلق جوالا معبأ، مراقبا إياه بعينين صغيرتين لامعتين. ومن بين شفتيه، خرجت صرخة منخفضة للغاية، يمكن للمرء بالكاد أن يميزها. كانت أشبه ببكاء ضعيف. كان الجرذ جائعا حقا.

قاد المذيع التليفزيوني بوني عبر الدرب الذي تناثر فيه كله ضوء القمر. ببطء، كان الرعب الذي سيطر عليها قد خفت. «لماذا لا تريدنا أن نذهب إلى الشرطة؟» ظلت تسأل.

شرح لها مرة بعد مرة أن اقتراحها غير مطروح للنقاش. في الحقيقة، وبصراحة، حتى بالنسبة له كان ما يقوله بالكاد له منطق... لكن دافعا غامضا ما كان يقوده لتقرير أنهم لا ينبغوا أن يقحموا أحدا آخر في قصة زنوبر... على الأقل ليس حتى يتم تصوير الحلقة الأولى من كويس كوام. لقد ظهر أشخاص أكثر من اللازم، محملين بأجنداتهم الخفية. وبعدم قولهم للحقيقة كاملة، كانوا يحاولون استغلال كويس كوام من أجل... من أجل ماذا؟ لم يكن يعرف. ومن ناحية أخرى، لم يكن بمقدوره المجازفة بترك كل ما عمل من أجله طوال هذه الأسابيع الماضية ينهار. كانت المكالمة الهاتفية الأخيرة، أو هكذا ينبغي أن تكون، مازالت تنتظره....

قبل أن يصلا إلى السيارة، كانت بوني قد هدأت واستقرت على حال جديد. في الحقيقة، شعرت أنها بحاجة للبقاء هادئة، وأن برتراند كان على حق. بعد كل العمل الذي قاموا به في كويس كوام، سيكون من السخيف أن يفسدوا كل شيء لأن واحدا من الإخوة تونًّا ذبح نفسه، أو

ذبحه شخص آخر، بينما أخواه لم يكلفا نفسيهما حتى عناء الإبلاغ عن الأمر. لكن لم يخطر ببالها الشك في أن أخويه قد يكونا هما من قتلاه. كانت متلهفة للغاية على العودة إلى السيارة... وأن تنسى بسرعة قبح ورعب تلك الرقبة المشقوقة التي بدت كحلق خنزير يباع عند الجزار... بعد ذلك غدا، لو سار كل شيء كما هو مخطط له، سيرون ما يتوجب فعله... لو سار كل شيء وفق الخطة: كانت هذه حساباتها.

نعم، وربما كانت أيضا تشعر بالتعب. لقد كان يوما طويلا لا نهاية له. ليلة الأمس كانت قد نامت لفترة قصيرة جدا بعد الحملة التي قادتها هي وفلورا بيتا لوكا للمساعدة في استقبال واستضافة بروفيسور والي أحمد. والأمس لم يكن يوم عمل قصير كذلك. لو أمكنها فقط أن تتوقف كي تفكر لحظة في الموضوع مباشرة: من أين تجد هي وزملاؤها هذه الطاقة لإقامة مشروعات في غضون بضع ساعات، بينما يأخذ الآخرون أسابيع لتخطيطها وإطلاقها وإنهائها؟

كانت كنيسة زنوبر وبيت كاهن الأبرشية والمقبرة الملاصقة كتلة من سواد مظلم جدا إلى جانب الساحة، التي كانت هي نفسها مرشوشة بالضياء الفضي. تكدست أشواك ضخمة معا في جانب فناء الكنيسة وتراقصت ببطء عندما هب تيار من هواء فاتر من الأرض. أو ربما، تساءلت بوني، كان ثمة ثعبان أسود ينزلق في الليل مثل الثعبان الذي رأته هذا الصباح يهاجم عصفورا، وكان يثير الاضطراب في شجيرات الشوك.

فجأة، لا شيء بدا مثل ما كان منذ قليل... ولا حتى سيارة برتراند. وعندما اقتربا منها، ارتفع صوت برتراند بالسباب وجرى إليها. رأت ثلاثة ظلال صغيرة... هل كانت فعلا صغيرة إلى هذا الحد؟... تقفز من فوق سقف السيارة بصرير قصير، صوت احتكاك رفيع.

«ماذا كانت؟» وعندما لم يرد أكملت: «لم تكن قططا..»

«لا، جرذان.»

دخلا السيارة.

«هل اتفقنا على ما سنفعله؟» سألها بلهجة منذرة.

لكنه لم يكن بحاجة لوضع مزيد من الضغط عليها. في الوقت الذي استغرقاه في الوصول إلى هنا، كانت قد فكرت في الموضوع أيضا، ووصلت إلى الاتفاق معه. غدا بعد أن ينتهي العمل في كويس كوام، سيرون ما يفعلونه بشأن الرجل الميت المشنوق بحلق مشقوق، في قبو بيت آل تونًّا الريفي. سيرون إن كانوا سيبلغون الشرطة أم لا، وكيف يفعلون هذا. فتحت حقيبة يدها التي كانت قد تركتها على المقعد الأمامي وأخرجت علبة الأقراص التي كانت دائما بقربها. عادة كانت تحرص ألا تتناول أي أقراص في حضور أي شخص آخر، حتى برتراند... لكن الليلة لم تكن تبالي. أخرجت ثلاثة أقراص... جرعة قوية جدا لكنها كانت بالفعل في حاجة إليها. وبينما كان المذيع التليفزيوني يدير محرك سيارته، ابتلعتها واحدة إثر الأخرى. بعد قليل، ستتلاشى التحديقة التي ظلت على وجهها، والخمول والرعب اللذين أحست بهما. ستصبح هي نفسها مرة أخرى، بوني.

انطلقا بالسيارة عبر الممر الضيق المؤدي إلى الطريق الساحلي. وبينما كان برتراند يقود السيارة، كان يشعر بالقلق مرة أخرى من أن يأتي أحد ما من الاتجاه الآخر. كانت الشجيرات الفضية المعرشة بطول جوانب الممر تتأرجح محتكة بالسيارة. كان ضوء القمر في كل مكان.

***

حتى غادرا، بقي دون تومي في ظل الكنيسة تماما. كان يصنع ظلا أعمق من الظلمة التي أحاطت به، بسبب الملابس السوداء التي كان يرتديها. بعينيه السوداوتين اللامعتين، كان ينتفض دون قدرة على السيطرة من فخذيه صعودا إلى كتفيه وهبوطا من جديد، مخبئا خلف ظهره السيجارة التي كان يدخنها، وممسكا بصلابة كأسا مليئا بالبراندي في اليد التي لم تكن تحمي السيجارة...

كان قد خرج منتظرا أن يرى متى سيغادر المذيع التليفزيوني والمرأة التي جلبها معه. بقرف، شاهد الجرذان الثلاثة وهي تتسلق سيارة برتراند ومن الظلال في جانب الكنيسة، حيث لم يكن ضوء القمر قد تخللها، استمر يراقب كي يرى ماذا سيحدث. ودُهش قليلا عندما بدا أنه لم تحدث الكثير من التطورات. دخل المذيع التليفزيوني والمرأة إلى السيارة بهدوء وانطلقا خارجين من الساحة.

هكذا تُرك وحيدا مرة أخرى في هذا الفراغ المسمى زنوبر، حيث أرسله هؤلاء الذين شجعوه في البداية على أن يقدم إليهم أفضل خدمة يمكنه تقديمها، وبعد ذلك عندما أدركوا أنهم عرضة للهجوم؛ تحايلوا كي يجعلوا منه كبش الفداء حتى لا يحترقوا...

آه، زنوبر قرية جميلة، وأبناء الأبرشية القدامى شديدو اللطف. يبذلون أقصى جهدهم للإبقاء على صحبته، وهم طيبون أيضا، يشكرونه لأنه يقيم القداس لهم وفق الطقوس القديمة... لكن عندما يشعر المرء أنه منفيٌّ دون سبب على الإطلاق، يؤدي شعوره بأنه تعرض للهجر، للخيانة، إلى جعله يتصرف بطرق لم يتوقعها أبدا من قبل.

بينما كان برتراند يطرد الجرذان عن سيارته، وعندما فتح بابها...

شعر الكاهن برغبة كبيرة في الخروج عدوا من الظل حيث كان يختبئ وكشف كل شيء، كما دعاه المذيع التليفزيوني... أو في الحقيقة تحداه كي يفعل. لكن مرة أخرى، تراجع الآن، وليس فقط لأنه لم يكن يعتبر برتراند شخصية جديرة بالثقة... (بالتأكيد هو لم يعد نفس الشخص الذي زاره في المرة الأولى)... لقد علق برتراند في أسر تعويذة زنوبر... بداخله الآن شخص آخر يتخذ هيئته، كان الأب تيمي متأكدا من هذا. ومع ذلك، كي نحسم الأمور، كان هناك سبب آخر أكثر فعالية بكثير كي يمتنع عن التقدم. لماذا ينبغي له هو، الأب تيمي كاهن أبرشية زنوبر، أن يتورط في مشكلة لمساعدة أشخاص همهم الوحيد في الحياة هو الدفعة التي يمنحونها للأحداث... إلى أي غاية؟ لا أحد يعرف.

قبل أن يصل إلى حجرة جلوسه، اجتاحت الأب تيمي موجة هائلة من الندم على ما كان يفكر فيه للتوّ. عندما يكون في صحبة، كان يستطيع التحكم في الاضطراب التشنجي الذي كان دوما ينتزع أحشاءه. لكن عندما يكون وحيدا، في لحظات مثل هذه، كانت التشنجات تغدو موجات ضخمة. وكي يخنق الانقباضات التي كانت ترجه الآن، صب كأسا آخر من البراندي، ساكبا الشراب فوق المائدة المنخفضة، وابتلعه جرعة واحدة.

بعد ذلك، وعندما تلاشت التشنجات، عرف ما ينبغي أن يفعله. بثبات، سار عائدا إلى الكنيسة، وركع عند إحدى الدكك الأمامية أمام المذبح وبدأ يبتهل بصوت منخفض تردد صداه عبر الكنيسة الفارغة، مستحضرا مقاطع من صلاة المبشر القديس مرقس المنسية، وفقا للطقس النسطوري. وعندما وصل إلى الجزء الخاص بالتقديس، ظل يكرره، بعزم ثابت:

«عبادتك لقاء حق وعدل، مقدسة ولائقة ونافعة لأرواحنا، أيها

الموجود الواحد، أيها الرب السيد، أيها الأب القدير، نسبح لك، ونحمدك، ونمدحك، *في الليل والنهار*، بفم لا يكل وشفاه لا تصمت، وقلب لا يهدأ، *أنت يا من خلقت السماء والأشياء التي في السماء، والأرض والأشياء التي في الأرض...*»

في الظلام، بدا الابتهال باللسان اليوناني القديم الذي كان دون تيمي يكرره كما لو كان مشربا بأنفاس حياة جديدة. وصل وغطى كل أركان الكنيسة الصغيرة. وبمرور الساعات، من حول القس الذي ظل يصلي بحماسة دائمة ومتنامية تجمعت أطياف أخرى وبدا أنها تصلي معه في همهمة عاطفية. ومع مرور المزيد من الساعات، تضخم تجمع الأطياف والموجودات. ودون أن يبعد ناظريه عن المذبح الذي ظل مغلفا بالظلام باستثناء الضوء القادم من فتيل مشتعل في مصباح أحمر معلق في السقف، علم كاهن الأبرشية أن الكنيسة وراءه كانت تعج مرة أخرى بجماعة المصلين الذين جاؤوا لينضموا إليه... حتى يتمكنوا كلهم معا، ربما مرة وإلى الأبد، بصلواتهم من جلب الراحة الأبدية إلى زنوبر وكل محيطها.

بحماسة استمرت تتنامى خلال تلك الليلة الطويلة، تلا دون تيمي مرة بعد مرة الصلاة من جزء التقديس في صلاة القديس مرقس: «*لأرواح هؤلاء جميعا اعط الراحة يا سيدنا*، يا ربنا، *في مساكن قديسيك*، في مملكتك، تعطف عليهم بخيرات وعدك، *ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الخيرات التي أعددتها*، يا سيدي، *لمن يحبون اسمك المقدس*. امنح رحمتك *لأرواحهم*، احسبهم جديرين *بمملكة السماء...*»

.41

قاد برتراند سيارته عائدا بأقصى سرعة. كان الوقت متأخرا جدا، ولحسن الحظ لم يقابلا أي شرطي مرور كان بالتأكيد سيثقلهما بغرامة ضخمة. طوال الوقت الذي استغرقته الرحلة، ظلا صامتين. شاعرة بالهدوء والارتباك معا، تذكرت بوني سياسيا نمساويا ما قاد سيارته بسرعة زائدة، ما أدى إلى عواقب قاتلة. ومع ذلك، لم تقل شيئا. لا يهم كيف فعلها، لكن برغم كل ما شربه من ويسكي وبراندي، تمكن من إعادتهما بأمان إلى المكان الذي بدآ منه. توقف قرب سيارة بوني، إلى جوار مكاتب كويس كوام.

«أستذهبين إلى البيت؟» سألها.

«لمَ لا تأتي معي؟» سألته، عارفة أنه كان يتوقع سؤالها. ولمَ لا؟... حتى لو كانت تشك أنه أراد أن يكون معها لبقية الليل كي يتأكد أنها ستحترم القرار الغريب الذي اتخذاه، أن يبقيا صامتين بشأن الرجل المشنوق الذي اكتشفاه، على الأقل حتى يتم تسجيل الجزء الأول من كويس كوام غدا مساءً.

«طيب، شكرا..» وابتسم. «المعتاد، مكرونة بالريحان؟»

«كيف حدست؟»

هكذا بعد قليل، كانا في حجرة الجلوس بشقتها. كانت مفروشة مثل بقية الحجرات، «بأسلوب بوني» كما اعتاد أصدقاؤها أن يسموه؛

قاصدين بهذا أن ينتقدوها ويسخروا منها، أو هكذا ظنوا. لكنها كانت تتجاهل كل النقد دون تأثر وتستمر في الإصرار على «أسلوبها»، بل والمبالغة فيه، أحيانا عن عمد، كشكل من أشكال التحدي. وكان هذا «الأسلوب» يتجسد ببساطة في جعل كل حائط، وكل قطعة من الأثاث مختلفة في اللون عما يجاورها، وفي كل هذا كانت تختار الألوان الفاتحة فقط. لذا كان بحجرة الجلوس حائط أزرق سماوي، وآخر وردي فاتح، وآخر أبيض مشرب بالرمادي، وحائط رابع أخضر فاتح. وعكست المقاعد ذات الأذرع نفس الارتباك... وكذلك المناضد الصغيرة وقطع الأثاث الأخرى التي كانت عارية من التحف وغيرها من الحليات، وتكونت من مشغل أسطوانات مدمجة، وتليفزيون، وبار للمشروبات. كانت كل الحجرات الباقية، من حجرة النوم إلى المطبخ، مصممة بنفس الأسلوب، وهو ما جعل برتراند يقول لبوني إنه كلما تصادف وجاء لزيارتها، كان يحس كأنه دخل الجانب الأفتح من قوس قزح، مع اختلاف أنه في قوس قزح تنتظم الألوان بترتيب متسق، بينما بذلت بوني قصارى جهدها كي تضع كل شيء وفقا لأفضل مبادئ الفوضى.

لكن بعد قضاء بعض الوقت في هذه البيئة، يصبح المرء معتادا على فكرة أنه ربما في هذه الفوضى كانت بوني تتبع مبدأ نظام ما لا يمكن لغيرها فهمه. ويمكن للآخرين تحديد هذا المبدأ دون جهد كبير فقط لو فهموا المنطق الذي كانت تتخذ به قراراتها. وسيشعرون أنهم محاطون بشرنقة تعزلهم عن العالم الخارجي، وكأنهم تقريبا دخلوا إلى ديزني لاند مصغرة مصممة للكبار، أو كأنهم تلقوا دعوة لا يمكنهم رفضها كي يشعروا أنهم أصغر من سنهم الحقيقي. وعندما سأل أحدهم بوني لماذا لم توسع من مجال اختياراتها للألوان لتشمل الدرجات اللونية الأغمق، ضحكت في وجهه وهتفت متعجبة: هل تظنني حمقاء؟ وهو ما دل على أن النظام لا الفوضى كان هو المرشد للقرارات التي كانت تتخذها.

وهنا الليلة، ورغم أن برتراند كان يعرف جيدا كيف صُممت الشقة، إلا أنه بدا وهو يعاين تأثيرها كأنه يراها لأول مرة. ووجهه الذي اكتسب خلال الأيام القليلة الماضية نظرة متصلبة انبسط الآن وهو ينظر حوله.

ذهبا إلى المطبخ. «أتشرب شيئا؟»

«نبيذ أبيض، هل لديكِ؟»

«يوجد مما شربته عندما كنت هنا آخر مرة. مازال موجودا. أنت تعرف مكانه..» قالت له. «افتح هذا.»

فعل كما قالت له. «ألن تشربي شيئا؟»

«ليس الآن. لقد تناولت من الويسكي والبراندي أكثر من اللازم.»

«أنت من بدأت حفلنا الليلة..» وضحك. كانت ضحكة مرهقة، وهو ما أثار استمتاعها.

توقعت منه، كما هي العادة، أن يعرض عليها المساعدة في تحضير الطعام، حتى لو كانت دائما ما ترد عليه بأن هذا ليس ضروريا. لكنه لم يعرض. بعد ذلك وعندما كان كل شيء جاهزا: المكرونة في انتظار الماء كي يغلي، وطبق الريحان في موضعه، والجبن مقطع في صحن كبير، نظر أحدهما إلى الآخر عبر سطح المائدة الأزرق الباهت. «ما شعورك عن الغد؟ هل من مشاكل؟» سألته مبتسمة.

«لو كانت هناك مشاكل، لا أستطيع أن أراها.»

هزت رأسها. «إذًا هل سنحصل على أعلى نسب مشاهدة؟»

«بلا جدال! كويس كوام شيء بديع! كويس كوام فقط للجميع!»

كان هذا هو الشعار الساخر الذي اعتاد فريقهم على ترديده كمزحة

في الأيام الأخيرة عندما يقتربون من موعد بث مميز، أو عندما يتوقعون عن حق واقتدار أن يفوزوا بالجائزة الأولى للمسابقات الوطنية المقامة لاختيار أفضل البرامج التليفزيونية في البلاد. لكنهم هذه المرة، ومنذ بدأوا الكدح في حقل الإسخريوطي، بدا أنهم نسوا الشعار. ربما حدث هذا لأنهم عملوا جميعا بسرعة شديدة للحاق بالجدول الزمني الضيق بجنون الذي ألزمهم به برتراند لأسباب خاصة به ولا يمكنها سبر أغوارها.

«كنت أفكر في ترك كويس كوام في الموسم القادم..» قالت. «أود أن أجد شيئا آخر أفعله.»

«ولماذا؟» سألها، وهو يتذوق النبيذ بحرص. «هل تريدين كسب المزيد من النقود؟ هل تفكرين في الذهاب إلى النرويج والتحضير لنيل درجة الدكتوراه؟ أتودين الزواج وإنجاب خمسة أطفال؟ أم أنك تخططين لإنجاب خمسة أطفال دون زواج؟»

ذهبت لتأتي بالملاعق والشوكات والمغرفة من درجها. عادة بعد جملة مثل التي قالتها منذ قليل، عندما يكون الاثنان قد شربا مثلما فعلا الليلة، كان يرد بطريقة مختلفة. كان يقول: ولمَ لا تغادرين وكفى! بالتأكيد سنجد عاهرة أفضل! وبينما كانت تعد المائدة، قالت: «لا، أنا أعتقد ببساطة أن الوقت قد حان لفعل شيء جديد.»

«وماذا سيكون هذا؟»

«لم أقرر بعد. ألا تشعر بأنك في حاجة للتغيير؟»

«لا، أشعر حاليا أني في خير حال كما أنا، أفعل ما أفعله.»

«تقصد... تفعل ماذا؟»

«التواصل... لكن هل أنت فعلا في مزاج يسمح ببعض الفلسفة الليلة يا بوني؟ حسن جدا. فلنتفلسف إذًا... ما نحن؟ ألسنا منتجات مصنوعة من لحم ودم... تسعى دائما وراء المتعة؟ كي نرى كيف يمكننا أن نركب أحدنا فوق الآخر أو داخل الآخر أو نأكل من وراء أحدنا الآخر... عندما لا يأكل أحدنا الآخر...؟ هكذا نسعى وراء الجنس، ها!... ونسعى وراء المال، ها!... ونعم! نريد بالطبع أن نضع هذا المال في جيوبنا، وإلا فما الجدوى؟... وتركبين فوق أحدهم أو داخل أحدهم... بالتواصل مع من يحيطون بك... عندما تمررين خبرا لأحدهم، أو الأهم من ذلك، عندما تمنحين أحدهم موقفا، طريقة تفكير، أو الأفضل من ذلك، عندما تقدمين رأيا لأحدهم هذا، لأنه أو لأنها لا تعرف أو لا يعرف كيف يفكر. وعندئذ تقولين له، لها، ما يجب التفكير فيه وكيف... نعم، أحب ما أفعله. في الماضي، اعتادت منتجات اللحم والدم التي على شاكلتنا أن تركب إحداها فوق الأخرى أو داخلها عن طريق الحرب والنهب والاغتصاب... عن طريق الغزو... أما في أيامنا هذه، فقد أصبح المجتمع أكثر تحضرا.... يمكنك السيطرة على عقول الآخرين بما تجعلينهم يروه ويسمعوه. نعم! تسيطرين على عقولهم بتلك الطريقة ولا تحتاجين إلى كل هذا السفك المقرف للدماء!... ناهيك عن حقيقة أنك لو كنت ذكية بما يكفي، ستضعين نفسك في موضع يمكنك منه كسب ما شئت من مال، عبر علاقاتك أو مساعديك، أو بالتحايل واللف والدوران، وغير ذلك مما لا أعرفه. لا، لم أتعب بعد من هذه اللعبة.»

«المكرونة جاهزة..» أعلنت الخبر، بعد أن فحصت القدر المغلي. وعندما لم يأت كالعادة إلى جوارها سألته: «هل يمكنك أن تمسك المصفاة؟»

«دعيني أمسك القدر بدلا من ذلك..» قال وهو يقترب.

دُهشت. في العادة كان سيقول إن القدر يبدأ ثقيلا وينتهي خاليا، لذلك فإن من يمسك المصفاة هو من يقوم بالمهمة الأصعب، ليس أقلها ما يتحمله من بخار متصاعد. ومع ذلك لم تجادله في هذه النقطة، خشية أن تتعجن المكرونة.

كان الطعام ممتازا، اتفق كلاهما على ذلك وهما يأكلان. تناولت بوني كأسا من النبيذ. أما هو فكان في الكأس الثالث. ظلت تلاحظ الأشياء التي تغيرت في سلوكه. هل كان صحيحا أنه بدا يأكل أسرع من المعتاد بكثير، دون أن يأخذ وقتا كافيا كي يتذوق الطعام، كشخص مازال يذكر أوقات تضور فيها جوعا وصار بحاجة إلى أن يأكل في عجالة، قبل أن يؤخذ الطعام بعيدا عنه...؟ لكنها بالتأكيد أطلقت العنان لخيالها. لقد سمحت للبروفيسورين بالتأثير المفرط عليها بنظرياتهما الغرائبية، وتركت خوفا ماكرا يغزو المزيد من لحظاتها الواعية.

أدرك أنها كانت تراقبه، لكنه تظاهر بالعكس. وأدركت أنه أدرك ما كانت تفعله، لكنها تظاهرت بالعكس. على أي حال، فقد اجتازا بعض الطقوس المعقدة جدا، ليس لأول مرة... لكنهما لم يتماديا في اللعبة أبدا كما تماديا تلك الليلة. ولا يمكن القول إنهما أضجرا بعضهما البعض. في الحقيقة ورغم انتباههما للعبة المراقبة التي كانا يلعبانها، إلا أنهما استمتعا فعلا بصحبة أحدهما الآخر. من الصعب تحديد إن كانت هذه هي أكثر مرة استمتعا فيها بالبقاء معا، رغم أنهما طوال الوقت ظل فيما قالاه وفعلاه وعي قوي بكونهما خاضعين لفحص متبادل...

«»أتعرفين ما يمكن أن نناقشه من أجل المستقبل؟» سألها في لحظة ما. «أن تشتري مجموعة أسهم صغيرة... في كويس كوام... أو يمكن أن تكون حصة كبيرة.»

ضحكت ضحكة مرحة. «لكن سيكون عليك أولا أن تخبرني من

هم المساهمون الآخرون في كويس كوام.» وعندما لم يرد، لم تستطع التوقف عن إغاظته. «هيا، هيا! قل لي!»

غيَّر الموضوع.

في لحظة أخرى كانت هي من قالت: «بالنسبة للغد... عندما نكون في مختبر ديلينجر...»

«هه، ماذا عن الغد...؟» إذا كان حريصا طوال الوقت حول ما يقوله، فقد أصبح الآن فجأة أكثر حرصا على هذا. وبدت غضون صغيرة تتجمع حول ذقنه.

«هذه الاختبارات التي سيجريها ديلينجر ووالي أحمد... هل تأخذها على محمل الجد؟»

«اختبارات؟ كيف تعرفين أنه ستكون هناك اختبارات...؟ بالطريقة التي تقولينها بها، تجعلين الأمر يبدو وكأني مصاب بمرض في القلب أو بسرطان...»

«أيا كانت... اختبارات أو غيرها... كيف تراها؟»

«هذان الاثنان معنا في مشروع يخصنا... لذا لا شيء هناك لنفعله... يجب علينا حاليا أن نفعل كما يقولان لنا. لاحقا... سنرى...»

كان يكذب. كان ينظر حوله وحولها بلا مبالاة كبيرة كأنه لم يعد يراها. أحست بوني أن هناك جزءا منه كان خائفا، خائفا جدا. وفجأة فقدت كل اهتمامها بجعله يكشف ما كان يدور في عقله فعلا. غدا... لكن من يبالي بالغد؟... وغيرت الموضوع. واختفت الغضون من فوق ذقنه.

لم يشيرا قط ولو مرة واحدة للرجل الميت الذي وجداه معلقا بحلق

مشقوق، في قبو منزل آل تونًّا الريفي.

شربا مزيدا من النبيذ وسط فاصل راقص من الأحضان والقبلات والعناق، كانا قد مارساه عدة مرات من قبل، والذي بدا بالنسبة لكليهما اليوم وقد أصبح خبرة مختلفة، خبرة غير معتادة، بل غريبة، وهو ما جعلها أكثر حرارة بكثير، وربما أكثر إثارة بكثير – لولا أن تأثيراتها كانت تتقوض إلى حد ما بالإدراك الصحيح الذي كانا يتشاركاه... أنهما كانا يراقبان أحدهما الآخر عن كثب، هي كي تقيس إلى أي حد تغير برتراند فعلا، وهو كي يفهم المدى الذي وصلت إليه بوني حقا في إخفاء ما تعلمه عنه...

من ناحية أخرى، ربما جاءت الشكوك التي قامت بينهما لتجعل إثارتهما لكونهما معا واستمتاع أحدهما بالآخر أقوى وليس أضعف... ومع ذلك، كانت بوني مازالت بحاجة للانفراد بنفسها كي تتناول مجموعة صغيرة منتقاة من الأقراص الليلية من العلبة التي تحتفظ بها أحيانا في الحمَّام، وأحيانا في خزانة المطبخ. كان يعرف جيدا حجرة النوم التي أخذته إليها... رغم أنها بدت له الليلة وكأنها جديدة، ولم يكن هناك من سبب كي تبدو بهذه الطريقة، لأنها كانت بالضبط كما يتذكرها... نفس الألوان المدخنة الفاتحة، التي تتناقض مع بعضها البعض وفق نموذج غير واضح، من الحائط إلى مقعد الزينة إلى هيكل السرير إلى خزانة الملابس... إلى بلاط الأرضية المنبسط تحت قدميك في خليط واسع من الألوان... كلها فاتحة...

على أي حال، هذا وصف كافٍ.

وقد فعلوا ما كان عليهم أن يفعلوه وما أرادوا أن يفعلوه.

لكن في هذا، مرة أخرى: ربما شعرت بوني بالإثارة، لكنها ظلت

تراقب لتكتشف التغيرات في سلوكه. وأكثر منها لاحظ هو كل حركاتها ليفهم كيف يمكن أن تخدعه... لكن لماذا كانت تفعل هذا، هو ما لم يعرفه. أخيرا، عندما تدخل النوم ليفرق بينهما إلى الأبد، أدارت ظهرها له كما كانت تفعل دائما، وهذه المرة... هكذا شعر... كان كما لو أنها تفعل هذا لأن هذا ما تفعله دائما مع رجل التقطته لأول أو لآخر مرة لتأخذ متعتها معه في أسرع وقت، ولم يكن هذا يشكل فارقا بطريقة أو بأخرى... وهو ربما كان صحيحا... أما عن الباقي... تلك التأملات المرتبكة غير الواضحة التي ساطته حتى وصل إلى حالة من الغضب الغريب والصامت، حتى وهو يضيع في ضبابات النوم التي تجمعت حوله.

مرة أخرى، حلم أنه على ظهر مركب شراعي كبير، يمخر عباب بحر زمرديّ، مندفعا يشق أمواجا تصطخب متوجة بزبد أبيض. لكنه لم يستطع أن يفهم أين كان يقف على هذه السفينة بينما تنطلق مسرعة في اتجاه الأفق. وعلى جانبيّ الممر الخشبي، كان العبيد يجدفون يائسين بكل قوتهم، محاربين الأمواج. كان السيد المشرف عليهم يجلدهم بسوطه الجلدي بشراسة على ظهورهم. أين كان هو، برتراند، في كل هذا؟ أم أنه كان يسير هنا وكأنه السيد... الأميرال القائد للمركب؟ وأين كانت بوني...؟

صحا غارقا في عرق ساخن. كانت بوني مازالت توليه ظهرها، وهي تتنفس بعمق وهدوء. كانت الحجرة مظلمة لكنه استطاع أن يرى... خارج النافذة، فقط نصف متوارٍ خلف ستار... نفس ضوء القمر الذي كان موجودا فوق حقل الإسخريوطي. نهض من الفراش، وارتدى ملابسه وغادر الحجرة.

رغم أن شقة بوني كانت غارقة في الظلام، إلا أنه كان يعرفها جيدا بما

يكفي لأن يذهب إلى المطبخ دون أن يصطدم بمقعد ما أو مزهرية من يدري أي لون فاتح كان لهما، تلك الأشياء الموضوعة بشكل استراتيجي كي يتعثر فيها المرء ويحطمها قطعا على الأرض بمجرد أن يحف بها. لا يعرف لمَ بالضبط جاء إلى المطبخ، بدلا من مغادرة البيت. أضاء النور. كان ألق الألوان الفاتحة التي بسطتها بوني في كل مكان يبدو باعثا على الارتياح. كان قد صحا شاعرا بصداع وشرب كوبا من الماء. وعلى اللوح الزجاجي الذي يغلق الخزانة التي تحتوي الأكواب والأطباق الخزفية – في إحداها، من يعلم أيها، كانت بوني تخزن أقراصها – ارتسم انعكاس مبهم لوجهه. لكن الغضون عليه لم تكن مبهمة. بدت جبهته ووجنتاه وكأنها حُرثت لتمتلئ بأخاديد عميقة قوية. كانت عيناه غائرتين. والتمعتا بقوة غامضة ما، جاءت من أعمق أعماق كينونته... فتح الدرج الذي كانت تحتفظ فيه بوني بالشوكات وأدوات المائدة الأخرى، واستل سكين مطبخ كبيرا، ولمس حافته ليتأكد أنه مشحوذ جيدا بالفعل. وضع السكين في جيب صدر سترته وغادر.

بعد الفجر بقليل، وجدت بوني من الغريب أنها لم تسمعه وهو ينهض ويغادر. واندهشت أيضا لأنها لم تجد أي زجاج مكسور. لم ينكسر أي شيء... كان برتراند قد تعلم بالفعل كيف يتحكم في القوة الجديدة التي أصبحت لديه فجأة. ولم تلاحظ أن سكين المطبخ الكبير قد اختفى.

.42

رغم أن الوقت تأخر كثيرا، مازال بروفيسور ديلينجر يعمل وحده في مختبره الضخم. القاعة غارقة في صمت عميق، إلا من التكتكة المتواصلة للحواسيب والمعدات الرقمية الأخرى. يخطو ديلينجر من منضدة إلى منضدة، متفحصا تقدم تجاربه ليتأكد أن القراءات المسجلة آمنة وصحيحة. يمكنك أن تراه وهو يغدو أكثر اهتياجا وتوترا، يندفع بين الأركان، مراقبا بأقصى انتباه لديه الخوارزميات المجدولة على شاشة الحاسوب التي يرجع إليها كلما أدرك أن أحد البرامج أصيب بفيروس ما أو أنه معيب، أو عندما تثور مشكلات لم تكن متوقعة بوضوح في مرحلة تصميم التجربة. لكن هذه المشكلات في حد ذاتها تساعد على أن تشعل فيه دافعا أقوى كي يسرع في أبحاثه.

ومع ذلك، تأتي عليه لحظات رغم هذا الحماس الكبير الذي وسم حياته كلها، والذي لم يغادره قط، جاعلا إياه مكرَّسا تماما للتعلم والمعرفة العلمية.... تأتي عليه لحظات يحس فيها بشجاعته تنحسر بعيدا في موجة جزر. رغم التضحيات الهائلة التي قدمها، ورغم تركه لكثير من المتع التي يمكن أن تمنحها الحياة، والتي في الحقيقة بوجودها ذاته تجعل الناس يعتبرون الحياة شيئا رائعا... وقد قام بكل هذه التضحيات ليصل إلى المعرفة، ليصبح أكثر وأكثر معرفة بالحياة... يأتيه شعور بأن هذا كله ضاع سدى. لقد تركه سعيه وراء المعرفة عاجزا عن اكتساب المعرفة المطلقة. بأمانة، هو لا يعرف بعد ماذا يمكن أن تكون هذه المعرفة المطلقة... رغم كل القراءات والدراسات والأبحاث والتجارب التي أُجريت

على مدار أعوام طويلة من الكدح الثابت.

وهكذا الآن يمكننا مراقبته لفترة، وهو جالس إلى مكتبه، وقد سيطر عليه تخوف غير مألوف، والضوء المنبعث من شاشات ثلاثة حواسيب يلقي على وجهه انعكاسات أشكال دائرية وبيضاوية خضراء وحمراء وبيضاء، تخبو وتومض... وهو يتفكر في معنى ونتائج جهوده عبر السنين: «أهذا ما وصلت إليه بعد كل هذا! الفلسفة... والباراسيكولوجي.... وحتى علم الآثار... والطب... بالإضافة إلى اللاهوت كذلك، زائد المعلوماتية... من كل مجال انتزعت أسراره، وفقا لكل استراتيجيات البحث التي يمكن للمرء اختراعها... والآن ها أنا أحمق مسكين، لا أقف على أي حكمة أكثر مما وقفت عليها من قبل.»

لم يعد باستطاعة بروفيسور ديلينجر أن يخفي أكثر من ذلك –ولا حتى عن نفسه– تلك المرارة التي كانت تثقل عليه بكل هذه الحدة. كان يشعر أن حياته فارغة تماما، قاحلة وتافهة، لأنه رغم نشاطه المتواصل، أدرك أنه لم ولن ينجح في تحقيق ما كان يهدف إليه دوما، أي أعلى تركيز ممكن للمعرفة يمكن أن يحققه إنسان واحد وحده.

لقد اعتقد دومًا أنه يقترب أكثر وأكثر من هدفه النهائي، لكنه كلما ظن أنه وصل تقريبا، مرة بعد مرة، يتبين أنه كان يطارد سرابا. إن أهم اكتشافات المعرفة الجديدة مازالت كامنة أمامه وهو بحاجة للقيام بقدر هائل من العمل قبل أن يصل إليها. لذا فإنه يتحرك نحو هذه الوجهة الجديدة التي تلوح من بعيد، مندفعا بقوة كي يصلها سريعا، أو هذا ما يظنه سيحدث، حتى يتغير المنظور كله فجأة ويغدو مضطرا لأن يبدأ كل شيء من جديد مرة أخرى. لقد كان تعطشه للمعرفة قويا جدا حتى أنه كان يدفع نفسه دون أي تردد في أي اتجاه بحثي يعد بفتح معرفي جديد، حتى لو اعتبره زملاؤه – الذين كانوا يرونه معتادا على مناطق بحث معينة – شخصا غريب الأطوار، يشغل نفسه بأمور السحر والشعوذة لا بالعلم...

بالتأكيد، ساعده هذا في تعاملاته مع هؤلاء الذين يُدعون زملاؤه؛ لأنهم كانوا يعتبرونه شخصا يمثل تهديدا قليلا لمستقبلهم المهني الأكاديمي. لذا وبينما هم ينظرون في اتجاه آخر، كان بمقدوره أن يطور أبحاثه الخاصة سرا أو حتى علنا، ويحصل على التمويلات اللازمة لها، دون أن يبذل الآخرون قصارى جهدهم كي يضعوا العراقيل في طريقه...

لكن الليلة كان بروفيسور ديلينجر يحس بإحباط كبير، رغم أن التجارب التي كان يجريها كانت تسير على نحو طيب جدا وتعطي الكثير من النتائج. كان تحليل الدي إن إيه للدم الذي أتى به من حقل الإسخريوطي قد انتهى. وكان الآن بحاجة لانتظار تأكيد النتيجة من جامعة بيركلي، حيث كانوا يجرون نفس الاختبارات. في كل مرة كان فيها يصل إلى الدائرة التي وُضعت فيها الجمجمة ويراقب ما كانت تبثه إلى الحواسيب المحيطة، كان يمكنه التأكيد على أن المعلومات كانت مازالت تسجَّل دون انقطاع، وكلها مترابطة وثمينة للغاية. كان قد أجرى وأعاد مرات كثيرة تحليلا طيفيا للوجه المسجل بكاميرا كويس كوام بعد أن مر ذاك الظل على المذيع التليفزيوني، النائم تحت أشجار الخروب... ودعم التحليل كل الاستنتاجات التي كانت تظهر من الخطوط الأخرى للأبحاث الجارية...

ورغم ذلك، كان بروفيسور ديلينجر قلقا حتى الموت من المشروع برمته. في جلسته بظهر منتصب على مقعده الجلدي في نهاية منضدة طويلة كان يباشر منها كل العمل الجاري، بعينين نصف مغلقتين، ووجه منتفخ بالضوء والظلال والألوان المنعكسة من شاشات الحواسيب، كان يمكن أن يعطي انطباعا بأنه نعس من التعب. كان منتصف الليل قد مر منذ وقت طويل. لكن ديلينجر كان صاحيا.

وبلا ضجة، كظل متحرك، دخل رجل إلى المختبر.

.43

دار بروفيسور ديلينجر ملتفتا في مقعده ليواجه الظل الرشيق للرجل الذي انضم إليه. وسأله: «إذًا كيف سار الأمر مع السيدة الأوكرانية؟»

«كما هو متوقع..» أجابه والي أحمد مبتسما. «وكيف سارت تجاربنا؟»

«أيضا كما هو متوقع. وربما بشكل أكثر من اللازم.»

كشر البروفيسور المصري: «لا أفهم. أكثر من اللازم!»

«تظل الافتراضات التي تبعناها مترابطة مع المعلومات الواردة، باستثناء تطور واحد هام. وعندما يحدث شيء كهذا، أبدأ في الشك أن ثمة مشكلات ثارت وفشلت أنا في ملاحظتها...»

«أشاركك حذرك. ومع ذلك طالما أننا حريصون تماما على ملاحظة أفضل ممارسة متاحة حاليا، وطالما أننا نتخذ كافة الاحتياطات التي ينبغي علينا اتخاذها... فليس هناك من سبب يجعلنا نقلق حيال ما نكتشف. التقدم هو تقدم دائما.»

«بالإضافة إلى...»

جلس والي أحمد أمام ديلينجر وراقبه عن كثب، وكأنه يتساءل إن كان زميله منهكا ومرهقا. وسرعان ما أدرك أن ديلينجر قلق لأسباب أخرى.

«كما تقول، التقدم تقدم..» أكمل ديلينجر، بهزة كتف خفيفة. «يمكننا الآن التأكيد ليس فقط على أن بوتو-رع كان موجودا، بل إن تفاصيل حياته المهنية الاستثنائية كانت كلها تقريبا... كما وصفناها بالضبط. وحياة بوتو-رع انتهت –على الأقل تلك الحياة التي عاشها أثناء مسيرته المهنية ككائن بشري، وليس كروح شريرة– في المكان الذي نرى فيه اليوم تليّ زنوبر. يمكننا أيضا التأكيد على أنه عندما انتحر يهوذا تونًّا في حقل الإسخريوطي، كان يعيد الخلق مرة أخرى ليس فقط لقصة يهوذا الإسخريوطي كما اعتقد الكثيرون أنه يفعل وقتها، بل أيضا لقصة بوتو-رع. وكلما ثار تهديد للتل المرتبط بموت بوتو-رع، فإن هذا القرصان... أو روحه... سيفعل بطريقة ما كل ما في قوته ليتغلب عليه.»

«لا ينبغي أن ننسى أن التلين موضع اهتمامنا... مثل الآخرين... يمثلان أبنية مقدسة لها أعظم الأهمية بالنسبة للفينيقيين وشعوب عصرهم..» رد والي أحمد بصوت منخفض. «تذكَّر أننا أكدنا أيضا أن حياة بوتو-رع تميزت بالكثير من التغير. بقدر ما نعرف فقد بدأ كقبطان لكيميت في وقت كانت بلده فيه مدمرة بالحروب الأهلية التي جاءت واحدة في إثر الأخرى. وعندما وصل مع ون-آمون إلى مدينتيّ صور وصيدا، افتُتن برخائهما وخان ون-آمون كي ينضم إلى الفينيقيين. وهم بدورهم وثقوا فيه لأنه كان محاربا بارزا وكانوا في حاجة إليه. وكانت اقتصاديات صور وصيدا مدعومة بنظام دفاعي قوي قام على أساس من المرتزقة الحاصلين على أجور جيدة... وقد أرسلوه ليؤسس مستعمرتهم الأولى في مركز البحر. وعندما وصل إلى هنا أو إلى صقلية، وجد أن ما يناسبه أكثر هو الانضمام إلى الإتروسكانيين... أو الأفضل أن نقول، الإتروسكانيين الأوائل، الذين كانوا قد استولوا على هذا الجزء من العالم. وقد أكدنا أنه أخيرا، وبعد اضطرابات كبيرة، اجتاح الفينيقيون المنطقة،

وجعلوا بوتو-رع يدفع ثمن خيانته. إنها قصة قاسية، لكن من يعلم كم قصة مثلها حدثت عبر القرون. النقطة المثيرة للاهتمام في الموضوع كله أن بوتو-رع كشخص ربما كان ذهنيا... مضطربا، دعني أستخدم هذه الكلمة... كان لديه اضطراب نفسي ما ظهر جزئيا بالتأكيد لأنه مرة بعد مرة كان بحاجة لتعلم وممارسة عادات مجتمعات مختلفة عن مجتمعه الأصلي.»

«في هذا أعتقد أننا بحاجة إلى الإبقاء على عقل مفتوح. أعترف أني لا أشعر بارتياح كبير حول الطريقة التي يسير بها الأمر.»

«صديقي العزيز..» قال والي أحمد وهو يمرر أصابعه خلال شعره الأسود الممشط بعناية إلى الخلف على رأسه. «أنا لا أفهمك فعلا...»

«دعني أفسر لك ما يقلقني..» قال ديلينجر. ونهض من مكانه ليقود البروفيسور المصري إلى ذلك الجانب من المختبر حيث تدور أشعة الليزر خارجة من جهاز يتحكم فيه صف من الحواسيب، لتعرض صورا للبنايات الفينيقية وفقا للتقارير الوصفية الواردة من الأوراق العلمية التي يجري تداولها عبر الإنترنت من قِبل الباحثين في كل أنحاء العالم. عندما كان برتراند هنا، كانت صورة الليزر تعرض منظرا لحصون تحيط بمدينة قرطاجة القديمة، يجري تحديثها طوال الوقت. أما اليوم، كانت الصورة تعرض متاهة مخفية تحت تل عال.

«هذه هي الصورة التي تظهر على أساس الأبحاث الجديدة القادمة من جامعة بكين. أخيرا بدأوا في نشرها. أنت تعرف كم يعتقد الصينيون أن التلال الأثرية، كهيكل بدائي طوره البشر، بدأت عندهم.»

«أعرف..» قال والي أحمد، وقد ارتعش منخراه باحتقار بارد. «ومع

ذلك، ينبغي على زملائنا الباحثين من كاثاي[26] أن يتقبلوا أنه ليس كل شيء، بالتأكيد ليس كل شيء، نشأ عندهم. هنا، في البحر الأبيض، وكذلك في وادي النيل وفي سهول بلاد ما بين النهرين، قامت ونشطت حضارات عظيمة كحضارتهم.»

«لسنا بحاجة إلى الدخول في هذه الجدالات الحرجة التي لن تؤدي إلى شيء..» أجابه ديلينجر، وصوته يبدو متعبا فعلا. «ما تراه الآن هو النموذج الذي يجري بناؤه في جامعة بكين ليوضح كيف أمكن بناء التلال الأثرية الأولى. نموذجهم نموذج تفاعلي ويتغير وفقا للبيانات الجديدة التي يجري إدخالها، بالضبط مثل النموذج القائم لقرطاجة. وهو نموذج يقوم بتقييم وإعادة تفسير كل المعلومات التي لدينا عن التلال الأثرية. ويعلنها الصينيون واضحة أن المعلومات التي يولونها الثقل الأكبر هي بالفعل تلك الواردة من البحر الأبيض وبلاد ما بين النهرين.»

«هل يعني هذا أنهم أخيرا يعلنون المعلومات التي جمعوها خلال بعثاتهم السرية طوال السنوات الست الماضية؟... والتي لم ينشروا عنها أي نتائج بعد؟»

«بالضبط. نُشر النموذج منذ ست ساعات فقط. وهو يبين أن التلال الأثرية لم تكن مجرد أكوام من النفايات والقمامة ظلت تتراكم طوال القرون... لم يكن مقصودا منها أن تكون هكذا بالتأكيد... كما كنا نرى في النهاية جميعا... لكنها كانت بنايات مصممة لغرض... كمتاهات لتخزين الطعام والأشياء الثمينة... وحيث يمكن دفن الناس.... وهذا منذ تطورها المبكر في العصور الأولى...»

26- كاثاي هو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون في العصور الوسطى على الصين، وبالذات الجزء الشرقي من نهر يانغتسي نقلاً عن ماركو بولو.

«كما في مجتمعات الآزتيك؟» أشار والي أحمد شاعرا بالفضول رغم كونه مرتابا. «لم نأخذ افتراضاتنا إلى هذا المدى.»

«لا، كما يمكنك أن ترى، هذا النموذج ثلاثي الأبعاد. ويجب أن أقول إن كل الأدلة المستخدمة... والوسائل التي يتم التحليل عن طريقها... كلها فعلا مثيرة للإعجاب... يمكنك أن ترى... حتى الآن، هم مازالوا يعيدون تقييم استنتاجاتهم.»

كانت صورة المتاهة المخفية تحت التل قد أصبحت أكثر وضوحا... وركزت بشكل أقرب على تل تشكل مثل هرم منخفض، ثم دخلت التل وبدأت تتبع نفقا امتد أسفله في دائرة، وفي الجوانب كانت هناك قاعات وحجرات كبيرة. وعند نقطة ما، نزلت الصورة من النفق الدائري لتصل إلى أعماق أكثر انخفاضا.

«إلى أين يؤدي هذا النزول؟» تساءل والي أحمد باستياء.

«إلى الأقبية العميقة التي كان يُدفن فيها الموتى.»

بعد ذلك أظهرت الصورة، استجابة للبيانات التي تصلها من صف الحواسيب التي كانت مفتوحة كلها، ما بدا كمخزن ضخم مظلم. ومن خلال العتمة، كان مازال بمقدورهم رؤية أنه بامتداد جدران المخزن، إن كان هذا مخزنا، تكدست طبقات فوق طبقات من أشياء طولية، مكومة إحداها فوق الأخرى من الأرض إلى السقف في صفوف غطت الجدران. حدق البروفيسوران أحدهما في الآخر. لم يكن من الصعب فهم ما كانته هذه الأشياء المكومة فوق بعضها البعض: جثث قديمة محنطة. ومع ذلك لم يكن هذا الاستنتاج الجنائزي هو ما جعلهما مندهشين هكذا.

«لو أن هذا النموذج صحيح..» قال أحمد. «يجب أن نراجع بشدة افتراضاتنا عن تطور التلال الأثرية والبساتين المقدسة للفينيقيين. لم

تُبنَ المقابر والمخازن في المنطقة المحيطة بالبستان، لكن بالضبط تحته، في أبنية نظيرة لما كان الفراعنة يبنونه في كيميت.»

وبينما كان يتكلم، تشكل تتابع جديد للصور. أعلى جدران المخزن (بافتراض أنه مخزن) كانت تضاف طبقة أخرى من هذه الحزم الطولية التي كانت جثثا كما أدركا للتوّ.

«لو أن هذا النموذج صحيح..» قال ديلينجر. «تحت تل زنوبر، لا بد أن هناك متاهة وضريحا لهما نفس الملامح التي نراها الآن.»

«لكننا كنا لنعرف بأمر شيء كهذا. ألم يجرَ مسح طيفي للأرض تحت التل والبستان؟»

«لا..» رد ديلينجر. «اعتبرنا دائما أن هذا التل مثله مثل كل التلال التي استكشفناها حتى الآن.»

«هناك عدد كبير من التلال مازالت غير مفتوحة. وفي النهاية يمكن أن يكون النموذج الصيني دقيقا تماما..» أكمل والي أحمد بعد وقفة طالع خلالها بجبين عابس الشاشة. بدا أنه يتعافى أسرع من زميله من المفاجأة التي سببها هذا الاكتشاف الجديد وغير المتوقع. «لو أن هناك متاهة وقاعة دفن موجودان تحت البستان المقدس في زنوبر...»

«لا يمكن أن تكون هذه أولويتنا حاليا. سنجري غدا صباحا التجربة الباراسيكولوجية على المذيع التليفزيوني!»

«نعم، تلك لها الأولوية الكاملة.»

«في المساء سيكونون مشغولين ببرنامجهم الصبياني كويس كوام... حتى لو توجب علينا أن نشكر الله عليه... فلولاه لما تحرك أي شيء...»

«بعد ذلك إذًا. سندرس ما يمكن أن يكون في أساسات تل زنوبر...»

«هذا ما أقوله أيضا. ومع ذلك... يجب أن نضع شيئا آخر في ذهننا..» أكمل ديلينجر، ببعض التردد في صوته، والذي بدا غريبا عليه؛ هو الذي كان دائما هادئا وحازما. «بما سنفعله، سنفتح نافذة واسعة على ماضٍ لا نعي بالفعل مغزاه بعد. سنعطي الفرصة لشخص منسي من زمن طويل كي يجعل وجوده محسوسا. نحن نعرف أن طيفه عاد للحياة. العواطف والمشاعر والضراوة والغضب وكل هذه الأشياء التي كانت جزءا من هذا الوجود في الماضي... وأنا أشير إلى بوتو-رع... نشطت من جديد.»

بحذر، أومأ أحمد موافقا، وترك ديلينجر ينتهي من نقطته.

«ما نفعله... في سعينا وراء المعرفة العلمية... يمكن أن يعتبره بعض الناس عملا من أعمال السحر.... أعمال الشعوذة.... بينما يمكن أن يعتبره آخرون عملا مضادا للعلم، قائما على الخرافة...»

«لست قلقا من هذا..» أجابه والي أحمد، وبدا بالفعل هادئا تماما. «منذ اللحظة الأولى التي انضممت فيها إلى المشروع العلمي، قررت أن أتبع كل منفذ، كل خيط، كل معلومة صغيرة، حتى أفهم معناها النهائي، مهما أدى بي ذلك. طالما أننا نعمل انطلاقا من حقائق يمكن عرضها وتكرارها بطريقة متماسكة، لا أبالي على الإطلاق إن كنت أدخل مناطق بحث هيمنت عليها حتى الآن الخرافة والأسطورة. طالما أننا نبني على أساس من حقائق يمكن إثباتها والتحقق منها، سنظل مخلصين للمثال العلمي. الحقائق هي الأهم. اعتقدت دائما أنك يا بروفيسور ديلينجر تشاركني نفس المبادئ والمُثل العلمية. لذلك قمنا معا بالكثير من العمل الذي يظل لا نظير له. فلا تقل لي إن لديك الآن أفكارا أخرى.... في هذه اللحظة الحرجة، بعد كل التجارب التي أجريناها طوال السنين الماضية.»

«ومازلنا على اتفاق حول هذه النقطة أيضا. ومع ذلك، فكر في هذا: بوتو-رع: في خلال الساعات القليلة القادمة كل شي يبين أن حضوره من المحتمل أن يغدو أقوى وأكثر نشاطا. ونحن نتكلم عن محارب شرس جدا...»

«أكثر من هذا: رجل ذو نوازع سيكوباتية تمكن من التكيف مع ثلاث حضارات مختلفة لكنه دفع ثمنا غاليا في النهاية؛ إذ تم إعدامه كخائن. رجل معتاد على القتل، في الحقيقة رجل تدرب على القتل، وفعل هذا بإحساس القيادة.»

«نحن نعرف ما حدث في حالة يهوذا تونًّا، منذ أكثر من مائة عام...»

«لكننا نشك فيما يمكن أن يكون قد حدث، لا نعرفه بشكل مؤكد. المسرحية التي وضعها القرويون... وأنا متأكد أنه كانت هناك أنشطة أخرى تحدث لم يتم الكشف عنها... أزعجوا الهدوء الذي سُمح للبستان المقدس بالتمتع به طوال القرون... أزعجوا بوتو-رع... وعندئذ ما كان يجب أن يحدث، حدث... يمكننا فقط الشك في هذا.»

«أنت تتناسى الأب تيمي... قس أبرشية زنوبر. أنا مقتنع أنه يعرف عما يجري أكثر بكثير مما يخبرني به. ووسائله ليست وسائلنا...»

«هو أيضا لا بد أن يعمل من منطلق الحقائق. كل واحدة من البيانات الواردة تؤكد حدوث اضطرابات هائلة في الذكريات الفينيقية القديمة المرتبطة بهذا التل وبحقل الإسخريوطي.»

«مازلنا لا نعرف فعلا... حاليا... ما يزعج بوتو-رع إلى هذا الحد...»

«لا..» أجاب والي أحمد. ولأول مرة بدا قلقا جدا. «لدينا شكوكنا... لكن الأسباب الحقيقية... ليست لدينا.»

«هذا ما ينبغي أن نجلوه..» قال ديلينجر. «نحن في منتصف تجربة تتزايد خطورتها إلى درجة بالغة. هذا الحضور الحي لبوتو-رع معنا والذي أصبح أقوى.. صاعدا من التل عند حقل الإسخريوطي... يمكن أن يجلب معه مشاكل كبرى... كما فعل في الماضي بالنسبة ليهوذا تونًّا... بالفعل يمكنه أن يخلق دمارا أسوأ بكثير...»

«وما هو اقتراحك يا زميلي العزيز؟ أن نوقف كل شيء؟»

«يمكنك الوصول إلى استنتاجاتك الخاصة..» أجابه ديلينجر بابتسامة قد تكون خبيثة أو متخوفة، كابتسامة رجل فهم أن ما يقوله يتعارض مع كل الأفكار التي دافع عنها دائما.

في الطرف الآخر من المختبر، ثار صفير موقَّع، قادم من دائرة أشعة الليزر التي أحاطت بالجمجمة.

أشاح ديلينجر بيده ليشير إلى أن هذه كانت أصواتا روتينية. ثم قال: «نحن نواجه معضلات كل هؤلاء الباحثين عن الحقيقة. نعتبر أنه حتى لو كان الماضي يتلاشى، إلا أنه مازال بمقدوره أن يقدم نموذجا قد يتكرر في المستقبل. ونعتقد أن بإمكاننا تحسين ما فشل في الماضي، أن نجعله مازال صالحا مرة أخرى. ومع ذلك، نحن نعرض أحداثا لا يمكن تصورها مسبقا...» وأشار نحو المختبر حيث خيم الصمت الذي كان موجودا منذ قليل كالدثار مغطيا كل الأركان.

«لهذه الأسباب أيضا، يا زميلي العزيز، أعتقد أننا بوصولنا إلى هذا الحد، ينبغي علينا أن نكمل. بنفس القدر مثلك، أدرك المجازفات... الأخطار بالأحرى... فيما نحاول أن نفعله، حتى لو لم ندركها منذ البداية. لكن بما أننا تقدمنا إلى هذا الحد، يجب أن نكمل.»

«فليكن..» رد ديلينجر بحزم.

بدا أنه لم يبق شيء للمناقشة في الوقت الحالي.

«كم بقي من الوقت حتى الفجر؟» تساءل والي أحمد. «بعد هذا النقاش... وبعد الفتاة الأوكرانية... من الأفضل أن أرتاح قليلا. أمازال لديك عمل تقوم به؟»

أومأ ديلينجر برأسه. «إذا كنت لا تريد العودة إلى الفندق..»

«كل ما أحتاج إليه هو أن أغفو لساعة أو اثنتين.»

«في هذه الحالة إذا لم يكن لديك مانع، لديّ مكان يمكنك النوم فيه.»

لم يكن لدى والي أحمد أي مانع، بل إنه كان ممتنا جدا على هذا العرض. قاده ديلينجر إلى الطرف العميق من المختبر، على اليسار، فتح بابًا وأدخله ما بدا أشبه بشقة صغيرة بها سرير وخزانة ملابس في جانب، وحمَّام صغير به دُش في الجانب الآخر. «تركني كارميليتو أرتب أمر هذا عندما أدرك أني أنام كثيرا هنا أو أقضي الليالي في هذا المكان..» أوضح ديلينجر. «كان تقديره أنه بهذه الطريقة يمكنه توفير أجر حارس ليلي، والذي كان على أي حال سيتهرب من العمل.»

أزاح والي أحمد الستائر عن النافذة الضيقة فوق الفراش. «لكن من المؤكد أن كل هذه المباني في الصباح الباكر ستعج بالنشاط من المحاضرين الواصلين إلى مكاتبهم وبالطلبة..»

«نم براحتك..» طمأنه ديلينجر. «خلال اليوم، نادرا ما يأتي طاقم المحاضرين إلى تلك المباني، لأنهم يكونون مشغولين في أماكن أخرى بعملهم الاحترافي والاستشاري. وكثيرا ما يتغيب الطلبة بحجة أن محاضراتهم أُلغيت. لن يوقظك أحد.»

وترك ديلينجر صديقه ليأخذ قسطه من الراحة وعاد إلى المختبر. كان الليل يقترب من نهايته. وسرعان ما سيأتي الفجر.

.44

هناك في بيته، شرب برتراند الكثير من القهوة بينما كان يقرأ ويعيد قراءة مسودة السيناريو الخاص بتسجيل كويس كوام هذا المساء. لم تكن لديه مشكلة في فهم مسار الموضوعات المخطط للبرنامج. كانت النقاط التي ناقشها واتفق عليها مع بوني معروضة بشكل جيد. بقليل من الضغط على ذاكرته، يمكنه الآن رسم خريطة في ذهنه للطريقة التي سيتحرك بها من موضوع إلى موضوع بشكل طبيعي. بالتأكيد لن يحتاج إلى الرجوع كثيرا إلى ملاحظاته. حتى لو لم يُصنَّف البرنامج كعمل مميز، سيشعر بالرضا لأنه سيندرج على الأقل في المستويات المميزة لكويس كوام.

وفي لحظة ما بينما كان يدرس السيناريو، جاءت المكالمة الهاتفية المنتظرة: «كل شيء جاهز.... كما هو متفق. سيتأكد الأمر قبل الواحدة بعد الظهر أو بعدها بقليل. سأتصل.»

«تمام..» رد المذيع التليفزيوني وعاد إلى أوراقه.

في لحظة أخرى، اتصلت فلورا بيتا لوكا أيضا. وكما هو الحال دائما، بدت في قمة الحيوية، رغم أن الوقت كان مازال مبكرا جدا. وبينما تتحدث، مر صوتها بكل الدرجات النغمية الحلوة والمُرَّة، طائفا بسلم موسيقي امتد من أصوات ثلاثة عصافير زينة أو أكثر تغرد ببهجة أحدها للآخر، إلى الغمغمة القاسية لبومة تثقب بمنقارها صدر آخر فأر حقول اصطادته. ربما كان خطأ برتراند أن سألها إن كانت أنهت العمل

الذي كلفها به بروفيسور أحمد. أو ربما كانت مازالت غارقة أكثر من اللازم في ذكريات أحدث مغامراتها.

«بالطبع جرى تنفيذ العمل وفقا لتوجيهات البروفيسور. في المعهد الوطني للثقافة هذا ما نعتبره أهم مقوماتنا... إرادة الاستمرار في المحاولة، لضمان أن ما نقدمه مصاغ فعلا وفق أعلى جودة. لا يهم إن كان في النهاية لم يظهر بروفيسور أحمد حتى ليرى ما قمنا به ويهنئنا على الأقل! لا أعرف من سيدفع ثمن إقامته لكن لو كنا نحن من سنفعل هذا... إذًا أعتقد أننا خُدعنا، كي أقول لك الحقيقة كاملة. عندما يعود السيد مالكولم أوروري، سأحيطه علما، يمكنك أن تراهن على هذا... نعم! اتصل بي في وقت متأخر ليلة الأمس... وقال إنه قد يعود غدا أو بعد غد... سنرى! بيني وبينك، يمكننا العمل بدونه، شكرا جزيلا. أعتقد أنني أدير المكان بشكل جيد جدا دون وجوده. حتى لوري قال هذا.»

«من؟»

«لوري. أنت تعرفه! قال إنك تعرفه جيدا.» كان برتراند مازال تائها. «السيد لورينتي مانيسكالكو، واحد من أصحاب الرُتب الكبيرة في قيادة البلد، كما أقر بنفسه وكما أدركت عندما سمعته يتكلم بهذا الصوت المنغَّم الذي يمتلكه، وهو شيء مفيد جدا للقيادة. مكتبه متخصص في الأمن القومي... اعتبرها نعمة أن لدينا أناسا مثله في هذه الأوقات، التي يأتي فيها كل فلان وعلان من خارج البلاد ليعيش هنا... أخبرني أنك تعرفه جيدا. ودعني أخبرك أنه تحدث عنك بكلمات مديح... هيهي!... لا تناسبك إطلاقا (وهنا انطلقت في ضحكة شقية ربما ذكرت سامعها بدندنة عصفور كناريا...) لكن على أي حال، لم أقل شيئا، فقط تركته يمدحك. اتصل بعد ظهر الأمس، ألم أخبرك بهذا؟ وجاء لزيارتي في مكتبي وكان لطيفا للغاية وطيبا للغاية حتى أنه دعاني إلى العشاء

في نفس المساء. لم أجد الشجاعة كي أرفض. طبعا كانت مشكلة أن أقوم بالترتيب للأمر خلال هذا الوقت القصير لكني تمكنت. ذهبنا إلى (بوفاتًّا)؛ ذلك المطعم الجديد أسفل حصون سنجليا... ويجب أن أقول إنه كان مبهجا جدا. كان لوري مهتما بمعرفة معلومات عن عدد من الموضوعات... من ضمنها السيد مالكولم أوروري، أتصدق هذا؟ قال إن لديه تقديرا عظيما له ولم يكن يعرف أنه في صقلية. حكيت له عن كل العمل الذي أنا مضطرة للقيام به بدلا منه. وفي نفس الوقت، يبلي المعرض الفينيقي بلاء حسنا. ليس بفضل والي أحمد ذاك، أتعرف؟ أنا فقط لا أستطيع أن أفهم لماذا أتينا بهذا الشخص! أتعرف من جاء إلى ذلك المطعم الذي أخذني إليه لوري؟ والي أحمد، ذلك هو، مع امرأة أجنبية... لا أعرف كيف يسمحون لهن بالقدوم والعيش بين ظهرانينا، هؤلاء!... وهي قبيحة كخيال المآتة... لم يرني ولم أذهب إليه أو أتحدث معه، بالطبع لا!... ويكأن!... لكني انتهزت الفرصة لأشير للوري عليه، لوري الذي –هل يمكنك أن تتخيل؟– كان قد سألني عنه بالفعل، نعم، عن والي أحمد عندما جاء لزيارتي في مكتبي! أخبرته بكل ما أعرفه، ولمَ لا؟ ألا يعمل للدفاع عن البلد؟ من الجيد أن يعرف من نأتي به من البقاع الأجنبية هذه الأيام، ولا يمكنك أن تثق بأي شخص! ألا توافقني أني تصرفت جيدا؟...»

كانت فلورا لتستمر في الثرثرة، لو لم يستأذن برتراند منها ويقطع حديثها بسبب ما لديه من عمل كثير، طالبا منها أن تبلغ تحياته إلى ساندر وخريستو.

في مكتب كويس كوام، وجد المذيع التليفزيوني الجميع مشغولين. كان العمل يسير بما يستحق من عناية وانتباه. وقد تلاشى الخوف الذي ساد منذ بضعة أيام أن كل شيء على وشك الانهيار. كان هاردهيد سعيدا جدا، ليس أقله لأن الإعلانات كانت تتدفق. صحيح أن المعدلات

كانت أقل مما يود، لكن في النهاية لا يمكنك في العالم الواقعي أن تنتظر من كل شيء أن يأتي على هواك. طمأنت بوني كذلك برتراند أنه فيما يتعلق بعملها، لم تكن هناك أي عقبات. كان مزاجها أقل تفاؤلا من مزاج هاردهيد وكانت على وجهها نظرة منقبضة، رغم الابتسامة التي أبقتها على شفتيها. برتراند الذي كان يعرفها أكثر من الباقين أدرك أن ابتسامتها اليوم كانت هي النسخة المصطنعة من الابتسامة التي كانت لتبتسمها عندما تشعر بالسعادة فعلا. من يدري إن كانت قد تناولت مجموعة الأقراص غير المناسبة للحالة المزاجية التي استيقظت بها...؟

في تلك الأثناء، كان جيانينو يراجع مرة أخرى الترتيبات التقنية الخاصة بالإضاءة والميكروفونات والكاميرات ليتأكد من أنها جاهزة؛ وقريبا منه على منضدة العمل الخاصة به كيس ورقي مليء بكعك الجبن. كانت لديه شهية مفتوحة تليق بشخص خال من الهموم... ولم يشر فعليا إلى مشاكله مع دونًا. كانت تلك علامة أخرى أنه كان راضيا أيضا عن مجريات الأمور. تقريبا لم يكن هناك صوت يُسمع من المكان الذي جلس فيه بوريس، مائلا على حاسوبه. في العمل، وليست تلك هي المرة الأولى، كان يبدو عليه أنه يعيش في عالم آخر.

ذهب هاردهيد إليه. «مازلت مستعدا لهذه الظهيرة، صحيح؟»

«ألم نتفق على هذا؟» رد الشاب، دون أن يبعد عينيه عن الشاشة.

«وجوني ديب؟»

«أحاول الوصول إليه منذ ليلة الأمس لكني لم أستطع.»

.45

«هناك ذلك الموعد مع البروفيسورين..» ذكَّرت بوني المذيع التليفزيوني.

وجدا عذرا لمغادرة مكاتب كويس كوام وقاد برتراند سيارته إلى الجامعة ومختبر ديلينجر. كان التوتر الذي يشعران به ملموسا. وكما حدث ليلة الأمس عندما عادا من زنوبر، لم يتبادلا تقريبا أي كلمة طوال الطريق. بمعجزة، وجد المذيع التليفزيوني مكانا لصف سيارته قريبا من مختبر ديلينجر. كان الجو جميلا ومعتدلا، والسماء زرقاء صافية وضوء الشمس يجعل كل مكان يبدو بهيجا. ستكون الظروف الجوية مثالية لتسجيل كويس كوام هذا المساء، وهو الانتصار الذي ادعاه برتراند عدة مرات وهما سائران. خلال اجتماعات العمل، كان الآخرون قد انتقدوا الفكرة التي ظل مصرا عليها، بتسجيل البرنامج من حقل الإسخريوطي. حيث رأى البعض أن المرء لا يمكنه أن يثق بالجو بعد؛ بما أن الوقت كان مازال في بداية العام.

من بين أبنية الكلية، اقترب هيكل رجل طويل نحيل، يتحرك مهتزا إلى الأمام. عرفاه من على بُعد – الأب تيمي. أما هو فقد استغرق وقتا أطول ليلاحظهما.

«كيف حالك أيها الأب؟» تساءل المذيع التليفزيوني بحماس عرفت بوني أنه زائف. كان يريد فقط أن يعرف ما الذي أتى بالكاهن إلى هنا هذا الصباح.

كان الأب تيمي يحمل مجلدا كبيرا، مغلفا بالبلاستيك. «في المكتبة هنا، وصلتهم للتوّ نسخة قديمة ونادرة من دراسة كلاسيكية عن العلاقة بين تعاليم القديس أوغسطين، وجريجوري ثاوماتورجوس، وترتليان. صحيح أن هذه الدراسة قائمة على تفسير لوثري، لكنها تملك أشياء كثيرة منطقية. اعتقدت أنه من الأفضل أن آتي مبكرا لاستعارتها قبل أن يكون هناك الكثيرون ممن يريدون الحصول عليها لدرجة أن أضطر للانتظار عامين قبل أن أتمكن من قرائتها بنفسي.»

«صحيح، هه! هل هناك كثير من الناس المهتمين بترتليان وجريجوري... ماذا قلت كان اسمه؟» هتف برتراند بسخرية بليدة. «لكن ألم يكن بمقدورك أن تُحمّل الكتاب في نسخة بي دي إف من جوجل؟»

«لم أعرف أنك خبير في الآباء المقدسين..» قالت بوني. «في مقابلتنا معك لم تذكر أي شيء عن هذا.»

ابتسم الأب تيمي ابتسامة خبيثة وخجولة بعض الشيء. «يجب أن تفهمي! لم أستطع إخباركم بكل شيء عن نفسي! ومع ذلك فيما يتعلق بالاتصالات العامة، وكذلك أجرؤ أن أقول عن وسائل الإعلام الحديثة، لدى الآباء المقدسين والكُتاب الآخرين في زمنهم الكثير كي يعلمونا إياه. تذكري أن جزءا كبيرا من تعاليمهم يتكون من البلاغة والخطابة. ومازلت لم أفقد الأمل أن يوما ما... سيرسلون إليّ كي أدير لجنة الاتصالات مرة أخرى... أو أيا كان ما سيحل محلها عندما يُرد اعتباري...»

«لكن هل يمكنني المراهنة أنك لم تأت إلى هنا فقط بسبب هذا الكتاب؟» قال برتراند. كانت نبرته عدائية وخشنة، حتى أنها أفزعت بوني. «أراهن بما أنك كنت هنا، فقد ذهبت أيضا لزيارة صديقنا الطبيب بروفيسور ديلينجر... وأنه كان لديك شيء ما لتخبره إياه...»

لفترة وسط ذلك الزخم من الطقس الجميل الذي خيم على الحرم الجامعي كله، حدق ثلاثتهم في بعضهم البعض، ساكنين إلا من تململ وارتجاج دون تيمي بلا انقطاع. «في الحقيقة، أنت على حق..» قال الكاهن أخيرا. «بما أني كنت في الجوار، قلت لماذا لا أزوره وأخبره بآخر الأحداث في زنوبر؟»

«ماذا حدث إذًا؟» تدخلت بوني.

«منذ جئتم إلى هناك..» قال الأب تيمي وهو يبدو كمن يلتقط أنفاسه. «وأنا أعرف أن البروفيسور ديلينجر هو من أرسلكم... والقرية في اضطراب عظيم.»

«أو ربما..» قال برتراند وهو مازال في مزاجه العدواني. «حدث هذا منذ قرر المعهد الوطني للثقافة إقامة معرض عن الفينيقيين...»

«كما لو لم يكن بروفيسور ديلينجر هو من دفع السيد مالكولم أوروري كي ينظم ذلك المعرض..» أجابه الأب تيمي. رغم ضوء الشمس والهواء المعتدل لذلك اليوم الجميل واللذين كانا يحيطان بهم من جميع الجهات، أحست بوني بالبرد إلى جوار هذا الرجل الذي كان يرتعش بهذه الطريقة والذي كان في قبضة اللدغ والوخز والخدش أو غير ذلك من أحاسيس الاحتكاك التي كان يحس بها طوال الوقت في أحشائه. ظلت عينا القس السوداوان الكبيرتان تحدقان فيهما. «حذرته من أنه عندما ترفع حجرا صلبا لتحركه من حيث وُضع لسنوات طويلة، ستزعج كل هذه الموجودات التي لجأت تحته لعدد من القرون من يدري كم كان عددها. ولن يعجبها ذلك...»

«أوه، لم أعرف أنكما تحدثتما معا بهذه الطريقة..» قال المذيع التليفزيوني، منزعجا.

«مبكرا هذا الصباح..» أكمل دون تيمي «بعد الفجر بقليل، جاء رجلان ليتحدثا معي عن زنوبر... عن حقل الإسخريوطي... عما تفعلونه هناك أنتم في كويس كوام... عن ديلينجر وبروفيسور والي أحمد...»

«من كانا؟»

«لم يريدا أن يقولا. ومع ذلك أحضرا معهما خطابا موقعا من السلطة العليا جدا... مكتوبة بخط يده... أنت تعرف من أقصد... لن أذكر اسمه لأني أعرف كيف تعملون أنتم يا أهل الإعلام... لقد قضيت وقتا كنت فيه كواحد منكم... ولن أندهش لو عرفت أنكما تحملان ميكروفونات وكاميرات مخبأة. على أي حال، عندما رأيت هذه المذكرة المكتوبة... وبهذا التوقيع... لم أستطع أن أقول لهما إني غير مستعد للرد على أسئلتهما. في النهاية، النهاية نفسها، هناك حد للمدى الذي يمكنك عنده... باسم الحقيقة... أن تستمر في الرفض... حيث يجب أن ترفض... طلبات هؤلاء الذين يمتلكون السلطة، والمستعدين لاستخدامها، كي يسيئوا استخدام فضيلة الطاعة... وتلك جريمة غالبا ما يرتكبها هؤلاء الذين لديهم حق الطاعة الصحيحة، وليس هؤلاء الذين لديهم واجب الطاعة...! وسألاني أيضا عن الإخوة تونًّا... وبيتهم الريفي. أذهبتما لزيارتهم بالأمس؟»

«نعم، ذهبنا..» أجابه برتراند.

«وماذا قال لك بروفيسور ديلينجر؟» سألته بوني بعد فترة.

«قال لي إنه لا شيء يحدث ضد قوانين البشر والله. لذلك أخبرني أن أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، إذا كنت مازلت أؤمن به.»

«لكن ما علاقة هذا بــ...؟» نخرت بوني.

«قلت لهما نفس الشيء، لأنه كان معه ذلك الغريب الذي وصل أول أمس... لكنه لم يرد أن يزيد عن هذا.»

لم يصدقه برتراند ولا بوني. أدركا أنه كان يكذب ولم يتمكنا من فهم لماذا كان يفعل هذا. ومع ذلك، كانا في عجلة من أمرهما، فودعا الأب تيمي وكانا على وشك أن يغادراه.

«أنتما ذاهبان للقائهما، هل أنا على حق؟» تساءل كاهن أبرشية زنوبر قبل أن تتفرق بهم السبل.

لم يردا.

كان مازال يحدق في أثرهما. «لحظة واحدة..» قال، تقريبا كما لو أنه يخنق صرخة بداخله. وكان عليهما أن يتوقفا. «استمعا إليّ... خذا نصيحتي... أقدمها إليكما بإخلاص عظيم... الليلة... لا تذهبا إلى أي مكان قريب من حقل الإسخريوطي أو زنوبر... أقول هذا لصالحكما... وصالح كل من هم أعزاء لديكما.» حدقا فيه فقط. «لم يعد الأمر لعبة... مثلما هو الحال في عرض تليفزيوني... إنه يغدو شيئا أكثر خطورة بكثير... وأنتما الاثنان في خطر، خطر عظيم...» كان مازال ينظر إليهما نظرة رجل معذب ظل مستيقظا لأيام متواصلة. وعندما أدرك أنهما سيظلان ينظران إليه بثبات دون رد، لم يعد لديه ما يقوله، فالتفت ومضى.

والآن بعد أن صارا وحيدين معا، قالت بوني: «كان يتصيد المعلومات... محاولا أن يرى إن كنا نعلم شيئا عن تلك الجثة... بحلقها المشقوق... في بيت آل تونّا...»

كانت تلك هي المرة الأولى التي يُذكر فيها الرجل الميت بينهما منذ اكتشافه لأول مرة. ظل برتراند يسير، وكأنه لم يسمع ما قالته.

.46

عند دخول مختبر بروفيسور ديلينجر، مكثت بوني عاجزة عن النطق. قابلتهما هناك تكتكة المعدات الرقمية الدائرة بالحد الأقصى من المخرجات... طنين الأجهزة الموجهة لأشعة الليزر... دمدمة الأبراج الحاسوبية التي كانت تعمل منذ أسابيع متواصلة دون توقف... دقات عدادت الوقت الكبيرة والصغيرة المتناثرة فوق مناضد طويلة وواطئة مدهونة باللون الأبيض... أسلاك تتلوى كالثعابين من الأرضية إلى المناضد ومؤخرات الحواسيب وتهبط مرة أخرى إلى الأرضية... شاشات تتعاقب عليها لوالب بيضاء وخطوط متقاطعة موسومة بكل ألوان الطيف... تيار هواء بارد صناعي يتدفق من مكيفات الهواء التي كانت تهدر لساعات طويلة كي تقلل الحرارة التي ولَّدتها كل الماكينات الموجودة في القاعة... مصابيح كهربية حمراء وخضراء تومض هنا وهناك لتشير إلى ناتج هذه التجربة أو تلك... ضوء نيون أبيض قادم من السقف ويغطي المساحة بكاملها، تتخله أنوار خفيفة صفراء ورمادية غامقة تلقيها مصابيح مخفية، كانت لسبب غامض ما تسكب ضوءا مصفرا في أنابيب تمتد إلى معدات تئز، أو بمحاذاة شاشة ما تعرض تتابعا كاملا من الألوان الملتفة في دوائر وحول نفسها....

عندما دخلا، اقترب رجلان يرتديان معطفين أبيضين طويلين قادمين من الطرف العميق للقاعة. استغرق الأمر من بوني ثانية أو اثنتين كي تتعرف فيهما على هيكلي ديلينجر ووالي أحمد.

رغم أن وجهيهما حملا ابتسامتين واسعتين، إلا أنها شعرت بالتهديد من حضورهما وهما يوسعان الخطى نحوها هي وبرتراند... نعم: «التهديد» كلمة قوية جدا؛ لكن هذا ما شعرت به فعلا. الآن، كانوا يتصافحون جميعا... وقادهم ديلينجر إلى مائدة مربعة حولها مقاعد، وامتلأ سطحها تماما بالأوراق والوثائق. بعد الابتسامات الأولى، اكتسى وجهه بالتجهم. بدا مسلكه كشخص يحاول القيام بمهمة عمل بأكبر كفاءة ممكنة. استطاعت بوني بالكاد أن تتعرف في والي أحمد على الفتى اللعوب الأنيق الذي قابلته منذ يومين. فبهذا المعطف الأبيض الذي كان مقاسه أصغر بكثير منه، بدا جادا ومشغول البال، وكأنه على وشك القيام بمهمة معقدة وصعبة بعد الكثير من التخطيط والإعداد. عندما صافحها، بدا وكأنه يلتقيها للمرة الأولى. جلس الأربعة حول المائدة.

«من الطيب أنكما وصلتما في الموعد..» قال ديلينجر. «لأن لدينا الكثير كي نناقشه ونفعله.»

«ربما كان من الأفضل لو أجلنا هذا اللقاء حتى الغد، عندما نكون قد انتهينا من تسجيل كويس كوام..» رد برتراند.

«تأجيل ما يجب أن نناقشه كان سيغدو فكرة سيئة، خاصةً بعد التحليلات والمعلومات الأخيرة التي تلقيناها..» أكمل ديلينجر، وهو مازال متجهما جدا.

«ومع ذلك يجب أن أفترض أنه لم يطرأ شيء يمكن أن يغير ما سنقوله ونعرضه هذا المساء في كويس كوام؟» تساءل المذيع التليفزيوني، وفي صوته مسحة من قلق. شاء أم أبى، كان متأثرا من سلوك الرجلين الذي غلبت عليه المهابة والوقار.

«لا، لا أعتقد هذا.»

«إذًا لمَ لا تبدأ بأن تخبرنا ما الذي تتوقعه منا؟»

«ألن يكون من الأفضل لو أبلغناكما أولا بنتائج التحليل الذي تم على الدم الذي عُثر عليه فوق كيس النوم الذي استخدمته بالأمس في البستان المقدس بزنوبر؟»

«آه، صحيح! لقد نسيت أمر ذلك الدم!» رد برتراند. وأحس الموجودون أن ضحكته الزائفة غير مقنعة. «وهل هذا ما نطلقه على أشجار الخروب في حقل الإسخريوطي... البستان المقدس؟»

«لا شك في هذا..» تدخل والي أحمد. «يصدف أن هذا المكان يُعتبر واحدا من أقدس البقاع لدى الفينيقيين الأوائل. والتل الموجود وراء البستان هو بناء يمكن أن يكون ذا عون كبير لنا في فهم كيف نجح الفينيقيون في اختراق هذه المنطقة من البحر المتوسط وإقامة مستعمراتهم العظيمة.»

«كلنا آذان صاغية.»

من بين فوضى الأوراق والملفات والوثائق المتناثرة على المائدة، التقط ديلينجر مظروفا ضخما وأخرج منه قطعة عريضة من النسيج. «اضطررنا إلى تقطيع كيس نومك لكي نقوم باختبارات الدم اللازمة..» أوضح. «آسف لأننا أتلفناها عليك، لكن لم تكن هناك أي طريقة أفضل للقيام بالاختبارات كما يجب. العينات التي أخذناها بالأمس في الموقع لم تكن كافية. ربما يمكنني إقناع كارميليتو كي يوافق على صرف مبلغ يمكننا منه شراء واحدة أخرى لك.»

«دعني أؤكد لك أني لا أشعر بالرغبة في الانتحار لأني فقدتها..» واساه برتراند. وكان سيضيف شيئا آخر بتلك النغمة الساخرة التي كانت لتناسب الموقف، لكنه بقي صامتا عندما وضع ديلينجر قطعة النسيج

على الأوراق والمواد الأخرى المنتشرة أمامه. ظهرت بقعة ضخمة جافة تغطي كل النسيج تقريبا.

«كما يمكنكما أن تريا، لم تكن هناك قطرة دم أو اثنتان...»

«لست بحاجة كي تقول لي هذا..» قاطعته بوني، وعيناها مثبتتان على البقعة. «عندما وجدت الدم، كان مازال سميكا ونديا.»

مرر والي بعض الأوراق إلى ديلينجر الذي فتحها. «لدينا هنا نتائج التحليلين الأول والثاني اللذين أجريناهما على عينات الدم... وقد راجعنا نتائجنا بأخذ عينات أخرى من الدي إن إيه والخلايا المطابقة من كل قطاعات هذه البقعة. أعيد بناؤها رقميا وأرسلناها إلى مركز بحوث الطب الشرعي بجامعة بيركلي في كاليفورنيا وإلى معهد باستور في باريس. ووصلت نتائجهما مبكرا هذا الصباح وكانت مشابهة لنتائجنا مائة في المائة، واعتمدت كل هذه النتائج على أساس الفحوصات الرقمية وكذلك الوسائل الطيفية. أول ما ينبغي أن أخبركما به هو: هذا الدم بشري.»

قاطعه برتراند بشراسة: «أنا بشري، وكنت في كيس النوم ذاك وبقدر ما يمكنني أن أقول، أنا مازلت حيا.»

«كنت سأقول إن الدم لم يأت من شخص واحد فقط لكن بالتأكيد من شخصين.»

وهنا تجمد المذيع التليفزيوني وبوني، حتى انفجر برتراند غاضبا: «والآن ستقول لي إنه بينما كنت نائما تحت أشجار الخروب، ممتلئا بنبيذ البارولو، مات رجلان أو قُتلا إلى جواري تماما وترك لي كل واحد منهما سطلا من دمه... كتذكار!»

تجاهل ديلينجر هذه الهبَّة. «لست بحاجة لأن أخبركما أنه مع

تحليل الدي إن إيه والتحاليل الأخرى التي أجريناها، من السهل تحديد كيف يمكن أن تأتي عينة دم من شخص أو آخر. لا توجد أي طريقة لإلقاء أي شك على استنتاج أن الدم الذي عُثر عليه جاء من مصدرين بشريين مختلفين. والآن كما لا بد أنكما تعرفان، في البنية الجينية للدم البشري... وكذلك في دم الحيوانات والكائنات الحية الأخرى التي مازالت موجودة... حدثت تغيرات بمرور مئات وآلاف وملايين السنين... كانت تغيرات طفيفية في الغالب، ودقيقة جدا... بالضبط كما يحدث في شجرة، تنمو الحلقات داخل الجذع... لكن لو أخذناها كلها معا، هذه التغيرات تشكل العالم الحي الذي يحيط بنا اليوم. حتى زمن قريب، كان أفضل قياس مستخدم في علم الآثار لمعرفة كم مر من زمن على عينة ما، توفره خلية الكربون إذ تتفكك وتضمحل... وهذا هو التأريخ بالكربون المشع. لكن الآن تغدو هذه الوسيلة من مخلفات الدهر، وأنا أتفق مع هذا! فحيث أمكن إعادة بناء عينات عضوية، يعطينا القياس الجيني، متمثلا في الدي إن إيه، تسلسلا زمنيا أدق بكثير وأصح فيما يتعلق بقدم أو حداثة عينة ما. في تحليل فصيلتيّ الدم اللتين حددناهما، تعاملنا أيضا مع هذا الجانب.»

«و...؟» تساءلت بوني بانتباه.

كان برتراند مازال يفيض احتقارا من حوله. «أيها السادة، يبدو أننا دخلنا الآن منطقة (الحديقة الجوراسية)..» قال بابتسامة مغتصبة. ومرة أخرى تجاهله الآخرون. فهموا أنه تحت مظهر البجاحة، كان مهتزا تماما من الأخبار التي سمعها. أشار ديلينجر إلى البروفيسور المصري كي يكمل العرض الموجز.

«كلا التحليلين اللذين أجرى إحداهما بروفيسور ديلينجر وتلقى الآخر من معهديّ الأبحاث اللذين ذكرناهما..» قال والي أحمد. «يصلان

إلى استنتاج أن الدم يأتي أولا من رجل عاش في وقت ما بين الأعوام 1200 إلى 800 قبل الحقبة العامة، وثانيا من رجل عاش منذ مائة وأربعين إلى مائة عام مضت.»

«وما هذه الحقبة العامة؟» احتج برتراند. «ما الفترة التي نتحدث عنها؟»

«يقولون إن إحدى عينات الدم جاءت من شخص عاش في السنوات من 1200 إلى 900 قبل الميلاد..» تدخلت بوني. كانت غطرسة المذيع التليفزيوني قد أثارت غيظها.

«في ظل ظروف صعبة جدا بالنسبة لي، حيث أعيش في مجتمع به أصولية دينية قوية للغاية، حافظت على شعور بالالتزام نحو أسلوب... منهج... علماني... وسأظل محافظا على هذا..» قال والي أحمد بصلابة. «لذلك يؤلمني عندما أجيء إلى بلد رسخت فيه القيم الأوروبية بقوة، أن أواجَه بطرق تفكير هي... أيا كان ما تود أن تقول... نعم هي... قائمة بقوة على مبادئ الأصولية الدينية...»

سارع ديلينجر كي يمنع هذه المسألة من عرقلة الأجندة المحددة للاجتماع. مثله مثل بوني، كان قد بدأ يشك في أن المذيع التليفزيوني يرغب في إجهاض تجربتهم. ولاحظ كيف كان برتراند يستعد لأن يصبح غاضبا جدا من رد أحمد ووجد من الغريب أن والي بدا على وشك السقوط في الفخ. «يا أصدقائي..» قال. «لقد أثرتما مسألة مهمة جدا ذات طبيعة ثقافية وإثنية، وهي ماذا تكون أفضل وسيلة نصف بها التسلسل الزمني التاريخي والتاريخي الأوَّلي. ومع ذلك، لا يمكننا الدخول فيها الآن. سيكون من الأفضل لو أجَّلناها إلى وقت لاحق، وربما يمكن لرفيقنا برتراند... في تاريخ ما ليس في المستقبل البعيد... أن يخصص حلقة من برنامج كويس كوام للمرجعيات الأورو-آرامية التي تحدد العولمة.

(قال ديلينجر هذا بابتسامة دبلوماسية لم تكن تناسبه)... لكني دعوني أكرر: اليوم دعونا نركز على أساسيات هذا اللقاء.»

بمجرد أن جرى منع الهجوم المضلل الذي استهدف برتراند به... أو ربما استهدف... أن يعوق اللقاء... عادوا مرة أخرى للنظر في دلالات ما ذكره البروفيسوران للتو.

قالت بوني: «أنتما تعرفان لمن هذا الدم...»

«لدينا شكوكنا، وهي شكوك لها أساس قوي..» قال والي أحمد بحذر.

«أحدهما هو يهوذا تونًّا، الذي ترتبط قصته كما تعرفان بحقل الإسخريوطي. لقد زارنا للتو قس أبرشية زنوبر. وأحضر معه بقايا الضمادات والقطن الملطخ بدم يهوذا تونًّا. كانت قد تُركت مع إقرار كتابي سري ما، عندما انتهت مأساة هذا الرجل المسكين. وبقايا الدم القديم تشابه من جميع الجوانب الدم الموجود على كيس الدم.»

تبادل برتراند وبوني النظرات والإشارات: مرة أخرى، لم يخبرهما الأب تيمي بكل شيء. «ومن كان الشخص الثاني الذي اختار أن يترك لي عينات من دمه بهذه الطريقة الغريبة؟» تساءل المذيع التليفزيوني بفظاظة.

«بوتو-رع، الذي ذكرته لك عددا من المرات..» أجابه ديلينجر وكان هادئا جدا. «المغامر الحربي الشرس وعديم المبادئ القادم من مصر والذي قُتل أيضا في حقل الإسخريوطي... بنفس الأسلوب البشع الذي قُتل به يهوذا تونًّا. ومع ذلك أنا لست خبيرا به، بل بروفيسور والي أحمد.»

«كنت أتتبع لسنوات المسار المهني لبوتو-رع من البقايا التي

مازالت لدينا من عصره..» قال أحمد. «جرى إعدام بوتو-رع وفقا لهذه الطريقة: شُنق من رقبته على فرع شجرة خروب، وأعطاه الفينيقيون الوقت الكافي كي يقطع حلقه، وعندما لم يفعل هذا قطعوه له.»

في صمت، نظر برتراند إلى العالمين بابتسامة باردة محتقرة. كان قد بدأ الآن يصاب بالملل من هذه الشعوذة، وزاد من شعوره ذاك معرفته أنه كان ينبغي به الآن أن يركز، كما كان يفعل دائما في مثل هذا الوقت، على ما سيقوله وكيف سيؤدي في التسجيل الوشيك لكويس كوام.

لكن بوني كانت مازالت غير قادرة على تقبل الأمر. «كيف تتوقعان مني أن نصدق... حكايات ربات البيوت العجائز... الغريبة... تلك؟ نحن نعيش في القرن الحادي والعشرين... ونحن نعرف أن قصص الأشباح هي ببساطة طريقة لإمضاء الوقت في التليفزيون. وهم يعرضونها في مسلسلات تُكتب عن عمد لملء الفجوات ما بين برنامج مسابقات وبرنامج آخر عن أشخاص يقضون شهورا كاملة يعيشون معا في بيت ريفي.»

«هي لا تشير بأي شكل من الأشكال إلى كويس كوام..» تدخل المذيع التليفزيوني ساخرا.

«نحن فقط نقدم لكما هنا استنتاجاتنا كعلماء..» رد بروفيسور أحمد بصبر وتواضع مستحيلين. فهم الثلاثة الآخرون كيف كان يجد من الصعب عليه فعلا أن يُخضع نفسه لهذا الانتقاد من أشخاص لا يحملون أدنى مبالاة بأهمية الموضوع الذي شغله لزمن طويل والذي ربما أصبح همه العلمي الأساسي في حياته.

طوال الوقت وهم يتحدثون، كانت الأضواء تتحول وأصوات الطنين تنتشر عبر المختبر. كانت تقدم دليلا إضافيا على الجهد المكثف

المبذول في هذا الملجأ المشيد والمحفوظ لإنتاج التجارب والقياسات. هكذا كانت الحقيقة العلمية تُستخرج من الخبرة اليومية للناس الذين لا يفهمون حقيقةً أهمية ما يعيشونه.

«الحقائق مقدسة..» تدخل ديلينجر. «لا يهم من أين تأتي، ولا يهم ما هي. تظل مقدسة حتى عندما لا يمكن تفسيرها وفقا لمبادئ فيزياء نيوتن...»

«أو الأصح، فيزياء إينشتاين...» أصر والي أحمد.

«بالضبط..» أجابه ديلينجر والتفت إلى الاثنين الآخرين. «قولا لنا، ماذا تريدانا أن نفعل؟ إذا كانت الحقائق التي نكتشفها لا يمكن تفسيرها وفقا للمخططات العلمية الراسخة حاليا، ماذا ينبغي أن نفعل؟ نتجاهل الحقائق؟ هل ينبغي أن نقول إنها غير موجودة؟»

«وماذا ينبغي علينا نحن أن نفعل؟» تساءل برتراند وقد أوضحت نغمة صوته أنه لا يرغب إطلاقا أن يدخل في جدالات لن تؤدي إلى شيء. كان يريد ببساطة أن يتخلص من الالتزامات التي تورط فيها بشكل ما مع ديلينجر. ستكون هذه هي نهاية الأمر.

«دعونا نجري التجربة الباراسيكولوجية التي ذكرناها بالفعل... وهي تتكون من محاكاة حوارية في إطار اللغويات التاريخية وفقا لأحدث التقنيات الرقمية... وهذا هو كل شيء... يمكننا البدء فورا.»

«لحظة واحدة..» قالت بوني، وأشاحت بوجهها بعيدا عن برتراند الذي كان كما عرفت يراقبها منتبها كالصقر. «هناك شيء واحد لم تناقشوه بعد. عما حدث خلال الليل تحت أشجار الخروب... أقصد، في البستان المقدس. عما حدث في الفيلم... عندما ظهر الظل...»

بدا البروفيسوران متجهمين وهما ينصتان إليها. بالفعل كانا محبطين جدا لأنها أثارت هذا الموضوع. وعلى الفور أدركت أنه موضوع كانا يفضلان تجنبه وقررت أن تصر عليه. قال والي أحمد إنهما لا يملكان شيئا يمكنهما به تحليل الصور التي ظهرت في الفيلم وكل ما كان بمقدورهما أن يفعلاه هو أن يطرحا «افتراضات». وقال ديلينجر إنه إذا كان من الضروري قول الحقيقة كاملة، فإنه كان يصمم برامج رقمية لتحليل الفيلم كاملا، لكنه مازال لم يجد الوقت والموارد لإدخالها في حواسيبه؛ وأن هذا سيتطلب أسبوعين آخرين. ونتيجة لهذا، كما أكمل والي أحمد، كل ما يمكنهما فعله حاليا هو مجرد اقتراح نظريات وفرضيات لم يمكن بحثها بعد. لكن بوني أصرت أن تعرف رأيهما. ماذا تقول نظرياتهما لتفسير ما حدث عندما كان برتراند نائما ومر الظل فوقه وتغير وجهه...؟ أدركت أنها تضغط عليهما أكثر من اللازم... وعرفا مثلما عرفت، أنها تثير مسألة هامة جدا، لكن في هذه المرحلة كانا يتمنيان تجاهلها. في صمت، راقب برتراند زميلته وهي تجادل البروفيسورين حتى اعترفا أن لديها حقا.

في هذه الأثناء، ظلت الحواسيب التي تحيط بهم في نشاطها المستمر. واستمرت أشعة الليزر والأرقام واللوالب الملتوية على كل الشاشات المتناثرة عبر هذا المكان الخفي داخل دوائر الجامعة، الذي كان يحكمه بروفيسور ديلينجر.

«بما أنك مصرة إلى هذا الحد...» قال ديلينجر، وهو يلقي نظرة سريعة نحو زميله. «سأخبرك برأينا المعتقد... كفرضية... رأيي ورأي زميلي وصديقي... عن ذلك الظل الذي يبدو أننا رأيناه على الشاشة.»

«لحظة واحدة..» قاطعه برتراند. «أنت تتحدث عما 'يبدو أننا رأيناه' على الشاشة. هل تقصد أن تقول إن ما رأيناه لم يحدث حقيقةً لكن

سجلته الكاميرات و...»

«زميلي لا يقول شيئا من هذا القبيل..» قال والي أحمد، باستياء واضح الآن. «هو يناقش ما جاء في مجال انتباهنا، أي الصور التي رأيناها في الفيلم، وحولها يمكننا أن نقدم تقييما، رأيا، افتراضا، حسنٌ يمكنك أن تسميه كما تشاء. نحن هنا لنفكر في الحقائق... الحقائق كما نعرفها، لا كما قد تفسَّر كما هي. حتى لو لاحقا، نحن نقدم تفسيرنا لمعنى هذه الحقائق.»

أخاف هذا بوني، لكن ليس لفترة طويلة.

إلى أن أبقت فمها مغلقا، تمكن ديلينجر من تقديم رأيه. من الواضح أنه كان ينتقي كلماته بأقصى حذر ممكن. «كما أوضح بروفيسور أحمد للتوّ، الفيلم الذي رأيناه بالصور التي به، يمكن أن يكون متوافقا مع الفرضية التالية التي سأشرحها، وهي مجرد فرضية...! نظرية! إذا شئتما.... وأكرر، هي ليست حقيقة! إذًا: كانت هناك قوة مادية خرجت من حضور موجود في الحقل أثناء تسجيل الفيلم. هذا الحضور مرتبط بوجود، بحياة وموت بوتو-رع، منذ حوالي ثلاثة آلاف عام. اقتربت هذه القوة من صديقنا هنا بينما كان نائما لتتخلل سلوكه وحياته.»

كان البروفيسوران قد توقعا ما سيحدث. بغضب عنيف نهض برتراند منتفضا من مكانه. «هذا أكثر من اللازم!» انفجر قائلا. «لقد تجاوزت هذه القصة المدى! كل ما كنا نريد تقديمه، نحن في كويس كوام، كان حلقة مسلية ستأتي لنا بالمال! إلى أي شيء تريدان أن تحولاني؟ زومبي؟ مصاص دماء؟ بازوزو[27] آخر؟ طيب، فهمت...! لقد فات أوان

27- بازوزو هو شيطان في أساطير بلاد الرافدين يركب الريح الساخنة الآتية من الصحراء بحثا عن الماء، له رأس شيطان وأجنحة نسر وجسم إنسان، وأطراف أسد وذيل عقرب.

الشعوذات منذ زمن طويل!»

«نحن لم نثر الموضوع..» أجابه ديلينجر ببرود. لم تكن لديه أي رغبة في الانغماس في أي أداءات مسرحية، خاصةً بعد الوقت الطويل الذي أمضاه ليلة الأمس مفكرا بتفصيل مضنٍ في كيفية إدارة هذه التجربة الخطيرة التي بدأوها، وإلى أين يمكن أًن تنتهي. «دعني أؤكد لك أني على الأقل لا أملك أي مصلحة في إضاعة الوقت حول الشعوذات.»

في هذه اللحظة بالضبط، بدأت الماكينة الضخمة، التي كانت تطن باستمرار أثناء تدوير أشعة الليزر التي تعرض صورا افتراضية للمباني القديمة التي يدرسها ديلينجر، في إصدار صافرات قصيرة مكررة.

«هل كنت تتوقع هذا؟» تساءل والي أحمد.

«نعم ولا..» رد ديلينجر، وهو ينهض. التفت إلى بوني وبرتراند المتحفزين. «فلتأتيا لتريا كيف نعمل..» قال مقترحا.

ذهبوا جميعا إلى الماكينة التي كانت مازالت تصدر صفيرا في إثر الآخر، كسفينة تبحر عبر الضباب. توقفوا أمام جزء من المختبر كان مغلقا بمناضد طويلة. هنا كانت الأضواء كابية حيث بدا أن مرشحات وُضعت حول مصابيح النيون الأسطوانية. على المناضد، كانت بطاريات حواسيب وأجهزة عرض ليزر وُضعت لتوليد صورة ثلاثية الأبعاد في مركز المساحة بالضبط.

«جئتَ إلى هنا منذ بضعة أيام..» قال ديلينجر، وكأنه يتباسط مع برتراند ويساعده على نسيان ثورته منذ قليل. «أريتك كيف كان نموذج الليزر يعرض التحصينات حول قرطاجة، وكيف يتغير طوال الوقت وفقا للنتائج المستقاة من الحقائق المكتشفة من علماء في كل أنحاء العالم. في هذين اليومين الأخيرين، حولت البرنامج إلى الأبحاث التي

تُجرى على التلال الأثرية، أي الأبنية المشابهة للتل الموجود في زنوبر، والتي يمكن أن توجد حول العالم. بالتأكيد وصلت للتو بعض المعلومات الجديدة حول هذا الموضوع من مركز بحثي كبير، ولا بد أنها ستغير الطريقة التي نعيد بها بناء هياكل التلال، على أساس البقايا التي يجري اكتشافها.»

«وهو معهد سان بطرسبرج للدراسات المتقدمة في العصر البرونزي..» أعلن والي أحمد من وراء برج حاسوبي. «لقد نشروا أخيرا... منذ نصف ساعة... نتائجهم حول الحفائر التي أجروها على التلال في مولدوفا والشيشان.»

«ماذا تعتقد؟»

«استنتاجاتهم تعزز النموذج الجديد الذي تجري صياغته للتلال.»

«أتقصد نموذج بكين؟» سأله ديلينجر.

ومع ذلك، ولأسباب لم يستطع الآخران فهمها، بدا والي أحمد ممتعضا.

شاهدوا كيف أن صورة الأنفاق التي بُنيت وفق نموذج التلال المبتكر في بكين، كانت تتغير وفقا للمعلومات الجديدة الواردة من روسيا. وقدم ديلينجر لبرتراند وبوني شرحا تفصيليا لما كانت تعرضه الشاشات.

«اعذراني، لكننا في كويس كوام لم نتلق أي إشارة حول كل هذا، صحيح؟» تساءل برتراند قلقا. «أنتما تقولان إنه تحت التلال وحقل الإسخريوطي، يمكن أن تكون هناك أنفاق مثل تلك التي نراها على الشاشة، والتي لا يعرف أي أحد أمرها. وسنذهب إلى هناك الليلة ولن نقول أي شيء على الإطلاق عن هذا؟»

كان يلعب دور الغبي. مثل كل هؤلاء المتورطين في هذه الحادثة –

والتي في النهاية لم تكن حادثة على الإطلاق، بل قصة رعب تراجيدية– كان المذيع التليفزيوني يخفي عن الآخرين ما كان يعرفه وما كان يشك فيه. قطعا لم يكن ليكشف الحقيقة كلها.

.47

أخيرا كان عليهم أن يقرروا: هل سيجري برتراند الاختبارات التي جاء إلى هنا من أجلها؟ طرح ديلينجر عليه السؤال مباشرةً. تردد المذيع التليفزيوني، والتفت إلى بوني طلبا للمساعدة. لكنها لم تقدم له شيئا، وفي الحقيقة أشاحت بوجهها بعيدا. كان لا بد أن يكون القرار صادرا عنه وعنه فقط. «نحن مضغوطون بالنسبة للوقت..» تمتم. «مازلت بحاجة إلى الذهاب والتحضير لبرنامج الليلة.»

«كل ما نحتاجه نصف ساعة، أو خمسة وأربعون دقيقة..» ناشده والي أحمد برقة.

أومأ المذيع التليفزيوني موافقا، ومثل سمكتيّ قرش قريبتين من فريستهما، وخوفا من أن يغير رأيه، اندفع البروفيسوران ليقوداه إلى قسم آخر من المختبر، مساحة محاطة أيضا بمناضد مغطاة بالحواسيب وأجهزة العرض وكذلك الأسلاك... أسلاك في المكان كله، متشابكة على الأرض كلها، ومتلوية أسفل المناضد لتربط الحواسيب... وفي منتصف هذا القسم، كانت الجمجمة مازالت متصلة بمجموعة الأجهزة كلها عن طريق زردية مرت من فوق قحف الجمجمة وإلى أسفل من الجانبين داخل الثقبين اللذين كانا ذات يوم، على جانبيّ وجه كوجهك ووجهي، أذنين. بسرعة شديدة أنزل ديلينجر الجمجمة –التي لا بد أنها كانت ذات يوم رأس يهوذا تونًّا– وأزال الأسلاك التي تم إدخالها فيها، وأزاح الركيزة التي كانت تبقيها في مكانها، وأعد مقعدا بمعدات جديدة كان

قد جهزها، حتى وهو يدعو برتراند للجلوس على المقعد الذي وضعه في المكان الذي كانت الجمجمة مرفوعة فيه على قضيب.

فجأة أصبح المذيع التليفزيوني متخوفا ومترددا – وهو ما كان لا يمت بصلة لأسلوبه المعتاد. رأت بوني أنه يبدو كصبي صغير يقال له كيف يتصرف في المدرسة، ووجدته لذيذا بعض الشيء. كان قد نسي غضبه تماما. وهذا التغير في مزاجه أسعد البروفيسورين جدا وجعلهما يهرعان لبدء التجربة. حول رأسه وعلى أذنيه وضعا جهازا متصلا بسلك دقيق جدا إلى الحواسيب الموجودة على جانبيه.

«والآن أنتما لن تقوما بتنويمي مغناطيسيا أو تخديري؟»

«لا، لا، بالطبع لا..» طمأنه ديلينجر. «سنقوم فقط بتسجيل الموجات فوق المغناطيسية والعصبية المنبعثة من مشابك مخك العصبية. لن يكون هناك أي تدخل في أي شأن خاص بك، أيا كان. لكنك محق في إثارتك المسألة. نحن نفترض أنه خلال الاثنتي عشرة ساعة الأخيرة لم تتناول إممم.... أقصد إمممم... أي مادة... إممم....»

«لا، لم ألمس أي شيء مما يدور بخلدك..» أجابه برتراند. «لكن بينما تقومان بهذا الإجراء، ماذا سأفعل؟ هل يمكنني أن أقرأ شيئا؟»

«نعم، لمَ لا؟ طالما أنها ليست مادة مثيرة أكثر من اللازم. مثلا لا شيء إباحي، ها! ها! ها!» أجابه ديلينجر، لكنه سرعان ما أصبح محرجا من مزحته البائسة. «ماذا أحضرت معك؟»

«لا شيء! هل لديك واحدة من تلك المجلات التي يوزعونها مع جرائد الأحد؟»

متوترا بعض الشيء، قطب ديلينجر، ومضى إلى ركن بعيد من

المختبر، ونبش داخل خزانة مكدسة بالكتب والمقالات المصورة والدوريات. بدت أشبه بمفارقة تاريخية في هذا المكان المكرس للتطور الرقمي. وعاد بمجلة قديمة ناولها للمذيع التليفزيوني. «هذا ما وجدت..» قال «إنه العدد الأخير من مجلة (الماركسية اليوم) بتاريخ يناير 1992 وقصة الغلاف تحمل عنوان (النهاية)... قد تكون هذه شيئا جيدا بما يكفي لمساعدتك على قضاء الوقت...»

ضحك برتراند، رغم أنه كان مازال يبدو مترددا ومتخوفا. «عال! عال! منذ زمن بعيد، كنت مشتركا في هذه المجلة..» قال. «من أين أتيت بهذا العدد؟»

وهكذا، بسرعة كبيرة، بدأ البروفيسوران تجربتهما. قادا بوني إلى جانب شاشة تواجه واحدا من الحواسيب الكبيرة، وتركوا برتراند وحده، جالسا في منتصف المساحة المفتوحة بين المناضد، ورأسه مغطاة بالأجهزة والأسلاك، تماما كما كانت منذ قليل الجمجمة المأخوذة من هيكل يهوذا تونًّا العظمي...

إلى جوار بوني، بدأ بروفيسور ديلينجر ينقر على لوحة مفاتيح كانت تحمل الرموز المعتادة الموجودة على لوحات مفاتيح الحاسوب، لكنها أيضا كانت تحمل رموزا أخرى عادة ما تظهر على لوحات المفاتيح في أستوديوهات تسجيل الموسيقى. وظل بروفيسور والي أحمد في الخلف، ويداه معقودتان في ضمة عصبية، مراقبا برتراند وهو يجلس مستقيم الظهر في مقعده، يقلب صفحات (الماركسية اليوم). كان ديلينجر شديد القرب من بوني وهو يعمل على لوحة المفاتيح، حتى أنه كان بمقدورها أن تسمع صوت أنفاسه الثقيلة وهي تدخل وتخرج من فمه، وبدا متوترا مثله مثل برتراند أو أحمد.

«هل يمكن أن تخبرني ماذا تفعل؟» سألته. لم تشعر أبدا من قبل أنها

مسؤولة عن حماية برتراند كما أحست الآن، رغم أنها كانت تعرف جيدا أنه لا يستحق على الإطلاق الاهتمام الذي توليه له أحيانا.

«أنا أقوم بمزامنة الذبذبات فوق المغناطيسية والعصبية القادمة من المشابك العصبية لمخ الخاضع للتجربة، مع النبضات الموجودة في الأثير المحيط بنا والتي كانت نشطة بالفعل في وقت وجود بوتو-رع. المشكلة بالنسبة للأخيرة هي أنها بالطبع مع مرور الوقت صارت أضعف إلى حد كبير، لقد انخفضت بمعدل لوغاريتمي... ناهيك عن حقيقة أن الرسائل الجوهرية التي كانت تنقلها تعرضت لتشتيت قوي.»

«وماذا يحدث عندما تقوم بمزامنتها؟» أكملت بوني. كانت متأكدة من أن ديلينجر سينجح في تحقيق هدفه، وجاهدت كي تتذكر قدر استطاعتها الفيزياء التي كانت مضطرة منذ زمن بعيد لحفظها عن ظهر قلب كي تدخل الجامعة...

«سنتمكن من خلق نوع من الحوار بين المخ الحالي الموجود في موضوع تجربتنا، وأمخاخ تلك الأيام... على الأقل نتوقع الكثير جدا وفقا لنظرية علم الآثار الباراسيكولوجي التي أقوم بتطويرها طوال الأعوام الماضية.»

ربت والي أحمد برفق على كوع ديلينجر. فات بوني أن البروفيسور المصري لم يكن فقط يراقب سلوك برتراند، بل كان أيضا يتابع ما يحدث على شاشة جانبية صغيرة لم تنتبه إليها حتى الآن.

وقفوا إلى جوار الشاشة التي أشار إليها والي أحمد. كانت مغطاة كلها بما بدا أقرب لهيئة سحابتين. إحداهما كانت محمرة، أقرب للون البرتقالي، وظللت أقل قليلا من ثلثيّ الشاشة، بينما السحابة الأخرى، الخضراء، غطت الثلث الباقي. بدا الشكلان السحابيان وكأنهما يتفاعلان

ويتماوجان أحدهما مع الآخر، يتنافسان، يتصارعان، ويحاول كل واحد منهما أن يغطي المزيد من عرض وطول الشاشة. كان واضحا أن شكل السحابة الخضراء يتحرك ليشغل قدر ما يستطيع من الشاشة. فعل هذا بتحوير خفيف لأطرافه، التي اتخذت أحيانا شكل أصابع رفيعة، وأحيانا أخرى انبسطت في نقاط عريضة. أما السحابة الحمراء، البرتقالية في الغالب، فكانت تنبض بطريقة متشنجة، محاولة أن تدخل في المساحات التي هيمن عليها شكل السحابة الخضراء، وتفرد أحيانا ما بدت كأنها أصابعها. كانت العملية عشوائية، وكأنها لعبة رقمية تتكشف، لا يلعبها أفراد لهم أهدافهم واستراتيجياتهم، بل معادلات تحدد كيف تستجيب آلة لآلة أخرى، وفقا لنماذج تصادفية وصلت إلى نتائج بمقارنة ما حدث في الماضي، عندما ثارت مواقف شبيهة بتلك التي تتكشف الآن... بالضبط مثل البرامج التي تقرر شراء وبيع أسهم الشركات الكبرى في بورصة نيويورك أو لندن. من أين تمكنت بوني من استدعاء هذه الكلمة... «تصادفية»؟ سألت نفسها، لأنها لم تتمكن من تذكر ما تعنيها تماما... «إذًا ماذا تعرض الشاشة؟» سألت ديلينجر.

«تعرض الشاشة كيف يقوم الحضور الذي ذكرناه.... والذي افترضنا أنه تخلل شخصية برتراند... وأقصد به الشكل الأخضر... كيف يخترق بشكل أعمق الوعي، الأفكار، الشخصية، إذا أحببتِ... لموضوعنا... كلما زاد هذا، كلما تمكنا بشكل أفضل من سماع الحوار بينه وبين المؤثرات الأخرى الباقية من زمنه، ولا يهم متى كان هذا الزمن...»

«لكن... لكن برتراند... ماذا سيحدث له.... لو....؟» هتفت بوني. وحدقت في الشاشة حيث كان شكل السحابة البرتقالية مستمرا في ترك المساحة استجابة لطعنات شكل السحابة الخضراء الذي كان يحتل المزيد من الشاشة أحيانا ببطء وأحيانا بسرعة فائقة... في الحقيقة، كانت الشاشة مقسومة الآن أسفل المنتصف بين البرتقالي والأخضر.

«نحن ندخل عالما افتراضيا... اعتمادا على نشاط العقل والخيال... كما هو مسجل بالأجهزة الرقمية التي ليس لديها القوة المادية للماكينات القديمة... لكنها تملك القوة لوضعنا وجها لوجه أمام الحقائق التي كانت موجودة دائما لكن لم يكن بمقدورنا إدراكها في الماضي. ومع ذلك، هذا ليس عالما حقيقيا، على الأقل بقدر ما يمكننا فهمه حتى الآن.» قال والي أحمد من خلفها، ربما على سبيل الطمأنة. وبدلا من ذلك نجح في إخافتها بشكل أكبر. ماذا كان يحدث لبرتراند الجالس مستقيم الظهر أمامهم، صامتا، يقرأ المجلة التي جلبها ديلينجر له، كأنه لا يسمعهم وليس واعيا بهم، أو كأنه لم يعد بمقدوره أن يبالي بهم؟

أرادت أن تناديه، خشية أن يكون على وشك الدخول في غيبوبة، لكن يد ديلينجر القوية على كوعها أوقفتها. «أسوأ شيء يمكنك أن تفعليه هو إزعاجه الآن..» قال بصوت رقيق، كأنه يخاطب فتاة صغيرة.

«لكنك قلت إن هذا ليس تنويما مغناطيسيا...!»

«بالطبع ليس هكذا. لهذا سيكون من الخطأ أن تزعجيه الآن... يبدو أنه يجد العدد الأخير من (الماركسية اليوم) شيقا جدا.»

في هذه الأثناء، ظل ديلينجر يعمل على أزرار لوحة المفاتيح أمامه بينما كان والي أحمد يراقب بانتباه الشاشة التي كان شكل السحابة الخضراء يهيمن على سطحها. جالسا منتصبا في مقعده، استمر برتراند يقرأ في صمت... وكانت نية بوني في الاحتجاج أو محاولة إيقاف التجربة من الاستمرار قد تبخرت. لم يعد شكل السحابة البرتقالية على الشاشة أمام والي أحمد يقاوم تقدم الشكل الآخر، ولم يعد يبدو أن الاثنين يتنافسان أحدهما مع الآخر، وكأنهما استقرا على التوازن الصحيح، حيث كان الشكل الأخضر متسيدا تماما على الشكل الآخر. وظل برتراند جالسا مستقيما وصامتا في مقعده، يقرأ. وبدا وكأنه من

كل الأركان، من كل جهاز، كل مصباح، كل مكثف في ذلك المختبر، كان الاهتمام مركزا فقط على وعي برتراند وما كان يحدث فيه.

بدا المذيع التليفزيوني منقطعا تماما عن الباقي وهو جالس على وضعه يقرأ. «هل حدث له شيء؟» تساءلت بوني قلقة.

«لا، لا..» قال ديلينجر.

اقترب البروفيسوران من حاسوب آخر كبير، أكبر بكثير من الأول الذي كانا يراقبانه، ليفحصا ما هو معروض على شاشته. كان موضوعا خلف مقعد برتراند مباشرة. على شاشته كانت هناك صور وتصميمات ملونة مشوشة تماما تتماوج وتذوب في بعضها البعض. أحيانا كانت تختفي بينما تضرب موجات استاتيكية متعاقبة الشاشة، وتكسوها بنقط معدنية تشبه الأرز. كما بدأ الجهاز يصدر صوتا ناشزا منخفضا، لم يكن هو نفس الطنين الميكانيكي أو الكهربي المنبعث من الأجهزة الرقمية.

ظلت بوني تراقب العالمين عن كثب لترى ما ينويان عليه، وأبقت عينا أيضا على برتراند الذي ظل متسربلا تماما بالصمت، دونما حركة إلا ما يتطلبه تقليب صفحة في المجلة، وظهره نحوهم. اقتربت أيضا من الشاشة التي كان يصدر عنها صوت منخفض مشوش كأنه ضجة عدد من الأصوات البشرية المخنوقة تتعارك على مسافة بعيدة. «ماذا يحدث هنا؟» تساءلت.

«هذا الحاسوب بشاشته يتحكم في قلب تجربتنا اليوم..» أوضح ديلينجر. «وهو يعمل بسرعة أكبر بكثير مما كان يمكنني توفيرها له خلال الأسابيع الأخيرة؛ بسبب المعزز الذي جلبه بروفيسور أحمد معه، بفضل المساعدة الطيبة من آربيان أير. هنا تردنا الإشارات الدماغية

التي تبثها المشابك العصبية للموضوع... وربما يوما ما، سنتمكن أيضا من التقاط الرسائل التي يتلقاها. لا بد أن تفهمي أن هذه الإشارات ليست إلا مجرد جزء مما يبثه مخ أي شخص. معها وعليها وحولها عدد ضخم... شحنة هائلة من الإشارات الأخرى المنقولة، التي لا تهمنا والتي يجب أن نتجاهلها. عندما نجري نفس التجربة على جمجمة، تكون المشكلة مختلفة. فالجمجمة لن ترسل إشارات عصبية جديدة، بل مجرد أصداء للإشارات التي أرسلتها وتلقتها عندما كان الموضوع مازال حيا. صعوبة مثل هذه الإشارات أن قوتها تكون قد ضعفت بشدة، ومع فصل الرسائل عن خلفياتها، تكون المخاطرة بأن تصبح تالفة جدا حتى أنها تضيع إلى الأبد. على العكس، عندما يكون الموضوع حيا، فمن ناحية يصيبك ارتباك من إشارات الماضي والحاضر التي تشهدينها، ومن ناحية أخرى هناك حقيقة أن إشارات الحاضر تنبعث من مشابك الموضع العصبية بقوة معززة. ما يفعله برنامج الحاسوب حاليا هو محاولة فصل الإشارات التي يتلقاها عن بعضها البعض.»

بينما كان يتكلم، بدأت الشاشة تصفو، وتباطأت الحركة المتشابكة للخطوط واللوالب والأشكال المنصهرة فوقها. وثمة خطوط سوداء عريضة تنتقل من جانب إلى آخر على الشاشة أصبحت هي السائدة. ببطء شديد، استقرت هذه الخطوط أيضا، لتشكل ما بدا أنه حافتان تركب إحداهما على الأخرى، وتنفتحان وتنغلقان، في إيقاع مُنوِّم تقريبا. في الوقت نفسه، كانت الضجة المنخفضة المشوشة –التي بدت وكأنها قادمة من أصوات بعيدة– والتي كان يبثها الحاسوب، قد تعمقت وبدت وكأنها تمتزج في صوت واحد.

«لقد بدأنا في التقاط مسار البث الذي نبحث عنه..» همس والي أحمد.

لفترة ظهرت رموز صغيرة الحجم ذكَّرت بوني بشيء لم تتمكن من

تحديد ماهيته بالضبط. ثم تلاشت في بعضها البعض.

خلفها، أخذ والي أحمد نفسا عميقا. «هل ما أراه صحيح؟» قال بقلق. «هل قمت...؟»

ضحك ديلينجر، راضيا جدا عن نفسه. «نعم، صُمم البرنامج بحيث يتمكن من تدوين رموز الرسائل الصادرة عن أعصاب ومشابك الموضوع العصبية... بهيروغليفية كيميت في طيبة وقت بوتو-رع. حدست أنه إذا كان الموضوع سيقوم ببث رسائل... فمن المحتمل أن يفعل هذا بالفينيقية... لكن البنيات العميقة لخطابه ستظل بمصرية الفراعنة... ولذلك، ستلتقط الهيروغليفية بشكل أسهل بكثير معنى ما قد يقوله.»

«أنت مجنون!» قال والي أحمد منفعلا ومتوترا. «والآن إذا لم يكن بالمستطاع التقاط الرسائل العصبية بشكل جيد كاف لأن الهيروغليفية لا تتوافق معها؟»

«لا تقلق. لقد صُمم البرنامج أيضا بحيث يستطيع تسجيل ما يجري تلقيه بالمسمارية البابلية المستخدمة في مدينة صور عندما كان ون-آمون هناك، وسيفعل هذا وفقا لنماذج الخطاب التي يجري التقاطها. ثم لا تنسَ، كل شيء يُسجَّل على ذاكرة الحاسوب، حتى لو أنه من الصحيح أنه مع التكنولوجيا الموجودة حاليا لا يمكننا التأكد من أننا نلتقط كل المعلومات الواردة على الذاكرة. علاوة على ذلك، هناك شكل تدوين آخر يجري رفعه إلى الذاكرة ويحمل الرموز القرطاجية الأولى والمالطية. ومع ذلك، لست متأكدا تماما من قدرة المالطية على أن تدون بشكل جيد اللهجات التي كانت مستخدمة في زنوبر عبر القرون. سنرى...»

متوترا وقلقا مازال، ظل والي أحمد يحدق بثبات في الشاشة، التي استمرت في عرض رموز هيروغليفية معقدة جدا. ومن وقت لآخر، بين

الرموز المعروضة، بدأت الحروف المسمارية أيضا في الظهور، والتي غدا بروفيسور ديلينجر منتشيا من الفرح لمرآها. كان مستغرقا بشدة فيما يراه حتى أنه لم يولِ انتباها لأي شيء آخر؛ وتتبعت شفتاه تيار الهيروغليفية المتدفق على الشاشة بينما يهمس بالأصوات المتحركة والساكنة التي ترمز لها، في محاولة لاستخراج المعنى من الرسائل العصبية التي كان يبثها مخ برتراند.

كانت بوني أقل اهتماما بكل هذه التحركات على شاشة الحاسوب والتي لم يكن بمقدورها أن تميز فيها رأسا من ذيل، لذا فقد راقبت المذيع التليفزيوني بتركيز. كان برتراند مازال جالسا معتدلا في مقعده حيث وُضع، وظهره لهم، دون حركة إلا عندما يقلب صفحة في المجلة، أو عندما يحدق في المختبر أمامه، المكدس بالأجهزة والمناضد.

بمرور الدقائق، غدت الكتابة المصرية على الشاشة أوضح وأكثر حدة. كانت تَرِد بانتظام معين... وفي نفس الوقت تزايدت الحروف المسمارية المتناثرة وسط كتابة كيميت. ظهرت الرموز على خلفية تراوحت بين الرمادي الفاتح والغامق، وكثيرا ما كانت تنبثق مع صرير رفيع، وكأنها تنتج عن احتكاك سكينين ببعضهما البعض. وكانت الضجة المشوشة المنخفضة التي أمكن سماعها بعد وقت قصير من بدء التجربة، تتعالى وتغدو أيضا أكثر وضوحا، بالضبط مثل الصور على الشاشة. في تلك الضجة المنخفضة، كان يمكن للمرء الآن أن يميز إيقاعا جديدا منتظما، كأنه لشخص يدق على طبلة صغيرة. على الأقل هذا ما قارنت بوني به ذلك الإيقاع، حتى أدركت أنه أقرب لشيء آخر. كان أشبه بإيقاع حلق رجل يبتلع ريقه، محاولا أن يخرج كلمات. وصُدمت عندما قال شخص آخر بصوت عال ما كان يدور بذهنها.

«نحن نتصل بصوته!»

«على رسلك، دعنا لا نندفع!» قال ديلينجر محذرا والي أحمد. «نحن نقترب من الحدود النهائية للمعرفة... دعنا لا نندفع! لا نعرف بعد ماذا يمكن أن يحدث!»

وبمجرد أن قال هذا، سمعوا الصوت لأول مرة.

... لم يكن صوت برتراند... لكن... وبينما كانت الفكرة تمر بذهن بوني شعرت برجة عميقة، كأنها ضربة في منتصف معدتها... ولا كان هذا صوت باسوزو. بدا الصوت كأنه قادم من أعماق القبور، كأنه يخص شخصا كان يبحث من زمن طويل عن الراحة ولم يستطع أن يجدها ولم يكف بعد عن الأمل في أن يجد هذه الراحة، وأنه سيجدها خلال فترة قصيرة، إذا استمر في جهوده بعدم السماح لأحد، لا أحد إطلاقا، بمنعه من عمل ما يجب عليه أن يفعله. ولا يمكن قول أنه صوت يتحدث من منطلق اليأس. على العكس، كان هادئا، حازما، باردا وشرسا في النبرة التي كان يعرض بها رسالته. لكن لمن كانت توجَّه هذه الرسالة...؟ إذا كان ما يصلهم بالفعل شكل ما من الرسائل... وممن كانت تجيء؟ من برتراند، الذي كان مازال جالسا بلا حراك معتدلا في مقعده، يحدق في المجلة؟ ... من شاشة الحاسوب التي مازالت تُحمّل صفوفا من الرموز الهيروغليفية والمسمارية، المختلطة كلها ببعضها الآن... الرموز التي كانت تتبع إيقاع الصوت المتردد صداه حولهم؟

في محاولة فهم ما كان يحدث، راقبت بوني البروفيسورين. كانا منفعلين وهما يتابعان تطور التجربة. بدا أنهما مهتمان على نحو عميق بالعلامات الظاهرة على شاشة الحاسوب وبالصوت الصادر عن الرجل، الذي جلس متصلبا محاطا بأشعة الليزر الباراسيكولوجية. أكثر من ذي قبل، بدا النشاط في المختبر مركزا على الجهود والانتباه القلق الذي كان برتراند بؤرته. وتحت أضواء النيون القوية، كانت كل الأجهزة

والآلات تطن في دأب.

ابتعدت بوني عن البروفيسورين ودارت حول المنضدة الطويلة إلى المنطقة التي كان برتراند يجلس فيها. وعلى الفور، تبعها الاثنان. ورغم أنهما لم ينطقا بكلمة، كان خوفهما أن تدمر كل شيء بالذهاب للحديث مع المذيع التليفزيوني. لكنها لم تفعل هذا. تحركت وراء المناضد الموضوعة في دائرة حول برتراند، محملة بالمعدات التي كان ينهمر منها الليزر على مشابك برتراند العصبية وأعصاب مخه، وتوقفت أمامه لتراه. نظر ثلاثتهم إلى برتراند وهو يقرأ المجلة.

لم يكن وجهه هو وجهه المألوف.

«هذا هو نفس الوجه الذي ظهر في فيلم الليلة المصورة تحت أشجار الخروب..» قالت بوني.

ولم يكن بمقدور البروفيسورين أن يخالفاها الرأي.

«والآن، ما التفسير الذي ستقدمانه لنا؟» تساءلت بغضب – وتناقض غضبها مع الصوت المنخفض لكن القوي الذي كان يملأ المختبر. من أين كان يأتي هذا الصوت فعلا؟ من برتراند؟ من جهاز الليزر الذي كان مسلطا عليه؟ من أجهزة الاستقبال الحاسوبية التي كانت تسجل الرسائل المبثوثة من مخ المذيع التليفزيوني وتحولها إلى صور على الشاشة؟

«لهذا نُجري نحن العلماء تجاربنا..» قال لها ديلينجر بصوت غلبت عليه الرقة. «نجريها لنفهم الظواهر من حولنا، دائما، ولنقترب أكثر من المعرفة. لو كنا نعرف الإجابة على كل الأسئلة المتعلقة بما يحدث، لن نحتاج إلى إجراء تجاربنا.»

«لكن ما ترياه الآن... هل هذا حقيقة؟ وما ظهر في الفيلم... لم يكن حقيقة؟»

«ما نراه أمامنا يمكن قياسه وتتبعه مباشرة..» رد والي أحمد. فقد أدرك أنها تقصده بسؤالها. «إذًا فهو حقيقة ربما يمكننا الخروج بتفسير لها، وربما لا.»

حدق برتراند، إن كان هو برتراند، فيهم من فوق المجلة دون أن يقول شيئا. كان وجهه مخططا بتجاعيد سميكة لرجل مر بعواصف كثيرة، ومعارك كثيرة، ومؤامرات كثيرة، ومازال يأمل في أن يفوز، في أن يجعل الأشياء تتم على طريقته. ومع ذلك، حتى مع التحول الضخم الذي مر به وجه المذيع التليفزيوني منذ بدأ في بث الرسائل العصبية، كانت الحقيقة أنه مازال من الممكن تمييز الملامح الوقحة الماكرة الذكية الزائفة لوجهه اليومي. لوحت بوني له ولوح لها بدوره، رغم أنه فعل هذا بطريقة آلية، كأنه ملهيّ بشيء آخر – لعلها المجلة التي أبقاها على حِجره ليقرأها. أمسك ديلينجر بكوعها في رفق وجذبها لتعود حيث كانوا من قبل، وراء ظهر ديلينجر، بينما بدأت شاشات أخرى أمامهم تعرض المزيد من الرموز الهيروغليفية والمسمارية... وازداد الصوت قوة...

والآن أصبح هذا الصوت المتكلم بلغة منسية قويا لدرجة أنه يمكن سماعه من كل جوانب المختبر. أحيانا كانت نبرته تشبه نبرة شخص يتأمل مشروعا هاما ما، وأحيانا يبدو كخطبة تشجيع قبل بداية معركة، وأحيانا كان يبدو كصلاة أو أنين، وأحيانا كان يدوي بأوامر منتصرة. كانت هناك لحظات ينفجر فيها في غضب هائل، ولحظات أخرى يبدو فيها رقيقا ومغويا. أنصت ثلاثتهم في صمت إلى هذا الصوت الذي كان رغم كل المجادلات حول كيفية التعامل مع الحقائق والتجارب –وهم

الآن يعتبرون مثل هذه المجادلات شيئا صبيانيا– يصلهم فعلا من ماض سحيق... كانوا جميعا مقتنعين بهذا الآن... في لحظة ما، أصبح الصوت قويا جدا حتى أنه غطى على كل طنين الأجهزة والحواسيب ومكيفات الهواء، وملأ كل أركان ومساحات المختبر.

ثم ارتعشت الأضواء في المختبر، وخبت وانطفأت. خيم ظلام تام على المكان كله. خشخشت شاشات الحواسيب، ثم صمتت صمت الموت. وانقطع الصوت الذي كان يدوي في المختبر في منتصف جملة. من بعيد، رأت بوني مروحة صغيرة تدور في الضوء الأحمر داخل برج حاسوبي ما تأخر في الانطفاء. أشد ما أدهشها مع ذلك في كل هذا الظلام كان انفجار سباب بذيء على نحو لا يُصدق سمعته يصدر من خلفها. هل يمكن أن يكون ديلينجر بالفعل، المهذب جدا في العادة، هو من فقد عقله بهذه الطريقة؟

«ما الأمر؟ ما الأمر؟» كان والي أحمد يتساءل بانفعال.

«إنه انقطاع في الكهرباء!» صاح ديلينجر ما بين سباب لا يمكن تسجيله هنا (ولا حتى بالهيروغليفية) وسباب آخر. «أخبرت كارميليتو لزمن لا أعلم طوله أن يدبر لي أمر الحصول على مولد كهربي، لكن شيئا لم يحدث...!»

«هل فقدنا كل شيء؟» تساءل أحمد.

«آمل ألا يحدث هذا!» قال ديلينجر وهو يبذل جهدا خارقا كي يهدئ نفسه. «كل ما دخل في النظام حتى الآن ينبغي أن يكون مازال موجودا في ذاكرة الأجهزة... وقد احتفظت بملف احتياطي في الذاكرة الرئيسية كذلك... سنرى...» ومن حولهم في العتمة غير المعتادة أمكن سماع الدمدمة المنخفضة للماكينات التي بعد أن دارت بلا توقف لساعات كثيرة كانت تهدأ بالفعل بعد أن انطفأت.

اقتربت بوني من المذيع التليفزيوني، متتبعة محيط المناضد لترى طريقها إليه. كان يضع المجلة جانبا وينزع اللجام الخفيف الذي وضعه البروفيسوران حول رأسه.

«أهلا..» قالت.

«أهلا..» قال.

«هل سنمضي؟»

«نعم، هيا بنا.»

غادرا معا المختبر المظلم. كان البروفيسوران منكبين على بحث كيف يمكنهما تشغيل كل الماكينات الميتة من جديد، حتى أنهما لم يلاحظا رحيلهما. في الخارج، ضربهما ضوء الشمس كلفحة من مروحة. صعدا الدرجات المؤدية من المختبر إلى الفناء حيث كان بعض الشباب يمارسون خطوات رقصة غريبة ما. كانت امرأة طويلة نحيلة تخبرهم بما يفعلون. وبمجرد أن رأت برتراند يدخل الفناء، أوقفت كل شيء وجاءت تعدو نحوهما. كانت ترتدي فستانا طويلا بألوان غامقة متضاربة.

«أهلا برتراند! ماذا تفعل هنا؟» حيته وهي تنظر إلى بوني كأنها لا تعرفها.

«جئنا لنتحدث مع بروفيسور ديلينجر، لكن انقطعت الكهرباء.»

«لهذا أعطي محاضراتي في الهواء الطلق...» قالت المرأة الطويلة النحيلة. «في وجود الشمس، لا يمكن أن يحدث انقطاع في الطاقة.»

«لا تكوني واثقة هكذا..» أجابها برتراند.

في الحقيقة، ورغم أن الجو كان مازال مشمسا، إلا أن السماء كانت تمتلئ بالغيوم.

.48

وجدا هاردهيد منزعجا بشدة من السحب المتجمعة. كان جيانينو قد اتصل به من حقل الإسخريوطي ليخبره أنه من المحتمل أن تمطر. على سبيل الحذر، اتفقا أنه على جيانينو أن يتأكد من أن جميع المعدات الكهربائية تحظى بحماية جيدة. وفي حالة هبوب الرياح أيضا، كان لا بد من تثبيت السرادق في الأرض بأمان مع سد جوانبه جيدا كي يبقى داخله جافا، إذا أمطرت بينما هم يسجلون البرنامج.

رتب هاردهيد للذهاب مع بوريس إلى زنوبر. «وجوني ديب؟» تساءل.

«مازلت لا أستطيع الوصول إليه..» أجابه الشاب.

وبينما كان برتراند في مكتبه وقد أوصد عليه بابه، ناقشت بوني مع هاردهيد كيف سيسير العمل. أخبرها هاردهيد لأول مرة عما اكتشفوه في النفق الذي نزلوا إليه من فتحة البئر في حقل الإسخريوطي. ولم تكن بوني بحاجة لجهد ذهني كبير كي تدرك أن النفق الذي كان هاردهيد يصفه يشبه إلى حد كبير القبو الموجود أسفل بيت آل تونًّا الريفي، حيث نزلت هي وبرتراند. حكت له عن هذه المغامرة دون أن تأتي على ذكر الجثة ذات الحلق المشقوق التي اكتشفاها. ولا كانت بحاجة لكثير من التأمل كي تفهم أن الأنفاق التي رآها هاردهيد تشبه إلى حد كبير الصور التي ظهرت على إحدى الشاشات في مختبر ديلينجر قبل أن يبدأ تجربته على المذيع التليفزيوني. ولم تحكِ لهاردهيد شيئا أيضا عن هذا. أما هو فذكر لها كيف أنه قد يلقي نظرة أخرى على النفق

بعد الظهر، بعد أن يكون قد انتهى من عمله الخاص بكويس كوام هذا المساء. نصحته أن يكون حذرا، لكنها لم تحاول أن تثنيه عن فعل هذا. كان هاردهيد شخصا عنيدا إلى حد كبير وكان لينفذ أيا ما يخطر بباله، مهما قال له المرء. على أي حال، كان الرجل يعرف كيف يعتني بنفسه.

هكذا، تبين أنه من بين كل الأشخاص الذين تورطوا بشكل ما في الحادثة الغريبة والمأساوية لحقل الإسخريوطي، كانت بوني هي الوحيدة التي كانت تعرف قرب نهاية هذه الواقعة العجيبة أغلب التفرعات المختلفة لمسار القصة. ولا يعني هذا أن تلك المعلومة قد أفادتها كثيرا...

موصدا على نفسه باب مكتبه، كان برتراند يشعر بالقلق. فلم تأت المكالمة الهاتفية بعد. قلَّب في ذهنه كل ما حدث بالأمس وهذا الصباح، وتثاءب. لم يكن بمقدوره فهم بعض الأحداث الأخيرة. كما أنه ارتكب خطأ عندما سمح لأداءات ديلينجر المسرحية بالتأثير عليه أكثر مما ينبغي لها. ثم كانت هناك تلك القوة التي في أطراف أصابعه، أشبه بحكة عصبية... ولم يكن يعرف من أين جاءت... على أي حال، كان هذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه المرء ليضمن مساعدة ديلينجر والآخرين على شاكلته. فبسبب مشاركتهم، يمكن إضفاء الصلاحية على البرامج التي يقدمها المرء، بينما هي في الحقيقة نتاج هزيل لبضعة أيام من البحث، وقد جرى إلباسها لباسا مناسبا ليخفي القدر الضئيل من العمل الجاد الذي حظيت به... كان الهاتف الأسود الذي يحمله في جيب سترته يهتز.

«قل لي.»

«حصلنا على التأكيد.»

«جيد.»

«غدا سأعود.»

شاعرا أنه أفضل حالا الآن، طلب قهوة من سكرتيرته، وهو مازال يتفكر في أحداث هذا الصباح في مختبر ديلينجر. لقد فعل خيرا بإبقائه فمه مغلقا والانتظار حتى يخبره ديلينجر بما يجب أن يفعله، بينما كان يفكر في موضوعات لا علاقة لها إطلاقا بنظريات وهواجس البروفيسور، أو بعمله كمذيع تليفزيوني أو غير ذلك. بينما كان يتصفح المجلة، كان يفكر عن عمد في أفلام رآها منذ عامين في مهرجان قدم أعمال المخرج الفرنسي فرانسوا تروفو، عندما تأثر لدرجة بالغة بفيلم اسمه (قصة آديل هــ). كان قد توقع أنه بينما سيكون جالسا وسط آلات ديلينجر، سيعطيه البروفيسور توجيهات لا نهاية لها حول ما يجب أن يفعله، لكن لحسن الحظ، بدا أن هناك مشكلة ما في الآلات لأن ديلينجر لم يقل الكثير... حتى اللحظة التي انقطعت فيها الكهرباء. على أي حال، كانت التجربة كلها مضيعة خالصة للوقت، حتى لو أن الحكاية كلها لم تستغرق أكثر من أربع دقائق. كانت النقطة الهامة هي أنه أظهر لديلينجر رغبته في التعاون بكل إخلاص.

والآن، سيقضي بعض الوقت في المكتب، يراجع مرة أخرى السيناريو المعد لبرنامج هذا المساء ويغادر بعدها متوجها إلى حقل الإسخريوطي. لكنه فوجيء بما بدا كإطار خشبي أو شيء بلاستيكي يتحطم في جيب سترته. كانت يده المحشورة هناك قد هشمت الهاتف الذي استخدمه للتوّ. الحمد لله لأن المكالمة تمت.

... عندما وصل هاردهيد إلى حقل الإسخريوطي، كانت سحب رمادية كثيفة قادمة من فوق البحر تغطي السماء. كان سعيدا لأن السرادق الذي من المفترض أن تصور حلقة كويس كوام بداخله قد نُصب وفقا

للخطة. وكان الأثاث المعد للديكور وفق المواصفات المتفق عليها – من أعلى نوعية دون أن يكون مزخرفا. وكانت المساحات المحيطة بمكان التصوير قد نُظمت بمراعاة كاملة لحقيقة أن الليل سيبدأ في الحلول قبل أن يبدأ البرنامج.

ومع ذلك، وجد جيانينو منزعجا. فرغم أنه قد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة، إلا أنه لو سقط المطر فيمكن رغم ذلك أن يسبب مشكلات تقنية... وكان جيانينو منزعجا مرة أخرى بشأن المادة المفقودة ليلا أثناء البث من هنا إلى استوديوهات كويس كوام، بينما كان برتراند نائما تحت أشجار الخروب. وما زاد الطين بلة، أن أزمته مع دونًّا لم تهدأ، وكانت مازالت مصرة بقوة أن يقوم بحمية غذائية معها. وجد هاردهيد أنه لا يستطيع أن يقدم سلوانا كبيرا لجيانينو، ليس أقله لأن جيانينو بينما كان ينعي حظه السيء، كان يلتهم شطائر محشوة بالسجق ولحم الخنزير المقدد كما لو كان يتضور جوعا.

أخيرا، وبعد أن خلص إلى أن صديقه كان يعاني بالفعل من نوبة سيئة من الاكتئاب العصبي، أخبره هاردهيد كيف ينوي بعد قليل أن ينزل مع بوريس لتفقد الأنفاق الموجودة تحت الحقل. وبما أن جيانينو قد أنهى عمله في الموقع، دعاه للنزول معهما. في البداية لم يفهم جيانينو تقريبا ما كان يقوله هاردهيد، ثم أصابته دهشة بالغة حتى أنه لم يصدقه، ثم اعتراه الفضول. وخطر بذهنه شك أنه ربما بسبب هذه الأنفاق فشل البث إلى استوديوهات كويس كوام هكذا. نعم، في الساعات الخالية قبل بدء البرنامج، قد تكون فكرة جيدة بالنسبة له أن ينزل معهما... للحظة، قلق هاردهيد من أن جيانينو قد لا يتمكن من عبور الفتحة المؤدية إلى النفق. بسرية تأكد من هذا ووجد أن الفتحة في الأرض كانت واسعة بما يكفي للسماح لجيانينو بالعبور، وفي الحقيقة حتى لو كان شخصا في حجمه مرتين. فيما بعد، ندم هاردهيد بشدة

لأنه جرَّ جيانينو إلى هذه المغامرة...

وبينما كانا يتفقان على ما سيفعلان، سمعا هدير ماكينة تقترب قادمة من السماء، التي استحالت إلى لون رمادي داكن، يغطي المنطقة كلها برطوبة كثيفة ومطر منذر. «ها هي تلك الهليكوبتر مرة أخرى!» هتف جيانينو.

«أي هليكوبتر؟» تساءل هاردهيد.

أشار له جيانينو إلى آلة كبيرة بدت وكأنها تهبط من بين السحب، مقتربة من حقل الإسخريوطي وهي تتقدم ببطء فوق المساحة التي وضع بها فريق كويس كوام الخيمة والمعدات. ثم توجهت نحو البحر الذي لم يكن ببعيد، ملتفة في دائرة واسعة نحو الجنوب، واختفت تدريجيا في السحب.

«يبدو أنهم يتجسسون علينا، هه؟» تساءل جيانينو.

«ألم يكن هؤلاء من الجيش؟»

«وإن يكن...»

«هل تعتقد أن الجيش بحاجة إلى التجسس علينا؟ لكنك تقول إنهم جاؤوا إلى هنا بالفعل...»

«نعم، هذا الصباح... ومرة أخرى قبل أن تصل بقليل...»

تظاهر هاردهيد أنه لا يجد غرابة في الأمر، لكن بمجرد أن غادر جيانينو، اتصل ببرتراند ليبلغه بأمر الهليكوبتر.

لكنه تلقى ردا سيئا: «إذًا ماذا تريدني أن أفعل؟ إذا كان الجيش قد قرر أن يرسل طائراته ليتجسس على ما نفعله... لأن هذا ما تشك فيه،

أليس كذلك؟... اللعنة، دعهم يفعلونها! ليس لدينا شيء نخفيه. وأنت تقول إنهم مضوا نحو البحر؟ لم أسمع أخبار اليوم. هل يمكن أن يكون هناك غطاس آخر تمكن من الغرق؟ أو هل يمكن أن يكونوا قد لمحوا مركبا شراعيا ما يقترب حاملا بعض المهاجرين غير الشرعيين؟ هل عليهم فعلا أن يأتوا إلى هنا لأن كويس كوام يدس أنفه في المكان؟»

كان هاردهيد على وشك أن يعطيه الرد الذي يستحقه، لكنه أمسك نفسه. قبل قليل من ظهور المذيع التليفزيوني أمام الكاميرا، على المرء أن يحترس وألا يجعله أكثر عصبية مما هو عليه بالفعل. لذا أنهى الحوار سريعا.

كان بوريس يصعد الحقل نحوه. سارا معا إلى أشجار الخروب، التي كان أحد الفنيين تحتها يجهز منضدة بأدوات الماكياج التي ستستخدمها بوني مع هؤلاء الذين سيظهرون أمام الكاميرا.

«ستنزل معنا إلى أسفل، هه؟» تساءل هاردهيد. «لقد أخبرت جيانينو كي يأتي، بما أن جوني ديب اختفى.»

«حاولت أن أجده عددا من المرات.» بدا بوريس منزعجا.

«يمكننا فعلها بدونه..» قال هاردهيد. بعدها بقليل، كان إلى جوار جيانينو. «هل أنت مستعد؟»

نزل ثلاثتهم عبر الفتحة إلى النفق. لسبب ما، كانت الرائحة اللاذعة أقوى مما يمكن لهاردهيد أن يتذكره. بمساعدة بوريس، وصل جيانينو إلى أسفل الفتحة بأمان وسلامة، وهو يلهث مثل الفيل. وعلى الفور، بدأ يشكو من الرائحة.

«فقط ضع منديلا على وجهك..» هكذا قال له هاردهيد، وضحك

عندما رأى نصيحته تؤخذ على محمل الجد، حيث لف جيانينو ذقنه بوشاح أزرق فاتح. «هذا وشاح امرأة!» هتف.

«نعم..» تنهد جيانينو. «وشاح دونًّا!... أحضرته معي ليذكرني بها...»

«لا يبدو أن أحدا مر من هذا الطريق منذ كنا هنا..» أشار بوريس.

«إذًا فقد لاحظتَ أن آثار الخطوات المنطبعة على التراب مازالت آثارنا؟ على الأقل، هناك ما تفكر فيه غير الحواسيب...» وبابتسامة وزع هاردهيد الكشافات التي أحضرها معه مرة أخرى.

دخلوا النفق ووصلوا إلى النقطة التي يتشعب فيها إلى ممرين يمينا ويسارا. وبما أنهم وجدوا الممر الأيسر الذي سلكوه في المرة السابقة مغلقا ببوابة، سلك هاردهيد هذه المرة الممر الأيمن.

.49

كلما توغلوا سيرا في النفق، كلما اشتدت الرائحة اللاذعة الغريبة. وما زاد الأمور سوءا، أن الأرض هنا بدت زلقة بسبب الرطوبة. ولم يروا أي مصابيح معلقة على الحائط، الأمر الذي أدهش هاردهيد؛ لأنه كان قد خمن أن النفق يؤدي من هنا إلى أسفل بيت آل تونًّا الريفي. كان جيانينو قد بدأ يشكو بالفعل متسائلا أي مكان ذاك الذي جاءا به إليه، عندما مر شيء على الأرض تحت أقدامهم. التقط ضوء كشاف بوريس ظل جرذ ضخم يجري في الاتجاه الذي جاؤوا منه. ولسوء الحظ، قبل أن يختفي الظل في الظلام خلفهم، رأى جيانينو الجرذ؛ فزاد عويله. وبسببه، اضطروا إلى السير في صف واحد. جيانينو في المنتصف، وهاردهيد في المقدمة.

كان النفق يضيق والسقف ينخفض كلما أوغلوا في السير. وانتهى بهم الأمر سائرين منحنين للأمام حتى لا تصطدم رؤوسهم بالسقف. كان جيانينو يلتقط أنفاسه في شهيق عميق وزفير لاهث؛ حتى أن هاردهيد شك في أنه يعاني من رهاب الأماكن المغلقة.

بالإضافة إلى الرائحة التي كانت اليوم أشد من المرة الأولى التي هبطوا فيها إلى النفق، والتي ربما كانت بسبب الرطوبة، كان بمقدورهم أيضا سماع ما بدا أشبه بزقزقة رفيعة – أو ربما أكثر شبها بصرخات خافتة بعيدة: نفس الأصوات التي سمعوها عندما كانوا هنا من قبل، دون أن يكتشفوا من أين كانت تأتي. هذه المرة، كلما ساروا أكثر، كلما

ارتفعت الأصوات لتصبح صرخات ضئيلة تصدر عن آلاف وآلاف من الوحوش الصغيرة... أو هذا ما جال بخيال هاردهيد.

«هذه الصرخات لا تصدر عن ماكينة..» قال بوريس. «إنها أشبه بدجاج...»

«الكتاكيت لا تزقزق هكذا..» قال جيانينو، ما بين شهقة طويلة وأخرى قصيرة.

والآن، بدأ سقف النفق يرتفع مرة أخرى، بينما هبطت الأرض تحت أقدامهم في انحدار خفيف. وبدت الرطوبة أقل، رغم أن الرائحة الغريبة كانت مازالت في كل مكان.

«إلى أين أتيتما بي؟» لهث جيانينو. «لا أستطيع حتى أن أتنفس...»

«لا تقلق. لقد أتينا هنا من قبل بالفعل ويوجد حولك كل ما تحتاجه من الهواء..» طمأنه هاردهيد. «في الحقيقة، لديهم في الناحية الأخرى نظام إضاءة بمصابيح معلقة على الحائط، وكل ما عليك أن تضيئها.»

أدار بوريس كشافه إلى الحوائط.

«هل رأيت أي نقوش؟» تساءل هاردهيد.

«لا شيء بعد..» اعترف الشاب.

«على مهلك، أنفاسي تنقطع..» قال جيانينو مرة أخرى محذرا.

ورغم أنه لم يكن مندفعا في الحقيقة، إلا أن هاردهيد تمهل. بالفعل لا يمكنك الإسراع وأنت تخطو في ممر مظلم ولا يمكنك رؤية الطريق إلا برفع مصباح في مستوى يكشف منه كلا من السقف والأرض. وإلا فإنك تخاطر بعدم ملاحظة أنك على وشك أن تصدم جبهتك في السقف؛ لأنه

قد ينخفض على غير توقع منك.

وفي الحقيقة، كان هاردهيد نفسه يشعر بأنه أقل ارتياحا مما يود أن يعترف به حيال ما كانوا يفعلونه. كانت الرائحة اللاذعة أقوى مما يمكنه تذكره. وكانت الصرخات حادة إلى حد كبير، حتى لو أنها بالتأكيد ظلت خافتة إلى حد كبير. وكانت الرطوبة مازالت قوية، رغم أنها أقل بقليل مما كانت عندما خطوا في البداية داخل الفرع الأيمن للنفق. كان كل شيء يجعل هاردهيد متوترا بشكل متزايد. كان قلقا أيضا بشأن برتراند. عندما تحدثا منذ قليل لم تعجبه على الإطلاق نبرة صوت المذيع التليفزيوني. بدت غير ودودة وشرسة... بل الأسوأ: كانت مشتعلة بالهيستريا والعدوانية: لماذا؟ لم يعرف هاردهيد. وبصراحة تامة، كان يمكنه بالكاد التعرف على برتراند. ماذا دهاه؟

في ضوء هذه المخاوف، أحس هاردهيد بالقلق من أنه كان مخطئا عندما ترك مشروع كويس كوام، حتى لو كان عمله في حقل الإسخريوطي قد انتهى. لو ثارت المشكلات بسبب ذلك الغضب الغامض الذي بدا مسيطرا على برتراند، فلن يستطيع أحد التعامل مع الموقف غير بوني. وما زاد الأمر سوءا أنه كان ذا رأس فارغة... وليس ذا رأس صلبة(28)... حتى يأتي معه بكل من جيانينيو وبوريس.

لكن في الحقيقة اشتهر عن هاردهيد أنه رجل حازم. لو قرر أن يربط حياته بأحد، سيكرس أيامه ولياليه لضمان أن يحقق العمل المبذول مع ذلك الشخص نجاحا ويظل على هذا الحال. حاليا، كان برنامج كويس كوام يمثل له هذا الالتزام. وفكرة أن قراره بالمجيء إلى هنا ربما تخلق مشاكل للبرنامج، جعلته لا يشعر بالراحة. ومن ناحية أخرى، وبما أنه

28- إشارة مرة أخرى إلى لقبه Hardhead.

هنا الآن، فليس بمقدوره إلا أن يمضي قُدُما...

بالتأكيد كان هاردهيد مشغولا بهذه الأفكار حتى أن بوريس، الذي كان خلفه، لاحظ قبله بابا آخر على يسار النفق، باب خشبي هذه المرة، وليس مثل الأبواب الحديدية الموصدة التي رأوها صباح الأمس بعد أن سلكوا المنعطف الأيسر للنفق. توقفوا أمامه. أمسك هاردهيد بمقبض الباب الذي دار في يده، ودفع الباب فانفتح. بالداخل، كان الظلام شديدا. خطا هاردهيد في الظلام، رافعا مصباحه.

«فلنستمر في طريقنا! لماذا أتينا إلى هنا؟» قال جيانينو متذمرا.

كانت الرائحة الغريبة التي تبعتهم في كل مكان ذهبوا إليه في النفق قد صارت الآن قوية جدا في الظلام من حولهم. وكان هناك ما بدا كأكوام من الصناديق، مكدسة بعضها فوق بعض، أكثر ظلمة من الظلام. ثم وجد بوريس مفتاحا جانبيا ضغط عليه. أضاء مصباح نيون ضخم صفوفا من الصناديق – أقفاص كبيرة خالية، تفوح بروائح كريهة لوحوش أو طيور لا بد أنها عاشت هناك منذ زمن ليس ببعيد. سريعا، داروا حول الحجرة الكبيرة المربعة المحفورة في الصخر. كان مصباح النيون يصل بالكاد إلى كل الأركان الرطبة النائية في الحجرة.

«ما الهدف من هذه الأقفاص؟» تساءل جيانينو.

لم يعرف زميلاه الآخران الإجابة. بشكل عام، بدت الحجرة نظيفة، فيما عدا بقع الأوساخ الباقية على الأرض من الحيوانات التي كانت تعيش هنا.

«هلا نكمل طريقنا؟» تساءل هاردهيد وهو مشغول البال.

غادروا الحجرة قبل أن يطفئ بوريس النور وأكملوا طريقهم في

النفق. الآن كانت الصرخات الخافتة، إن كانت بالفعل قد بدت خافتة حتى الآن، تصدر –على ما يبدو– من آلاف الحلوق الضئيلة، وقد أصبحت أكثر حدة واهتياجا، وكانت مازالت تأتيهم من أمامهم.

وصلوا إلى بقعة كان النفق يتسع عندها متخذا نوعا ما شكل قمع مستدير. وثمة سلم ضيق يهبط من مكان ما في الأعلى. انساب الضوء من مصباحين معلقين على الجدران التي كانت سوداء من الرطوبة أو القذارة التي لا بد أنها تراكمت لقرون. تعرف هاردهيد على المكان – إنه المكان الذي أخبرته بوني أنها جاءت إليه مع برتراند. «هل تعرف إلى أين وصلنا؟» توجه هاردهيد بالسؤال إلى بوريس.

«إذا لم أكن مخطئا..» قال الشاب. «يدور النفق دورة كاملة من الحقل حيث بدأنا إلى مكان ما تحت البيت الريفي.»

«هكذا تخيلت الأمر أنا أيضا..» قال هاردهيد. «والناحية الأخرى تأخذك إلى أسفل التلين.»

«كل شيء يبدو عتيقا جدا... ترى من بنى كل هذه الممرات... ومتى؟»

«لا بد أنهم هؤلاء الأشخاص الذين نثير ضجة بشأنهم في كويس كوام... الفينيقيون...»

«لعلهم وجدوا كل هذه الأبنية في مكانها وقاموا فقط بتطويرها أكثر...»

«لقد أنعم الله على هذا البلد دائما بمطورين دؤوبين..» قال هاردهيد متذمرا، رغم أنه كان متورطا بدوره في تطوير عمارتين سكنيتين، واحدة في منطقة بوجيبا، والثانية في سليمة، وهو ما لم يذكره قط لأي أحد... لاحظ أن جيانينو كان يتحرك نحو السلم. «إلى أين أنت ذاهب؟»

سأله.

«سأصعد.»

«لا بربك، بما أننا وصلنا إلى هنا، سنستمر في استكشاف هذا النفق.»

كان جيانينو منزعجا للغاية. «في هذه الرائحة النتنة؟»

«ألم تعتد عليها بعد؟»

«هناك في الأعلى سيكونون في انتظاري، هناك البرنامج...»

«لن يطول بنا الوقت...»

«وأنا أشعر بالجوع!»

«مستحيل! في هذه الرائحة النتنة؟... على أي حال، انظر، فيما تبقى ينبغي أن يكون النفق أفضل من حيث أتينا. انظر هناك، مثلما وجدنا أنا وبوريس في الناحية الأخرى... عندما نزلنا إلى هنا. لقد وضع شخص ما مصابيح.» أشار هاردهيد نحو الجدار الذي يبدأ من عنده النفق مرة أخرى.

عندئذ بالضبط، سمعوا صوت طبل خفيف... كان شيء ما ينقر... على جدار؟ على سطح مائدة؟ على باب؟ كان صوتا خافتا موقعا، منتظما، كان يبدأ فجأة، ويستمر لبضعة ثوان، ثم يتوقف من جديد. كان هاردهيد واثقا أن الصوت لم يكن آتيا من السلم أو من أعلى.

«ماذا يمكن أن يكون هذا؟» تساءل جيانينو.

«إنه أشبه ببندول ساعة..» قال بوريس.

«ثمة تيار هواء يمر ويتحرك عبر هذا المكان...»

عاد الصوت مرة أخرى. لعله كان يتبع إيقاعا مستمرا، لكنهم عندما دخلوا هنا، متلهفين على استكشاف المكان، لم يلاحظوه.

كان بوريس هو من اكتشف الباب في الحائط، بالضبط قبل أن يبدأ النفق مرة أخرى. كان الصوت قادما من خلفه. فتح الباب ووجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام الجثة التي كانت مازالت (كما اكتشفها برتراند وبوني لأول مرة) تتأرجح جيئة وذهابا، مربوطة من عنقها إلى خطاف كبير في السقف بعد الباب المفتوح تماما. كان الأخير واسعا بما يكفي لمرورهم، بعد أن تغلبوا على صدمتهم الأولى، ليخطوا داخل الحجرة، ويتجمعوا حول الرجل المشنوق، ورغم رعبهم؛ يتطلعون إلى أعلى ليروا من كان...

فيما بعد، سيعلن هاردهيد أنه في هذه اللحظة فهم كم كانت اللعبة التي يلعبونها خطيرة، وأنهم سيلاقون صعوبة في الإفلات منها دون ضرر. وكي تزيد الأمور تعقيدا، شك على الفور في أن بوني وبرتراند قد وصلا بالفعل إلى هذا المكان، ووجدا الجثة المعلقة. لماذا إذًا لم يفعلا شيئا، ولم يقولا شيئا؟ لماذا أخبرته بوني أنهما دخلا منزل آل تونًّا الريفي، ولو كان قد فهم على نحو صحيح، هبطا إلى هنا، لكنها مع ذلك لم تخبره شيئا عن هذا الرجل الميت...؟

من بين ثلاثتهم، كان جيانينو الأسوأ حالا من تأثير اكتشافهم ذاك... في الحقيقة كان مرعوبا... وحدق كالمعتوه في الرجل، المتيبس المشنوق، وقد برز لسانه من فمه. «هناك دم تحت ذقنه..» تمتم جيانينو.

«هذا الرجل ميت منذ بضعة أيام... لكن رائحة النتن هنا... ليست رائحته..» قال بوريس. وكان أيضا شاحبا جدا.

«لم يمت من الشنق..» قال هاردهيد. «شخص ما شق حلقه.»

«من هو؟ من هو؟» تساءل جيانينو من جديد.

«لو كان عليّ أن أخمن... سأقول إنه واحد من الإخوة تونًّا.»

«هيا نذهب فورا إلى الشرطة...»

«بالطبع..» رد هاردهيد. «بمجرد أن ننتهي من النفق.»

«الآن! الآن فورا!» صاح جيانينو.

«لن يهم إن ذهبنا الآن أم بعد نصف ساعة...» وبينما يتكلم، رأى هاردهيد شيئا على الأرض، تحت القدمين المتدليتين. ودون أن يجعل الآخرين يلاحظان، حرك طرف حذائه نحوها، بقعة قصيرة من بياض قذر في التراب الرطب، وأزاحها بعيدا. كانت نصف سيجارة، سُحقت قبل أن تُدخَّن إلى النهاية. كان متأكدا أنها لم تكن موجودة هناك لأكثر من بضع ساعات، وربما أكثر من ساعة واحدة فقط.

«لا يمكننا البقاء هنا أكثر من هذا! ينبغي أن نعود فورا!»

«لو أردتما، فلتعودا أنتما الاثنان!» رد هاردهيد بصبر نافد. «إذا صعدتما هذه السلالم سينتهي بكما الأمر إلى مكان ما. سأبقى هنا لأرى ما يمكنني أن أجده، ثم سأعود من حيث هبطنا.» ونظر إلى بوريس، منتظرا قراره.

كانوا يصنعون مفارقة غريبة، وهم متجمعون كما هم تحت الرجل الميت المعلق من رقبته الذي كان مازال يتأرجح جيئة وذهابا بينهم، وحذاؤه القذر متدل في وجوههم. تردد بوريس وعض شفتيه، وعيناه مثبتتان على حذاء الرجل الميت ليتجنب التطلع إلى الوجه الأرجواني اليابس، بملامحه الملتوية، والبقعة الأرجوانية الكبيرة تحت فكه، بلون أغمق من لون وجهه، وعيناه الصفراوتان مفتوحتان على اتساعهما

وغائمتان. ولاحظ أن فردة من حذاء الرجل كانت بلا رباط.

أخيرا قال بوريس: «بما أننا هنا... فمن الأفضل أن نكمل... لنرى ما يحدث...»

نظر جيانينو إليه بيأس. «لكن ماذا سيكون حادثا؟ ماذا يمكننا أن نجد؟ الأفضل أن نذهب إلى الشرطة...»

«بما أننا هنا..» هز بوريس كتفيه. «فلنفعل كما يقول هاردهيد.»

ألقى جيانينو على السلم نظرة وهو يجري حساباته. لو ترك الآخرين كما كان يفضل بشدة أن يفعل، كم سيستغرق من الوقت كي يصعد؟ وأين سيجد نفسه لو فعل هذا؟ تخلى عن الفكرة وأدرك أن خياره الوحيد هو أن يتبع الاثنين الآخرين.

في صمت، غادروا الحجرة، التي لم يمكثوا فيها أكثر من ثلاث دقائق. أغلق هاردهيد الباب خلفهم. وكأنه يسخر منهم؛ بمجرد أن انغلق الباب، بدأ من جديد النقر الناعم من قدميّ الرجل الميت على الباب. لا عجب أنه من المستحيل الاختناق هنا، بالرغم من الرائحة الحادة في كل مكان، هكذا فكر بوريس... ثمة تيارات هواء خفية تأتي من الأعماق أو من قنوات تؤدي إلى الهواء الطلق، تبقي على تهوية جيدة للمكان...

.50

أكملوا سيرهم في النفق الذي كان كما حدس بوريس وهاردهيد يؤدي بهم إلى حيث وصلوا في المرة الأولى التي هبطوا فيها إلى هنا، في دائرة تمر تحت التلين الأثريين. تبعهما جيانينو في بؤس، مرعوبا تماما. ومع كل خطوة يخطوها، كان جسده يبدو وكأنه ينكمش أمام عيونهما، كان قلقا للغاية. طلب هاردهيد من بوريس أن يتقدم المسيرة هذه المرة وخطا هو خلف التقني السمين. وعندما دخلوا النفق، توقف بوريس ليلتقط قطعة من الورق الأبيض. «ما هذه؟» تساءل. «تبدو حديثة العهد.»

تفحصها هاردهيد بسرعة وقال: «إنها غلاف قطعة لبان، ماركة (لا لولا)..»

أجابه بوريس: «لم أكن أعرف أن الأشباح تحب اللبان..»

«هيا نعود... أو نصعد..» قال جيانينو مولولا.

«أنت خبير بماركات اللبان..» أشار بوريس مندهشا.

«من يدري كم مرة..» بدأ هاردهيد حديثه، ثم غير الموضوع على الفور. «من الأفضل أن نسرع..» قال. «الوقت يضغطنا وسيحتاج جيانينو إلى الذهاب للعمل على البرنامج.»

«هيا نعود الآن حالا..» أصر جيانينو.

تجاهله الاثنان الآخران. مضى بوريس قُدُما في النفق، وكان على جيانينو أن يتبعه. (لا لولا)... تعجب هاردهيد... اعتادوا أن يشتروها ليلوكوها ما بين السجائر... وحتى خلال جلسات الشراب الكبيرة، كانوا يلوكون اللبان... زابارو... أبو الشوارب... السفاح... بيتر المقص... لقد فقد الاتصال مع بعضهم... والآخرون، كان يعرف تقريبا ما كانوا يفعلون... لقد مر زمن طويل على تلك الشهور والسنين... عندما كانوا يتقابلون سرا تقريبا، إلا إذا كانت هناك مشكلة في الشارع... أو في الليالي، التي كان أغلبها مضيعة للوقت، والتي كانوا يقضونها في حجرة جلوس فلوريندو الخارجية أو على عتبة شخص مهم.

... ثم أحيانا كانت علبة تمر من يد إلى يد، وهذه المرة تخرج السجائر بدقة، ويجري التزام الصمت التام، حتى تؤخذ العلبة حيث كان يجب أن تؤخذ في الزمان والمكان اللذين يحددهما بالضبط شخص سيبقى في الظل... وثمة ليال أخرى عندما كانوا يستمتعون بوقتهم فقط في شرب عنيف بينما ينغمسون في تسلية أخرى ما... لا حاجة لوصفها بالتفصيل... لأنه لم يكن مجرد وقت للعمل والمشاكل... كان المرء بحاجة للاسترخاء بين الفينة والأخرى، وهؤلاء الذين كانوا يصدرون لهم الأوامر، كانوا يفهمون هذا...

هش عنه ذكريات الأصدقاء القدامى في الأيام الخوالي، لأن النفق كان يضيق وينخفض السقف. أنَّ جيانينو. وكي يريحه، ربت هاردهيد على كتفه وقال: «لا تقلق يا جيان. سنخرج قريبا.» وهكذا تصادف بعد بضع خطوات إلى الأمام أن اتسع النفق من جديد وارتفع السقف. «أترى؟ وها نحن لدينا تلك المصابيح على الجدران... قلنا لك إننا سنجدها...» أكمل هاردهيد، لتشجيع الفتى. ومع ذلك، فإن رائحة النتن التي ظنوا أنهم قد اعتادوا عليها، أصبحت الآن قوية حتى أنها بدت قادرة على اختراق بشرة وجوههم. علاوة على ذلك، كانت الصرخات التي ربما كانت صادرة عن

آلاف الأصوات الرفيعة تزداد قوة مع كل خطوة يخطونها.

«أهلا يا ريّس!» هتف بوريس من المقدمة. «هناك باب آخر على الجانب.»

كان على يسارهم. وإلى الأمام، على اليسار أيضا، كانت هناك أبواب أخرى. ورغم أن الرائحة الحادة كانت شديدة الكثافة فوق هذه المساحة، فإن ما أزعجهم أكثر هو الصرخات الخافتة الصادرة من عدد رهيب... آلاف، مئات الآلاف من... لم يعرفوا ما كانت... أو من أين...

«لا تفتحه!» قال جيانينو محرضا بوريس. وابتلع كلماته، مرعوبا أن يجدوا رجلا آخر مشنوقا وراء الباب.

رغم أن هاردهيد وبوريس ضحكا من مخاوفه، بدا ضحكهما أجوف قليلا. في البداية، عندما فتح هاردهيد الباب كان كل ما استطاعوا رؤيته هو الظلام. الغريب أن الصرخات الرفيعة كانت أقل حدة داخل هذه الحجرة، التي بدت فارغة حتى رفع هاردهيد كشافه واستطاعوا رؤية أن مثلها مثل الحجرة الأولى التي زاروها في سراديب الموتى تلك، لا بد أن هذه الحجرة كانت تُستخدم لتخزين المعدات المطلوبة للعمل الجاري هنا. دخل ثلاثتهم الحجرة... ومع ذلك أبقى هاردهيد عينا على الباب، وكأنه يخشى أن يحاول أحدهم حبسهم في الداخل. تفحصوا محيطهم في ضوء المصابيح التي كانوا يحملونها. استغرق الأمر منهم بعض الوقت حتى وجدوا مفتاح الإضاءة. وعندما وجده بوريس في ركن بعيد إلى حد ما عن الباب، كانوا قد لاحظوا بالفعل أن المعدات المخزنة هنا تتكون بالأساس من أحواض ومراجل ضخمة. وكما كان الحال في الحجرة الأولى، لم يغط ضوء النيون كافة الأركان وترك في الظل صفوفا كاملة من الصناديق والمناضد الواطئة المحملة بأدوات غريبة وثقيلة.

«هذه الأحواض تشبه الأحواض التي يتم فيها كبس العنب لصنع النبيذ..» قال جيانينو، الذي غلبه الفضول رغم أنه كان مازال خائفا بشدة.

«أنت على حق..» رد بوريس. «وفي هذه الماكينة... إن كانت مازالت تعمل... أنا متأكد أنهم كانوا يفرمون اللحم.»

كانت الرائحة النتنة حادة لدرجة تقزز النفس بالقرب من الماكينات والمعدات الأخرى التي تفحصوها. قال هاردهيد: «هذه الماكينات كانت مستخدمة منذ زمن ليس ببعيد.» وأشار إلى داخل حوض على شكل قمع، موضوع على حامل يسمح لمستخدمه بتدويره بعدد من الطرق. وكان سطح الحوض ملطخا بمعجون غير محدد اللون: رمادي أو أسود أو أحمر، جف وتصلب. «وكأن هذه الآلة تُستخدم لصنع شيء يشبه اللحم المفروم... مثلما قلت يا بوريس.»

«لكن مفرمة؟ في هذا المكان؟»

إلى جوار أحد الجدران، وجدوا ثلاث عربات يد معدنية من النوع المستخدم لحمل الخرسانة حول مواقع البناء. انحنى هاردهيد فوق إحداها والتي كان قعرها أيضا ملطخا بمعجون من الزيت أو الدم السميك أو الماء الدبق. انقبضت أنفه من الرائحة القذرة التي فاحت من عربة اليد، وقال لجيانينو: «لا يوجد شيء طيب كي تأكله هنا.»

ظل جيانينو صامتا وهو يراقب المشهد بعينين قلقتين. غادروا الحجرة وعادوا إلى النفق، الذي لم يعد منحنيا في دائرة واسعة، لكنه بدأ يسير في خط متعرج ويضيق منحدرا. وأثناء سيرهم، ارتفع صوت الصرخات الرفيعة مرة أخرى. لعل هذا بسبب أن النفق الضيق كان يكبر الأصوات إلى مائة ألف صدى.

توقف بوريس أمام باب آخر إلى اليسار. «الصرخات قادمة من هنا!» أعلن ودفع الباب. ومن الفجوة المفتوحة خرج انفجار من الزقزقات والأصوات الغريبة الجديدة. ولسبب ما لم يفهمه هو نفسه، أغلق بوريس الباب مرة أخرى.

«ما الأمر؟» تساءل هاردهيد وأمسك بالمقبض ليجذب الباب ويفتحه على اتساعه. كان قد بدأ يفقد صبره، محبطا مثل الاثنين الآخرين من القلق الذي اعتراهم جميعا. واجتاحهم انفجار الصرخات الحادة والأصوات الغريبة بتيار من الرائحة النتنة اللاذعة لدرجة جعلت الدموع تطفر من عيونهم.

كانت الحجرة بالداخل تشبه الحجرات التي دخلوها بالفعل، ربما أكبر حجما، لأن الظلام بالداخل كان أشد. لكن هذه المرة، كان الظلام حيا. فمن كتل الصناديق السلكية المكدسة بطول وعرض الحجرة إلى أبعد أطرافها، جاءت حركة هائجة ملأت المكان برفيف خائف. تحسس هاردهيد الجدار بجوار الباب بحثا عن مفتاح إضاءة حيث بدا مصباحه وكأنه يخبو وسط روائح الحجرة الخانقة... وجاء الضوء الذي أناره من مصباح ضعيف بدلا من أن يعطيهم رؤية واضحة للمكان الذي دخلوه، ملأه فقط بظلال سوداء بدت وكأنها تصارع بعضها البعض. ثم وجد هاردهيد مفتاحا آخر قريبا من الأول وضغط عليه.

في ضوء النيون المعدني الأبيض الذي ملأ المكان الآن، امتدت صفوف من أقفاص كبيرة وصغيرة مكدسة فوق بعضها البعض من الأرض إلى السقف تقريبا. وبداخلها، مضغوطة بشدة في بعضها البعض، كان بمقدورهم رؤية حيوانات سوداء، كبيرة كأنها كلاب صغيرة أو أرانب، لكنها لم تكن أرانب. اصطدمت الحيوانات المحجوزة في الأقفاص ببعضها بعضا، مرعوبة من الضوء. كانت صرخاتها قد غدت من الحدة

بمكان حتى أن الرجال الثلاثة الذين دخلوا للتوّ أحسوا وكأن طبلات أذانهم قد انخدشت. تجمدوا مكانهم محملقين في الحجرة.

أخيرا، اقترب هاردهيد من المنضدة الأولى لينظر داخل الأقفاص. «جرذان!» هتف باشمئزاز نادرا ما أحس به في حياته من قبل.

اقترب بوريس من خلفه، منحنيا ليرى صفا من الأقفاص مكدسا بارتفاع ركبة الإنسان، وكأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه بها الاقتراب من فوضى الجرذان المرعوبة المحبوسة في الأقفاص وهي تتقافز وتخربش وتتلوى فوق بعضها البعض في نوبة جنون، مصطدمة بجدران السلك التي تبقيها وراءها. وفيما وراء ضجة الصراخ والتلاطم الصادرة عن آلاف فوق آلاف من تلك الحيوانات المنضغطة كلها معا وهي تضرب أقفاص السلك، تناهت إلى سمع بوريس وهاردهيد ضجة أخرى قادمة من خلفهما... أشبه بسعال عميق وممتد... كان جيانينو الذي أمسكت به تشنجات عميقة يتقيأ عند جانب الباب. ومع ذلك، ظلا يحدقان في أكوام الأقفاص أمامهما. كان هاردهيد وبوريس يقيّمان الموقف ببطء، وهما يقاومان اشمئزازهما ونفورهما. ثمة أشياء غريبة للغاية تحدث في هذه السراديب، وبما أنهم وصلوا إلى هذا الحد، فكلاهما يريد أن يعرف ما كان يدور حوله الأمر كله.

في تأنٍ دار هاردهيد حول المنضدة الموجودة أمامهم ودخل أحد الممرات التي تصنعها المناضد المحملة بالأقفاص والتي كانت تمتد إلى نهاية الحجرة. على الجانبين، بينما يسير قاطعا الممر، ازداد الهياج بين الجرذان وارتفع صراخهم... بينما تزاحمت هذه الحيوانات بالآلاف وعشرات الآلاف وناطحت أسلاك الأقفاص. تقدم هاردهيد في الممر عازما على كبت إحساسه بالغثيان الذي بدأ يفور في معدته. كان عقله يسجل تفاصيل الشغب الذي كان يسير وسطه... أربعة جرذان سوداء

تزاحم بعضها بعضا وتدفع خطومها خارج السلك، رافعة إياها نحوه... جرذان في قفص آخر يعضان رقبتيّ أحدهما الآخر مناضلين تحت حشد من جرذان أخرى تضغط عليهما... وفي ركن قفص، رأى جرذة أم تضع وِلدتها التي يُداس عليها، مثلها هي نفسها، تحت وطأة الجرذان الأخرى التي تتقلب فوقها وفوق بعضها البعض.

شخص ما كان يسير خلفه بخطوة: بوريس. «لا تقترب أكثر من اللازم..» حذره هاردهيد. «ستلتقط منها البراغيث.» عندئذ أشار له الشاب نحو مجموعة من الجرذان السوداء التي بدت أكبر بكثير من الآخرين المحبوسين في بقية الأقفاص وقد تضاغطت ضد بعضها البعض. كانت تحيط بجرذ تمدد على أرضية القفص، مرفوع الأرجل، منطرح الرأس، بينما ثلاثة من الوحوش الصغيرة، وخطومها تقطر دما، تنهش وتقطع شرائح من بطنه. «إنهم يلتهمونه... لكن الجرذان لا تأكل بعضها البعض...»

«كل هذه الحيوانات تتضور جوعا..» أجابه هاردهيد. «لهذا تطلق صراخها طوال الوقت. ليس الأمر فقط لأنها خائفة منا...»

وصلا إلى نهاية الممر.

«من الأفضل أن تغطي أنفك وفمك..» قال هاردهيد ناصحا وسعيدا لأنه يحمل معه دائما منديلا كبيرا في جيبه، أخرجه ولفه حول ذقنه وأنفه. لو كان هذا ممكنا، فإن رائحة النتن في هذا الجانب من القبو كانت أقوى مما عهدوه في أي جزء منه حتى الآن.

منزعجا، هز بوريس رأسه؛ لأن كل ما كان يحمله معه هو منديل ورقي كان يستخدمه طوال اليومين الماضيين...

استدارا عائدين. كانت صفوف من الأقفاص المكدسة على بعضها

البعض كأبراج مائلة تحيط بهما، متأرجحة إلى الأمام وإلى الخلف مع دفعات الجرذان بداخلها في نوبة جنون متزايدة، وقد تغطت أفواه بعضها برغوة بيضاء.

«أيا كان من يطعم هذه الحيوانات عادةً، فقد نسي أن يفعل هذا مؤخرا..» تمتم هاردهيد. «ونسي أيضا أن يقدم لها الماء... سينتهي بها الأمر وهي تأكل بعضها البعض.»

تحت الجدار قريبا من مكان وقفتهما، كان هناك حوض كبير من الزنك، وبعده بقليل حوض آخر وآخر، كلها موضوعة تحت صنابير مياه في الحائط. ذهبا ليتفحصاها. قرب أحد الأحواض كان هناك قفص فارغ، وقد انفتح أحد جوانبه.

«فيمَ تُستخدم هذه؟» تساءل بوريس.

بعد برهة صمت قال هاردهيد: «هذه الأحواض كبيرة بما يكفي لاستيعاب قفص... أو اثنين... وإذا امتلأت بالماء تغرق الجرذان بالداخل...»

في قاع الحوض الثالث الذي اقتربا منه، كانت هناك طبقة من ماء قذر كريه الرائحة. وكأنه تأكيد لتفسير هاردهيد، رقد جرذ كبير ميت في الماء، منفوخ البطن، مكسور الذيل. «لقد مكث هنا ليومين على الأقل..» قال هاردهيد مفكرا. «إذا كانت هذه الجرذان قد مكثت كل هذا الوقت دون طعام وماء، فليس من المدهش أن تكون بكل هذا الجنون.»

وعلى سبيل إظهار صحة ما يقول، استمر تزايد صراخ وتخبط الجرذان المحجوزة في الأقفاص بينما كان يتحدث. وعندما وصلا إلى نهاية الممر بين الأحواض وصفوف الأقفاص، وجدا اكتشافا آخر. ثلاث عربات يد معدنية... مثل تلك التي رأوها في الحجرة الأخرى التي زاروها

بالفعل... كانت مركونة بمحاذاة الجدار.

«إنهم يستخدمون هذه العربات لحمل الجرذان الميتة..» قال بوريس.

أومأ هاردهيد برأسه وأشار إلى بقعة على الأرض تحت إحدى العربات. كانت رجل جرذ مقطوعة تُركت حيث سقطت.

كانا الآن يسيران في الممر الكائن بين جدار القبو ومنضدة محملة بأقفاص كانت الجرذان السجينة فيها تتقاتل مع بعضها البعض كالمجانين. وفي النفق خارج الحجرة، كان جيانينو ينتظرهما، وهو يلهث كأنه أنهى للتوّ سباق عدو طويل.

«هيا نخرج من هنا سريعا..» قال.

«الآن وبعد أن بلغنا هذا الحد، سنكمل إلى النهاية..» رد هاردهيد بحزم.

«إنهم ينتظرونني بالأعلى في كويس كوام...»

«إذًا عُد وحدك.»

«أنا خائف!»

«إذًا فلتبقَ معنا.»

كان جيانينو في حالة بائسة. «هذا المكان أكثر مما أحتمل.... خانق للغاية. تعاليا معي وبعد ذلك يمكنكما العودة... أو أنت يا بوريس... تعال...»

«نعم يا بوريس، اذهب معه. وبعد ذلك إذا أردت، تعال وستجدني هنا.»

تردد الشاب. لم يكن بالتأكيد مستمتعا بهذه المغامرة، لكنه مثل هاردهيد؛ ما إن يبدأ شيئا ما، فلا شيء يمكن أن يجعله يكف عنه... ولهذا كان يجد صعوبة في إطاعة برتراند عندما حذره المذيع التليفزيوني من الاستمرار في اختراق حواسيب الناس. في الوقت نفسه كان يشفق على جيانينو، مدركا كم كان يشعر بالغثيان. «سنسير فقط قليلا إلى الأمام، ثم سأذهب معك..» قال بوريس أخيرا، آملا أن يشعر جيانينو بالتحسن بمجرد أن يتركوا حجرة الجرذان.

«إنهم يربون الجرذان في هذه المزرعة. لقد سمعت بوجود مزارع مثل هذه في الأزمنة القديمة، لكني لم أعتقد أبدا بأن مزرعة كبيرة كهذه يمكن أن تكون مازالت موجودة اليوم. والأغرب أن تكون موجودة الآن ونحن جزء من أوروبا. أظن أننا سنجد سراديب أخرى مليئة بالأقفاص.»

«لكن ماذا يفعلون بها؟»

هز هاردهيد كتفيه ليشير إلى عدم معرفته.

«ولماذا يُجوعونها إذا...»

«أتصور أننا رأينا منذ قليل واحدا من هؤلاء الذين كانوا يطعمونها... إنه مشنوق هناك... لذا...»

«إنها مزرعة آل تونَّا، هل تفكر فيما أفكر فيه؟»

«وهل يمكن أن يكون هناك تفسير آخر؟ لا بد أن الرجل المشنوق واحد من الإخوة تونَّا. أيهم؟ لا أعرف. ولهذا لم يريدوننا أن نأتي في طريقهم...»

بذل جيانينو جهدا كي لا ينصت إلى ما كان يقوله الاثنان الآخران. خلال لحظات التوتر كتلك الحالية، كانت لديه وسيلة جيدة لإخراس كل

المخاوف – كان يحاول تذكر وجبة جيدة ما التهمها من قبل. ومع ذلك، كانت المشكلة هنا أن الرائحة النتنة التي تتخلل كل مكان، بمقدورها أن تفسد أي ذكرى لطعام جيد...

وجد نفسه أفضل حالا عندما تذكر وجبة برجر الدجاج التي تناولها مساء الأمس قبل العودة إلى البيت، حيث وجد دونًّا غاضبة جدا منه، بلا سبب على الإطلاق... أو لأنه وصل متأخرا وأدركت أنه قد أكل بالفعل، وأكل جيدا... بينما تمكنت هي من قضاء يوم آخر كامل دون أن تتناول أقل لقمة، معتقدة كما كانت تعتقد دوما في العلاجات المتطرفة: إذا كنت تفعل شيئا بجدية، فيجب ألا تكون هناك أي حلول وسط. وفقا لها، كانت أفضل حمية غذائية هي تلك التي تبقيك ببساطة بعيدا عن كل طعام، ولهذا كانت لأول مرة في حياتها تتبع حمية غذائية... وقد تجمعت كل شياطين الجوع لتقرص أحشاءها. ورغم عذاباتها، فقد ظلت صامدة؛ ولهذا أصبحت أشد غضبا عليه لأنه تركها تعاني وحدها، بينما ينغمس هو في وجبة عامرة...

تعاركا بشدة. لكنه الآن يريد من عقله التركيز بقوة على وجبة الأمس الكبيرة من برجر الدجاج. كان بحاجة إليها ليهدأ وينجو بأمان من هذه المغامرة التي جره إليها هاردهيد... وهو انجرَّ إليها كالحمقى غير مدرك ما كان يجري... طعم البصل ولحم صدر الدجاج الشهي الطري، المشرب بصلصة الطماطم الكثيفة والزيت المقلي... آه! كم كان كل هذا لذيذا... نعم، لقد تمكن بالفعل وبفضل هذه الذكريات السعيدة التي كانت تجعله جائعا مرة أخرى، من أن يضع خلفه مخاوفه مما رآه للتوّ، والقرف من مرأى الجرذان وهي تتدافع في أقفاصها... نعم، كان بمقدوره نسيان كل هذه الوحوش التي تملكها جوع لا بد أنه هائل كجوع دونًّا...

بدا طبيعيا أن يمشوا متثاقلين إلى الأمام، كما لو أنهم يشاركون في موكب (الجمعة العظيمة). كانت الصرخات الحادة من الجرذان المحبوسة في الأقفاص تحيطهم من كافة الاتجاهات. امتد النفق منحدرا قليلا. هنا أيضا، كان آخرون قد مروا قبلهم. كانت المصابيح المثبتة على الجدران مطفأة، لكن السناج الذي كانت تحمله دل على أنها تُستخدم كثيرا.

بالضبط كما توقع هاردهيد وبوريس، وجدوا بابا آخر على اليسار، والذي كان مواربا هذه المرة. «جاء شخص ما إلى هنا منذ قليل..» قال هاردهيد. كانت غرائزه القديمة من الوقت الذي كان يعمل فيه حارسا شخصيا بأجر، والتي كان يحتاجها ليُبقي عينا حادة على كل تفاصيل ما يحدث، لضمان معرفته بكيف وأين يضع الخطوة التالية: كل هذه الغرائز القديمة لديه عادت إلى العمل، خاصة منذ اللحظة التي اكتشف فيها –دون أن يخبر رفيقيه– عقب السيجارة ذاك على الأرض تحت قدميّ الرجل المشنوق...

«هل سندخل؟» تساءل بوريس لاهثا. كان يشعر بالتوتر، وربما في قرارة نفسه كان يفكر أنه كان ينبغي عليهم أن يفعلوا ما أراده جيانينو. كانت الرائحة الرهيبة ومرأى كل هذه الوحوش المسعورة تتقاتل ضاربة جدران الأقفاص السلكية التي تحبسها يقوضان أي فكرة ربما كان يحملها بوريس حول كيف أن كل ما يحتاجه العالم هو الإصلاح، وبمجرد أن يُنفَّذ هذا الإصلاح، سيسير كل شيء على ما يرام. لكن أي إصلاح يمكن أن يحل المشكلة الوجودية التي تمثلها الجرذان؟ تلك الحيوانات التي يثير مجرد وجودها اشمئزازك، وهو الشيء الذي لا تلام عليه، وحتى عندما يكون من المؤكد أنه لا ذنب لها في أن تجد نفسها محبوسة في سجون من أقفاص سلكية لن تخرج منها حية أبدا...

في محاولة كي يهدأ، ترك عقله يسرح في أحدث برنامج أطلقه لاختراق حواسيب وزارة المالية، لكنه سرعان ما كان يعود بتركيزه إلى مشهد لم يستطع حذفه من ذاكرته – الجرذان وهي تأكل من بطن رفيقها المفتوحة بفكوكها المدببة الدامية، بينما في فوضى قفص آخر تكومت جرذان أخرى فوق بعضها البعض. حاول أن يعيد تركيز أفكاره من الحواسيب التي كان معتادا على اللعب بها كأنها لعب، إلى الكتب التي قرأها أو التي كان يقرأها... الرواية الأخيرة لإمبرتو إيكو... رواية إد ماكباين[29] المثيرة التي بدأها في الأسبوع الماضي وتركها في نصفها عندما علم من فتاته كيف تعاملت وزارة الخارجية مع طلبها للانضمام إلى طاقم العاملين بها...

دفع هاردهيد الباب ليفتحه وولجوا إلى هوجة من الصراخ والحركة كانت تنبض في هذا القبو، بقوة كما في القبو السابق، وربما أكثر. كان هذا المكان أيضا يعج بالجرذان. وعلى الفور أدركوا أنه هنا ولسبب غريب ما، كانت الجرذان المتلاطمة في أقفاصها أكثر عنفا من الوحوش التي قابلوها في الحجرة الأخرى. بدت صرخاتها أكثر يأسا. وأحاطت الرائحة الحادة للحيوانات المرعوبة المحرومة من الطعام والماء بالمكان كله.

ظل جيانينو في الخارج. كان قد اكتشف أنه إذا أبقى ظهره مسنودا على حائط النفق، مفكرا فقط في برجر الدجاج الذي تناوله بالأمس، سيتمكن من التحكم في التوتر والمخاوف التي اجتاحته منذ نزلوا إلى هنا. قريبا سيغادرون هذا الظلام وتلك الرائحة النتنة، هكذا ظل يردد لنفسه مرة بعد مرة.

29- Ed McBain (1926 - 2005) مؤلف وكاتب سيناريو أمريكي. على الرغم من نجاحه وشهرته باسم إيفان هانتر، اشتُهر أكثر باسم إد ماكباين، وهو الاسم الذي استخدمه لمعظم قصصه في أدب الجريمة، بدءًا من عام 1956.

بوجود بوريس في المقدمة، أصر هاردهيد على الدوران في الحجرة الواسعة التي دخلاها... متنقلين من ممر إلى آخر... ملاحظين أنه يوجد هنا أحواض زنك أكثر مما في القاعة الأخرى... لكن بناء على نصيحة الشاب الذي كرر تحذيره بشأن البراغيث التي يمكن أن تقفز عليهما من أجساد الحيوانات المسعورة، ابتعدا قدر الإمكان عن الثورة الحادثة في الأقفاص، وقد وضع بوريس منديله بإحكام على أنفه... بدا أنه توجد هنا مزيد من حالات الجرذان التي تحولت في نوبة ذعرها إلى رفاقها وأخذت تلتهمها. وهو ما بيَّن أن الجرذان هنا كانت في وضع أشد حرجا...

غادرا الحجرة. وقال هاردهيد: «ثمة شيء يسير على نحو خطأ بشكل خطير في هذه المزرعة، وليس فقط لأن واحدا من الإخوة تونًّا قد تعرض للأذى.»

.51

بعد ساعة من انقطاع الكهرباء، عادت الأضواء في المختبر، وبذل بروفيسور ديلينجر جهودا بطولية ليعيد كل شيء إلى طبيعته. ورغم أن والي أحمد حاول المساعدة، إلا أنه لم يستطع أن يقدم إلا القليل من العون. فقد كانت النظم التي يعمل وفقا لها المختبر خليطا من إجراءات مؤقتة طورها ديلينجر عبر السنين ليجري تجاربه بالوسائل المحدودة المتاحة أمامه. مع الوقت، أصبحت التجارب أصعب وأعقد، وامتدت لتشمل سلسلة من مجالات البحث تتسع باستمرار. وعندما أدرك ما هي موارد ديلينجر وكيف يعمل، ذُهل أحمد من قدرته على التمكن والمضي قدما حتى الآن نحو تخوم الاكتشاف العلمي. وزادت دهشته عندما أطلعه ديلينجر على التمويلات التي تلقاها لإنجاز هذه النتائج. «لم أكن لأتمكن حتى من البدء بالمبالغ التي تتحدث عنها..» أسرَّ إليه. «اضرب الرقم الذي تذكره في ألف وسيكون هذا هو مقدار ما حصلت عليه من (صندوق دبي) في العام الماضي كي أبدأ مشروعي حول بوتو-رع.»

«وبعد ذلك يقولون إننا نحن المالطيين غير بارعين في البحث!» تمتم ديلينجر بصوت خفيض. للحظة، بينما كان يغير مراحل أحد المحولات الذي انعكست قطبيته عندما انقطعت الكهرباء، اجتاحته موجة من الكبرياء الوطني. وبسبب هذا التشتت، وبدلا من إعادة القطبية إلى وضعها الطبيعي، نجح في جعلها في وضع أسوأ. لذا، جلا عن عقله كل الأفكار الأخرى، وليس أقلها ما يتصل بالوطن والأمة، وركز على المحول.

مع العمل بقوة وسرعة، تمكن البروفيسوران أخيرا من إعادة أنظمة المختبر كلها تقريبا إلى نسق العمل. على الأقل صار بمقدورهما الآن أن يستعرضا معا استنتاجاتهما الأولية فيما يتعلق بالاكتشافات التي تمت أمس واليوم.

كانا قد اجتمعا للتوّ حول الحاسوب الذي سُجلت فيه الرسائل العصبية المبثوثة من مخ برتراند، عندما رن هاتف ديلينجر الخاص. رفعه وعلى وجهه نظرة مندهشة لأن لا أحد تقريبا كان يعرف هذا الرقم. تحدث رجل؛ لم يميز البروفيسور صوته. قدم نفسه باسم السيد لورينتي مانيسكالكو من مكتب حكومي كان ديلينجر قد سمع به، لكنه تظاهر الآن أنه مجهول بالنسبة له. رغب الرجل في أن يراه فورا.

«أنا لا أعرف من تكون..» قال ديلينجر. «لكني الآن أعمل على تجربة هامة جدا ولا يمكنني أن أراك. هل يمكن أن تخبرني من أين حصلت على هذا الرقم...؟» أصر الرجل على الطرف الآخر أنه مازال يرغب في رؤيته حالا، دون أن يخبره كيف حصل على رقمه. «أنا متأكد أنك حصلت عليه من كارميليتو..» احتج ديلينجر وكان على وشك أن يفقد أعصابه، وهي الواقعة التي ستكون بلا سابقة تماما.

من ناحيته، ظل مانيسكالكو مصرا، بصوت كان أنعم بكثير مما يمكن أن يكون عليه صوت ديلينجر. «أنصحك ألا تستمر في رفض مقابلتي...»

«تعال غدا..» أجابه البروفيسور.

«أنا أيضا في النهاية يمكن أن أكون مشتركا بعد قليل في مشروع دروسيلا...» أكمل الرجل.

«لا تتوقع مني أن أناقش هذا الأمر معك، لا الآن، ولا غدا...»

«أنصحك مرة أخرى ألا ترفض اللقاء...»

«غدا وليس اليوم...»

«المسألة لها أهمية وطنية قصوى... وعاجلة جدا...»

«وكذلك العمل الذي أقوم به الآن...»

«وهناك شيء آخر. أنا أيضا أحاول أن أقابل على نحو عاجل شخصا وصل إلى البلاد مؤخرا... شخص اسمه والي حمدة تقريبا...»

«إذا كنت تشير إلى زميلي الشهير بروفيسور والي أحمد من جامعة الإسكندرية، فيمكنني إبلاغك أنه موجود هنا معي؛ لأننا نعمل معا على هذا المشروع الذي نجريه منذ شهور...»

«أريد أن أراه كذلك، وعلى نحو عاجل جدا...»

«ما قلته عني ينطبق أيضا عليه...»

«أنا أصر...»

«وأنا أيضا...»

«مع كامل احترامي، لمصلحة الأمن الوطني، أنصحك مرة أخرى ألا تستمر في رفض اللقاء...!»

«أنا لا أرفض. أنا أقول لك دعنا نتكلم غدا. حاليا ولمصلحة العلم العالمي، لا يمكن إزعاجي حتى...»

«هذا أمر ذو خطورة قصوى. ويمكن أن يؤدي رفضك إلى عواقب معينة...»

«اذهب وناقشها مع كارميليتو. يجب أن أتركك.» وهو ما فعله

ديلينجر.

رغم أن ديلينجر لم يكن منفعلا أكثر من اللازم بسبب المقاطعة، في الحقيقة ظل هادئا، إلا أنها أزعجته كثيرا بالفعل. وعندما سأله أحمد ما الأمر، اخترع قصة واستمر الاثنان في أبحاثهما. في البداية، وجد بروفيسور ديلينجر صعوبة في التركيز كما يجب على العمل أمامه. رغما عنه، كان ينتفض بقلق بينما يفكر في هذه المحادثة غير المتوقعة مع مانيسكالكو، أقلها لأنه يعرف أن المكتب الذي اتصل منه الرجل يتعامل مع موضوعات شديدة الحساسية... لكن هل اتصل فعلا من هناك؟ كان هذا المكتب يحاول أن يدس أنفه في كل مشروع. وكان على هؤلاء المسؤولين عن مشروع دروسيلا من الطرف المالطي أن يلعبوا بقسوة كي يبقوا هذا المكتب على مسافة. إذ كانوا واثقين أنه يريد السيطرة على مشروعهم...

ومع ذلك نكرر، إذا كان بروفيسور ديلينجر أصيب بالتشتت في البداية، إلا أنه سرعان ما نسي مخاوفه، عندما بدأت النسخة الكاملة مما قاله الصوت هذا الصباح خلال البث العصبي الصادر عن مخ برتراند في النزول على الشاشة بالرموز الهيروغليفية والمسمارية. وسرعان ما أدرك أن جبلا من المعلومات الجديدة ينكشف أمامهما. غدا ديلينجر يشعر بإثارة هائلة، وهو ما خلق تناقضا حادة مع الإحباط الذي ربما شعر به الليلة الماضية. وكان بروفيسور أحمد مستثارا بالمثل.

في الحقيقة، كان أي مراقب خارجي ليجد صعوبة في تحديد أيهما كان الأكثر استثارة وهما يتفحصان معا اكتشافاتهما... منفعلين ومندهشين بعمق معا... صحيح: العلم عشيقة المهام الصعبة. تضيء أمامك مجالات جديدة من المعرفة، لكن وهي تفعل هذا؛ تريك مساحات أخرى من الظلام الدامس لم تحلم من قبل بوجودها، حيث لا يمكن أن

يصلها ذلك الضوء الجديد الذي أمدتك به للتوّ...

حللا الكلمات التي نطقها الصوت وفحصا معنى ما قاله، متجادلين حول الاختلافات الدقيقة المتعددة في الطريقة التي اختارها الصوت للتعبير عن نفسه. وناقشا بشكل مطول تعبيرات معينة كانت جديدة عليهما، سواء كجزء من لغة كيميت التي تعود إلى ألف ومائة عام قبل الحقبة العامة، أو كجزء من اللغة الفينيقية القديمة المنطوقة في جبيل. ورغم حرصهما على عدم حدوث أي تسرب للمعلومات حاليا من نظامهما إلى الشبكة الدولية التي يجري فيها بناء قاعدة بيانات كاملة عن التاريخ الفينيقي، إلا أنهما أجريا كل الاختبارات اللازمة للتأكد أن ما قاله الصوت وما استخدمه من تعبيرات تتسق مع أحدث المكتشفات عن الحضارة وطرائق الحياة السائدة في المناطق التي سيطر عليها الفينيقيون. (ولا يعني هذا أن ديلينجر وأحمد لم يريدا أن يكشفا اكتشافاتهما الجديدة والمذهلة لبقية المجتمع العلمي العالمي. بل كانا ببساطة يريان أنهما قبل أن يفعلا هذا سيكون من الأفضل في البداية أن يتفقا فيما بينهما على الدلالات العلمية لمكتشفاتهما.)

في الوقت نفسه، أخضعا التسجيل الإلكتروني للصوت إلى التحليل الطيفي الذي قدم لهما فهما لكيف تحددت نغمة الصوت وفق المشاعر الخفية، وإلى أي حد حدث هذا. وبالتالي، أجريا اختبارات باراسيكولوجية حيث درسا، بمعاونة نسخة احتياطية من حاسوب أتى به ديلينجر من ركن منسي في مختبره، العوامل النفسجسمية التي يمكن أن تربط في سردية واحدة الخطاب الذي نطقه الصوت، كرسالة، مع مراعاة الدوافع غير المعلنة التي كانت تؤدي به إلى التعبير عن نفسه في اللغة المختارة. كانت أكبر مشكلة واجهتهما وهما يعملان نتيجة لحقيقة أن انقطاع الكهرباء حدث بالضبط في اللحظة التي كان فيها الصوت قد بدأ يصف بمفردات واضحة المظالم التي كان يشعر بها

حاليا الشخص الذي كان وراء الصوت أيًا كان. أصبحت معاني الكلمات التي استمعوا إليها مرة بعد مرة مشتتة وغير مؤكدة، رغم أنهما كانا معتادين على كل من الكلام المصري والفينيقي القديم. ومع ذلك، كان الصوت يعبر عن نفسه ببلاغة مدينة طيبة التي كانت منذ ثلاثة آلاف عام وأكثر، وجماليات هذا الخطاب غريبة تماما عن الطريقة التي نتحدث بها اليوم، وكيف نفهم ما يحدث حولنا.

لكن عندما فحصا وأعادا فحص المعلومات المكتسبة حديثا، كان استنتاجهما أن الصوت قد تكلم بانزعاج وغضب عميقين... في الحقيقة، ربما كان بعاطفة أقوى بكثير من مجرد الغضب... وقد أشار إلى حوادث من الماضي... لكن لم يكن من الواضح تماما ما حدث بالفعل في هذه الأوقات المضطربة... وبعد ذلك أشار إلى الحاضر... بغضب أيضا... وبعنف أكبر...

مرت الساعات. اندفع البروفيسوران قُدُما في أبحاثهما، دون أن يأخذا أي استراحة. وكل اقتراح يقدمه أحدهما بمزيد من التقصيات كان يقابَل من الآخر بالموافقة وبأفكار جديدة حول كيف يمكن تنفيذ الاقتراح بشكل أكثر فاعلية. خلال هذه الساعات، ولتحقيق نتائج مُثلى في تقصياتهما، وظفا فعليا كل الأجهزة الموجودة في المختبر، وكذلك المعدات التي أحضرها والي أحمد معه من الإسكندرية. ورغم أن انقطاع الكهرباء قد أجهض تجربتهما الرئيسية، فقد تمكنا من اعتصار الحقائق الجديدة التي ظهرت إلى النور ليخرجا منها بتفسيرات تتعلق بما حدث وبما مازال يحدث. وقد تركتهما تفسيراتهما مندهشين، مذهولين. كانا يمران بما كان بالنسبة لهما لحظة مثيرة، محتشدة باكتشافات لم تخطر بالبال فقط منذ بضع ساعات. لكنها كانت أيضا محتشدة بالرعب.

خارج المختبر، كان ضوء النهار ضعيفا جدا بالفعل؛ لأن السماء

كانت مكفهرة، مائلة إلى الغسق. انتشرت الظلال الرمادية في كل مكان، كستار يُجذب عبر كافة أركان البدروم الكبير في المبنى حيث كان ديلينجر يعمل طوال سنوات.

والآن، بينما يتعمق ضوء النهار الرمادي في الخارج، تمكنا من الوصول إلى بعض الاستنتاجات المبدئية حول اكتشافاتهما الجديدة. جلس ديلينجر ووالي أحمد في مواجهة أحدهما الآخر حول المكتب الذي كان ديلينجر يكتب عليه تقاريره عادةً. كانا يشعران بالرضا الشديد، وبالهدوء الشديد، رغم شعورهما بالإثارة مما تأكدا منه حتى الآن، لكنهما أيضا كانا يرتعدان خوفا عندما أدركا هول العواقب التي يمكن أن تكون وشيكة.

ديلينجر. أخيرا نحن في وضع يؤهلنا لمناقشة الحقائق، وليس مجرد تخمينات. دون ظل من شك، كان هذا الصوت صوت بوتو-رع. كرئيس للقيادة الفينيقية في البحر المتوسط، كان محل ثقة وأُعطي صلاحيات كاملة. وقد بنى في منطقة زنوبر قاعدة عسكرية منيعة... فوق وتحت الأرض... والآن سمعناه يقولها بنفسه، أنه خان من وثقوا به وتحالف مع الإتروسكانيين الأوائل. لماذا فعل هذا؟ لم يخبرنا.

أحمد. أنت تحترس أكثر من اللازم. مما قاله، يمكنك استنتاج ما حدث. قبل أن يترك صيدا، ارتكب عددا من الجرائم. دون سبب واضح، قتل عددا من الكاهنات في معبد بعل... كن عاهرات المعبد، هكذا كنا لندعوهن اليوم، لكن بالنسبة للفينيقيين كن نسوة مقدسات، مخطوبات لبعل... لماذا فعل هذا؟ لا نعرف... لكن يمكنني القيام ببعض التخمينات. القصة مكتوبة على أحدث لوح حجري عثر عليه فريق جامعة بيروت في أعمالهم التنقيبية في بعلبك4-... حتى لو أن اللوح لا يخبرنا بمن قام بالمذبحة في قدس أقداس بعل. خشي بوتو-رع أن يكتشفوا في

النهاية من ارتكب هذه القتلة المدنسة... فقد كانت أسوأ جريمة يمكن أن ترتكبها في المجتمع الفينيقي... أن تقتل زوجات بعل... لو علموا فعلا بما حدث، لسحبوا منه كل الثقة التي وضعوها فيه وأعادوه... وعندما عرض عليه الإتروسكانيون الأوائل الذهب، اعتقد أنه من الأفضل أن ينتهز الفرصة...

ديلينجر. أفهم المنطق من وراء فرضيتك. لكن كيف تمكن من إقناع الجنود الذين كانوا معه بالانضمام إليه...؟ عليك أن تفسر هذا أيضا...

أحمد. سأقول لك: أول حملة أُرسلت تحت قيادة بوتو-رع تكونت في أغلبها من مرتزقة... آشوريون ومصريون كانوا لاجئين هاربين من بلادهم... حيثيون جائعون لم يكن بإمكانهم كسب رزقهم إلا بالقتال لصالح شخص آخر. والفينيقيون القلائل الذين أُرسلوا مع الحملة لا بد بالتأكيد أنهم ذُبحوا لو رفضوا الخيانة.

ديلينجر. كانت حسابات بوتو-رع خاطئة. أضافت خيانته وزرا جديدا إلى الجريمة التي كان قد ارتكبها كما تقول... وأعتقد أنك على حق... لدرجة أجبرت الفينيقيين على إرسال أفضل مواردهم العسكرية إلى هنا كي يثأروا. استولوا على المنطقة بأكملها. مقارنة بالحملة التي أرسلوها سيبدو حصار طروادة أشبه بلعب الأطفال. وفي مواجهة القوات التي حشدها الفينيقيون، تبخر الإتروسكانيون... لكن بوتو-رع أصر على تحديه حتى النهاية المريرة. وإذا كان قد خسر كل شيء وتم القبض عليه، فهذا لم يحدث لأنه فقد أعصابه وانهار، بل لأن القوات التي أتوا بها في مواجهته كانت كاسحة.

أحمد. قال كثيرا من هذا صباح اليوم. ومع ذلك إذا درست حياته، ستجد أنه عاش دائما بإيقاع مجنون. أعتقد أنه عمل كواحد من الأنماط التي بنى الناس عليها لاحقا أساطير الأبطال المحاربين... مثل أسطورة

آياس بين الإغريق. يبقى بالنسبة لي أن أهم خطوة حققناها اليوم عندما فهمنا كيف كان انتصار الفينيقيين على بوتو-رع والإتروسكانيين الأوائل بداية للإمبراطورية الفينيقية في الغرب، والتي أدت في النهاية إلى تأسيس قرطاجة. في زنوبر، بنوا هذه المقبرة الهائلة التي تُذكر دائما في الألواح الفينيقية، دون أن يعثر أحد قط على موقعها.

ديلينجر. في هذا المكان، كما أرى، يكمن اللغز. ماذا دعا بوتو-رع إلى التحرك من جديد؟ أين يرى تهديدا لوضعه في المساحة التي تخص البشر في هذا العالم؟ صحيح أنه بالنسبة للفينيقيين والمصريين، ترتبط الحياة بعد الموت بالطريقة التي تتم بها حماية وتكريم البقايا التي نتركها وراءنا. لكن بقاياه هنا كانت تُعتبر من البداية بقايا شرير موصوم...

أحمد. في البداية، نعم. لكن بما أنه دُفن في المكان الذي اعتُبر لاحقا أقدس بستان في العالم الفينيقي، ثم بطريقة ما، جرى التعويض عن الشر الذي كان مسؤولا عنه في حياته عن طريق بقايا المحاربين والتجار الفينيقيين الآخرين التي جيء بها لدفنها، إذا جاز التعبير، إلى جواره. ما يحدث... ولا نعرف كيف أو لماذا... هو أن خطايا بوتو-رع القديمة تعود إلى الحياة من جديد... والراحة الأبدية التي اعتقد أنه حظي بها تتعرض للتهديد. بعض الأقوال التي كان يرددها بدت أشبه بمقتطفات مطولة من كتاب الموتى المصري القديم، في نسخته بمدينة طيبة... لكن شيئا ما يقول لي إنه لم يكن يقتبس من هذا الكتاب، بل هي مقتطفات أخرى من نص أقدم بكثير، لا نعرف عنه شيئا. عندما ذكر أنه لو حولت الموتى إلى علف للحيوانات، فأنت ترتكب أسوأ جريمة ممكنة، وأنك بهذه الطريقة تمنح الشخص الميت الحياة من جديد، كروح من أرواح الدمار... حسن، أنا لم أسمع بهذا قبل اليوم، ولم أجده قط أو أقرأه في أي مكان.

ديلينجر. طيب، أنا فهمت أن ما قاله كان يشير إلى ما يحدث الآن... ولذلك أنا تائه! من الذي حوَّل أو يقوم بتحويل الموتى إلى علف للوحوش؟ وكما تقول، هو في نفس مأزق الموتى الآخرين... رغم أنه كان خائنا رفض أن يموت كرجل شجاع، وفقا للتقليد الفينيقي، بقطع حلقه بعد أن شنقوه من رقبته... ولذلك قام الجلاد عندئذ بقطع حلقه.... لكن بعد ذلك، دُفن هو أيضا مع الآخرين في سراديب حفظ الموتى تحت بستان الخروب الذي ظلوا يعتبرونه بقعة مقدسة في القرون اللاحقة...

أحمد. وقد تحدث بقوة، وبنفس الغضب، عما حدث هنا منذ مائة عام أو أكثر، عندما... هل أنا على صواب؟... حدثت واقعة الرجل الذي وُجد مشنوقا في البستان. «إلى الشخص الذي أراد أن يسخر من ذكرانا، إلى الشخص الذي رغب في أن يجعل من الطريقة التي شُنقنا بها لعبة... نعم، أغريناه بالعودة إلى البستان المقدس وشقت السكين التي لا تعرف الرحمة حلقه.» هذا ما قاله صوت بوتو-رع. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أدرك فيها... وأنا أتحدث عن نفسي... أن الرجل الميت... الشخص الذي يحمل اسم تونًّا كما ذكرت... لم ينتحر، بل قُتل بطريقة أو بأخرى.

ديلينجر. صحيح. وهذا يفسر لماذا كانت هناك كل هذه المشاكل في البلاد بعد الانتحار المزعوم ليهوذا تونًّا. لكن هذا أيضا يتركنا تائهين تماما فيما يتعلق بالطريقة التي قُتل بها يهوذا فعلا. مازالت هناك أشياء كثيرة غير مفهومة حول هذا الجانب من القصة، وهي تربط عصرنا بالعصر الفينيقي. بالتأكيد نحن بحاجة لأن نبدأ على الفور استكشافا كاملا لكل ما يوجد تحت تلال زنوبر.

أحمد. ومع ذلك، وفي البداية، لا بد أن نفهم جيدا من يكون بوتو-رع هذا، كرجل. لقد تمكنا من العثور فعليا على كل ما يمكن معرفته عن قصته الاستثنائية، بالعودة إلى فترة لا بأس بها قبل مغادرته مع حملة

ون-آمون... لكن عنه... من كان حقا... لم نقل كلمة بعد... لو جاز لي أن أعبر عن رأيي، فلا بد أن أقول إني قلق للغاية فيما يتعلق بالشخصية التي كانت لهذا الرجل... ماذا كانت دوافعه الحقيقية، والأهداف التي حكمت ما فعله؟ مساره المهني، كما نعرف بالفعل، يبينه كشخص غير مستقر... غير مستقر جدا...

ديلينجر. كلانا نشعر بقلق كبير من هذه النقطة، أليس كذلك؟ ألا ينبغي أن نراجع مرة أخرى كل ما قاله صوت بوتو-رع؟

نهض البروفيسوران واقتربا من الحاسوب الذي كانا يعملان عليه طيلة الساعات الماضية. لمس ديلينجر لوحة المفاتيح هنا وهناك، لتظهر على الشاشة الرموز الهيروغليفية والمسمارية الفينيقية التي تم تدوين رسالة الصوت بها. وجرى بالملف حتى وصل إلى المقطع الهام بالنسبة لهما.

«شغَّل الصوت كذلك..» طلب منه والي أحمد.

لمس ديلينجر مفتاحا آخر، وبعدها بقليل كان الصوت يملأ أرجاء المختبر. كان صوتا خفيضا وقويا، شرسا وحازما، لكنه غير منفعل. في الحقيقة بدا باردا وضاريا بطريقة كانت أكثر إثارة للرعب مما لو كان محملا بالغضب الهيستيري. وبينما كان الصوت يتحدث، كانت الصورة على الشاشة تتتابع إلى أسفل. رفع أحمد يده لإيقاف الصوت، ثم قرأ ترجمته لما قاله الصوت.

«الآن بما أن بعل قد أرسلني من جديد وأعاد ما أخذه مني... الآن بما أنه غفر لي ما حصدته من دم الوردات اللاتي كن في خدمته... الآن بما أنه اصطفاني مخلّصا لبستانه المقدس... الآن بما أن هؤلاء الذين أصبحوا من جديد رفاقي يدعونني للثأر، عارفين أني الوحيد القادر

على إرضائهم... الآن بما أن جرأتي وقوتي يجدان العون في عينيّ بعل وهو يريدني أن أستخدمهما... الآن بما أن السكين في يدي، تتحرق وأنا أمسكها؛ لأن النصل يعرف أن بمقدوري منحه الدم من جديد، دمي ودم المرأة التي ستكون مرة أخرى في خدمة بعل... الآن بما أن الدم سيتدفق قريبا ويمنحني مرة أخرى المتعة التي كان يمنحها لي دوما... وهكذا لإنقاذ بقايا الموتى، المستعدين للاستيقاظ من جديد، وكذلك لمحو الدنس الذي ارتُكب تجاه عظام الشجعان... الآن...»

كانت الإثارة التي شعر بها أحمد وديلينجر تجاه الاكتشافات التي حققاها قد تبخرت فجأة. واستولت عليهما الآن أفكار قلقة كانت مبهمة في ذهنيهما. كانا أشبه بساحر أتى إلى الحياة بقوى بشعة هائلة، ووجد أنه لا يستطيع السيطرة عليها، ويخشى من أن تتغلب عليه...

«كان بوتو-رع مريضا نفسيا تماما..» قال أحمد.

«والرجل الذي يستخدمه لعرض صوته الجديد... مريض نفسي آخر.»

«يمكنك أنت أن تقول هذا، وليس أنا، فأنا لا أعرفه. لكن لو كان هذا صحيحا، فالمسألة أخطر بكثير مما اعتقدته حتى الآن.»

«ذلك الدم الذي أُلقي على كيس النوم كان تحذيرا بأن شيئا ما يختمر... لا يوجد شيء علمي فيما سأقوله؛ لكن بوتو-رع يستعد لتكرار ما فعله في صيدا، وهذه المرة بمباركة بعل.»

«هل يعني هذا... أنك تعلم بالفعل لمن يشحذ نصله؟»

«إذا لم نحاول إيقاف ما يحدث، ستكون المخاطرة...»

«ومن ناحية أخرى، إذا تدخلنا الآن، سنعوق واحدا من أروع التطورات

في علوم الماضي. ولا ينبغي أن ننسى أن الماضي هو مرآة الحاضر والمستقبل.»

«هل لدينا بديل آخر... غير التدخل؟»

«بأمانة، لا.»

«ألا تشعر بأن المسألة أصبحت عاجلة جدا، وخطيرة للغاية؟»

«بلى.»

«إذًا من الأفضل أن نحذرهم حالا.»

«كيف؟»

«سأتصل ببرتراند.»

«هل هذا من الحكمة؟»

«دعنا نبدأ بهذه الطريقة. وبعد ذلك، سنرى كيف تسير الأمور...»

لم يتلق ديلينجر ردا. «أفضل شيء أن أتحدث إلى مساعدته، ما اسمها؟... بوني... هي في أشد خطر... أظن أنك تتفق معي؟»

«أوافقك.»

كان المساء قد خيم على المكان من حولهما. وفي حقل الإسخريوطي، كان تسجيل كويس كوام بالتأكيد على وشك أن يبدأ.

«المشكلة أني لا أملك رقم بوني.» اتصل ديلينجر بمكاتب كويس كوام. ولا من مجيب. كانت السكرتيرة قد انتهزت الفرصة لتستقطع بعض الوقت وتزور المحلات في (سليمة)، بما أن الجميع كانوا قد غادروا إلى حقل الإسخريوطي. وكان هناك صوت مسجل على الماكينة

يطلب منك أن تترك رسالة إذا رغبت. دخل البروفيسوران إلى الإنترنت ليبحثا عن أرقام هواتف الناس الذين يعملون في كويس كوام. أدخل ديلينجر برنامجا يسمح له بالدخول سرا إلى قوائم أرقام الهواتف التي تبقيها شركات التليفونات أرقاما خاصة. لكن كل هذا كان سدى. لم يستطيعا الاتصال بأي شخص يمكنه أن يوصل رسالتهما.

«أفضل طريقة هي الذهاب إلى حقل الإسخريوطي... الجميع هناك الآن...»

«كنا سنقوم بأفضل عمل الآن لو استطعنا أن نستفيد بوقتنا في الاستمرار في تحليل الكميات الهائلة من البيانات التي حصلنا عليها في الثماني والأربعين ساعة الماضية. لكني أتفق معك. لا بد أولا أن نزيل هذا الخطر...»

وضع ديلينجر كل النظم والمعدات في مختبره على وضع التشغيل، حتى تتمكن البرامج التي تشغلها من العمل بشكل عادي، بافتراض عدم ظهور أي شيء غير متوقع. خبت الأضواء ببطء وانتشرت الظلال في كل أنحاء المختبر. وبينما كانا على وشك المغادرة، رن الهاتف الرئيسي. اندفع ديلينجر ليلتقطه، منقبا في فوضى الأوراق وأسطوانات الحاسوب التي تناثرت فوق مكتبه. كانت سكرتيرة كويس كوام التي انتهت من رحلة تسوقها وكانت تتحدث من هاتفها الشخصي. وعندما تحولت إلى رقم المكتب، وجدت رسالة ديلينجر.

شرح لها كيف أنه بحاجة إلى الاتصال العاجل بأي شخص في الإدارة. أعطته رقم برتراند، الذي كان لديه بالفعل، وأرقام بوني وبوريس وجيانينو وهاردهيد؛ ولم يستطع تذكر إن كان هناك شخص آخر. كلما مر الوقت، كلما زاد شعور ديلينجر بالاستعجال. ظاهريا، كان والي أحمد أهدأ بكثير، لكن وجهه بدا وقد اكتسى بصفرة شاحبة

جديدة، وهو لون لم يكن موجودا فيه من قبل.

عندما اتصل ديلينجر برقم بوني، كان خطها مشغولا. وحدث نفس الشيء عندما اتصل بهاردهيد. لكنه لم يصل إلى شيء مع بوريس؛ فقد كان هاتفه مغلقا. ونفس الحال مع جيانينو. اتصل ببوني مرة أخرى. وهذه المرة، رن هاتفها. «آلو..» وكان صوتها ذاك الذي رد، لكن رغم أن كل ما قالته كان هذه الكلمة، إلا أنه شعر فيها بمزيج واسع من ردود الأفعال – مشاعر تتروح بين التوتر العصبي الكبير إلى القلق الحاد والرعب. كل هذا في كلمة واحدة فقط، أم أنه كان يتخيل الأمور مع القلق الهائل الذي كان يحس به؟ كان هذا أقصى ما وصلته تأملاته، لأنه سمع فجأة ما بدا أشبه بسقطة مكتومة.

لم يعد هناك أحد يمكنه الكلام معه. انقطع الاتصال تماما. حدق البروفيسوران مذهولين أحدهما في الآخر. بعد ذلك وكأن عزما مشتركا دفعهما، اندفعا خارجين من المختبر في طريقهما إلى حقل الإسخريوطي.

في عجلته، نسي ديلينجر أن يقوم باللمسة الأخيرة للوحة المفاتيح وهو يغلق البرامج في حاسوبه. وبعد أن غادرا بقليل، اشتغل مرة أخرى الحاسوب الرئيسي الذي كانا يتابعان عليه الكلمات المنطوق نصفها بالمصرية ونصفها بالفينيقية من ذلك الصوت. وبدأ الحاسوب يشغل الملف الذي سُجل عليه الصوت. وفي المختبر المعتم، تردد صدى صوت بوتو-رع بعنف بارد ليشرح كيف أن اللعنات التي حلت منذ زمن بعيد مازالت حية إلى اليوم. وفي نفس الوقت ظهرت على الشاشة نسخة مما كان يقوله بوتو-رع في تتابع بالهيروغليفية والمسمارية. كان الضوء المخضر المنبعث من الشاشة يختلط بالغبشة الخفيفة المنتشرة فوق ظلال المعدات التي عج بها المختبر، وبدا كأنه يحول المكان كله من

معبد مكرس للسعي وراء المعرفة العلمية، إلى ضريح.

.52

ساروا في النفق ووصلوا إلى باب ثالث. من خلفه، كان يمكن سماع صرخات وحركات الحيوانات المتضاربة المحبوسة في أقفاص حديدية. رفع هاردهيد مصباحه ليرى لمسافة أبعد. كان النفق الآن يتخذ انحدارا ثابتا وينحني تدريجيا نحو اليسار.

«خمن أين نحن؟»

«أعتقد أننا لسنا بعيدين كثيرا عن المكان الذي انتهينا إليه في المرة الأخيرة..» أجابه الشاب. «نحن قريبون من ذلك السلم الهابط... لكن في المنتصف ينبغي أن تكون هناك تلك البوابة...»

«لهذا فكرت اليوم في أن نأخذ الفرع الآخر من النفق... لنرى إن كان يمكننا أن نصل إلى البوابة من الناحية الأخرى..» قال هاردهيد.

«أعتقد أننا قريبون منها جدا... ولا بد أننا في مكان ما تحت التلين...»

«أتفق معك.»

«هيا نعود الآن! تأخر الوقت، ونحن بعيدون...! الآخرون ينتظرونني كي نبدأ.» توسل جيانينو.

دخل هاردهيد وبوريس القبو الثالث حيث قابلهما نفس المشهد المكتظ بالجرذان في الأقفاص كما في القاعتين الأخريين اللتين دخلا إليهما. كانا قد اعتادا عليه، ولذلك لم ينزعجا كالسابق. لكن هاردهيد

لاحظ على الفور شيئا لم يحدث في القبوين الآخرين. ثمة مصباح كهربي صغير كان مضاء بالفعل، حتى لو أن الضوء الذي ألقاه ضاع فورا في الضوء الصادر من المصباح النيون الذي أضاءه عندما خطا إلى جوار الباب. «هناك شخص ما..» همس وهما يدخلان.

بدا أن بوريس لم يسمعه. كان يحاول جاهدا أن ينظر أمامه، دون أن يركز أكثر من اللازم على تفاصيل الحركات المسعورة لآلاف الجرذان، وهي تخبط جوانب الأقفاص التي تحبسها. وكان يبذل أيضا أقصى جهده كي يظل بعيدا قدر المستطاع عن الوحوش الحبيسة، التي أثار جنونها الجوع والعطش. تذكر جيدا قصصا قرأها عن كيف كانت الجرذان في القرون الماضية تحمل الأوبئة والطواعين التي قتلت ملايين الناس بأكثر الطرق إثارة للاشمئزاز... وكان مرعوبا أن يتمكن برغوث أو اثنان من القفز عليه... ومع ذلك، وبينما كان يقترب هو وهاردهيد من المناضد المحملة بالأقفاص المتفجرة بالجرذان، أدرك أنه إذا كان يبذل قصارى جهده كي لا ينظر عن قرب إلى ما يحيط به، فإن شخصا آخر كان يفعل العكس... شخص ما كان يراقبه عن قرب، يتفحصه، يعاينه، يقيسه... مثلما تقترب عدسات كاميرا من تفاصيل منظر يُرى لأول مرة من زاوية واسعة، هكذا وجد بوريس نفسه بصورة غريزية يركز عن قرب على زوج من العيون الحمراء المتوهجة... أو بالأحرى، زوجان أو ثلاثة أزواج من العيون الغاضبة، تحدق فيه بقوة.

كان هناك ثلاثة جرذان ضخمة في قفص أمامه وهو يسير... كانت منتبهة وساكنة، تتصرف بطريقة مختلفة تماما عن رفاقها، الذين كانوا يتخبطون بلا توقف فوق بعضهم البعض. حدق هؤلاء الثلاثة فيه بثبات كالتماثيل. كانت عيونهم السوداء كبيرة جدا، وبدا أنهم أكبر شيء موجود في هذه الحجرة المليئة بالتحركات المسعورة، والصرخات والروائح الكريهة... كانت الأزواج الثلاثة من العيون الجاحظة تراقبه

بأقصى غضب، وبكراهية هادئة ويائسة. ومع ذلك، كانت نظرات زوج من هذه العيون، بالتحديد تلك التي تخص الجرذ الرابض في منتصف الثلاثي المراقب له، تغوص عميقا في داخل بوريس، حتى أنه ارتعد شاعرا بالرعب والبرد.

في النهاية، نظر بوريس للحظة واحدة فقط في تلك العيون الست التي كانت تستهدفه بثأر لا يمكن أن يحدث... خاصةً عينا الوحش الرابض في المنتصف... ثلاثة قوارض سوداء قذرة، محكوم عليها بالموت ميتة قاسية لا أمل في النجاة منها، ومن حولها رفاقها الآخرون الذين يتقافزون ويتخبطون في أسلاك القفص، بينما بقيت هي هادئة تكرهه في صمت، تكرهه هو الذي لم يمسها بضرر قط... كانت هناك بداية رغوة على خطومها، لكنها ظلت هادئة... خاصة الجرذ الذي في المنتصف، أكبر الثلاثة... كأنه قائد معسكر ضخم من العبيد يساقون لحتفهم، مصارع مثل سبارتاكوس يتأهب للسعي قريبا وراء الانتقام، دون إيمان زائد بالمستقبل لكن بعزم رهيب... بدا الوقت الذي قضاه بوريس محدقا في عينيّ الجرذ سبارتاكوس بالنسبة له أطول من الوقت الذي قضاه حتى الآن مع صديقيه يستكشفون هذه السراديب الفظيعة... ولحسن الحظ، قال هاردهيد شيئا ما هز بوريس معيدا إياه إلى الواقع... وإلا كان سيصاب تماما بنوبة ذعر تحت هذه النظرات الثابتة المحدقة، الطافحة بالكراهية والغضب، من الجرذ الأسود الكبير ورفيقيه... وكان من الممكن أن يغدو مرعوبا أكثر حتى من جيانينو.

«هناك شخص ما في هذا القبو...»

بعيدا هناك، في آخر الممر الممتد بين المناضد التي تحمل أقفاص الجرذان المتلاطمة، التي كانت مكدسة حتى السقف، لمحا حركة متعجلة لشخص يختبئ وراء آخر المنضدة. كان يصرخ بصوت عال لدرجة أنه

تمكن من أن يعلو على موجات صراخ الجرذان، جرى هاردهيد نحو الحركة، وتبعه بوريس.

سمعا الرجل يهرول في الناحية الأخرى من الأقفاص نحو المدخل. فجأة، توقف هاردهيد وعاد من حيث جاءا، ليلحق بالشخص أيا كان قبل أن يصل إلى الباب. كان بمقدورهما سماع الرجل وهو يلهث ويصرخ بغضب: «سأنال منكم! أيها الحثالة!... ستدفعون ثمن هذا...!»

ومع كل هذا العدو والصراخ، ارتفع صراخ آلاف وآلاف من الجرذان في الأقفاص وهي تضرب سجونها في نوبات انفجار جديدة من اليأس. بلغ الرجل الباب قبل هاردهيد وانطلق خارجا منه، مصطدما بجيانينو مباشرة، ملقيا إياه على الأرض. كان هاردهيد سيطارده في النفق، لكنه توقف كي يساعد جيانينو. كان التقني السمين دائخا من الضربة التي تلقاها والسقطة. «هيا نعود! إنهم ينتظروننا!» قال مولولا بمجرد أن تمالك حواسه.

لكن هاردهيد أصر على المضيّ قُدُما في النفق. وفعلوا هذا.

«من كان هذا الرجل؟ واحد من الإخوة تونًّا؟» تساءل بوريس.

«ومن تظن؟ لقد جرى بسرعة شديدة حتى أني لم أستطع أن أميز إن كان هو نفس الأحمق الذي تعاركت معه منذ بضعة أيام، عندما جئت مع بوني...»

«ما الذي يجب أن ندفع ثمنه؟ وأين ذهب؟»

لم يرد هاردهيد. بلغوا قسما من النفق كان ينفتح عبر باب حديدي على اليمين، إلى بسطة وسلم يهبط في الظلام. كانت البوابة مفتوحة. «كان حدسنا صحيحا..» قال هاردهيد. «هذه السلالم تشبه تلك التي

رأيناها في الناحية الأخرى من البوابة الموصدة. لا بد أن الاثنتين تؤديان إلى نفس المكان.»

«هل سنهبط؟» تساءل بوريس.

«لا، لا! هذا يكفي!» احتج جيانينو.

ومرة أخرى تجاهلاه. «بما أننا بلغنا هذا الحد، هيا نهبط. وهناك في أسفل السلم يوجد ضوء!»

أدرك جيانينو أن الاثنين الآخرين مستمران وأنه لا بد أن يتبعهما. نزل السلم وراء هاردهيد، وكان بوريس خلفه. بدت الدرجات الواطئة ذات الشكل الحلزوني المنحوت في الصخر وكأنها تتعرق بروائح رطوبة كثيفة. سرعان ما حلت هذه محل روائح النتن التي استنشقوها منذ دخلوا النفق. ومع ذلك كانت روائح الرطوبة بالكاد أكثر جاذبية من نتانة الجرذان المسعورة. وسرعان ما كان بوريس يقارنها بالروائح التي كان يتخيل دائما أن الجثث الميتة منذ زمن طويل تحملها. كانوا يخطون على ما بدا أشبه بفتات قطع من الطباشير. انحنى بوريس وقرب كشافه من الأرض كي يرى ما كانت. حول حذائه، رأى ما بدا كشظايا من العظم وقطع من مادة بيضاء أو رمادية مجففة، لعلها سقطت من شيء أكبر. أدرك ماهيتها – بالتأكيد قطع من جيفة قديمة مثل تلك المرمية على أرض النفق في الناحية الأخرى، التي رأوها بالأمس.

«ما الأمر؟» تساءل هاردهيد من الأمام، عندما لاحظ أن الشاب قد تخلف عنهما.

«لا شيء. كنت أفحص الزبالة على تلك الدرجات..» قال بوريس.

دون أن يقصدا، كانا يتحدثان بصوت خفيض. ومع ذلك، كان

هاردهيد على حق، كان هناك ضوء في أسفل السلم. وصلوا بسطة أخرى في نهاية الامتداد الأول من السلالم التي هبطوها للتوّ. وهنا، كان شخص ما قد ترك مصباحا مضاء، مربوطا بحبل إلى الجدار. وإلى أسفل كان بمقدورهم رؤية امتداد آخر من السلالم. هذه المرة، ورغم أنها كانت تهبط أيضا في مسار حلزوني، إلا أن السلالم كانت تهبط بمحاذاة جدار بئر واسع. وعندما بدأوا في الهبوط، وبحركة غريزية تقريبا، كانوا يلمسون الجدار على يمينهم، لأنه على اليسار كانت السلالم تنفتح على هوة البئر العميقة. كانت روائح الرطوبة الكثيفة في نفس قوة القسم الأول من السلالم، لكنها الآن بدت وكأنها تنبع من أسفل. ومع كل خطوة، كانوا يسيرون على بقايا نسيج قديم وعظام.

كانوا كلهم متوترين، تحت ضغط... وليس فقط جيانينو. كان يتنفس مرة أخرى بتثاقل مع كل خطوة يخطوها، متمتما لنفسه: «إلى أين نحن ذاهبون؟ عمَّ كل هذه الفوضى؟»

لأول مرة، أحس هاردهيد بالندم لأنه لم يجلب معه سلاحا. كان يعتقد أنهم سيقابلون أشخاصا آخرين قريبا. لم يذكر هذا لرفيقيه، لكن في أعلى السلم كان قد رأى قطعة أخرى من الورق الأبيض ملقاة على الأرض... ومثل الورقة الأولى، كانت غلاف قطعة لبان...

وكآخر علامات احتجاجه، توقف جيانينو. «إلى أين ستأخذنا يا هاردهيد؟ إلى الجحيم رأسا؟» تساءل.

«ستُشوى جيدا هناك، مع كل هذه الدهون.»

«أشعر كأني جوينبلين[30] يتبع الشرطي نازلا إلى حجرة التعذيب..» قال بوريس.

«من؟ أي هراء تتحدث عنه؟» نخر هاردهيد، وقد شعر بانزعاج أكبر مما كان يحس به عادة عندما يثير بوريس موضوعات لا يكاد يعرف عنها شيئا، رغم أنه لأسباب لا يمكنه قط فهمها، يبدو أن الشاب قادر على التأثير على الأشخاص الآخرين عندما يفعل هذا.

ببطء، استمروا في نزولهم، متأكدين أن بقدرتهم رؤية كل درجة. أما بوريس الذي كانت لديه حقا عادة عندما يخاف أو يحتار أمام شيء ما، وهي أن يحاول تهدئة أعصابه بتذكر قصص أدبية لا يعرف أحد غيره عنها شيئا، فقد أحس بغيظ هاردهيد وأبقى فمه مغلقا. في الحقيقة، ظل الاثنان الآخران صامتين أيضا. على نحو مفاجئ كانت السلالم تتخذ انعطافا غريبا إلى اليمين، من خلفه بدا الضوء قادما. ليس ضوءا فقط... كان بمقدورهم سماع صدى صوت ... أو ربما عدة أصوات... من مكان ليس ببعيد...

توقفوا ونظروا إلى بعضهم البعض، وجيانينو يكاد ينشج من الرعب. لا يمكن أن يكون هناك شك: من خلف المنعطف، جاء صوت مخنوق... أصوات...

«ماذا سنفعل؟» تساءل بوريس، لكنه كان يعرف الإجابة بالفعل.

قرر جيانينو ألا فائدة من تقديم رأيه؛ لأن الآخرين سيتجاهلانه فقط. شعر بالبرد، فقد أصبحت الرطوبة هنا أشد...

30- اسم الشخصية الرئيسية في رواية (الرجل الذي يضحك) للكاتب الفرنسي فيكتور هوجو ونشرت عام 1869، تدور أحداثها في انجلترا وتحكي قصة نبيل شاب يتعرض وجهه للتشويه وهو طفل بأمر من الملك ليحمل وجهه ابتسامة دائمة ويسافر مع حاميه ورفيقه الفيلسوف المتشرد أورسوس والفتاة العمياء التي ينقذها خلال عاصفة.

«هيا بنا..» قال هاردهيد.

وعندما بلغوا المنعطف الذي كان أشبه بناصية، وجدوا أنفسهم في مدخل ضخم مضاء بمصابيح كبيرة موضوعة في الجوانب. وبالرغم من المصابيح، كانت القاعة –المبنية مثل قمع مقلوب، يشكل الجزء الضيق منه السقف المستدير، الملطخ كله ببقع سوداء– مغطاة في كل مكان بظلال كثيفة تسقط من مجموعة من الأدوات والمعدات الغريبة، التي تناثرت هنا وهناك. من حيث وقفوا، كان يمكنهم النزول على سلم أوسع إلى المدخل. على الفور نظر هاردهيد أولا حوله ليتأكد إن كانت هناك مخارج ومداخل أخرى غير ذلك الذي جاؤوا منه الآن، إلى هذه القاعة تحت الأرض، كما يمكن للمرء أن يدعوها، وفي هذه الحالة، أين كانت. رأى سلما آخر يشبه السلم الذي نزلوا منه للتوّ، في الناحية الأخرى من حيث كانوا واقفين، وكان يهبط أيضا على سطح الصخر. أدرك هاردهيد أنه لا بد كان السلم الذي رأوه من أعلى، في المرة الأولى التي زاروا فيها الأنفاق. عندئذ، وقفوا أمامه دون أن ينزلوا.

كان الأمر يحتاج فقط رفة عين لتخيل أين تقع المخارج الأخرى. لكنهم اكتشفوا أن الأصعب هو فهم ماذا كان يحدث في هذه القاعة.

.53

كان هناك رجل يرتدي فانلة بيضاء وبنطالا من الجينز مستلقيا على الأرض منفرج الذراعين والساقين، مربوطا حتى لا يتمكن من الحركة. وكان هناك رجل آخر منحنٍ فوقه، بينما أخذ رجل ثالث، طويل ونحيل، يراقب السجين الذي كان وجهه مختبئا أسفل قطعة من الخيش. على الجانب، استند شاب على جدار القاعة – كان في زيه وهيئته يشبه بوريس كثيرا، حتى أنه يذكر المرء على الفور به. كان الرجل الذي تغطى وجهه بالخيش يجاهد ضد الحبال التي ربطته، بينما يصب الرجل المنحني فوقه ماء أو سائلا ما آخر من غلاية على وجهه المخفي. في الحقيقة، كان يصب ماء أحضره من حوض استحمام كبير على جانب القاعة، بالقرب من المكان الذي وقف فيه الشاب يتفرج، حوض من الزنك أشبه بتلك الأحواض التي رأوها في الحجرات التي ضمت أقفاص الجرذان. جميعهم: الرجل المربوط على الأرض، والرجل الذي يصب الماء من الغلاية، والرجل الطويل النحيل، والشاب؛ بدوا مغطين ببقع من الظل والضوء الأصفر، وقد أتى الأخير من مصابيح مثبتة إلى جانب القاعة ومن كشافات في الجانب الآخر، لا بد أن هؤلاء الرجال أتوا بها إلى هنا. من المسافة والارتفاع الذي كانوا واقفين فيه، لم يكن بمقدور هاردهيد وبوريس وجيانينو أن يسمعوا ما كان يقوله الرجل الطويل للاثنين الآخرين. لكن الرجل الحامل للغلاية مال مرة أخرى فوق الرجل المربوط وصب المزيد من الماء على وجهه المغطى. تشنج الرجل المربوط وسعل، وجاهد مرة أخرى ضد الحبال التي تمسك به

إلى الأرض.

جرى هاردهيد نازلا السلم ومن خلفه بوريس. «ماذا يحدث هنا بحق الجحيم؟» صرخ.

مأخوذا تماما من المفاجأة، التفت الرجل الطويل، الذي بدا أنه يعطي الأوامر للرجل حامل الغلاية، ليواجههم. كان يرتدي بدلة سوداء فائقة الأناقة، وكأنه غادر للتوّ غرفة الاجتماعات في بنك كبير. نهض الرجل حامل الغلاية أيضا وتعرف عليه هاردهيد. «السفاح! لن تصدق هذا ولو بعد مائة عام! كنت أفكر فيك منذ بضع دقائق فقط!»

«انظر من هناك! هاردهيد!» هتف الآخر. «من أي سحابة وقعت؟»

«ينبغي عليّ أنا أن أسألك!»

«هل يمكن أن تخبروني من...» بدأ الرجل ذو البدلة الأنيقة الكلام، لكن صرخة أخرى قاطعته.

كان بوريس قد تعرف على الشاب الآخر، الذي بذل قصارى جهده كي يمتزج بالظلال بمحاذاة الحائط عندما رآهم قادمين. «جوني ديب! ماذا تفعل هنا؟»

بمجرد أن تعرف هاردهيد على جوني، فهم ما حدث. «هل أحضرت هؤلاء الناس إلى هنا؟» سأله بغضب. «لهذا لم نستطع الوصول إليك... أيها...!» ولحسن الحظ أن ما دعا به جوني ديب، وهو يصر على أسنانه من الغضب، ضاع في الفراغ الكبير للقاعة المظلمة المتشكلة على هيئة قمع مقلوب.

«هل يمكن أن تخبروني من تكونون؟» كرر الرجل الطويل الأنيق، وبدا كأنه فقد كل صبره.

«ألن يكون من الأفضل لو تخبرنا من تكون أنت؟» أجابه هاردهيد، باذلا قصارى جهده ليبين أن صبره قد نفد قبل صبر الآخر بوقت. فعل هذا بشكل طيب حتى أن السفاح، الذي كانت غرائزه كحارس شخصي ملتزم بحراسة عميله مازالت مشحوذة جيدا، تحرك مبتعدا عن الرجل المربوط وعبس بثبات في وجه هاردهيد، رغم أنهما كانا صديقين منذ زمن بعيد.

«لا مشكلة لديّ في إخبارك باسمي..» قال الرجل الطويل ببرود. وأخرج بطاقة بلاستيكية من جيب سترته. «لورينتي مانيسكالكو. في مكتبي لا نقول عادة ما نفعله، لكن يمكنني أن أؤكد لك أننا... كما يذهب القول السائر... أصحاب ما يلزم من خبرة. وفقا للقوانين السارية الآن لتنظيم ما يحدث في هذا البلد، فوق وتحت الأرض، من التنقيب عن النفط إلى الأمن القومي، لدى مكتبي ولديّ جزء من كل السلطات البوليسية، وكذلك من سلطات الجيش، وفي حالات الطوارئ لدينا حتى سلطة القضاء. حاليا، نحن نواجه وضعا طارئا. والآن قل من أنتم...؟ أم أني ربما خمنت بطريقة صحيحة...؟ هل أنتم أعضاء كويس كوام الذين وصفهم لي هذا الشاب النفيس الذي أتى معي اليوم...؟» وألقى نظرة حنونة وإن كانت متعالية نحو جوني ديب.

«نعم..» قال جوني، واقفا قرب الحائط وكأنه يخشى الاقتراب من الآخرين. «نعم، جئت هنا مع هؤلاء الأشخاص!»

«عندما سمعت هذا الصباح قصة نزولكم إلى هنا، كان عليّ أن آتي للزيارة بنفسي ورؤية ما يحدث... كنت لأخالف قسم خدمتي لو فعلت غير ذلك.»

«وهل يمكن أن تخبرني ماذا تفعلون بهذا الشخص المسكين...؟ قاطعه هاردهيد بانفعال. كان غاضبا بالفعل سواء من خيانة جوني

ديب أو من الطريقة التي كان يستبق بها هؤلاء الرجال ما كان يحاول أن يفعله. «لحظة واحدة، أنا أعرف من يكون..» تقدم ونظر بقوة إلى الرجل ذي الوجه المغطى، الذي توقف عن النضال، مربوطا كما هو في الأرض، بمجرد أن انتهى السفاح من صب الماء على وجهه. أدرك أن أشخاصا آخرين قد دخلوا القاعة. «هذا ناردو تونًّا... ماذا تفعلون به؟»

«إيهام بالغرق..» همس بوريس.

«إيه؟ وما هذا...؟»

«مثل ما كانوا يفعلون في جوانتانامو وأبو غريب.»

«لا بد أن أعترف أنه يعمل بشكل جيد جدا..» قال السفاح بصوت راضٍ، وهو يعاود ملء الغلاية. «هل تذكر يا هاردهيد كيف تعبنا لنجعل هذا الوغد ستيفالا يتكلم بعد أن حاول أن يعتدي على فلوريندو؟... أخذناه إلى مهبط الطائرات في (هَل فار)، أتتذكر؟... ورغم العدد الكبير من السجائر التي أطفأناها في جسده... لم نستطع أن نجعله يبوح... حتى مع كل هذه الركلات في بطنه... ستندهش كثيرا مما يمكنك أن تفعله بقليل من الماء.»

ومرة أخرى بدأ ناردو تونًّا، إن كان هو فعلا تحت الخيش على وجهه، في النضال وهو ينشج.

«هذا ضد كل الاتفاقيات الأوروبية والعالمية حول حقوق الإنسان! هذا تعذيب!» شعر بوريس فجأة بموجة من الغضب – كما أسقمه أيضا جوني ديب، الذي ظل في ركنه صامتا، بخيانته؛ لكن الغضب المفاجئ الذي شعر به كان حقيقيا.

«الاتفاقية المرتبطة بالإيهام بالغرق مكتوبة بمفردات مبهمة. في

ستراسبورج مازال المحامون يجادلون إن كان الإيهام بالغرق تعذيبا أم لا. وفي لانجلي، كل المحامين يقولون إنه يمكن تطبيقه...»

«الرئيس الأمريكي رجل جديد، ألم تسمع؟ والمحامون أيضا يجري تغييرهم...! ينبغي أن تخجلوا من أنفسكم!»

كان هاردهيد مازال تائها. «لكن ماذا تحاولون أن تفعلوا؟»

«نحن بحاجة لمعرفة الحقيقة..» أوضح السيد لورينتي مانيسكالكو. «وبسرعة شديدة. لا يمكننا إضاعة الوقت. أنا مقتنع أننا نواجه موقفا خطيرا جدا ومتفجرا جدا. حاول مرة أخرى (قال هذا للسفاح) دعنا لا نضيع المزيد من الوقت.»

صب السفاح الماء من الغلاية على وجه ناردو، وجاهد السجين بكل قوته، وهو يتشنج ويسعل بعنف، جاذبا قيوده بأقصى ما يستطيع من قوة، صارخا ومتوجعا في يأس.

«لقد أخبرتك مرتين... وهذا هو التحذير الثالث والأخير وفقا للقانون..» قال لورينتي مانيسكالكو بصوت هادئ، بينما كان السفاح يصب الماء من الغلاية. «يمكنك إذا أردت أن ترفض الإجابة على أسئلتنا. وينبغي أن تعرف أيضا أنك إذا اخترت أن تتكلم، سأسجل ما تقوله بهذا الجهاز الذي أريك إياه وأنا أتحدث، والذي سيسجل كل ما نقول...» أمسك المسؤول كرة إلكترونية صغيرة التمعت في مركزها نقطة ضوء أخضر؛ هزها فوق قطعة الخيش التي غطت وجه الرجل. شهق السجين وتقيأ، كأنه يخرج كل ما في بطنه. تحول لورينتي مانيسكالكو جانبا بسرعة وأخفى الكرة الإلكترونية في قبضته.

وللمرة الثانية هذا المساء، ذهب جيانينو، الذي بقي صامتا طوال الوقت، إلى الجدار وتقيأ داخل واحد من أحواض الزنك في جانب القاعة.

لم يوله أحد أي انتباه.

«الآن أنت تعرف ما نريده منك..» أكمل لورينتي مانيسكالكو، عندما انتهى السفاح من مهمته ولم يعد ناردو يشهق كي يتنفس... «نعم، أنت تعرف ما نريد أن نعرفه. قل لنا: من الرجل الميت الذي وجدناه بالأعلى... الرجل ذو الحلق المشقوق؟»

«ستيفن! هذا ستيفن...!» سعل السجين.

«والآن قل لنا من هو ستيفن..» أصر مانيسكالكو بصوت رقيق.

وبينما كانوا ينظرون، بين دفقة ماء وأخرى على وجهه من الغلاية، كشف ناردو تونًا قصته وقصة أخويه. استمعوا هم الستة... أو من الأفضل أن نقول الخمسة فقط؛ لأن جيانينو سقط على دكة وجدها على جانب القاعة وظل بعيدا عن كل هذه الأحداث... استمعوا إلى ناردو وهو يشرح كيف كانت وظيفة ستيفن أن يدخل بوابة الجحيم ويعد الطعام للجرذان.

«وما هي بوابة الجحيم تلك؟» انفجر السفاح مذعورا، ثم توقف مرتبكا، لأنه قاطع –وهو بالتأكيد ما لم يكن متوقعا منه– تحقيقا يقوم به السيد لورينتي مانيسكالكو وفقا لأحدث التقنيات المطورة في لانجلي. بمقدور المرء أن يفهم لماذا لم يبدِ الأخير أي تقدير لمساهمة السفاح. لكنهم سرعان ما عرفوا أنه في نهاية القاعة التي يوجدون بها، يوجد مدخل إلى نفق آخر يهبط هذه المرة بانحدار. وفي أسفله، حسب ناردو، يمكن العثور على كومة ضخمة من الجثث القديمة، بعضها متحجر، بعضها محنط، وبعضها مملح، ولكن بعضها الآخر مازال يتحلل، وقد تجمعت هناك منذ زمن سحيق. اقترب هاردهيد من البقعة التي أشار إليها ناردو ووجد المدخل الذي أشار إليه السجين: كانت فتحة كبيرة

شديدة العتمة في جدار القاعة، وعندما دلى مصباحه بداخلها، بدا بخار أسود يتصاعد منها، وهو يفوح في قوة برطوبة دافئة ومالحة.

والآن كان رئيس الأمن الوطني، إن كانت تلك هي وظيفة لورينتي مانيسكالكو الرسمية، يسأل ماذا كانت طبيعة عمل ستيفن. وكانت الثلاث أو الأربع أو ربما الخمس مرات التي ابتلع فيها ناردو الماء... مجاهدا أثناء ذلك بنفسه كي لا يغرق كما هيئ له... قد كسرته تماما. ومثل طفل غرير، بدأ يحكي قصة ما كان يفعله هو وأخواه... ما حدث لستيفن... الذي كان، كما قال، مريضا منذ صغره... والذي كانت تصيبه نوبات... وفي الأسابيع الأخيرة، بدأ يتكلم مع الأرواح التي تعيش في الأعماق، خلف بوابة الجحيم.

حدق هاردهيد في فتحة الجدار التي بدت تبادله التحديق بدورها. ارتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. بوابة الجحيم؟ بدت أقرب إلى فتحة بئر يفيض بحرارة متجمدة اختمرت على يد الشيطان.

«إلى أين تؤدي تلك؟» قال صوت من خلفه، وجفل هاردهيد. كان بوريس، مثله، يتفحص كل ركن في القاعة ووصل إلى هذه البقعة. ومع ذلك، مثله مثل هاردهيد، وبينما كان يستكشف المكان بأكمله، كان بوريس يتابع بانتباه التحقيق الجاري، والمدار ببرود وقسوة على يد لورينتي مانيسكالكو.

«لا بد أن هناك سراديب لحفظ الموتى..» أجابه هاردهيد، الذي كان يشعر بإغواء كبير للدخول في الفتحة ورؤية إلى أين كانت تؤدي، لكنه أيضا كان مازال حذرا جدا. «لا بد ان هذا المكان مليء بالمقابر.»

«سواء كانت سراديب لحفظ الموتي أم غيرها... فقد كسبوا منها أموالا جيدة. اسمع...»

بدلا من الرد، هز هاردهيد كتفيه، متحيرا من الخوف الذي كان يشعر به. فرغم أنه تمنى دخول بوابة الجحيم لاكتشاف أسرارها، إلا أنه امتنع عن الخطو داخل الظلام. وعاد مع بوريس إلى منتصف القاعة حيث كان المسؤول الكبير ينتزع من ناردو كل المعلومات التي يحتاجها. فيما بعد، سيتم إيداع مذكرة بأقوال ناردو تونًّا في أرشيف الدولة. كانت قد كُتبت وسُجلت بواسطة السيد لورينتي مانيسكالكو بأقصى اجتهاد، على أساس التسجيل الذي تم طبقا للقانون، بالماكينة الرقمية المستخدمة خلال التحقيق مع المذكور ناردو.

ومن المناسب هنا أن نقتبس مقطعا من هذه الوثيقة.

س: *ماذا كانت وظيفة ستيفن تونًّا؟*

ج: *كان عليه أن يهبط أسفل بوابة الجحيم ويعود لنا بالجثث من هناك. وكان عليه أن يقطعها ويحضرها هنا كي نتمكن من إطعامها للجرذان.*

س: وكيف وجدتم هذه *الجيف؟*

ج: *بعد أن منعتنا الشرطة من استخدم الزبالة لإطعام الجرذان التي اعتدنا تسمينها منذ سنين، أصبحنا عاطلين. اكتشف ستيفن حفرة في سراديب المزرعة وعندما فتحناها، وجدنا أنها تؤدي إلى أنفاق كبيرة مشيدة تحت زنوبر. لم نكن قد سمعنا بها من قبل قط. وجدنا الحجرات وعلى عمق أكبر وجدنا سراديب حفظ الموتى مكدسة بالجثث التي جرى تخزينها هناك... وذات يوم، جاءتنا فكرة استخدام الجثث كعلف للجرذان التي كنا نسمنها. ولن يستطيع أحد معرفة من أين نحصل على الطعام للوحوش. بل يمكننا حتى أن نمزج أجزاء وقطعا من الجثث مع العلف الذي نعرضه للبيع...*

(وقفة سُمح فيها لموضوع التحقيق بكل الوقت اللازم للراحة)

«كيف هذا؟ هل تأكل الجرذان بالفعل جثث المومياوات؟» تساءل هاردهيد بينما كان السفاح، في محاولة لتشجيع ناردو على مزيد من الكلام، وبأقصى اجتهاد، يصب الماء مرة أخرى من الغلاية على وجه السجين المغطى.

«لا بد أن أعترف أني أيضا أجد هذا الإجراء محيرا كثيرا..» قال السيد مانيسكالكو، بينما كان الرجل الخاضع للتحقيق يناضل كالمجنون ويلهث ليتغلب على الشعور المؤلم بأنه على وشك الغرق.

«بالعكس..» تدخل بوريس. «الجيف والمومياوات المجففة كانت تُعتبر دائما مليئة بالعناصر الغذائية والفيتامينات. في العصور الوسطى كان الأوروبيون يبذلون قصارى جهدهم لشراء أجزاء من المومياوات مستوردة من مصر وبعد ذلك يأكلونها كدواء. حتى شكسبير يذكر هذه العادة.»

في هذه اللحظة –وفقا لمذكرة السيد لورينتي مانيسكالكو،عندما انتهى فاصل الاستراحة للشخص الخاضع للتحقيق، حيث كان السفاح قد انتهى من صب الماء على وجه ناردو– وبالضبط عندما كان التحقيق على وشك أن يبدأ من جديد، دوت فرقعة تردد صداها في كل ركن من هذه القاعة الكبيرة المتشكلة على هيئة قمع.

بدأ السفاح في السباب وقفز مستديرا وهو يدعك كتفه. كانت الرصاصة قد أصابته بالكاد... فقد شعر بحريقها عبر جلده. ودوت فرقعة أخرى...

ظهر رجل على البسطة التي نزل منها هاردهيد وبوريس وجيانينو... كان نفس الرجل الذي طارداه بين أقفاص الجرذان، والذي اصطدم

بجيانينو وأسقطه أرضا بينما كان يجري هاربا... كان يسدد بندقية نحو السيد لورينتي مانيسكالكو والسفاح. انطلق الأخير في سباب أقوى من قبل، وهو يتدحرج مبتعدا عن السجين الذي مازال مقيدا إلى الأرض، ويجذب مانيسكالكو جانبا تحت سلم. وفجأة، كان في يده مسدس.

دوت فرقعة أخرى وانطلقت الرصاصة الخارجة من بندقية الرجل الواقف على البسطة إلى الحائط وراء هاردهيد وبوريس. «سأقتلكم! سأقتلكم!» صرخ الرجل.

انحنى بوريس، باحثا عن مخبأ.

«لا تقلق كثيرا..» قال له هاردهيد بهدوء. «آل تونًّا هؤلاء مهرة غالبا في إصدار الضوضاء.»

«فقط جرده من سلاحه، ولا مزيد..» أمر المسؤول الحكومي.

دوت فرقعتان متزامنتان. مرت رصاصة أخرى بالقرب من بوريس وهاردهيد. ومن البسطة جاءت صرخة ألم. أسقط تونًّا البندقية وتدلى ذراعه الأيمن متهدلا من عند الكوع. انحنى، وجثم على الأرض ممسكا ذراعه الأيمن بذراعه الأيسر وهو يئن. حاول أن يقبض على البندقية من الأرض لكنه أدرك وهو مازال يئن أن حظه من إطلاق الرصاص قد انتهى اليوم.

«كان السفاح دائما أفضل رامٍ لدينا..» قال هاردهيد لبوريس وهما يعودان إلى منتصف القاعة. «عندما كنا نحتاج لتدبير حادثة إطلاق نار لا يعرف أحد من فعلها، كانوا يستدعونه. وهو مازال جيدا...»

«هل أذهب لآتي به؟» تساءل السفاح.

«لا، دعنا ننهي التحقيق أولا..» أجابه لورينتي مانيسكالكو. التفت

كلاهما مرة أخرى إلى السجين الذي كان مازال مربوطا بلا حراك إلى الأرض، ووجهه مغطى.

بمجهود هائل، نهض الرجل الجاثم فوق البسطة على قدميه. ممسكا ذراعه الأيمن بالأيسر، نظر إليهم من علٍ، بعينين تطفحان كراهيةً. «سأجعلكم تدفعون ثمن هذا يا حثالة! سأجعلكم تدفعون الثمن! سأجلب لكم الجرذان... سأجلبها لكم... سيمزقونكم إربا! سيأكلونكم!»

«هل آتي به؟» كرر السفاح.

«فلننته من هذا الوغد أولا..» قال المسؤول مرة أخرى. «بعد ذلك، سيكون لدينا ما يكفي من الوقت للقبض على هذا الشخص.» كان هذا أكبر خطأ، وربما الخطأ الوحيد، الذي ارتكبه السيد لورينتي مانيسكالكو خلال العملية بأكملها.

وهكذا لم يولوا أي انتباه آخر للرجل على البسطة، والذي كان كما تبين لاحقا هو يهوذا تونًّا. تسلق السلالم عائدا من حيث أتي وهو منحن، وغضب لا ينتهي يأكله من الداخل، يئن في ألم، وعيناه المحدقتان تتوهجان بالكراهية التي كان يحسها، عازما على تنفيذ ما قرره وهو يرفع ذراعه الأيمن، الذي حطمته رصاصة السفاح. ومن خلف الألم والعزم المجنون اللذين كانا يعذبانه، دمدم في عقله شك ما: ماذا لو أنه بمجرد أن أطلق سراح الجرذان، وبدلا من النزول إلى هنا لتهاجم هؤلاء الأنذال، تحولت الوحوش المتضورة جوعا إليه في سورة غضبها...؟! لكن الكراهية التي أحس بها كانت طاغية حتى أنه بالرغم من شعوره بالرعب من الخطر الذي تخيله للتوّ، أسرع مع ذلك لتنفيذ قراره.

.54

كانت الاستعدادت لكويس كوام تسير بشكل سيء. فرغم أنه حتى قبل اختفاء جيانينو بلحظات لم يكن من الممكن أن تكون الترتيبات التقنية أفضل من ذلك، إلا أنه الآن بعد أن غادر بدأت مشكلات غير متوقعة تظهر ببطء على السطح. الكشافات التي أحضروها إلى بستان الخروب، والكافية لأن تسمح لبوني بتنفيذ ماكياج برتراند وتغيير الملابس بين الجزئين الأول والثاني من البرنامج، تجاهلت فجأة مفاتيح التحكم التي شغَّلها الفني المساعد الذي حل محل جيانينو. الأسوأ من ذلك أن الميكروفون الذي طلبه برتراند في البستان بحيث يتمكن هناك من التواصل بسهولة وعند الحاجة مع بقية الفريق، بدأ أيضا في عمل المقالب. كان مساعد جيانينو أقل مهارة منه في التعامل مع المعدات وبدأ يفقد أعصابه.

علاوة على ذلك، ارتكب المتعهد المسؤول عن نقل أفراد الجمهور المختارين إلى حقل الإسخريوطي غلطة شنيعة. أحضر أكثر من نصف الجمهور قبل ثلاثين دقيقة من موعده، وكان سيفرغ النصف الآخر في الحقل بعد ثلاثة أرباع الساعة من الموعد المتفق عليه. بدأ هؤلاء الذين وصلوا مبكرا بالفعل في الشكوى، وبالكاد هدأوا أمام النبيذ والمعجنات الوفيرة التي أتيحت لهم. وبالتأكيد سيتوقعون الآن الحصول على مزيد من الوقت للإدلاء بكلامهم الخلاب في البرنامج ومساحة أكبر مما أراد برتراند أن يعطيها لهم.

حاولت بوني جاهدة أن تتصل بالسكرتيرة في مكاتب كويس كوام كي تتحدث مع المتعهد، لكنها لم تجد ردا من الطرف الآخر. وأخيرا تذكرت أن السكرتيرة حصلت على إذن بالمغادرة مبكرا في المساء. وكان هاردهيد قد اختفى أيضا.

وكان هناك الأسوأ فيما هو قادم. فقد قرر برتراند أن يصل إلى الموقع مبكرا عن الموعد المتفق. وفي العادة، ينذر هذا دائما بالمشكلات. كان الأفضل عندما يصل قبل قليل من موعد البدء، حتى يتمكنوا من إطلاق العرض بأقل توتر ممكن. وفي الحقيقة، بدا عصبيا جدا، بطريقة غريبة، وجدتها بوني مدهشة. فمنذ عملوا في هذا البرنامج بالذات، وإلى حد أكبر بكثير من المعتاد، كان يظل هادئا، ويأخذ كل شيء على مهل.

ثم أنه أصر عليها كي تقوم فورا بعمل الماكياج له واستخف برأيها أنه مازال هناك وقت كاف. ذهبا إلى خلوة متوارية تحت أشجار الخروب، حيث كانت الملابس اللازمة للنصف الثاني من البرنامج معلقة بالفعل وجاهزة. لاحظ المذيع التليفزيوني مشكلة الإضاءة. وعندما أمسك بالميكروفون ليخبر مساعد جيانينو بأمرها، اكتشف أن الصوت أيضا كان معطلا. عندئذ كاد ينطلق في وصلة من الهياج الصاخب، لكن بوني أقنعته أنه مازال هناك ما يكفي من الوقت... كانت السحب التي لاحت منذ وقت ليس ببعيد قد انقشعت... وكان القمر مكتملا وضوءه قوي بالفعل... وكان مازال بمقدورها عمل الماكياج له كما اتفقا. وفيما بعد يمكنه الذهاب إلى موقع التصوير المضاء للتأكد من أن ماكياجه مُرضٍ.

بعد أن هدأ واقتنع أنه لن تكون هناك أي مشاكل بالنسبة للماكياج، حان دورها كي تصاب تقريبا بنوبة ذعر. فقد أدركت فجأة كم تغير وجهه. كان قد امتلأ بخطوط جديدة، تجاعيد رفيعة، لم يمكنها بالقطع تذكر وجودها من قبل، وقد انتشرت من أسفل عينيه إلى ذقنه وجبهته.

ربما كانت تتخيل أشياء لأنها كانت تعرف بما يحدث خلال الأيام الأخيرة وهم يقومون بأبحاثهم حول زنوبر... دون أن تأتي على ذكر للمشكلة، بذلت قصارى جهدها، رغم أنهما اتفقا أنها لن تضع إلا ماكياجا خفيفا، لتغطي قدر المستطاع تلك الخطوط والتجاعيد الجديدية الدقيقة على وجهه... بالتأكيد لم تكن تجاعيد التقدم في العمر، وبدت أقرب إلى أن تكون ناتجة عن التعرض لضوء الشمس، الذي حمَّص الوجه وجفف المسام، نشَّف البشرة وشدها ليصنع أخاديد وغضونا، كأنها انعكاس لحس بالقسوة والوحشية المحسوبة... وعندما أحضرت له المرآة لينظر إلى نفسه، أحس برتراند بالرضا. ولم يلاحظ أي شيء غير معتاد، وربما لن يلاحظ أيضا هؤلاء الذين سيشاهدونه على الشاشة.

عندما انتهت من مهمتها، كان البستان من حولهما هادئا وصامتا، ساكنا تماما. لم تهتز ورقة شجر. وضوء القمر، القادم من موضعه قرب الأفق، انتشر تحت الفروع وجاهد ليتغلب على بقايا ضوء الغروب، الذي كان قد تباطأ مرة أخرى عندما انقشعت الغيوم.

إذا كان برتراند قد فشل في ملاحظة التغير الغريب في وجهه، فإنه لم يستطع تجنب ملاحظة أن كثيرا من المشاركين في هذه الحلقة من كويس كوام كانوا مثله: واقعين تحت سيطرة توتر غريب. «ماذا يجري؟» تساءل وهو يقطب في ارتياب، وتلك هي الهيئة التي يكون عليها عندما يوشك على أن يغدو غاضبا بشدة.

ومع ذلك أحست بوني اليوم بشكل ما أن هناك ما هو أكثر من مجرد الغضب في سلوكه. فهو لم يعد المذيع التليفزيوني الذي يعرفه الجميع في كويس كوام؛ البارد الساخر على غرار مقدمي البرامج التليفزيونية في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. أما القلق الذي يبديه على الشاشة وخلال التجهيز

للبرنامج فيمكن التظاهر به. لكن الليلة كان غضبه مدفوعا بحنق خفي جعله يعتبر أيا من يصادف أن يكون بالقرب منه عدوا له. هل كانت تتخيل أمورا غير موجودة؟ هل تأثرت بالحقائق الغريبة التي مرت بها معه ومع الآخرين ومع نفسها منذ أن بدأوا العمل على هذا المشروع الخاص بحقل الإسخريوطي...؟ أم أنه بالفعل في النهاية كان برتراند يعتبرهم... كلهم بمن فيهم هي نفسها... غرباء، أعداء...؟ بدا وكأنه يتأهب لمواجهة تحدٍ قاسٍ ورهيب، مدفوعا بغضب عميق تخفَّى تحت قناع الحنق الذي كان يشعر به عادةً قبل تصوير برنامج ما.

عندما نهض ليغادر منطقة الماكياج، لاحظت بوني على الفور أن الأرض من تحته امتلأت بشظايا هاتفه الذي كان يمسك به في يده، والتي لم يرها. بينما كانت تضع الماكياج على وجهه، ودون أن يشعر بما كان يفعله؛ طحن الهاتف بين أصابعه. والآن كانت بوني متأكدة أكثر من أي وقت سابق أن بروفيسور ديلينجر وزميله والي أحمد قد كتما عنها معلومات مهمة كان يمكن أن تفسر ما يحدث لهم... لكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ ندمت لأنها هذا الصباح وعندما كانت لديها الفرصة لأن تسأل مباشرةً عن معلومات عما كان يحدث، تركتهما يقومان بتجربتهما الغبية ولم تستوضح بالضبط أي لعبة كانت تدور وقائعها... وكان هذا خطأ.

وبينما كانت تهبط مع برتراند إلى جانب الحقل حيث كان سرادق كويس كوام قد نُصب، عرف منها أن هاردهيد غير موجود وانفجر في نوبة غضب جديدة لم تكن مفسرة حتى له. خلال اجتماعاتهم، قال هاردهيد وآخرون مرارا أن مهامه ستنتهي قبل ظهر اليوم. وعندما وجدت بوني أنه منزعج إلى هذا الحد، أخرجت هاتفها لتجري مكالمة.

«ماذا تفعلين؟» سألها، ملتفتا إليها بعنف شديد حتى كاد أن يُسقط هاتفها.

«أتصل بهاردهيد..» ردت بصوت عال، وقد أثارها مسلكه تماما. «سأرى أين هو وأطلب منه أن يأتي إلى هنا لأنك تريده...» في غضبتها تلك، لم تكن لديها أي نية لأن تخبره بمكان هاردهيد أو ما اكتشفه مع بوريس... ليس بعد... ستخبره بكل هذا عندما ينتهي تسجيل كويس كوام. وإلا سيتأثر عملهم الليلة على نحو بالغ. ظلت بوني، أكثر من بقية زملائها وحتى النهاية نفسها، ملتزمة بكويس كوام... بقيمه... والمنظور الذي يقدمونه فيه حول حياتنا اليوم...

«لا تتصلي! دعيه وشأنه! أنا لست في حاجة إلى هاردهيد على أي حال! إذا كان يريد أن يستمر في الاهتمام بنفسه طوال الوقت، فهذا شأنه! وتوقفي عن الاتصال كلية... ليس الليلة... ليس قبل أن نزيح هم كويس كوام عن كاهلنا... إذا كنا سنصل به إلى هذا الحد...!»

حدقت فيه. بدا فجأة لها أن المذيع التليفزيوني –الذي كانت تعرفه جيدا جدا، أفضل بكثير من كل الباقين المشتركين في البرنامج– كان يتحدث بصوتين... كانت تستمع إلى صوت برتراند الحقيقي وبعد ذلك صوت --

بمجرد أن وصلا سرادق كويس كوام، أدركت بوني وكذلك برتراند مرة أخرى أنه إذا كان كلاهما يحسان بالتوتر، فقد كان هذا بالفعل حال بقية أعضاء الفريق. كان من الصعب تحديد ما كان يجري، لكن الظاهر أنهم جميعا كانوا يواجهون مشاكل كبيرة في كل شيء كان عليهم أن يقولوه ويفعلوه، رغم أن جيانينو وهاردهيد كانا قد وضعا لهم الخطط لحظة بلحظة. ربما كان الخطأ من جاك، المخرج الذي تم التعاقد معه لهذا المساء، وهو رجل هادئ وموسوس، لكنه يفتقر إلى الخيال. كان ليتبع التعليمات بالحرف دون أن يخرج قط بأي فكرة أصيلة. وكلما قال شيئا، حك ذقنه كما لو أنه متعب... ولا عجب في هذا؛ فقد كانت فترة

صحوه محتشدة بمهام الدوام الجزئي التي يشتغل بها. وبدا الليلة أكثر استسلاما من المعتاد...

تذكر برتراند أنه لم يرَ بوريس بعد في أي مكان. ومرة أخرى، اضطرت بوني لتذكيره أن بوريس لم يكن مطلوبا منه أن يظل موجودا، بما أنهم اتفقوا ألا حاجة له الليلة. ومرة أخرى، انتابت المذيع التليفزيوني نوبة من الغضب. فأخبرته بوني صراحةً أنه إذا استمر على هذا الحال، سيظهر بشكل سيء في البرنامج. عادةً كان مثل هذا النوع من التعليقات يعيده إلى صوابه. لكن اليوم حدث العكس: فقد ازداد غضبا...

تنحت بوني جانبا عندما رأت المذيع التليفزيوني يذهب للقاء أفراد الجمهور الذين وصلوا للتو. توقعت منه أن يثير مشكلة أخرى في حضورهم وكانت قد سئمت من أداءاته. لكنها أرادت أيضا أن تكون وحيدة لفترة حتى تحاول الاتصال بهاردهيد، حتى لو كان برتراند قد حذرها من الاتصال بأحد (لماذا قال هذا؟ ماذا كانت مشكلته بالفعل؟). لا بد أن هاردهيد في مكان ما داخل الأنفاق تحت حقل الإسخريوطي والتي تؤدي إلى تلال زنوبر. لماذا غابوا كل هذا الوقت؟ اتصلت بهاردهيد مرة واثنتين، لكنها لم تحصل على رد. وعندما عادت إلى برتراند وجدته يضحك مع أفراد الجمهور، في انتظار أن يبدأ كويس كوام. كانوا يبتسمون في وجهه، وبمجرد أن غادرهم؛ عادوا إلى شكواهم من أنهم يعامَلون كقطع الأثاث بينما هم المشجعون الحقيقيون للبرنامج، وبإخلاصهم وتفانيهم جعلوا من كويس كوام ما أصبح عليه بمر السنين، برنامج ناجح يشاهده الناس بلهفة.

كان الزوجان اللذان يثرثر معهما برتراند وجهين مألوفين في التسجيلات، خاصة المرأة. وكان أعضاء فريق كويس كوام، عندما يكونون

معا، يدعونها (أم العُرّيف)، لأن كل ما تقوله –وهي دائما ما تندفع لتدلي برأيها في أي شيء يتحرك بين السماء والأرض– كان خليطا من عصيدة حقائق غير صحيحة مع آراء مفككة لزجة. والطريقة التي كانت تقلبها بها كلها معا زاعمة أنها تقدم أفضل الحقائق المعروفة، كانت تجبر كل الآخرين على الانتباه إليها. كانت المشكلة أنها ممتلئة الجسم وودودة، لذا كان من الصعب جدا إسكاتها إذا أمسكت بالميكروفون. وبمجرد أن يوقفها أحد أيا كان، سيبدو كشخص غاشم متوحش بينما تلعب هي دور الضحية. وكثيرا ما نجحت، بالرغم من الأشياء الغبية التي كانت تقولها، في جعل برتراند يبدو كرجل أحمق. وأخيرا، تعلم أن يعاملها باحترام.

الليلة، ظلت (أم العُرّيف) مبتعدة، مبتسمة طوال الوقت، تخزن في صمت ما كان عليها أن تقوله من أجل البرنامج، إذا أعطاها المذيع التليفزيوني الفرصة لتبوح به. وستشكو بقوة من التمييز إذا جرؤ على تهميشها. أما زوجها فكان عادةً غير مهتم تماما بقول أي شيء. كل ما كان يريده هو أن يظهر جالسا إلى جوار زوجته، مبتسما ابتسامة ثابتة سواء عندما تتمكن من إسماع صوتها، أو عندما يتم تهميشها.

ومع ذلك هذه المرة، كان هو من يتكلم: «كيف حالك؟ لا تبدو بحال طيبة بالنسبة لي. هل ثمة خطب ما؟» سأل الرجل برتراند بقلق.

«ماذا ترى؟» سأله المذيع التليفزيوني، بنصف ابتسامة، ونصف لهفة: وهنا، كان لدى بوني قليل من الشك أن من يتحدث هو برتراند الذي تعرفه.

«إمممم!... تبدو، لا أعرف كيف أقولها... قلقا، ووجهك منهك. لم أرك قط هكذا من قبل... أتعرف؟ نحن لا نريدك أن تشيخ قبل الأوان..» أجابه الرجل، وهو محرج قليلا مما يقول، بينما ظلت زوجته هادئة إلى جواره.

كانت بلا شك تركز على ما تود أن تقوله خلال البرنامج... لو سمحوا لها...!

غدا زوجها أكثر اضطرابا عندما توقف برتراند عن الابتسام والتفت إليه بتقطيبة متجهمة على وجهه. «يا صديقي، إذا كنت تحاول الاستظراف فلا تأتِ إليّ. ابحث عن شخص آخر..» كان يزعق تقريبا، وأشاح بوجهه فجأة وسار مبتعدا إلى الناحية الأخرى من الموقع.

في هذه اللحظة، تعطلت كاميرتان. الشاب الذي كان مسؤولا عن إحداهما رأى برتراند يقترب. وكان معتادا على الثرثرة والمزاح معه، فذهب وأخبره بما حدث. احتقن وجه المذيع التليفزيوني. «ألا تعرف ألا شأن لي بالكاميرات؟... قل للمسؤول أيا كان يا رجل، لا تقل لي!!»

رتبت بوني لأن تأخذ برتراند بعيدا عن المنطقة التي تجمع فيها الناس. وقفا جنبا إلى جنب ينظران إلى الحقل بينما الظلام وضوء القمر يخيمان عليه. ومن الطرف المنخفض، اقترب ظل شديد السواد. كان دون تيمي مرتديا رداء كهنوتيا. وبينما كان يقترب في ضوء القمر، وفي تناقض مع الرداء الكهنوتي الأسود والظلام المحيط، كان وجهه الشاحب يبدو أشبه بقناع، تحته كان فكه وكتفاه في رعشة تشنجية.

«ما الذي أتى بهذا الرجل؟» تساءل برتراند. وخلف الغضب، كشف صوته دفقة جديدة من القلق. «لم نطلب منه قط القدوم.»

«لا..» وافقته بوني، مندهشة مثله تماما.

توقف الكاهن ليحييهما. وفي يده كان يحمل ما بدا وكأنها حقيبة قماشية صغيرة. «قررت أن آتي وأرى كيف يسير بكم العمل في البرنامج..» أوضح. «إنها أول مرة على الإطلاق يجري فيها تصوير برنامج تليفزيوني في أبرشيتي.»

«كان ينبغي أن تحضر معك هؤلاء الأشخاص غير المرئيين من أبناء أبرشيتك ليقدموا لنا الصحبة..» أجابه برتراند بفظاظة.

رمقه الأب تيمي بنظرة قصيرة. «ربما هم هنا بالفعل...»

«ضوء القمر يجعل الحقل يبدو جميلا بالفعل..» تدخلت بوني لتنزع فتيل التوتر بين الرجلين. لسبب غريب ما، كان يمكن الشعور بهذا التوتر بقوة... وكان يزداد قوة...

ابتعد برتراند عن دون تيمي. «هل تحمل بعض الثوم بالمناسبة؟» سأله.

«الثوم؟ لا.» لم يبدُ القس مندهشا على الإطلاق من السؤال.

«يبدو وكأن الحقل مكسو بالفضة..» أكملت بوني.

من خلفهم جاءت الضجة الخفيضة للتقنيين وهم يحاولون حل أحدث الأعطال التقنية وللجمهور الذي نفد صبره من اضطراره للانتظار.

«يُستخدم الثوم في الطقوس السحرية لقبائل وسط أوروبا..» قال القس. «في طقوس البحر الأبيض، نادرا ما ذُكر الثوم كوسيلة للحماية.»

«الحماية من أي شيء؟» تدخلت بوني.

لم تحصل على أي رد. ثم أكمل القس: «ربما كنت تفكر في الوشاح المستخدم في الطقوس السريانية الموجود لديّ في هذه الحقيبة؟ لقد أتيت به للتوّ من خياط في فاليتا. كان يصلحه من أجلي. وفكرت أنه من الأفضل أن آتي إلى الحقل مباشرة وألا أذهب إلى زنوبر أولا. وإلا لن ألحق تسجيل البرنامج. لم أكن أعرف أنكم ستستغرقون كل هذا الوقت قبل البدء. آمل أن الوشاح لا يضايقك.»

«لا، هو لا يضايقني، بالطبع لا!» نخر برتراند بغضب. «ولا أعرف حتى فيمَ تستخدمه، لا أعرف حتى ما هو، وهو لا يقلقني!»

غادرهما فجأة وسار صاعدا الحقل إلى البستان في الأعلى.

لبرهة، ظلت بوني واقفة إلى جوار دون تيمي، وهما ينظران في صمت إلى الحقل.

«أنا مرعوب مما يحدث..» قال أخيرا.

«مرعوب؟ ممَ؟» ضحكت. «إنه مجرد برنامج مثله مثل كل الحلقات الأخرى في جدول كويس كوام.»

«هل تذكرين مساء الأمس عندما جئتما إلى الكنيسة ووجدتماني أتلو القداس... ربما لاحظتِ أني كنت متوترا قليلا... مرتبكا...»

«أنا لا أعرفك جيدا بما يكفي لأدرك متى تكون مرتبكا..» قالت مبتسمة.

«هكذا كنت، لكني لم أخبركما بشيء. أتعرفين؟ كنت مندهشا لأنكما لم تلاحظاه قط...»

«من تقصد؟»

«واحد من هؤلاء الذين كانوا حاضرين القداس... لقد مر من أمامكما مباشرة.»

«يمكنني أن أقول لك إننا لم نرَ أي أحد هناك، لا شخص واحد، ولا مائة.»

«بالضبط. لكن كان ينبغي أن تريا هذا الشخص.»

«إذًا من كان هو؟»

«واحد من الإخوة تونًا... ستيفن... لم أكن قد رأيته منذ بضعة أيام...

لكنه جاء إلى القداس... وأنتما لم ترياه... بينما تقبله الآخرون كواحد منهم... وكان لديه... في حلقه... ومع ذلك، هناك شيء آخر من الأفضل أن أحذركم منه...»

رن هاتف بوني. وبينما كانت تخرجه، أدركت أنها أول مكالمة تتلقاها. عادةً قبل أن يبدأ البرنامج، كان الهاتف يرن كالمجنون. كان هاردهيد هو المتصل. وكان صوته منفعلا كما لم تسمعه من قبل. خطت مبتعدة عن القس لتحادثه. وعندما رأى دون تيمي أنها ابتعدت عنه، سار إلى داخل السرادق الذي كان سيتم فيه تصوير البرنامج، لينضم إلى بقية أفراد الجمهور الذين كانوا يناقشون الآن جميعا ما كانوا يريدون قوله خلال التسجيل، وكيف لم يكن من العدل أن يتم إحضارهم مبكرا هكذا إلى هنا دون سبب على الإطلاق.

لم تتمكن من فهم ما كان يقوله هاردهيد... كانوا في خطر... الجرذان في كل أنحاء المكان... وسمعت صرخات مستمرة... صرخات غريبة الصوت، كأنها صادرة عن مليون طفل رضيع صغير... اتصلي بالبوليس... وبدا هاردهيد منفعلا بشدة لأن...

ثم انقطع الخط فجأة. منذ قليل، كانت بوني مرتبكة ومتخوفة مما كان يحدث. والآن في أعقاب هذه المكالمة، لم تعد هواجسها تعرف حدودا. إذا كان هاردهيد يقول إنهم... هو وبوريس وجيانينو... في مشكلة كبيرة، فلا بد أن هذه هي الحقيقة... لم يكن هاردهيد رجلا مبالغا. بدأت تعدو إلى قمة الحقل، لتبحث عن برتراند. مهما كان مقدار غضبه، كانوا بحاجة لإحضار الشرطة إلى هنا في أسرع وقت ممكن، وهذا هو كل شيء... وسيتوجب عليها أن تخبره بمكان هاردهيد، ولماذا لم يظهر هو وجيانينو حتى الآن. ومع ذلك في منتصف الطريق، توقفت لتفكر في الأمر. ومن مكانها تناهت إلى سمعها ضجة الرجال والنساء

وهم يثرثرون والفنيين وهم يختبرون الأجهزة... كان هناك طنين ميكروفون ما... كلها صادرة عن سرادق كويس كوام، المضاء والمستعد لتسجيل الحلقة القادمة من البرنامج.

من جيب سترتها، أخرجت بوني قرصين صغيرين. عادةً قبل أن تبدأ العمل على تصوير أي برنامج، كانت تحرص ألا تلمس شيئا من هذا القبيل. لكن اليوم كان خوفها وقلقها قد تجاوزا الحد. ابتلعت القرصين وانتظرت حتى يسري مفعولهما وتشعر بالتحسن. وبينما تسير من جديد إلى بستان الخروب، تذكرت ما كان يخبرها به للتو الأب تيمي.

.55

أخيرا وصل بوريس إلى المكان الذي كان جيانينو مختبئا فيه. وكي يفعل هذا، مر بجوني ديب، الذي ظل منزويا، يدعي الخجل، أو بالأحرى كان بالفعل بائسا لاكتشاف قيامه باللعب كعميل مزدوج مع المسؤول الكبير على حساب فريق كويس كوام. ورغم أن التوتر خيم ككفن ثقيل على هذه القاعة التي كانت تشبه القمع ويفوح منها عفن المقابر، إلا أن بوريس بذل أقصى ما لديه كي يتجاهل جوني ديب تماما... ونجح في ذلك. كان مشمئزا تماما منه لأنه استطاع خيانتهم بهذا الدم البارد.

كان جيانينو قد غاب عن الوعي داخل أحد أحواض الزنك الخالية الموضوعة أسفل الجدران الرطبة للقمع المعتم. كان شاحبا جدا وقد وضع إصبعا في فمه كما لو أنه ارتد طفلا رضيعا في مهد. وبرزت بطنه المستديرة كقبة بازيليكا من أعماق الحوض وبدت على وشك الانفجار بما كانت تصدره من أنَّات قلقة وخائفة. كتم بوريس الضحك الهيستيري الذي انتابه، وصفع جيانينو على وجهه ليعيده إلى الحياة. وأسرع هاردهيد نحوهما.

عاد التقني السمين إلى الحياة ونهض من الحوض مجاهدا بشدة ضد وزنه هو نفسه. «لا! لا! لا! لا تعذباني أكثر من هذا!» تمتم. «لقد فاض بي الأمر! أريد أن آكل وأنام!...» في توتره الذي كان ومازال عليه، لا بد أن جيانينو قد نسي أنهم كانوا في حاجة إليه في حقل الإسخريوطي كي يبدأوا تسجيل البرنامج... وكانوا ينتظرونه... بالنسبة لهاردهيد، كان

هذا مزعجا أكثر مما لو استمر جيانينو في الولولة بأنه لا يريد البقاء هنا لأنهم ينتظرونه في الحقل.

«هل تعرف فيمَ أفكر؟» قال لورينتي مانيسكالكو بصوت متملق، وأسنانه الثعلبية تلوح بين شفتيه المبتسمتين. «أيجب أن نستمر إلى ما لانهاية في أسلوب الماء هذا...؟ إنه شيء ممل... وأنت تعرف الآن كيف يسير الأمر. لقد شعرت بالفعل ست أو سبع مرات وكأنك على وشك الغرق. إلامَ سيتمكن قلبك من تحمل هذا؟ أليس من الأفضل أن ننزع هذا المنديل من فوق وجهك ونتكلم معا كرجال مهذبين كما ينبغي أن نكون، بحيث تتمكن من إخبارنا بكل ما يجب أن تخبرنا به؟»

كان السجين يجاهد مرة أخرى عاجزا في انتظار أن يُسكب مزيد من الماء على وجهه. لكنه توقف فجأة وتمطى ليأخذ أنفاسا عميقة دافعا بذقنه نحو صدره عدة مرات. فهموا أنه وافق على المقترح. أومأ المسؤول للسفاح الذي أزال قطعة الخيش عن وجه السجين. نعم، كان ناردو تونًّا، مازال يمكن تمييزه من خلف لحية لم يحلقها منذ أربعة أيام.

«والآن أريدك أن تستمر في إخبارنا كيف أثثتم المكان هنا... مثلا، تلك الحجرة الكبيرة ذات الأحواض والعصارات...»

نظر ناردو نحوهم، وهو مازال مقيدا إلى الأرض، ووجهه قناع من الغضب والكراهية. كان السفاح على وشك أن يركله لكن السيد لورينتي مانيسكالكو أوقفه على الفور. «نحن لا نضرب الناس هنا..» قال محذرا، والتفت إلى ناردو. «هل ستخبرنا؟ تلك الحجرة الكبيرة... بتلك الأدوات التي تبدو وكأنها تخص معصرة للنبيذ...»

«تلك هي... اشتريناها رخيصة جدا من معاصر النبيذ ومصانع البيرة

التي أفلست بسبب النبيذ والبيرة المستوردين من الخارج...»

«وماذا كنتم تفعلون بهذه المعدات؟»

«كانت تلك مهمتي أنا ويهوذا...»

«نعم، لكن ماذا كانت؟»

«أولا نقتل الجرذان بإغراقها في الأحواض. ثم نأخذها إلى الأحواض الكبيرة لنهرسها مع بقايا الجثث التي لم تأكلها الجرذان بعد.»

«قل لي، ماذا كنتم تفعلون بهذا المزيج الأكثر قرفا؟»

«إيه؟» أجاب ناردو بعد بعض التردد. أدرك كيف كان الجميع يحدقون فيه فجأة. حتى جيانينو، بجهد هائل، كان قد نهض من الحوض الذي سقط أو قفز فيه، واقترب الآن من منطقة التحقيق.

«ماذا كنتم تفعلون بالجرذان المهروسة؟»

«إمم! بعد سحقها وتجفيفها قليلا، كنا نضعها داخل براميل أو أجولة كبيرة ونبيعها كعلف للدواجن... ومؤخرا للخنازير أيضا.»

«هل تقول إن...؟»

«كان لدينا طلب كبير على علفنا. واستطعنا الإبقاء على أسعارنا منخفضة جدا لأننا نحصل على كل شيء مجانا... ليس هذا فقط، بل إن الدجاج يسمن أسرع مع علفنا... هذا ما أخبرونا به... وكان مذاقه من أفضل المذاقات... من كل أنحاء مالطا، كانت مزارع الدجاج تأتي لشراء خامتنا...»

حل صمت رهيب على القاعة. ربما كان كل الرجال الحاضرين يبذلون أقصى جهدهم لتذكر متى كانت آخر مرة تناولوا فيها الدجاج.

حتى السفاح شحب وجهه. «لهذا كانوا يأتون ليبيعوني دجاجا رخيصا... وكان جيدا فعلا...» لكن كما كان واضحا من عبوسه، كانت الذكرى تجعله غير سعيد.

ومع ذلك، كان جيانينو هو الأسوأ حالا بسماعه هذا الكلام. تذكر كيف منذ فترة قصيرة كان يحاول أن يواسي نفسه ويهدئ مخاوفه التي أثارتها هذه الرحلة إلى أقبية زنوبر الجهنمية بتذكر برجر الدجاج الذي التهمه بأعظم حماس خلال هذه الأيام الأخيرة، خاصة وهو يحاول نسيان بحر القلق الذي ألقت به دونًا فيه، بطلباتها الأخيرة كي يلتزم كلاهما بالحمية الغذائية. والآن ها هو يتم إجباره على فهم أن الطعام الطيب الذي التهمه... وذكريات هذه الطعوم التي ذاقها، والتي ساعدت في وضع حد للمخاوف التي انتابته خلال الثلاثين دقيقة الماضية، كانت مصنوعة من... ولآخر مرة خلال هذه الأمسية التراجيدية، جرى جيانينو نحو حوض الزنك الذي جاء منه وتقيأ على الجدار. ورغم أنه كان قد تناول وجبة جيدة في الساعات التي سبقت دخولهم هذه الأنفاق الشنيعة، إلا أنه أحس الآن أنه خاوٍ تماما.

«أخيرا، وجدتها! فهمت!» قال بوريس منفعلا بشدة. «إذًا فهذا هو السبب! لهذا أثار المفوضون الأوروبيون في بروكسل كل هذه الضجة! ولهذا لم يتمكنوا من فهم كيف ينخفض سعر الدواجن في مالطا على العكس من كل اتجاهات الأسعار...! ولهذا أرادوا من الحكومة أن تتدخل بقوة في هذا الموضوع، لأنه يضر بقواعد السوق في أوروبا، في الوقت الذي تثير فيه مفاوضات الدوحة الكثير من المشاكل! ولهذا لم يفهموا كيف أننا نزيد من إنتاج الدواجن رغم أننا نشتري كمية أقل من العلف الذي كان ينبغي أن نشتريه منهم!»

تراجع السيد لورينتي مانيسكالكو خطوتين إلى الوراء من حيث كان

يقف ليحقق مع ناردو وراقب الشاب بوريس بدهشة. «دعني أصحح لك..» قال بطريقة آلية. «نحن لسنا مجبرين على شراء العلف من أوروبا، لكن يجب علينا اتباع القواعد الأوروبية عند شراء علف الحيوانات.» ومرة أخرى، كانت أسنانه الثعلبية تلمع بين شفتيه، رغم أن الأضواء في القاعة كانت ضعيفة. أخبره حدسه بأنه قريب من تحقيق اكتشاف آخر كبير اليوم، وربما كان أهم من الاكتشاف الأول. وتابع كلامه بصوت شديد الرقة: «ومع ذلك اسمح لي أن أبدي ملاحظة... أو بالأحرى، إمم، دعني أسألك سؤالا... لكن آسف لأني لا أعرف اسمك...؟»

«بوريس.» أجابه الشاب وهو في غاية الارتباك. كان عازما على أن يمسك لسانه، لأنه لاحظ على الفور أنه تركه يفلت ويسحبه معه.

«نعم، بوريس...» كان صوت السيد لورينتي مانيسكالكو قد تحول إلى درجة مخملية. حتى أسنانه بدت وقد لانت، كأنها كانت مصنوعة من المخمل أيضا، مؤطرة بالابتسامة الودية واللطيفة التي وجَّهها بثبات إلى الشاب. «اسمح لي أن أسألك، كيف لك أن تعرف بهذا الموضوع... أقصد، الضغط الدبلوماسي الذي يمارَس فيما يتعلق بسعر الدجاج في هذا البلد؟ على حد علمي، هو مازال مغلفا بأقصى قدر من السرية. أنا نفسي لا بد أن أعترف، وأنا أعرف بأمور كثيرة ليست معروفة للجميع، أني أيضا... مازلت جاهلا ببعض التفاصيل المتصلة بهذا الموضوع...»

«إمم... أنت تعرف...» تمتم بوريس. «كجزء من عملي... أحتاج إلى تتبع مؤشر الأسعار... كيف يصعد ويهبط...»

«ولم تقوم بهذا العمل، لو أمكنني أن أسأل...؟»

«حسن، من أجل كويس كوام! كنا سنقدم حلقة عن تكاليف المعيشة...»

«هل سنترك هذا الشخص مقيدا إلى الأرض...؟» تدخل هاردهيد بصوت عال، مخاطبا كلا من المسؤول الذي كان مازال يراقب بوريس بابتسامة رقيقة جدا على وجهه، والسفاح. لم يكن يفهم شيئا مما كان يقال، لكنه أدرك أن بوريس في مأزق حرج، ولا بد من مساعدته على الخروج منه. «أم أنكما تنويان الاستمرار في تعذيبه طوال الليل؟»

هز السفاح كتفيه. كان ينتظر التعليمات من لورينتي مانيسكالكو الذي قبل أن يلتفت إليهما، وبعينين مازالتا لامعتين، قال لبوريس: «عندما نخرج من هنا، أحتاج إلى الحديث معك. يمكنك مساعدتي كثيرا في معرفة ما كنت بحاجة لمعرفته منذ فترة... وما عرفته بالفعل قبل أن أعرفه... من سفارتنا في بروكسل، وأنا على يقين من هذا... أتفهمني؟... لقد ناقشت هذا بالفعل مع السيد برتراند كاسباه، رئيس كويس كوام... ألم يخبرك بهذا؟»

تظاهر بوريس أنه لاهٍ تماما.

مبتسما، التفت السيد لورينتي مانيسكالكو إلى ناردو: «من الخطأ قول أننا هنا كي نعذب أي إنسان، مهما كان..» قال، مظهرا الجهاز الصغير الذي كان يمسك به في يده ليسجل ما كان يقال. ضغط زرا فيه، وعندما ظهرت نقطة صغيرة من ضوء أخضر تابع: «بادئ ذي بدء، دعني أشرح لك مرة أخرى ما نفعله. هنا أنت حر في أن تنهض وتمضي، رغم أنك لو فعلتها، يمكن أن يؤخذ هذا ضدك في المستقبل... لكني أتوقع من منطلق إحساسك بالمسؤولية أنك ستخبرنا بكل شيء.» وبينما كان يتحدث، تغيرت النظرة التي على وجهه وكأنها تحولت من النهار إلى الليل. أصبحت نظرته شرسة للغاية وبدت عيناه وقد اكتسبتا صلابة وقسوة. ناردو الذي كان قد بدأ مرة أخرى يبدي بعض التحدي خلال اللحظات القليلة التي بدا فيها أن الآخرين قد نسوا أمره، أخفض

عينيه، ورمق قطعة الخيش المبلولة بجواره والغلاية التي استخدمها السفاح لصب الماء على وجهه، وتوجع. «لقد أضعنا بالفعل وقتا كثيرا عليك. إما أن تخبرنا بكل شيء فورا، أو ستندم على هذا... منذ متى تبيعون الجرذان كعلف للدواجن والخنازير؟»

«عام ونصف... لكن في الشهور الأخيرة، كان أداؤنا أقوى. أخبرتك... أنا ويهوذا... تمكنا من الحصول على نسل جرذان أكبر من قبل... كانت الجثث المدفونة تحت بوابة الجحيم تبلي معها بلاء حسنا.»

«واستمر عملكم إلى وقت قريب؟»

«في تلك الأسابيع الأخيرة، واجهتنا مشاكل... منذ انتابت ستيفن واحدة من نوباته... كانت تنتابه من قبل، لكنها لم تكن أبدا بسوء هذه المرة. ثم أتى هؤلاء الأشخاص من البرنامج... فريق كويس... وكالجحيم، خرج كل شيء عن السيطرة... لم تأكل الجرذان منذ يومين أو ثلاثة... منذ مات ستيفن...»

«مهلا... تهت منك. من قتل ستيفن؟»

«من قتله؟ ستيفن؟... ستيف قتل نفسه...» لم يكن ناردو يمثل. اختنق ثم بدأ ينشج. «فعل ما فعله يهوذا... الذي مات في حقل الإسخريوطي...»

«ما هذا؟ يهوذا أخوك، أليس كذلك؟ لقد أطلق النار علينا للتوّ!»

«هو يقصد يهوذا تونًّا، الشخص الذي عُثر عليه مشنوقا حتى الموت في حقل الإسخريوطي منذ أكثر من مائة عام..» أوضح بوريس.

كان السيد لورينتي مانيسكالكو قد بدأ يضجر، وشعر فجأة أنه لن يصل إلى شيء. «كيف مات أخوك؟» سأل ناردو. «لا أبالي بما حدث منذ

مائة عام!»

ابتلع ناردو البصاق الذي كان يصعد في حلقه وبأصابعه القذرة، مجاهدا ضد الحبال التي أوثقته بإحكام، مسح عينيه؛ وكأنه يحاول أن يمحو منظرا مخيفا. وهز رأسه ليظهر أنه لا يريد أن يكمل.

«من الأفضل أن تتكلم، وإلا...» هذه المرة، لم يُظهر المسؤول الكبير أي أثر للمخمل. اقترب السفاح ورفع مرة أخرى قطعة الخيش المبلولة.

«لا! لا، ليس مرة أخرى!» صرخ ناردو مرعوبا. «سأقول لكم كل شيء...»

«فكه..» أكمل لورينتي مانيسكالكو، وصوته مازال قاسيا وصلبا. أطاع السفاح رئيسه بحماس ضعيف. نهض السجين في جلسته، ووضع يديه حول عنقه وتمطى كأنه يعاني من شد عضلي. ثم بدأ يتكلم، بصوت خفيض ومكتوم... كان مرعوبا مما كان عليه أن يتذكره.

«كان ستيفن من وجد القبور هنا بالأسفل.... أخبرنا بوجود صوت يدعوه... هبط هناك، وقضى أياما كاملة يبحث، وحده تماما، لم يرد أن ننزل معه... وأخبرنا بما وجده... ليس الكنز الذي تخيلناه... لكن موتى في كل مكان... بعضهم استحال ترابا منذ سنين بعيدة كثيرة... لكن كثيرا آخرين... استحالوا لشيء أشبه بالملح، بسبب الصخور الموجودة هناك بالأسفل... وتقددت لحومهم... آلاف وآلاف الجثث، هذا ما قاله... لم نهبط أنا ويهوذا إلا مرتين فقط... ولم يكن ستيفن يسمح لنا... وللحق لم نكن نريد نحن أيضا... عندئذ فكرنا أنه يمكننا البدء في استخدام هذه الجثث كعلف... بعد أن جعلتنا الشرطة نغلق المزرعة التي كانت لدينا... علف للجرذان... عندما أدركوا أن الزبالة التي كنا نأتي بها إلى هنا كانت لإطعام الجرذان... لحسن الحظ جاءنا فلوريندو

في الوقت المناسب... أنقذنا من السجن... لكن لو أننا استخدمنا لحم هذه الجثث المملحة... من سيلاحظ؟ لذا أخبرنا ستيفن بما يجب عليه أن نفعله... أن يحمل الجثث إلى هنا، ويقطعها وسنفعل نحن الباقي. بدأ يصعد بموتي مجففين، كانوا مثل البسكويت... كانوا يرتدون مزقا من الملابس والدروع، وكثير منهم كانوا يتفتتون بمجرد لمسنا لهم.... لكن الجرذان... آه! بالنسبة للجرذان، كان الطعام الذي نقدمه لهم وكأنه عسل يأتي من الجنة. كم نموا بسرعة! ومن خليط لحمهم عندما كنا نهرسه في أحواض النبيذ والبيرة... الجرذان... مع قطع ونتف الجثث... العلف الذي أنتجناه، لم يكن رخيصا فقط... وأقمنا مشروعا جيدا جدا... بل جعل الحيوانات التي يتم تسميتها، تنمو بشكل أسرع...»

«هل كنتم تعرفون أن ما تفعلونه يخالف قوانين مالطا وقوانين أوروبا كذلك... فيما يتعلق بالصحة العامة... البيئة... التراث التاريخي للبلد... إدارة أسواق الطعام... وقوانين ضريبة القيمة المضافة...؟»

«... وضد قوانين حماية الحيوان..» أضاف بوريس، عازما أن يرى كيف يمكنه محو ذكرى الخطأ الكبير الذي ارتكبه منذ قليل عندما ترك لسانه يفلت.

«كان كل شيء غير قانوني في مشروعكم..» تابع السيد لورينتي مانيسكالكو. «حتى الأمن الوطني كان يمكن أن يتأثر. من يدري أي أمراض وأوبئة كانت موجودة في سراديب حفظ الموتى التي تتحدث عنها.»

بكى ناردو في صمت. بالقذارة التي غطته، والقلق والغضب اللذين تمكنا منه فجأة، بدا أكبر سنا وأكثر قبحا مما كان عندما أزيلت قطعة الخيش من فوق وجهه. «لم نمرض قط... لم نصب قط بأي وباء... لكن ستيفن تغير، ولا أعرف إن كان مرضا أم لا... كان دائما يصاب بتلك

النوبات.... لكن ليس هكذا! ليس كما بدأ يعاني منها خلال الأسابيع الأخيرة! أخبرنا أن هناك شخصا ما... روحا شريرة ما... من أعمق قبر... حيث لم يصل هو نفسه بعد... كان صاحب هذه الروح الشريرة يرسل إليه رسائل، كان يريد أن يقابله... كان يريد أن يحادثه وجها لوجه... وبدأ يزوره في نومه، عندما تأتيه النوبة... شخص اسمه بوت... بوت...»

«بول بوت! كيف يمكن هذا؟» هتف المسؤول الحكومي متعجبا. «كان هذا الرجل مسؤولا عن سراديب الموتى في كامبوديا وليس...»

«بوتو-رع..» قاطعه بوريس. «قرصان مصري انضم إلى أسطول الفينيقيين. والقصة أنهم أعدموه هنا... لأنه خانهم...»

«لم أسمع بهذا قط..» أشار السيد مانيسكالكو. «هذه الليلة نفسها سأدخل إلى قاعدة بيانات لانجلي لأراجع ما لديهم حوله.»

«... كان يتحدث إلى ستيفن... أخبره أننا نقوم بانتهاك المحرمات... وبدأ ستيفن يكتئب... أخبرنا كيف أن صاحب هذه الروح الشريرة... حدثه عن يهوذا تونًّا... قريبنا الذي شنق نفسه في حقل الإسخريوطي... أخبر ستيفن، صاحب هذه الروح الشريرة... كيف دخل عقل وقلب يهوذا، منذ أكثر من مائة عام وأدخل في رأسه أن يشنق نفسه ويشق حلقه... كما كانوا يفعلون في زمانه... زمان صاحب هذه الروح الشريرة... ليبينوا أنهم ليسوا خائفين من الموت عندما كان عليهم أن يموتوا... وهكذا استمر ستيفن يهذي حول صاحب هذه الروح... وما أخبره به... وكيف كان يحذره كي لا يستمر في القيام بنبش سراديب الموتى ليحمل الجثث إلى أعلى. وسرعان ما تغير ستيفن... كان علينا أن ندفعه بقسوة كي يقوم بمهمته... بدأنا نقول له إننا سننزل أسفل بوابة الجحيم بأنفسنا إذا لم يذهب هو... وعندئذ كان يتعارك معنا ويقاتلنا. حتى وجهه كان يتغير. غدا مليئا بالتجاعيد... وقبل ذلك كان

ناعما أملس... فهو أصغرنا نحن الثلاثة. لذا صرنا خائفين من أن يكون صاحب هذه الروح الشريرة... بوت... بوت...»

«بوتو-رع..» كرر بوريس.

«... قد تسلل داخله. أراد يهوذا أن يذهب للتحدث مع دون تيمي... يقولون إنه يعرف أعمال السحر... لكن ستيفن رفض... وبدأ ينتقل من سيء إلى أسوأ... لم يعد بمقدورنا أن نتعرف عليه تقريبا... كان يقوم بعمله، لكنه فقد رغبته... وجاءته نوبة استمرت يومين كاملين... خفنا أن نأتي له بطبيب... أصبحت هذياناته كالجنون. وعندما تغلب على النوبة، أخبرنا أنه والروح الشريرة قد أصبحا واحدا. وأنه لن ينزل من بوابة الجحيم بعد ذلك مرة أخرى... وفي الوقت نفسه، بدأ أشخاص كويس يأتون إلى هنا ليتجسسوا علينا... وكأن هذا ما ينقصنا...! ثم اختفى ستيفن... لم نستطع العثور عليه... أين ذهب؟ أخيرا وجدناه مشنوقا، وحلقه مشقوق... في الحجرة الصغيرة التي كنا نحتفظ فيها بالدلاء والمقشات! بالضبط مثل يهوذا... منذ زمن بعيد، كما اعتاد أهل زنوبر أن يقولوا...»

«لكن من قتله؟ هل كنت أنت؟ أخوك؟» تساءل السيد لورينتي مانيسكالكو، منزعجا ومرتبكا بشدة.

«ألا تفهم؟ لقد سكنته تلك الروح الشريرة... ستيفن قتل نفسه! مثلما فعل يهوذا في الماضي...»

«ماذا؟ وتقصد أنه شق حلقه في نفس الوقت الذي...» هتف المسؤول، وكان واضحا جدا أنه لا يصدق هذه القصة على الإطلاق. «من المجنون الذي قد يفعل هذا؟» ونظر إلى الآخرين بتلك الابتسامة التي تليق بثعلب ماكر. لكن أحدا لم يبادله الابتسام.

حدقوا في ناردو وأطالوا التحديق، وكأنهم ليس فقط مصدقين له، بل وكأنهم كلما استمعوا أكثر، كلما ازدادت قناعتهم قوة بأن رعبا عميقا ما كان مختبئا في سراديب الموت تلك التي بُنيت عليها قرية زنوبر القديمة، وفي بستان الخروب أعلى حقل الإسخريوطي، وفي التلال التي ظلت لقرون تمثل خلفية لذلك الحقل.

«أخبرنا أن بعل... وفي الحقيقة لم نعرف ما يقصده عندما كان يتحدث عن بعل هذا... فلم يكن لدينا مثل هذا النوع من الوحوش في المزرعة، فقط الجرذان، لكن ستيفن استمر في قول هذا... أن بعل قد لعن بوتو-رع لأنه عندما كان على وشك الموت على المشنقة، لم تكن لديه الشجاعة كي يشق حلقه... وكان الحكم الذي صدر عليه أنه عندما يهدد شيء ما بيت الموتى، فعليه مواجهته... ويموت من جديد لإنقاذه... هذا هو ما أراد منه بعل أن يفعله... هذا ما قاله ستيفن...»

«هذا مجرد تكرار للأساطير المتعلقة بخلاص الجنس البشري...» تمتم بوريس بصوت خفيض. «مثلما في قصة أوزيريس... لكن في صيغة حقيرة بأكثر الطرق سوقية.»

«إيه؟» جاوبه هاردهيد.

كان المسؤول الحكومي قد قرر أن يكمل التحقيق إلى النهاية. «وكيف يمكن أن يموت مرة أخرى؟»

«إنه عمل من أعمال السحر!... شغل شياطين! يدخل أرواح الناس... ويستولي على حياتهم... إنه عمل سحرة وشياطين...»

«ولماذا لم تبلغوا الشرطة بكل هذا؟» تساءل المسؤول.

وبدأ ناردو يضحك ضحكة صامتة خرجت في شكل تشنجات

تصاعدت في صدره. ومرة أخرى نظر المسؤول الكبير إلى رفاقه من حوله. وأدرك أنهم يبذلون قصارى جهدهم كي يخنقوا ضحكهم على غباء سؤاله. حتى السفاح، المعروف بسلوكه المحترم تجاه أي شخص يعطيه الأوامر ويدفع له أجره، اضطر لإخفاء فمه بيده، متظاهرا بحك ذقنه، لكنه كان في الحقيقة يكتم القهقهة التي كانت على وشك أن تخرج منه عندما طرح لورينتي مانيسكالكو سؤاله.

كان ناردو مازال يضحك، أو الأدق كان ينشج، والدموع في عينيه اللتين كانتا مع ذلك قاسيتين بما فيهما من غضب وكراهية. «لم نبلغ الشرطة... لكننا أخبرنا الأب تيمي... رغم أن ستيفن كان مازال رافضا، ذهبت أخيرا لأخبر قس الأبرشية، عما كان يعانيه ستيفن... لكن دون تيمي قال لي إنه لا يستطيع أن يفهم شيئا مما أقول... أو لعله كان يتظاهر بهذا، لأنه هو أيضا!... الشيطان بداخل هذا الرجل!... كل ما تحتاجه أن تراه يتقافز مع كل كلمة يقولها، مثل الجندب... لكن ستيفن استمر في التغير... على مدار الساعة كان يتغير... انحفر وجهه، ملأته الغضون... كان وكأن الشمس قد لوحته حتى حرقته... حتى... وجدته... ومنذ تلك اللحظة، لم أتوقف عن شرب النبيذ...» لم يعد بمقدور ناردو التحكم في الشهقات الطالعة من حلقه. ألقى بنفسه ووجهه على الأرض.

لأول مرة، تكلم جوني ديب. «لكن الجرذان؟ من يعتني بها؟ لماذا هي على هذا الحال من الجنون...؟»

«يهوذا مسؤول عن الجرذان... أنا أفرمها وأبيعها كعلف... هكذا كنا نعمل... لكن منذ غاب ستيفن، لم يعد لدينا طعام من أجلها. عندما كان صغيرا، قضى يهوذا بعض الوقت مساعدا لبروفيسور في الجامعة ليعتني بالجرذان والفئران التي كان يحتفظ بها... لا أعرف ماذا كان يفعل بها...»

«هل كان اسمه بروفيسور ديلينجر؟» تساءل بوريس.

«هذا هو الرجل! علَّم يهوذا كيف يربي الجرذان... وكانت تعرفه وتحبه... لكن بعد ذلك لم يعد البروفيسور بحاجة للجرذان والفئران... وانتهى الأمر بأخي دون عمل... وهكذا بدأنا مشروع مزرعة الجرذان. عمل يهوذا مع البروفيسور... علمه أن الجرذان حيوانات تسمن بسرعة...»

«لكن تلك الجرذان بالأعلى... ماذا حدث لها خلال الأيام الأخيرة؟» كان جوني ديب يسأل مرة أخرى، هو الذي ظل صامتا حتى الآن.

«ما الذي يضايقك إلى هذا الحد بشأنهم؟» تساءل هاردهيد بانفعال.

«هذه الجرذان بالأعلى... إنها تكاد تُجن من الجوع والعطش...» قال جوني ديب. «لماذا تركتوها هكذا؟»

56.

«من يريد الجرذان؟»

دوَّى صوت عبر القاعة. التفتوا فزعين إلى المدخل. على البسطة وقف رجل... يهوذا تونًّا الذي كان قد فر منذ وقت ليس ببعيد، بعد أن تحطم ذراعه برصاصة السفاح. في البداية لم يميزوه، رغم أنه كان يحيط ذراعه الأيمن بالأيسر. وحول عنقه كان هناك شيء أشبه بشال ملفوف حولها... حتى أدركوا أنها ثلاثة جرذان كبيرة تتشبث بكتفيه، وتتطلع إليهم كذلك من علٍ. «من يطلب الجرذان؟ سترونهم قريبا... وهم قادمون... هم قادمون!» ضحك بصوت عال، وبطريقة مسرحية. وترددت عبر القاعة ضحكته كما تردد من قبل صوته المدوّي.

من حيث كان متمددا، نهض ناردو على ركبتيه، منكمشا في قبضة رعب جديد. «هل أخرجتهم؟ هل فعلتها...؟» صرخ مرعوبا.

«أخرجتهم...! إنهم جائعون، سيأتون ويأكلون هؤلاء الأوغاد...»

وأثناء ذلك، ومن مسافة قريبة، كان يمكن سماع صوت مزقزق عال يقترب. كان كأنه نهر من الصوت يقوى مع مرور كل لحظة... صرير حاد يرتفع من مائة ألف حلق. تجمد الرجال في منتصف القاعة، غير مصدقين آذانهم، مذهولين مما سمعوه يقترب، مصدومين أيضا مما فعله ناردو الذي انهار على الأرض يزحف من الرعب. أما الرجل الواقف على البسطة، ومازال يحمل ذراعه الأيمن في الأيسر، والجرذان الثلاثة

تتعلق بكتفيه وعنقه، فصرخ فيهم كالمجنون. واقترب صوت الصرير... بالتأكيد كان يتقافز الآن على السلالم خلف يهوذا تونًّا.

تحرك السفاح أولا. مد يده إلى مسدسه، لكن قبل أن يجهزه، انفجر الصرير في القاعة بكل طاقته. من حيث كانوا يقفون، لم يكن بمقدورهم في البداية رؤية ما كان يحدث عند قدميّ يهوذا، حتى بدأت الجرذان المحتشدة حوله في التسلق على بعضها البعض. تمكنوا من رؤية حشد كثيف من الجرذان المسعورة يركب أحدها على الآخر، تكاد تصل إلى ركبتيه، وهي تدور وتصعد فوق ظهور بعضها البعض، صارخة، بينما استمر نهر الصرير الحاد يتدفق هابطا الدرجات، جالبا المزيد من الجرذان المندفعين للانضمام إلى إخوتهم وأخواتهم.

«إنهم قادمون إلى هنا..» قال هاردهيد، وهو ينظر حوله بحثا عن شيء يدافع به عن نفسه. ومن الجانب التقط لوحا خشبيا طويلا رفيعا. فعل بوريس مثله، لكنهما سرعان ما أدركا أنه لو بلغت الأمور الذروة، سيكون مثل هذا السلاح قليل النفع.

فجأة، قفزت الجرذان الثلاثة من فوق كتفيّ يهوذا لتنضم إلى رفاقها. ارتفع صوت الصرير. كانت آلاف وآلاف من الجرذان تجري هابطة السلم حتى أخيرا، انفجر السيل داخل القاعة.

صادف أن كان السفاح والسيد لورينتي مانيسكالكو هما الأقرب للمكان الذي ظهرت منه الجرذان. تراجع كلاهما. ثم أسرعوا جميعا إلى الطرف العميق من القاعة. كلهم باستثناء ناردو... الذي ظل منكمشا على الأرض، في حالة هيستيريا وهذيان، أو ربما كان النبيذ الذي عبَّه بشراهة طوال الأيام الأخيرة بدأ أخيرا يؤتي ثماره... ليس فقط ناردو. وكأنه في شبه غيبوبة، ظل جيانينو أيضا جوار الحائط، قرب حوض الزنك الكبير الذي كان قد سقط فيه منذ قليل.

للحظات قليلة، توقفت الموجة الأولى من الجرذان المتقدمة عند أدنى السلم. كانوا يصرخون جميعا، لكن الضجة الجائعة التي كانوا يثيرونها والتي بدت حادة، أصبحت الآن عالية النغمة وتردد صداها في كل مكان بطنين منذر. وكان غريبا كيف أن ثلاثة جرذان وضعت نفسها في مقدمة الحشد. بدا وكأنها تجري تقييما للموقف، بينما تعثرت البقية وتدافعت وصرخت وراءها. كانت الجرذان الثلاثة في المقدمة إما هي نفسها التي اعتلت كتفيّ يهوذا، أو أنها تشبهها...

وبسرعة زاد ضغط الحيوانات التي تضورت جوعا وهي تهبط الدرجات.

«ماذا سنفعل؟» تساءل السيد لورينتي مانيسكالكو. بدت أسنانه الثعلبية وقد فقدت بريقها في الشق ما بين شفتيه الذي لم يكن ابتسامة.

لم يكن السفاح بارعا في الإتيان بأفكار. وأدرك أن مسدسه لن يكون له نفع.

«نحتاج إلى مكان لا يمكنهم فيه محاصرتنا من جميع الجوانب..» قال هاردهيد.

«بوابة الجحيم!» صاح بوريس. «من هذا الطريق!» وجرى إليها.

وعلى الفور تبعه الآخرون.

في الوقت نفسه، تدفقت الموجة الكبيرة من الجرذان المتلاطمة والصارخة هابطة الدرجات خلف قادتها الثلاثة واندفعت إلى الأمام في حركة تشبه رفة ذيل تنين، مغطية كل مكان. بلغت الجرذان ناردو الذي كان مازال مقيدا بالأرض، وتسلقت فوقه من كل جانب، مغطية إياه وهي تعضه. لكن بمجرد أن أدرك ما كان يحدث، جرى يهوذا هابطا

من البسطة، وهو يطأ الجرذان. ألقى بنفسه إلى جوار أخيه، وبذراعه السليمة بدأ يزيح الجرذان التي غطته.

«لا ليس هذا الرجل! ليس هذا الرجل!» صرخ يهوذا. للحظة، بدا ان الجرذان تطيعه. ونجح في تنظيف ناردو من الوحوش التي تعلقت به. وتراجع الآخرون الذين كانوا مندفعين نحوه. انقلب ناردو وهو يهذي وتلوى على الأرض.

أحاطت الجرذان بالشقيقين. لكنهم ورغم أنهم كانوا يقتربون أكثر من الرجلين، إلا أنه بدا عليهم أنهم مازالوا يحترمون يهوذا. ومهما كانت درجة الجنون التي بلغوها من الجوع والعطش، لم يلمسوا ناردو مرة أخرى. في تلك الأثناء، كان المزيد من الجرذان الهاربة من الأقفاص في الأقبية تندفع هابطة الدرجات، بأعداد هائلة. امتلأت أرض القاعة بالجرذان، وبدا أن المكان سيفيض عما قليل بها. وفي تموجها خلف مجموعة قيادتها المكونة من الجرذان الثلاثة الكبيرة، صنعت سجادة رهيبة تنتشر لتغطي كل ركن. والآن، بدأوا يقتربون من بوابة الجحيم، حيث تجمع هاردهيد وبوريس والسيد لورينتي مانيسكالكو والسفاح وجوني ديب.

وجدوا أنفسهم عند مدخل يؤدي إلى فتحة مظلمة تتصاعد منها روائح الرطوبة والتحلل.

«هيا إلى داخل البوابة..» صاح هاردهيد آمرا. «وإلا سيحيطون بنا.»

«أين جيانينو؟! أين جيانينو؟!» ببالغ الذعر، كان بوريس أول من نبههم إلى أن التقني السمين لم يكن معهم.

قفز هاردهيد ملتفتا وتفحصهم واحدا بعد الآخر، مقربا مصباحه من وجوههم ليتأكد من حضورهم جميعا. كان جيانينو مفقودا.

«ها هو ذا!» هتف جوني ديب، مشيرا إلى جانب القاعة. «بجوار الحائط... قرب ذلك الحوض...»

أطلوا خارجا، حريصين ألا يقتربوا أكثر من اللازم من الجرذان التي احتشدت قرب بوابة الجحيم وهي تصرخ باستمرار، ورأوا جيانينو، كان وجهه قد غدا رماديا من الرعب. وقف في الحوض متصلبا، وظهره ملتصق بالحائط. ولسبب ما، ورغم أن الجرذان المتجمهرة حوله كانت تتطلع إليه أحيانا، إلا أنها لم تحاول القفز داخل الحوض، حتى وهي تتخبط في جانبه بجنون، ملتصقة ببعضها البعض. حدق جيانينو فيها دون أن يحول عنها عينيه، وقد ثبته الخوف إلى الحائط بمسامير.

«لماذا ظل هناك؟ لماذا ظل هناك؟» تمتم هاردهيد وهو يلعن ويسب، قلقا للغاية. لو هاجمت الجرذان جيانينو، سيكون هو أول من يترك الملجأ الذي وفرته بوابة الجحيم ويحاول الدفاع عنه... لكنه لم يكن احتمالا جذابا. «جيانينو..» صرخ. «لا تتحرك! في الوقت الحالي... ابق فقط حيث أنت!»

متجمدا من الرعب، لم يكن بمقدور جيانينو حتى أن يفتح شفتيه. وعندما التفت لينظر نحو بوابة الجحيم، بدا وكأنه يئن...

تذكر هاردهيد الهاتف في جيبه الذي أبقاه مغلقا منذ نزلوا هنا. اتصل برقم بوني. مرة، مرتين، ثلاث مرات، ولم يتمكن من الوصول إليها. وأخيرا نجح؛ وعندما بدأ في الحديث إليها أدرك كم كان منفعلا. لم يتمكن تقريبا من صياغة خيط مترابط من الكلمات معا ليفسر لها أين كانوا وما كان يحدث لهم. وبدا كأن صوتها قادم من مسافة هائلة. وفجأة انقطع الاتصال. وعبثا حاول الوصول إليها مرة أخرى.

والآن، مع اندفاع القوارض المتلاطمة بسرعة داخل القاعة والتي

مازالت تقودها الجرذان الثلاثة الكبيرة، أصبح حشد الوحوش موجة ضخمة تتطاحن حول بوابة الجحيم، أخرج هاردهيد قدمه ليركل بقوة واحدا من الجرذان الثلاثة الكبيرة. وبدلا منه، ركل وحشا آخر كبيرا إلى حد ما، ومع الضربة، ألقى به وسط حشد الجرذان المتلاطمين خلفه. لكن بينما كان هاردهيد يسحب قدمه، هجم جرذ آخر على ساقه، وعض بأسنانه على بنطاله وتعلق متشبثا به، ودخل مع الساق العائدة إلى الفتحة متعلقا بها. ضربه هاردهيد وهو يسب ويلعن باللوح الخشبي الذي كان يمسكه، وبمجرد أن سقط الجرذ على الأرض داس على رأسه وسحقها. وبركلة أخرى فورا أعاد الجرذ الميت وسط حشد الوحوش التي كانت تتدافع عند بوابة الجحيم. في الوقت نفسه كان مزيد من الجرذان يتدفق على الدرجات.

«انظروا! انظروا إلى ما يحدث!» هتف السفاح، بفم مفتوح على اتساعه. أشار حيث ألقى هاردهيد الحيوان المسحوق. أحاطت كوكبة من الجرذان بالحيوان الميت وأخذت تمور حوله، تقضمه وتمزقه إربا، ملتهمة إياه.

«والآن لا شيء سيوقفهم عن قضم أي شيء يجدوه في طريقهم..» قال جوني ديب. «بما أنهم شموا رائحة الدم، لا شيء سيردعهم.»

«وكيف لك أن تعرف؟» تساءل هاردهيد.

«يمتلك أبي مزرعة خنازير.»

«لكن!» قال بوريس. «ربما يكونون مسعورين... لكنهم يخشون الاقتراب من هذه الفتحة!»

كان على حق. كانت القاعة أمامهم الآن مغطاة بعاصفة غاضبة من الجرذان من كافة الأحجام، سوداء وبنية، وتتناثر بعض المهق

وسطهم، بخطوم مرفوعة، وأسنان مكشوفة، وعيون وأفواه حمراء. علت صرخاتهم لتملأ المكان... كتلة من جرذان لا حصر لها، عازمة جميعا على ما يبدو أن تلتهم أي شيء تجده في طريقها... وفي طريقها، كان السيد لورينتي مانيسكالكو وهاردهيد والبقية، محتشدين داخل بوابة الجحيم. ومع ذلك، لم تدخل الوحوش الهائجة إلى بوابة الجحيم.

كانت شحنتهم لتكتسح كل شيء أمامها. كان ضغط الجرذان هائلا على أولئك الذين في المقدمة، لكن لم يقفز واحد منهم داخل الفتحة. وللدقة، حاول جرذ وقفز على الرجال داخل بوابة الجحيم. وبينما كان يقفز التوى جانبا وهو يجاهد للعودة، حتى أنه سقط على رفاقه في المقدمة. فالتفوا حوله بعضات انتقامية. ولا بد أنهم عضوا عصبا ما لأن الرجال استطاعوا سماع الجرذ يولول في ألم، ثم يصرخ وهو يزحف ويجر نفسه بين الجرذان وهي تعضه، قبل أن يختفي وسط الوحوش المحتشدة في الخلف. ثمة قوة غامضة كانت تخرج من بوابة الجحيم. وكانت تمنع الجرذان من فعل ما أرادوا فعله، كي يشبعوا جوعهم وعطشهم.

كان مدخل الفتحة حيث وقف الرجال، والذي يؤدي إلى سراديب الموتى في الأسفل، مظلما كالقار. في عجلتهم للاختباء من الجرذان، تركوا كشافاتهم خلفهم فيما عدا هاردهيد. بالكاد كان باستطاعتهم التقدم أكثر داخل الفتحة، حتى لو أرادوا، وهو ما لم يكن حادثا... لأن الرائحة الحادة للجثث العتيقة والرطوبة الصادرة من سراديب الموتى ستخنقهم بالتأكيد، أكثر مما كانوا مختنقين من الرائحة الكريهة التي حملتها الجرذان التي جُنت من الجوع الذي كان يقرض أحشاءها، وهي تتضاغط وتعتصر بعضها البعض خارج بوابة الجحيم.

«نعم! إنهم لن يأتوا إلى الفتحة!» هتف هاردهيد بلهجة منتصرة.

«شيء ما يخيفهم.»

«هم يدركون أنهم إن جاؤوا إلى هنا، فلا بد أن يطرحوا عنهم كل أمل..[31]» قال بوريس على سبيل التفاخر وليعطي نفسه بعض الشجاعة. كان يشعر أنه في موقف سيء... لم يفهم أحد من الحاضرين ما كان يقصده، وهذه المرة فشل تماما الإلهاء الأدبي الذي كان بوريس يحاول به أن يهدئ مخاوفه. مهما كان في ذهنه، هو مازال مرعوبا... ومع ذلك، أدرك بوريس أن الجرذان لم تكن خائفة منهم هم الخمسة المتجمعون في فوهة النفق، كما لا بد أن هاردهيد قد تخيل. ببساطة لم تكن الجرذان راغبة في دخول بوابة الجحيم... لأن شيئا ما غير الوجود البشري كان يحذرهم كي يبقوا بعيدا عن الفتحة الضيقة...

في الصف الأول من الوحوش المتزاحمة قرب البوابة، تمكن الشاب من رؤية الجرذان الثلاثة التي قفزت من فوق كتفيّ يهوذا – كان متأكدا من هذا... مثلما كان الآخرون الواقفون عند مدخل الفتحة، يحدقون خائفين ومشمئزين في الحشد المتلاطم. أكثر من هذا، كان بوريس متأكدا أيضا أن هذه الجرذان كانت هي نفسها التي رآها في قفصها داخل القبو الثالث الذي زاره مع هاردهيد. ثلاثة جرذان كبيرة وسوداء، منسحبة ومنتبهة، كانت عندئذ تنظر إليه بكراهية كبيرة وهي تقيمه بشراسة، كأنها تستعد للتحرر، كأنها تعرف أنها بعد قليل ستجيئها الفرصة مع رفاقها كي تنتقم لنفسها من هؤلاء الذين حشروها داخل أقفاص وسمَّنوها، ليهرسوا في النهاية لحمها ويحولوه إلى علف لحيوانات أخرى... للحظة واحدة غريبة ومرعبة، كان بوريس يحدق مرة أخرى في هذه الجرذان، مباشرة في أحداق عيونها الحمراء. وفي انتفاضة عجيبة للذاكرة، تذكر كيف منح لقب سبارتاكوس لأكبر الثلاثة،

31- تشير الجملة إلى عبارة دانتي الشهيرة في الكوميديا الإلهية: أيها الداخلون. اطرحوا عنكم كل أمل.

ذلك الذي كان يرمقه بكراهية شديدة وشراسة باردة لا تُصدَّق...

التفت السفاح قلقا ليتأكد من أمن المسؤول الكبير الذي كان يحرسه.

كان السيد لورينتي مانيسكالكو واقفا خلف رفاقه المصطفين عند مدخل الفتحة، يجاهد في الظلام كي يميز المفاتيح في هاتفه الصغير، الذي يكاد يبلغ حجم فولة، والذي كان يحتفظ به في جيب سري داخل السترة شديدة الأناقة التي كان يرتديها، والتي صممها وخاطها له خياط هندي يعلن عن نفسه في الصحافة البريطانية. بدلاته مصنوعة وفق مقاييس البدل المصنوعة في بوند ستريت، ولديها نفس نوعية النسيج –إن لم تكن أعلى– وجودة الخياطة التي لدى أفضل الشركات المعروفة، لكنها بثلث الثمن.

«لن تجد شبكة هنا..» قال له هاردهيد.

«هذا موديل خاص..» أجابه المسؤول. رغم أنه كان يشعر بالرعب مثله مثل الآخرين، إلا أنه لم يستطع مقاومة التفاخر للحظة. «أعطاه لي الشباب في لانجلي عندما أنهيت دورتهم في مكافحة الإرهاب مع مرتبة الشرف... هو قادر على الوصول إلى القمر من سفح جبل إيفرست...»

أخيرا، تمكن السيد مانيسكالكو من حل مشكلة اختيار المفاتيح الصحيحة في الهاتف الضئيل البالغ حجم فولة الذي كان يمسك به في يده. «هل تعرفت عليّ؟» تساءل، وهو يسد بأصابعه أنفه من رائحة العفن المتصاعدة من أسفل الفتحة.

وعندما جاءه الرد: «قل للرجل في الطابق العلوي لكن لا تنتظر تعليماته. اطلق فورا خطة الطوارئ 7.5، المسماة بالخطة سبعة، كما تم الاتفاق في بروكسل ومع لانجلي. نعم، فورا... وابدأ بالجيش... فورا، فهمت؟... أين؟ ماذا تقصد بأين؟ ينبغي أن تكون قد عرفت المكان الذي

أنا فيه من تتبع أصل هذه المكالمة... ماذا تقصد بأن الجهاز خارج الخدمة؟!... نعم، نعم... أيجب دائما أن تسير الأمور هكذا؟!... نحن في زنوبر... ماذا تقصد بأين زنوبر؟... اسمع، قم ببحث على تطبيق خرائط جوجل إذا كنت لا تستطيع العثور على مكانها... فورا، نعم... قل للجميع بمن في ذلك الرجل في الطابق العلوي... نعم هذا إنذار أحمر، نعم، أحمر! أحمر... متى أردت أن تكلمني، اتصل بي على هذا الرقم. أقول لك، الأمر عاجل، عاجل للغاية!»

.57

بينما كانت بوني تهرول إلى بستان الخروب، شاعرة أنها أهدأ بمجرد أن بدأ يسري مفعول الحبتين اللتين ابتلعتهما –وهو ما كان يحدث دائما على الفور، ولهذا كانت عادةً لا تتناول أي أقراص قبل الظهور في كويس كوام– تذكرت القصة الغريبة التي حكاها لها دون تيمي. عندما كانت هي وبرتراند في الكنيسة بينما الأب يقيم القداس باللاتينية، كان واحد من الإخوة تونًّا حاضرا ولم يرياه... لكنها تذكرت أيضا الانطباع الذي تركه القس لديها. كان وكأنه يريد أن يذكر شيئا آخر ولم يستطع التحايل لقوله... فقررت أنها بمجرد أن تتحدث إلى برتراند وتقنعه بالاتصال بالشرطة، ستذهب لتجد دون تيمي وتسأله عما كان مازال يريد أن يقوله. أما الآن وهي تخطو داخل بستان الخروب، فكان هدفها رقم واحد هو إلغاء تسجيل كويس كوام الليلة، حتى يتمكنوا على الفور من طلب النجدة لهاردهيد والآخرين معه. لم تكن هناك طريقة أخرى، مهما قال برتراند؛ لا بد من فعل هذا. وإذا لم يوافق، ستقوم بالأمر وحدها. في الحقيقة، كانت قد مرت بالفعل فترة طويلة منذ تحدثت إلى هاردهيد...

كانت الأضواء التي وضعها فريق كويس كوام تحت أشجار الخروب مازالت عاطلة، وكذلك الميكروفونات. ربما لأنها كانت مشغولة البال أكثر من اللازم بما قررته... وربما كان أيضا تأثير الحبتين اللتين تناولتهما عليها... لكنها عندما دخلت في الظلمة الكثيفة تحت أشجار الخروب، لم

تلاحظ بوني أصوات الحفيف التي اجتاحت البستان، وكأن ريحا قوية تهب. كانت الأغصان والأوراق تصطك ببعضها البعض. ومع ذلك، إلى الأسفل من قمة الحقل، كان كل شيء صامتا وبلا حراك... ولا تشعر أن الأغصان تتحرك والأوراق تهسهس إلا عندما تخطو داخل البستان. مع الريح والظلام وتمايل الأشجار... وما إن خطت بوني خطواتها الأولى داخل البستان، حتى اهتز عزمها. أين هو؟... وبدأت تنادي: «برتراند! برتراند!»... في خيالها المضطرب، وعندما أدركت أخيرا وجود كل هذه الحركة من حولها، بدا لها أن الأغصان والأوراق لم تكن فقط تحجب صوتها برفيفها وحفيفها... لكنها في الحقيقة كانت تهزأ من نداءاتها... برتراند! برتراند!

في لمحة، حتى مع كل الإصرار الذي تمكنت من استدعائه، ورغم الحبتين اللتين ابتلعتهما للتوّ... أدركت بوني أنها مرعوبة. في وقفتها وسط البستان، محاطة بهذه الريح التي تهب من كل الاتجاهات، شعرت أنها منقطعة تماما عن بقية العالم... ولم تستطع أن ترى شيئا غير الظلام أو تسمع شيئا إلا حفيف الأوراق... لا، على البُعد، خارج ظلمة البستان، كان هناك ضوء قمر على حافة الصعود، وكذلك... أبعد من هذا، بالتأكيد، على التلال... تلال زنوبر...

«برتراند!... برتراند!» هتفت مرة أخرى.

سارت ببطء عبر البستان... في مكان ما على يمينها، لا بد أن يكون المكان الذي وضعوا فيه المنضدة والمقعد الصغير لتغيير الملابس، وخلف هذا، المكان الذي علقوا فيه الخزانة الصغيرة التي جلبوها إلى حقل الإسخريوطي من أجل كويس كوام اليوم. مع كل التوتر الذي كانت عليه، سمعت بوني ضجة وانتابتها نوبة من الذعر تقريبا... كان كأنه شيء يدق... سمعته من خلال حفيف الأغصان المتأرجحة في الريح.

أسفل الأشجار، بدا الحفيف أشبه بالصفير... التفتت نحو الضجة، وخطت خطوتين تحت الأغصان... وبسرعة أدركت أين كانت: بالضبط أمام الخزانة المحمولة الصغيرة. كانت أبوابها مفتوحة على اتساعها. ومع دفع الريح لها، كانت تنفتح وتنغلق مصطدمة ببعضها البعض. ابتسمت بوني ابتسامة قاتمة: في نهاية الأمر كانت قد ارتعبت من شيء تافه.

حتى هنا، كان هناك ما يكفي من نور القمر لرؤية أبواب الخزانة، وردها مكانها معا، وإغلاق الخزانة بالمفتاح المعلق في ثقبه. لم يستغرق الأمر إلا بضع ثوان، بعدها التفتت لتبحث مرة أخرى عن برتراند.

كانت بوني قد اعتادت الظلام واستطاعت أن ترى طريقها أفضل بكثير خارجة من بقية البستان إلى داخل القسم الباقي من حقل الإسخريوطي خارج أشجار الخروب، والذي كان ينفتح على البحر والتلين ونور القمر الساقط كالشلال من الأفق. كان حفيف الأغصان وهي تصطدم ببعضها البعض قد أصبح خلفها... لكن أين كان برتراند؟ أمامها لم يكن موجودا إلا الحافة الخشنة للحقل والنتوء الجبلي المطل على الطريق أسفله. وقد أغرق ضوء القمر المشهد كله بالفضة.

وهناك مرت بوني بأكبر وآخر رعب في حياتها.

لمحت شيئا يتحرك عند طرف الحقل بالضبط، عند حافة المسقط تماما. كان شخص ما يركع أو يتمدد على الأرض، محنيا رأسه نحو القمر. بذراعين مرفوعتين إلى أعلى، نهض هذا الشخص أيا كان ليركع وينثني من عند وسطه نحو ضوء القمر المنعكس من البحر.

بعد بضع لحظات، سمعت بوني صوتا قادما من هذا الشخص: كان صوتا شرسا وخشنا، عميقا، كأنه صادر من رئتين جبارتين. كان الصوت

يتمتم برتابة لكن بقوة معينة. ما قاله لا بد أنه كان قد كرره، أو آمن به، أو فكر فيه لوقت طويل جدا. كان ابتهالا يتكون من كلمات طويلة، تضرع متواصل لإله منسي من ضحية منسية لهذا الإله المنسي... أو هذا ما تخيلته بوني وهي تستمع إلى هذا الابتهال، لأنها ميزت الصوت، ونبرته، وقسوته الخشنة...

كان نفس الصوت الذي سمعته هذا الصباح في مختبر بروفيسور ديلينجر. وربما كان يقول نفس الأشياء التي قالها هذا الصباح... لكن تحت القمر الساهر... وسط أشجار الخروب التي بدت تنصت مهتاجة بفعل ريح غامضة... ارتعش الصوت بضراوة مجنونة.

أيا كان ما يمكن أن يقوله المرء لصالح بوني أو ضدها، فلا يمكن لأحد أن ينكر عليها سمة واحدة: الشجاعة. كان يمكنها أن تجري عائدة إلى الضجة المتصاعدة حول برنامج كويس كوام اليوم، لكنها بدلا من ذلك سارت، خطوة خطوة، نحو برتراند الجاثي على ركبتيه عند طرف الحقل، والنتوء الحجري ممتد تحته، وذراعاه مرفوعان في تضرع موجه نحو القمر.

ثم صرخت: «برتراند!»

دوَّى صوتها في الفراغ أسفلهما دون أن يصل إلى حقل الإسخريوطي، لأن أشجار الخروب المخشخشة خلفهما أخفته. توقف الشبح المنحني نحو البحر وضوء القمر عن الصلاة، ونهض ببطء والتفت نحو بوني. بالفعل كان برتراند. والآن لم يعد من الممكن التحايل على التغير في وجهه وسلوكه، رغم أنه وهي تنظر إليه، وظهره إلى ضوء القمر، كان محجوبا بظل عميق.

حدق أحدهما في الآخر لوقت طويل.

«سأضطر إلى عمل ماكياجك من جديد..» قالت.

«نعم..» أجاب.

«لقد اتصل هاردهيد للتوّ..» قالت. «هم في مكان ما بالأسفل. توجد أنفاق تحت هذا الحقل وهذين التلين ومزرعة آل تونًّا. هم في خطر عظيم... بعض الجرذان الضخمة تهاجمهم، هذا ما فهمته. علينا أن نلغي كويس كوام الليلة... ونتصل بالشرطة حالا.»

«إذًا لست بحاجة لعمل ماكياجي من جديد..» قال.

«لا، يجب أن أقوم به مرة أخرى..» كانت تعرف أنه على حق لكنها تابعت بأنفاس متقطعة: «لا يمكنك أن تظهر بهذا الشكل... يوجد ناس...!»

سارا أسفل أشجار الخروب. فجأة، توقفت الأوراق عن الحفيف. همدت الريح التي كانت قوية فوق البستان حتى وقت قريب وكأنها لم تكن. ولم تعد الأغصان تضرب بعضها بعضا.

«لا تتصلي بالشرطة..» قال. «هاردهيد يعرف كيف يخرج من أي مأزق يقع فيه.»

«لا! لا!» صاحت. «جيانينو وبوريس معه!»

كانا قد وصلا منتصف البستان، والمنضدة والمقعد الذي وضعت له الماكياج عندهما.

«أمازلت تريدين أن تضعي لي الماكياج؟» سألها بضحكة صغيرة رهيبة.

«بلى.»

«دعيني آتي بحقيبة ملابسي..» قال. وابتعد تحت أشجار الخروب.

ضغطت بوني مفاتيح هاتفها لتتصل بهاردهيد. لكنها لم تستطع الوصول إليه. فقررت على الفور أن تتصل بخدمة شرطة الطوارئ. وفي هذه اللحظة بالضبط، رن هاتفها.

اقترب شخص ما من خلفها. وبقبضة كأنها من فولاذ، أمسك برقبة بوني وكسرها كأنها رقبة طائر. وشق سكين حلقها. وفي نفس الوقت تقريبا، جرى حبل حول عنقها وغدت معلقة مشنوقة على غصن سميك في شجرة خروب. ومن الهاتف الذي سقط على الأرض، جاء صوت – صوت بروفيسور ديلينجر – يطرح الأسئلة التي يسألها المرء عندما تنقطع مكالمة فجأة. هبطت قدم على الهاتف، وهشمته تهشيما. وتناهى إلى السمع صوت خطوات ثابتة لرجل يسير خارجا من تحت أشجار الخروب.

بعد ذلك، في الصمت الجديد الذي عم البستان، أمكن سماع أصوات غريبة لسقطة، ثم أخرى، ثم أخرى، وأخرى، تبعها صوت التدفق الصغير لسائل ما ينسكب على الأرض. وحول شظايا الهاتف المحطم، تجمعت بركة من الدماء.

.58

فقط هاردهيد هو من سمع لورينتي مانيسكالكو يجري مكالمته. أما الآخرون فظلوا يحدقون في المشهد المرعب أمامهم. كما خمن جوني ديب، عندما شمت الجرذان رائحة دم ولحم أخيهم الذي سحقه هاردهيد، التفتوا جميعا... أو على الأقل هؤلاء القريبون من جثته... وبدأوا تمزيقها والتهام قطع منها أثناء ذلك. كان الحشد الهائل من الجرذان في حالة غضب يائس؛ والآن أصبح مزاجهم دمويا للغاية. وسرعان ما جرى التهام الجرذ الميت في دوامة عنيفة من الوحوش التي تدور وتتسلق فوق بعضها البعض. ما إن أريق الدم، وأكل البعض، حتى أصبح تلهف الحشد الباقي على الطعام... أي نوع من الطعام، مهما كان... تلهفا لا يُحتمل.

في تلك الأثناء، وكان هذا عصيا على التصديق، كان مازال المزيد من الوحوش المتحررة تندفع هابطة الدرجات إلى داخل القاعة المتخذة شكل قمع. اصطدموا بحشد الجرذان الموجودين بالفعل، لتتضاعف الفوضى التي عمت المكان. حتى أنه في مساحات معينة من القاعة، تكدست الوحوش الصغيرة في مساحة ضيقة معا، ومع زيادة عددهم أكثر، ركبوا فوق بعضهم البعض، لدرجة أن مجموعات من حوالي ثلاثة إلى خمسة جرذان كانت متكومة فوق بعضها البعض، في طبقات متوالية، تصرخ بصوتها الحاد وتعض بأسنانها...

مرة ومرتان وأكثر، كانت الجرذان تتدافع مقتربة من بوابة الجحيم،

لكن عندئذ كان خوف قوي وغامض يصدها عن القيام بالاندفاعة الأخيرة التي كانت لتحملهم إلى هاردهيد والبقية. حتى سبارتاكوس ورفيقاه، الذين كان يعتبرهم بوريس قادة الفتنة، كانوا يتقدمون ويجاهدون كي يقفزوا إلى الأمام. ومع ذلك، وعندما يقتربون من الحركة الأخيرة، كانوا ينسحبون متراجعين، واللعاب يغطي خطومهم، وعيونهم أكثر احمرارا. كان الجوع والعطش والغضب يحترقون في أحشاء كل الوحوش الضارية.

في وسط هذه الكتلة المتكدسة، والتي تصاعدت منها روائح كريهة كثيفة، دوَّم انفجار جديد للحركة حول يهوذا وناردو تونًّا الجاثمين على الأرض. حتى الآن، امتنعت الجرذان عن الاقتراب منهما أكثر من اللازم. لكن بعض الجرذان الذين كانوا قد أكلوا قطعا من الوحش الذي قتله هاردهيد تلطخوا بدمه ولحمه. أحاط بهم رفاقهم الذين شموا رائحتهم وأخذوا يعضونهم ووصلوا جميعا الآن إلى البقعة التي ربض فيها ناردو ويهوذا على الأرض. من كل الجوانب، صعد الجرذان على الشقيقين وسط الضغط الذي تراكم مع وصول مزيد من الوحوش هابطة الدرجات. ثمة جرذ ملطخ بدم أخيه الميت، قرر أن يهرب من معذبيه بالقفز على ظهر ناردو، بينما حاول جرذ آخر أن يعض ذراع يهوذا السليم، ممتصا منه الدم. على الفور ألقاه يهوذا بعيدا، لكن من بين كتلة الوحوش المتلاطمة والمتزاحمة حوله هو وأخيه، قفز جرذ آخر وتعلق بيد يهوذا. بغضب شديد، قبض يهوذا على الجرذ وكسر عنقه بين أصابعه وألقاه من جديد. تضاعفت الفوضى بين الوحوش بمعدل ثلاثي. قفز جرذ آخر على رسغ يهوذا وهو يلقي الجرذ الذي قتله. وعلى الجانب، التفتت موجة من الوحوش إلى الجثة الجديدة، مستعدة جميعها لتقطيعها مزقا والتهامها، بينما على جانب آخر، ومثل كتيبة متراصة، بدأت الجرذان تقفز على الرجلين الراقدين على الأرض. كان الأمر وكأن

يهوذا بقتله الجرذ الذي عضه قد فقد كل الحماية التي تمتع بها من هجمات الجرذان.

وفجأة، أصبحت موجة الوحوش دوامة واسعة انتشرت عبر القاعة. وخف قليلا الضغط على بوابة الجحيم حيث التفت الجرذان إلى الوحش الميت بالقرب من مرقد الشقيقين، لتمزقه وتلتهمه. وفي نفس الوقت، اندفعت الجرذان المحيطة بيهوذا وناردو إلى الأمام في موجة هائلة، وهم يتقافزون ويعضون الشقيقين.

حاول الاثنان في نضال يائس أن يتحررا من الجرذان المتكومة فوقهما، لكن الاندفاع غلبهما. وسرعان ما غطتهما الجرذان تماما. ومن بوابة الجحيم حيث وقفوا، كانت جماعة هاردهيد وبوريس والسيد مانيسكالكو تنظر مرعوبة بينما يقاتل الأخوان تونًّا الجرذان. للحظة، حاول هاردهيد أن يتصور كيف يمكنه مساعدتهما، لكنه سرعان ما أدرك ألا شيء بالإمكان فعله. قد ينجح كل واحد منهم في قتل مائة أو مائتي جرذ، لكن في النهاية، ستتغلب عليهم في النهاية تلك الكتلة الهائلة من الوحوش الغاضبة المتلاطمة.

الجرذ الأسود الكبير... سبارتاكوس... وزميلاه، ظلوا لفترة يحرسون الرجال الخمسة المحبوسين في بوابة الجحيم. لكن يبدو أنهم شعروا بخسارتهم لنصيبهم من الغنائم. رمقوا الرجال المتجمعين عند فتحة المدخل، ثم عادوا بأبصارهم إلى التموجات والصراعات حول الأخوين تونًّا.

لم يصدق بوريس عينيه. انسحب سبارتاكوس وواحد من رفيقيه وجريا لينضما إلى الآلاف من خلفهما، المتقاتلين على الأخوين تونًّا. لكنهما تركا الجرذ الثالث الأسود الكبير وراءهما ليقود فرقة الوحوش المكلفة بحصار بوابة الجحيم.

لو أن بوريس توقع من سبارتاكوس أن يوقف الهجوم على يهوذا تونًّا وأخيه... بالنظر إلى أنه وصل إلى هنا جاثما على كتف يهوذا... فقد خاب ظنه بشدة. أصبحت الجرذان أشد استثارة مع تزايد رائحة الدم. ولم يعد جنونهم الآن يعرف حدا. في منتصف القاعة المتشكلة على هيئة قمع، حول وفوق الأخوين تونًّا، تكدست الوحوش في موجة كبيرة ارتفعت عاليا. كانوا يتدافعون بقوة شديدة حتى أن كل وحش منها حمل على ظهره اثنين أو ثلاثة آخرين. قاتل يهوذا ونااردو بقوة لنفض الجرذان بعيدا عنهما. وجاهدا لينهضا على أقدامهما، لكن ثقل الوحوش المتسلقة عليهما وهي تعضهما، جعلهما يسقطان راكعين. أنشب المزيد من الجرذان مخالبهم فيهما أو قفزوا عليهما ممتطين ظهور رفاقهم، متلوين وملتفين في سيل من الأجساد السوداء والبنية.

صوب السفاح مسدسه إلى حيث كان الفلاحان يقتلان الوحوش. لكنه توقف فجأة، وحدق في سلاحه، ثم في هاردهيد. «اضرب! لكنها فكرة سيئة..» قال الأخير ناصحا. «لن تخيف أحدا بهذه الطريقة... ودم الجرذان التي ستقتلها سيجعل البقية تزداد جنونا فقط.»

«إذًا نترك هذين الاثنين هكذا؟»

«أتريد مساعدتهما؟ لديّ هذا اللوح الخشبي... ولديك هذا المسدس! هيا بنا!»

«بالتأكيد سينالون منا أيضا...»

«سنكون وجبة طيبة لهم.»

«نحتاج إلى زابارو هنا!»

«نعم؟ لماذا؟»

«كان ليصنع لنا قنبلة سريعة...»

«وأي باب يمكننا أن نضعها تحته؟»

«كان ليلقيها على هؤلاء!»

«حتى نختنق من الدخان معهم!»

«على الأقل، سنكون قد فعلنا شيئا... لكن انظر! انظر!... إنهم يمزقونهما إربا! وهما مازالا حيين...! اللعنة!»

«ماذا حدث لزابارو؟»

«هل مرَّ زمن طويل منذ قابلته آخر مرة؟»

«لم أره منذ فترة.»

«آخر مرة سمعت عنه كان مازال مع تلك الفتاة الأسكتلندية، الفتاة التي نامت مع فلوريندو، أتتذكرها؟... على أي حال أخذت زابارو معها إلى كيرنز...»

«وأين هذه؟»

«في أقصى شمال أستراليا... ولاية كوينزلاند.»

«آخر مرة سمعت عنه كان قد أتى لها باثنتين. كان هذا منذ زمن...»

«اثنتين ماذا؟ قنبلتان؟»

«قنبلتان يا أحمق! لم يكن ماهرا في هذا فقط، أين ذاكرتك؟ طفلتان.»

كانا يتحدثان لخاطر أن يقولا شيئا. وإلا فإن الرعب الذي يشهدانه كان ليقودهما إلى الجنون. كان يهوذا وناردو مغطيين تماما بجرذان

تعض وجهيهما وأياديهما وأرجلهما وتدميهما في كل مكان. رقد ناردو وظهره إلى الأرض، وهو يتشنج ويتمطى عبثا ليتجنب العضات التي كانت قد مزقت بالفعل عينيه وأكلت أنفه. وسقط يهوذا إلى جواره، مناضلا سدىً بيده السليمة، ليزيح صفا طويلا من الوحوش تعض إبطيه وأسفل بطنه. وقد انبجس الدم منه. كان الأخان يصرخان ويلهثان، لكن الأصوات اليائسة التي كانا يصدرانها وهما يقاتلان بشراسة، ضاعت تماما وسط الصراخ المنبعث من آلاف وآلاف الجرذان.

جذب الصراع حول الأخوين تونًّا إليه وحوشا من كل جوانب القاعة. حتى هؤلاء الذين مازالوا يتدافعون حول بوابة الجحيم كان يمكن رؤيتهم يديرون ظهورهم لينضموا إلى رفاقهم الذين كانوا في منافسة متوحشة مع بعضهم البعض، عازمين على نهش قطعة من يهوذا وناردو. في النهاية، تغلب إغراء محاكاة الآخرين والانضمام إلى المعركة الرهيبة بين يهوذا وناردو والوحوش التي ربياها في هذه الأقبية، تغلب حتى على الجرذ الأسود الذي تركه سبارتاكوس ليحرس بوابة الجحيم. دار على ذيله واندفع داخل كتلة الجرذان المتضاغطة والمتموجة الآن كجبل صغير فوق الفلاحين. كانت الوحوش الصارخة قد غطت تماما على صرخات الرجلين اللذين يؤكلان حيين. ورغم أن الوحوش في مركز الضغط قد تناولت على الأقل لقمة لتأكلها، كان مازال هناك آلاف آخرون يتضورون جوعا. تدافعوا وقاتلوا بعضهم البعض لينضموا إلى الحشد المضطرب، حتى لو أنهم في هذه المساحة المفتوحة، ورغم ضخامتها، تجمعوا بعدد كبير حتى أنهم كانوا يعتصرون بعضهم بعضا.

بالكاد تمكن السيد لورينتي مانيسكالكو من سماع الصفير الصادر عن هاتفه الخاص، الذي يبلغ حجم فولة. «قل لي.. هل كل شيء يسير...؟ وفي الأعلى، يعرفون أيضا؟... قل لهم مرة أخرى... لا بد أن يأتوا إلى هنا بأقصى سرعة. صحيح، لا وقت لنضيعه، إذا كنتم تريدون أن تجدونا

أحياء! نعم، الأمر خطير إلى هذا الحد!»

من خلف هاردهيد والسفاح، صرخ بوريس: «جيانينو! جيانينو! لا تتحرك!» كان بوريس أول من أدرك أن صديقهم السمين مصاب بنوبة ذعر خرجت عن السيطرة.

هؤلاء الذين كان بمقدورهم النظر خارج الفتحة رأوا جيانينو يغطي وجهه بيديه. في ضوء القاعة الخافت، بدا وجهه منتفخا ومحتقنا، وكأنه على وشك أن يعاني من سكتة دماغية. لم تكن الجرذان قد دخلت حوض الزنك الذي كان جيانينو مازال واقفا فيه، مائلا في تصلب على الجدار، لكنه كان أقرب بكثير إلى حيث رقد الأخوان توناً من رفاقه المجتمعين عند بوابة الجحيم. هذا الرجل الذي كان مخلصا تماما لمتع الطعام، كان مضطرا الآن إلى أن يراقب من مسافة قريبة كيف كانت الجرذان تصنع وجبة جيدة من يهوذا وناردو، ممزقة لحمهما الحي في مائة ألف قضمة، بينما الدم ينبجس في كل الاتجاهات. كانت مشاعر الاشمئزاز والرعب والخوف من كل ما يراه يحدث حوله تشتعل في دماغه، مطيحة بكافة الاعتبارات الأخرى. كان هو أيضا في خطر عظيم وفي حاجة إلى كل مهاراته العقلية إذا كان مقدرا له أن يخرج سالما. لكنه لا يستطيع البقاء هنا! فقط لا يمكنه البقاء هنا! – كانت هذه الفكرة تدق بإلحاح عبر عقله. مال إلى الأمام على ركبتيه وكأنه ينظر عن قرب أكبر إلى الصراع بين الشقيقين والجرذان.

صرخ بوريس مرة أخرى بعد أن أدرك ما كان ينتويه جيانينو: «لا، لا! جيانينو! ابق حيث أنت!»

لا أحد يمكنه أن يعلم إن كان التقني السمين قد سمع تحذير صديقه الشاب. قفز جيانينو من الحوض. وبينما كان يخطو وسط الجرذان التي غطت الأرض، تعثر وكاد يسقط للحظة. اندفع وحش منهم وعض

يده وتعلق بها. وقف جيانينو صارخا وطوح بذراعه ليلقي الجرذ بعيدا. فعل هذا لكن مزيدا من الجرذان تجمعت حول قدميه. بدأ يجري نحو أقرب سلم، ليس السلم الذي جاؤوا منه، بل الآخر. ومع أولى خطواته، جذب انتباه جرذان أخرى كانت في الجوار. التفتوا نحوه في غضب. جرى جيانينو لاهثا مبتعدا عن بوابة الجحيم.

«عد! من هذا الطريق! تعال هنا!» صرخ هاردهيد كالمجنون. صحيح أن جيانينو لو أطاع هذا الأمر، كان سيضطر للمرور عبر زحام كثيف من الجرذان، لكن بمجرد وصوله إلى أصدقائه في فتحة المدخل، كان بإمكانهم تنظيفه من الوحوش التي ستلتصق به. لكن الاتجاه الذي أخذه سيجذب المزيد من الجرذان خلفه...

محاصرا كما كان بالجرذان الزاعقة والمتدافعة، من المؤكد أن جيانينو لم يسمع نداء أصدقائه.

«هيا نذهب لإحضاره!» صاح هاردهيد.

«هل تريد أن ينتهي بك الأمر منشفة صحون كهذين الاثنين؟» أجابه السفاح، وهو يشير إلى الأخوين تونًّا، اللذين كانا يتقلبان الآن بضعف على الأرض، تحت كتل وكتل من الجرذان. وقد تآكلت عيونهما، ونُهش أفضل جزء في وجهيهما إلى العظم. كانت بعض الجرذان تمد خطومها في حلقيّ الشقيقين، وبعضها الآخر تمزق بمخالبها وخطومها بطنيهما المفتوحتين. وقبل أن ينهي السفاح ما كان عليه أن يقوله، انتفض أحد الشقيقين في آخر تشنجات الألم، ثم سقط على ظهره ميتا... وتحت الغطاء السميك من القوارض السوداء والبنية المتشابكة أحدها في الآخر، لم تكن هناك طريقة لتمييز أي الأخوين كان... تقدم مزيد من الجرذان محتشدين في تعجل أكبر، عازمين على أن يكون لهم نصيبهم من الطعام.

في تلك الأثناء، كان جيانينو قد تمكن من الانعطاف حول الزاوية مندفعا إلى السلم. ومع ذلك، تعلق به بالفعل حوالي ستة جرذان، أنشب أحدهم مخالبه في ظهره وتسلق نحو كتفه. وزمرة من الوحوش، كذئاب مصغرة، جرت حوله وأمامه. لاهثا، بدأ جيانينو يصعد السلم... ولم يعد بمقدور الآخرين رؤيته أكثر من هذا. لم يكن بوريس متأكدا أن ما يراه صحيحا... لكن جرذا كبيرا أسود... هل كان سبارتاكوس؟... انفلت من الزحام المحيط بالأخوين تونًّا وجرى بسرعة، وذيله منتصب عاليا، نحو العصبة التي كانت تطارد التقني السمين.

مذعورا ومغطى بالعرق، لاحظ جيانينو الجرذ الكبير الذي جرى بين رجليه واندفع صاعدا السلم أمامه... وأدرك أن جرذانا أكثر بكثير كانت تتبعه... قفز أحدهم من ارتفاع درجتين أمامه وأمسك بطرف يده. وبينما كان يعدو صاعدا متقطع الأنفاس، ضرب جيانينو الجرذ في حائط السلم وألقاه بعيدا، لكن اثنين آخرين كانا متعلقين الآن بظهره وواحد كان سيصل قريبا إلى كتفه... رأى أن الجرذ الأسود الكبير قد وصل إلى ارتفاع كبير على السلم، وتوقف كأنه يتأكد أين وصل جيانينو، منتظرا إياه. ثم استمر الوحش في صعود السلم... أدرك جيانينو أن حشودا كبيرة من الجرذان كانت تغادر الفوضى المحيطة بالأخوين تونًّا وتهرع وراءه بأعداد متزايدة...

... هذا أيضا ما أدركه الرجال الخمسة المحبوسون عند بوابة الجحيم... كانت الجرذان بالآلاف تغادر تلك البقعة لتطارد جيانينو... بينما سقط الأخ الثاني ميتا، هيكلا جامدا مغطى بوحوش تمزق وجهه وبطنه إربا...

وبينما كان يندفع لاهثا إلى أعلى السلم، رافعا ناظريه، علم جيانينو أنه في مشكلة كبيرة. على بعد حوالي خمس عشرة درجة إلى أعلى،

كان الجرذ الأسود الكبير ينتظره. لكن الشيء الفظيع هو أن موجة جديدة من الجرذان كانت تتلاطم هابطة من أعلى السلم... ربما فصيل من الوحوش الهاربة ضلت طريقها وهي تجري حول الأنفاق بالأعلى واكتشفت الآن أخيرا أين كان رفاقها، منجذبة برائحة العرق والدم التي تصاعدت كالأبخرة من أعماق القاعة المتخذة شكل القمع. أتى هذا المدد بآلاف جديدة من الجرذان المتضورة جوعا والغاضبة والمصابة بالذعر.

صرخ جيانينو يائسا. وقبل أن تصل صرخته إلى نصف مداها، كانت الوحوش المتخبطة في هبوطها السلم تقفز في اتجاهه، بينما لحقه هؤلاء المندفعون من خلفه. قفزوا إلى ساقيه، وهم ينشبون مخالبهم ويزحفون ليتسلقوا ظهره. أما الجرذ الذي كان قد تعلق به من البداية، فوصل الآن إلى كتفه وأنشب فيه مخالبه. مال جيانينو على الحائط، محاربا بيديه وقدميه ليزيح الوحوش التي كانت كلها في لحظة واحدة فوقه. انزلق ساقطا برأسه على السلم، وهو يحمي عينيه بيديه، صارخا... وفي سقطته، ارتطمت مؤخرة رأسه بحافة درجة... ومع الخبطة، فقد الوعي. وقبل أن يستعيده، كانت الوحوش الثائرة تمزق جسده بأنيابها، وهي تقضم بقسوة لحمه ودهنه. وعندما بدأت الجرذان تتحرك مبتعدة عن جيانينو، كانت جثته مجوفة هنا وهناك.

لم يكن هناك حد لسعار الجرذان. متبعين قيادة الجرذ الأسود الكبير، تسلق آلاف وآلاف منهم السلم. وجدوا أنفسهم في النفق الذي يدور أسفل زنوبر وجروا فيه صارخين، في تدفق هائل. بدا وكأنهم يسيطرون على كل ما يمكنهم رؤيته. كانوا جائعين لكنهم الآن متخمون. أرادوا الهروب، التحرر من هذا الجحيم الذي قضوا فيه أسابيع من الأسر واليأس. اجتاحت موجة إثر موجة تلك الأنفاق التي لم تشهد قط عبر آلاف السنين من وجودها مشهدا كهذا. وصلت الجرذان المفترق الذي كان يذهب من جانب في الاتجاه الذي وصل منه هاردهيد ورفيقاه من

قبل مزرعة آل تونًّا من أسفل، بينما أمامهم كان يقود إلى البئر المفتوح على حقل الإسخريوطي.

فعلا كان الأمر وكأنهم جميعا تحت قيادة الجرذ الأسود الكبير... تدافع الحشد الطويل من الجرذان وزعقوا وتقافزوا إلى الأمام حتى وصلوا أسفل فتحة البئر. لم يكن هناك مكان آخر يمكن الذهاب إليه. لكن الجرذ الأسود الكبير قفز إلى حائط البئر، وبدأ يخمشه متسلقا إلى السماء المظلمة التي كان بمقدورهم رؤيتها عاليا. حاولت بقية الوحوش أن تفعل المثل، لكنها أعيقت جميعا تقريبا من الجدار الصخري الخالص والتربة القاسية في جوانب البئر.

من الخلف، انتفخ المد الهائل من الجرذان الهاربة بينما كان يدفع فوج إثر فوج من الوحوش بعضها بعضا. كانت الجرذان التي وصلت أولا تنسحق تحت كتلة الوحوش التي ظلت تتوافد وتندفع إلى الأمام، في جنون مستحيل. تلوت بعض الوحوش وحاولت الهروب من الضغط الذي انحبست فيه، لكنها اختنقت. وبعضها الآخر ممن انتفخت بطونهم من الطعام الذي التهموه، وهي التي لم تتعود على هذا الإفراط، انفجرت بطونها مفتوحة هكذا ببساطة. توافد المزيد والمزيد من الجرذان، وتسلق من جاء من الخلف فوق هؤلاء الذين كانوا في المقدمة، في كومة متزايدة من الحيوانات المهروسة والمختنقة والمنفجرة. ارتفعت الكومة إلى فتحة البئر. في هذه الأثناء، كان الجرذ الأسود يشق طريقه صاعدا الحائط واصلا إلى القمة... وها هو ذا، بعد أن قفز متحررا من الحفرة، ينتظر عند حافتها وصول رفاقه. تسلقوا صاعدين نحوه فوق كومة الجرذان المسحوقة فوق بعضها البعض، والتي عملت الآن كسلم. ومع ذلك، بدا وكأنه لا نهاية لتدفق الجرذان القادمة من النفق، وهي تصرخ دون انقطاع، متدافعة ومنضغطة في بعضها البعض.

أخيرا، وصلت الوحوش المتسلقة فوق بعضها البعض من أسفل البئر إلى قمته، حيث كان الجرذ الأسود ينتظرها. وتدفقت الجرذان في حقل الإسخريوطي.

.59

عندما عاد برتراند إلى السرادق الذي كان سيُسجَل فيه كويس كوام، كانت الدفعة الثانية من الأشخاص المفترض بهم أن يمثلوا الجمهور الحاضر لم تظهر بعد. وكان جاك، المخرج، في حالة ضياع... أينبغي أن يبدأوا أم ينبغي أن ينتظروا؟... ولا خبر أيضا عن جيانينو. كان الخوف أنه مع مرور الوقت ستتزايد المشاكل التقنية. لأنه هكذا يسير الأمر: عندما يتعطل جهاز أو اثنان، فتوقع أن كل الأدوات الأخرى ستفعل المثل. بمجرد أن رأى برتراند، أحس المخرج بالراحة. فعلى الأقل ها هو شخص يمكنه اتخاذ القرارات عنه. كان قد حاول عبثا أن يجد برتراند وبوني، وبدأ يشعر بالقلق. أنصت برتراند إلى ماهية المشكلة، وأجابه بأنه ينبغي أن ينتظروا خمس دقائق أخرى. وإذا لم تصل بقية الجمهور، سيبدأون تصوير البرنامج على أي حال. ولا حاجة لهم في الانتظار حتى يظهر جيانينو، بما أنهم يستطيعون العمل دونه. وبمجرد أن تقرر هذا، عاود النشاط السرادق والمناطق الأخرى التي وضع فيها التقنيون أجهزتهم.

مضى برتراند كي يختلط بأفراد الجمهور، في محاولة أخرى لجعلهم ينسون إحباطهم وتعاستهم لإبقائهم منتظرين كل هذا الوقت. وبدأ بزوج (أم العُرّيف)، ليصلح ما كان من أمر فظاظته منذ قليل. كان الرجل سعيدا جدا بلطف المذيع التليفزيوني، لكن زوجته ظلت مبتعدة، وهي ترقب برتراند بارتياب. وافتُتن أشخاص آخرون من الجمهور عندما

مضى برتراند ليحادثهم، ونسوا على ما يبدو سأمهم من اضطرارهم إلى الانتظار.

ورغم ذلك، في لحظة ما عبس برتراند... عندما رأى أن دون تيمي قد اتخذ مجلسه في ركن ناءٍ من المكان المعد للجمهور. أما أم العُرّيف التي ظلت تحدق في برتراند، فلاحظت دون تيمي في نفس الوقت الذي لاحظه فيه المذيع التليفزيوني. وعلى عكس برتراند، ابتسمت ابتسامة واسعة، ونهضت من مقعدها وذهبت إلى قس الأبرشية.

«أيها الأب، أيها الأب، ألا تتذكرني؟» حيته بابتسامتها العريضة.

في حيرته، انعقد لسان دون تيمي.

«كيف يمكن ألا تتذكرني؟! كنت آتي لحضور تلك الاجتماعات الخاصة باللجنة... وكنت أساعدك بشأن تلك البرامج الإذاعية...»

«نعم، نعم... بالطبع أتذكر...»

«وبعد ذلك، كنا نذهب إلى تلك الحانة لنتناول المرطبات... ماذا كان اسمها؟... حانة هاردهيد؟... وبعد ذلك... على أي حال، ألا تذكر أيها الأب...؟»

«نعم، أذكر... لقد مر زمن طويل..» تمتم قس أبرشية زنوبر، عازما على الاحتفاظ بمسافة. لم يفهم كيف صدق أبدا أن المرأة التي تواجهه الآن، وقد صارت ممتلئة ومنتفخة، قد حباها الرب بأي فضيلة روحية أو جسدية.

«كما ترى... أيها الأب... لقد ظللت مهتمة بوسائل الاتصالات الاجتماعية... حتى بعد أن تركت أنت...»

اقترب المخرج من المذيع التليفزيوني بمشكلة أخرى من مشاكله.

«لا يمكننا أيضا أن نعثر على بوني..» قال. «منذ قليل، كانت هنا، وتحدثت إليها.»

«لا تقلق إن لم تظهر..» قال برتراند. «سنبدأ دونها. أعرف بالضبط ما كان عليها أن تقوله وتفعله. سأقوم بدورها بنفسي، اتفقنا؟»

«كما ترى..» قال جاك، وهو يحك ذقنه، متشككا إن كان قد فهم الكلام على نحو صحيح. كانت المرة الأولى ذلك المساء التي بدا فيها غير واثق مما يقال له أن يفعله.

«والآن هناك شيء آخر..» قال المذيع التليفزيوني وهو ينظر نحو الكاميرات جانبا وكأنه يناقش أمرها. «أترى ذلك القس هناك... لقد أتى مرتديا رداءه الكهنوتي إذا لم تكن تمانع... على الناحية الأخرى من حيث أنظر الآن... ثمة امرأة معه... أتراه؟»

«بلى.»

«حاول أن تُجلسه في مكان آخر. سيكون بحذاء الخط الذي سأنظر تجاهه وأنا لا أريد أن أرى وجهه وأنا أتكلم.»

«لا بأس.»

كانت الحقيقة أن قلقا قويا قد اعترى كل المشاركين... من تقنيين وأفراد الجمهور ومساعدي الإنتاج... وكان برتراند يتصرف بود بالغ ليخفي التوتر الذي كان يشعر به، مثله مثل كل الآخرين من حوله. ورغم ذلك، كان أفراد الجمهور الذين يقترب منهم ودودين للغاية في وجهه... ربما باستثناء أم العُرّيف، التي ظلت، بعد أن تركت دون تيمي في سلام، تتفحص المذيع التليفزيوني من طرف خفي، بنظرة حادة مسترقة، وهو يحيي المشاركين من الجمهور الذين كان يعرفهم من حلقات أخرى

حضوروها لكويس كوام.

شيء ما غير معتاد كان يحدث... والأدهى من كل شيء، كان برتراند نفسه. بدا وجهه وقد أصبح أكبر سنا وأكثر خشونة. لا أحد من هؤلاء الحاضرين يمكنه تذكر أن برتراند كانت لديه مثل هذه الخطوط العميقة السميكة الممتدة من جبهته إلى ذقنه، أو أن عينيه اللتين كانتا بالفعل في العادة ترمقانك بحدة عندما يحاول أن يظهرك كشخص أحمق أمام مشاهدي التليفزيون، كانت لديهما تلك الشراسة التي بدت تطل من كل نظرة، رغم كل الابتسامات التي كان يوزعها. والغريب، أو هكذا بدا لأم العُرّيف حتى لو لم تقل هذا لأحد، ولا حتى لزوجها... الشيء الغريب أن المذيع التليفزيوني لم يصافح أحدا قط. بل أبقى يديه في جيوبه أو خلف ظهره.

أخيرا، أُعطيت الإشارة. ومع استعداد الكاميرات، وإضاءة الأنوار كما هو مطلوب، وتثبيت الجمهور، ووقوف المذيع مستعدا في الموضع الذي سيتحدث منه، كان بمقدور كويس كوام أن يبدأ.

بالضبط في اللحظة التي كانت افتتاحية كويس كوام ستدور فيها على الشاشات، مع التزامن المضبوط للصورة والموسيقى، انفجر سيل الجرذان الخارجة من فتحة البئر في منتصف حقل الإسخريوطي. مع الكشافات المضاءة في السرادق حيث كان سيجري تصوير البرنامج، كانت فتحة البئر والمنطقة المحيطة بها تحت الإضاءة أيضا. لدهشة أحد التقنيين، رأى في البداية جرذا أسود هائلا يخرج من فتحة البئر. وسرعان ما تبعه جيش كامل من الجرذان في موجات... وسيظل التقني يكرر قصته حتى يوم موته. في البداية، لم يصدق عينيه، لكن عندما وصلت الجرذان في فوج ضخم بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه وبدأت تجري حول ساقيه وتعضه، صرخ مرتين وأفلت الجهاز الذي

كان يمسكه. اصطدم الجهاز بالأرض، مصدرا شرارات وأدخنة.

في السرادق، ومع انتهاء افتتاحية البرنامج، كان من المفترض أن يظهر برتراند، واقفا ومبتسما للكاميرا. مساعدا الإخراج المشرفان على عمل الكاميرات واختيار الصورة المعروضة، تسمرا مكانهما. على الشاشة أمامهما، كان وجه المذيع قد تصلب وصار جامدا ومتغضنا وكأنه مليء بالاحتقار والغدر والشراسة. بدلا من أن يجعل برتراند يبدو أصغر سنا وأكثر مرحا، بدا أن الماكياج قد جعله يلوح قاسيا ومحبا للانتقام. أين بوني التي كان من المفترض أن تقوم بعمل ماكياجه؟ لم تكن لدى جاك أي فكرة...

غافلا عن كل هذا، انطلق برتراند في مقدمته، وكأن لا شيء يحدث، مبتسما كالعادة إن لم يكن أكثر من المعتاد، منغما العبارات التي كان الآلاف من العائلات في البيوت التي تتابع كويس كوام تنتظر منه أن يقولها عند إطلاق حلقة جديدة من البرنامج.

انتشرت الجرذان حول السرادق، وكأنها تنتظر إشارة الهجوم. ثمة جرذ أسود كبير... كان بوريس سيعرفه على الفور لو كان حاضرا... تسلق داخلا السرادق معتليا خزانة كبيرة خلف الجمهور، حيث كان يتم تخزين المعدات. ومن أعلى هذه القطعة من الأثاث، كان بمقدور الجرذ أن يرى جمهور كويس كوام تحته، وأمامه مباشرة كان برتراند يتوجه بحديثه إلى الكاميرا. في تلك الأثناء، كان تيار ثائر من الجرذان يخرج من فتحة البئر إلى سطح الحقل... (بينما في قاع الأنفاق، كانت القاعة المتخذة هيئة قمع فارغة تماما الآن، إلا من روائح النتن التي خلفتها الجرذان الهاربة وراءها... وهكذا كان بإمكان الرجال الخمسة الذين لجأوا إلى بوابة الجحيم أن يخرجوا...)

واحد من الجرذان الأكبر حجما، ثم واحد آخر، دسا خطميهما في

الجهاز الذي أسقطه التقني. توهجت الشرارات والأدخنة مرة أخرى... وواحدا في إثر الآخر، أطلق الوحشان صرخة عالية، وتصاعدت رائحة قوية للحم حي يُشوى... وتصاعدت المزيد من الأدخنة. ارتعشت على الأقل نصف الأضواء والكاميرات في الموقع مرة، مرتين... ثم انطفأت تماما.

ومع ذلك ظل هناك ما يكفي من الأضواء مسلطا على المذيع التليفزيوني وهو يقدم البرنامج. بابتسامة كبيرة ملأت وجهه المتغضن... حانت اللحظة التي يفرد فيها يديه وذراعيه ليرحب بالجمهور في الأستوديو وفي البيوت...

صرخت أم العُرّيف بصوت عال حاد: «هناك دم على يديه! يداه مليئتان بالدم! إنه ليس مذيع كويس كوام! إنه شخص آخر!»

بالفعل كانت يدا برتراند اللتين مدهما نحو الجمهور في الإشارة المعروفة التي كانت تحدد أسلوب بداية البرنامج، مخضلتين وحمراوتين. نظر إليهما وكأنه خائف مما يراه، ثم قربهما من وجهه مرعوبا، فتلطخ وجهه كله باللون الأحمر.

بدا وكأن الجرذ الكبير فوق الخزانة كان ينتظر هذه اللحظة بالضبط. قفز من مكمنه على أم العُرّيف وهبط على رأسها. انتفضت من مكانها وانزلق الجرذ هابطا من رقبتها إلى كتفها. أرعبت صرخاتها كل الحاضرين. وقف أفراد الجمهور في ذعر، وانقلبت المقاعد. مع ما رأوه من دم على يديّ المذيع التليفزيوني، وصرخات أم العُرّيف، وارتعاش الأضواء، وتسلق الجرذ على كتف أم العُرّيف، كانت الفوضى في السرادق على أشدها. سقطت كاميرتان من فوق حامليهما ومرة أخرى تطايرت الشرارات، على خلفية من الانفجارات وأصوات الأزيز القوية. جرى المخرج داخل السرادق مفزوعا تماما. وحيث في العادة

كان زوج أم العُرّيف يلتصق قربها، انسحب هذه المرة مرعوبا عندما رأى الجرذ يتشبث بها. أخذت أم العُرّيف تضرب عنقها وكتفيها، مجاهدة كي تتخلص من الوحش.

تدفقت الجرذان داخل السرادق من كافة الجوانب، متقافزة على المقاعد، مجتاحة الأستديو حيث كان التقنيون يراقبون عمل الكاميرات... لكن لم يعد لديهم أي شيء يراقبونه؛ لأن كل الكاميرات تقريبا كانت مقلوبة بمجرد أن جرى المصورون للهروب من الجرذان التي انتشرت من حولهم. وجرى بعض أفراد الجمهور صارخين في دوائر، باحثين عن مَخرج. وعندما أدركوا أن مزيدا من الجرذان تنتظرهم في الخارج، محاصرة السرادق، ازداد الذعر. اندفعوا هنا وهناك ممزقين جوانب السرادق. كانت الفوضى في كل مكان، والجرذان تقفز على الناس كأنها لم تقنع بالوجبات التي تمتعت بها في سرداب الموتى والأنفاق.

الشخصان الوحيدان اللذان ظلا هادئين أو شبه هادئين وسط كل هذا الهياج كانا برتراند والأب تيمي. بعد أن فحص عن قرب يديه الملطختين بالدم، حدق المذيع التليفزيوني في شيء ما بدا وكأنه يراه على مسافة بعيدة. وتجمدت على شفتيه ابتسامة ملتوية قبيحة. بينما ظل القس في المقعد الذي أجلسوه فيه بعد أن رتب برتراند لنقله من المقعد الذي اختاره في البداية. وكما هو دائما، ظل ينتفض من جانب إلى آخر من وسطه فصاعدا، مهتزا من الانقباضات التي كانت تمسك بأحشائه باستمرار. ونظر بثبات إلى برتراند، وكأنه عازم على متابعته أينما ذهب. ولم يقترب جرذ واحد من القس.

وسط كل هذه الفوضى، كان أشخاص كثيرون يتعثرون في كافة أنحاء السرادق ويدفعون جوانبه، حتى أنه بدأ يتمايل. قفزت الجرذان على جدرانه القماشية، ممزقة إياها من الخارج والداخل.... وبدأ الناس

يتسلقونه كي يفروا بعيدا عن الجرذان: وتحت ثقل الناس والحيوانات، كان البناء يتداعى ببطء. احترقت مصابيح الإضاءة واحدا في أثر الآخر. والجرذان بأعدادها التي بلغت الآلاف، وبقدرتها على الرؤية في الظلام الذي تربت فيه، سيطرت على حقل الإسخريوطي.

.60

ومع ذلك، فإن الجرذان والناس الذين أحاطت بهم الفوضى المتزايدة، لم يلاحظوا الحركة القادمة من بعيد. على طول الطريق الساحلي الذي يدور ملتفا نحو زنوبر، كانت ثمة أضواء تتقدم... في صف من سيارات الجيب التي تسير ببطء، خلف مركبة كبيرة، أشبه بدبابة، تحمل كشافا أرسل شعاعا هائلا يمسح أرجاء الحقول على جانب الطريق... وفي سيارات الجيب، جنود مسلحون جاهزون للقتال يراقبون بتركيز البقعة التي يضيئها الشعاع.

ثم تصاعد طنين محركات مقتربة... من أعلى، وراء تلال زنوبر. عند طرف حقل الإسخريوطي حيث كان ينتهي في مسقط تام على الطريق، كان من الممكن رؤية ثلاث طائرات هليكوبتر تحلق في تشكيل السهم، وتمسح التلال في طيرانها قادمة من البحر، ثم تهبط وتدور ماسحة بكشافاتها الأرض بحثا عن موقع الأزمة. وسرعان ما توقفت فوق حقل الإسخريوطي حيث أمكنها بالفعل رؤية نشاط غير معتاد. لا بد أن طائرات الهليكوبتر أرسلت على الفور تعليمات إلى قائد الرتل المتقدم. حلقت طائرات الهليكوبتر على ارتفاع منخفض فوق الحقل، مضيئة المنطقة بكشافاتها، ومساعدة على زيادة الاضطراب والفوضى بمراوحها الدائرة التي أثارت الهواء وأصدرت أصواتا تصم الآذان. وبعد وصولها بقليل، زاد رتل المركبات المسلحة القادم بطول الطريق الساحلي من سرعته. وسرعان ما أحيط حقل الإسخريوطي بعربات

الجيب المقاتلة، التي تومض سطوحها بضوء أزرق دوَّار. وجرى الجنود صاعدين من الطريق إلى داخل الحقل، مستعدين لبدء الهجوم على مرتكبي هذه الكارثة.

كانت مكالمة السيد لورينتي مانيسكالكو لطلب النجدة قد حققت نتيجتها المرجوة. وكانت خطة الطوارئ 7.5، المسماة أيضا بالخطة سبعة، تسير وفقا للجدول، أو على أي حال تقريبا وفق الجدول. حيث تتصور الخطة أنه في مرحلتها الأولى من التنفيذ، ستغادر القوات المسلحة ثكناتها في ثمان مركبات مسلحة وخمس طائرات هليكوبتر. لكن ثلاث سيارات كانت معطلة ولم تكن هناك أموال كافية متاحة لإصلاحها... ولا كان هناك ما يكفي من الوقود لاثنتين من طائرات الهليكوبتر. وكي تزيد الأمور تعقيدا، كانت بعض الأسلحة اللازمة للحملة مغلقا عليها في مستودع مخصوص ولم يتمكنوا من العثور على مفتاحه؛ إلا إذا كان تسلسل الأرقام الضروري لفتح القفل الإلكتروني قد أُدخل على نحو غير صحيح... ولم تستطع لجنة التحقيق التي شُكلت لاحقا، والتي لم تنهِ تقريرها قط، أن تحدد ماذا كانت المشكلة بالضبط. على أي حال، ومع القليل من التأخير الزائد، تحرك رتل مسلح في اتجاه حقل الإسخريوطي.

ولتسجيل كل ما يتعلق بالموضوع رسميا، فلنقل إن الشخص الذي تلقى مكالمة لورينتي مانيسكالكو لطلب النجدة فهم أن الأزمة سببها عصابة من القراصنة الصوماليين المسلحين الذين هبطوا في جنوب شرق مالطا لإنزال مجموعة كبيرة من المهاجرين غير الشرعيين المتوجهين إلى أوروبا. لكن مهما كان ما اعتقده الجنود حول السبب في قيامهم بهجوم على حقل الإسخريوطي، فقد وصلوا في الوقت المناسب لمنع الموقف من التدهور أكثر من ذلك.

بمجرد أن غادروا عرباتهم، انقسم الجنود إلى فصيلتين. أطلق هذا على الفور خطة الهجوم المكافحة للإرهاب التي جرى تبنيها مؤخرا لتغطية كل السيناريوهات؛ من تدريب مقصود به القبض على الشباب الذين يقومون بعمليات السطو المسلح على البنوك ليمولوا مشترياتهم من المخدرات، إلى الجهود المبذولة لإنقاذ القطط التي يحدث أن تسقط في مواسير المجاري المتدلية من الحصون التاريخية.

في الوقت نفسه، كانت طائرات الهليكوبتر تقوم بمجازفة كبيرة بتحليقها على هذه الشاكلة. لو كان القراصنة الصوماليون بالفعل يجرون منفلتين بالأسفل، لأمكنهم إصابة الطائرات وتفجيرها وهي في السماء. ومع ذلك أثبت انتشارها الشجاع على الأقل أن العدو لا يملك قوة نيران بعيدة المدى.

تقدم أفراد الفصيلتين صاعدين جانبيّ الحقل. ظلوا في الظلام لكن كشافات طائرات الهليكوبتر كانت تريهم الطريق.

قبل قليل، كان سرادق كويس كوام قد انهار، وسط الكاميرات المحطمة والمقلوبة، وكثير من المعدات والأسلاك التي اختلطت كلها معا في فوضى تامة. في نضالهم اليائس، وجد بعض الناس وكثير من الجرذان أنفسهم محبوسين تحت السرادق، حيث تصاعدت الصرخات المهتاجة للبشر والحيوانات. كان آلاف من الجرذان مازالوا متعلقين بالهيكل الخارجي للسرادق المنهار، بينما طارد آخرون أفراد جمهور وتقنيي كويس كوام عبر حقل الإسخريوطي. سقط الناس على الأرض، في نضال عنيف لتخليص أنفسهم من الوحوش التي تعلقت وتشبثت بهم.

لحسن الحظ، أدرك قائد الفصيلتين على الفور خطورة الموقف. ولم تكن هناك جدوى من الاتصال طلبا لإمدادات. ولا كان منطقيا إصدار

أمر بهجوم شامل بحراب البنادق المشرعة على العدو. فقد كان الأخير كثير العدد جدا، وفي أي هجوم كهذا كانت هناك مخاطرة بأن ينجرح كثير من الرهائن المحتجزين أسفل السرادق أو يتعرضون لما هو أسوأ. لحسن الحظ، كانوا قد أحضروا في سيارة الجيب الثانية شحنة من قنابل الغاز المسيل للدموع، بما أنهم عند مغادرة الثكنات معتقدين أن قراصنة صوماليين كانوا بالفعل يقودون اجتياحا وينقلون شحنة من المهاجرين غير الشرعيين، كانت الخطة هي إطلاق النيران أولا، ثم استهداف تفريق القراصنة عن المهاجرين بعد رش الفريقين بالغاز.

صدر الأمر. وعلى الفور، جرى حمل قنابل الغاز والبنادق الخاصة بها من السيارة الجيب إلى الحقل، حيث وقفت الفصيلتان مستعدتين. أُعطي أمر آخر فوضع كل الجنود على وجوههم أقنعة الغاز. ثم صدر أمر آخر، فاتخذت فصيلة موقعها أسفل موقع السرادق، وصعدت الفصيلة الأخرى إلى قمة التل عدوا، حيث أمكنها من فوقه أن تفتح جبهة جديدة.

والآن، كان حقل الإسخريوطي مغطى من أعلاه وأسفله. طلب قائد العملية من طائرات الهليكوبتر أن تقترب أكثر وتبقي كشافاتها مسلطة على ذلك الجزء من الحقل حيث كان الهياج يتزايد لحظة بعد أخرى، بينما يتقلب البشر والجرذان فوق بعضهم بعضا صارخين صراخا جهنميا. وجرى تنفيذ هذا. مقتنعا أن العدو لن يفهم ما يقوله بالمالطية، حذر القائد مرتين في مكبر الصوت أنه على كل هؤلاء الموجودين في الحقل الابتعاد عن السرادق لأن هجوما بالغاز على وشك البدء في تلك المنطقة.

بعض المشاركين من جمهور كويس كوام كانوا مرتبكين إلى درجة أنهم لم يفهموا شيئا واستمروا في نضالهم ضد الجرذان التي أحاطت بهم وأخذت تتقافز عليهم من كل مكان. وبعض آخر، من بينهم أم العُرّيف

وزوجها، سمعوا النداء وفهموا معناه. جروا مترنحين، والجرذان مازالت تتشبث بهم وتعضهم، عبر بقعة الضوء التي أبقتها طائرات الهليكوبتر ثابتة فوق مشهد الهرج الصاخب. واندفعوا خارجين من الحقل حيث كان من المفترض أن تبدأ المعركة، ومضوا متعثرين في الريف المحيط، المستحم في ضوء القمر الفضي.

وبينما كان التحذير الأول يتكرر من خلال مكبر الصوت، دهش الجنود المنتظرون أمر الهجوم لرؤية أن العدو كان يتلقى إمدادات من أسفل. في البداية ظهر رجل برأس حليق خارجا من حفرة في منتصف الحقل، والذي التفت بعد ذلك ليساعد أربعة رجال آخرين على الصعود.

دون تردد، اتبع القائد التعليمات المدرجة في دليل عمليات حلف الناتو لمكافحة الإرهاب كما جرى تعديلها بعد الاجتماع العسكري التقني الذي انعقد في جولدرز جرين في سبتمبر 2008، والذي روجعت فيه كل الهجمات الإرهابية المعروفة التي حدثت منذ عام 2000. وتم فيه التأكيد على نقطة أنه في كل العمليات الشبيهة، يمكن أن ينشأ أكبر الخطر من لحظات مثل تلك التي ستأتي بعد ذلك، خاصة لو أن الرجال الذين ظهروا للتو في وسط الحقل كانوا محملين بالمتفجرات ومستعدين للقيام بعملية انتحارية. أطاع الجنود المحيطون بالقائد إشارته برفع بنادقهم... وليس قنابل الغاز المسيل للدموع... وتسديدها نحو الرجال الخمسة. وهتف القائد: «ارفعوا أيديكم! خلف رؤوسكم! وإلا سنطلق النار!» قال هذا أولا بالإنجليزية، ثم بالعربية، ثم بالروسية، ثم بالإسبانية، وأخيرا بالشيشانية.

في حيرة نظر الرجال حولهم. ورغم أنه كان مازال تحت التأثير الطاغي لما مر به للتوّ، إلا أن السيد لورينتي مانيسكالكو اربد وجهه لمعاملته بهذ الأسلوب غير اللائق. «أنا هنا...»

«فقط اخرس وافعل كما يقولون لك!» همس هاردهيد الذي كان تقريبا أول من أدرك ما كان يحدث. رفع يديه. «سنشرح لهم لاحقا!»

لكن السفاح الذي كان يحتفظ طوال عمره بولاء للغته الأم، شعر أن الوقت قد حان للانغماس في نوبة من الغضب الهيستيري، مع عرض من السباب المدهش. «ما الـ*** الذي يجري *** من قِبل هؤلاء ***»

«اخرس يا غبي!» قالها له هاردهيد. «افعل فقط كما نفعل، إذا لم تكن تريد أن تتمزق إربا!»

رفع الخمسة كلهم أياديهم عاليا خلف رؤوسهم.

ضجيج طائرات الهليكوبتر... صراخ الجرذان الحاد... نشيج وصياح أفراد جمهور كويس كوام... اصطفاق الأسلحة المرفوعة في وضع الاستعداد من قبل الجنود... كان كل شيء يساعد على تغذية الاضطراب الذي عم حقل الإسخريوطي. كل هذا حير الرجال الذين صعدوا من البئر، والذين كانوا مشوشين بالفعل من محنتهم خلال الساعتين الأخيرتين.

أصدر القائد إشارة أخرى فقام جندي بتسليط شعاع بالغ القوة من الضوء على الرجال الخمسة. «قفوا صفا واحدا..» تابع القائد، مكررا توجيهاته باللغات الخمس التي ينبغي استخدامها في حالات الإجراءات المكافحة للإرهاب، وفقا لدليل جولدرز جرين. «والآن إلى الأمام سر كما أنتم... ابقوا وجوهكم في الضوء مباشرة...»

بأيديهم مرفوعة عاليا، وبعيون مبهورة من الضوء المسلط على وجوههم، سار الرجال الخمسة صامتين نحو صف الجنود المرتدين أقنعة الغاز، والمستعدين لإطلاق النار لدى أدنى شك. وعندما وصل الرجال إلى صف الجنود المنتظرين وتأكدت هويتهم، لم يُهدر أي

وقت في الأعذار أو الاعتذارات الأخرى فاقدة المعنى. حتى لورينتي مانيسكالكو أدرك أنه في الوضع الحالي كان أفضل شيء فعله أن ظل صامتا ونسي أمر الإهانة التي تعرضت لها كرامته. كانت كل الأسباب متوافرة للإسراع وإنهاء العملية في أقرب وقت ممكن، وبالتأكيد قبل أن يبدأ الصحفيون في الوصول.

صدر الأمر. وانطلقت قنابل الغاز من أعلى ومن أسفل الحقل إلى بقعة الأرض الوسطى الضخمة، التي أضاءتها كشافات الهليكوبتر، حيث كانت آلاف فوق آلاف من الجرذان تعدو في جنون.

ليس من الضروري هنا أن ندخل في تفاصيل كيفية تطور هذه المعركة وكيف انتهت. في دقائق قليلة، تقدم الجنود المرتدون أقنعة الغاز من كتلة الجرذان المتلوية تحتت تأثير الغاز المسيل للدموع. ووسطهم كان هناك أيضا بعض أفراد جمهور كويس كوام من سيئي الحظ الذين لم يتبعوا توجيهات القائد، ممن انحبسوا تحت السرادق أو كانوا مازالوا منخرطين في قتال مرعب للهروب من الجرذان المفترسة.

ربما بدلا من قول أن أنه جرى الانتصار في المعركة أو خسارتها، فإن الأدق قول أن مذبحة قد وقعت. فقدت آلاف الجرذان حياتها بأكثر الطرق الدموية التي يمكن تخيلها. قلة منها تلك التي تمكنت بعيون متقرحة بفعل الغاز من تفادي حراب وهراوات الجنود والهروب إلى الحقول المحيطة. ولم يكن لدى جيش الجرذان أي احتياطي آخر ليقوم بهجوم مضاد. وسرعان ما كانت هزيمته تامة.

ثم بدأت عملية التطهير لعلاج الجرحى والمذعورين، وتنظيف المكان... وعلى الفور وصلت شاحنتان لتحميل جثث الجرذان وأخذها إلى حيث يمكن التخلص منها. وأعيدت طائرات الهليكوبتر إلى القاعدة. وسرعان ما تمكن السيد لورينتي مانيسكالكو من استعادة الاعتراف

بمكانته الرسمية الهامة، وهبطت مركبة في الحقل منتظرة لتقله إلى اجتماع عاجل للغاية مع السلطات العليا، والذي تمت الدعوة إليه فورا.

بعد قليل من انتهاء المعركة، وعندما كانت المنطقة كلها مازالت تفوح برائحة الغاز المسيل للدموع، رغم أن أدخنته كانت تتبدد ببطء في النسيم الذي هب من البحر والساحل، وصل بروفيسور ديلينجر وبروفيسور والي أحمد، يلهثان بانفعال. وأدركا على الفور أنهما وصلا بعد أن فات الأوان.

«أين برتراند؟» تساءل ديلينجر.

وقف الآخرون في مجموعة منفصلة... هاردهيد، لورينتي مانيسكالكو، القائد... جاك، المخرج الذي تعاقد معه فريق كويس كوام من أجل هذا المساء، والذي كان ضائعا تماما... كانوا جميعا يحاولون أن يُسمعوا صوتهم، متلهفين على معرفة تفاصيل ما حدث... أفزعهم تساؤل البروفيسور، وهم واقفون في البقعة التي أضاءها كشاف الدبابة التي قادت قافلة الجنود إلى هذا المكان. وعبر الحقل، رقدت الجرذان تنتفض، جريحة أو في سكرات الموت، متكومة على بعضها البعض – لكن انتفاضها كان يضعف مع الوقت.

وقبل أن يتمكنوا من الرد على سؤال ديلينجر، وقد بدا أن البروفيسور منفعل وقلق جدا، قال صوت من وسط الظلام المحيط: «لقد اختفى. كنت أتتبعه طوال الوقت... لكن قبل أن يبدأ الهجوم بقليل... فقدت أثره.»

التفتوا إلى الصوت. من بين الظلال، خرج الأب تيمي لينضم إليهم. كان يتلوى تقريبا بينما الانقباضات العصبية التي لم يتمكن أبدا من التغلب عليها كانت ترجه الليلة من وسطه إلى كتفيه بعنف أكبر من المعتاد. وومضت عينا القس بانفعال غامض.

«أنا فقط لا أعرف لماذا وضعت بوني الماكياج له بهذه الطريقة، هي عادة لا ترتكب مثل هذه الأخطاء..» قال جاك. «عندما بدأنا التصوير، لم يكن يمكنك تقريبا أن تتعرف عليه. لقد انقلب كل شيء الليلة رأسا على عقب... بدأنا بتلك الأضواء و... لكن الآن، يجب أن يخبرني أحد ماذا أفعل... لا أعتقد أن بإمكاننا الاستمرار في العرض في ظل هذه الظروف...»

وهاردهيد الذي عادة لا يدع الأزمات تحبطه، انفجر في ضحكة عالية حتى بدا أنه يختنق بها.

«يجب أن نجد برتراند، بأسرع ما يمكننا..» قال ديلينجر.

«وبوني! أين بوني؟» قاطعه بوريس، وقد شعر بالذعر، ليس لأول مرة اليوم، لأنه لم ير بوني في أي مكان.

«أهلا! انظروا ماذا يحدث هنا!» هتف القائد، وأشار إلى ذروة حقل الإسخريوطي وبستان الخروب الذي ظل متسربلا بالظلام. لكن الآن كان الضوء يملأ كل جنباته.

«ما هذا؟!» تساءل جاك المخرج مندهشا، وهو يحك ذقنه. «كيف حدث واشتغلت هذه الأضواء هناك أخيرا؟»

ربما لأنهم رأوه قبل جاك، كان الآخرون يحدقون في هيكل الرجل الذي وقف أمام البستان يطل على حقل الإسخريوطي من علٍ. كان يمكن رؤية شكله بوضوح شديد على خلفية أشجار الخروب، التي بدا أنها صارت كتلة من الظلال المرتعشة، تتأرجح أمام الضوء الأصفر للمصابيح التي عادت تعمل لسبب غامض ما، وقد أحاط بها إطار من نور القمر الفضي. كان الرجل يقول شيئا وتردد صدى صوته في أرجاء الموقع بأكمله. حتى الجنود المرتدون لأقنعة الغاز والقفازات الضخمة

وهم يكومون جثث الجرذان بالمجارف في أكوام كبيرة، توقفوا لينظروا نحو البستان.

«ما هذا!» تساءل جاك بدهشة متعاظمة وهو يحك ذقنه. «حتى الميكروفونات تعمل الآن بكفاءة. ومنذ قليل، كانت ميتة تماما!»

«اجروا! اجروا بسرعة! إلى تلك الأشجار!» صرخ ديلينجر بطريقة هيستيرية. وللحظة، تجاهلوه.

.61

أنصتوا جميعا كالمسحورين، رغم أن أحدا منهم لم يفهم ما كان يقوله الرجل – باستثناء ديلينجر ووالي أحمد. دوَّى الصوت بكثافة في الحقل وكأنه يصدر عن رجل متمكن تماما من إملاء الأوامر الصارمة. وتأرجح تنغيم كلماته بين الخشونة السريعة للغات السامية، والرنين المتكرر للغات المستخدمة في طقوس مطولة منسية. كانت كلماته منسوجة من مرثيات وأناشيد وحشية تحتفي بذكريات رحلات بحرية جريئة. كان ما أعلنه هذا الرجل من قمة الحقل يبدو جليلا وعصيا على التفسير، لكنه بعد ذلك أنهى رسالته بضحكة شيطانية. تحدث بالكاد أكثر من دقيقة، لكنهم شعروا جميعا وكأنهم استمعوا إليه دهرا. وبمجرد أن أنهى ما كان يريد قوله، اختفى الرجل في البستان. لكن أصوات ما كان يفعله هناك، حتى أنفاسه الثقيلة، كانت تلتقطها الميكروفونات التي ماتت أغلب الليلة وبدا الآن أنها تعافت تماما. أمكنهم سماع حفيف أغصان يأتي من قلب البستان. لم تكن الريح هي ما تهز هذه الأغصان. شخص ما لديه قوة مارد كان يكسرها تكسيرا.

«اجروا! سريعا! تلك الأشجار!» كرر بروفيسور ديلينجر يائسا.

هذه المرة، وبينما كان يتكلم، أسرعوا جميعا... باستثناء جاك، المخرج المتعاقد مع كويس كوام، الذي نظر إليهم في ذهول وهو يحك ذقنه... وتسابقوا عدوا بين البراميل الكبيرة المليئة بجثث الجرذان، وعبر بقايا أدخنة الغاز المسيل للدموع، نحو بستان الخروب. تمتم

جاك لنفسه وهو مازال يحك ذقنه: «لكن ذلك الرجل... بالتأكيد كان ذلك برتراند؟ ماذا يفعل هناك بالأعلى؟»

وبينما كانوا يعدون نحو البستان، علا صوت اللهاث المذاع عبر الميكروفونات، وكذلك ضجة الأغصان المنتزعة والمهتزة بعنف. ثم سُمعت صرخة عالية، مشربة بالعذاب، ونخرة كبيرة وكأن شخصا ما يشهق آخر أنفاسه. ثم أتت ضجة أخرى كما لو أن غصنا يرتطم بأغصان أخرى، وصرخة، وصوت غريب جعل دماء كل من سمعه تتخثر – وكأنه نسيج يتمزق، وبداية صرخة أخرى تغيرت فجأة لتصبح بداية شهقة بكاء، ثم لا شيء، إلا من صوت الأغصان وهي تتأرجح وتضرب بعضها بعضا...

قبل أن يصلوا إلى البستان، الذي قبع في هدوء رهيب، كانت الأضواء قد ماتت من جديد. وبالتأكيد أيضا، لا بد أن الميكروفونات حذت حذوها. مذعورين شعروا أنهم خطوا إلى عالم مختلف تماما: عالم منفصل عن الضجيج الصادر عن الجنود الذين كانوا يطهرون حقل الإسخريوطي من الجرذان الميتة ويقدمون الإسعافات الأولية لأفراد جمهور كويس كوام... شعروا أنهم معزولون تماما عن أصوات سارينات سيارات الإسعاف التي كانت تقترب بسرعة كبيرة من زنوبر قادمة من بعيد... وجدوا أنفسهم وحدهم، يواجهون البستان المظلم الصامت.

كالعادة، كان هاردهيد أول من اتخذ المبادرة. كان مازال بحوزته المصباح اليدوي الذي أخذه معه خلال الحملة داخل أنفاق زنوبر. أضاءه وسار داخل البستان. وفجأة، علا صوته بسباب أقذع مما أخرجه من قبل في حياته. كان شيء صلب ما قد ضربه ضربة موجعة على رأسه.

تراجع خطوة متأهبا لضرب من ضربه أيا كان. تدلى أمامه حذاء امرأة هو الذي اصطدم به. كان الحذاء في قدميّ امرأة. تراجع هاردهيد

خطوة أخرى وسلط مصباحه على الساقين. ورغم صلابة هاردهيد، إلا أنه تجمد في مكانه وحدق فيما رآه. سقط المصباح من يده وبدأ يصرخ كالمجنون. وسرعان ما تحولت صرخته إلى نشيج عميق. اقترب الآخرون من خلفه، والتقط ديلينجر المصباح ورفعه نحو أغصان الخروب، حيث كان هاردهيد يحدق.

تعلقت بوني مشنوقة من رقبتها في غصن الشجرة. كانت ميتة، متصلبة، حلقها مشقوق، على صدرها بقعة حمراء كبيرة، والدم يسيل هابطا على جسدها، وقد بدأ بالفعل يجف بينما تكونت أسفلها بركة كبيرة إلى حد ما من الدماء. حدقوا فيها مصدومين تماما. أدار ديلينجر شعاع الضوء نحو وجهها. بدا شاحبا للغاية فوقهم، وعيناها جاحظتان، وذقنها بارزة إلى الأمام لتخفي جزئيا ذلك الجرح العميق الذي امتد من أذنها إلى الأخرى.

في الصمت الذي حلَّ، أمكن سماع صوت جديد، وكأنه صوت قطرات تتساقط. تبادل والي أحمد وديلينجر النظرات. كانا يعرفان بالفعل ما كانوا على وشك اكتشافه. خلف المكان الذي تدلت منه بوني بخطوات قليلة، وفي مساحة مكشوفة صغيرة بين أشجار الخروب، كان ما أمكنهم رؤيته في البداية قطرات غليظة تسقط في مجرى رفيع إلى بركة على الأرض. كانت دماء. رفع ديلينجر مرة أخرى مصباح هاردهيد ورأوا أن الدم كان يتساقط من جثة شخص تدلى هو أيضا مشنوقا من غصن شجرة خروب... ولم يكن الجسد قد غدا جثة منذ وقت طويل، حيث كان مازال بالإمكان رؤيته ينتفض قليلا، والدم السائل منه كان مازال طازجا. كان برتراند، مشنوقا مثل بوني من رقبته، وقد تناثر على وجهه كله دم أحمر داكن. وانفغر جرح واسع من تحت إحدى أذنيه، قاطعا ما تحت ذقنه وممتدا إلى الأذن الأخرى دون أن يكمل طريقه كاملا... رغم أن الحلق كان مشقوقا، كما كان مقصودا. وقرب بركة الدماء على

الأرض، كانت سكين خبز قد سقطت.

«ماذا يجري هنا؟ ماذا حدث؟» تساءل السيد لورينتي مانيسكالكو. لم يكن يتوقع بأي شكل هذه المشكلة الأخرى. وفي الحقيقة كان يتطلع إلى لقاء ذي أهمية قصوى غدا مع المذيع التليفزيوني.

وبينما كان بروفيسور ديلينجر يدير ضوء المصباح اليدوي أعلى الجسدين المتدليين، مر شعاع الضوء بوجه برتراند، وهتف شخص ما... بوريس: «هذا ليس برتراند! هذا ليس هو!»

على سبيل التحقق، أدار البروفيسور ضوء المصباح عائدا إلى وجه الرجل المشنوق، بجرحه الرهيب الذي مازال طازجا وينز دما من تحت ذقنه. وعلى الفور فهموا... كان وجه المذيع التليفزيوني مغطى بتجاعيد سميكة عميقة، وكأنه وجه محارب قاتل بشدة لأعوام طويلة تحت شموس محرقة وغضب واحترق وانغمس في جرائم قتل ومذابح... وقد احتفظت عيناه الجاحظتان بضحكة باردة وشرسة، قبل أن يطفئهما الموت. كان وجه برتراند وفي نفس الوقت ليس وجهه. حتى هؤلاء الذين لا يعرفون القصة كاملة كما نعرفها، شعروا أن أحدا ما قد دخل جسد برتراند واستولى على جزء من وجهه، إن لم يكن عليه كله...

«لقد أطاع بوتو-رع أخيرا أوامر بعل والفينيقيين الذين انضم إليهم. سيجد السلام.» كان والي أحمد يهمس تقريبا، لكنهم تمكنوا جميعا من سماعه بوضوح في الصمت الذي أحاط بهم داخل البستان - صمت لم يكسره إلا صوت الدم الرتيب وهو يسقط قطرة قطرة في البركة التي تجمعت أسفل جسد المذيع التليفزيوني المتدلي.

ظلوا صامتين. وفي الخارج، ليس على مبعدة كبيرة، بدت أصوات السارينات بكامل طاقتها مع وصول سيارات الإسعاف والشرطة إلى

حقل الإسخريوطي. أما السيد لورينتي مانيسكالكو، الذي استعاد من جديد غرائزه كموظف رسمي دؤوب جدا، فهمس بسؤاله إلى بوريس، الذي تصادف وكان واقفا قربه: «من هذا الذي تحدث للتوّ؟»

أخبره بوريس.

«ليس بإمكاننا أن نفعل شيئا آخر..» قال بروفيسور ديلينجر، بصوت مرهق ومحبط. إذا كانت هذه هي ثمرة المعرفة، هكذا دار بخلده، فأي فائدة من المعرفة؟... إذا كان مقصودا بكل شيء أن ينتهي في تكرار لجريمة القتل الأصلية البدائية، فما الجدوى...؟ وكأن وجود ومعرفة الإنسان لا يمكن أن يتكونا إلا من هذا: الموت... هكذا كان الأمر دائما، وهكذا سيبقى دومًا... لأن ثمرة المعرفة فاسدة... وإذا كان الأمر كذلك، فما الفائدة...؟ من الواضح أنه كان يعاني مرة أخرى وبقوة بالغة من الهموم التي أحس بها في الليلة الماضية في المختبر. لكنها الآن فقط تحولت من أوهام إلى حقائق. كانت تأملاته تثير أسئلة قاسية وصعبة. وربما لم يكن هو الوحيد الذي يطرحها. فإلى جواره، بدا بروفيسور والي أحمد مكتئبا كذلك. بدا وكأنه قد صار فجأة أكبر سنا، إلا إذا كان يشعر أيضا بآثار الليلتين الماضيتين اللتين لم يقضهما فقط في الأنشطة الأكاديمية التي تتطلب أقصى الالتزام، بل قضاهما أيضا في مطاردة لمتع الجسد.

«لا، هناك شيء آخر يجب علينا أن نفعله..» قال الأب تيمي. كان واقفا في آخر المجموعة وخطا الآن إلى الأمام. بكوعيه، شق طريقا بين لورينتي مانيسكالكو والسفاح؛ الذي كان محافظا على قربه من المسؤول الحكومي. مضى القس أسفل الجسدين المتدليين. ومن جيب ردائه الكهنوتي، أخرج قطعة من القماش وفردها. كانت وشاحا برتقاليا، أحاط به جسده.

«ماذا تفعل؟» تساءل ديلينجر.

«فلتبقيا فميكما مغلقين، أنتما الاثنان!» أجابه دون تيمي، متوترا وغاضبا جدا. «ألا تريا إلى أين أتيتما بنا، كلاكما بعلمكما! والآن اسمحا لي... إن لم يكن من أجل الحياة الأبدية... فعلى الأقل من أجل الحياة المدنية! كان يوسيبيوس الأنطاكي هو من كتب أنه حتى هؤلاء الذين يموتون يأسا لا بد مع ذلك أن يُمنحوا العزاء الأخير.»

«الطقس الأنطاكي؟» احتج ديلينجر مندهشا. «لكن كيف يمكنك؟ إنه لم يُستخدم منذ قرون. في مجمع نيقية الأول...»

«الطقس الأنطاكي يوظف ابتهالات كان يستخدمها الفينيقيون في معابد بعل... إنه الطقس الوحيد الذي كان يفعل هذا... كان محاولة لإيصال الرسالة المسيحية الأولى إلى أهل صور وصيدا..» همس والي أحمد.

«لهذا وضعه مجمع نيقية الأول تحت التحريم الدائم..» تابع ديلينجر.

«وماذا يعني كل هذا؟ لا شيء!» أجابه دون تيمي. وأخرج كتابا صغيرا مغلفا بالجلد، من جيب آخر في ردائه الكهنوتي. «فيمَ تهتمان بالنزاعات الصبيانية للاهوتيين القدامى؟ تتظاهران بفهمكما للعلم وانظرا أين وصلتما بنا! تراجعا وراءنا... أيها الشيطانان! اتركاني الآن أمنح العزاء الأخير لهاتين الضحيتين البائستين لعلمكما!»

لم يحاول أحد إيقافه. فتح دون تيمي الكتاب المغلف بالجلد وبدأ يقرأ الشعيرة الثانية لصلاة الغروب من الطقس الأنطاكي لأجل هؤلاء الذين ماتوا ميتة قاسية. وهي شعيرة تستند إلى صلوات كان يتلوها الكهنة في معبد بعل الرئيسي في الأيام التي كان يجري فيها إعدام أسوأ المجرمين. وحول قس الأبرشية، ظل كل الحاضرين صامتين

باحترام، بعيون مطرقة وهم ينصتون إلى كلمات الشعيرة الدينية التي كان يتلوها. كان دون تيمي يتحدث باليونانية القديمة المستخدمة في أنطاكية، في ترجمة من اللهجة الفينيقية التي كانت قد صارت ميتة منذ الوقت الذي أبحر فيه بوتو-رع إلى مالطا.

وبينما كانا ينصتان إلى هذا الابتهال، لم يهمس العالمان بكلمة واحدة. وكأنهما كانا يخشيان أن يفعل الآخرون كالقس ويلقوا عليهما باللوم في كل ما حدث... وربما أيضا، في قرارة قلبيهما، كانا يتفقان مع هذا الحكم، بالرغم من أنهما كانا يعرفان أيضا أن ما حدث لم يكن ذنبهما تماما.

بصبر نافد قليلا، راقب السيد لورينتي مانيسكالكو قلقهما سرا، والسفاح واقف قريبا منه وخلفه. ستكون أعلى السلطات منتظرة تتوقع الحصول على القصة الكاملة منه، أو ما يختار أن يخبرهم به منها، حتى يتمكنوا من إصدار بيان رسمي لوسائل الإعلام.

وبينما كان دون تيمي يقرأ صلواته، التي لم تستغرق أكثر من بضع دقائق، وبينما كان يلقي خطبته بصوت عميق وإن كانت به حدة، باذلا أقصى جهده –دون أن ينجح بالفعل– كي يسيطر على تشنجاته العصبية التي ظلت تصعد في عموده الفقري؛ حدث شيء عجيب.

كان هاردهيد أول من لاحظه. وفي صمت، أشار إلى جسد برتراند المعلق، أو بالأحرى إلى وجهه. نظر الآخرون حيث أشار.

مع بلوغ الابتهال الطقسي الذي كتبه يويسبيوس الأنطاكي نهايته، بدا كما لو أن وجه الرجل الميت مشنوقا بحلق مشقوق كان ينجلي ويصفو. كانت التجاعيد القاسية على وجهه ترق، ثم تلاشت واحدة إثر الأخرى. وعندما اكتمل الطقس الأنطاكي، صار وجه الرجل المعلق ذي

الحلق المشقوق، والذي كانوا يرونه أعلاهم، مرة أخرى وجه برتراند الذي يعرفونه. كانت بشرته ناعمة، وعكس الوجه من كل مسامه الاستفزاز المتغطرس والتكبر المنقولين من مذيعي التليفزيون في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات في القرن الماضي.

«يبدو مثلما كان عندما أطلقنا كويس كوام لأول مرة..» تمتم هاردهيد والدموع في عينيه. «لم يؤمن بنا أحد وقتها. وحصلنا بالكاد على إعلان واحد تافه من القطاع الخاص... وتمكنا من هذا فقط بمساعدة الوزراء، وأفضلهم فلوريندو...»

أزاح الأب تيمي الوشاح عن كتفيه، وأغلق الكتاب المغلف بالجلد، واستدار وغادر البستان دون كلمة واحدة.

من جميع الاتجاهات ظهر الآن تحت أشجار الخروب رجال شرطة وجنود وطاقم تمريض... وربما أول صحفيين، أحدهما يحمل كاميرا... تلا ذلك حالة من الفوضى حيث احتشد الناس تحت الجثتين المعلقتين.

في الوقت نفسه، اخترقت أنهار من الضوء الظلمة التي كانت عادة تغطي الطريق الساحلي. كان المزيد من سيارات الإسعاف والشرطة تقترب مطلقة سارينَاتها بأقصى صوتها. وظهرت أيضا سيارات خاصة، تجلب نحو زنوبر أناسا سمعوا كيف أن شيئا مثيرا يحدث هناك، وأن فريق كويس كوام متورط في الأمر... وبما أنه لم يكن لديهم شيء أفضل ليفعلوه، غادروا بيوتهم ليروا ما كان يجري. وسرعان ما انسد الطريق الساحلي بسيارات متكدسة لصق بعضها البعض. ومع توقف الجميع عالقين، صار نفير السيارات المحبوسة في صفوف امتدت من كيلومتر إلى اثنين ممتزجا مع عويل السارينات. وعلى ما يبدو استدعى أحدهم طائرات الهليكوبتر من جديد، لأنه كان من الممكن سماع هدير

محركاتها وهي تقترب فوق البحر المضاء بنور القمر.

لحق ديلينجر ووالي أحمد بالقس في منتصف الطريق أسفل الحقل.

«قبل أن تأتي إلى هنا، كنت تعرف ما سيحدث..» قال ديلينجر. «ولهذا أتيت بالوشاح الخاص بالطقس الأنطاكي.»

«كنت أعرف. عندما جاء برتراند والشابة التي كانت معه... بوني... لحضور القداس الذي أقيمه لأبناء أبرشيتي في زنوبر، حدث شيء غريب جدا. ليس فقط أن ستيفن حضر... وهكذا أدركت أن ستيفن لم يعد معنا... لكن جميعهم... عندما دخل هذان الاثنان... أقصد برتراند والمرأة... ظلوا مكانهم... لم يغادروا. كانوا يعرفون ما سيحدث قريبا، وكانوا بالفعل يتقبلونهما كاثنين ينتميان إليهم.» التفت الأب تيمي إلى العالمين، وعيناه كبحيرتين سوداوين من الشك والخوف والاشمئزاز.. لكنه لم يكن يعلم حقيقةً هو نفسه ما تعنيه شكوكه ومخاوفه واشمئزازه. «كان ينبغي أن أخبرهما... لكني كنت مذهولا جدا من ظهور ستيفن... لم أكن أعرف هذا...ولو كنت قد أخبرتهما، كانا سيسخران مني... كانا سيظنانني مجنونا!»

وأسرع القس هابطا الحقل، نحو أبرشيته، وهو يتحرك منتفضا، مثل جندب أسود كبير؛ كما وصفه ناردو.

«أيها السيدان، أود أن أتحدث معكما مبكرا صباح الغد..» قال السيد لورينتي مانيسكالكو من خلف البروفيسورين. التفتا إليه. كان بصحبته السفاح وجوني ديب، وقدم نفسه إليهما.

«نعم..» قال بروفيسور والي أحمد بحماس. «المجمع الموجود بأكمله تحت البستان المقدس لهذين التلين هو ببساطة مجمع فريد... وعلى مستوى عالمي هو مؤهل بالتأكيد ليكون موقعا له قيمة عالمية

وتاريخية، وفقا لمعايير اليونسكو. يجب عليكم أن تولوا هذه الأبنية الاهتمام اللائق... افتحوها للأبحاث العالمية. إن الضريح الفينيقي وحده سيتيح أفقا غير مسبوق للبحث التاريخي الجديد فيما يتعلق...»

«أنا آسف، لكني لا أتفق معك تماما..» رد المسؤول الحكومي بقسوة. «ستكون نصيحتي لأعلى السلطات بما يعني أننا ينبغي أن نحيط هذا المجمع بالأسوار... ونتأكد أن أحدا لا يدخله قط، على الأقل طوال المائة عام المقبلة. إن هذا المكان يحمل تهديدات أكثر من اللازم للأمن الوطني. ناهيك عن حقيقة أننا لن نملك تمويلات كافية لنتمكن من فعل أي شيء ذي قيمة هناك... تذكروا المشاكل التي واجهناها مع معبد الهيبوجيوم وبرج النيفتي والكاتدرائية! أنا فقط لا أريد أن نمر بكل هذا مرة أخرى!»

«تحيط بالأسوار الضريح تحت التلين!؟» هتف البروفيسوران في صوت واحد تقريبا، وقد أصابهما الرعب.

«لو كان القرار بيدي، لصببت الخرسانة عليها كلها مرة وإلى الأبد. وبنيت فوقها عمارات شقق فاخرة... هذا ما كنت لأفعله! آه نعم، فلنقل إني أمزح...! لكن على أي حال، ستكون هذه نصيحتي: فلنبقها مغلقة. ومع ذلك، ليس هذا ما كنت أريد أن أحدثكما عنه...»

«سيكون بوتو-رع قد نجح تماما في تحقيق هدفه..» تمتم والي أحمد، مفزوعا من الكلام الذي سمعه للتوّ. «كان يريد أن يؤمن لنفسه ولرفاقه متعة الراحة الأبدية في مدافنهم، دون إزعاج من أحد... إن كان يمكنكم أن تقولوا على مرقدهم مكانا للراحة... ستكون هذه خسارة فادحة للعلم.»

هز المسؤول الحكومي كتفيه غير مهتم.

«حسنٌ، ماذا أردت أن تخبرنا به إذًا؟» تساءل بروفيسور ديلينجر.

وقد بدا عليه الشك فجأة.

«أعتقد أن بروفيسور والي أحمد... بروفيسور، هكذا تدعو نفسك، صحيح؟... أعتقد أن وجوده هنا بيننا يخالف قواعد الشنجن. لا أعرف بعد إن كان هذا هو الحال، لكن علينا غدا أن نتأكد.»

«يخالف قواعد الشنجن؟ ألا تعرف أن بروفيسور والي أحمد هو أبرز خبير عالمي في التاريخ الفينيقي؟... وأنه تمت دعوته إلى هنا ليكون معنا بواسطة السيد مالكولم أوروري، رئيس المعهد الوطني للثقافة، بمباركة من الوزير؟»

«أعرف، أعرف، وأعلم أيضا أنه خلال تلك الأيام الأخيرة كان السيد أوروري في أجازة في صقلية وينبغي أن يعود غدا. لكننا بحاجة لمناقشة الأمر كله مرة أخرى... ليس فيما يتعلق بأوروري، بل فيما يتعلق بتلك المشكلة الناشئة عن انطباق قواعد الشنجن على السيد والي أحمد. والآن يجب أن أترككم لأنه مازال عليّ أن أحضر اجتماعا ذا أهمية قصوى الليلة وسأحتاج بالتأكيد إلى الذهاب بعد ذلك وفي أسرع وقت إلى المستشفى وأحاول أن يتم تعقيمي... آه، وأنتما أيضا..» أكمل السيد مانيسكالكو، مائلا نحو السفاح وجوني ديب. «من الأفضل أن تفعلا نفس الشيء. لا بد أن تلك الجرذان كانت مليئة بالبراغيث ومن يدري بأي ملوثات أخرى... من الأفضل أن نتطهر في أسرع وقت ممكن. أنا بالفعل أقوم بمجازفة بذهابي هكذا أمام أعلى السلطات الليلة، قبل أن يتم تعقيمي... فليحُل الله دون أن أنقل لهم الطاعون... لكن التقرير الذي يجب أن أقدمه لا يمكنه الانتظار.»

رافق السفاح وجوني ديب السيد مانيسكالكو إلى الطائرة الهليكوبتر التي كانت تنتظره، ومراوحها تدور بالفعل. وقبل أن يخطو تحت المراوح ليركب إلى جوار الطيار، تذكر المسؤول شيئا ذا أهمية قصوى

كان مازال بحاجة لإتمامه: ذلك الشاب، أين كان ذلك الشاب؟ لحسن الحظ لمحه ليس بعيدا، يحدق حوله بجمود.

كان بوريس مازال تحت تأثير الصدمة، محاولا أن يتعافى من آثار ما مروا به للتوّ. ظل قريبا من هاردهيد، رغم أن هاردهيد الليلة ووسط هذه الفوضى كان يبدي بالكاد تلك الثقة بالنفس التي كانت سمته المعتاد. بدا منطفئا قليلا، أو بدقة أكبر كان منطفئا جدا. وعلى أحد الجوانب، فوق كومة من الجرذان الميتة التي كان سيجري نقلها بعيدا بعد قليل في برميل، لمح بوريس وحشا أسود كبيرا. ورغم الجروح التي حملها في بطنه، المقلوبة كأنها مشقوقة نصفين، كان مازال حيا ويحدق فيه، في بوريس، بعينين محمرتين من الغضب والتحدي. تعرف بوريس على الوحش... سبارتاكوس. رفع خطمه وكأنه يؤكد التحدي في عينيه. أشاح بوريس بوجهه والتفت مبتعدا لأنه لم يرد أن يشهد عذاب الجرذ وهو يمضي نحو نهايته المريرة.

إلى جانبه وجد السفاح الذي كان قد اقترب منه ليرافقه إلى المسؤول الحكومي، كما طلب الأخير.

كان الاثنان الآن واقفين معا، قرب العاصفة الصغيرة التي كانت تثيرها مراوح الهليكوبتر فوق هذه البقعة الصغيرة من حقل الإسخريوطي.

«مازلت أذكر حديثنا منذ قليل..» قال مانيسكالكو. «ليس لديّ وقت أضيعه ولن أتلاعب بالكلمات. أعرف أنك اخترقت حواسيب سفارتنا في بروكسل. وهذا شيء كنا نحاول أن نفعله منذ وقت طويل من مكاتبنا، دون نجاح. لو أمكنك مساعدتنا حتى نستطيع أن نفعلها أيضا... سأعرف كيف أكون شاكرا للجميل...» ظل الشاب صامتا، يفكر فيما كان يقال له. لكنه كان أيضا مشتتا من الضجة الحادثة ودفقات الرياح المحملة بآثار حادة للغاز المسيل للدموع التي كانت المراوح الدوارة تبعثها

نحوهم من الهليكوبتر. علاوة على ذلك كان بوريس مازال مصدوما من الخبرات التي مر بها... وعندما رأى مانيسكالكو هذا، تابع حديثه: «لقد تحدثت بهذه الصراحة تماما مع رئيسك... فليسامحه الله... لكن هل يمكن ألا يكون قد أبلغك؟ هناك أسباب هامة... لست بحاجة للخوض فيها هنا... وراء اهتمامي بهذا الموضوع... دون التوهان في التعقيدات القانونية وما إلى ذلك. عملي... كما قد تفهم، يتجاوز أي قانون... ولهذا أريدك أن تساعدني... أن تساعدنا...»

بالفعل لم يتمكن بوريس من فهم لماذا، دون حتى أن يحلم بهذا من قبل، قفزت هذه الإجابة إلى شفتيه: «لم يكن لديّ أدنى اهتمام بمن يخترق أو لا يخترق حواسيب السفارة أو أي مكان... ما يهمني هو الحصول لفتاتي على عمل كدبلوماسية في السفارة. لديها كل ما يلزم للقبول، ورغم هذا فإن شخصا آخر لا يملك حتى نصف مؤهلاتها، شخص نكرة بالمقارنة بها، جرى اختياره. إذًا لماذا ليس هي؟ هذا هو ما يهمني!»

تفحص السيد لورينتي مانيسكالكو الشاب بوريس بنظرة تقييمية. كان يشبه ثعلبا ينظر عن قرب إلى سلة تركها أحدهم في منتصف مرج مفتوح، وقد تصاعدت منها رائحة لحم طيب. ومع ذلك، كان هناك ذلك الشك المزعج في أن هذه السلة يمكن أن تكون فخا. ربما وضعت خلية نحل داخل هذه السلة، وما إن تضع خطمك فيها، حتى ينفجر هذا الشيء كله في دفقة من اللدغات اللاذعة لوجهك كله... وأخيرا قال: «اسمع، ألن يكون من الأفضل أن نجري بيننا محادثة ودية... كما اقترحت؟ غدا سأرسل إليك. وفي النهاية، إذا لم تجد فتاتك وظيفة في السفارة، هل ستكون كارثة كبيرة لو بدلا من ذلك... دعنا نقل، حصلت على وظيفة جيدة في المعهد الوطني للثقافة؟»

ودون أن ينتظر سماع رد من بوريس، ترك المسؤول الكبير تابعه السفاح يرافقه إلى الهليكوبتر، التي كانت تنتظره منذ وقت لا بأس بها الآن. وكان العشب على الأرض حولها قد تبطط تماما، بعد أن تعرض للوطأ مرة بعد مرة.

عاد بوريس لينضم من جديد إلى هاردهيد. كانت كومة الجرذان الميتة وعلى قمتها سبارتاكوس قد أزيلت. نظرا معا إلى الفوضى التي كست كل أنحاء حقل الإسخريوطي والتي انتشرت فيما وراءه إلى الطريق الساحلي. في السماء، انخفضت الطائرات الهليكوبتر الثلاث التي ظهرت منذ قليل في ناحية، بينما ارتفعت الهليكوبتر التي حملت السيد مانيسكالكو إلى اجتماعه العاجل عالي المستوى في الناحية الأخرى.

«انتهى كويس كوام..» قال بوريس، وهو يغالب دموعه. «بوني... جيانينو... برتراند...»

وسط ذلك النشاط المحموم، شعر كلاهما باليتم، بالانقطاع التام عن بقية العالم.

«لا!» قال هاردهيد أخيرا. «مازلنا هنا، أنت وأنا، يا بوريس. لا بد أن نتمسك بالثقة في نفسينا! سنقيم كويس كوام من جديد... سنجعله أفضل، أفضل بكثير مما كان عليه من قبل...»

مذهولا حدق بوريس في صديقه.

«لا يجب أن نفقد الشجاعة! قط... لا بد أن نحافظ على رأسينا مرفوعتين! ولا يجب أن نخاف الظلام! غدا... غدا سيكون يوما جديدا... وسيكون هناك زمان ومكان لنا... معا، سنصعد كل جبل!»

وبينما كانت الهليكوبتر تقوم بصعودها البطيء، أطل السيد لورينتي مانيسكالكو من هذا الارتفاع الكبير يسارا، حيث كان القمر الآن قد صار أصفر وكان مكشوفا تماما، ونظر إلى المشهد بالأسفل، حيث كانت تتحرك الأضواء في كافة الاتجاهات. كانت المركبات وظلال الناس تنتشر حول الجزء السفلي من حقل الإسخريوطي، الذي أصبح نقطة التجمع لسيارات الإسعاف والمدرعات وسيارات الجيب وسيارات الشرطة. وفي الأعلى باتجاه قمة الحقل، حيث كانت أشعة ضوء أبيض تخترق البستان المقدس، كانت الفرق الطبية والبوليسية تقوم بأعمالها الروتينية، كما هو متوقع منها أن تفعله في مكان حدثت فيه أبشع جرائم القتل. بعد ذلك، وبينما كانت الهليكوبتر تصعد أكثر إلى أعلى، وقبل أن تبدأ في التحرك نحو الموقع السري الذي كان مخططا أن يقابل فيه المسؤول الحكومي أعلى سلطات الدولة، كان بمقدوره رؤية أضواء السيارات والشاحنات العسكرية الأخرى تحيط ببيت آل تونًّا الريفي، مستعدة لغزو السراديب أسفل البيت الريفي وإخلاء بقايا الجثث الأربع التي مازالت موجودة هناك. وتمكن من رؤية خطوط طويلة من الضوء تتلوى بطول الطريق الساحلي حيث تكدست آلاف السيارات.

إن القصة بأكملها، هكذا فكر السيد لورينتي مانيسكالكو، ستثير ضجة هائلة في البلاد. ومع ذلك، ربما لا تراها السلطات التي سيناقشها معها شيئا سيئا على الإطلاق؛ لأنهم لو تمكنوا من تقديمها بشكل بنَّاء -لنقل من المنظور الإيجابي حول كيف كانت قوات الأمن الوطني فعالة وكفؤة- فيمكن أن يخلق هذا تحولا في الاهتمام بعيدا عن المشاكل الضخمة المتعلقة بالقضايا التي تؤثر على جيوب الناس والتي تحظى طوال الوقت باهتمام بارز. كانت تلك هي المرة الأولى التي تخطر فيها هذه الفكرة على بال السيد لورينتي مانيسكالكو، وأدرك أنه كان من الأفضل أن يفكر فيها قبل أن تصل الهليكوبتر إلى وجهتها. المشكلة

كانت أنه منذ قليل، بدأ يشعر بحكة ودغدغة في مناطق حساسة معينة من جسده. أحس بالقلق من أن يكون برغوث مغامر قد وصل بالفعل إلى أماكن كان ينبغي أن يعتبرها محرمة. لا بد أن يذهب إلى المستشفى ويتم تعقيمه في أسرع وقت ممكن. وكي يصرف تفكيره عن هذا الإحساس المزعج الذي أخذ يزداد قوة مع كل لحظة، حدق المسؤول الحكومي بثبات في الفوضى الهائلة التي كانت مازالت سائدة حول حقل الإسخريوطي.

.62

عند رصيف الميناء الذي وصل إليه القطمران[32] القادم من صقلية عند الغروب، كان الناس يغادرون متحركين إلى بيوتهم أو إلى فنادقهم. كانت السفينة اليوم ممتلئة إلى حد كبير، وكان الطريق أسفل الحصن مزدحما بالناس والمرور. ومع ذلك، وجدت السيارة الرسمية مكانا للوقوف ودون مشاكل كثيرة، وتمتع الرجل الجالس في المقعد الخلفي برؤية جيدة جدا للمسافرين الخارجين. «ها هم ذا..» قال. «هل يمكنك أن ترى ذلك الرجل شديد الأناقة، الممتلئ قليلا، مع تلك المرأة الشابة قليلا التي ترتدي معطفا فاخرا؟... والرجل ذا القبعة الرياضية الذي يحمل حقائبهما؟ نعم الرجل الذي يحمل حقيبة الأوراق الصغيرة... فعلا، هي ليست صغِيرة جدا. هذا هو الرجل. اذهب إليه، لا تقلق، قل له إني أرسلتك... نعم، أَظهر له البطاقة التي أعطيتها لك، أتفهم؟... وائت به إلى هنا. أَدخله ودعنا نجري حديثا هادئا. ولتبق منتظرا عند الزاوية، أسفل الحصن.»

غادر جوني ديب السيارة وأسرع نحو الأشخاص الثلاثة الذين كانوا قد مروا الآن عبر البوابة وكانوا يقتربون من سيارة ليموزين من النوع الذي يعجب رؤساء أجهزة الدولة. وعندما وصلها، كان السائق؛ وهو الرجل الذي كان يرتدي القبعة، قد وضع الحقائب بالفعل في صندوق السيارة. مد جوني ديب يده ببطاقة التعريف وهو يقدم نفسه إلى الرجل

32- قارب مزدوج في هيكل واحد.

الممتلئ الذي كان يتفحص الحقائب وهي تُشحن في السيارة وإن ظل محتفظا في يده بحقيبة الأوراق التي أمسك بها عند مغادرة السفينة. دخلت المرأة السيارة بينما سار جوني والرجل عبر زحام المسافرين والأقارب. وصلا السيارة التي كان السيد لورينتي مانيسكالكو ينتظر فيها. فتح جوني الباب من الناحية الأخرى وانضم الرجل إلى المسؤول الحكومي؛ وكان يلهث بقوة.

«أعتذر إليك عن إحضارك إلى هنا هكذا، أتصور أنك تتعجل الذهاب إلى البيت..» قال السيد لورينتي مانيسكالكو بأرق صوت في مخزون شخصياته المسرحية. «لكني لم أستطع أن أدع الموضوع الذي أريد مناقشته معك يسير بشكل خاطئ. آمل أني لم أفزعك بإرسال هذا الشاب هناك، هو واحد من رجالنا الجدد... لكن السائق الذي يعمل عادة معي لم يستطع الحضور الليلة. كان عليه أن ينظم عشاء من القواقع البحرية والأرانب في مطعمه من أجل فريق كرة القدم في قريته، ولم أستطع في الحقيقة أن أجعله يخسر مثل هذه المناسبة الطيبة لكسب بعض المال.» كان الرجل الجالس إلى جواره شاحبا للغاية. والتمع العرق سائلا على وجهه، من جبهته إلى قفاه. كان مازال يلهث بقوة. «قل لي، كنتَ في صقلية، أليس كذلك؟...»

«نعم..» أجاب الرجل، مبتلعا ريقه مرارا. «كنا أنا وزوجتي هناك خلال الأيام القليلة الماضية...»

«آمل أن تكونا قد استمتعتما بالرحلة.»

«كثيـ... كثيـ... كثيرا جدا...»

«أنا سعيد بمعرفة هذا. كانت لي فرصة الحديث عنك مع صديق مشترك... برتراند كاسباه، مقدم برنامج كويس كوام الشهير، لكن

فلينعم عليه الله بالراحة الأبدية، ينبغي أن أقول هذا الآن. لعلك سمعت بالمأساة الفظيعة التي حدثت أمس.»

«نعم..» رد الرجل بصوت مختنق، وهو يحتضن حقيبة الأوراق بقوة. «في القطمران كان الجميع يتحدثون عنها!»

«هذا متوقع! هذه قصة، فظيعة... لا توجد كلمة أخرى لوصفها. بطريقة ما كان ما حدث مرتبطا أيضا بالمعرض الخاص بالفينيقيين الذي تقيمونه عندكم في المعهد الوطني للثقافة...»

«فعلا؟ كيف يمكن هذا؟» بدا رئيس المعهد مندهشا جدا من هذا الخبر، وربما كان مفزوعا أيضا، لكن مانيسكالكو أحس أنه لو كان الرجل الآخر خائفا من شيء ما عندما دخل السيارة، فيبدو أن ذلك الخوف قد تراجع في ضوء المنعطف الذي اتخذه الحديث.

«نعم، وكان متورطا في الأمر كله ذلك البروفيسور الذي أتيتم به من الإسكندرية... والي أحمد...»

«لكن اسمح لي سيد مانيسكالكو أن أشير إلى أننا جئنا به بإصرار واضح ومباشر من الوزير نفسه...»

«أعرف.»

«والبروفيسور الذي تشير إليه هو أبرز خبير عالمي في الفينيقيين...» تابع أوروري وقد بدا أن طبقة العرق التي كانت تغطيه بدأت تجف.

«أعرف. لكن هكذا حدث وتورط، نعم بالفعل، وأنا آسف لقول هذا، في جوانب معينة مما حدث ليلة الأمس...»

«أنا آسف فعلا لسماع هذا...»

«لم يتورط فقط في جوانب معينة... لكن أكثر من ذلك، لدينا أسس للشك في أنه متورط في تجارة الرقيق الأبيض... وكي أكون أكثر دقة: تهريب نساء من أوكرانيا.»

«أؤكد لك أنه لم يكن لدينا أدنى معرفة بكل هذا.»

«وكي تزيد الأمور تعقيدا، فإن وجوده هنا بيننا... ووصوله... كان بالمخالفة لقواعد الشنجن. اضطررنا لترحيله من البلد عصر اليوم.»

«هذا خبر أعرفه منك لأول مرة يا سيد مانيسكالكو. لم يخبرني أحد بأي شيء. كانت السيدة فلورا بيتا لوكا مسؤولة عن الترتيبات خلال غيابي. آمل أنها لم تفسد الأمر كله، لأنها أحيانا يمكن أن تكون بليدة بعض الشيء، ولا أقول غير كفؤة...»

«لا أرى الأمر هكذا. كانت السيدة بيتا لوكا ذات عون عظيم لنا في القيام بتحرياتنا. وإذا أمكنني أن أكون صريحا تماما معك يا سيد أوروري، فقد كنت أكثر اندهاشا... قليلا... عندما تأملت موقفك. من هذا المنظور: غيابك في وقت تنظمون فيه هذا المعرض... وفي وجود هذا الضيف الخاص هنا... ليس منطقيا تقريبا.»

«نعم، في هذه النقطة هناك منطق فيما تقول. لكن مضى وقت طويل منذ وعدت زوجتي باصطحابها لزيارة أقربائها في (مارزوتُّو ديل ڤالي). لم أستطع أن أخذلها... هذه المرة...» دخلت لمحة من قلق جديد على صوت رئيس المعهد، وكأنه يخشى أن تنحو محادثتهما من جديد نحو منطقة خطر ما.

وعندئذ قرر المسؤول العمومي الدخول في الموضوع. «نعم، لقد سمعت عددا من الروايات عن رحلتك إلى صقلية..» قال. «والرواية التي وجدتها أكثر تشويقا كانت تلك التي قدمها لي صديقنا المشترك: برتراند

المسكين... قبل أن يواجه مصيره. عرفنا منه بأمر... إمم، المشروع... الذي كنتما تنفذانه سويا في صقلية...»

«مشروع؟ أي مشروع؟» غطى العرق من جديد جبهة أوروري.

«سيد أوروري، أنا وأنت لسنا بحاجة للعب ألعاب القط والفأر مع بعضنا البعض..» قالها السيد مانيسكالكو، ودون إرادة منه.. لدى ذكر نوع من القوارض انفلت اسمه من بين شفتيه قبل أن يلاحظ ما يحدث، ارتجف فجأة، وكأنه يعاني من البرد. «أنت وبرتراند كان لديكما مشروع يعمل بشكل جيد، ولهذا ذهبت إلى صقلية في تلك الأجازة التي جاءت في التوقيت الخاطئ، أليس كذلك؟ لأنه في تلك الأثناء كان المعهد الوطني للثقافة ينظم معرضا عن الفينيقيين...»

«يجب أن تصدقني، أنا لا أعرف ما الذي تتحدث عنه..» تمتم السيد أوروري. كان العرق يسيل من جبهته ورقبته في قطرات كبيرة.

«كم كيلوجرام لديك في حقيبة الأوراق تلك؟»

«ماذا؟» كان وجه رئيس المعهد الوطني للثقافة قد غدا قناعا من الرعب.

«أؤكد لك..» تابع السيد لورينتي مانيسكالكو، ببرود ورقة في الوقت نفسه. «أنه في سبيل المصلحة الوطنية أنا حريص على تجنب كل الفضائح. لقد نلنا ما يكفي من فضائح خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية ولا يستطيع شعبنا التعامل مع زلازل أكثر من هذا. لهذا سأخبرك الآن بما يجب عليك أن تفعله من أجلنا كي تحل بهدوء هذه المشكلة التي نواجهها. ولنبدأ بسؤال: ما قيمة ما تملكه في حقيبة الأوراق تلك... أقصد بأقل قيمة له في الشارع، هل هذا هو التعبير المناسب؟»

لبث السيد أوروري في عذاب للحظة وهو يحاول ابتلاع ريقه قبل أن يرد هامسا: «حوالي نصف مليون...»

«يورو؟»

«جنيه مالطي قديم... إنه من أعلى نوع... كان برتراند كاسباه يقول إننا إذا كنا سنمضي في أمر كهذا، فمن الأفضل أن نستهدف الأعلى.»

«وهكذا انتهى به الأمر، عاليا جدا. لا حاجة لي كي أذكرك أن العقوبات التي سنها المشرعون لجريمة من هذا النوع هي من بين الأقسى لدينا في قانون العقوبات. خاصة عندما يتم القبض على شخص في مكانتك *متلبسا*.»

«أنت لا تفهم. هذا مجرد خطأ، سوء تفاهم... لا أعرف ما أخبرك به برتراند لكن...» بدا أن أوروري في حالة ذهول مما كان يحدث له؛ جحظت عيناه وسال العرق من كل مسام جسده. وأخذ ينظر حوله، داخل السيارة، خارجا في الشارع، حيث كان الحشد الهابط من القطمران مازال كبيرا. بدا كأنه يبحث عن ثغرة للهروب وأينما نظر وجد سدًا. التفت إلى المسؤول العمومي وقال: «أنت لن تدمر حياتي، أليس كذلك؟ أنا بريء تماما...! برتراند هو من جعلني أفعل هذا... فعليا أجبرني عليه...! لن تفعل هذا بي؟ ماذا سيحدث لي؟»

«لقد أخبرتك بالفعل، سيكون من الأفضل أن نتجنب كل الفضائح. ويمكنني أن أخبرك بما يجب أن تفعل. أولا: هذه الحقيبة: أعطني إياها وسأرى ما يمكن فعله بها. ثانيا: سيكون عليك أن تستقيل... قبل عصر الغد بحد أقصى... من منصبك كرئيس للمعهد الوطني للثقافة ومن كل المناصب الأخرى التي تشغلها في الدولة. ثالثا: في خطاب استقالتك سيكون من المناسب لو زكيت بقوة شديدة تعيين السيدة بيتا لوكا

مكانك كرئيس للمعهد، لأنه في رأيك المعتبر هي الأفضل استعدادا لتنفيذ الواجبات الهامة المرتبطة بهذا المنصب بقدرة وكفاءة.»

«لكن كيف يمكن هذا...؟! ماذا سيحدث لي؟!» كان أوروري مذهولا مصعوقا من انقلاب الأحداث. «سيلحق بي العار!»

كان السيد لورينتي مانيسكالكو متعجلا ولم يُظهر أي رحمة. «ربما كان يمكنك مراعاة هذا قبل أن تشارك في هذه المغامرة..» قال. «ومع ذلك لو لعبناها بشكل صحيح، لا، لن يلحق بك العار. في الحقيقة، أنا مستعد في أقرب فرصة عندما تُمنح جوائز الدولة أن أرشحك بنفسي لجائزة. لا تنتظر أن تصبح حاصلا على وسام الدولة العسكري، ها، ها!... ربما يتذكر أحدهم ذات يوم ويرشحني لهذا... لكن ماذا عن ميدالية لخدمة الجمهورية، للاحتفاء بعملك الرائع في مجالات الثقافة والمعرفة...؟ يمكننا التمادي إلى هذا الحد. وعادة ما يكون لتزكياتي في هذا المضمار ثقلها.»

في الدقائق القليلة التي قضياها معا، كان السيد مالكولم أوروري قد أصبح حطاما؛ كان يبكي كطفل رضيع، وكانت قطرات الدموع والعرق تتساقط معا على قميصه.

«لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك..» قال السيد مانيسكالكو. «ماذا ستفعل؟ هل ستعطيني هذه الحقيبة؟»

ببطء، وكأنه يتخلى عن أعظم كنز أمسك به في حياته، ناول أوروري الحقيبة وهو ينشج لمانيسكالكو الذي قبض عليها بقوة طائر جارح يقتنص طعاما حيا كان يشتهيه منذ زمن طويل. «ماذا ستفعل بها؟» تساءل رئيس المعهد، ما بين شهقات بكائه.

ابتسم المسؤول العمومي ابتسامة عريضة: «لا تقلق بشأن هذا. في

الحقيقة، نسيت أن أخبرك بشيء آخر أوده منك. غدا صباحا، ائت إلى مكتبي بورقة في مظروف، واكتب على الورقة من فضلك، ولا تترك أي علامات مميزة، أسماء الأشخاص الذين كنت على اتصال بهم في صقلية، بالإضافة إلى عناوينهم. واغلق المظروف جيدا. أفهمت؟»

حدق أوروري للحظة في الظلام خارج السيارة والحشد العابر. ثم أومأ برأسه، مخنوقا بعبراته.

«لقد قلنا كل ما كان يجب قوله..» قال لورينتي مانيسكالكو، وهو يمسك حقيبة الأوراق بإحكام كما كان يفعل رئيس المعهد عندما دخل السيارة. «لطفا من فضلك وأنت عائد إلى سيارتك الليموزين، هل يمكنك أن تقول لذلك الشاب الذي قاد بي السيارة إلى هنا والذي رافقك إليها أن يعود...؟»

أومأ أوروري مرة أخرى بطريقة آلية أن نعم، والتفت ليغادر. وفجأة، بدأ يبكي من جديد. «ماذا سأقول لها الآن؟ ماذا سأقول لها؟» قال متأوها.

«تقول لها؟ من تقصد؟»

«زوجتي. وعدتها أن أشتري لها عقدا ماسيا في عيد الفصح... والآن... ماذا سأقول لها؟»

عندما ابتسم، كشف مانيسكالكو كل أسنانه الثعلبية. «يا صديقي..» قال. «كنت أتوقع من شخص مثل سيادتك أن يكون قد تعلم الدرس. لا تعِد امرأة أبدا بأي شيء... مهما كانت... أي شيء لست واثقا تماما تماما تماما من قدرتك على تقديمه... لكن في النهاية، لا أريدك أن تعتقد أني وحش. أنا أفهم مشكلتك. كم سيكلف هذا العقد؟»

«عشرون ألفا.»

«يورو؟»

«جنيه مالطي قديم.»

ساد سكوت قصير. «حسن جدا، سنرى أمر هذا. خلال أسبوعين أو ثلاثة سيصلك مظروف فيه المال... نقدا. طاب مساؤك.»

فتح السيد أوروري باب السيارة، ودون كلمة، سار بخطى ثقيلة نحو جوني ديب.

.63

... أخفت فلورا خيبة أملها: لكن ألا يصبو كل إنسان إلى تلك اللحظات من النشوة... وعندما لا تحدث...؟ ربما كان الخطأ خطأها بعض الشيء في النهاية. كانت تحس أنها أقل طاقة من المعتاد، بعد أن تناست أن تأخذ هاتين الشمتين العميقتين اللتين اعتادت أخذهما من قبل... كانت مازالت لا تحس بقرب كافٍ من لوري. وستكون مخاطرة أكبر من اللازم أن تقضي اللحظة أو اللحظتين الإضافيتين في الحمَّام اللازمتين لإتمام عملية شمها (بالتأكيد كان ليدرك ما كانت تفعله!) وهي لا تعرف كيف سيكون رد فعله. بأمانة، كان يخيفها قليلا، أو لعله كثيرا، لأنه كان من الواضح أنه رجل معتاد على السلطة، وفلورا تعشق مثل هؤلاء الرجال. لقد أبهرها وكاد يحبس أنفاسها منذ قليل وهما يتحادثان ويرشفان الويسكي في حجرة الجلوس بشقتها، عندما أبلغها بهدوء أنها ستعيَّن قريبا رئيسة للمعهد الوطني للثقافة بدلا من السيد أوروري، الذي سيعلن استقالته الوشيكة.

وبينما كانا متمددين إلى جوار أحدهما الآخر في الطرف العميق من فراشها الكبير الدائرى، حكت جسدها بلطف في جسده، مفضلة أن تفكر فيما أبلغها به منذ قليل، بدلا من التفكير في أمور أخرى... مثل الحقيقة العجيبة التي أطفأت جذوتها بمجرد أن لاحظتها... تلك الرائحة الضعيفة جدا للديتول التي كانت تفوح من جسده كله، من رأسه إلى أصابع قدميه. تمنت أن تكون هذه رائحة مؤقتة، وليست ملمحا دائما

فيه... ترى من أين كانت تأتي؟... لم تكن أبدا من قبل مع رجل يذكرها كثيرا بالمراكز الطبية.

«أعجبني هذا جدا..» كان لورينتي مانيسكالكو يقول، وهو نصف مغطى بالبطاطين ويغوص بأطرافه أكثر فيها. كان مستعدا إلى حد كبير للمبالغة في متعته، لكنه أحس بإرهاق كبير. وغدا سيكون يوما طويلا بما أنه جاء على بال أحدهم أن يصدر قرارا بوجوب عمل جنازة رسمية لضحايا مأساة حقل الإسخريوطي... لأن هذا ما كانوا يستحقونه. ربما كان ينبغي عليه أن يؤجل هذا اللقاء مع فلورا. كان يمكنهما أن يلتقيا في وقت آخر، لكنه كان يؤمن دائما أن الفطيرة ينبغي أن تؤكل وهي ساخنة وحديثة الخبز، رغم أنه من ناحية أخرى، إذا كانت مازالت أسخن من اللازم، فقد تحرق جوفك.

«حسن، وأنا أيضا، كثيرا جدا!» أجابته، محاولة أن تمحو الانتقاد الصبياني بعض الشيء الذي مر بخاطرها عندما لمحت أطرافه العارية لأول مرة. كان ذراعاه وفخذاه وكذلك بقية ساقيه بهما بعض النحول، في الحقيقة كانت هزيلة جدا على ذوقها... في نهاية الأمر، هو لم يعد رجلا في زهرة شبابه. وفي عالمنا هذا، لا يمكنك أن تنال كل شيء، والرجال الذين مازالوا أصغر سنا من اللازم صاروا يضجرونها مؤخرا. ولهذا كان برتراند يشعل شهوتها كثيرا؛ لأنه لم يكن طفلا ولا عجوزا... بيد أنه في عالمنا هذا أيضا، لا ينبغي للمرء أن يضيع الوقت في الندم على ما فات... ما حدث لبرتراند قد حدث، وكي يعيش المرء الحياة جيدا، لا بد أن يتطلع إلى المستقبل...

«لديك فعلا مكان لطيف هنا..» هتف لورينتي مانيسكالكو وهو ينظر حوله مبتسما، ويداه تستكشفان ما كان موجودا تحت الغطاء.

«أوه! أجمل ما أجده في هذه المنطقة هو الهدوء..» جاوبت فلورا

ابتسامته، وهي غير متأكدة فعلا إن كان يشير إلى ذلك الجانب من (سليمة) حيث تعيش، والذي أصبح بالفعل هادئا كالقبور، ربما لأنه لا يوجد غير العجائز يعيشون في المنطقة وأصبح صف السيارات مستحيلا. أم أنه كان يشير إلى أثاث حجرة النوم الذي استثمرت فيه طوال العامين الماضيين؟ أم ربما كان يقصد المكان الذي كانت أصابعه تستكشفه؟ لذا تابعت فلورا: «هذا هو المكان الذي آتي إليه لأكتب تلك الرواية التي ذكرتها. عندما تقبل ماما أن تعتني بطفليّ: ساندر وخريستو... وأكون وحيدة تماما، آه، أكون ذاتي حقا... وحيدة!... هنا آتي لأكتب.»

«أفهم..» قال السيد مانيسكالكو، بينما استكشافاته تحت الغطاء تغدو أكثر إلحاحا. ألم يكن هذا ما هو متوقع منه؟ تساءل وهو يجاهد التثاؤب.

تقلبت فلورا على جانب، مبتسمة ابتسامة عريضة. بالتأكيد لم تكن تريد أن تطفئ شهوته، لكن في هذه اللحظة كان أكثر ما تود أن تفعله هو أن تكتب خمس فقرات أخرى أو نحو ذلك. «أتعرف ما يمكننا أن نفعله؟» قالت مقترحة. «دعني أقرأ لك فقرة مما وصلت إليه في الرواية. ويمكنك أن تخبرني برأيك فيها!»

«نعم، لم لا؟» أجابها، عازما على إرضائها. «لكن ينبغي أن تعرفي أن مهاراتي تكمن في كتابة التقارير، وليس الأدب.»

«سأذهب لآتي بالمخطوط..» قالت وابتسامتها تزداد اتساعا. ومع ذلك، لم يكن بمقدورها أن تجازف بالذهاب إلى الحمَّام بعد لتقوم بواحدة من عملياتها في الشم...

كانت الرؤية الكاملة لها وهي تغادر الحجرة قد ساعدته على الأقل

في تقليل هواجسه بشأن ما كان يفعله الليلة. فكر قليلا فيما إن كان ينبغي أن يذكر الآن ذلك المشروع الذي كان يداعب أفكاره. من بين أشياء أخرى، سيتمكن قريبا من شراء أربع شقق فاخرة، فخمة الأثاث، كان يضع عينيه عليها منذ زمن طويل في (عقارات الحديقة الدانمركية الكثيفة). تفكر السيد لورينتي مانيسكالكو أيضا فيما يمكنه أن يفعله بواحدة من هذه الشقق في الفترة السابقة على بيعها مرة أخرى. كان عليه أن ينتبه كي لا يتورط في أي التزام من أي نوع مع أي شخص، لكنه في الوقت نفسه أحس بدغدغة إغراء أن يدعو شخصا مثل فلورا إلى واحدة من هذه الشقق لتمنحه بعض الصحبة. فبما أنه تمكن من تأمين كومة محترمة من المال، لم لا ينبغي عليه أن يستمتع ببعض الرفاهية؟ وعلى الملأ، كان يعامل زوجته بكل الاحترام الواجب، لكن وجودها قد صار منذ زمن طويل خبرة مملة كان عليه تحملها حتى يموت، أو تموت هي.

عندما عادت فلورا بملف الرواية بين ذراعيها، وجدته تائها في هذه التأملات. ورغم إرهاقه، إلا أن وصولها أثار فيه أفكارا جديدة حول ماذا وأين يستكشف. ومع ذلك، أصرت فلورا على الجلوس إلى جانبه وهو متمدد، بينما يظل هو هادئا ويستمع إليها وهي تقرأ من حيث وصلت في كتابتها. شرحت له كيف أن بطلة الرواية، شابة ما اسمها لوسي، كانت تزور عمتها إيميليا التي تعيش في قرية (بيردنبريدج) في مقاطعة (سِري). كانت إيميليا متزوجة من طبيب مالطي، كارلو أو تشارلز، مات في شبابه في بيردنبريدج. بعد وصول لوسي بقليل، تصطحبها عمتها إلى جبانة القرية لزيارة قبر الطبيب الراحل. وخلال هذه الزيارة، أوضحت فلورا، يقابلان السيد ويتل، عمدة بيردنبريدج، الذي كان أيضا رجل أعمال معروفا في المنطقة. إلى هذا الحد وصلت توضيحات فلورا

قبل أن تبدأ في القراءة من الأوراق التي كانت لديها في ملفها.

أنصت السيد لورينتي مانيسكالكو إلى شرح فلورا، وأخفى قلة حماسه لما تقوله تحت ابتسامة رفيعة. كان يمسك في يد كأس الويسكي الذي جلبه إلى هنا من حجرة الجلوس، وباليد الأخرى كان يداعب ظهر فلورا العاري الذي كان به الكثير من المزايا والمتع. تركته يداعبها بينما هي تقرأ بحماسة عظيمة، ممثلة كل كلمة وعبارة تقرأها، كأنها خارجة من أعماق روحها. أنصت إلى صوتها واستمر في حساباته: تلك امرأة ستنفق كل ما في حوزة المرء لو أعطاها المرء شيكا على بياض. كانت بحاجة إلى رجل حازم ليقودها، وبإمكانه فعل هذا، هكذا فكر بقوة. كان يريد أن يستمتع بالأموال الإضافية التي ستجيء، دون أن يدعها تتحول إلى فوضى أو مأساة... كان الصمت في حجرة النوم والشقة والعمارة كلها رهيبا وباعثا حقا على الاسترخاء، هكذا خلص المسؤول العمومي. كان هذا هو ما يحتاجه بالضبط فيما يتعلق بالراحة، بعيدا عن ضغط واجباته الرسمية الضخمة. ومع ذلك، صادف أن ما كانت فلورا تقرأه بدأ بشكل ما يلقي ظلا فوق تأملاته: كان السيد ويتل يحكي للوسي وإيميليا عن الجبانة التي كانتا في زيارتها وكيف أنها بحاجة للصيانة.

لسبب غريب ما، فشل السيد لورينتي مانيسكالكو في فهمه، تراءى أمام عينيه بينما كانت فلورا مستمرة في القراءة، ذلك الهيكل البعيد الذي رأوه عند قمة حقل الإسخريوطي... الرجل الذي كان يشبه برتراند صاحب برنامج كويس كوام الشهير، لكه كان يتحدث بصوت غليظ بلغة لم يتمكن أحد من فهمها، صوت جهوري يلقي بيانات لن تتأتى لأحد الفرصة للتحقق منها باستخدام التقنيات الموجودة، أو تلك التي قد يتم اختراعها في المستقبل. كان من الممكن سماع صوت فلورا،

وهي منطلقة في قراءة قصتها، وكان المسؤول العمومي الآن يشعر بالانزعاج، بالقلق، بالحكة... كان قد لاحظ بالفعل أن هذا الشعور ينتابه عند ذكر الفئران أو الجرذان... لأن السيد ويتل في المقطع الذي كانت فلورا بيتا لوكا تقرأه من روايتها (التي حصلت لاحقا على الجائزة الأولى في المسابقة المقامة لأفضل رواية مالطية في العام) كان يصف كيف أن الفئران والجرذان في جبانة بيردنبريدج كانت تحفر أنفاقا تحت الأرض لتصل إلى القبور المدفون بها المواطنون المحترمون في تلك القرية السعيدة، وتصنع منهم وجبة طيبة. كان انزعاج السيد لورينتي مانيسكالكو حادا فعلا، لكنه لم يكن متأكدا من الطريقة التي يمكنه بها إيقاف فلورا من الاستمرار في قصتها. في حماستها الفنية، بدت له أشبه بعروس شعر عارية سقطت إلى جانبه من لوحة ما رسمها تيتيان... أم أنه كان رفائيلو؟...

وبينما الاثنان منغمسان في تأملاتهما المنفصلة، استغرق الأمر منهما بعض الوقت ليدركا أن السلام والهدوء اللذين كانا يتمتعان بهما في الشقة يتعرضان لانتهاك وحشي. من حجرة خارجية أتت ضجة أشخاص يتعاركون. فقط عندما وصلت هذه الأصوات إلى الممر خارج حجرة النوم، سمع المسؤول العمومي وفلورا خطوات تقترب. وصرخ صوت امرأة عجوز: «لقد طفح بي الكيل منكما الآن! لا أريد أن أراكما مرة أخرى، أبدا، أبدا!!»

انفتح الباب واندفع ولدان سمينان داخل حجرة النوم، يضرب أحدهما الآخر ويصرخان. وكذلك كانت السيدة والدة فلورا بيتا لوكا. في الحقيقة كانت تصرخ بصوت أعلى من الولدين.

«ساندرا! خريستو!» صرخت فلورا.

متلويا في يأس، بذل السيد لورينتي مانيسكالكو أقصى جهده، لكن بنجاح ضعيف؛ كي يختبئ، أو بالأحرى كي يغطي جسده، أو على الأصح كي يكفن ويدفن نفسه في الملاءات والأغطية الموجودة في متناول اليد.

النهاية